الأعمال الكاملة

صلاح عبد الصبور

١١ - الأوراق السّياسيّة



١١ - الأوراق السّياسيّة

إعداد
أحمد صليحة
محمود عبده
أسعد إسماعيل

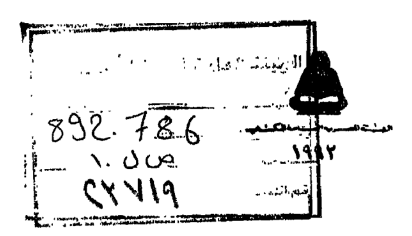
الاخراج الفنى :

راجيه حسين :

الأعمال الكاملة

صلاح عبد الصبور

١١ - الأوراق السياسيّة



نشرت المقالات والدراسات التالية فى الكتب الآتية :

١ ـ افكار قومية ـ القاهرة : ١٩٦٠

ـ كيف عرفنا عروبتنا

ـ العناصر الثلاثة للأيديولوجية العربية

ـ خصائص الانسان العربى

ـ الزمن والثورة العربية

ـ انها ثورة العرب جميعا

ـ فلسفة التخطيط

ـ اشتراكيتنا

ـ الواجب الايديولوجى للاتحاد القومى

٢ ـ قصة الضمير المصرى الحديث ـ القاهرة ١٩٧٢

ـ اليقظـة

- الرجــل
- الشيخ العطار
- المندهش الأعظم
- الأفغانى ومصر
- حديث هذه الطبقة
- ما قبل الثلاثاء الحزين .. وبعده
- الصعلوك العظيم
- بعد الثورة
- فكر الأعيان
- فكر الطلبــة
- بين السكسون واللاتين

الشعب يتقدم المفكرين !

وراء كل ثورة افكار تدفعها ، وتمهد لها ، وقد يحمل هذه الأفكار زعيم الثورة أو زعماؤها وقد تحملها جماعة من الناس ، ولكن هذه الأفكار تكون دائما نابعة من عصرها ، وقد تكون خطة اصلاحية غامضة تتضح خلال العمل الثورى او بعد نجاح هذه الثورة ..

وكثيرا ما يكون فشل الثورات هو نجاحها .

اذ يتحقق كثير مما عجزت الثورة عنه ، وتكون الثورة هى الهزة العميقة التى انضجت القيم الجديدة ، أو التى مهدت لطبقة نامية أن تأخذ دور البطولة ، ولطبقة متخلفة أن تتأخر الى خلف المسرح أو الى مقاعد المتفرجين ..

وقد كان للثورة العرابية افكارها ، وكان لها ايضا رغم فشلها نتائجها الثورية .. فقد كانت اعلانا لنمو طبقة مصرية جديدة قوامها الموظف ومالك الأرض وابناء الأسر والتجار .

وكانت بمثابة الخفقة الأخيرة لطبقة الأتراك والمتمصرين ..

وفى ظل الحكم الانجليزى بعد الثورة نما الاقطاع المصرى ..

وطنيا فى أول الأمر ، ذلك النوع من الوطنية المسالمة الذى يجنح الى الاستقرار ويطالب بالاصلاح البطىء ٠٠ ثم ما لبث هذا الاقطاع أن وجد أن مصالحه تتعارض مع مصالح طبقة أخرى نامية من العمال والفلاحين والأفندية الصغار ٠٠ فمال الى جانب المستعمر ٠٠

ولقد كان لكل من هذه الطبقات مثقفوها ٠ وكان وراء هذه التغيرات كلها أفكار تدعمها ، اذ أن كل مجتمع مهما كانت درجة تقدمه لابد أن يمثل فيه قطاع المثقفين ٠٠ ولقد كان يمثل هذا القطاع فى المجتمعات البدائية الساحر والكاهن والشاعر ، وكان هؤلاء بما لهم من قوة غيبية أو ملكات غير عادية يحتلون فى مجتمعاتهم بمالهم من قوة غيبية أو ملكات غير عاديـة يحتلون فى مجتمعاتهم مكانة أرقى ووضعا أكثر تميزا ٠٠

وفى مجتمع القرون الوسطى كان رجل الدين هو الانسان المتميز الموجه حتى زاحمه رجل آخر ٠٠ لايعتمد فى قوته على الغيب لايدعى الصلة بالله ٠ ولكنه يعتمد على التجربة والنظر فى الأمور بعين العقل ٠ ومن صلب رجل العلم خرج رجل الفكر الاجتماعى ، وهو مفكر واسع النظرة عميقها انصرف عن الغيبيات ، وامتلأ قلبه بالشك والإخلاص ٠

وكان وجود هذا التفكير الاجتماعى بشيرا بالثورات الكبرى ، فما من انقلاب جذرى عميق الا وراءه تيار فكرى دافع ، والثورة الفرنسية مثلا مدينة لفولتير وروسو ومونتسكيو ٠٠ والثورة الروسية عام ١٩١٧ دعا اليها فى منتصف القرن التاسع عشر ماركس وانجلز ٠

وأذكر بهذه المناسبة أن كاتبا انجليزيا كتب فى مطالع الحرب العالمية الأولى فصلا عنوانه : لماذا يحارب الحلفاء ؟ واستعراض كافة الأسباب قال :

« لقد قال رئيس وزرائنا اننا نحارب فى سبيل المسيحية ، ولكن

الواقع يكذبنا لأن الألمان مسيحيون بينما من حلفائنا الأتراك وهـم مسلمون ، والهنود وهم بوذيون ٠٠ وقال بعض الناس اننا نحارب فى سبيل الديموقراطية ٠ والواقع اننا لانستطيع أن نفرض الديمقراطية بالقوة على شعب من الشعوب ٠ والرأى عندى اننا نحارب ضد نيتشه الفيلسوف » !! ٠٠

ضد نيتشه الفيلسوف ٠٠ المبشـــر بالقوة ، الذى يقول ان السلام هو فترة استعداد بين حربين ، نيتشه المســئول عن خلق طبقة اليانكرز الالمان ، وعن التقاليد البروسية العدوانية هذا الرجل الذى مات سنة ١٩٠٠ هو الذى قامت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ لتقضى عليه مرة أخرى ، ولم يمت نيتشه ، بل ازدهر وســيظل يزدهر فى ظل أى ديكتاتورية اعتدائية ٠٠

هذا دور الفكر في الثورات ، أما الثورة العرابية فلم يكن وراءها نظرية فكرية واضحة أو اتجاه موحد ٠٠ ذلك لأن المثقفين المصريين لذلك العهد كانوا ينقسمون الى طوائف ثلاث ٠

« الطائفة الأولى هى مشايخ الأزهر ٠ ولم يكن الأزهر فى ذلك العهد معهدا علميا بقدر ماهو مجتمع شعبى ٠ وكان فيه كل الأنماط من الناس ٠ فيه أولئك الذين يتمسكون بتفســير خاطــئ للآية الكريمة : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ٠

وفيه ذلك الشيخ الذي لاينتقل من داره الا الى عموده في رواق الأزهر غير ملق بالا لصيحات الناس واضطرابهم فى دنياهم ٠

أما النابهون من أبناء الأزهر فقد كانوا يؤيدون عرابى ايمانا منهم بأنه طالب اصلاح ٠ فلما اشتدت الأزمة ، وأصبح الأمــر جدا وكشفت الحرب عن ساقها تخالف موقفهم ٠٠ أما بعضهم فقد ظل على العهد مقيما ٠ ويحفظ لنا التاريخ أسماء رجال منهم طافوا

مع الثورة بالقرى ، وخطبوا بالمساجد واذكر فى هذا المقام أبياتا لشيخ اسمه أحمد عبد الغنى دعا الناس فيها الى الجهاد يقول :

لعمـــرك لـــيس ذا وقـت التصـــابى
ولا وقـــت الســـماع على الشـــراب

ولكـــن ذا زمـــان الجـــد وافـــى
وذا وقـــــت الفتـــــوة والشـــباب

ووقـــت فيـــه الاســـتعداد فـــرض
لتنفيـــذ الأوامـــر مـــن عـــرابى

ومع الشيخ احمد عبد الغنى مشايخ كثيرون من أمثال الشيخ محمود ابراهيم والشيخ محمد أبو الفضل والشيخ حميده الدمنهورى والشيخ سيد المرصفى الذى كتب قصيدة مطلعها ..

يا صـــاح قم واشـــكر الهـــك واحمد
فـــالدين منصـــور علـــى يـــد احمـــد

أما الذين تراجعوا فمنهم الشيخ حمـــزة فتح الله وقد هاجم الثورة حين شبت الحرب . وكان بوقا للخديوى وللغزاة حتى كتب عنه عرابى فى مذكراته ..

« من الأقوال المأثورة عن النبى (ص) انه قال : لاتعلموا أولاد السفلة العلم ، وهو قول حكيم لأنهم يتخذون العلم ذريعة لتضليل العامة ، وآلة للتلبيس على الناس ، ينصرون الباطـــل على الحق ابتغاء حطام يسير ، أو ابتسامة أمير .. ومثال ذلك الشيخ حمزة فتح الله الادكاوى .. الخ » ..

أما الشيخ محمد عبده فهو نسيج وحده .. فقد كان من أنبه علماء الأزهر . وكان واسع الأفق مشغولا بالعلوم الفلسفية الحديثة

مما لايشغل به انداده • وكان وثيق الصلة بعلية المصريين من أهل الرأى معدودا بينهم لذكائه ونباهته ••

أما علية المصريين هؤلاء فقد كان يتوزع زعامتهم رجـــلان رياض وشريف ، وعلى الرغم مما بين الرجلين من اختلاف الا أنهما كانا يؤمنان ـ وبخاصة شريف ـ بالاصلاح الدستورى المشـــروع البطىء ، ويخشيان الطفرة •• وكان شريف أقرب الى النفوس من رياض ، ولكان الى ذلك شديد الاعتداد برأيه وبمذهبه فى الحكم •

ولذلك ايد الجيش وهو يطالب بالاصلاح والدستور وتخلى عنه واختلفت معه حين أراد أن يسوس البلاد ، ذلك لأنه كان ضعيف الثقة بالعسكريين ، كما أنه كان يخشى مغبة الطفرة • وبهذا الفهم يكون شريف هو الأب الحقيقى لجميع الحركات اليمينية الاصلاحية •

وشريف بعد ذلك هو زعيم المعسكر الثانى من المثقفين لهـذا العهد ، ومحمد عبده هو أقرب اليه مما هو الى انداده من رجـال الأزهر •

لذلك نجد الشيخ محمد عبده يطالب بالاصـلاح مع الوطنيين بعيدا عن الحزب العسكرى ، حتى اذا شبت الحرب ، كان مع الناس يضطرب فيما يضطربون ، ونفى الى خارج البلاد ، فندم على أنـه ساهم فى هذه الثورة ، وكتب عن عرابى يقول « انه رجل قـــوى بالأقوال ، ضعيف بالأعمال ، ولقد كانت فتنة » ، ويسعى له الانجليز حتى يصفح عنه الخديوى ، وحين يعود الى مصر ، يصبح صديقا صدوقا لكرومر ، وعونا له على الخديوى عباس الثانـــى . ويقف موقف العداء من مصطفى كامل وصحفه •• كل ذلك لأنه مؤمن أن من رام اصلاحا فلابد أن يهادن الانجليز ، وأن الاصلاح يجب أن ينصرف الى أمور الدنيا • هذه الأفكار القديمة فى الاصلاح البطىء، التى كانت شائعة فى مجالس الكبار والأعيان والوزراء ، وأصـبح

محمد عبده وثيق الصلة بالارستقراطية المصرية الناشئة ، وحليفا للانجليز ..

ويماثل الشيخ محمد عبده فى موقفه ــ على اختــــلاف فى الدرجة ــ أولئك العائدون من الغرب الذين أوفدوا فى بعثات محمد على الى فرنسا مثل على مبارك أحد رواد الاصلاح التربوى فى مصر وخصم الثورة . وعبد الله فكرى الذى أسهم فى الثورة ثــم تنكر لها بعد ذلك ، وسعى الى الخديوى يمدحه بقصيدة يرجو فيها منه الصفح والغفران ..

كان هؤلاء جميعا طلاب اصلاح دســتورى بطىء كرائدهــــم شريف ، لايؤمنون بالعسكرية وطرقها الحاسمة فى مواجهة الأمور ، ولايعتقدون فى قرارة نفوسهم أن الشعب قد وصل الى المستوى الذى يؤهله لكى يصرف أموره بنفسه ، وكان اندماج بعضهم فى الثورة نتيجة لدفع الناس لهم ، أو خشية مواجهة الرأى العام بانتكاسهم ، وحين هدأت الأمور أخذت حياتهم تسير فى مســـــارها الطبيعى ، وحقق بعضهم كثيرا من الاصلاحات الجوهرية فى حقل الحيــاة العامة .

أما الفريق الثالث ، فيمثله أدباتى عظيم .. شاعر شعبى كان تلغرافجى فى قصر احدى الاميرات ، وصاحب مدرسة وتاجرا وشاعرا جوالا وصحفيا ، ثم أدرك وهو وسط الناس أن رسالته الحقيقية هى أن يكون ثائرا ، فطاف مع الثوار فى كل مكان ، يمثل ويهرج ، وينكت ويخطب ، وينشىء الصحف .. وكنت تراه فى الحفلات والاجتماعات والأفراح حتى كان اذا سئل محمد عثمان المغنى « اين تغنى الليلة ؟ » .

يقول : « فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم » .

ولما فشلت الثورة المصرية ، هرب الثائر العظيــم عبد الله

النديم ، واستعان بمقدرته فى المكياج على الاختفاء ، فلما بـان وظهر ، لم يلق سلاحه ·· ومات ثائرا كما عاش ·

هذا الرجل امة وحده ، وشعب ينتفض للحيـــاة دون تعقيد أو تردد ، وانسان مضىء السيرة ، لاتستطيع أن تقارنه الا بالثائر الأمريكى العظيم « توم بين » ، كلاهمــا صـــديق للحرية ، عدو للاستعباد ، يمشى بين الناس ، وقلبه على كفه كالمصباح ··

هذه هى التيارات الثقافية التى كانت تضطرب بينها الثورة العرابية ، تبدو فى أغلب جوانبها متخلفة عن طبيعة العمل الثورى، والأمة لذلك الحين لم تنصهر بعد فى بوتقة واحـــدة ، والتخطيط الثورى غامض ، والحوادث فى كرهـــا سريعة ، لاتـــدع وقتا للاستعداد والتأهب ، والقومية المصرية لم يتحدد مدلولهـــا فى الأذهان بعد ·

ولذلك كانت الخيانة وكان التراجع ، وانقسم الوطنيون على العسكريين ، وحين وزع منشور السلطان باستهجان الحرب زلزل القلوب حتى ان بعض ضباط عرابى هجروه ·· وانكسر عرابى ·

وبمـــرور الزمن نســـى كثير من النـــاس عرابى والثورة والاستقلال والدستور ، واصبحت « هوجه عرابى » حديثا يروى حتى كان مصطفى كامل الذى ايقظ بصيحته الناس ·· اكبر قوة وأشد تماسكا ·

صباح الخير ١٩٥٦/٩/٢٠

مصر هزمت التتار من قبل ٠٠ !

كانت جيوش التتار ، ذلك العنصر الهمجى المتوحش الذى هدم الثقافة والفكر ، وامتهن تراث الانسانية ، تهاجم آسيا منطلقة من قلب القارة ، تنشر الرعب والدمار أينما حلت أو رحلت ٠٠

وقصدت هذه الجيوش البربرية بغداد ، مقر الخلافة الاسلامية وقلب العالم المتمدين فى ذلك الوقت ، فاستولت عليها وقتلت خليفتها ، وألقت بمكتبتها الكبرى فى النهر وأهلكت علماءها ومفكريها ٠٠

ثم انطلقت جيوش التتار ، كاللهب المستمر الذى لا يبقى ولا يذر ٠٠ تهدم دولا وتفنى حضارات وتقتل فى وحشية أطفالا أبرياء ونساء مسالمات دون أن ترعى عهدا لمبادىء الخلق الكريم وهرب الناس أمام هذه الجيوش الزاحفة ، وكان يكفى أن تسمع مدينة أن التتار على أبوابها حتى تلقى السلاح وينطلق أبناؤها هائمين على وجوههم فى الصحراء ، وقد أخذهم الخوف ٠٠ وتملكهم الرعب ٠٠

كانت كلمة جندى تترى تعنى الموت والخراب والوحشية ، وكان على رأسهم رجل اسمه هولاكو يتلذذ برؤية الدم ويطرب أذنيه

عويل النساء الثاكلات وبكاء اليتامى ، وعندما دخل التتار بغداد أعملوا السيف فى أهلها ، فمن أهلها من أحرقته النار ومنهم من ابتلعه النهر ، ومنهم من خـــرج لا يلوى على شـــىء ، وجاوز المدالتترى بغداد الى الشام ، فدخلوا مدنه وأعملوا السيف فى أهله .

لكان غزو التتار هو اللعنة التى انطلقت فى انحـــاء العالم المتمدين ، وموجة التخريب التى لا يقف أمامها سد ، ولكن مصر تصدت لها فصدتها ، وأراحت العالم كله من بلواها .. وحمت السلام والحضارة والتراث الانسانى ..

لقد حفظت مصر ــ من قديم ــ مشعل الثقافة والمدنية لتسلمه للعالم أشد توهجا وبريقا .. وكانت فى هذا تقوم بدورها الخالد الذى أعده لها التأريخ ، وكان ذلك من مئات السنين ..

كانت مصر آنئذ تحت حكم المماليك ، وكان ملكها الملك المظفر أحد مماليك آسيا الصغرى الذين اشتراهم الملك الصـــالح أيوب ليكونوا عدته فى الحرب والجهاد ، فلما قويت شوكتهم سلبوه الملك ..

ولكن الملك المظفر هذا كان طرازا فريدا من المماليك ، فقد كان رجلا شجاعا يحب المصريين ويأنس اليهم . ويســتعين بهم على مكائد أقرانه من المماليك ..

وكان مستشار الملك عالما من أفاضل العلماء هو الشـــيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكان صاحب دين وتقوى ، ولكنه لم يكن يفهم الدين على أنه دوام العبادة والانقطاع عن الناس ... بل كان يدرك أن الدين الحقيقى هو الحرية والجهاد فى سبيلها ، وأن لابقاء للدين .. ولا للفضيلة ولا لأى من القيم الشريفة الخالدة فى ظل الاستعباد ، وكان هذا الشيخ الصالح مشهورا بفتاواه التى

يلزم فيها وجه الحق حتى ولو أغضب الحكام ، فقد كان دائماً يردد قول الرسول « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق »

ولما طرق التتار أبواب مصر من جهة سيناء اهتم الملك المظفر بالأمر ، وغاهد الله والوطن أن ينقذ الانسانية من شرهم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك والخزائن خاوية ولابد من المال وفكر الملك فى أن يضاعف الضرائب على الناس ولكنه آثر أن يستشير ناصحه الأمين الشيخ ابن عبد السلام ، فناداه اليه ، وقال له الشيخ غير خائف ولا وجل « قبل ان تضاعف الضرائب على الناس خذ أموال الأمراء والأغنياء وتسلح بها ، فان لم تكف فخذ الأموال من العامة . وأكبر ظنى أن حلى المماليك ومجوهراتهم تكفى لتجهيز جيش عظيم » ..

وقال له السلطان ، ولكنى أخشى أن أطالبهم بأموالهم فيثوروا علي .

وأجابه العالم المصرى فى حدة ، انها ليست أموالهم ، فقد أتوا الى مصر عبيداً فقراء ، وماهذه الأموال الا أموال الأمة ، ويجب أن تنفق على الأمة ، فاذا لم يستطيعوا أن يدركوا هذا فخذ أموالهم بالقوة فلا حق لهم فيها .

وجمع الملك المظفر المماليك ، وشاورهم فى الأمر . فرفضوا فى اصرار ، وأدخلهم الملك قاعة فى قصره لكى يتدبروا الأمر ويوحدوا رأيهم ، وفى هذه الأثناء كان قد أرسل بعض جنوده ليأخذوا المجوهرات والأموال من القصور ويذهبوا بها الى بيت مال المسلمين ..

ولما رأى المماليك انهم قد أصبحوا أمام الأمر الواقع خضعوا للأمر تحت التهديد بالسلاح .. وجهز الجيش المحارب ..

وانطلق الشيخ بن عبد السلام يطوف بالقرى والمدن يدعو الى الجهاد ، وجند معه كتيبة من العلماء تقوم بدور التعبئة العامة، فهم يقفون فى المساجد والمجامع والأسواق ، يذكرون للناس ماصنع التتار بالدول المجـــاورة من نهب للدور واعتداء على الآمنيـن ، وارهاب وتقتيل وتنكيل ، ثم يذكرون لهم فضل المجاهدين ، وأن الله قد أعد لهم الجنة ، ونودى فى الناس « حى على الجهـــاد ، حى على الجهاد » ..

وخرج كل قادر على الحرب يتبع الجيش ، وقد أخذ معه زاده ومئونته وما قدر على حمله من السلاح يبتغون الموت أو النصر .

وقال مؤرخ ذلك العصر : ان الفسقة قد كفوا عن ارتكاب المعاصى ، وامتنع المدمنون عن شرب الخمر ، وتأثمت العاهرات عن مزاولة البغاء ، ولم يبق للناس حديث الا حديث الجهاد ..

وضربت بعض القرى المصرية أروع الأمثلة فى البذل والعطاء ، فقدمت رجالها ، وأموالها وغذاءها ، وخرجت بأكملها وقد قادت أمامها الخيل والبغال والدواب ، مهاجرة الى المجد .

ونصب الجيش المحارب معسكره فى الصالحية من بلاد مديرية الشرقية الآن ، وتقدمت القوات الأمامية الى حدود الشام .

وأرسل قائد الغزاة انذارا الى مصر يقول فيه « سلموا الينا أرضكم وبلادكم ، وادفعوا لنا قدرا من المال كل سنة ، ولاترفعوا فى وجهنا سلاحا والا أهلكناكم » .

وجمع الملك مشيريه ليفاوضهم فى الأمـر ، واجتمـــع فى مجلسه رسل هولاكو الخمسة ، وبعض كبار المماليك . وكان رأى بعض كبار المماليك أن يتلطف الملك فى الرد على هولاكـــو ، وأن يعده بتقديم المال على الا يدخل بجنوده البلاد ..

وفى تلك اللحظة الحاسمة أندفع صوت الشعب ممثلا فى عالمه وزعيمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول كلمته الخالدة : ان الله تعلى يقول « حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون » وانتم تريدون منا أن نعكس الآية فنعطى نحن الجزية ، ثم التفت الى المماليك وهم واقفون بثيابهم الموشاة وسيوفهم اللامعة ، ومد يده الى زعيمهم فأخذ سيفه وضربه فى الأرض ، حتى كسره ، ثم ألقاه وقال ٠٠ ان السيف الذى يجبن صاحبه عن القتال لخليق أن يكسر ويلقى فى وجه صاحبه » ٠ ثم وجه كلامه الى الرسل قائلا : « قولوا لمولاكم اننا سنقاتل ٠٠ سنقاتل ، سنقاتل » ٠

وعندما بلغت الرسل معسكر قائد الغزاة ، أنبأه برد مصر فغضب وثار لأنه لم يعتد أن يقف أمامه أحد ، ثم نادى جيشه بالرحيل ، وتقدم نحو الكنانة ٠

وخرج الجيش المصرى ليلاقيه ٠

ودارت رحى المعركة فى مكان اسمه عين جالوت ، وهى بلدة قريبة من موقع غزة الحالية ٠

وكانت معركة حاسمة ٠

ووقف الجيشان متقابلين ، وانتظر الملك المظفر حتى كان وقت صلاة الجمعة ، لكى يبدأ المعركة ، والخطباء يدعون على منابر المساجد بالنصر ، ثم أمر بالهجوم ٠٠

وأخذت سهام التتار تخترق جيوش المصريين ، وهم المصريون بالتراجع خوفا من لقاء التتار ، أولئك الجبابرة الذين أذلوا الأمم ونكلوا بالشعوب ، لولا أن صاح فيهم صائح ، مم تخافون ياأحباب الله ، ان القوم بشر مثلكم ، وانتم تدافعون عن أرضكم ، وهم بغاة طغاة ، يبغون لكم الهلاك » ٠

وصوب الرجل سهمه الى أحد جنود التتار ، وأطلق السهم فخر الجندى صريعا ، وتتابعت السهام ، وسقط التتار وتشجع المصريون ..

واستعر القتال بين الجانبين ، وسقط القتلى والجرحى ، واختلط المغير بالمدافع ، وخاضت الخيل فى صدور الرجال ، كل ذلك والمصريون ثابتون فى مواقعهم ، وهم يصرخون صرخات الجهاد ، والكفاح والثأر .

ولجأ العدو الى الخديعة ، فركز هجومه على الجانب الأيمن من جيش المصريين ، وكاد هذا الجناح أن يسقط ، أو يتقهقر تحت وطأة الهجوم ، ولكن أحد القواد فطن الى الحيلة ، فأمر الجناح الأيسر أن يميل الى الغرب ، ثم يطوق العدو ، فحصره بين جناح جيش المصريين الأيسر ، وبين قلب الجيش ثم أخذ يضيق عليهم شيئا فشيئا .

وحصر التتار بين فكى الرحى ، وسهام المصريين وسيوفهم تنهال عليهم من كل جانب حتى قتل قائد جيشهم ووزير الملك هولاكو .. وامتلأ تل عين جالوت بجثثهم .

وتم النصر ، وأخذ المصريون يعانق بعضهم بعضا ، وغنموا فى ذلك اليوم من الغنائم مالايحصره الحصر ..

أما المغنم الأكبر فهو أن هذا الجنس المخيف الذى أرعب آسيا ، ونشر فى ربوعها الخراب ، وكانت مصر مقبرته على حدود مصر ، وبسواعد أهل مصر .

والمغنم الآخر هو أن هذه المعركة قد كشفت عن جوهر هذا

الشعب النبيل الذى تجلو ساعات الكفاح طيب معدنه ، وقدرته المعجزة على الكفاح والتضحية ٠

ان الفلاح المصرى الصابر هو الذى هزم التتار ، لأنه أدرك ان المعركة معركته ، وانها معركة الشرف والحياة ، فاندفع اليها ٠٠

ويوم يندفع الفلاح المصرى الى معركة الشرف والحياة فلابد أن يحول مجرى التاريخ ٠٠

صباح الخير ١٩٥٦/١١/١٥

العشـــيقات
يصنعن سياسة فرنسا!

كان الفرنسيون يتوهمون انهم خلفـــاء نابليون ٠٠ وكانت ذكرى معـــاركه فى أوسترلتز وعلى جبـــال الألب مازالت تملأ وجدانهم ٠ وكانوا يعتصمون حتى ١٩٣٩ وراء ذلك الحائط المسلح الذى أقاموه بينهم وبين الألمان « خط ماجينو » ٠٠ وفجأة دار هتلر حول هذا الخط بدلا من أن يواجهه ٠ ودخلت طلائع جيوشه أرض فرنسا ٠ فدب الرعب والارتباك فى صفوف الفرنسيين ٠٠ القادة والساسة ، والمواطنين العاديين ، والمفكرين وأصحاب الحرف ٠ وأسرع رئيس وزرائهم يطلب من هتلر أن يقبل منه التسليم دون قيد أو شرط ٠٠

ما الذى دفع برئيس الوزراء الى الانهيار ٠ وما الذى زلزل قلوب هؤلاء الجنرالات ذوى الشوارب المقصوصة والحلل الفاخرة والمظهر العسكرى الصارم ؟ ٠٠

لقد كانوا يعرفون جميعا أن بلادهم مليئة بالخلل وانها تخفى خلف وجهها المطمئن ونزواتها الاستعمارية ألوانا وألوانا من الفساد كفيلة بأن تهدم بنيان أية دولة ٠٠

وهذه الألوان من الفساد مازالت تنخر فى بناء الدولـــة الفرنسية حتى الآن ..

ولعل أول مايلفت النظر هو سيطرة أصـــحاب رءوس هذه الأمـــوال على الحكـــم الفرنســـى . كانت هــذه الســـيطرة هـــى أحد المعاول الهدامة حين هـــدد هتلر فرنســـا ، ويكفـــى للدلالة على ذلك أن أحد الوزراء الفرنسيين أقترح سنة ١٩٣٨ أن تشترى فرنسا أسلحة ثقيلة من المصانع الأمـــريكية وأن تشترى مسدسات من ايطاليا . ولكن مجلس الوزراء رفض هذا الاقتراح لأن الرأسماليين الفرنسيين من أصحاب شركات الأسلحة قد عـز عليهم أن تتسرب هذه النقود الى جيوب الرأســماليين الأمريكيين والايطاليين دون جيوبهم . فأوعزوا الى عملائهـــم فى الوزارة الفرنسية برفض الاقتراح . ورفض الاقتراح وعهد الى الرأسماليين الفريسيين بامداد الجيش .. وكان هؤلاء يعلمون أن مصانعهـــم لا يمكن أن تفى بحاجات الجيش . ولكنهم تكالبوا على الصفقة . دون ان يستطيعوا الوفاء بتعهداتهم بصرف النظر عن الخطر الذى يكتسح بلادهم . وحين هجم هتلر كان الجيش الفرنسى يعانى النقص فى التسليح . ولما نزل رجال الباراشوت الألمان بحثت الحكومة الفرنسية عن مسدسات لتسلح بها رجال المقاومة .. فلم تجد ..

هؤلاء الرأسماليون وأذنابهم مازالوا حتى الآن يسيطرون على الجهاز الحكومى الفرنسى .. بل لقد ازدادت سطوتهـــم وبلغت أوجها .. فهؤلاء الرأسماليون هم الذين وجهوا الحكومة الفرنسية الى المعارضة فى تأميم قناة السويس ، والى تحدى الشعور الوطنى فى مصر ..



ولنعد مرة ثانية الى عام ١٩٣٩ لنشهد تاريخا من الفضائح والقذارة التى تميزت بهما فرنسا ..

كان رجلا الموقف عند الغزو دلادييه ورينمو · أما دلادييه فقد لكان استاذ تاريخ قديم وصل الى مقعد الرئاسة بمحالفته لليمينيين · وكان رينو رجل مال وأعمال · وكان الرجلان يتنازعان مقعد الرئاسة · ويكره كل منهما الآخر ويدبر له المكائد ولا يعنيه أن يكون الوطن هو الضحية ·

وكان لكل منهما ــ شأن كل فرنسى ــ خليلة ، ولندع كاتبا فرنسيا شهيرا هو أندريه موروا يتكلم عن فضائح الزعيمين فيقول :

رئيس الوزراء ··

اتخذ دلادييه بعد وفاة زوجته من امــرأة اســمها ايجيريا خليلة له ، وكانت لهذه المرأة ميول اقتصادية واهواء ســياسية مشئومة ، فقد اكانت تزين له الهزيمة وتشير عليه بالمشورة الخاطئة

أما خليلة بول رينو وزير الحرب واسمها الكونتس هيلين دى بورت ·· فقد كانت امرأة عصبية المزاج ميالة الى التدخل فى كل شىء · وكانت الى ذلك كما بينت الحوادث شديدة الخطر » ·

واليك ما بينته الحوادث من اخطار هذه المرأة كما تحدث عنها الصحفى الانجليزى سيسيل مالفيل ··

« برعت الكونتس هيلين دى بورت عشيقة رينو فى شئون المال واستغلاله فاصابت غنى كبيرا · وساعدهـا عشــيقها على توظيف مالها فى أمريكا الجنوبية ··

وعرفت هذه المرأة « أبنز » جاسوس هتلر ورئيس الطابــور الخامس الألمانى فى فرنسا ، ثم أصبحت من قواد الطابور الخامس فأسست جماعة اسمها جماعة فرنسا ــ المانيا ·· وكان الأعضاء يجتمعون فى صالونها · وأوحت هذه المرأة لرينو بالاستسلام ، وعن

طريقها كانت الهزيمة قد حلت فى جسده قبل ان يواجـــه جنوده جنود الأعداء ٠٠

أما عشيقة دلادييه ٠٠ فقد كانت صديقة لجاسوس آخر كان يتولى وكالة الخارجية الفرنسية ، وهو فرنسي اسمه بونيه ، وكان بونيه هذا ، المواطن الفرنسى الكبير ، فى واقع الأمر جاســوسا ألمانيا كبيرا كذلك ٠ وعن طريق العشيقة الفاتنة استطاع أن يدمر روح رئيس الوزراء ٠٠

هؤلاء هم رجال فرنسا الذين واجهت بهم الغزو النازى ٠٠ ومازال أشباههم يجلسون فى مقاعد الحكـــم فى فرنســـا حتى اليوم ! ٠٠

ودخل الألمان باريس دون قتال ٠٠

أما باريس نفسها فقد جلس بعض شبابها على المقاهى التى تزدحم بها حافة السين يتشمسون كان لم يحدث شىء ٠٠ كأنهم لم يفقدوا وطنهم وكأن كرامتهم الوطنية لم تمرغ فى التراب ٠ وكان الجنود يتسكعون فى الشوارع متعبين مرهقين وقد انحطت أرواحهم وأكثرهم سكارى وكلهم بلا بنادق ، وكان أغلب الســكارى من الجنود يصيحون « فلتسقط الحرب » ٠٠

واليك هذه القصة التي حكاها صـحفى انجليزى لتبين لك جوهر هذا المحارب الفرنسى :

« عندما لم يبق على تسليم باريس الا اسبوعان أو ثـــلاثة حدث أن ضابطا كان يحمل حافظة كبيرة فيها خطط الدفـــاع عن العاصمة ضد الغارات الجوية جلس للغداء مع بعض أصـــدقائه وأمامه امرأة جميلة مدعوة معه ٠٠ وكان أقل مايفعله رجل فرنسى وهم مشهورون بتفانيهم فى النساء أن ينسى كل ماسوى الحسناء

المواجهة له ٠ ولكنه لن يذهب بالطبع الى حد نسيان الوثائق التى وضعها الى جانبه ؟ ٠٠

اما الطابور الخامس فقد كان ساهرا ، فلما انتهى الغداء نهض الفرنسى الرقيق الأنيق ليأخذ حافظته ٠٠ فاذا بها قد فقدت » ٠٠

وهذا هو المحارب الفرنسى ٠٠ يصلح لكل شيء الا للحرب ٠ وفى سبيل من يحارب ؟ ٠٠ وهو لا يعرف له سياسة ولا وطنا ولا هدفا قوميا ٠٠ لقد كان الشعب الفرنسى يقول سنة ١٩٣٩ ٠٠ « لقد باعنا السياسيون لكى ينفقوا الأموال على خليلاتهم » ، ومازال كثير من المواطنين الفرنسيين يقولون الآن ٠٠ « ان الحكومة ترسلنا الى الذبح لكى تحمى مصالح الرأسماليين » ٠٠



وسرعان ماوجد الألمان من يحكم باسمهم ، وينفذ أوامرهم ٠ وكان الرجل الذى تصدى لهذا الوضع المزرى بوجه كالح هو بيتان أحد أبطالهم وقوادهم فى الحرب الأولى ٠ رجل فى الرابعة والثمانين قد فرغ من الدنيا وفرغت منه ٠ ولكنه سرعان مارحب بالفرصة الذهبية ، فرصة الحكم بأمر المستعمر ٠ وعاون بيتان لفيف من رجالات فرنسا الذين لم يجدوا حرجا فى التعاون مع المحتل وكانت حجتهم أنهم ينقذون مابقى ، ونسوا أنه كان يمكنهم أن ينقذوا الوطن كله لو كانوا رجالا ، ولو حاربوا بشرف ٠٠

ان فرنسا ، هذه الأمة التى فقدت روحها القومية ، تريد أن تخمد الروح القومية فى مصر ٠٠ فرنسا التى ماعرفت وقفة الشرف حين هاجمها المحتل تريد أن تدنس شرفنا ٠٠

وعلى جوانب شرفنا الدم والعرق والكفاح وسننتصر ٠٠

صباح الخير ١٩٥٦/١١/٢٩

تطور الثورة المصريــة

فى أواخر القرن الســابع عشــر كانت مصـــر جزءا من الامبراطوريـــة العثمـــانية ، ومتمتعة بنـــوع من الحكـــم الذاتى ينهض به المماليك تحت رقابة الوالى العثمانى ، ولم يكن الشعب نفسه اشترك فى الحياة السياسية الا حين الأزمة أو المجاعة وكان قد لجأ لأهل الرأى فيه وهم علماء الأزهر لكى يتوسطوا بينه وبين الحكام ، ولم تكن المظالم التى تنهال على رأس الشعب تتوقف أو تنقطع ، فالمطالع لسيرة الجبرتى يجد ألوانا من العســف يقوم بها الوالى التركى أحيانا والأمراء المماليك أحيانا أخرى ، وحتى العلماء أنفسهم كانوا يتشبهون بالحكام ، فأصبحت لهم اقطاعياتهم وضياعهم ، ولم ينج الفلاح من ظلمهم ٠

ومن سوء الحظ أن الجبرتى قاهرى وعالم بن عالم ٠ ولذلك فان سيرته لتسجل لنا مايجرى فى القاهرة ، وقليلا مما يتناهى الى سمعه من أنباء الأقاليم ٠

عاش الفلاح المصرى عصورا حالكة لم ير التاريخ أحلك منها وتخلف المجتمع عن المجتمعات المعاصرة له تخلفا كبيرا ، بينما كانت أوربا فى مقتبل الثورة الصناعية ، وكان الحكم فيها يتأرجح بين

الاقطاعيين وأهل المدن ، وكان كلا الفريقين يبسط فلسفته ويقنع الناس بها من خلال مدارسه وكنائســـه ومفكريه ، وبينما ثمرات الاكتشافات الجديدة تنهال على أوربا وتساهـــم فى اثراء المدن وتكتيل القوميات ، كانت مصر تغط فى نوم عميق ، وكان المجتمع المصرى عبودى الجوهر ، اقطاعى المظهر .

ولم يكن المجتمع المصرى قد استبان لنفســه هوية محددة ، فمن الواضح أن الصلة بين المصرى فى القرن السابع عشر وبين الفراعنة كانت مقطوعة،ولازال الناس فى ريفنا المصرى يعتقدون أن الفراعنة كانوا قوما كفرة سخطهم الله لطغيانهم ، ويندر أن تجد الاحساس بوراثة المصريين لهؤلاء الفراعنة فى نفسية المصرى غير المتعلم ، كما أن النزعة العربية لم تكن قد ظهرت بعد ، وكان الأعراب المقيمون على حواف الريف المصرى يستعلون على الفلاح ويسومونه العسف والطغيان ويبذرون بينهم وبينه بذور الحقد والكراهية . ولعل النزعة القومية الوحيدة التى عرفها المجتمع المصرى فى هذا العصر هى النزعة الاسلامية ..

وجاء الاسلام مصر ، وضحت فى سبيله وحمته مرات من الهجمات الصليبية والمغولية حتى ليصح القول أن مصر قد اعطت الاسلام أكثر مما أعطته الجزيرة العربية ، ونزل فى النفوس منزلة عميقة .

❋

القومية الاسلامية والغرب :

فكرت أوربا فى دخول مصر على أثر ماارواه الرحالة الغربيون عن الخير العميم الذى يتدفق فى أرضها ، وما نقلوه عن ضعف الدفاع عنها ، وكان للتجار البنادقة والرحالة الفرنسيين فضــل التنبيه الى فائدة مصر كسوق لأوربا ، وساعد تفكك الامبراطورية

العثمانية من جانب ، وبعض النزعات الصليبية من جانب آخــــر على تضخيم هذه الأفكار ·

ولعل الدولتين اللتين فكرتا جديا فى احتلال مصر هما النمسا وفرنسا ، وكان لفرنسا الأسبقية اذ ان نابليون كان عبقرية حربية كبيرة ، وكان ذهنه ممتلئا بأمجاد القواد الكبار ممن وصلوا الغرب بالشرق مثل الاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر · ولكن نابليون لم يكد ينزل الى مصر حتى قوبل بمقاومة لانظير لهــــا فى تاريـــخ الشعوب ·

ولعل أكبر المؤثرات فى هذه المقاومة الباسلة هو الاسلام · فقد تحالف الأتراك والأمراء المماليك والمصريون علماؤهم وتجارهم حلفا مقدسا تحت راية القومية الاسلامية ، حتى ان العلماء أبوا أن يزينوا صدورهم بالطيلسان رمز الثورة الفرنسية ، ذلك الرمز الذى كان أحرار أوربا يتنافسون فى ارتدائه حيث يقول الجبرتى :

« طلب صارى عسكر بونابرت المشايخ ، فلما استقروا عنده ، نهض بونابرت من المجلس ، ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة الوان ، كل طيلسان ملأنة عروض أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى ، فرمى به الى الأرض ، واستعفى وتغير مزاجه ، وامتقـــع لونـــه ، واحتد طبعه ، فقال الترجمان : « يا مشايخ انتم صرتم أحباب الصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فان تميزتم بذلك عظمكم العساكر والناس ، وصرتم لكم منزلة فى قلوبهم » · فقالوا له · « لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا المسلمين ·· »

ان رفض شارة الثورة هذا يعنى رفض الغرب رفضا باتا كدخيل على القومية الاسلامية يحاول افسادها وتقويض دعائمها ، وهو أيضا دليل على الكراهية العميقة التى يكنهـــا المتنورون من

المصريين للحضارة الغربية الوافدة . ولم يكونوا بهذا الكـــره يخصون الفرنسيين وحدهم ، بل كل دخيل غربـــى ، فحينما كان نابليون يذرع بأسطوله البحر الأبيض ، كان نلسون يحوم بأسطوله حول شواطىء الاسكندرية فى انتظار غريمه ، ونزل بعض رجال نلسون الى الشاطىء واتصلوا بكبار المصـــريين يخوفونهـم من نابليون وحملته ، ويتعهدون بحمايتهم ، فكان جواب أهل الرأى من المصريين « ان مصر أرض السلطان والاسلام ، ولا شأن لأحد بها . وطرد المصريون المفاوضين شر طرده .

وهكذا فشلت الحملة الفرنسية عسكريا ، ولكنها ألقت فى تراب مصر بذرة الحضارة الغربية ، ونبهتهـــم الى أن فى أوربا عالما آخر غير العالم الذى يعيشون فيه .

ومن الواجب القول بأن الحملة الفرنسية قد افلحت أيضـا فى أن تستميل بعض المصريين الى جانب الغرب ، وفى أن تجعلهم يفكرون فى فض أيديهم عن الخلافة العثمانية ، ولعل من أهم هؤلاء شخصيتين ، أحدهما مصرى قبطى هو المعلم يعقوب الذى تشبع بروح الثورة الفرنسية فى أثناء اقامة الفرنسيين بمصر ، وحين رحلوا رحل معهم وأخذ يجول فى أوربا يسعى لاستقلال مصـــر استقلالا تاما عن الامبراطورية العثمـــانية وقد ترددت فى دعوة يعقوب بعض الأفكار الغربية عن العصر مثل تذكير أوربا بمجد المصريين القدماء ، وبما لمصر من مكانة فى التاريخ القديـــم ، أضف الى ذلك ان فكرة الاستقلال التام نفسها لم تكن تخطر لأحد على بال فى هذا العصر .

أما ثانى من تأثروا بالأفكار الغربية فهو محمد بك الألفـــى أحد زعماء المماليك ، وقد استعان الألفى بالانجليز لأنه أدرك ضعف السلطنة العثمانية ، وانها لابد آيلة الى الانهيار ، ورغم ذلك فان الألفي لم يرتفع في النوعي القومي الي المستوى الذي بلغه يعقوب ،

وان كانت دعوة يعقوب قد ووريت التراب معه الا أن الشرق لـــم يستطع التخلص من اللمسة الغربية السحرية ٠



مصر للمصريين :

وهكذا أخفق يعقوب فى دعوته الاستقلالية لأنها كانت سابقة لآوانها ، ومن بعده أخفق عمر مكرم فى محاولته خلق حكم اسلامى حين نادى محمد على استنادا الى الآية الكريمة : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وكان تفسيره للآية أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، ونجح محمد على فى الاستيلاء على الحكم لأنه جمع بين الاتجـــاهين ، فقد كان محمد على والميا شديد التعلق بالاسلام ، وهو فى الوقت ذاته متطلع الى الغرب ٠

ومن خلال حكم محمد على وخلفائه تبلور اتجاه قومى جديد ، هو المصرية ، وقد ساعد على تبلور هذا الاتجـــاه أن محمد على جند المصريين فى الجيش لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ٠ ولم يكن يدور فى خلد محمد على انه بهذا سيسهم فى تدعيم القومية المصرية ، بل انه قد لجأ الى المصريين لعجزه عن سياسة الألبانيين والأرنؤود ، ولأنه قد قتل طبقـــة المقاتلين من المماليك فى مذبحـــة القلعة ٠ وهكذا لبس المصريون الزى العسكرى وعادوا الى صناعة الحرب بعد هجر طويل ٠

كما ساهمت المدارس والبعثات فى تنوير العقول ودفع الأذهان الى الادراك لمعنى الوطن ، والى التمييز بين الخلافة العثمانية وولاية مصر ، فيكتب رفاعة الطهطاوى كتابا للمدارس اسماه « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » ، وتتردد فى هذا الكتاب لأول مرة كلمة « الوطن » ويتجه مدلولها هذه المرة الى مصـــر ، وكذلك يكتب على مبارك عن مصر الوطن ، ويدخل الى اللغة العربية

لفظ « مواطن » ، للتفريق بين أهل البلاد وغيرهم من الأرمن والأتراك وهكذا نشأ فى مصر جيش قومى من المصريين ، وطبقة من المفكرين وبعض الموظفين وأصحاب الحرف وكثير من الملاك الزراعيين ، وكان هؤلاء جميعاهم دعامة القومية المصرية الجديدة .

لم تكن هذه القومية ـ لذلك العهد ـ تامة النضج واضحة المدلول ، بل لقد اصطبغت بنزعة اسلامية تتفاوت بين الأفراد المختلفين حدة ولينا .

ولكن النزعة القومية الاسلامية لم تزل تملأ الآفق ، والحنين الى العهود الاسلامية الزاهرة يورق فى القلوب ، ومازال بعض المفكرين المصريين لايفهمون من كلمة الوطن الا بلاد الاسلام جميعا، ولعل رأس هؤلاء هو الشيخ محمد عبده الذى كان يرى أن المحافظة على الدولة العثمانية هى ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله .

ورغم هذه النزعات فان القومية المصرية أخذت تقوى ويشتد عودها نتيجة لاشراك المصريين فى الحكم فى المجالس النيابية فى آخر عهد اسماعيل ، ولبلوغ كثير من أبناء الفلاحين الرتب الكبرى فى الجيش ، وبلغت هذه القومية مداها حين صاح عرابى فى وجه الخديوى وهو يشير الى الشعب الذى تملأ مواكبه ميدان عابدين : « ان الأمة قد وكلتنى فى المطالبة بحقوقها ، لأن هذا الجيش هو ممثل الأمة » ..

لقد كان شعار الثورة العرابية « مصر للمصريين » .

*

بين المصرية والاسلام :

أصبحت مصر بعد فشل الثورة العرابية على صلة وثيقة بدولتى الغرب انجلترا وفرنسا ، فقد تولت انجلترا الحكم مستعملة

البورجوازية الوطنية كأداة لتصريف الأمور ، أما فرنسا فقد عارضت فى الاحتلال ، فاتجهت اليها عواطف الوطنيين المصريين ، وكانت دعوة مصطفى كامل محصلة هذه القوى الثلاث ، القومية المصرية الناشئة ، والنزعة الاسلامية العريقة والصداقة للغرب ممثلة فى فرنسا .

وقد كان هذا الزعيم الشاب متأثرا بالنزعة الفرنسية فى التفكير والاهتمام بتراث الثورة الفرنسية ، ومن تاريخ مصطفى كامل نعرف انه بعد أن سمع بأنباء الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا انصرف الى دراسة تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية ، ولعله كان سيغير من نظرته السياسية لولا أن عاجلته الوفاة .

ولكن الشىء الذى لم يتطرق اليه الشك فى منهج مصطفى كامل الفكرى هو اعتزازه بالوحدة الاسلامية وايمانه بالخلافة .

وقد لقى مصطفى من الخديوى والسلطان تعضيدا كبيرا ، وكان مصطفى كامل فى أحاديثه وخطبه يضع الشرق تجاه الغرب ويغالى فى تفخيم الحضارة الغربية ، ويعلل رقى الغرب حتى ينهض الشرق ويسترد حقوقه .

ولكنه مع ذلك قصر دعوته الايجابية الاصلاحية على مصر ، ولم يكن فى ذلك متأثرا بالاتجاه العرابى ، فنحن نعلم انه لم يحفظ لتلك الثورة تقديرا كبيرا ، بل لعله كان متأثرا بالنزعة القومية التى سادت الفكر السياسى فى أوروبا فى ذلك الوقت .

وعاصر مصطفى كامل رعيلا من المفكرين انصرفوا انصرافا تاما عن النزعة الاسلامية حتى لقد اتهم أكثرهم فيما بعد بالالحاد . وظل هؤلاء المفكرون يؤثرون فى الجيل الماضى تأثيرا لانظير له . وقد نشأ هؤلاء المفكرون فى حجر حزب الأمة ، ذلك الحزب الذى لم يكن يميل كثيرا الى الخلافة العثمانية ، ولا الى الخديوى ممثلها

فى مصر • وكان هذا الحزب يتجه الى عــلاج مشــاكل البــلاد الاجتماعية ، ويؤجل مشكلة الاستقلال الى مابعد الاصلاح • وكان أقطاب هذا الحــزب يرون فى مهــادنة الانجليز ومعــاونتهم فى مشروعاتهم فى اصلاح الرى والزراعــة والتعليم بمصــــر • ومن الواضح أن جميع مفكرى هذا الحزب كانوا من أبناء المدارس المدنية لا الأزهر ، وان اكثرهم تلقى دروســـه فى أوروبا ، ورأس هؤلاء المفكرين هو أحمد لطفى السيد ، الذى اجتمع حوله على عبد الرازق صاحب كتاب « الاسلام وأصول الحكم » ، الذى أثار به فتنة دينية حين قال ان الخلافة ليست من شــروط الاســلام ، والدكتور هيكل والدكتور طه حسين الثائر على الأزهر الذى تعرض هو الآخر لمحنة الكفــر حين قال فى كتابه « الشــعر الجاهلى » ان ذكر ابراهيم واسماعيل فى القرآن لايكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، وكذلك الدكتور محمود عزمى ذو الآراء المتطرفة فى تفضيل الغــرب على الشرق ، ولعل بعض هؤلاء الذين ذكرت لم يعاصر مصطفى ، ولكنهم جميعا تخرجوا فى المدرسة السياسية التى ناوأت الحزب الوطنى ، كما أنهم جميعا تخلصوا من نزعة الوحدة الاسلامية ، وساهموا فى تدعيم القومية المصرية •

أما مدرسة الحزب الوطنى السياسية ، فقد تخرج فيها الشيخ عبد العزيز جاويش والسيد على الغاياتى وغيرهما من أصــحاب القومية المصرية الاســلامية • وكان أصــدق معبر عن آراء هذه المدرسة هو أحمد شوقى الشاعر ، اذ انه لوراثته التركية ولقربه من البيت المالك المصرى ، وجد أن من واجبه أن يكون لسانا معبرا عن الخلافة وأمجادها والاسلام وتاريخه ، فكان صوتا مغردا عن مصر ليحلق فى سماء الأستانة •

هذان الاتجاهان اللذان ذكرت اتجاهان عامان ، وهناك اتجاهات فرعية خرجت منهما على مدى الزمن ، وهى اكثر منهما حدة وأقل

ملاءمة للأحوال الاجتماعية فى مصر ، فقد وجدت اتجاهات اسلامية مغالية تدعو الى الرجوع الى الاسلام وانكار القومية المصرية انكارا باتا كما سبق أن أسلفت فى الحديث عن الشيخ رشيد رضا ، كما وجد فى الطرف المقابل من يتنكرون لهذا فى الحياة المصرية مثل سلامة موسى الذى تردد بين الدعوة الى المصرية الفرعونية وبين الدعوة الى الغرب ·

يقول سلامة موسى فى مقدمة كتابه المبكر « اليوم والغد » :

« كلما ازددت معرفة بالشرق ، كلما كرهته وأحسست أنى غريب عنه ، وكلما أزددت علما بالغرب ، كلما احببته وارتبطت به وأحسست أنى أنتمى اليه » ·



مصريون ·· فحسب :

وتوالت الهزائم على القومية الاسلامية ، وكان أول هذه الهزائم هو سقوط الخلافة العثمانية ، وفشل كل محاولة لبعثها سواء فى الهند أو فى مصر ، وكانت الهزيمة الثانية أن الدراسات التى قام بها بعض المفكرين من المسلمين أنفسهم قد أثبتت أن العهود الاسلامية لم تكن كلها روحانية وجهادا كما كان يتوهم الناس ، بل لعل الشر فيها أغلب من الخير كما اتضح من كتابات طه حسين عن الأمويين والعباسيين · لقد صدم الناس فى أبطالهم : صدموا فى هرون الرشيد والأمين والمأمون لأنهم وجدوا أن هؤلاء الخلفاء كانوا ملوكا يشربون ويطربون ويلهون ويظلمون ويعسفون ، كما أن مقتحما غريبا اسمه الفكر الغربى قد زلزل النفوس حين نقل الينا فى أروع صوره وأكملها ، فى فلسفته الناضجة وفى نظرياته العلمية المتقدمة ·

هذه كلها أسباب جزئية لانتصار القومية المصرية ، أما السبب الأهم فهو أن مصر قد خاضت حياة سياسية مستقلة ، وعرفت حلاوة

النصر ومرارة الهزيمة ، وهى فى حياتها السياسية لم تتلق معونة من أحد ، ولم تنسج على منوال دولة من الدول ، وهي قد تقدمت الى هذه المعركة السياسية بجميع صفوفها من أقباط ومسـلمين تحت الراية المصرية فحسب • وكانت تلك المعركة السـياسية هى ثورة ١٩١٩ وثورة سنة ١٩٣٥ وغيرهما من الحركات الشعبية حتى ماقبل الحرب العظمى الثانية ، وأصبح الاسلام دينا •• لاقومية ••

وعاصرت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ثورة أخرى هى الثورة العربية الكبرى ، ولم يكن بين الثورتين صلات من التنسـيق أو الارتباط ، فقد كانت الثورة المصرية ضد الانجليز ، وكان الانجليز فى الوقت نفسه يؤيدون الثورة العربيـة الكبرى ، وقد تخلـى الانجليز عن الثورة العربية الكبرى ، ثم جـدت بعد ذلك أحداث لاداعى لتفصيلها انقسمت بعدها الدولة العثمـانية الى ممـالك خضعت بدورها للنفوذين الانجليزى والفرنسى • ثم أخذت كل من هذه البلاد : العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تكافح لكفاحها الخاص لكى تتخلص من الاحتلال • وتميزت السنوات بين ١٩١٩ و ١٩٣٩ بالثورات الجزئية فى الشرق العربى •

***

مصريون وعرب :

ومن خلال كفاح الشعوب العربية ، كل شعب على انفراد ، فى سبيل نيل حريته واستقلاله اخذ يتضح لأعين أهل الرأى والفكر فيه ، وخاصة شبابه أن العدو واحد ، كما أن النظرة للغرب كخير كله أو كشر كله قد حققت هدفها لتصطبغ بموضوعية جديدة هـى التفريق بين الاستعمار كعدوان رأسمالى وبين الحضـارة كتراث انسانى سواء نبع من الشرق أو من الغرب •

الواقع أن النزعة العربية لم تبدأ بالفعل شعبيا بل لعلها بدأت

بميثاق الجامعة العربية ، الذى يظن بعض الباحثين أنه كان استجابة لتوجيه استعمارى يتجه الى تكتيل الدول العربية فى حلف يقف فى وجه الاشتراكية العالمية،وسواء صح هذا الزعم أم لم يصح فان الواقع أن القومية العربية لم تأخذ شكلا حاسما الا بعد مأساة فلسطين ٠

ففى هذه المأساة اتضح لشعوب هذه المنطقة أن الضغط الاستعمارى يتجه الى منطقتها محاولا تفتيتها أو تصغير اللقم ليسهل التهامها ، كما وضح للأذهان أن المعسكر الاستعمارى قد اتخذ اسرائيل رأس حربة لنفوذه ، يستطيع ان يسلك منها الى موارد القوى ومنابع الثروة فى هذه المنطقة ٠

وارتفعت صيحات الدعوة للقومية العربية ، وكان نشاط هذه الدعوة يتركز أول الأمر فى سوريا ، ثم مالبث ان انتقل الى مصر ٠٠ قلب هذه المنطقة ٠٠

والقومية العربية الآن ضرورة ملحة كاطار كبير للقوميات الصغرى ، والتعبير عنها وتدعيمها واجب فكرى مقدس ٠

وليست هذه الدعوة العربية قائمة على أساس الجنس أو العنصر ، فان هذه النظرة الى القوميات نظرة متخلفة ينقصها كثير من الصدق التاريخى ، كما أن هذه الدعوة لاتقوم على أساس الوحدة الكاملة للتاريخ ، لأن هذه الأمم التى يتكون منها العالم العربى تتميز بتاريخها المستقل ٠

ولكن هذه القومية تقوم الآن على أساس أكثر ثباتا من هذه الأسس جميعها ، ذلك هو أساس الكفاح المشترك الذى تجتازه أقطارنا العربية فى سبيل مستقبل اجتماعى واقتصادى وسياسى سعيد ٠

وأخشى أن أقول ان الفكر الحديث فى مصر لم يستطع أن ينقل هذه القضية الى صــعيد التعبير الفنى أو الأداء الفــكرى الشعورى ، فلم ينبض بها شعر ، ولم توجه لخدمتها قصة ، ولم تشخص على مسرح ، كما انها لم تناقش بعد مناقشةهادئة تستهدف اقرارها فى النفوس ، ولعل الأيام المكافحة القادمة تطلع علينا بالخير الكثير ٠

المساء ١٩٥٦/١٢/٢٧

مطلوب أسس انسانيـــة
للقوميـــة العربيـــة ..

أصبحت النظريات القديمة فى نشوء القوميات محل مناقشة وجدال ، اذ ان التطور التاريخى فى كثير من الأقطار ، ذلك التطور الذى استهدف انشاء قوميات جديدة ، قد غض النظر كثيرا عن المقومات التقليدية لنشأة القوميات وهى المقومات التى كانت تتركز فى وحدة اللغة والتاريخ والدين والتراث ..

لقد اثبت التاريخ الحديث أن لنشوء القوميات سـببا أخطر وأكبر وأجل من هذه الأسباب التقليدية .. هو وحدة الكفاح القومى فى سبيل تحقيق المطالب الشعبية . واثبت التاريخ أيضا أن جميع الفروق تنصهر فى بوتقة الصراع وأن جميع الشعارات تتلاقى فى المعركة ..

هذه القومية العربية ..

وفى هذه المنطقة من العالم التى تمتد بين الخليـــج العربى والمحيط الأطلسى تعيش مجموعة من الشعوب يطلق عليها الشعوب العربية . وقد تكون هذه التسمية محلا لكثير من المناقشة والأخذ

والرد • اذ ان لمعظم هذه الشعوب تاريخا يسبق الظهور التاريخى للعنصر العربى •• كما أن معظم هذه الشعوب القديمة قد ساهمت فيما نعرفه تاريخيا بالحضارة الاسلامية •• ويذكرنى هذا بمناقشاتنا الأكاديمية فى الجامعة حين كنا نتساءل ماذا نعنى بالأدب العربى ؟ •• هل هو أدب لغة ؟ •• أم أدب جنسى ؟ •• هل نطلق عليه الأدب العربى لأنه كتب باللغة العربية أو لأن قائليه من العرب ؟ وواضح أن النظرة المنصفة تستبعد الفرض الأول لأن لكثيرا من الأصوات الفارسية والبربرية والفرعونية فى أصولها قد أسهمت فى هذا الأدب • وكنا عادة نلتقى فى القول بأن الأدب العربى هو أدب اللغة العربية ، وأن الحضارة العربية هى حضارة المسلمين على اختلاف أصولهم العنصرية ••

والواقع أن هذه النظرة الاقليمية ظلت سائدة زمنا طويلا فى مجال السياسة والفكر أيضا • فحين شبت الحرب العالمية الأولى كانت البلاد العربية مستعمرات عثمانية لا تعرف الا ولاءها للخلافة وللسلطان •

وكانت أوروبا تطلق على الجميع لقب « تركى » •• ولكن قوميات صغيرة واضحة كانت تبرز من خلال هذا الاطار العثمانى ، ولعلها ـ على سبيل الحصر ـ مصر والشام والعراق والمغرب ، أما العرب فقد كانوا هم سكان الجزيرة العربية فحسب ••

وظلت هذه القوميات المنفصلة تباشر نشاطها السياسى المنفرد المستقل فى كل قطر من الاقطار •• وكان هذا النشاط مستقلا فى خطواته ومعاركه ، وفى انتصاراته وهزائمه ، لا يجمعه اطار موحد ولا يستهدى بغاية واحدة • وربما تعارض الاتجاه فى قطر من الأقطار العربية مع غيره من الأقطار • فحينما كانت انجلترا ترعى الثورة العربية الكبرى فى الحجاز والشام كانت مصر تتجمع لتثور على

انجلترا فى ثورة ١٩١٩ ، وكان وزير خارجية انجلترا فى الوقت نفسه يمنح اليهود وعدا سريا باقامة دولتهم فى فلسطين ··

الجامعة العربية ··

فى غمرة الاحتفال بالجامعة العربية سنة ١٩٤٥ ارتفع صوت ليقول ان ميثاق الجامعة العربية قد تضمن انحرافا أساسيا حين اعتمد على الحكومات · وان الواجب هو أن تقوم جامعة شعبية تتجه

الى توحيد النضال العربى ··

وخفت هذا الصوت فى غمرة الاحتفالات وبهجتها · ولكنه لم يضع وخاصة بعد نكبة فلسطين التى كانت أكبر المجازر التى عرفها تاريخ الشرق الأوسط الحديث ، وشعرت الشعوب العربية أن قضاياها الأساسية قد عوملت بقسوة لم يسبق لها نظير ··

وقد وعت الشعوب العربية كل هذه الدروس وعيا يختلف حدة وعمقا · وكان لابد لحركتها الاستقلالية أن تتخذ لها راية تسير تحتها وتتوحد تحت ظلها الجهود ، والقيت الراية فى ساحة الميدان ، وكان مكتوبا عليها القومية العربية ، وهزت هذه الراية كثيرا من القلوب، وحققت فى ظلها كثير من الانتصارات ·· ولكنها مازالت تتعرض لكثير من الاخطار ·· ولعل أهم هذه الاخطار ·· النظرة السلفية ·· وهى النظرة التى تقدس الماضى وتستلهمه وتبنى بناءها على أساسه فحسب ··

وهذه النظرة السلفية تتضح حين يحاول بعض المفكرين أن يتلمسوا للقومية العربية أصولا تاريخية قديمة ، وان يبنوا هذه القومية على الأسس التقليدية التى أشرت اليها فى أول المقال ، فيزعمون أن الأمة العربية قد عرفت قوميتها فى شتى العصور · وأن الوحدة العربية كانت أمرا محققا فى كل زمان ، ويناقشون مفهوم

القومية على أسس بائدة مثل اللغة والدين والتاريـــخ والتراث ، وينسون أو يتناسون أن هذه الأسس لا تقف فى صفهم ولا تستطيع أن تقوم دليلا على صدق نظرتهم · فحين نتحدث عن اللغة يفجئنا أن كثيرا من اهل المغرب العربى لا يعرفون العربية ولايتحدثون بها وحين يتحدثون عن الدين نجد أن التفرق الدينـــى بين مســـلمين ومسيحيين والتفرق بين مذاهب المسلمين والمسيحيين يسودان هذه المنطقة · أما التاريخ فقد اتخذت كل من تلك البلاد لها خطا تاريخيا خاصا منذ أن تفرق شمل الخلافة الاســـلامية فى القرن الثـــالث الهجرى ، أما التقاليد فانها محصلة كل هذه الاوجه من الاختلاف ··

اســاس القومية

ان الاساس الحقيقى للقومية العربية هو وحدة الصــــراع المعاصر · والقومية العربية اذن قومية وضعية ظرفيه ترتبط باحداث وزمان ومكان ، وتستهدف القضاء على عدو رابض امــامنا وليس هناك من حاجة الى اقامتها على أسس سلفية تستدعى التسليم دون المناقشة ، أو على أسس ديماجوجية ليس لها صلابة الواقع وان كان لها المقدرة على التهييج والاثارة ··

وثمة الذين يظنون أن القومية العربية والأمة العربية الموحدة غاية السعى والثمرة المرتقبة للحركة الاستقلالية · وهذا خلط بين الغايات والوسائل · اذ أن القومية العربية فى حقيقة الأمر وسيلة لغاية أكبر وأجدى ·· والغاية الأهم والأجدى هى سعادة الانسان وسعادة الانسان لاتتحقق بالكلمات بـل بالافعـــال ، ولاتولد من الشعارات الكبيرة بل من التخطيط الدقيق فى مجـــال الاقتصـــاد والاجتماع ·· ومن اتاحة الفرص للحياة السعيدة · وسبيل ذلك هو التبصر الواعى بمقدرات الشعوب وامكانياتها ·· وهو ايضا اتخاذ اسلوب معين عادل مجرب فى توزيع الثروة وتعديل البنــاء

الاجتماعى وتمكين الشعب من الاستمتاع بما تحت اقدامه من خيرات • ولذلك فمن الخطأ البين ما يحاوله بعض المفكرين مثل البعثيين والقوميين العرب من الهجوم على الفلسفة المادية فى تعميقها للصراع الطبقى وفى فهمها للعلاقة بين رأس المال والانتاج وهم يحاولون اقامة فلسفة جديدة تقوم على أسس روحية غيبية ولكنهم يضطرون الى التسليم باهمية الصراع الطبقى ، وبخطورة سيطرة رأس المال على الحكم ، فالبعثيون العرب وهم من الاحزاب السورية الكبرى مثلا يرفضون النظام الرأسمالى ويدعون الى تأميم مرافق الثروة • ولكنهم يتراجعون فجأة فيقول بيانهم عن الاصلاح الاقتصادى : (والاشتراكية العربية التى تعرفت على نقطة الضعف هذه فى النظام الرأسمالى تعالجها باشراك العمال فى ادارة المصنع ومنحهم عدا أجورهم نصيبا من الربح ، والغرض من ذلك قلب المصنع من ميدان للتطاحن والنزاع والريبه والحنق الى وحدة متعاونة يعمل الكل فيها باخلاص ونشاط ورغبة لأجل تحسين الانتاج) ••

والبعثيون أيضا رغم محاولاتهم المخلصة للنظر فى التخطيط الاقتصادى يخاطرون بالقول (ان المذهب المادى فى الفلسفة ضعيف تعوزه الفلسفة والبراهين) وخطأ النظرة الروحية انها تجر وراءها كثيرا من الاخطاء والتجاوزات ، وانها لاتكاد تستقيم فى منهج اصلاحى واضح • ويبدو أن السبب فى رفضهم للمذهب المادى فى التفكير والعمل هو الخوف من صبغ اشتراكيتهم بصبغة عالمية • وهذا الخوف فى ذاته يجر الى كثير من الاخطاء • فليس هناك الا اشتراكية واحدة باعتبار أن الاشتراكية وجهة نظر مبدئية فى الفهم • أما اذا اعتبرنا الاشتراكية اسلوبا فى التطبيق فهناك ــ اذن عديد من الاشتراكيات بقدر عدد المجتمعات التى تتبنى وجهة النظر وينبغى اذن ان نوضح أن الاشتراكية العربية لاتعنى استخراج أسس جديدة لوجهة النظر الاشتراكية المبدئية بل هى تعنى امكانية تطويع النظام الاشتراكى لأرض العرب •

ويجب ـ على هذا الاساس ـ ان تتجه الدراسة الى الأرض لا الى السماء ، ومن الخطورة بمكان ان يفقد الانسان صلته بوطنه ويتجاوزها لكى يرتبط بمعنى فيه عمومية ايا كان هذا المعنى · بل يجب ان ينبع هذا التجاوز ـ بعد أن يتعمق الانسان فى قوميته الأولى ـ من احساسه بحاجته الى راية كفاحية مشتركة ، يستند كل شعب تحتها الى الشعوب الأخرى ، وبخاصة بعد أن اتضح لجميع هذه الشعوب أن كفاحها هو فى حقيقته ـ كفاح ذو شعبتين وضد عدوين ·

ومن المخاطر التى تتعرض لها القومية العربية ما دأب عليه البعثيون من القول بأن العرب امة ذات رسالة خالدة،وان لها مكانافى التاريخ ، ودورا يجب ان تؤديه · وهذا الكلام فى ذاته ليس خطرا ، ولكنه نقطة بدء للمخاطر · فبعض قائليه يترحمون على عهود الخلافات العربية الأموية والعباسية ، فيربطون العيون بالتاريخ الغابر ، ويقيدون الافكار بالنظرة السلفية التى لاتستطيع أن تتجاوز الماضى الى المستقبل · ويخسرون بذلك كثيرا من وجهات النظر المحدثة ومن الافكار التاريخية الجذرية وقد يصل الأمر بهم فى بعض الاحيان الى الترحم على مجد العرب فى الاندلس والتفكير فى استعادته وغير ذلك من الآمال الواهمة وأخطر من ذلك اقامة الحياة السياسية على اساس سيادة عنصر على العناصر الأخرى ، واحقيته للقيام بدور تاريخى دون سائر البشر ·· وهذه النظرة من مخلفات الفاشية المنهارة ، وهى نظرة غير منسجمة مع روح العصر ، هذا العصر الذى يمجد الانسان فى كل مكان ويؤمن بالتعايش السلمى وبخير العالم ، واصحاب هذا الرأى لايؤمنون بان قضية العرب ترتبط بقضايا العالم الكبرى ، ويؤمنون بأن الدعوة الى السلام والتعايش السلمى والتعاون الدولى

ونزع السلاح انما هى تهويش ومواربة وتغطية وشــغل للجمهور بقضايا بعيدة عنه ، وفى ذلك قدر كبير من الخطورة لأن قضـــيتنا الاستقلالية ترتبط أوثق ارتباط بالقضايا العالمية كما اتضح فى أزمة السويس الأخيرة ، وهى تستفيد وتنتصر دائما حين تنتقل من الأفق القومى المحلى الى الافق العالمى ، وحين يرتبط استقلال شـــعبنا باستقلال جميع الشعوب ٠٠ يجب أن تكون القومية العربية قوميــة متفتحة انسانية بناءة ، تنشد الخير للعرب وللعالم ٠

صباح الخير ١٩٥٧/٣/١٤

القوميـــة و « الاشـــتراكية »

الاستاذ ميشيل عفلق أحد زعماء حزب البعث العربى الاشتراكى المنتشر فى سوريا والأردن ولبنان ، والحزب يمثل فلسفة الاشتراكية العربية ٠ ويبشر بالقومية العربية كبناء مستقل فى اتجاهه وملامحه عن الرأسمالية العالمية ، والمعسكر الشيوعى ٠٠

والأستاذ ميشيل فى زيارة لمصر الآن ، وقد التقيت به مرات كثيرة بعد اثارة هذا الموضوع على صـفحات « صـــباح الخير » وتناقشنا طويلا فى هذه الكلمات السياســـية ، وفى واقـع بلادنا العربية ، وفى وسائل الاصلاح والعلاج وحلول المشاكل الراهنة ٠٠

قلت للاستاذ ميشيل :

أريد أولا أن انوه بالدور الوطنى المجيد الذى يقوم به حزب البعث ونوابه ووزراؤه وجماهيره فى هذه الظروف التى تجتازها بلادنا العربية وأرجو أن تتقبلوا اعجابنا بكفاح البعثيين مع العناصر المخلصة الأخرى ، فى اقرار القومية العربية ، وفى تدعيـــم هذا البناء الجديد ٠٠

وازدادت ابتسامة الأستاذ ميشيل اتســـاعا ، وقاطعنى فى استنكار رقيق قائلا :

القومية العربية ليست وليدة هذه الأيام ، بل هى قديمة خالدة منذ أن وجد الشعب العربى واضطلع بدوره التاريخى ··

واستطرد الأستاذ عفلق يقول :

« ان الشعب العربى هو هذه الكتلة من البشر التى تعيش مابين المحيط الأطلسى والخليج العربى ، والتى يجمعها الشعور بوحدة المصير ·

واستوضحت محدثى قائلا :

ولكن هذه المنطقة تسكنها شعوب مختلفة ، لكل منها مقوماته وتراثه الخاص ··

وبادر الأستاذ ميشيل يقول :

من الخطأ الظن بأن هذه المجموعات هى شعوب لكل منها المقومات التى تميزه بقومية خاصة الا اذا أخذت كلمة « الشعب » فى أصلها اللغوى الذى يعطيها معنى الفرع فى جسم الأمة ، بمعنى أن له بعض المميزات المحلية التى يفرضها تنوع الأقاليم والبيئات والظروف فى اطار الوحدة العامة ، واذ ذاك نقول الشعب المصرى والشعب السورى بما يقارب المعنى الذى نقول به شعب الاسكندرية وشعب أسيوط ، أما اذا قصدنا بالشعب معناه القومى الكامل فكل هذه المجموعات أجزاء فى شعب واحد هو الشعب العربى ··

وقلت : ولكن معظم هذه الشعوب أو المجموعات كما تسميها لها تاريخ يسبق الفتح العربى ، ولها ماض قديم وتراث تكون لها على مدى التاريخ ·· وأنا أظن ان القومية العربية لاتنفى وجود قوميات محلية أخرى ·· الا اذا كنتم تحاولون طمس هذا التراث وتجاوز بعض الحقب التاريخية فى سبيل ترجيح نظرتكم ··

وأجاب الزعيم العربى قائلا :

ان أكثر الأقطار التى تؤلف الوطن العربى اليوم كانت قبل الفتح العربى ، وبرغم الطابع المحلى لكل منها ، تؤلف شخصية حضارية واحدة تتغذى بالتيارات الحضارية التى تمر بها ، فتغتنى بها دون ان تفقد مقومات هذه الشخصية ولقد كانت مهمة الفتح العربى ان زاد شخصيتها هذه قوة ووحدة فظلت حية مستمرة حتى الآن يكمن فيها تراث كل الحضارات التى سبقتها ٠

ونحن لانحارب تراث الحضارات المختلفة فى قوميتنا ، ولانحاول أن نحاربه ، بل بالعكس يهمنا أن تغتنى بها عروبتنا ، تماما كما يهمنا ان نتفاعل الآن مع حضارات الشعوب الأخرى فى العالم ٠٠

ولو صح أن كل مرحلة حضارية مرت فى بلادنا يجب أن تبعث وأن يعترف لها بقومية خاصة لتعددت هذه « القوميات » فى كل قطر من أقطارنا لا فى مجموعة هذه الأقطار فحسب ، مع أن الواقع أن كلا من هذه الحضارات الفرعونية الآشورية أو الفينيقية قد أدت مهمتها التاريخية فى حينها ، وما ظل من تراثها له القدرة على الاستمرار فقد ساهم فى اغناء القومية العربية وأصبح جزءا من مقوماتها ٠٠

واستطرد الأستاذ ميشيل يقول : الواقع الذى لاينكر أن القومية العربية قد استفادت كثيرا من النضال العربى المشترك ضد الاستعمار، ولكن ليس معنى هذا أن القومية هى شعار هذا النضال المشترك . بل الأصح أن يقال ان النضال ضد الاستعمار هو أحد شعارات القومية العربية فى المرحلة الحاضرة ٠ وذلك لأن هذه القومية كانت أبدا موجودة ، وان اختلفت وضوحا وضعفا ، وكانت أبدا تتمتع بالحد الأدنى من المقومات الضرورية التى كونتها اللغة والدين والتراث ، وهى الآن ترتفع فوق هذه المقومات جميعا لتزداد حياة وانسانية ٠

وسألت الأستاذ ميشيل : الا يصح أن نقول ان القومية العربية ظرفية أو مرحلية اذا كنا نؤمن ، واعتقد انكم تؤمنون ــ بأن العالم صائر يوما ما الى وحدة واحدة ، تندمج فيها القوميات وتنصهر فى بوتقة واحدة ٠٠

وأجاب الأستاذ عفلق :

أن هذه الوحدة قد تتم ، وفى ظروف قد لا تكون بعيدة ، اذا قصد بها أن تكون تنظيما دوليا أو مجرد شكل للحكم ٠ ولكن هذا التنظيم لا يكون حيا ولا يمكن أن يستمر اذا قصد به أن يؤلف شخصية واحدة تمحو الشخصيات القومية بدلا من أن تكون تنسيقا لها يزيدها تفاعلا وغنى ٠ ولذلك نقول ان القومية باقية خالدة ٠ تظل ذات شخصية حية ومقومات ٠ ولو أن هذه المقومات كما حدث فى الماضى ، يمكن دائما أن تتطور كما يمكن أن تتبدل حدود القومية ذاتها فتتسع وتغتنى أو تتناثر وتتشتت ٠٠ ولكنها على أية حال تظل باقية لا تزول ٠٠

والواقع ان من الخطأ وضع القومية والانسانية كمراحل ترتيب زمنى ، ان الانسانية موجودة وجود القومية ، وهى الآن تزداد غنى بتيسر وسائل الاتصال بين البشر ، ولكنها لاتذيب القوميات فى وحدة تأتى بعدها ، بل تغنيها بتفاعلها المستمر فبدلا من أن نقول ان عهد القوميات سائر الى الزوال ليفسح المجال أمام عهد الانسانية ، يصح ان نقول اننا قد بدأنا فعلا فى عهد « القوميات الانسانية » الذى تصبح فيه القومية انسانية بتخلصها من تعصبها وانكماشهاوعواملها السلبية الأخرى ٠٠

الاشتراكية ٠٠

وكان أهم ما سألت فيه الزعيم الاشتراكى هو تحديد معنى الاشتراكية عند البعثيين ٠٠ فقال :

ــ اننا نؤمن بالاشتراكية اقتصاديا فقط . فنحن نرى أن ملكية ادوات الانتاج يجب ان تكون للدولة .. أما الماركسية فانها تتدخل فى كل شــــىء .. تتدخل فى العقيدة وفى الفــن وفى الأدب وفى العلاقات الاجتماعية .. أى انها تحاول أن تبنى منهجا عاما فى كل نواحى الحياة .. أما نحن فاننا نؤمن بالحرية مع الاشـــتراكية والوحدة . ومعنى الحريـــة اننا نترك المجال للأفراد كـــى يحققوا ذواتهم ويمارسوا امكانياتهم الخاصة .. كما أننا نترك للمجتمع أن يتخير فلسفته العامة . ولا يهمنـــا من الماركســـية الا الجانب الاقتصادى .. ونحن لانؤمن به جملة بل نعتبره نبعا نستفيد منه ..

اخفاق الشيوعية العالمية ..

واستطرد يقول :

ان الشيوعية العالمية التى تحـــارب القوميات والتى تخطط للمجتمعات تخطيطا حازما قد أخفقت منذ زمن .. أخفقت حين أخطأ ماركس فى تنبؤاته وأخفقت حين قامت الاضطرابات الأخيرة فى شرق أوروبا،وأخفقت حين تراجع الاتحاد السوفيتى عن سياسة ستالين .. والأهم من ذلك أنها أخفقت فى خلق الانســــان الجديد ، فلم يولد النظام الشيوعى النواحى الايجابية فى المجتمع الروسى .. فليس هناك فن عظيم ولا أدب عظيم فى مدى أربعين سنة من الشيوعية ..

واستدركت متسائلا : لقد قرأت مؤخرا رأيا لاهرنبورج الكاتب السوفيتى يقول فيه .. ان بعض الناس يلومون الروسيا لأنها لـــم تنجب تولستوى آخر أو ديستويفسكى ثان ، فلماذا لا يلومون فرنسا لأنها لم تنجب مثل بلزاك أو ستندال ؟! ..

فهل اهرنبورج على حق ! ..

وأجاب محدثى الكبير :

ـ الواقع أن المواهب العظيمة قليلة فى هذا القرن ·· ولكننا اذا أخذنا الأربعين سنة من الحكم الشيوعى فى روسيا دليلا للحكم على مدى قدرة النظام الشيوعى على انضاج المواهب معنى ذلك أن الانسان الجديد لم يخلق بعد فى روسيا وانه لاسبيل الى خلقه ··

وأنا أذهب الى أبعد من ذلك فأقول أنى لا أطمئن تماما الى صلابة النظام الشيوعى لو قامت حرب عالمية ، بل انى أخشى على روسيا من الانتقاض لو قامت هذه الحرب ··

وتساءلت : ولكن الحرب الماضية قد أثبتت صلابة الشـــعب الروسى وصلابة النظام السوفيتى ·

وأجاب الأستاذ عفلق

ـ ان الذى انتصر فى الحرب الماضية هو الشعب الروسى والقومية الروسية التى يعتبر النظام الشيوعى مقوما من مقوماتها ، وانى أعتقد ان الثورة الشيوعية ثورة روسية قومية ··

الاتحاد العربى ··

السؤال الأهم ماهى صورة الاتحاد العربى فى نظركم ؟ ··

وقال الفيلسوف العربى

ـ ان صورة الاتحاد العربى هو دولة عربية واحدة يتمتع كل اقليم منها باستقلاله الادارى داخل اطار الدولة الموحدة والقومية الموحدة ·· مثل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ·· وأعتقد أن هذا الاتحاد سيتم فى عشر سنوات ··

وقلت فى نفسى : ان شاء الله ··

وما هو الحل الذى تتوقعه لمشكلة اسرائيل ؟

– ان حل مشكلة اسرائيل يتوقف على انهيار الرأسمالية العالمية من جهة وعلى اقتناع الأحزاب الاشتراكية فى الغرب بأن اسرائيل لاتمثل الحرية أو الديمقراطية كما يتوهمون ..

وأعتقد أن قيام دولة عربية اشتراكية وحده كاف لدحض هذا الوهم ..

اننا لانريد القضاء على اليهود ، بل على اسرائيل كدولة عدوانية قامت على تشريد العرب الآمنين وعلى استغلال الدين كمقوم لبناء دولة .

صباح الخير ١١/٤/١٩٥٧

الدولة العربيــة الموحــدة

بعض الناس لايشاطروننا ايماننا بأن المناقشة الحــرة هى سبيل الصحة · ولا يعتقدون معنا أن من الواجب أن نطرح مشاكلنا جميعها على مائدة البحث · ولا يفهمون أن كل رأى جديد هو فى الواقــع حياة جديدة للفكرة ، وشريان يتدفق فى أوصالها لأن أعظم الأفكار ما كانت كل كلمة فيها كأنها عاشت حياة بشرية ··

وبعض الناس يتوهمون ان الرد على الرأى لايكون بمناقشته ، بل بالقاء الطوب والأحجار على قائله ، وحينئذ تختفــى الكلمات الطيبة من على الشفاه لتظهر الكلمات الخبيثة ·· الجهل، الأغراض، السفسطة والمغالطة ·· الخ ··

ولكن من ركام هذا كله تنبعث كلمات مخلصة يقدر أصحابها جدية المناقشة وجدواها · ومن ذلك هذا التعليق الطيب من الأستاذ أحمد عريقات من الجبهة الوطنية بالأردن ·· يقول :

« ان هذه المناقشات ، كما يعلم السادة الذين افسحوا صدر مجلتهم لها ، وكما يعلم معظم القراء لايمكن أن تنتهى الى توحيد شتى الاتجاهات فى اتجاه واحد ، الا أنها ستنتهى بتصفية الجــدل العريض وبالوصول الى ابراز نقط الاختلاف وابراز نقط الاتفاق

بين الفريقين الكبيرين القوميين والماديين ، والخلاف ليس جذريا فى الوقت الحاضر الا فى نقطتين أولاهما خلود القوميـــة العربية وكونها لا أول لها ولا آخر ، أو انتهاؤها كما يقول الماديون (بعد زمن طويل جدا) ، والثانية هى رسالة الأمم العربية الخالدة والتى سبق ان أعلن الأستاذ بهاء الدين تخوفه من ان ينقلب الأمر الى تعصب وهو ما حدا بالأستاذ صــلاح عبد الصـــور الى ان يطالب بأســس انسانية ٠

والواقع ان علينا أن لانخشى شــيئا من هذه الفروق (اذا استثنينا منها الخلاف على الاشتراكية لأنه سابق لأوانه) وذلك لان المادية متطورة تعتبر الأشياء كلهــــا مترابطة بعضـــها ببعض ، والبعثيون ايضا يقولون بلسان الدكتور الرزاز : القومية وجـود حركى خلاق مبدع متجاوب ٠٠ مع الظروف والأوضاع التى تعيش الأمة فيها ٠

وهذا التلخيص للخلاف هام جدا اذ انه حاول ان يوفق بين وجهتى النظر دون أن يتنكر لاحداهما ، ولكن نقطة الضعف الوحيدة فيه هى أنه بينمايتوفر للماديين فلسفة واضحة يمكن من خلالها الحكم على وجهة نظرهم وعلى عملهم السياسى ، فان البعثيين يصرحون بأن حركة البعث مازالت تصنع ٠٠

وقد استشهدت فى مقالى بنص فى منشــورات حزب البعث يتهم الحياد الايجابى وحركة السلام بأنها تهويش ومواربة ٠ ولكن الدكتور منيف الرزاز فى رده على ، أنكر هذا النص وهاجمه بنفس الحدة التى هاجمته بها ٠٠

فالأحزاب القومية اذن فى حاجة الى منهـــج متكامل نظرى وتطبيقى ، وأحب أن أكرر لن هذه هى الغاية من مقالى ومن سلسلة المقالات التى تنشرها صباح الخير فى هذا الموضوع ٠ وانه ليس

ثمة انسان يعارض القومية العربية او يعاديها او يحاول تفتيتها ، فاننا جميعا ندرك دور القومية العربية فى توحيد الصراع العربى ، كما اننا من أحرص الناس على تدعيم جبهتنا الوطنية ..

وكل مانبهت اليه فى مقالى هو أن القومية العربية يجب أن تتجه الى أمرين أولهما التدعيم ، وثانيهما المعاصرة ، أما التدعيم فيكون باغناء القوميات المحلية لتنسجم بعد ذلك فى اطار عربى كبير ..

ووجود القومية المحلية لايتعارض مع وجود قومية اشمل واهم ، وقد تساءل احد القراء « هل هناك قوميتان ؟ » ولكن الأمر ليس حسابيا بهذه الدرجة ، وأحب هنا أن أستعير كلام الأستاذ احمد عريقات حين يقول :

« انشئت فى الاتحاد السوفياتى وزارة للقوميات كان وزيرها ستالين ، ويفخر السوفيات بانهم ساعدو القوميات عندهم على التبلور وأعطيت الحكم الذاتى بل ان الدستور السوفياتى سنة ١٩٣٦ الذى يقسم الاتحاد السوفيتى على أساس قومى يعترف لكل قومية بحق الانفصال عن الاتحاد اذا شاءت ، وهم يصفون نظامهم بأنه قومى الشكل اشتراكى المحتوى » ..

وانا لا ابغى من ايراد كلام الأستاذ عريقات أكثر من أن أعرض شكلا آخر للاتحاد العربى يقف فى مجال المقارنة مع الشكل الذى اختاره الأستاذ ميشيل عفلق فى حديثه الذى نشر فى العدد الماضى وهو شكل الولايات المتحدة الامريكية والأمر بعد ذلك متروك للمناقشة ..

والأمر الثانى الذى أردت أن انبه اليه فى المفهوم القومى هو المعاصرة ، وأعنى بذلك ان تصبح القومية العربية قومية عصرية تفيد من المكاسب الانسانية واهمها الاشتراكية ، كما تفيد من

التحولات الفكرية والفلسفية العظيمة ، ولا يمنعها الزهو بالرسالة الخالدة من ان تقتنى كل مافى تراث العالم من خير ··

وقد أسىء فهم كلامى عن الأسس السلفية فظن البعض انني أريد أن أقول ان دعاة القومية العربية يريدون العودة الى العيش فى الخيام والى نظام الجوارى والغلمان والى الغاء السيارات والراديوهات وهدم العمارات ··

وحاول الأستاذ غسان البرازى من القوميين العرب ، ان يفهمنى أن القوميين العرب لايطالبون بذلك ، وأظن أنه لم تكن هناك حاجة الى هذه المحاولة فانا أفهم ذلك جيدا · وما أقصده بالنظرة السلفية غير ذلك بالمرة ··

ان ما أقصده بالنظرة السلفية هو مايظهر فى اعتدادهم المفرط بالتاريخ العربى ، ومحاولة اغماض العين عن كل ماشاب الحياة العربية فى أيام الامويين والعباسيين من مظالم وجور · كما يظهر فى رفضهم للنظرية المادية بحجة انها ظهرت فى الغرب ولا تصلح الا للغرب ·

كما تظهر فى قولهم ان رسالة الأمة العربية الخالدة هى القائمة بالعدالة والحق والمحبة · مع أن هذه الألفاظ الرائعة هى رسالة كل أمة أيضا ·

وأخيرا فما زلت أقول « اننا نؤمن بالقومية العربية ولكننا نريد لها أن تكون قوية بناءة معاصرة · وهذا هو واجب المفكرين العرب ··

والمناقشة بعد ذلك هى الرئة التى تتنفس بها الأمم ··

صباح الخير ١٨/٤/١٩٥٧

اى غــد ينتظر العــرب

الفكر والعمل عنصران لازمان لنهضة الأمم ، وواجب المفكر فى هذه الأيام الحاسمة التى تعيشها الشعوب العربية هو ان يحس بالأزمة ويحياها فلا ينشغل عنها بالامور الطارئة ، بل يتمثلها دائما أمامه ، ولا يكتفى بذكرها والتحدث عنها ، بل يســـتجلى أوجهها ويحدد الاعباء التى يجب عليه أن ينهض بها ، ذلك لأن المفكر فى أيام الأزمة ليس مفكرا فحسب ، ولكنه عامل أيضـــا ، وقد يغتفر للمفكر فى أيام الرخاء أن يشغل نفسه باللذة العقلية أو بالفكر المجرد أما الأزمة فانها اذا كانت تتطلب من جميع أفراد الأمة عملا دائبا متصلا ٠٠ فهى تتطلب من المفكر أن يقترن عنده الفكر بالعمل ٠٠ ولا مكان فى الأزمة لأصحاب الابراج العاجية ٠٠

بهذا الفهم الواضح لدور المفكر كتب الدكتور قسطنطين زريق المفكر والمؤرخ العربى كتابه القيم « أى غد » ليكون دراسة لبعض بواعث نهضتنا المرجوة ، وهو قد أحس الازمة التى يعانيها المجتمع العربى ٠ ورأى ان هذه الأزمة ليست أزمة اقتصادية سياسية تتمثل فى التأخر الاقتصادى والاستعمار وخطــر الصـــهيونية الداهـــم فحسب ، بل هى أيضا أزمة فكرية انسانية ، تتعلق بالقيم العليا ، وتهدد المثل الروحية للشعوب العربية ، فقد تعددت النزعات الوثنية

•• كوثنية المال وعمادها الايمان بالربح السهل الرخيص ، واقتناص الثروة عن أى سبيل وبأى ثمن ، ووثنية الجاه الاجتماعى والتحكم والتسلط والنفوذ ، ووثنيات أخرى ـ يعبدها المجتمع الغربى ـ وهى جميعها تقوم على الشهوة وتضع الوسيلة قبل الغاية •

وحين استبد الضيق بنفوس الناس ، وزلزلت الأزمة أرواحهم، فتشت عن ايمان جديد ، ايمان مثمر يكون سبيلا للبعث المرجو للعالم العربى ••

ما هو واجب المفكر فى أزمة القيم ؟ ••

واجب المفكر ان يقيم عبادة جديدة وايمانا جديدا ، وان يهدم هذه الوثنيات كلها ، واجبه أن يقول مع السيد المسيح « الحق الحق اقول لكم ان لم يولد أحد ثانية فلا يقدر ان يعاين ملكوت الله » ، والمفكر العربى يجب ان يولد ثانية ، وان يبشر بالميلاد الثانى لأمته •

هذه هى النظرة الشاملة التى دعا اليها الدكتور قسطنطين زريق ، والواقع انها ـ على صوابها ـ ينقصها الربط بين الازمة الاقتصادية والسياسية للبلاد العربية وبين أزمتها الفكرية •• فان الأخلاق والقيم ليست الا مظهرا من مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية ، والتغير الدائم للمثل العليا مرتبط أوثق الارتباط بالتغير الاقتصادى لشكل المجتمع • وما أظن شيئا من ذلك قد غاب عن فكر الدكتور زريق ، وأحسب أنه يعلم ، وهو المؤرخ البصير ، ان تلك الأوثان التى أشار اليها فى مقدمة كتابه ان هى الا انعكاس للظروف السياسية والاقتصادية السيئة التى يجتازها مجتمعنا ، فان الانتهازية والتوتر وعبادة المظهر أمراض ملازمة للفقر والاقطاع والعسف الاجتماعى والسياسى ••

تتضح هذه النظرة الشاملة التى قد لا تلتفت كثيرا الى مشاكل الحياة اليومية ووقائعها فى الفصل الذى كتبه الدكتور قسطنطين

زريق فى معنى المجتمع التقدمى ـ فهو يعرف المجتمع التقدمى بأنه ذلك المجتمع المتحرك الذى يتوفر فيه امران : القدرة على الطبيعة فى اكتشاف كنوزها واستغلال امكانياتها ·· ثم الانتفاع بتطورات العلم ومكاسبه لاستغلال هذه الكنوز · ويستطرد الدكتور فيقول : ان هذا كله يجب أن يتجه الى غاية صحيحة ، ذلك لأن سبب فشل المجتمعات العلمية الغربية فى تحقيق السعادة للانسان هو انها اعتنت بالوسائل دون الغايات ، فخلقت تلك المجتمعات الازمات الاقتصادية والهزات السياسية والمنازعات والحروب والأخطار التى تهدد عالمنا الحاضر بالهلاك والدمار ··

وهذا الرأى قد يكون صحيحا فى جملته ، ولكنه فى حاجة الى الشرح والتوضيح ، فقد كنت أعتقد أن من واجب الدكتور حين عرض للتقدم العلمى والآلى فى أوروبا ان يشرح لنا المنـــاخ الاجتماعى والسياسى الذى ازدهر فيه هذا التقدم ·· فقد كان ذلك الايضاح كفيلا بتفسير علة تنكب العلم عن سعادة الانسان ، وعلة الحروب والاستعمار والمنازعات المسلحة ، وقد كان من واجبه أيضا حين يدعو العرب الى تبنى المناهج العلمية أن يدعوهم أولا الى اصلاح أحوالهم السياسية والاقتصادية لكى تصـــبح أرض العرب مناخا ملائما للتقدم التكنيكى والفنى ، فلا يقع الشرق فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الغرب ··

وأخيرا ·· فان هذا الكتاب القيم ، فى منهجه الشامل ، وفى لهجته المخلصة ·· جهد شريف فى سبيل اقـــرار بعض الأفكـــار البناءة · وقد توافقه فى ما رآه أو تخالفه ، ولكنك لا تمر به مرورا هينا ، وتلك سمة الكتاب الممتاز ··

صباح الخير ١٩٥٧/٥/٢

يا زوجتى انى أحتقر نفسى !

عندما انهزم لويس الرابع عشر الملك الفـــارس الكبير كمـــا يسميه الفرنسيون ، قال لقواده : لقد خسرنا كل شىء الا الشرف ، وعلى مدى الأجيال أصبحت هذه الكلمة شعارا يلقى فى اذهـــان الفرنسيين وكلمة كبيرة تتوج صورة هذا الملك فى كتب التاريخ ٠٠

أما فرنسا الآن فقد خسرت المعركة والشرف معا ٠٠

وهذا ما يعترف به كثير من مثقفى الفرنســيين فى بياناتهـم وخطبهم واحتجاجاتهم على الحرب غير الشريفة التى تجرى الآن فى الجزائر ، وما ندد به فرانسوا مورياك وجان بول سارتر وغيرهما من أئمة الفكر الفرنسى ، وما أعلنته الجموع من الشباب الفرنسى فى مظاهراتها وفى امتناعها عن الخدمة العسكرية ، وأخيرا ما دمغ به فرنسا أحد الكتاب الصحفيين فى كتاب له صدر أخيرا ، وأحدث ضجة كبرى فى الرأى العام الفرنسى ٠

الكتاب اسمه « ضد التعذيب فى الجزائر » ومؤلفه هو بيير هنرى سيمون ، والكاتب يقدم نفسه الى القارىء قبل أن يقدم اليه هذا الكتاب المثير ٠٠

« اننى رضيع الجامعة ودار المعلمين ، وقد ارتديت ســترة الضباط مدة تقرب من سبع سنوات · وحاربت بشكل ضئيل ، وبقيت تسعة وخمسين شهرا فى الأسر · وحملت وسام ضابط فى جوقة الشرف ، فانا لست اذن ضد الحرب ، ولست من أولئك المثقفين الذين يحملون افكارا سيئة تدين الجندية والقتال »

وقد زار هذا الكاتب الجزائر ، ونفسه مشبعة بالحماس للحرب التى تدور هناك · فهو يعتقد أنها حرب مشـــروعة غايتها اقــرار سيادة فرنسا وتمكينها من القيام بدورها فى نشر المدنية والحضارة فى تلك البلاد الاسلامية المتأخرة · ولكن الكاتبفوجىء بعد اقامة قصيرة فى الجزائر بأن هذه الحرب حرب قذرة خسيسة حتى فى نطاق مفهومه البالى عن دور فرنسا الانشائى والقيادى فى البــلاد المتخلفة ·

كان من اكبر ما عذب ضمير هذا الرجل مشاهد التعذيب التى رآها والتى سمع بعض الجنود يتحدثون عنها بلهجة ملؤها الزهو والحماس وبعض القساوسة والكهنة يناقشــونها بمنطــق التبرير والتماس الأعذار ·

كتب ضابط فرنسى من حامية الجزائر الى زوجته يقول : جان ·· انا مشمئز أكثر من أى وقت مضى ·· لقد كان الألمان فى أساليبهم غلمانا صغارا بجانبنا ، اننى شاهدت عمل المكتب الثانى : التعذيب طول النهار للحمل على الكلام ، والأنبوب المضغوط فى الفم الى أن يخرج الماء من كل مكان · والأيدى معلقة وراء الظهر ، وبعد ذلك يجرى التعليق من المعصم لكى تتفكك الأعضاء ، ثم يوسع المتهم ضربا ، ثم آلة مغناطيسية احد وجهيها فى جهاز التناسل والآخر على الرأس ، وتتوالى ضربات التيار الكهربائى ، وحين ينتهون من ذلك يغرسون سكينا بين الكتفين ·· اننا كلنا غاضبون ، واذا كلف احد منا القيام باستجواب فلن يحدث شىء من ذلك » ··

وكتب أحد الأوروبيين المقيمين فى الجزائر الى أهله بفرنسا :

« منذ اثنى عشر يوما جرح أحد رجال الحرس فى أراضينا ، وفى الصباح الباكر أخرج الجيش من البيوت والأكواخ عشرة رجال كرهائن ، وقتلهم · وتأثر الأوروبيون كثيرا · وكانت الدموع تطفر من عيونهم ، فقد كان المقتولون من الذين يشتغلون معهم فى جميع الأيام »

لقد ساق المؤلف بيير هنرى سيمون كثيرا من هذه الوقائع المستمدة من الوثائق الرسمية ومن تقارير رجال البوليس ومن اعترافات الضباط والقساوسة ومن خطابات الفرنسيين الى أهليهم ومن مشاهداته الشخصية · ودمغ بها هذه الحرب الخسيسة القذرة · ولكنه حين أراد أن يحدد المسئولية سقط فى هوة بلا قرار، لأن الحقيقة قد أرعبته ، فلم يستطع أن يقول الا نصف الحقيقة ·

يخطىء المؤلف فى تحديد غاية هذه الحرب وفهم دوافعها ، فهو يعتقد أن هذه الحرب حرب وقائية لحماية الأوروبيين المستوطنين فى الجزائر من تعصب المسلمين · وعلى حد الفاظه « لتأمين تعايش عنصرين من السكان معا » · وهذا فهم مغلوط ، اذ أن عدد المسلمين فى الجزائر يتجاوز العشرة ملايين ، بينما لا يزيد تعداد الأوروبيين فيها عن المليون ··

والخطأ الثانى فى تفكير هذا المؤلف هو تأثره بالنزعة الخيالية التى تزعم أن لفرنسا دورا يجب أن تؤديه فى تمدين العالم ورفع مستواه الروحى ·

ونحن مع ايماننا بأن الثقافة لاتفرض ، وان القيـــم الروحية لا تملى ، بل هى التقاء حر بين عقول ونفوس حرة ، الا أننا لانملك الا أن نرد على المؤلف مستعيرين كلامه حين يقول فى ختام كتابه :

اننا جميعا مسئولون عن هذا ألجرم ، وليست فرنسا لى ـ كفرنسى ـ حقيقة خارجة عن شخصى اننى فيها وهى فى ٠ وقـد كتب أوناموبنو « اننى أتألم لاسبانيا » وفى هذه الأيام يجب أن نقول « اننى مصاب بألم فى فرنسا » ٠

صباح الخير ١٩٥٧/٧/١١

ثورة فى السياســة المصرية

الثورة فكر وعمل ، وثورية هذين الجانبين هــى التى تميز الثورة عن غيرها من الانتفاضات الاصلاحية الأخرى ٠٠

وقد كان من أبرز ماتبنيه الثورة المصرية فى أساسها الفكرى دعوة القومية العربية كما كان تأميم قناة السويس وتسليح الجيش المصرى من أبرز أعمالها الثورية المتحققة ٠٠

وهذه الموضوعات الثلاثة هى التى تناولها الاســـتاذ فتحى رضوان فى كتابه الصغير القيم « هذا الشرق العربى » ٠٠

عقد الأستاذ فتحى رضوان الفصل الأول من كتــابه بعنوان « قناة السويس بين التأميم والتدويل » ، ولعل اهم ما حــواه هذا الفصل تباين موقف انجلترا من القناة طبقا لمصالحها المتغيرة ، فقد كانت انجلترا من أوائل الدول التى حاربت شق قناة الســـويس ، وذلك حين أعلنت منذ مائة عام « ان حكومة جلالة الملك تعتبر هذه القناة عديمة الجدوى حتى ولو كانت ممكنة التنفيذ » ٠٠

وظلت حكومة جلالة الملك على رأيها هذا حتى اصبحت اكبر مساهمة فى شركة القناة بعد أن باع اسماعيل حصة مصر فى الاسهم

الى بريطانيا ، وعندئذ أصبحت القناة فى رأى انجلترا مشـــروعا حيويا يفيد الشرق والغرب ..

وأجمل ما فى هذا الفصل أن الاستاذ فتحى رضوان يجمـــع حقائق التاريخ فى صبر وأناة ، ثم يرتبها مستخرجا منها عبرتهـا ومغزاها العميق ، ثم يقدمها للقارىء فى بساطة وســـماحة ولعل أوضح ما يبقى فى الأذهان بعد هذا الزحام التاريخى حقيقة لا شك أن كل مواطن مصرى يجب أن يعيها دائما حقيقة عبر عن جانب منها غلادستون حين قال « ليس لبريطانيا أصدقاء دائمون أو اعداء دائمون ، بل ان لها مصالح دائمة » ، والحقيقة أنه ليس لبريطانيا مبادىء دائمة بل لها مصالح دائمة ، فان المتتبع للتاريخ يروعه تغير موقف انجلترا من الحرص على بقاء القناة مصـــرية تابعة للادارة المصرية بعيدة عن كل ما له صلة بالتدويل ، وذلك حين كانت مصر نفسها تابعة لانجلترا تدار أمورها فى وزارة المستعمرات الانجليزية، ثم يتغير موقف انجلترا فتصبح من أشد أعداء مصرية القناة ، ومن اشد الدعاة الى التدويل حتى تتورط فى حرب عدوانية نتيجة لهذه الدعوة ، وذلك لأن مصر قد أصبحت مالكة أمرها وقناتها ..

المعركة اذن ليست معركة التدويل والتأميم ولكنهـــا معركة المصالح الانجليزية الاستعمارية حين تتعارض مع المصالح الوطنية المتحررة ..

***

وفى الفصل الذى عقده المؤلف ليتحدث عن المشكلة الفلسطينية تلك المشكلة التى تحشد مصر لمواجهتها امكانياتها من جيش قوى قادر على رد العدوان ، وتعبئة للقوى البشرية والمعنوية ، واجهزة قادرة على توضيح وجهة النظر المصرية ، فى هذا الفصـــل الذى اختار له المؤلف عنوان « اسرائيل والعرب والأمم المتحدة » اعتمد

المؤلف على حقائق التاريخ أيضا ، وبدأ بداية مبكرة جدا تضــرب بجذورها فى تاريخ اسرائيل منذ ان قال شاعر يهودى مجهول منذ آلاف السنين :

فاذا أنا نسيتك يا أورشليم فلتشل يدى اليمنى ‥ وليلتصق لسانى بحلقى اذا عفى النسيان اسمك من ذاكرتى ‥

واذا لم أعل بك يا أورشليم فوق أعظم افراحى ‥

ومنذ ذلك الوقت واليهود طائفتان ، طائفة لا ترضى بأرض صهيون بديلا ، وطائفة أخرى اندمجت فى الأوطان التى عاشت فيها واعتبرت اليهود دينا لا وطنا ‥

والصهيونية ــ كدعوة سياسية ــ استغلت النزوع العنصرى عند اليهود ، والقوة الحقيقية للصهيونية ليست فى أفرادها وزعمائها كهرتزل وروتشليد وبن غوريون بل هى فى الحماس الذى استقبل به اليهود العاديون هذه الدعوة العدوانية ‥

والمؤلف نفسه يشير الى هذه الحقيقة ، فحين أعلنت بريطانيا تصريح بلفور لم تكن صاحبة حق فى اعلانه ولم تكن فى موقف يسمح لها بتنفيذ وعدها اذ أن أرض فلسطين كانت مازالت تحت الحكــم التركى ، وقد أعلنت بريطانيا هذا التصريح لا لارضاء روتشيلد أو الدكتور وايزمان ، بل لارضاء اليهود فى روسيا والولايات المتحدة وجمعهم حول بريطانيا ، فأغلــب اليهود فى أنحـــاء العالم تلتف عواطفهم حول اسرائيل ‥

ومن البديهى أن الامم المتحدة قد جاملت اسرائيل كثيرا على حساب جاراتها العربية ، ويطيب لى هنا أن استعيد قولا لليلنتال فى كتاب آخر له هو « هكذا يضيع الشرق الاوسط » يقول « سئل أحد أباطرة الرومان : من أقوى رجل فى الدولة » ؟

فأجاب : ابنى لأنه يتحكم فى أمه ، وهى تتحكم فى الامبراطور ، واسرائيل هى أقوى دولة فى العالم لانها تتحكم فى الولايات المتحدة التى تتحكم فى الأمم المتحدة ..

وهكذا عرفنا من ليلنتال الكاتب الامريكى اليهودى لم تجامل الأمم المتحدة اسرائيل ..

لقد أصبحت الشعوب العربية أكبر مورد للبترول فى العالم غير الشيوعى ، وهى لذلك مطمع أنظار الدوائر الاستعمارية ، ومن الجانب الآخر يفكر أهل هذه المنطقة فى الوحدة وينزعون اليها ، ودعوة القومية العربية أقوى من كل تلك المكائد والصيحات الاستعمارية ، لقد نضب البترول أو كاد فى بلاد الغرب ، وتفجر فى بلاد العرب أنهارا .. فى الظهران والكويت وقطر والعراق ، وهذا البترول هو الذى يدير مصانع الغرب ، وينير بيوته .. هو آلة الحضارة .

فهل يكون هذا رمزا لأن الحضارة العربية ستشرق مرة ثانية .. لتنير العالم ؟

يختم الاستاذ فتحى رضوان كتابه القيم بهذه الأمنية التى ان لم تتحقق فمما لاشك فيه ان جزءا كبيرا منها ستحققه الأيام القادمة .. فتسترد البلاد العربية سيطرتها على مصيرها هى على أرضها وسمائها وبترولها ..

صباح الخير ١٩٥٧/٨/٩

وجـــه جديد فى أفريقيـا

فى الترجمة الذاتية التى كتبها نكروما زعيـــم غانا ورئيس وزرائها ·· والتى أطلق عليها اسم ذلك البلد الذى يبعث الى الحياة من جديد « غانا » لم ينس المحرر الظافر أن يشير فى خاتمة كتابه الى حقيقة هامة ، هى وحدة الكفاح الافريقى ضد الاستعمار ، فكتب يقول :

« يجب أن يكون لنا من الآن سياسة وطنية افريقية ، ويجب أن تنمو ايديولوجية جديدة للوعى الافريقى · وطيلة حياتى السياسية لم أتصور اطلاقا أن ينفصل كفاح ساحل الذهب عن كفاح العالم كله فى سبيل الحرية · وأهم من هذا أن لاينفصل عن كفاح أفريقيا ·· فان كل ركن فى أفريقيا سوف يستيقظ ويسعى فى طلب الحرية ، ومهمتنا لن تتم ، ونجاحنا لن يؤمن بحق الا اذا طرد الاستعمار من افريقيا » ··

ومما لاشك فيه أن نكروما قد مد بصره خارج حدود بلاده · فحول غانا يوجد السودان الافريقى الذى يسكنه قرابة ثلاثة وعشرين مليون نسمة من الافريقيين الذين يعانون من وطـأة الاســـتعمار

الفرنسى ، وغير بعيد من غانا تقع نيجيريا المستعمرة الانجليزية التى يبلغ عدد سكانها ٣٢ مليونا من السود يتحركون فى اصرار نحو الاستقلال • وعبر الصحراء نجد السودان الذى استقل حديثا والذى تتجه اليه المؤامرات الاستعمارية الأمريكية وشرق السودان توجد الحبشة والى الجنوب تقع كينيا التى تشتعل بالحقد على الرجل الأبيض وأوغندا التى بدأت تصحو •• ثم الصومال الذى تصطرع فى أرضه جميع القوى الاستعمارية الى جانب تنجانيقا والكونغو ونياسالاند •

والى الشمال تقع مصر رائدة الكفاح العربى والمغرب الثائر الذى لا يهدأ ••

افريقيا اذن تغلى كالمرجل من داخلها ، وتطالب فى اصرار باستقلالها الذى اغتصبه الرجل الأبيض خلال قرون طويلة ، وقد جنت بعض بلاد القارة ثمرة انتصاراتها ، وهذه البلاد تمد يدها الآن الى الشعوب التى مازالت ترزح تحت وطأة الاستعمار ولعل من أكبر هذه القوى الوطنية الجديدة ، مصر وغانا ••

ونكروما يسعى الآن الى توحيد الكفاح الافريقى •• وهو يمد يده الى جميع بلدان القارة •• وها هو يسعى لعقد مؤتمر « باندونج » الافريقى •• مؤتمر للشعوب الافريقية كى ترفع فيه رأسها متحدية فى وجه قوى الظلم والطغيان ، ولكى ترسى فيه أسس العدالة والحق كما أرستها الشعوب الآسيوية والافريقية فى مؤتمر « باندونج » الخالد ••

وليست فكرة توحيد الكفاح الافريقى فكرة طارئة على نكروما ، بل لقد نادى بها منذ أن بدأ كفاحه السياسى فى سنة ١٩١٩ حين كان يتلقى العلم فى أمريكا ويشتغل بغسل الصحون لكى يكسب قوت يومه ••

ولنبدأ قصة كفاح نكروما من أولها :

ولد نكروما فى أسرة فقيرة ، وتلقى علومه الأولى فى احدى مدارس الارساليات · ولما ضاق نكروما الفتى بقشـــور المعلم التى تدرسها الكنائس قرر أن يسافر الى أمريكا ، وكان هذا الشـــاب الصغير قد سمع من العجائز المعمرين فى قريته قصة تلك السفينة التى كان اسمها « المسيح » والتى رست ذات يوم على شاطىء غانا ، وتدفق منها باسم الكنيسة حفنة من المغامرين ، نزلوا ومعهم الانجيل ومع الوطنيين الأرض والثروة فلم يمض زمن قليل حتى أصـــبح الانجيل مع الوطنيين وأصـــبحت الأرض والثروة مع المغامرين الجدد ··

وقرر نكروما أن يكرس حياته لخدمة قضية الاستقلال والكفاح ، وانضم الى رابطة الكفاح الافريقى ، وأعطاه أحد زعمائها توصية لكى تقبله كلية لنكولن ، وهى احدى كليـــات الزنـــوج فى أمريكا بين طلبتها ··

وسافر نكروما الى أمريكا أرض الحرية ولكنه لم يجد الحرية بل وجد المهانة والذل اللذين يلقاهما كل ملون فى أمريكا ، واشتغل بائع سمك فى حى هارلم ، وهو حى الزنوج فى نيويورك ·· ثم عمل فىمصنع صابون ثم فى غسل الصحون بأحد المطاعم ، وكان ينام فى الحدائق والميادين العامة ، ومن الذكريات التى لا ينساها انـــه طلب ذات مرة كوبا من الماء من جرسون أبيض ، فأشار له الجرسون الى البالوعة وتخرج نكروما فى كلية لنكولن ســـنة ١٩٣٩ ونـــال درجاته العلمية فى اللاهوت والعلوم والفلسفة · كتب نكروما عن هذه الفترة من حياته يقول :

« لقد اشتغلت أحيانا من نصف الليل الى الثامنة صباحا فى جو الصقيع البارد · وكنت أضع على جسمى كل ما أملكه من ملابس ومع ذلك فقد كنت أرتعش من البرد · وكانت عادتى أن أعود

الى المنزل فى الصباح فانام ساعات قليلة ثم اهب لكى أواصل ابحاثى الجامعية حتى يحين موعد العمل » ··

واقام نكروما فى نيويورك حتى عام ١٩٤٥ ، ثم رحل الى لندن واقام فيها سنتين يدعو للقضية الافريقية فاتصل بزعماء حزب العمال ثم بالشيوعيين ·· وفقد نكروما ثقته بحزب العمال سريعا ، ووجد انه ليس لدى الشيوعيين الوعى الحقيقى بمشكلة السود فى افريقيا ··

وعلى اثر احدى المظاهرات التى نظمها الافريقيون فى لندن اعتقل نكروما ثم أرسل الى موطنه ساحل الذهب ، وكانت الادارة البريطانية قد لجأت تحت الضغط الوطنى الى اعلان برنامج لمنح غانا الاستقلال الذاتى ··

ولكنها فى نفس الوقت استعانت بالعملاء من خربى الذمة لكى تعتمد عليهم فى حكم البلاد · ونزل نكروما الى ساحة العمل السياسى واحس نكروما بحاجة غانا الى منظمة وطنية تقوم بدور القيادة السليمة لكفاح شعب غانا فاعلن تكوين حزب الشعب ، واعلن أيضا أن هذا الحزب اشتراكي فى سياسته العامة قومي فى خطه السياسى المحلى وأن غايته خلق قاعدة شعبية يرتكز عليها كفاح غرب افريقيا الموحد فى سبيل الاستقلال ، وانتشرت فروع الحزب فى كل قرية او حفنة اكواخ فى ساحل الذهب · ونظمت الخدمات العامة التى تؤديها لجان الحزب ، واصبح مقره الرئيسى مركزا للتدبير السياسى وصدرت الصحف والنشرات تحمل اسمه ومبادئه ··

ولجأ الاستعماريون الى الخدعة القديمة التى تكررت بشكل ما فى تاريخ كفاح جميع الشعوب ·· ففى احدى المظاهرات السلمية أطلق البوليس النار على أحد المتظاهرين وثارت ثائرة الجماهير واستسلمت للمهيجين الأوروبيين ، وعم السلب والنهب والاحراق ، وظن الاستعماريون انهم قد شوهوا وجه الحركة الوطنية ··

واعتقل البوليس نكروما ولفيفا من أعوانه فى الحال ووجهت اليه تهمة التحريض على هذه الأعمال الاجرامية رغم انه كان معارضا كل المعارضة فى استعمال العنف وأضيف الى قائمة الاتهام تهمتان اخريان أولاهما انه نظم فى لندن منذ سنين مظاهرة ضد الانجليز ، والثانية انه شيوعى !! ٠٠

وفى خلال الأسابيع الثمانية التى قضاها تحت التحقيق أخذت الأجهزة الاستعمارية تلوث سمعته ، وتخلى عنه كثير من أعوانه ، ثم حكم عليه ـ بعد محاكمة سرية ـ بالسجن ثلاث سنوات ٠٠ وعومل معاملة المجرمين ، ووضع فى زنزانة ضيقة مع أحد عشر سـجينا آخرين ٠٠

وظل الحزب رغم ذلك على تماسكه ، وبعد أن قضى نكروما خمسة عشر عاما فى السجن أجريت الانتخابات العامة ، ورشح الحزب نكروما لرئاسة البرلمان فحصل على أغلبية لم يسبق لها نظير وحمل من السجن الى كرسى الرئاسة ٠٠

وواجه نكروما مشاكل بلاده السياسية والاقتصادية بجرأة فائقة ، وأخـذ ينظـم التجـارة وزراعـة الكاكاو بوصـفهما المصدر الرئيسى لثروة البلاد ، وكانت اصـطداماته مع الانجليز والرأسماليين تتوالى ، ولكنه كان يخرج بعد كل أزمة أوفر قـوة وأشد عزما ٠٠

واجريت انتخابات أخرى قبل أن يتم البرلمان دورته ، وكان المعتقد أن نكروما سيفشل فى تلك الانتخابات ، فقد كان الانجليز قد جمعوا أعوانهم وأثاروا ضد نكروما كل من أصابه الضرر من التشريعات الاقتصادية الجديدة ٠٠

ولكن الأمور لم تجر حسب ما يشتهون ٠٠ فقد نجح نكروما بأغلبية كبيرة ، وأصبح رئيسا للوزارة الغانية الأولى ٠٠

وفى ٦ مارس سنة ١٩٥٧ اعلنت غانا استقلالها وانضمامها الى الكومنولث عضوا حرا فيه الى جانب الهند وسيلان وغيرهما من الدول ٠

ان هناك مشاكل كثيرة تنتظر غانا ، وان أمام نكروما الكثير ليعمله فى حقل الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ولعل أهم مايواجهه مشكلة تصريف الكاكاو وهو المحصول الرئيسى للبلاد ٠٠ كما انه يستصدر التشريعاتلحماية الثروة الحيوانية والأسماك ، أما المعادن فلدى غانا كميات وفيرة من البوكسيت الذى يصنع منه الالومنيوم وكذلك الذهب والماس ٠٠

وقد اهتم نكروما ايضا بالتعليم الذى يهدف فى ذاته الى « بث الشجاعة والاستقامة ونقاء الفكر فى نفس الانسان » ٠٠

ويهتم نكروما أيضا بالتصنيع لأن التصنيع هو السبيل الحقيقى لرفع الشعب من مرتبة الشعوب المتخلفة الى وضع انسانى ممتاز ٠٠

ولكن نكروما القائد السياسى ، والمكافح الافريقـــى القديم لاينسى قضية استقلال افريقيا ٠٠ القارة التى لم تعد سوداء ، ويمد يده الى كل الشعوب الافريقية ليعاونها فى معركتها الاستقلالية ٠

وفى هذا السبيل يتقدم نكروما ويعلن دعوته لتلك الشعوب الى عقد مؤتمر افريقى يعلن ارادة الشعوب فى السلام والحرية ٠٠ ويهز فى قسوة ـ كمـــا هز مؤتمر باندونج ـ أركان الاســـتعمار المتداعية ٠٠

صباح الخير ١٩٥٧/٨/٩

البعبع الأحمر ...
فى البرنامج الثانى !

من أكبر الأخطاء التى يتردى فيها الكاتب ان يشن حملة هجوم دون سبب على مشروع ما ويكون سببهذه الحملة عادة عرضة للتأويل ، وللظن بأن وراءها غرضا أو منفعة شخصية .

وقد تورط الزميل أنيس منصور فى الهجوم على البرنامج الثانى بالاذاعة المصرية ، وهو البرنامج الذى لم يمض من عمره الا ثلاثة أشهر .. وفى هذه الأشهر الثلاثة ساهم بقدر امكانياته فى اثراء الثقافة المصرية وعرضها من هذه النافذة الاذاعية على الجمهور ..

وقد حمل أنيس عصاه وأخذ يقرع بها رؤوس الناس دون تعقل ، وكانت الحجج التى ساقها لتبرير هجومه لا تستطيع أن تقف على قدميها لعجزها وهزالها ، ولأنه من الواضح انها متعجلة تنقصها النزاهة ..

ومن هجوم أنيس الحاد الذى تتدفق فيه النكت والفكاهات نستطيع أن نتبين حجتين رئيسيتين يتخذها الزميل ذريعة للهجوم ،

الحجة الأولى هى أسماء المساهمين فى البرنامج من المثقفين ·· والثانية هى اتجاه البرنامج الأدبى والفنى وانيس يبادر فيعلن أنه قد عرف بذكائه المفرط من أول يوم أذيع فيه هذا البرنامج أن وراءه أغراضا خفية ، ولكنه ـ أى الزميل ـ قد تمهل حتى جاءت الحوادث مصدقة لكلامه ، فحمل قلمه على كتفه وخرج الى هذه الحرب المقدسة ·· ضد البرنامج الثانى ··

وكلام أنيس ان لم يكن مبالغة كله فثلاثة أرباعه على الأقل مبالغة ، والربع الباقى نكت يستطيع منها القارىء أن يدرك خفة دم الزميل المأثورة ··

وأنا أعتمد على الجدول الرسمى لمواد البرنامج فى الثلاثة اشهر ، وأدحض تهمة اقتصار البرنامج على أسماء معينة ، ففى هذا الجدول نجد أسماء الأساتذة سليمان حـــزين وابراهيـــم حلمى عبد الرحمن ومصطفى عامر وعلى الراعى وحسن العصفور ومحمد حافظ وفتحى رضوان وعبد الغنى حسن وعزيز صدقى وغيرهـم ، وكل من هؤلاء يتحدث فى جهة اختصاصه سواء أكانت أدبا أو علما أو اقتصادا أو علوما اجتماعية ··

وفى الندوات نجد فضلا عن بعض من سبق ذكرهم الأساتذة مهدى علام وعبد الرازق حسن ومحمود تيمور والسباعى ونجيب محفوظ وكمال الملاخ وراشد البراوى وغيرهم أيضا ·

فالبرنامج اذن ليس مقصورا على اسماء بذاتها ، وانما هو دعوة عامة لجميع المثقفين فى مصر كى يشاركوا فيه كل بما يستطيع أن يقدمه الى جمهور المستمعين ·

أما التهمة الثانية التى ألقاها الزميل أنيس فى وجه البرنامج الثانى فهى أنه لا يقدم الا الأدب السوفييتى كأنه محطة سرية موجهة الى الناطقين بالعربية فى الاتحاد السوفيتى ·

وقد ألقى أنيس هذه التهمة فى بساطة يحسد عليها ، ولم يكتف بذلك ، بل لقد هدد القائمين على البرنامج وفى مقدمتهم الدكتور حسين فوزى ثم اختار لنفسه دورا لا أعرف كيف أسميه ، وأخـذ يستعدى المسئولين ، ويشير بأصابعه العشرة قائلا : هذا ضد الدولة ٠٠ هذا ضد الدستور ٠

وأنا أخشى أن تكون عدوى « الرعب الأحمر » قد أصـــابت زميلنا أنيس ، فطالما عرض نفسه لها ، ومن أعراض هذه العدوى أن يتوهم المريض بها كل شىء مصطبغا باللون الأحمر ، حتى السماء حتى الأرض ، حتى البرنامج الثانى ، وهو تورث عادة ذلك الخوف المقيت الذى ينقلب الى هذيان ، وقد يتحـول الكاتب على اثرهـــا من دوره ككاتب الى دور آخر لا نرضاه له بحال ، وذلك حين يشير بأصابعه العشرة كما أشار زميلنا أنيس ٠

لقد قدم البرنامج الثانى الى الآن عشر تمثيليات واحدة لتوفيق الحكيم وأخرى لكاتب مصـــرى شـــاب هو عبد الرحمن فهمـى ، والتمثيليات الأخرى للأمريكيين أوجين أونيل واروين شو وللانجليزى شكسبير للايرلنديين برنارد شو وسنج وللايطالىبيراندللو والنرويجى ابسن وأخيرا مسرحية للكاتب الروسى تشيكوف ، وأظن أن الزميل أنيس يعلم أن تشيكوف مات قبل الثورة الروسية بزمن طويل ٠

وفى البرامج الخاصة قدم البرنامج سوفوكليس الذى مات منذ الفى سنة وجراهام جرين الانجليزى والمازنـى المصـــرى وبلزاك الفرنسى وغيرهم ٠

والآن ، أين الروس ؟ بل وأين السوفييت ، حتى يصرخ كاتب مسئول معلنا أن ذا البرنامج محطة ســـرية مهمتها احراج مصر أمام الرأى العام العالمى ٠٠

لقد تساءلت بعد قراءة مقال الزميـــل ، وبعد اطلاعـــى على الجدول .. تساءلت عما يكون الدافع للزميـــل الى هذه الحملـــة المستبسلة . ولا أكتم القارىء أنى قد وضعت كثيرا من الافتراضات فقد يكون السبب أن الزميل لم يدع الى الاشتراك فى هذا البرنامج رغم أنه من الوجوه الثقافية المعروفة فى مصر . ولكنى أخيرا نزهت أنيس عن أن يغضب لسبب تافه كهذا ، خاصة وأنا اعلم انه من هواة تبسيط الثقافة وشعبيتها الزائدة عن الحد ، كما فعل فى كتابه عن الوجودية وكما يفعل فى مقالاته ، وهذا المنهج فى عرض الثقافـــة مكانه ركن ثقافى فى البرنامج الأول لا البرنامج الثانى الذى أعـــد للمثقفين .

وأخيرا قلت : لعله البعبع الأحمر الذى تخيف به أمريكا شعوب العالم ، ولعل الخوف من البعبع الأحمر قد امتد الى نفس أنيس . ولكنى أحب أن أنبهه أن أصحاب خرافة البعبع الأحمر قد ابتدعوها ليقتلوا بها الاتجاهات الوطنية الثورية فى الشرق ، وأن التهمة التى يلقيها هو على رأس سعد لبيب ومن يشتغلون معه تلقيها أمريكا على نطاق أوسع على رؤوس جميع زعماء العالم الوطنيين ، وفى مقدمتهم جمال عبد الناصر ونهرو وغيرهما .

صباح الخير ١٩٥٧/٨/٩

الدعـــــاية
ظلمت مديريـــة التحـــرير !

ان الدعاية التى تقوم بها مديرية التحرير عن نفسها ·· قـد ظلمتها ·· انها دعاية تعتمد على اثارة الاحساس الوطنى فحسب ، وهذا لايكفى ·· فمديرية التحرير ليست مظاهرة ·· ولكنها تجربة علمية واجتماعية ضخمة ويجب أن تتضح أهدافها فى أذهان الشعب حتى يحكم عليها حكما صحيحا ومنذ حوالى شهرين ، كنا ستة من أسرة « روز اليوسف » فى طريقنا الى مديرية التحرير ، بهاء وجمال كامل وأبو العينين وحسن فؤاد وكامل زهيرى وأنا · وكنا نرى أن من واجبنا أن نزور مديرية التحرير لنستكشف بعيوننا وعقولنا الصورة التى عجزنا عن استخلاصها من بين ركـام الاشــــاعات والدعايات على السواء ·

وقضى الزملاء ، وأنا ، يوما كاملا فى مديريـــة التحرير ، أزعجنا خلاله مرافقينا بكثرة الأسئلة والتدقيق فى الاجابة ، ثم بناء الاستنتاجات لكى نعيد توجيه الأسئلة من جديد ·

أما لماذا لم أكتب عن مديرية التحرير فى ذلك الوقت ، ولماذا لم أحاول أن ألقى بالحقيقة فى وسط الاشاعات والدعاية ، فلأن السيد

مجدى حسنين كان فى ذلك الوقت مرشحا فى الانتخابات ، وقد خشيت أن يؤخذ ما أكتبه عن مديرية التحرير كدعاية انتخابية للسيد مجدى حسنين ··

ان الكاتب المسئول كثيرا ما ينسى مسئوليته أو يتناساها فى سبيل أن لا يختلط رأيه بالدعاية ، وخاصة اذا كانت هذه الدعاية مستفزة غير مقنعة ، وتلك أزمة يجتازها كثير من الكتاب فى مصر ·

ومن هنا كان من واجبنا أن نتحدث الآن عن مديرية التحرير ، وربما كان من الاوفق أن نتحدث حديث الأرقام فالمشروع - أولا وآخرا - مشروع اصلاحى ، قد انفقت فيه الأموال المصرية واستغلت فيه الايدى العاملة المصرية ، وهو لذلك فى أبسط صورة عبارة عن كشف تقارن فيه الأرباح بالخسائر والانتاج بالاستهلاك ، ولكنى سأؤخر حديث الارقام عامدا لأتحدث عن بعض الانفعالات التى أثارتها فى نفسى هذه الزيارة ·

كانت الرحلة فى الصحراء تدعو الى السأم ، ان كل دقيقة تقطعها العربة فى الصحراء تبدو ساعة طويلة ·· كل شىء حواليك أجرد كئيب متكرر ·· هذا اللون الاصفر السقيم ينساب من خلاله شريط ضيق من السواد اللامع فلا تلبث بعد لحظات أن تشعر بالملل وتتمنى أن تغمض عينيك فلا تصحو ··

وفجأة تبدو الخضرة ·· الحياة والنماء والماء فى الترعة ·· والزرع على الجانبين وكل ذلك له رائحة ·· رائحة الحقول تلك الرائحة التى نعرفها جميعا وخاصة أولئك الذين نشأوا فى الريف وشموا رائحته وأحبوه ··

واخترنا بيت فلاح ·· اخترناه من وسط عشرات البيوت ودخلناه ، ولعل من تكرار القول ان أشرح هندسة البيت ومدى ملاءمته للصحة أو أن أشير الى مدى الفرق بينه وبين بيت الفلاح فى

القرية المصرية العادية ، ولكن أهم ما استرعى انتباهى هو أنــى اتجهت الى المطبخ ، وكانت زوجة الفلاح تؤدى عملها ، وبطبيعة الحال أغضت حياء حين رأتنا وارخت نظرها ، ولم أسـألها عن طعامها الذى تعده ، ولكنى رأيت رفا رخاميا فى الحائط وعليه وابور جاز فوقه حلة وكانت رائحة الطعام المطبوخ تزخم الأنف ..

ومرة ثانية أقارن بين قرى مديرية التحريـر وقــرى ريفنا المصرى ..

وكان الانطباع الثالث انطباعا فنيا ، لقد رأيت فرقة موسيقية فى مديرية التحرير ، فحين دخلنا مدرسة من المدارس وجدنا أمامنا مدرجا واسعا ، وما كدنا نقترب منه حتى سمعنا أصواتا تصيح فى نغم جميل « مى ، فا ، صول لا ، سى » .. وعندما دخلنا المدرج فوجئنا بحوالى أربعين أو خمسين صبيا يرددون وراء المعلـم هذا النغم،ووقفنا لحظة مع المعلم الذى قال لنا انهذه الفرقةهىفرقةالمديرية الموسيقية انتقيت من أيتام الملاجىء .. ثم أضاف بعد قليل والحماس يرن فى صوته : ستكون هذه الفرقة فى المستقبل لمصر كلها ، وربما أحرزت نجاحا تستحق به أن تطوف العالم لتعرض فن مصر .

***

ولكن هذا كله قد يبدو حديثا عاطفيا فلنعد الآن الى حديث الوقائع ، وقبل ان تتناول هذا الحديث يجدر بى ان أشير الى ان ما أنفق فى هذا المشروع كثير قد يقدر بالملايين ، وأن هذه الملايين اذا قسمت على عدد الأفدنة المستصلحة للآن لبلغت تكليف اصــلاح الفدان رقما خياليا .. ولكن الانصاف يقتضينا أن ندخل فى حسابنا ما يأتى :

ان تكاليف شق الترع وانشاء شبكة الطرق الصحراوية لايمكن أن يدخلا فى الحساب الا فى المدى الطويل ، فهذه الترع وتلك الطرق

هى بذاتها مشروعات ضخمة مستقلة ينبغى أن يحسب لها حسابها المستقل ..

كما اننا يجب أن نستبعد الآلات الكبيرة وكذلك المصانع كمصنع معونة الشتاء والمواسير والمياه الغازية اذ أن تلك مشروعات مستقلة كذلك ، ومن الواجب أن نستبعد أيضا تكـــاليف انشـــاء المدارس والمستشفيات وغيرها من المؤسسات الاجتماعية ..

لكما اننا ينبغى أن ندرك أن الغاية من المشـــروع ليســـت الاستصلاح فحسب بل هى خلق بيئة ريفية مصرية جديدة ينشأ فيها فلاح قد خلت نفسه من الاضطرابات التقليدية .

وقد قيل لنا ان التمليك لم يتم بعد ، وان القائمين على الأمر يفكرون فى جعل التمليك على المشاع مع اشراف جمعيات الفلاحين وادارة المديرية على الزراعة والبذر والحصاد ثم توزيع الدخل بنسبة التمليك المشاعى ..

وهذه التجربة جديرة بالمناقشة والتسجيل اذ أنها تستفيد الى حد كبير من تجربة المزارع الجماعية مع تطويعها لظروفنا الاجتماعية وتطورنا الحالى ..

لقد أحببت هذا المشروع ، رغم ان كثيرا من الناس لايرضون عنه ، ورغم ان الدعايةالتى من طـراز « نحن نقهر الصـــحراء » و « مديرية التحرير جنة فى قلب الصحراء » ، تلك الدعاية التى لم تلجأ ابدا الى العقول لتناقشها .. جديرة بأن تستفز الانسان ، ولكنى عندما رأيت المديرية عرفت أن المسئول هو جهاز الدعاية لا الأيدى التى تعمل ولا العقول التى تفكر ..

روزاليوسف ١٩٥٧/٨/١٩

الاشـــتراكيون الانجــليز يبحثـــون عن نظريـــة

تنبأ ماركس بأن الثورة الاشتراكية ستنشب أولا فى انجلترا ٠٠ وحين دخل ماركس الى العقل الانجليزى طرد جميع الفلاسفة الآخرين ولكن الانجليز مالبثوا أن خلقوا اشتراكية انجليزية تتميز بطابعهم ، وأخذت هذه الاشتراكية تبتعد عن الماركسية حتى أصبحت شيئا آخر ٠٠

كان خبرا قرأته فى احدى الصحف الانجليزية حديثا مؤداه أن الجمعية الفابية قد عاد اليهــا بعض نشـــاطها ، وانها تنظـــم المحاضرات وتصدر النشرات التى يزين غلافها ذلك الشعار المعروف « لابد أن تنتظر اللحظة المناسبة كما انتظرها فابيوس من قبل فى حربه مع هانيبال فى صبر عظيم رغم لوم الكثيرين له ، ولكن حين تحل اللحظة المناسبة فلابد أن تضرب ضربتك القاضـــية كما فعل فابيوس من قبل ، والا ضاع انتظارك أدراج الرياح ولم تجن ثمار صبرك » ٠٠

وحين قرأت هذا الخبر ذكرت ذلك البيان الذى أعلنته الجمعية منذ شهرين ، ونشرته فى صحف حزب العمال ، والذى قالت فى أوله

ان العالم الجديد لا يصنع فى يسر ، واننا على أبواب عصر تغيراته كثيرة ، يجب أن تتناول مشاكل الادارة التنفيذية وبناء الشخصية الانجليزية وعلاقة الجزر البريطانية بالكومنولث وشعوب افريقيا وأخيرا الولايات المتحدة ثم تساءل هذا البيان عما يدفع المفكرين الى التخاذل وعدم المساهمة بالادلاء برأيهم لحل المشكلات التى تواجه بريطانيا ‥ خاصة وقد أصبحت القنبلة الذرية شبحا يبسط ظله الأسود على العصر ، كما خرجت انجلترا من حرب السويس وقد خسرت سمعتها ومركزها الثقافى والاقتصادى ‥

ودعا البيان المواطنين الى أن يكونوا يقظين فى ظل حكومة المحافظين · وأن يسألوا دائما : هل أعددتم مدارس لأبنائنا ومدرسين لهذه المدارس ‥ وهل أعددتم عملا لكل عاطل،ومعاشا مناسبا لكل عاجز عن العمل ، وهل أعددتم نظاما للتعاون بين بريطانيا ودول الكومنولث ، وهل فكرتم فى مستقبل الجيل القادم ، وبعد أن انتهى البيان من التنبيه والاستثارة ، أشار الى أن لدى الجمعية دراسة لمعظم هذه المشاكل وخاصة فى الكتب الآتية : الاشتراكية والوضع الجديد لكروسمان ، والاشتراكية والوطنية لهيوجيتسكل ، وأخطاء اتحادات التجارة لكول ، والاشتراكية والمثقفين لكنجسلى أميس ·

وختم البيان بدعوة المواطنين الى الانضمام الى صفوف الجمعية الفابية لأن الوقت يمضى سريعا ولأن الايام القادمة ستحمل مشاكل ملحة عسيرة الحل ربما لا يقدر على اقتراح الحلول لها الا هؤلاء الناس ‥ الفابيون ‥

فمن هم الفابيون ؟ ‥

الجمعية الفابية جمعية قديمة يرجع تاريخها الى حوالى ثلاثة أرباع القرن ، ففى الربع الأخير من القرن الماضى كانت أوروبا تغلى بالأفكار المختلفة ، ولكن الفكرة التى كانت تقرع جميع الآذان وتجد

من الاستجابة ما لا تجده الافكار الاخرى كانت الاشـــتراكية ·· الاشتراكية بكافة صورها وأشكالها ، فلقد كان جميع المفكرين يبحثون عن مخرج من الأحوال السيئة التى يعيش فى ظلها العمال ، ونظرا لأن الطبقة العاملة الانجليزية كانت أسرع الطبقات تكونا فقد أصبحت الاشتراكية فى ذلك الحين شعاراً لكل المصلحين ·

ونشأت فى انجلترا جماعات من المثقفين ، كانت هذه الجماعات تنظم المحاضرات فى الموضوعات المختلفة مثل تأميـم الأراضـــى والنقابات العمالية · وتحديد ساعات العمل ونظم التأمين الاجتماعى وكانت هذه الجماعات تحمل أسماء رنانة مثل الاتحاد الديمقراطى، واخوان الحياة الجديدة وغيرها ··

وكان ماركس وكتابه «رأس المال» قد بدآ يتسللان الى الأفكار · ووجد هؤلاء المثقفون فى رأس المال دراسة شاملة للتطور البشرى وتاريخ الحضارة ، ورأوا فيه معينا على فهـم كثير من الظواهر وربطها بالأحداث ، حتى قال جورج برنارد شو ، وقد كان من ذلك الشباب الذى وهب نفسه للاصلاح : « لقد وجدت فى ماركس الهامى وقد عرفت فيما بعد أن نظرياته المجردة فى الاقتصاد خاطئة ، ولكنه مزق لى القناع وفتح عينى لحقائق التاريخ وأسس الحضـــارة ، وهدانى الى ادراك طبيعة العالم ، وأمدنى بهدف فى الحياة ان من يقرأ ماركس لا ينطلى عليه تضليل جلادستون وغيره » ··

ولدخول ماركس الى العقل الانجليزى طـــرد كثيرون من الفلاسفة الآخرين ·· طردت الاشتراكيات الطوبية الخيالية وطرد المتمسحون بالمسيح والفوضويون والعدميون ، وأصبحت المناقشات كلها تدور حول ماركس والاشتراكية العلمية ··

ولكن العقل الانجليزى ببطئه واتزانه ، وميله للمسالمة والتعقل قد أضاف الى الماركسية شيئا جديدا أو لعله أفقدها عنصرا من عناصرها الهامة ·

لقد أخذ من الماركسية فهمها للتاريخ وايمانها بالطبقة العاملة ، ولكنه أسقط ثوريتها وانقلابيتها ·· وآمن بأن الاصلاح البطىء الذى ينتهى الى نتائج محققة خير من الثورة الدموية السريعة وان حققت نفس النتائج ··

حكى برنارد شو قصة مظاهرة تزعمها بضعة من الشباب الانجليزى المثقف فى يوم الأحد ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٧ ، وقادوا جماعة من المتعقلين ينادون بشعارات الاشتراكية حتى كادوا يقتربون من ميدان ترافلجار ، وعندئذ هجم عليهم جنود البوليس وانهالوا على المتظاهرين ضربا ·

وهربت الجماهير المتعطلة والمحتشدة التى تابعت المظاهرة تحت وطأة عصى رجال البوليس ·· وأصيب الزعماء بخيبة أمل كبيرة ، وأدركوا ان الجمهور الأعزل لا طاقة له بمواجهة القوة الغاشمة ··

وسرعان ما عاد هؤلاء الرجال الى طبعهم الانجليزى ، واضافوا اليه خصلة التردد والتعقل التى يمتاز بها المثقفون دائما، أضف الى ذلك بقية من ايمان بالمسيحية وايثارها للسلام ، واتخذوا الدراسات والنشرات سبيلا الى بث دعوتهم الاشتراكية ، وآمنوا بأنه سيأتى اليوم القريب الذى تتحقق فيه دعوتهم دون لجوء للعنف والمخاطر ··

ومن هؤلاء الاشتراكيين الدستوريين تكونت الجمعية الفابية، ولم يدخلها أولئك الثوريون أو الفوضويون أو العدميون ، بل الأدباء والمصلحون الاجتماعيون والنقاد السياسيون الجدد وترددت على نشراتها أسماء رامزى ماكدونالد السياسى الناشىء وسيدنى وبياتريس وب الزوجان والمفكران الاجتماعيان وجورج برناردشو و ه·ج · ولز الأديبان الشابان وهيوبرت بلاند الفيلسوف الصغير ·

لقد كان هانيبال القائد القرطاجنى فى أوج قوته ومجده تماما كالنظام الرأسمالى والطبقة الارستقراطية فى مطالع هذا القرن ، ولكن فابيوس القائد الرومانى الحذر أخذ يراوغه معتمدا على الوقت حتى استطاع هزيمته فى اللحظة المناسبة عندما أدرك الضعف فى هانيبال ..

وكذلك هؤلاء المصلحون فى اعتمادهم على الوقت والدراسة والاعداد لكسب المعركة ضد النظام الجائر ، ولا حاجة بهم الى الثورية والانقلاب .. بل عليهم بتكتيل نقابات العمال ومحاولة الحصول على مكاسب صغيرة بالطرق البرلمانية حتى يستطيعوا فى يوم من الأيام مواجهة هانيبال الحديث مواجهة حاسمة ..

وانقسم نشاط الجمعية الى قسمين ، قسم أخذ يشتغل بالسياسة فى حدودها التقليدية ، وقد تجمع هذا القسم فى حزب جديد لم يكن يتوقع منشئوه انه سينال الأغلبية البرلمانية ، ويتولى الحكم ثلاث مرات فى المستقبل ، وهو حزب العمال ، أسسه سيدنى وب وزوجته ورامزى ماكدونالد ليتخرج فيه جيل من المفكرين امثال هارولد لاسكى وكول وبيفان ، وجيل من السياسيين مثل اتلى وبيفن وجيتسيكل وغيرهم .

ولكن تاريخ حزب العمال منذ أن حصل على بضعة مقاعد ١٩١٧ وزاحم المحافظين والأحرار فى البرلمان الانجليزى ثم حصل على الأغلبية بعد ذلك ثلاث مرات تولى فيها الحكم لم يكن أبدا منسجما تمام الانسجام مع مبادىء جماعة الفابيين .. لقد تنازلت الجمعية الفابية عن ثورية الاشتراكية وكاد حزب العمال أن يتنازل عن اشتراكية الفابيين حتى أصبح قريبا من حزب المحافظين كما أشار الى ذلك أنيورين بيفان أحد أقطابه أكثر من مرة ، وكما يتردد فى كتابات كثيرة من انصاره فى مجلات الايكونوميست وستيتسمان آنديشن ، وكما خيب حزب العمال آمال كثير من الانجليز فيه ، فقد

أصاب بالخيبة والاشفاق كثيرا ممن لكانوا يرجـون منه الخير فى الشعوب التى تتعامل مع الانجليز تعاملا سياسيا ·· ولقد استبشرت مصر مرة بمفاوضات سعد زغلول مع رامزى ماكدونالد ، ولكـن الحوادث قضت على هذا التفاؤل ، وكان ذلك موقفنا أيضـا حين تفاوض المسئولون المصريون مع بيفن وغيره من اقطاب حـزب العمال ··

أما الفريق الثانى من مفكرى الفابيين فقد عبر عن رأيه فى الأدب والفكر السياسى ، وهذا الجانب هو أخلـد جوانب الجمعية الفابية ، ولعل أروع الوجوه الأدبية فى تاريخ الفابيين هو برنارد شو ، ذلك الايرلندى الساخر العظيم الذى لا أجد أبلغ فى وصفه من كلام مواطنه الكاتب الايرلندى سين أوكيزى عنه ·

« سيبقى شو على الزمن بعد انقضاء حيـاته بمسـرحياته الرائعة وحكمته الاجتماعية المدهشة ، وشـجاعته ونقده البـارع للموسيقى والمسرح ، لقد كان انسانا يضحك وسط ألم الجسد وألم الذهن وكانت ضحكته مطعمة بالجد ، ومع ان بعضهم دعاه هازلا ، فقد كان هزله لطيفا لائقا أنيسا ، وحين كان يهـزل لم يكن يرتدى لباس الحمقى بل الجلباب الجليل الذى يرتديه الروح المقدس نفسه ، وفى نفس الوقت الملائم ستمتزج هذه المواهب وسيسـطع شو فى كنيسة فكر الانسان كحكيم واقف فى نار الله المقدسة » ·

اعتمد شو على المسرح لكى ينشر أفكاره ، وقد ناقش شـو فى مسرحه جميع المشاكل التى تهم العصر ، فهاجم النزعة العسكرية فى الأسلحة والانسان متخذا من شخصية نابليون بونابرت أسطورة التفوق والخلق العسكرى مسلاته ، وناقش الزواج فى مهنة مسز وارن ، والدين ونفاق المتدينين فى مسرحيته ميجور باربارا وحجج الاستعمار الكاذبة فى جزيرة جون بول الأخرى ، تلك المسـرحية التى هاجم فيها الاستعمار الانجليزى فى مصر ، ودافع عن وجهة

نظرنا فى أحلك الأيام ٠٠ وكان يدا من الأيدى التى طالبت بخروج اللورد كرومر من هذه البلاد ٠٠

كان النظام الرأسمالى عدو شو الأول الذى عاش لينتقده فى جوانبه السياسية والاقتصادية والخلقية ، ولكنه لم يكن ثوريا بمعنى الثورية التقليدية ٠٠ ثورته تكمن فى عبارته ، ولعله لم يكن يؤمن بالثورة لأن الثورات فى نظره لم تخفف من عبء الظلم ولكنها نقلته فقط من كاهل الى كاهل ٠٠

ومن الأدباء الفابيين هـ٠ج٠ ولز ، وهو ان توزعت اهتماماته بين القصص العلمية والواقعية الا أن له فى نقد الواقع ومحاولة اصلاحه نصيبا لا ينكر ٠ وقد كتب هـ٠ج٠ ولز فى عام ١٩٠٥ كتابا سماه نشرة الأحذية ، وصدر هذا الكتاب وعلى غلافه شعار الجمعية الفابية ، وفيه يتحدثولز عن حياته المبكرة ، يقول : « لقد قضيت الشطر الأكبر من طفولتى فى مطبـــخ تحت الأرض وكانت نافذة المطبخ تطل على مساحة من الأرض يسدها جدار يواجه حانوت أبى ، فكنت بذلك كلما أطللت من النافذة رأيت أسفل الناس ولـــم أر رؤوسهم وأجسامهم كما يفعل غيرى من الأطفال الذين تفضل نشأتهم نشأتى ، وهكذا تعرفت على جميع أنواع الناس فى كل طبقة من طبقات المجتمع ٠٠ فكانوا عندى مجرد أحذية تتحرك ، بل مجرد نعال تمشى » ٠٠

لم يقصر ولز فى نقده لعيوب المجتمـــع ، وان كان لم يجعله قصارى همه ، ولعل النزعة العلمية التى لازمته هى التى صرفته عن التفرغ للرواية الواقعية التى تحمل الأفكار الفابية ٠٠

هذان الرجلان ، وهما أكبر أديبين انجليزيين فى هذا القرن من رواد الفابية الأوائل ، وقد حفل تاريخ الجمعية الفابية الى جانب الأدب بدراسات متنوعة فى الاقتصاد والســـياسة والاجتمـــاع ،

ومازالت دراسات لاسكى وكول وبيفردج تساهم فى التفكير السياسى وتلقى استجابة كبيرة من القراء ..

لقد تفتتت الجمعية الفابية حين توزع نشاطها .. وحين دخل حزب العمال المعترك السياسى ونما دوره فى توجيه السياسة حتى كادت تصبح مجرد ذكرى من ذكريات ماض ملىء بالفكر والشجاعة ، ولكن الأزمات الأخيرة كما أشار الى ذلك هذا البيـــان الحديث .. القنبلة الذرية وعدوان الســويس والازمـــة التى تهدد المجتمـــع الرأسمالى كل تلك الأسباب قد دفعت الجيل الجديد من الفابيين الى أن يحاول أن يضم صفوفه ، وأن يعد الحلول لمشـــكلات الســاعة مستعينا بتراث سابقيه ..

ولن انسى أن اشير الى أن نهاية البيان تضمنت أمرين عظيمى الأهمية .. أولهما ان الجمعية اشتراكية النزعة لها ارتباط مابحزب العمال .. والثانى الاشارة الى الانتخابات القادمة فى بريطانيا واحتمال أن يفوز العمال فيها بأغلبية تقفز بهم الى الحكم ..

يحق لنا اذن أن نتساءل : هل تنظم الجمعية صفوفهـا لكى تكون هى الجهاز النظرى لحزب العمال ؟ .. وهل تهتم بمشـــاكل الساعة لكى يكون لدى العمال حين وصولهم الى الحكم حل جاهز عاجل لجميع المشاكل التى تواجههم ..

وأخيرا .. هل تبحث انجلترا عن نظرية سياسية تتصــــرف بمقتضاها لكى تتجنب الأزمات الداخلية والخارجية ، ولكى تحميها هذه النظرية من التورط فى المغامرات العدوانية أو الاضـــطراب الداخلى ..

صباح الخير ١٩٥٧/٩/١٢

الحريــة .. والتخطيــط
فى جمهوريتنا العربية

نصت المادة الرابعة من الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة على أن « ينظم الاقتصاد القومى وفقا لخطط مرســومة ، تراعى فيها مبادىء العدالة الاجتماعية ، وتهدف الى تنمية الانتاج ورفع مستوى المعيشة ..

والمادة ٧٢ من هذا الدستور تقول « يكون المواطنون اتحادا قوميا للعمل على تحقيق الأهداف القومية ، ولحث الجهود لبناء الأمة بناء ســليما من النواحــى الســياسية ، والاجتماعيــة ، والاقتصادية ..

فالحكومة العربية اذن حكومة تخطيط ، وهى تحاول ان تدرك ــ فى سنين قليلة ــ ركب التاريخ ، وهى تعلن أن قيامها مرتبط بحاجة الافراد الى تنمية الانتاج وبناء المجتمع السليم ..

والحكومة الجديدة كذلك لا تدعو المواطنين الى السير وراءها معصوبى الأعين مسلوبى الارادة ، فان لدينا الوعى يــدور دور الحكومة ، والفهم الكامل لمعنى الحرية فى المجتمع التعاونى الجديد

•• نحن نعرف أننا لا نتنازل عن شيء ، ولا نصغر تجاه عملاق كبير اسمه الدولة ، ولكننا لأننا شعرنا بحاجتنا الى عمل أكبر ، وتنظيم أشمل ، ويد أصلب ، فقد اقمنا حكومتنا الجديدة •• حكومة التخطيط والتوجيه ••

فما هى المفاهيم المختلفة للفرد والحكومة والحرية ؟

وما هو المفهوم الذى اخترناه نحن ، واختاره شعبنا ؟

***

كان هناك نظرية قديمة اسمها نظرية الحق الالهى ، كان الحاكم ممثل الله على الأرض ••

وحين بدأت الشعوب تستيقظ ، ويكون لبعض طبقاتها دور فى توجيه سياستها ، ابتدأ الفكر السياسى الحديث ••

وجان جاك روسو الفيلسوف الفرنسى من أوائل أصحاب النظريات فى علاقة الفرد بالدولة ••

تقوم نظرية روسو فى العقد الاجتماعى على مبدأ أصيل ، هو ان الفرد حر كامل الحرية ، وأنه يتنازل بمحض ارادته للدولة عن قدر من حريته ، اذ أنه يتعاقد مع سواه من الافراد نوعا من التعاقد لكى يستطيع كل منهم أن يمارس حريته دون أن يعدو على حريات الآخرين •

وقد ظلت هذه النظرية الفلسفية هى معين القرن التاسع عشر فى تجديد كلمة الحرية ، وساعدت هذه النظرة على تدعيم الأسس الاجتماعية لذلك العصر ، فالانسان الفرد هو محور الكون ، وهو يقبل طائعا ان ينضم الى المجتمع ، ومن حقه ان يرفض ، والصورة الأولى للكون هى الانسان الفرد الحر ، والفرد اذ يشبع

مطالبه الخاصة فهو يؤدى فى الوقت نفسه مطالب مجتمعه ، والمشروعات الفردية والامتياز الفردى هى غاية الغايات ، والاقتصاد الحر هو الصورة الطبيعية للاقتصاد فى العالم ومبدأ خطير مثل « دعه يمر ·· دعه يعمل » يجب أن يسود ، اذ أن فى تقييده افتئاتا على الحرية ، وتعسفا موجها للانسان واجبارا له على أن يتنازل عن قسط من حريته ، دون رضاء كامل ··

ومن جانب آخر ·· قال هيجل « ان الدولة هى الفكرة الخالدة على الأرض ،انها القوة المطلقة على وجه الكون ، ان لها كل الحقوق وبيدها كل السلطات على الفرد ··

وهيجل فى هذه النظرة يجعل الصورة الرئيسية للكون هى الدولة ، ويجعل الفرد شيئا ضائعا ، أو هو أداة تباشر فيها الدولة سلطاتها فى السيادة والاستغلال ··

والواقع أن الدولة ليست الا مجموعة أفراد ، ولكن هيجل كان يعنى بالدولة جهاز الحكم والفكرة التى تقوده ·· وقد عبر الدستور الايطالى الذى أصدره موسولينى عن هذه الفكرة فى مقدمته حين قال :

ان الأمة الايطالية ، بقوتها وخلودها هى جهاز له وجود وغايات ووسائل للعمل ، أعلى من الأفراد ، سواء متفرقين أو مجتمعين ، ممن تتكون منهم الأمة !!

وبين هذين القطبين ، روسو الذى يجعل الفرد محور الكون ، وعلة الحياة الاجتماعية ، وهيجل الذى يمحو الفرد تجاه الدولة ·· تذبذبت مفاهيم الحرية على مدى القرون الحديثة ، وكما نبعت الرأسمالية والديمقراطية البرلمانية من هذه الفكرة التى ألقى بها روسو،فقد ازدهرت أفكار هيجل فى الدستور الايطالى وعلى صفحات كتاب «كفاحى» لهتلر ، وولدت منها الفاشية المحدثة ··

ومفهوم الحرية من المفاهيم الأساســـية التى لابد لكل نظام اجتماعى ان يناقشها ، وان يتخير مفهوما لها تنبع منه اعمالــه ، ويكون هو الخط السياسى للدولة ..

ومجال الحرية هو ، أولا واخيرا ، مدى العلاقة بين الفرد والمجتمع ..

ان دخول الفرد فى المجتمع ليس أمرا يستفتى فيه الانسان نفسه ولم يحدث بينه وبين المجتمع ذلك التعاقد سواء فى صورة الاختيار السافر أو المستتر ، والمجتمع أكثر تركيبا مما ظن روسو ، وفى ذات الوقت اكثر بساطة ، فهذه الحياة ليست من خلقنا حتى نســتطيع أن نرفضها أو نقبلها ، كما ان هذه الصورة الاجتماعية ليست وليدة جيل من الأجيال أو ثمرة تفكير أمة من الأمم ، ولكنها صورة قديمة كقدم الانسان ، خالدة كخلوده ، وكل ما يستجد فيها من تغيرات أو ما تأخذه من أشكال انما هو مما يمس مظاهرها دون الجوهر .. والدولة كذلك ليست هى ذلك الوحش الأسطورى الذى يمد ألوف الأذرعة حول الناس لكى يخنق ارادتهم أو يميت طاقاتهم الخلاقة .. وهى اذا اتخذت ذلك المظهر لمدة من الزمن فلابد أن تتخلى عنــه بحكم ملزم قاس ، وجميع النظم الفاشية التى قامت عبر التاريخ قد لاقت حتفها على أثر أى انتقاض بمسها من الداخل أو الخارج ..

هناك اذن صورة ثالثة للتكامل الاجتماعى ، وتقوم هذه الصورة على أن الانسان لايختار ان يكون « اجتماعيا » ولايستطيع أن يكون « فرديا » والمجتمع ليس عدوا للفرد ، وليس هو قوة أعلى منه ، بل ان تقدمه هو مجموعة الطاقات الخــلاقة لجميـــع افراد الذين يكونونه ..

ولما كان التقدم الاجتماعى هو هذه الطاقات الخلاقة فقد كان لابد من اختيار بعض الأفراد لكى ينظموا هذه الطاقات الخلاقة ولكى يوجهوها جميعا نحو تقدم المجتمع ..

وتاريخ عملية الاختيار هذه ، هو تاريخ تطور صور الحكم ..

والدولة اذن هى قوة جماعية ، تستمد قوتهـا من الأفراد ، وتمارس سلطاتها فى حدود تنظيم امكانياتهم وتوجيهها ..

ويتسع نفوذ الدولة ويضيق تبعا لحاجة الافراد لا تبعا لما يتنازلون عنه من حرية ..

وقد يكون هذا الفرق غير واضح نظريا ، ولكنه يتضـــح فى التطبيق ، فالدولة التى تمارس سلطاتها وقد وضعت فى ذهنها انها تتصرف فى حدود ما تجبر الافراد على التنازل عنه من الحريات تسعى دائما لأن تمد من سلطاتها على حساب الافراد .. وهى عادة لا تعبأ بالفرد وتطالبه كل يوم بصك تنازل جديد فى هيئة قانون أو تشريع ، وهى أيضا تحاول أن تبرر هذا العدوان بالشعارات والالفاظ الخداعة ، ومثال ذلك الدول الفاشية التى لا تملك فى الواقع شعارا الا العدوان واثارة كراهية الأفرد ..

أما الدول التى تمارس سلطاتها تبعا لحاجة الافراد فهى تملك وجهة النظر ، وقد حددت الغاية والهدف ، وأعمالها جميعها تنبع من نظرية سياسية أو فهم لدور الأمة فى الحضارة العالمية ..

وهذه الدول قد يتسع سلطانها فى فترة من الفترات ، وقد تسن من القوانين والتشريعات ما ينظم جميع أوجه النشاط ، وما يتدخل الى حد بعيد واضح فى تنظيم الامكانيات الفردية وتوجيهها ..

ان الحجة الوحيدة لأمثال هذه الحكومات هى أن الافـــراد محتاجون الى هذا الجهاز المنظم ، وأن الحكومة لا تسلب حقا ولا تفتات على حرية ، ولكنها تمارس دورا ..

وفى القرن العشرين اتسع نشاط كثير من الحكومات ، وأصبح دورها الخطير فى المجتمع لازما وواضحا ، ذلك لأن العلل الاجتماعية التى شكا منها القرنان الثامن عشر والتاسع عشر قد وصلت الى حد لا يسمح باهمالها أو تركها للطاقات الفردية الصـــغيرة ، وقد

أصبح لزاما على كثير من الدول ـ اذا أرادت أن تدرك ركب التاريخ ـ أن تسمح لحكوماتها بمجال من العمل أوسع ··

وكان لكل ذلك استجابة لحاجة الافراد ··

هذا هو الفرق الأول بين حكومات الفاشية وحكومات التخطيط أو الديمقراطيات الموجهة أو الحكومات الشعبية ··

أما الفرق الثانى فهو فى الهدف ··

ولنعد الآن الى مفهومى الحرية اللذين أسلفنا بيانهما فى أول المقال · ان المفهوم الفردى الأول للحرية يصل الى غايته حين يتاح للفرد أن يأخذ من المجتمع مقابل ما تنازل له عنه من الحرية بموجب تعاقده الاجتماعى ··

وهدف مجتمع قائم على هذا المفهوم هو اتاحة الفرصة للفرد لكى يصل الى غايته من المجد أو الرفعة أو الثروة أو السلطة بغض النظر عن التكامل الاجتماعى ، وليس من العسير أن ندرك أن مجتمعا قائما على هذه الفردية ، قد يكون بلا هدف ··

ولذلك كانت مجتمعات القرن التاسع عشر مجتمعات نمت فيها قدرة الفرد على الاستغلال والتحكم فى الآخرين ، وتضخمت فيها رءوس الأموال ، وتضخمت معها المشاكل الاجتماعية والطبقية ··

أما المفهوم الثانى ، ذلك المفهوم الذى يقيم الدولة بنيانا شامخا لا تتطاول اليه ارادات الأفراد ، فهو بلا هدف أيضا ، ولذلك فان جميع الحكومات الفاشية قد فشلت فى أن تجعل لها هدفا ثابتا ، وقد كتلت تلك الحكومات الأفراد وراءها كأنهم أعواد الحطب ثم دفعت بهم الى الحريق العالمى دون هوادة ··

أما حكومات التخطيط والديموقراطيات الموجهة فهى تعلن الهدف أولا ثم تمشى اليه وراءها الأفراد جميعا ··

صباح الخير ١٣/٣/١٩٥٨

الفــلاح والأرض

يختم ابراهيم عامر كتابه عن الفلاح والأرض قائلا :

ـ ان المسألة الزراعية فى مصر أصبحت مطروحة للمناقشة بجميع عناصرها ، ومن الواجب على كل مصرى أن يساهم فيها ، وان يتقدم بالحلول القانونية لتسوية مشاكلها ٠

ولابراهيم عامر الحق فى اثارة هذه الدعوة ٠٠ ذلك أن طبيعة المرحلة الثورية التى تجتازها مصر تحتم على مفكريها الاقتصاديين والاجتماعيين ان يتطوروا بتفكيرهم الاصلاحى الى الأمام ، لكـى يستطيع هذا التفكير بدوره أن يسهم فى حل المشاكل المعاصـــرة والمشاكل التى قد تنشأ فى المستقبل ٠

ان قانون الاصلاح الزراعى ، ذلك القانون الثورى المجيد ، الذى تعرض لحرب سافرة من الملاك العقاريين قد حل جانبا كبيرا من الأزمة ، وهو الى جانب ذلك قانون قد حظى برضاء جميع الأطراف المنصفة المهتمة بالامر على اختلاف وجهات نظرها ، فالمصــــريون الواعون قد رأوا فيه نصرا اقتصاديا واضح الدلالة ، واعرب البنك الاهلى عن تأييده له حين قال فى تقريره : « من حسن الطالع أن جاء تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى فى مصر على يد حكومة نظامية ،

وفى حدود القانون بدلا من أن يتولاه نفر من غير المسئولين فيقترن بالعنف والفوضى ، أما اتحاد الصناعات فقد وصف هذا القانون بأنه قد « جنب البلاد ويلات الحلول العنيفة » ٠

ولكن القانون قد نص على قيام نقابات للعمال الزراعيين ، ورغم ذلك فان عدد العمال الزراعيين النقابيين فى مصر لا يتجاوز خمسة آلاف عضو من بين خمسة عشر مليون فلاح يمثلون أكبر قوة انتاجية عاملة فى مصر ٠

وفى المقدمات الطويلة التى ساقها المؤلف قبل أن يتعرض لمناقشة قانون الاصلاح الزراعى والآثار التى ترتبت عليه ، حاول المؤلف أن يثبت ان تطور مشكلة الفلاح والأرض فى مصر كان هو المظهر الرئيسى لتطور صورة المجتمع المصرى ، وربط المؤلف ربطا موفقا بين النماء الطبقى والتغيرات الاجتماعية وبين التشريعات الزراعية المختلفة ، ونشوء المؤسسات الاقتصادية الرأسمالية فى مصر ٠

لقد تبلورت المواقف السياسية فى المسألة الزراعية ، وقد كان مما يميز تصرفات الحكومات شبه الشعبية عن تصرف حكومات الأقلية هو موقفها من الفلاح والأرض ، فبينما حرصت بعض الحكومات على معالجة مسألة الائتمان الزراعى ، وأقامت بنكا للتسليف الزراعى ، اذا بحكومة أخرى منحكومات الطغيان ، وهى حكومة صدقى ، تعقد اتفاقا مع البنوك العقارية تعود فائدة ذلك الاتفاق على هذه البنوك ٠٠

ولكى يدعم المؤلف نظرته فقد قسم المشتغلين بالزراعة الى خمسة طوائف :

- المزارعون الأغنياء
- الملاك العقاريون

- المزارعون المتوسطون
- المزارعون الفقراء
- المعدمون والعمال الزراعيون

ولما كان تاريخ الحركة القومية عند المؤلف هو تاريخ مشكلة الفلاح والأرض ، فان هذه الطوائف الخمس هى التى حددت شكل النشاط السياسى فى مصر ·

فكانت الطائفتان الأوليان ، الملاك العقـــاريون والمزارعون الأغنياء بحكم وضعهما الطبقى ضالعتين مع الاستعمار ، ممالئتين له ، وهما معا يكونان تلك الطبقة التى كان الاستعمار يطمئن اليها ، والتى كان يعدها لتخلفه فى ادارة شئون البلاد ·

اما الطائفة الثالثة فهى مترددة بطبيعتها ، وان كانت تحس بالحاجة الى أن تتمتع بمزيد من الحقوق السياسية ، وهـــى لهذا كثيرا ما تنضــم الى الحركة القوميـــة ، وتؤيد بعض الأشـــكال الديمقراطية المحدودة ··

اما الطائفة الرابعة فهى العمود الفقرى للحركات الوطنية ، وتساندها الطائفة الأخيرة ·

وهذا التقسيم فيه من التجاوز مثل ذلك القدر من التجاوز الذى نستطيع أن نلمسه فى حديث أولئك الذين ينســـبون عبء التطور السياسى المصرى الى طبقة العمال مثلا أو الى الطبقة الوسطى المصرية فى المدن ··

ذلك لأن هذا التطور قد اسهمت فيه جميع قطاعات الشعب ، وربما كان الفلاحون ـ فى حقبة من الزمن ـ عاملا راكدا فى الحركة الوطنية نظرا لبعدهم عنها ، وتخلف مستواهم فى الوعى الشعبى والقومى ··

يقول المؤلف :

« ومنذ ظهور الملكية الفردية فى الأرض ، أى منذ عهد محمد على ، وتلك القوى (التى اشرت اليها) فى تصارع مستمر ، وقد اتخذ هذا التصارع أشكالا هى التى نعرضها الآن · ان من العسير أن نتلمس خطا سياسيا لكفاح الفلاحين ككتلة حين نتتبع حركتنا القومية المصرية ، اللهم الا اذا كنا سنضع فى ميزاننا أبناء الفلاحين ممن نزحوا الى المدينة ، فكونوا طوائفها العمالية والحرفية ، وصغار الموظفين ، وابناء سادة الملاك العقاريين ممن تولوا الحكم ··

***

فى الكتاب مقدمة تاريخية طيبة عن تاريخ علاقة الفلاح بالأرض فى مصر منذ أقدم العصور وقد حاول المؤلف ان يشجب الرأى القائل بأنه كان هناك نظام اقطاعى فى مصر ·· واستند المؤلف الى تعريف تجريدى للاقطاع ، فهو يقول بأن الاقطاع هو تبعية الفلاح تبعية مطلقة للسيد الاقطاعى ، وان الاقطاع هو علاقة بين السيد المتبوع ، وليس هو علاقة بين الدولة والمواطن ··

ويستطرد المؤلف ليقول ان السلطة فى مصر كانت سلطة الدولة اذ كانت الأرض الزراعية ملكا لها لا لأمراء الاقطاع كشأن الاقطاع الاوروبى ·

ولذلك فان المؤلف يطلق على طبقة الاقطاعيين المصريين اسم الملاك العقاريين ··

الواقع ان الاقطاع ليس شكلا سياسيا بقدر ما هـو شـــكل اقتصادى ، وحين كان الملتزم يقوم بجباية الضريبة ، ويلتزم بها هو وابناؤه من بعده كان هذا الالتزام اقطاعا من نوع آخر ، قد يختلف عن اقطاع أوروبا فى المظهر ، ولكنه يتحد معه فى النتيجة ٠٠

وختاما فان قيمة هذا الكتاب هو انه دراسة وافية مخلصة لمشكلة الفلاح والأرض ، من وجهة نظر سليمة ، وبلغتنا العربية ٠٠

صباح الخير ١٩٥٨/٤/١٧

مـــرض الفرانكوفيليـــا

اجتازت القومية العربية المرحلة التاريخية من مراحل حياتها، وهى مرحلة « تكون أو لا تكون » ٠ لقد اصبحت هذه القومية حقيقة واقعة لها صلابة الحقائق ورنينها الصادق ٠ ولا يكفى اننا نحسن بذلك الاحساس فى شرقنا العربى ، بل ان كل أقطار الدنيا قد أدركت هذه الحقيقة ، وقد أفسحت لها طريقا بين الحقائق التى عرفها القرن العشرون ٠٠

لقد عاصرت القومية العربية فترات الشك ، وثبتت للمناقشة ، وامتحنت بالواقع فصمدت لازماته السياسية والاجتماعية ، ثم خرجت من تلك الاختبارات ، وقد ازدادت قوة ٠٠

ونحن قد نتناقش : هل الشعب العربى شـــعب واحد أم هو شعوب مختلفة يربط بينها حد أدنى من المشاركة التاريخية ، ذلك الحد الذى ارتكزت عليه المصلحة المشتركة المعاصرة ، وقد نتناقش أيضا فى هذه القوميات المحلية ، وحظها من البقاء فى المستقبل ، ولكنا ـ على اختلاف مفهومنا ـ للقومية العربية ، ننضوى تحت ذلك اللواء لأننا ندرك ان انتصاراتنا السياسية والفكرية والاقتصادية لن تتحقق الا اذا شرعناه فوق رءوسنا ٠٠

وفى هذه المرحلة التاريخية التى دامت فترة طويلة ، والتى ماتزال بعض رواسبها تعيش فى النفوس ، تخلصت البلاد العربية على اختلافهـــا من كثير من الدعوات التى كانت تلبس فى بعض الأحيان رداء الصدق ٠٠

تخلصت مصر من نزعة الفرعـــونية ، ومن نزعـــة القومية المصرية التى لا تنتسب الى العروبة الا بنسب اللغة ، ومن نزعـــة القربى لأقطار البحر المتوسط ٠٠

وتخلصت بلاد العروبة الأخرى من نزعات تشبه تلك النزعات، سواء فى ايمانها بالوراثات التى سبقت الحضارة العربية ، أو فى اعتمادها على صورة المجتمع العربى المتجزىء التى نشأت فى القرون الوسطى ٠٠

وكانت تلك النزعات تبسط سلطانها فى بعض الأحيـان على الفكر العربى ، وتتضح آثارها فى كتابات بعض الكتاب المصريين خاصة والعرب عامة ، مثل سلامة موسى وطه حسين وأمين الخولى فى مصر وسعيد عقل وأمين نخلة وأشياعهما فى لبنان وغيرهم ٠٠

ولكن هناك نزعتان أو على الأصـح مرضـــان فكريان ، كانا يمدان جذورهما فى الشرق العربى كله نتيجة للسيطرة الاستعمارية على أغلب أقطاره ٠٠ ولما كانت الدولتان اللتان تقاسمتا الشـــرق العربى هما فرنسا وانجلترا ، فقد كانَ التيّاران الثقافيان ، الانجليزى والفرنسى ، يغلبان على العقول العربية المثقفة ٠٠

وسأستعير هنا تسمية أحد مؤرخى الحضارات لهذين المرضين ٠٠ الفرانكوفيليا أى المحبة لفرنسا وثقافتها ٠٠ ولأنجلوفوميا أى الاذعان للثقافة الانجلوسكسونية والايمان بها ٠٠

لقد كنا هنا فى مصر نميز بين النزعة اللاتينية فى التفكير وبين

النزعة الانجلوسكسونية • وكنا حين نريد ان نختصر المقارنة بين مفكرين مصريين مشهورين نقول ان احدهما لاتينى النزعة ، والآخر سكسونى النزعة ••

وهذان المفكران هما أشهر المفكرين المصريين •

الفكر العربى ••

ان القوة التاريخية التى دبت فى أوصال القومية تقتضينا ان يكون لنا فكر عربى الطابع والأسلوب ••

ولست أعنى بذلك أن نطرح على انفسنا كل الثقافات والأفكار الأخرى ، ولكنى أعنى أن نعدل من طريقة نظرتنا اليها وتعاملنا معها ••

ان هناك فرقا كبيرا بين التمثل والتقليد • فالتمثل يعنى أن تصبح كل تلك الثقافات التى تصب فى نهر الحياة العربية جزءا منه بحيث لا نستطيع تمييز مصدرها ، لقد ذابت فى المجموع واندفعت مع التيار فى مجراه الجديد ••

أما التقليد فان أثره يظل مثل الرقعة فى الثوب ، هى الى أصلها أقرب منها الى الثوب المرقع ••

وحين نطالب الفكر العربى الجديد أن يكون له ذاتيته ، فنحن لا نطالب بأن يتجهم فى وجه الثقافات الوافدة ، ولا بأن يغلق بابه دون الأفكار الجديدة ، ولكنا نطالبه بأن ينظر فيها دون تعال عاجز ، أو تواضع وضيع ، وأن لا يعنى الجوهر دون المظهر ، وباللباب دون القشور •

ان أمام الفكر العربى اذن منبعين ، المنبع الأول هو ذاته ، التى هى تراثه على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان ، والتى هى

تلك الروح العلمية التى عرفها الأسلاف وقدروها حق قدرها ٠٠ أما المنبع الثانى فهو كل جديد مفيد وخير مما أنتجته حضارة الانسان ٠

وحين تتم لنا كل هذه المواد ، ينتهى دور التاريـــخ فى بناء القومية العربية ، ويبدأ دور الفكر ٠٠

وحين يبدأ دور الفكر تدخل القومية العربية فى مرحتلها الثانية وهى المرحلة « الأيديولوجية » ٠

الأيديولوجية العربية ٠٠

لم تعد كلمة « ايديولوجية » كلمة غريبة على القارىء العربى، فقد تداولتها الألسنة ، وكثر ذكرها فى الصحف ٠ ٠

والأيديولوجية بعد ذلك ، هى الفكر الذى يدفع الى العمل ، وهى نقطة البدء والطريق والغاية ، وهى السمة التى تميز كل أمة عن الأمم الأخرى ، ولكل مذهب عن سواه من المذاهب ، فى أساسه النظرى وهيكله العام ، واهتماماته التى تتصل بالحياة العملية ٠٠

لقد دبت الحياة فى جسد الشعب العربى على اثر ثورة موفقة هى ثورة مصر ، ونادت بالقومية العربية فى سوريا أحزاب كان لها طابعها الثورى ٠٠ والقومية العربية قوة ثورية لأنها تتناول جذور المجتمع ، وتضع كثيرا من المفاهيم الثورية ٠٠

والقومية العربية قد نبتت فى وجه مقاومة ، احتشـــد لهـا الاستعمار والقوى الرجعية فى داخل الوطن العربى ، وهى تواجه هذه المقاومة كل يوم ، أما الاستعمار فيعاديها لأنها تدعو الى تحرير الأمم ٠ ويحاربها الرجعيون لانها تدعو الى تحرير الأفراد ٠٠

والاساس الثانى للقومية العربية انها حركة تهدف الى تحرير الأمة العربية من الاستعمار ، والفرد العربى من الرجعية والاقطاع ٠

وتهدف الثورة القومية العربية من وراء ذلك كله الى بنـــاء

مجتمع اشتراكى ، والمجتمع الاشتراكى بأبسط معانيه هو المجتمع الذى يشترك جميع أفراده فى خيراته ، ولما كانت الخبرات الاشتراكية قد تعددت وخاصة بعد نجاح أول ثورة اشتراكية سنة ١٩١٧ ، واختلفت تلك الاتجاهات والخبرات الاشتراكية باختلاف الأرض التى قامت عليها ، والظروف التى نبتت فى وسطها ، فإن من واجب الثورة القومية العربية أن تخط طريقها الى الاشتراكية مستعينة بتلك الخبرات والاتجاهات ٠

ويقتضى ذلك الهدف أن تحدد الثورة القومية العربية مواقفها المختلفة تجاه مشاكل المجتمع العربى فى نظرية ثورية تحررية واحدة

وهذه النظرية هى « الأيديولوجية العربية » ٠٠ وبناء الأيديولوجية ليس عبئا على القائد السياسى وحده،بل هو عبء على عاتق جميع المفكرين الذين يجيدون التأمل ، وينفعلون بالأحداث السياسية ، ثم يحاولون ادراك دلالاتها ٠٠ وجمع هذه الدلالات فى منهج سياسى مستقيم متكامل ٠٠

نحو مرحلة عملية ٠٠

واذا اجتازت الثورة العربية هذه المرحلة ، وهى المرحلة الأيديولوجية ، انتهى دور المفكر النظرى ، وابتدأ العاملون من رجال السياسة اليومية والتنفيذ الاصلاحى ، ووجه ارتباط تلك المرحلة بسابقتها أى المرحلة الأيديولوجية ، هو أن الجهد المبذول على أسس فكرية واقتصادية محددة هو أيسر من الجهد المبذول بملاحظة عامة ، وهو كذلك أسرع أثرا وأنجح فاعلية فى البناء ٠

وأنا أدرك ان عجلة الاصلاح لا تتوقف ، وان الحاجات التنفيذية الملحة لا تنتظر ، ولكن من واجبنا التفرقة بين الاصلاح الجزئى السريع ، والاصلاح الشامل الذى ترسى أسسه على خطط واضحة وأهداف محددة ، ويمشي علي هدى فى طريق مرسوم ٠٠

أين نحن الآن ؟

لقد اجتزنا المرحلة التاريخية ، وثبتت القومية العربية كما سبق أن قلت فى أول المقال فى وجه الشك والمقاومة ، وقد أوشك أن يكون لنا « أيديولوجية عربية » ، وما علينا نحن الا أن نجمع أصولها وأشتاتها لكى نبنى منها مذهبنا الفكرى والحضارى ..

وبعد ذلك تأتى المرحلة الثالثة ، وهى أهم المراحل .. المرحلة العملية ..

صباح الخير ١٩٥٨/٥/٨

امبراطورية ناصر الافريقية ..
وقصص أخرى

صحافة الغرب لا تستطيع ان تدرك الى الآن سر ثورة الشعوب على الاستعمار ..

وكثير من المعلقين السياسيين يتوهم ان هذه الثورة الناشبة فى كل مكان ضد الغرب مجرد صدفة أو هى ظواهر منفردة لا يربطها رابط . وهى تتناول كل حالة من هذه الحالات على حدة .. وتحاول ان تستنبط لها اسبابا خاصة . فالثورة الوطنية فى افريقيا لها أسباب تختلف تمام الاختلاف عن تأجج الشعور القومى فى أمريكا الجنوبية ، وهذه وتلك لا علاقة لها بانتفاضة آسيا ..

ووراء كل حركة من هذه الحركات سبب بسيط هين .. قد يكون محطة اذاعة تهيج الجماهير ، أو حفنة من الطلبة الساخطين أو سببا آخر أهون من ذلك بكثير ..

أما السبب العميق ، وهو التناقض الحاد بين الاستعمار وبين هذه الشعوب ، فان معظم صحافة الغرب ومعلقيها تعمى عن ادراكه ..

والى القارىء مقالان من تعليق صحيفتين من اكبر صحف الغرب على بعض الأحداث الأخيرة .

وأول المثالين تعليق « النيوزويك » ·· وهـــى من كبريات الصحف الأمريكية على استقبال نيكسون فى أمريكا الجنوبية ··

لقد أفاضت الصحيفة فى وصف الأيام الكئيبة التى عاشها نيكسون فى أمريكا الجنوبية · ونشرت صورتين احداهما لنيكسون وهو يتلقى صيحات الشباب وأحجارهم وبصقاتهم ، والثانية لـــه وهو يلوذ بأحضان أحد الرسميين اثر جولة غير موفقة ·· كمـا نشرت الصحيفة صورتين للافتتين أعدهما الشباب فى اســـتقبال نيكسون وقد كتب عليهما : أخرج أيها الكلب الدنىء ! ·· لا نريد نيكسون القرصان ! ··

وذكرت الصحيفة زيارة نيكسون الخائبة لجامعة سان ماركوس أقدم جامعات أمريكا الجنوبية لقد استقبله هناك الفا طالب ، وهتافهم كالرعد : اخرج يانكسون · ووقف نيكسون يقول لهم : لقد جئت لاتحدث اليكم ·· فليخرج الى زعيمكم ليناقشنى ·· ولم يخرج اليه الزعيم ، بل خرجت الأحجار الصغيرة والبيض الفاسد من جيوب الطلبة لتندفع الى وجه نيكسون ومرافقيه ، وبصق أحد الطلاب فى وجهه وهو ينصرف الى سيارته ··

وصرح نيكسون بعدها للصحفيين تصريحا ·· قال فيه : ان ذلك الذى بصق على وجهى قد بصق على سمعة بيرو الطيبة ··

واعتصم نيكسون بفندقه ، والتف الشباب حول الفندق وهـم يهتفون : اخرج يانيكسون ··

وأرسل ايزنهاور فى تلك الليلة برقية الى نائبه يقول له فيها :

« عزيزى ديك ·· ان شجاعتك وهدوءك وسعة صدرك قد جلبا لك مزيدا من الاحترام والاعجاب من مواطنيك » ··

وسافر نيكسون من بيرو ليطوف ببقية اقطار أمريكا الجنوبية وليلقى فى أرجائها الواسعة نفس الاستقبال العدائى الحاد ··

وقد ذكرت الصحيفة الأمريكية أن حادثا آخر قد وقع فى نفس الوقت ، اذ هاجم بعض الوطنيين فى هايتى ، منزل السفير الأمريكى وانهالوا بالرصاص على نوافذه ، ثم اختفوا ، ويغلب على الظن ان هدفهم كان التهديد فحسب ...

وبعد ذلك تتساءل الصحيفة ، وقد كتب هذا السؤال بأحرف سوداء كبيرة : ما هو الخطأ فى سياســـة الولايات المتحدة تجاه شعوب أمريكا اللاتينية ؟ ..

وجواب الصحيفة،وهى ـ للمرة الثانية ـ من أكبر صحف الولايات المتحدة ، أن الشيوعيين فى أمريكا الجنوبية هم الذين يثيرون القلاقل فى وجه الولايات المتحدة ، وان هذه البـــلاد تعـــانى من التخلف الاقتصادى . ولذلك فان حفنة من المهيجين السياسيين يوجهون هذا السخط الى الولايات المتحدة ..

أما نيكسون نائب رئيس الجمهورية فقد كتب فى تقريره الى ايزنهاور ان السبب فى هذا الاستقبال هو « عدم فهم هذه الشـعوب لسياسة الولايات المتحدة وأهدافها » .. وقال : « ان الرسميين يدركون أهدافنا ولكنها لابد أن تصل الى افهام الشعب » ..

واقترح نيكسون أن يزيد تبادل الطلبـة والأخصـــائيين بين الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية .. وان تنظم مكاتب الاستعلامات الأمريكية تنظيما جديدا » ..

لقد نسيت الصحيفة الامريكية كما نسى نـــائب الرئيس أن الرأسمالية الامريكية تستغل مناجم النحاس فى شيللى والقصدير فى بوليفيا والزيت فى فنزويلا والزنك فى بيرو ، وتستغل مزارع البن فى كولومبيا والفواكه فى جواتيمالا ..

وان هذا الاستغلال هو المسئول عن تخلف المستوى الاقتصادى

لهذه الأقطار ، وعن الانقلابات العسكرية الدائمة فيها ، وانـــه هو الدافع الحقيقى لثورة أمريكا الجنوبية فى وجه نيكسون ··

والمثال الثانى من « الصنداى تايمز » كبـــرى الصـــحف الانجليزية ، لقد أوفدت الصحيفة كاتبة صــــحفية مشـــهورة هى « ايلزبث هكسلى » الى افريقيا لتقوم ببعض التحقيقات الصحفية عن الانتفاضة الافريقية الجديدة ··

وطافت الكاتبة بافريقيا ، ثم ابتدأت تنشر مقالاتها بانتظام فى عدد الأحد الأسبوعى من التايمز · وعنوان سلسلة المقالات « خطة ناصر فى افريقيا » وعنوان المقال الاول « ثعبان العنصـــرية » ، وسأقتطف بعض الفقرات من مقال الكاتبة المشهورة ، الحجــة فى الشئون الافريقية ·· وأترك للقراء الحكم عليها :

● ان أبواق الدعاية المصرية تضرب على الوتر الدينى حين تتجه الى افريقيا ، انها تصيح : ان جميع المســـلمين اخوة بينما الأوربيون وبخاصة الموظفين البريطانيين خنازير وكلاب ··

● ان وجهة النظر القاهرية تشجع ما تسميه الوطنية ، وهو فى الحق « عنصرية » · وقد كانت نتيجة ذلك أن قامت المذابح فى شمال افريقيا ضد البيض ! ··

والكاتبة ـ وهذا مجرد توضيح ـ تقصد الحرب فى الجزائر ··

● أن اذاعات القاهرة الاثنتى عشرة الموجهة الى افريقيا وآسيا تظل طول الليل والنهار تستثير نزعتين خطيرتين ·· أولاهما الكراهية والتحريض على قتل الأوروبيين ، والثانية النزعة الاسلامية

● ان افريقيا هى الجائزة الكبرى للمنتصر اليوم ، وناصر يسعى وراءها بكل جهده ··

وهذه بالاجمال الخطوط الرئيسية للتحقيق الخطير ! ··

لقد عرفت منه شيئا واحدا جديدا · وهو أن الاستعمار قد

أقام محطة اذاعة فى ممباسا عاصمة كينيا ، وأن هذه المحطة تقلد البرامج الموجهة المصرية وبرامج صوت العرب تقليدا أعمى ٠٠ فهى تذيع بالعربية واللهجات المحلية من ست الى ثمانى ساعات يوميا ، ويصل مدى ارسالها الى طنجة على ساحل المحيط الأطلسى ٠

ويقوم بالعمل فيها بعض موظفى الاذاعة البريطانية ، وتذيع احاديث دينية اسلامية وأغانى عربية وموسيقى شرقية الى جانب الأخبار ٠٠

ولكن المستمع الافريقى يتجه رغم ذلك الى اذاعة القاهرة ٠٠

هناك ظاهرة خطيرة فى هذين التعليقين السياسيين :

ان السياسة في عرفها دسائس ومؤامرات واستغلال للنزعات المخربة ٠٠

والوطنية ليست شعورا أصيلا فى النفس ٠٠ بل هى استجابة عمياء من الجماهير المضللة الى أصوات المهيجين السياسيين ٠٠؟

والانسان الذى يحتج على سرقته واغتصابه فهو اما قصير النظر يحتاج لمزيد من نشرات مكتب الاستعلامات الأمريكى أو مضلل يستمع الى برامج الاذاعة العربية الموجهة ٠٠

وهذا التفاؤل الهين ، واليقين السهل شىء غريب فى هذا العصر ٠ وقد يغتفر للانسان العادى الذى لا تعنيه السياسة كثيرا ، ولكنه لا يغتفر ابدا لمعلق سياسى أو لكاتبة مشهورة أو نائب رئيس الجمهورية التى تتزعم العالم الحر ٠

ان الانسان ليتساءل أحيانا ٠٠ هل هم لايستطيعون أن يروا بشائر العصر الجديد ، وأن يحسوا بانتفاضة الشعوب المستغلة فى كل اقطار الأرض لكى تخط مصيرها بيدها ٠٠

أم انهم يرون ويحسون ويعرفون ، ولكنهم يتجاهلون ٠٠

صباح الخير ١٩٥٨/٥/٢٩م

الشــارع فى بغــداد

بغداد تبدو من الجو كأنها صفحة فى كراس رسم ، مربــع أخضر ، ومربع أصفر ، أما دجلة فانه يلتوى كثعبان ضخم طويــل وقد رقد يستريح فى وهج الشمس ٠٠٠

وعندما تنزل الى الأرض تعرف أن بغداد مدينتان ٠٠ مدينة سكنية ٠٠ وكل بيت من بيوتها له حديقة من النخيل تكاد تحجبه عن العين ٠٠ والبيت من دورين اثنين غالبا ، وتسكنه أسرة واحدة ٠٠ ومدينة ثانية تجارية ، شوارع طويلة على حافتها « بواكى » بارزة وأسواق شرقية مسقوفة معتمة ٠٠

وبغداد مدينتان أيضا يفصلهما النهر ٠٠ فعلى ضفته الغربية ترقد بغداد القديمة التى بناها المنصور ٠٠ أحياء الكاظمية والكرخ ٠٠ وعلى ضفته الغربية بقايا من بغداد القديمة مثل أحياء الرصافة والاعظمية الى جانب بغداد الجديدة ٠

وتطلق كلمة الكرخ على بغداد الغربية جميعها ٠٠ والرصافة على الجانب الشرقى لبغداد ٠ وأول انطباع للذهن عن بغداد هو أنها مدينة ذات تاريخ ، فان منائر المساجد وقبابها ٠٠ واسماء السلاطين والأولياء، وأهل بيت الرسول التى تطلق على المساجد ، وهذا الطابع

الأصيل فى البناء يملأ النفس احساسا بالقدم ، ويكاد الانسان يلمس صفحات التاريخ بيديه ··

« علم النبى »

على مشارف الكاظمية علم أسود ، هو علم آل بيت النبى ·· ما زال يرفرف منذ ألف وثلاثمائة سنة ··

وفى الكاظمية مدفن الامام موسى الكاظم ·· أحد الائمة من أبناء على بن أبى طالب · وهو من أروع مساجد بغداد ·· فللمسجد ثمانى مآذن وقبتان ·· وكلها كسيت بالذهب ·· وحين تدخل الى المسجد لابد أن تخلع حذاءك ، مثل دخول بقية المساجد ، ولكن الجديد أن هناك رجلا يقف على الباب فى ثياب سوداء ·· وفى يده عصا طويلة فى آخرها سن معقوف من الحديد ·· والرجل يمد يده بالعصا ليلتقط حذاءك بطرف السن الحديدى ثم يضع حذاءك الى جانب كومة الاحذية الاخرى ·· فاذا أتممت جولتك فى المسجد وعدت اليه مد عصاه ، والتقط حذاءك من بين مئات الاحذية ، ثم رده اليك بنفس الطريقة دون أن يخطىء ··

وساحة المسجد واسعة · وفى صحنه وجدت الف امرأة عراقية على الأقل ·· وكلهن يتشحن بالسواد ·· وفى غرفة المسجد وقفت مجموعة من النساء يبكين ويلطمن الخدود فى صوت يجيش بالنحيب ·· ان الشيعة يقيمون مآتمهم فى صحن المسجد · وفى أركان المسجد الأخرى جلست مجموعات من النساء ، ليس لديهن مآتم ولا فقيد ، وهن يتسامرن ويكشفن عن الاسنان اللؤلؤية فى حياء ··

ومسجد الكاظمية أصفر من الخارج أبيض من الداخل ، فقد غطى الذهب قبابه ومآذنه ·· اما سقف المسجد من الداخل فمغطى بالزجاج المعشق ·· وكل شبر فى داخل المسجد لامع ومضىء كأن قبسا من نور الله قد انفجر فيه ·

« أجازة بالشعر »

وتخرج من المسجد الى السوق ، وهو سوق معتم رطب مسقوف ‥ والباعة يجلسون القرفصاء أمام حوانيتهم ، يبيعون العطر والمنسوجات المحلية والصناعات الفضية ‥ والسوق يزدهر يوم الجمعة لأنه يوم الصلاة والزيارة ‥ ولما كان يوم الجمعة يوم عطلة رسمية فى العراق حتى بالنسبة للتجار فقد ناشدت الحكومة التجار أن يقفلوا متاجرهم فى هذا اليوم ‥

ولم تجد الحكومة وسيلة لكى تنصح بها التجار الا الشعر ، فعلقت على مدخل السوق لافته كتب عليها هذا البيت ‥

أصدر الشعب بيانا فاسمعه

تقفل الاسواق يوم الجمعة

والميدان الفسيح الممتد أمام المسجد مزدحم بالخلق ‥ وكلهم طامع فى جاه آل بيت النبى وصهره . ومنهم من يجلس موليا ظهره للمسجد ‥ ولكن دون أن يمد يده ‥ وعلى باب المسجد قد علقت لافتة صغيرة كتب عليها ‥ « يا على » ، وهى تضاء ليلا بالنيون ‥

وعلى امتداد الكاظمية الى جنوب حى الكرخ ‥ والكرخ من أقدم أحياء بغداد . كان الكرخ هو مركز الحركات الوطنية منذ الثورة العربية الاولى حتى تحرر العراق ‥ وفى مقاهيه كانت تعقد الاجتماعات وتدبر المظاهرات ، ولم تكن أدوات الطغيان تجرؤ على دخول أزقة الكرخ أو التسلل الى معاقله .

واذا عبرت الجسر الى الرصافة وجدت أمامك شارع الرشيد ‥ وشارع الرشيد هو أكثر شوارع بغداد ازدحاما وحياة ‥ والمتاجر والفنادق تملأ ضفتيه . وتنطلق فيه سيارات الاتوبيس . الى كل اتجاه ‥ والسلع تتزاحم فى واجهات المتاجر ، وان كان

أكثرها مستوردا وأذكر ان فوطة الوجه فى الفندق الذى نزلت فيه كانت مستوردة من الهند ·· وفى واجهات المحـــلات أحذية من انجلترا وجوارب من ايطاليا وكرافتات من فرنسا ··

« الشارع العربيد »

وفى محاذاة شارع الرشيد على شاطىء دجلة يقع شـــارع « أبو نواس » وهو شارع عربيد مثل شاعره البغدادى العظيـــم · وتمتد المقاهى والكازينوهات على صدر دجلة فى شارع أبو نواس ·· ودجلة فى هذه الأيام قليل الماء ·· اذ أنه على عكس النيل ــ يفيض فى أواخر الشتاء حين تذوب ثلوج الشمال ·· ولذلك فان سكان بغداد يصطافون على شط دجلة ·· على الشاطىء الطينى الذى يتخلى عنه النهر فى الصيف ·· ويدقون عليه خياما بيضاء صغيرة ، وتنزع هذه الخيام قبل الفيضان أو تترك لتغرق حتى الموسم القادم ··

وفى المساء يضاء شارع الرشيد بأنوار الكازينوهات والمقاهى وبشعل النار المأججة التى يشوى عليها السمك المسقوف · والسمك المسقوف هو أشهر أنواع الاطعمة العراقية · والصيادون يصطادونه من النهر العظيم الممتد أمامهم ثم يشقون السمكة من ظهرها ، وتعلق السمكة أمام شعلة النار حتى تنضج دون أن تلمسها النار ··

والبيوت المقامة على النهر تشترك هى الاخرى فى صـــيد السمك وتسقيفه ، وعلى قدر ثراء البيت وكثرة ضيوفه تكون عظمة النار المشتعلة أمامه ·· ويظهر أن ضيوف شارع أبو نواس كثيرون ·· فبين كل شعلتين من النار مالا يزيد على متر واحد ·· ورائحة السمكالمسقوف تسيل لعابك ، ومائدة دجلة تسـع جميـــع الناس وتكفيهم ··

ودجلة نهر هادىء وديع الا عند الفيضان ·· فان هذا الصبى

الطيب الذى تندفـــع الزوارق المســتديرة غاديـــة رائحـــة ، يصـــبح عمـــلاقا غاضـــبا حين يفيض ، ويغـــرق كثيـرا من القرى والمزارع ، ويرتفع ماؤه الى شوارع بغداد ·· وقد كانت مقاهى شارع أبو نواس تعتمد على الغناء والرقص حتى دخـــل التليفزيون العراق ·· وجذب هذا الاختراع الجديد الزبـــائن دون حاجة الى الطرب واللهو ·· وطرد التلفزيون الراقصات من المقاهى ·· كما طرد الراديو الشاعر الشعبى من مقاهى القاهرة ··

« حى الذوات »

وحى الارستقراطية فى بغداد هو حى الاعظمية ·· وينتسب اسمه الى الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان ·· وفى طرف الحـى مسجده الواسع البسيط ··

وفى الاعظمية فيلات جميع أصحاب الفخامة والمعالى والسعادة السابقين ، وأكثر المدارس العليا والبلاط الملكى والنادى الرياضى الذى كان عبد الاله يتخذ منه وكرا لرذائله ··

ولكن فى الاعظمية أيضا أندية أخرى ، كان يتجمع فيها الشباب ومن أهمها نادى المحامين وفى نادى المحـــامين تلتقى بقلب العراق المثقف ، فعلى كل مائدة فى حديقة النادى تجلس جماعة من الشباب مليئة بالحماس والفهم ·· ثم تدار المناقشات ··

وهذه المناقشات لم تنقطع حتى فى أحلك أيام الطغيان ·· ومن أطرف الحوادث التى تروى عن نادى المحامين حادثة المزاد ·

أقيم فى النادى قبل الثورة بشهرين تقريبا مزاد لصـــالح الجزائر ، وعرض تمثال للمجاهـــدة الجزائرية جميلة بو حريـد للمزايدة ·· وتقدم المزايدون على المزايدة بعد أن جلس كبار رجال العهد البائد فى مواجهة المنصة ··

ووقف أحد المحامين وتقدم للمزايدة وعرض « فلسا » ثمنا للتمثال باسم كميل شمعون صـــديق العهد البـــائد ·· ثم أخذت

الأصوات ترتفع ، وفجأة رن صوت يقول : ٣٠٠ دينار باسم جمال عبد الناصر ··

وصفق الحاضرون ووجم المشرفون · ولكن الاصوات لم تتوقف ، ودخل واحد باسم المواطن الأول شكرى القوتلى المزايدة بـ ٤٠٠ دينار ، ثم رسا المزاد على جمال عبد الناصر بمبلغ ٥٥٠ دينارا ··

وعندئذ هتف أحد المحامين لجمال عبد الناصر ·· وقام رجال العهد البائد منسحبين وانتهى الاحتفال ··

ومن رواد النادى الاستاذ حكمت ممتاز القاضى العراقى الذى تعيش مصر فى قلبه دائما··انه يقرأ كل الصحف والمجلات المصرية، ويعيش مع كلمات طه حسين وسلامة موسى ولويس عوض واحسان وبهاء ويعرف عن القاهرة وأحيائها أكثر مما أعرف أنا ··

قال لى حكمت ممتاز ضاحكا : انه كان يدير غرزة فى العهد البائد فلما رأى دهشتى استطرد قائلا : لقد كانت روز اليوسف وصباح الخير مثل المخدرات · وكنت ــ لحسن الحظ ــ أحصل على نسختين كل أسبوع عن طريق التهريب ·· فاحتفظ بنسخة وتدور الثانية على الاصدقاء وهى مغلفة بورق الصحف العراقية القديمة ومحفوظة فى جيوب الجاكتات الداخلية ··

أما زبائن الغرزة فقد كان منهم فؤاد الونداوى الأديب المعروف وقاسم القبانجى ابن مطرب العراق الأول ··

وفى النادى يجلس يوسف العانى الممثل المعروف وبعض أعضاء فرقته ، والسيد عبد الرزاق شبيب وحوله جماعة من الشباب الوطنى ·· وتدور المناقشات ··

وتخرج من نادى المحامين فى منتصف الليل لتتلقاك شوارع الاعظمية الهادئة ·· وتعبر الجسر الى قلب بغداد التى تنام لتستيقظ على فجر جديد ·· يوم جديد من أيام بغداد الثائرة ·

صباح الخير ١٩٥٨/١٠/١٦

خطة الاستعمار .. وخطة اليسار !

نشرت « روز اليوسف » فى العدد الماضى مقالا للأستاذ عبد الله الريماوى وزير خارجية الأردن السابق ·· اتهم فيه اليساريين فى البلاد العربية بأنهم يلتقون مع منطق الاستعمار ، رغم اختلاف الأهداف ·· وحدد الأستاذ الريماوى نقطة الالتقاء هذه فى الموقف الذى يتخذه اليسار من الوحدة الشاملة بين الدول العربية ·

وقد وصلتنا هذه الردود : مقال للأستاذ عبد الكريم المدرس ، مواطن عربى من العراق ·· كما كتب صلاح عبد الصبور تعليقا على مقال الاستاذ الريماوى ·

و « روز اليوسف » تنشر هذه الردود ايمانا منها بحرية المناقشة ··

***

أطل علينا الأستاذ عبد الله الريماوى وزير خارجية الاردن السابق من شرفات « روز اليوسف » الفسيحة بمقال عنوانه « خطة الاستعمار ·· وخطة اليسار » تعرض فيه الى مواقف بعض الدول العربية من بعضها الآخر ، وأبدى من الآراء الغريبة ما يحمل على أكثر من الدهشة ، اذ الكثير مما أورده الاستاذ الريماوى على أنه

حقائق لا يرقى اليها الشك هو ـ لشديد الاسف ـ نفس ما تقره وتدعو له الدوائر الاستعمارية الغربية مما لا يصح معه السكوت مطلقا ٠٠

فسيادته بعد أن يتحدث عن دور « بورقيبة » فى مؤامرته الاخيرة التى اختار لها الجامعة العربية مسرحا ، وبعد أن يصف هذه المؤامرة بقنها « لا يجوز أن تفسر بالتسرع والعاطفية من قبل حكام تونس ٠٠ بل انها يجب أن تربط بنشاط الاستعمار وعملائه القائم الآن فعلا فى اجزاء وطنية أخرى » ، يستطرد ليقول (ان استعراضنا لما يجرى الآن فى العراق والاردن ولبنان وتونس وربطنا لهذه الاهداف بعضها بالبعض الآخر الأمر الذى لا يجوز تناسيه اصلا ٠٠ الخ)

وهنا وجه الغرابة والشذوذ بل هنا المغالطة الكبرى ، اذ كيف يستطيع السيد الريماوى أن ـ يربط بالأهداف بين تونس والاردن من جهة وبين جمهورية العراق التى يعلم هو قبل غيره انها قوضت أعظم صرح استعمارى ، لا فى الشرق وحده بل فى العالم كله وانها الثورة التى اطاشت بصواب المستعمرين فحشدوا الحشود فى لبنان وفى الاردن بلد الريماوى نفسه ليقضوا وينقضوا على الثورة قبل أن تتركز ، لولا صمود القومية العربية وجهود وتأييد رائد القومية العربية الاول الرئيس العربى جمال عبد الناصر للثورة ، ولولا وقوف الدول الاشتراكية وجميع الامم المحبة للسلام فى وجه المعتدين ؟ ٠٠

وليس هذا كل ماجاء فى جعبة الريماوى بل ليته وقف عند هذا الحد ، ولكنه ذهب الى أبعد مدى عندما تحدث عن محاولات قام بها فى الاردن أمريكى يدعى « مستر كاسن » واتصالاته بشأن قيام حكم هناك « أقل استفزازا للشعب ، على أن يضمن المصالح الغربية وأهمها الكيان الاردنى والتكتل ضد الجمهورية المتحدة وضد الخط القومى التحررى » ٠

ثم ينتقل الريمـــاوى بعد ذلك ليقول ان حديثا دار بين هذا « الكاسن » وبين سياسى أردنى ·· أن « كاسن » صرح بأن « الغرب يفضل اذا استحال بقاء الكيان الاردنى أن ينضم للعراق ولكنه يرفض بشدة كل اتجاه لوحدته مع الجمهورية المتحدة » ··

وينسى السيد الريماوى ـ أو يتناسى أن الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة فى خط تحررى واحد وعلى صـــعيد مشترك واحد فى خدمة القومية العربية وتدعيم أركـــانها ، وان التعاون الوثيق القائم الآن سيتطور قريبا وبأقرب مما يظن الريماوى وغير الريماوى بين الجمهوريتين الى النتيجة الطبيعية المنتظرة لكل البلاد العربية المتحررة ··

ان السيد الريماوى لن يستطيع التنصل مما قاله حتى ولـو أورده على لسان « كاسن » وهو يردد ماقاله « كاسن » على انه حقيقة لاتقبل الشك ـ كما قلت والدليل على ذلك استطراد الريماوى الى القول انه « الى جانب هذا التخطيط والنشاط الاستعمارى فان اليساريين يسيرون بشكل واضح وأكثر صراحة فى مقاومة الوحدة ليس بين الدول المتحررة فحسب ، بل انهم لايتورعون عن مهاجمة وحدة الجمهورية العربية ذاتها كما تجدهم الآن ينشطون فى تدعيم كيان مايسمى الحكم المعتدل والعمل لتطلع الاردن نحو العراق اذا ماتطلع نحو الوحدة » ·

ويبدو أن ذاكرة الريماوى لم تتأثر بالأحداث التى مرت بالعراق وبالغرب عامة ، وبعبارة أدق يبدو أنه لم يسمع بعد أو لم يسمع ثورة العراق التى قامت لتنقله الى مصاف الدول العربية المتحررة ولذلك يتحدث عن العراق ـ مع مزيد الأسف ـ كما لو كان عراق نورى السعيد ! ··

أما بالنسبة لما يردده عن اليسار ـ وأنا لا أناقش تسميته هذه

ـ وغير اليسار ، فالذى اعرفه ويعرفه كل مواطن فى أى بلد عربى أن الشعوب العربية مجتمعة ومتفردة قد قاومت الطغيان الاستعمارى بمختلف اتجاهاتها ومبادئها ونزعت ـ ومنها شعب العراق الحر ـ على اختلاف المذاهب والملل والنحـــل ـ الى الحرية وقدمت على مذبحها مئات الضحايا ·· هذه الضحايا التى لم تجف دماؤهـــا بعد ··

فأنا فى هذه الكلمة لا أريد أن أدافع عن اليسار أو أوضـــح مايعنيه سيادته باليسار غير أن مافى كلمة الريماوى من تفريـــق للصفوف التى نحن بحاجة اكثر من اى وقت مضى الى توحيدهـــا وجعلها قوية متراصة للوقوف بوجه المطامع الاستعمارية ، دفعنى الى التعرض لهذه الناحية ··

« عبد الكريم المدرس »

(عربى من العراق)



وكتب صلاح عبد الصبور :

عاينت بنفسى فى اثناء زيارتى لبعض البـلاد العربية الدور الخطير الذى تقوم به بعض العناصر اليساريةعنغيرقصدولكنهيلتقى فى نفس الوقت مع مصالح الاستعمار · وان كان الذين يقومون بهذا الدور بلا شك ، أو أغلبهم ، من العناصر الوطنية الصلبة ··

وهذا التورط السياسى الخاطىء قد قادم اليه تورط فى فهم خاطىء أيضا ·· لطبيعة الحركات الثورية العربية ، وهذا الفهـم الخاطىء مبنى على خطأ أكبر ، وهو خطأ فى فهم المجتمع العربى ومتطلباته القومية فى هذه الفترة ··

فبعض العناصر اليسارية التى تعمل فى الحقل الســـياسى العربى تفهم المجتمع العربى منها «تجزيئيا » وتتوهم أن هذه الرقعة

الواسعة من الأرض هى مجموعة اقطار مستقلة فى بنائها الاقتصادى والفكرى والاجتماعى ، وتتصور أنه من الممكن أن تتفرق الحركات الوطنية المختلفة منها ·· وتأخذ كل منها شكلا واسـلوبا مختلفا كل الاختلاف عن الاقطار الأخرى · دون أن يحدث من وراء ذلك كله كسب استعمارى محقق ··

وهذا الخطأ فى « الاصول » اذ أننا بغض النظر عن الدوافع القومية نستطيع أن نلمس أن الاستعمار لا يعاملنا على هذا المستوى فالاستعمار ، أو الهجوم الذى نحاول أن ندافع عن أنفسنا تجاهه ·· يعاملنا بلا تجزئة ، وهو يدرك تمـام الادراك أن هذه الرقعة الممتدة كلها منطقة واحدة ، لها نفس المشـاكل · وطبيعة تكـوين مجتمعاتها تتقارب تقاربا ملحوظا ·· ثم أنه يدرك أيضا أن الضربة التى يوجهها الى أى ركن من أركان الأرض العربية تهز باقى الاركان وتزلزلها ··

ان الاستعمار يعامل البلاد العربية ككل ، بينما يصرون هم على التجزىء ·

ولست بحاجة الى أن اكرر ان اخشى مايخشاه الاستعمار هو القومية العربية الثورية · ولكنى أود أن أنبه بعض هذه العناصر الى بعض النغمات الاستعمارية وأطالبهم بأن يدركوا ماوراءها ··

● تلح منابر الاستعمار وصحافته على التفرقة بين القومية العربية وبين الناصرية كما يسمونها ·· ان القومية العربية قـد تتحول الى شكل سلمى من أشكال الاستقلال السياسى طبعا مع الولاء للغرب أو شكل غير جدى فى الاصلاح الاجتماعى لايمس مصـالح الطبقات الحاكمة · ولكن الناصرية عدو خطير ، انها ثورة وانتفاضة ونتائجهـا خطيرة ، هذا ما تردده الصـحافة الغربيـة وبعض السياسين فى الغرب ، ويلوح أن بعض السياسيين العرب ابتدأوا يقتنعون بهذا المنطق الغريب ··

والواقع أنه لا يمكن فصل القومية العربية فى هذه المرحلة الوطنية عن شخصية عبد الناصر ٠٠ اذ أن الفرق بين عبد الناصر مثلا وبين سياسات المجتمع العربى المختلفة منذ انشاء الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ حتى قبل الثورة ، هو أن عبد الناصر أدرك خطورة الوضع التجزيئى للمجتمع العربى فحاربه حربا واضحة ، ثم نقل الكفاح العربى من مستوى المناقشات والمفاوضات الى مستوى الثورة الشاملة بوجهيها الاجتماعى والسياسى ٠٠

ان القومية العربية ، بالمفهوم الذى يريد الاستعمار أن يلصقه بها ، وهو ـ بكل أسف ـ المفهوم الذى تعتنقه بعض أجنحة اليسار لا تشكل أى خطر على نفوذ الاستعمار أو مصالحه غير المشروعة فى منطقة الشرق الاوسط ٠ ويمكن للاستعمار عن طريقها أن يتسلل الى الاجنحة المكشوفة من الوطن العربى ٠٠

● يحاول الاستعمار أن يخلق عددا من الزعامات فى داخل النطاق العربى ، فمنذ سنوات قليلة حاول خلق زعامة دينية سرعان ما انكشف أمرها ، وفى هذه الايام يحاول خلق زعامة فى جناحين آخرين من أرض العروبة ٠ ومن الواضح أن الخطة الاستعمارية فى مهزلة بورقيبة فى الجامعة العربية كانت هى أن ينكشف للعالم أن عبد الناصر ليس هو وحده زعيم العالم العربى ، وأن فى العالم العربى تيارات أخرى من « العقلاء » ٠ ولا أكتم هؤلاء اليساريين أن كثيرا من الشائعات قد راجت ، وأيدتها الصحافة الغربية ، وهذه الشائعات تقول انه كان هناك اتفاق على أن يتلقف بعض مندوبى الدول الأخرى كلام الحبيب الشطى وأن يجعلوا منه ٠٠ حكاية الموسم !

ومن تتبع هذه النغمات والاستفزازات الاستعمارية نستطيع أن نعرف أن الصيغة التجزيئية للكفاح العربى هى أقصى ما يطمح اليه الاستعمار فى هذه المرحلة ٠

والثورة العربية فى هذه المرحلة ليست ثورة تحرر فحسب ، بل هى ثورة تحرر ووحدة · اذ أن الوحدة هى السياج الطبيعى لكل مكاسب التحرر الى غاياته وتمنعه من الانحراف أو فقد المكاسب ··

وفى داخل هذه الثورة هناك مستويات ثلاثة للنضال ··

أولا : المستوى الاقليمى كما حدث فى ثورة مصر سنة ١٩٥٢ وثورة العراق سنة ١٩٥٨ وثورات الاردن ولبنان وانتفاضات سوريا ضد الحكم الرجعى ، وهذا المستوى الاقليمى يجب أن يخرج الى مستوى أعلى منه ، والا انتكس من داخله ، أو حاصرته القوى الاستعمارية بمجاملتها وتضليلها حتى يفقد بعد ذلك كل ماحصل عليه ·

ومثال ذلك أن ثورة مصر،لو لم يلهم قائدها جمال عبد الناصر أن يخرج بها الى مستوى أعلى من النضال ، لما أمكنها أن تحقق كل هذه الانتصارات · فما هو هذا المستوى الاعلى ··

هذا المستوى الاعلى هو المستوى القومى ·· وفى هذه المرحلة تتجه الثورة الى ابراز شخصيتها وتدعيم طابعها القومى وتوحيد شعاراتها وأهدافها وتثبيتها فى النفوس ، وتتجه أيضا الى توحيد أجزائها حتى تستطيع أن تخرج الى العالم ثورة كاملة ذات نظرية وأهداف ورسالة للمستقبل ·

وحينئذ ، وحينئذ فقط ، تنتقل الى المستوى العالمى ، وتصنع لها مكانا فى تاريخ العالم الثورى ·

ولكن كثيرين من اليساريين ـ بكل أسف ـ يتذبذبون بين مستوى اقليمى ضيق ، أو مستوى عالمى فضفاض دون أن تلمس أقدامهم الارض القومية والواقع القومى ومتطلبات الكفاح القومى ·

وقد كنت أظن أن هذه العناصر قد استفادت من تجاربها السابقة

حين وقفت موقفا سلبيا من حرب الجزائر مثلا نتيجة لفهم خاطىء للشعور القومى ، وحين ضللها الاستعمار عن حقيقة مأساة فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، وحين استسلمت كثير من قياداتها للتأثيرات الصهيونية أو الفوضوية • كنت أظن أن هذه العناصر اليسارية ستراجع موقفها ، وستدرك أن سبب هذه الاخطاء الفاضحة جميعها أو السبب الرئيسى لها هو محاولة القفز الى المستوى العالمى فى النضال دون ادراك لحقيقة المشاكل القومية ••

ففى السنوات الأولى للثورة الجزائرية مثلا تقاعس كثير من اليساريين عن خوض المعركة ، فقد كانوا يزعمون أن قضية الجزائر هى فى واقع الامر قضية استغلال الطبقة البورجوازية الفرنسية للطبقة العاملة • وكان حل هذه المشكلة فى نظرهم هو انتصار الطبقة العاملة الفرنسية ، وبذلك تحل مشكلة الجزائر تلقائيا ••

وقد اثبتت الحوادث فيما بعد خطا هذا التقدير ، وبينت بما لا يدع مجالا للشك أن كفاح الجزائر ابتدأ اقليميا جزائريا ، ثم أصبح جزائريا قوميا عربيا •• وسيخرج الى المستوى العالمى حين تتحقق له حريته فى مواجهة العالم مستقلا حرا شريفا ••

ولست بحاجة الى أن أذكر القارىء ببقية الاخطاء ، وظروفها التاريخية •• ولكنى أقول لبعض اليساريين انهم فى حاجة الى اعادة دراسة نظريتهم السياسية نفسها • فان فيها فى مجال العمل القومى كثيرا مما لايدركونه الآن • وأنبههم أيضا الى أن القومية لاتتعارض مع العالمية ، بل هى الطريق الذى يقود اليها •

وما هذا كله الا بعض تعليقات حول مقال الاستاذ الريماوى أريد بها كما أراد الاستاذ الريماوى توضيح الأمور للعالم العربى فى كل مكان ••

صباح الخير ١٩٥٨/١١/٢٠

صـــعيدى .. فى باريس

باريس فى عام ١٨٣٠ تغلى بالثورة على شارل العاشر ..

ومنذ أربعين عاما دحرجت باريس رأس احد ملوكهـــا على المقصلة ، ولكن الملوك لا يعتبرون بالماضى . ولا يتحسس أحد منهم عنقه الا اذا التف حوله الحبل ..

والمدينة فى هذا اليوم تموج بالنـــاس ، وقد زحفـوا من كل طريق ، وانتشرت أسرابهم الهاتفة الساخطة فى الشانزلزية والحى اللاتينى ، أشارت قبضاتهم المضمومة مهددة بالانتقام من ذلك الجالس فى « التويلرى » وحلق فوقهم علم الحرية المثلث الالوان ..

ومن حسن حظ الشيخ رفاعه بن رافع الذى قدم من طهطا بجوف الصعيد الى باريس مدينة النور أنه شاهد هذا اليوم وعاشه ، وكان قلبه ــ وهو الازهرى الشرقى المعمم ــ يرفرف مع الجموع الزاحفة وكانت عيناه تتبعان علم الثورة المثلث الالوان من شارع الى شارع. وكانت شفتاه تعبسان وتبسمان كلما انزوى العلم تحت أقدام الجنود أو ارتفع على رءوس الشعب الثائر .

وتذكر الشيخ رفاعه وهو فى موقفه هذا حين غادر القاهرة

الى باريس لأول مرة منذ خمس سنوات · كان فى الرابعة والعشرين من عمره ·· وكان يجلس آمنا مطمئنا مسندا ظهره الى أحد أعمدة الازهر الشريف · وقد استقرت عمامة بيضاء ضخمة على رأسه الكبير ، وتدلت ذقنه السوداء تكاد تلامس صدره ·· وكان حوله حشد من الطلاب يقرأ لهم الالفية وأصول الفقه ·

وبينما الشيخ فى جلسته الازهرية جاءه رسول من أستاذه وشيخه وصديقه حسن العطار ·· كان العطار رجلا عظيما ، كان شيخ الأزهر كله ·· ولكنه كان أقرب الناس الى قلب الشيخ الصغير · وكان الشيخ الصغير من أقرب الناس الى قلبه ·· والعطار ليس اسما مجهولا فى تاريخ مصر ·· فهو صديق الجبرتى مؤرخ مصر الأول وجميع الشعر الذى يحفل به كتاب « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » من نظم الشيخ العطار · والازهر كله يعرف أن العطار لا يقنع بالثقافة الازهرية من فقه ونحو وتوحيد ولكنه يقرأ ما تيسر له من كتب فى الجغرافيا والتاريخ وعلم الهيئة ، ويحرص على أن يصل الى يده ما يترجم الى التركية من علوم الافرنج ·· وكثيرا ما حدث العطار تلميذه رفاعه عن علم الغرب وكيميائه وفلكه ، ذلك العلم الذى قال عنه صديقه الطيب الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى طيب الله ثراه حين رأى بعض لطائفه فى المجمع الفرنسى الذى أنشاه نابليون منذ حوالى ربع قرن من الزمان ··

ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لاتسعها عقول أمثالنا ·

سعى الشيخ الصغير الى شيخه الكبير وألقى عليه السلام ·· ورد عليه الشيخ الكبير السلام ردا لطيفا ثم دعاه للجلوس ، وأنبأه أن والى مصر قد اختاره اماما لبعثة الطلاب المصريين المسافرين الى فرنسا ·

ثم قال الشيخ فى نبره هادئة طيبة : لست أشك ان رجلا مثلك يا رفاعة لن يقنع من باريز بهذا القسط الصغير من الحياة ، فانى أعرفك تواقا للعلم والمعرفة ·· ولعلنا نجد معك حين تعود كتابا او كتبا تصف لنا فيها ما شاهدت ·

« باريز »

كان رفاعه على ظهر المركب المبحرة الى بلاد الفرنسيس وفى يده كتاب مبادىء اللغة الفرنسية وحين نزل رفاعه فى ميناء مرسيليا رطن مع الحمالين بالفرنسية ·

فى باريس ·· كان أول ما صنعه الشيخ المعمم هو البحث عن مدرس ·· وانتقل من يد مدرس الى آخر حتى اهتدى الى المسيو شواله ، الذى أصبح مدرسا وصديقا · وهو الذى أخذ بيـده الى كنوز اللغة الفرنسية ··

لقد قرأ معه المسيو شواله حكايات لافوتين وشعر راسين · ولكنه لم يحب أحدا مثلما أحب فولتير ·· وقاده فولتير الى جـان روسو واسلمه روسو الى مونتسكيو ··

وكتب عن مونتسكيو فى مذكراته يقول :

« وقرأت جزأين من كتاب يسمى « روح الشرائع » مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له مونتسكيو · وهو أشبه بميزان المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيـح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى ·· كما أن ابن خلدون يقال لـه عندهم أيضا مونتسكيو الشرق ، أى مونتسكيو الاسلام ··

العقد الاجتماعى

كانت باريس فى ذلك الوقت تعيش فى نظرية وكانت النظرية تقف على حطام نظرية أخرى ·· هى نظرية الحق الالهى للملوك ··

اما النظرية الجديدة فقد كانت تقول ان بين الشعب والحاكم تعاقدا على أن يؤدى الحاكم واجبه نحو الشعب ، فينال بعد ذلك حقوقه عليه ٠٠

وكانت تقول أيضا : ان على الشعب أن يختار نوابه لكـــى يعاونوا الملك فى شئون الحكم ٠٠ ولا يستطيع الملك أن يبرم أمرا الا بموافقتهم ٠

ووضعت باريس أصول هذه النظرية فى دستور يعلن فى أول مواده أن الناس جميعا متساوون أمام القانون ، ويعلن فى مادتـه الثانية أن الملك لايفرض ضريبة الا بعد موافقة ممثلى الشعب ٠٠

ويسهر رفاعة مع هذا الدستور ليالى طويلة ٠٠ يقرأه تارة ، ويترجم بعض فقراته تارة أخرى ٠٠ ثم ما يلبث أن يقرر رأيه على أن يترجمه جميعه ، وأن يعلق عليه بما يوافق بلاد الشرق والاسلام ٠٠

يقول تعليقا على مادة حرية الصحافة :

« أما الورقات اليومية المســـماة بالجرنالات والكازيطـــات « الجازتيات أو المجلات » فان الانسان يعرف فيها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب مالا يحصى الا أنها تتضمن اخبارا تتشوق نفس الانسان الى العلم بها ٠٠ وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته فى تلك الورقات فيطلع عليها الخاص والعام ، فتعرف قضية الظالم والمظلوم ٠٠

« الثورة »

ولكن الملوك لا يحبون الحرية ٠ وهم ينتهزون الفرصة لكـى يستردوا من الشعب مكاسبه السياسية التى نالها بدمـــه وعرقه ،

وهاهو شارل العاشر يضرب بالدستور عرض الحائط ، ويلقى بآراء مجلس شيوخه ونوابه جانبا ·· ويستبد بمشيئته ورأيه ··

واشتدت الأزمة ، وعين الملك قائدا كريها لدى الشعب لكى يحكم باريس ويبطش بروح المقاومة ، ولكن الشعب ثار ثورته العاتية التى أنزلت الملك عن عرشه ، ولنترك رفاعه يحدثنا عن وقائع الثورة قائلا :

وفى اليوم التاسع والعشرين من الصباح ملك أهل البلـدة ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع فى ايديهم قصر طويلرى « التويلرى » ولورد « اللوفر » فملكوهما · ونشروا عليهما بيرق الحرية · فلما سمع بذلك سر عسكر « قائد الجيش » المأمور بادخال أهل باريز فى طاعة السلطان « الملك شارل العاشر » رجع · فكان هذا تمام نصرة أهل البلدة حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية · ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى وديوان مؤقت لنظم البلاد حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم · وكان رئيس هذا الحكم المؤقت سر عسكر المسمى لافييه (لافييت) وهو الذى قاتل فى الفتنة الاولى للحرية (ثورة سنة ١٧٨٩) · وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ويحامى عنها · ويعظم مثل الملوك بسبب التصاقه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى البوليتيقة (السياسة) » ·

وانبهرت عينا رفاعة لانتصار الشعب وابتهج اليه ، وأخذ يفكر فى أحوال بلاد الشرق والاسلام ، فأدرك أن عليه عبئا كبيرا حين يعود الى وطنه وهو أن يرفع مواطنيه الى مستوى أولئك الناس فى فهمهم لحقوقهم وادراكهم لمدى قوتهم وأيقن رفاعه أن الطريق الى ذلك هو العلم ، هو أن يزيل عن أدمغة مواطنيه غشـــاوة الجهل والخرافة ··

« العودة »

ست سنوات طويلة عريضة قضاها فى باريس لقد جاءها تلميذا يتلقى العلم · وخرج منها ونفسه مليئة بالحكمة والمعرفة والثقافة ·· لقد أخذ الشيخ الازهرى من باريس كل ماتستطيع باريس أن تعطيه ·

وفى آخر أيامه بباريس انتقل من مجلس التلميذ الى مجلس الأستاذ · اذ عرف الاساتذة الفرنسيون مكانته كزميل لهم يبادلونه الاحترام والود وينزلونه من أنفسهم أرفع مكانة ··

وتوثقت صداقته باثنين منهم ، أولهما الاستاذ جومار عضو المجمع العلمى الفرنسى الذى أنشاه نابليون بمصر ··

وثانيهما البارون سلفستر دى ساسى عميد المستشرقين فى القرن التاسع عشر ·

كتب سلفستر دى ساسى الى رفاعه مودعا قبل سـفره من باريس الى القاهرة :

« بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعه ، يحصل حظ عظيم اذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى الساعة ٣ ان أمكنه أن يسرنى برؤيتى له لحظات لطيفة ، ويحصل لى ايضا غاية الانبساط اذا بعث لـى باخباره بعد وصوله الى القاهرة ، فاذا تيسر لى رؤيته طلبت لـه طريق السلامة · اذ لا أزال أتذكر دائما آثاره واستنشق أخباره مع انجذاب قلب وانشراح صدر · »

وركب الشيخ رفاعة البحر عائدا الى وطنه ، وقد اتضـح طريقه الجديد امام ناظريه ··

فى أرض الوطن ··

نحن الآن فى عام ١٨٧٣ ··

لقد مضى اثنان وأربعون عاما منذ أن عاد رفاعه الى مصر · وعاصر أكبر الاحداث وأعظم التطورات فى تاريخها ··

رأى مصر تعلو أقدارها وتنخفض ·· وتنشط أحوالها وتكسد ولكنه هو ـ لأنه عرف طريقه من أول يوم وطأت فيه قدماه أرض الوطن ـ لم يلتبس عليه الأمر · ولم تفتر همته أبدا ··

ان طريقه هو العلم ، وموكب العلم لا يتوقف ·· وفنون العلم لا يشملها الاحصاء والعد ·· ولذلك فقد أكب على الترجمة بحماس لا يشوبه الكلل أو ابتغاء الأمر السريع العاجل ··

ترجم رفاعة كتبا فى الجغرافيا والتاريخ والهندسة والحساب والادب ، وترجم الدستور الفرنسى ونشيد المارسيليز ، وترجم القانون المدنى الفرنسى فى جزءين يشغلان سبعمائة صفحة ، وترجم رسالة فى الطب وكتاب روح الشرائع لمونتسكيو وقصة تلماك للافونتين ··

وألف كتابا عن تاريخ مصر ، وفى سيرة النبى ، ومجموعة فى الفقه على المذاهب الأربعة وكتابا فى تسهيل النحو لطلبة المدارس وكتاب المرشد الأمين للبنات والبنين فى الاخلاق ··

وعرب كتابا ـ لم يعثر عليه بعد ـ عن الاساطير اليونانية ··

ولكن أجل ما اداه للعلم هو انه خلق جيلا من العلماء ، ورثوا عنه تقاليده واخلاصه للعلم ·· وكان هذا الجيل هو الذى حمل رسالة الثقافة العربية طيلة القرن التاسع عشر · فقد كان رفاعه ناظرا لمدرسة الالسن فى أوج مجدها ··

« محرر المرأة الأول »

ومن المعروف ان أول مدرسة انشئت لتعليم النســـاء كانت بفضل جهوده فى نفس السنة التى مات فيها ··

يقول رفاعه فى الحث على تعليم النساء فى مقدمة أحد كتبه :

« ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فان هذا مما يزيدهن ادبا وعقلا ، ولتمكين المرأة عند اقتضاء الحال ان تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها · وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة · فان فراغ ايديهن من العمل يشغل السنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهواء وافتعال الاقاويل · فالعمل يصون المرأة مما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ·

ولا أظن أن قاسم أمين بعد ثلاثين سنة من وفاة رفاعـــه الا متأثرا بهذه الكلمات الرائعة للاستاذ العظيم ··

ولا أظن أيضا أن مفكرا مصريا فى القرن التاسع عشر لـــم يتأثر برفاعة سواء بدروسه فى مدرسة الألسن أو بمجلة روضـــة المدارس أو بشـــخصيته فى مجـــالسه وندواته أو بكتبه المترجمة والمؤلفة ·

وأخيرا فان رفاعة حين أسلم الروح فى مثل هذه الأيام منــذ خمسة وسبعين عاما ، لم يكن هناك من هو اهدأ منه ضميرا واطيب نفسا ··

صباح الخير ١٩٥٨/١١/٢٠

الجاسوسة التى صنعت ملكا

على باب متحف بغداد وجدت لوحة تذكارية نقشت عليها هذه الكلمات بالانجليزية :

جرترود بل

التى سيحتفظ العرب بذكراها فى تقدير ومودة ..

خلقت هذا المتحف فى سنة ١٩٢٣

وكانت مديرة فخرية لادارة آثار العراق ..

وبرغم حرارة الصيف اللافحة ..

فقد عملت حتى آخر يوم من حياتها فى ٢١ يوليو سنة ١٩٢٦ .

والملك فيصل وحكومة العراق ..

اعترفا بأعمالها العظيمة للوطن ..

أمر بأن يحمل الجناح الرئيسى اسمها

وباذنه علق أصدقاؤها هذه اللوحة ..

فمن هى الآنسة جرترود بل ؟ التى قال عنها المؤرخون انها

امرأة الشرق الغامضة ، وملكة العراق غير المتوجة · وديانا آلهة الصحراء ، واحدى خرافات القرن العشرين ··

ولماذا أمر فيصل الاول بأن تعلق هذه اللوحة التذكارية على باب متحف بغداد ، ولماذا سار فى جنازتها العسكرية رئيس وزرائه، وشيوخ القبائل ، ولولا وقار الملك الطارىء لمشى فيصل نفسه فى جنازتها ··

وما هو دور هذه المرأة النحيلة النشيطة ·· التى تنطق اللغة العربية بلهجة أجنبية جذابة ، وتستقبل شيوخ القبائل فى حفاوة ، وتقدم لهم الشاى على الطريقة البدوية وهى تتلقى باسمة دعاباتهم الخشنة ؟

ان الجواب على ذلك كله يتضح فى مجموعة الخطابات العائلية التى كتبتها جرترود بل الى أبيها وأخيها طيلة اقامتها فى بغداد منذ عام ١٩١٧ الى أن ماتت فى عام ١٩٢٦ ·

وهذه السنوات العشر الحافلة من تاريخ العراق هى التى ربطت العراق بعجلة الامبراطورية البريطانية بعد ذل ثلاثين عاما أو يزيد ، الى أن فكت ثورة ١٤ تموز وثاقه وأطلقت قواه ··

أما هذه الآنسة النحيلة العجوز فهى التى قامت بأكبر دور فى ربط العراق بالامبراطورية ، وفى اقامة حكم عبرت هى عنه بقولها « عقول بريطانية وأيد عراقية »

وقبل أن نستعرض هذه الخطابات ، نرجع رجعة صغيرة الى التاريخ ··

كان العراق جزءا من الامبراطورية العثمانية حين قامت الحرب العالمية الاولى ·· وفى اثناء العمليات الحربية احتل الانجليز البصرة ثم تسللت قواتهم الى بقية أراضى العراق ··

وكان المطلوب بعد انتهاء الحرب هو أن يستقر الحكم الانجليزى فى العراق تحت أى وضع من الأوضاع ٠٠ ليكن احتلالا أو حماية أو انتدابا أو استقلالا ذاتيا ٠٠

وفى سبيل ذلك كان يجب أن تقوم طبقة من العملاء واعوان الانجليز ٠٠ يستطيع الانجليز أن يركنوا اليها فى فصل العراق عن بقية الركب وفى اقامة حكم ممالىء لهم فى السنوات القادمة ٠

ووقع اختيار المخابرات الانجليزية على جرترود بل لكى تقوم بخلق هذه الطبقة ٠٠ وكان هناك الكثير مما يزكيها ٠٠ فهى سيدة ، والعرب يحترمون النساء ٠٠ كما أنها تجيد العربية ٠٠ وخاصـــة اللهجة العراقية ، وقد عملت قبل ذلك فترة طويلة مع لورنس وفيلبى وغيرهما من عتاة رجال المخابرات البريطانية ٠٠

وسافرت جرترود بل الى بغداد فى منصب السكرتير الشرفى للمعتمد البريطانى ، وابتدأت اتصالاتها بمراكز القوى فى العراق ٠٠

ولنتركها الآن تتحدث ٠٠ فى هذه الخطابات الصريحة التى كانت ترسلها من بغداد الى أبيها الســير هيوج بل بأحد شــوارع لندن ٠٠

● رسالة فى اغسطس سنة ١٩١٨

انى أدرك أن مهمتى هنا هى أن أوثق صلة الناس بالكابتن ولسن المندوب المدنى البريطانى ٠٠

● رسالة فى يناير سنة ١٩٣٠

هذا القطر ٠٠ العراق ٠٠ أى طريق سيسلك وفيه كل هؤلاء المضللين « المتطرفين » ٠٠ فى هذا المساء تناول العشاء على مائدتى عربيان شابان ٠٠ ودعوت ضابطا من القوة الانجليزية ٠٠ الكابتن مورجان ٠٠ لكى يلتقى بهما ٠ وتناول الحديث الاحوال السائدة فى

العراق ·· وقد جاءا فى السابعة ولبثا حتى العاشرة والنصف ·· وكان الحديث مثمرا فى النهاية ··

● رسالة فى مارس سنة ١٩٢٠

ان المشكلة هنا هى كيف يمكن أن تتصل بالمشايخ ، ولا أعنى بذلك شيوخ قبائل البادية ، بل كبار رجال الدين فى المدن المقدسة · واسمهم هنا المجتهدون ·· وهم يستطيعون هنا أن يبرموا الأمور وينقضوها بكلمة واحدة يكون لها وقع القانون على رعاياهم العديدين ·· وهم رغم علمهم الدينى الواسع لا يفهمون شـــيئا من العلوم البشرية ، وهم يعيشون فى جو من القدم يعلو ترابه الاميال بحيث لا تستطيع أن تنفذ خلاله ·· وهم فى أغلب الاحيان يسلكون مسلكا عدائيا تجاهنا ··

وفى الكاظمية على مبعدة ثلاثة اميال من بغداد تقيم جماعة من هؤلاء المتعصبين للاستقلال ·· والمعادين لبريطانيا ·· ويرأس هؤلاء أسرة « الصدر » · وقد أرسلت اليهم لأفاتحهم فى أمر زيارتى لهم ·· وكانت المفاجأة أن أمس كان الموعد الذى حدد لى لزيارتهم ·· وسرنا فى أزقة الكاظمية ·· أنا وأحد شباب بغداد من أصدقائى حتى وصلنا ساحة منزل « السيد » ·

كان البناء قديما ، عمره مائة سنة على الأقل ، وكان ابن السيد « حسن » واسمه « السيد محمد » يقف فى شرفة لتحيتنا · وكان يرتدى ثوبا أسود وتتدلى لحيته السوداء وعلى رأسه عمامة سوداء ضخمة لايلبسها الا طبقة « المجتهدين » ·

كان السيد حسن بالداخل ، رجل ضخم الجثة ذو لحية بيضاء تتدلى الى منتصف صدره ، وعلى رأسه عمامة أكبر من عمامـــة ولده · وجلست بجانبه على البساط ، وبعد التحية المألوفة ابتدأ الحديث بتلك اللهجة التى يتقنها العلماء ·· كان يتحدث بلغة الكتب

التى لاتسمعها من أفواه الرجال العاديين فحدثنى عن تاريخ أسرة الصدر ، وعن فروعها المنتشرة فى العراق وسوريا وبلاد فارس ، ثم حدثنى عن مجموعات الكتب العربية فى مكتبات مصر والعراق وسوريا ولندن وباريس وروما · وهو بالطبع لم يزر كل هذه البلاد ، ولكن عنده فهارس مكتباتها · ثم قال لى ان جو سامراء افضل من جو بغداد لأن سامراء تقع جغرافيا فى المنطقة المناخية الثالثة ! وكانت عمامته بين حين وآخر تنزلق من على راسه فيعيد احكـــام وضعها ·

وعندما هممت بالقيام قال لى مودعا « من المعلوم لدينا انك أكثر نساء عصرك علما ومعرفة ، واذا كان ذلك فى حاجة الى برهان فان أوضح برهان هو انك اتيت لنا لكى تلتقى بأهل العلم والمعرفة » وشكرته على هذا التقدير ، وأنا اضحك فى أعمـــاقى على المنطقة المناخية الثالثة !

● رسالة فى فبراير سنة ١٩٢٠ ذهبنا ـ السير برس كوكس وانا ـ لزيارة السيد طالب النقيب اكبر شخصية دينية وسياسية فى بغداد · وتحادثنا معه ساعة كاملة حديثا مستمرا ··

● رسالة فى فبراير ١٩٢٠

زرنا بادية بنى هلال ، وقضينا يوما طيبا مع شيوخ العشيرة وشيوخ العشائر المجاورة · وتناولنا غداءنا فى « مضيف » شيخ العشيرة « الشيخ فهد » ··

الثورة ··

وفجأة حدث مالم يدخل فى تقدير جرترود « بل » وأصدقائها ·· قامت الثورة فى بغداد ودير الزور والموصل وكربلاء فى يونيو سنة ١٩٢٠ · وقتل فيها مايزيد على ٤٠٠ جنـــدى من البريطانيين

والحامية الهندية ، وخسر الثوار تسعة آلاف قتيل وجريح ٠ وتكبدت بريطانيا ٢٢٠ مليونا من الجنيهات فى سبيل اخمادها ٠٠

وعقد مؤتمر من رجال المخابرات البريطانية فى الشرق الاوسط ورأسه وزير الخارجية الاستعمارى العجوز ونستون تشرشل فى مارس سنة ١٩٢١ واهتدى المؤتمر الذى كانت « جروترودبل » من ألمع أعضائه الى حل فريد ٠

كان هناك ملك « على الرف » ٠٠ فيصل ابن الشريف حسين الذى أقامه البريطانيون فى دمشق وطرده الفرنسيون وهذا الملك قد يصلح أداة للحكم البريطانى ٠٠ بل لعله أصلح الادوات جميعها ، فليس فيه صلابة العراقيين وولعهم بالحرية كما ان الدعاية له تبدو سهلة ٠ أليس هوسليل النبى والاسرة الهاشمية وشريك ابيه فى الثورة العربية ٠

وأسند عبء الدعاية لفيصل الى جرترود «بل» أيضا ٠ وقد كان استقبال الشعب لفيصل عند وصوله فاترا ٠٠ وان كانت الادارة الانجليزية قد بذلت كل ما فى وسعها لكى تكون نتيجة التصويت الذى رؤى اجراؤه فى صالح الملك الجديد ٠٠ فطبعت استمارات فى شكل قرار بالموافقة على اختياره ملكا ووزعت على ضباط الحاميات لتوزيعها على الاعيان مع تشجيع اضافة حاشية عليها بطلب بقاء الاشراف البريطانى ومعاقبة كل من يضيف اسم أحد من رجال الحركة الوطنية ٠٠ وقاطع لواء كركوك الاستفتاء وكذلك لواء السليمانية ، وخسر فيصل ٨٠٪ من أصوات بغداد ٠ ورغم ذلك كانت نتيجة الانتخابات المزيفة ٩٦٪ فى جانبه ٠٠ وقالت جرترود بل عندئذ كلمتها المأثورة « ان السياسة تجرى على عجلات أحكم تشحيمها بشحم أحكمت اذابته »

لقد اهتدت « جرترود بل » الى طريقة مبتكرة لتزييف

الانتخابات . فكان كل بلد أو مركز ينال فيه فيصل أغلبية ولو قليلة يعتبر فى الاحصاء بجانبه بالاجماع بينما تحسب أصوات المعارضة صوتا صوتا ..

ولنعد مرة ثانية الى الخطابات فى هذه الفترة ، فهى اكثر دفئا وحياة من التاريخ .

● رسالة فى فبراير سنة ١٩٢١

.. وأهم الحوادث هذا الاسبوع هو وصول بعض الضباط العراقيين من الذين كانوا فى سوريا مقدمة لوصول فيصل .. كان أول القادمين هو نورى باشا السعيد وجعفر العسكرى قريبه ..

● رسالة فى ٥ أبريل سنة ١٩٢١

مازلنا نتصل بشيوخ القبائل .. الاشاعات القوية ترشح فيصل رغم أن المؤتمر لم يعقد بعد .. من الطريف أن أحد ضباطنا الكابتن توماس كان يحمل معه بيانو ودعا الشيوخ الى سماعه ثم عزف لهم لحن « البتاتيك » . وفى النهاية سألهم عن رأيهم فى اللحن، وقال أحدهم . « والله .. خوش دجه » أى لحن جميل .

بعد عودتى من رحلتى فى البادية أتى ناجى السويدى ومعه المتصرف وقدما لى تقريرا .. ان ٦٠٪ من الاعيان سوف يستقبلون فيصل عند وصوله الى البصرة .

● رسالة فى يونيو سنة ١٩٢١

وصل فيصل الى البصرة ، واستقبل هناك استقبالا طيبا بعد أن اتفقت على ذلك مع ناجى السويدى والسيد طالب النقيب وغيرهما ومن رأى السويدى ان الانتداب افضل من المعاهدة المقترحة بينما يرى فيصل العكس .

● رسالة فى يونيو سنة ١٩٢١

وصل فيصل الى بغداد ، ونظمت له بمعونة أصدقائى الاحتفالات الضخمة التى وقف فى أحدها شاعر العراق جميل الزهاوى وحيا فيصل « ملك العراق » ٠

وصلتنى شائعات بأن البصرة تعارض فى اختيار فيصل ٠ وتريد اقامة جمهورية مستقلة تحت حكم ائمة الدين فأرسلت لأحد أصدقائى المخلصين من شيوخ العشائر وبحثنا الأمر واتفقنا على الخطة ٠٠ أرسل فيصل فى طلبى وتحدثنا قليلا وعرضت عليه بعض اقتراحات لكى يتولى هو عرضها على السير برس كوكس (والمعتمد البريطانى) حين يقابله ٠٠

انى أحرض وأكتب وأتحدث ٠ ان الأمر كله يقع على عاتقى ٠٠ اننا نصنع التاريخ ورغم ذلك يا أبى فيجب عليك أن تعلم شيئا واحدا ٠٠ هو اننى لن أساهم فى صنع ملوك بعد الآن ٠

حاشية ٠٠ اقترحت على فيصل زيارة قبائل « عنازة » و « الدلام » ٠٠ وتمت الزيارة بنجاح ٠ ووعدنى فيصل عند عودتنا من الزيارة بأن يسمى فصيلة من الجيش العربى « فصيلة الخاتون » نسبة الى اللقب الذى أنادى به هنا ٠٠ بينما اضاف نورى باشا السعيد أن الزى العسكرى أكثر ملاءمة لى ٠٠

● رسالة فى أغسطس سنة ١٩٢١

كانت الساعة السادسة ٢٨ أغسطس هى موعد تتويج فيصل ٠ وحضر السير برس كوكس الاحتفال بملابسه البيضاء الدبلوماسية وقد علق على صدره كل أوسمته ثم السير ايلمر والمستر كورنواليس ثم اصطف حرس الشرف على أبواب السراى ٠ ووقفنا جميعا حتى دخل فيصل ، وكان يبدو أنيقا مشرقا ٠

ونظر فيصل الى الصف الامامى كأنه يفتش عنى ، فلما التقت عيناه بعينى ابتسمت له ابتسامة تشجيع ٠

ثم وقف السيد حسين وقرأ قرارا بانتخاب فيصل ملكا على العراق بأغلبية ٩٦٪ من أصوات الناخبين وهتف « حفظ الله الملك »، فوقفنا جميعا ورددنا الهتاف ثم ارتفع فيصل على السراى وعزفت الموسيقى نشيد « حفظ الله الملك » البريطانى اذ أن الدولة الجديدة ليس لها سلام وطنى بعد ، ثم انطلقت المدافع فى ٢١ طلقة تقليدية ٠ لقد كانت لحظة تاريخية حقا أن نرى العراق من شماله لجنوبه موحدا فى مملكة عربية ٠٠ لاشك أن هذا أكبر عمل عملته فى حياتى ٠٠

روز اليوسف ١٩٥٨/١١/٢٤

كيف تعيش فى عصر الذرة ؟

لصلحة مشروعات السنوات الخمس وبرامج التنمية الاقتصادية واعادة بناء المجتمع فى الجمهورية العربية ، يجب أن يحدثنا الرئيس دائما ٠

ان عبء المشروعات الجديدة لايقع على عاتق الرئيس وحده ، ولا يقع على عاتق مستشاريه وأعوانه فى ادارة جهاز الاصلاح ، من الخبراء والمهندسين والاقتصاديين ، بل هو يقع على عاتق الشعب بجميع فئاته وطوائفه ، وعليهم جميعا أن يعملوا ويتحمسوا ويناقشوا ٠

والعمل مرحلة تأتى بعد الفهم ، ومن حسن حظ الأمة العربية أن الرئيس عبد الناصر ليس خطيبا فحسب ، ولا ملهما للمعانى الكبيرة فقط ولكنه « معلم » بأوضح معانى الكلمة ٠٠ يعنى بالتفاصيل ، ويناقش الأمور فى صفاء ذهن وسلامة منطق ، ولا أحد يستطيع أن يقنع الناس بفكرة أو يوجههم نحو هدف مثلما يستطيع الرئيس ، وهذا الاقناع لايتم بالعقل فحسب ، ولا يتم كذلك بالقلب وحده ، وهنا تتضح مقدرة المعلم الكبير الذى يقرن حديث العقل بنجوى القلب،ويمزج أحلام المستقبل بعزيمة الحاضر وحسرة الماضى ٠

والمعلم حين يتوجه بدرسه الى طائفة معينة أو قطاع بذاته من المواطنين لايعنيهم وحدهم ، ولكنه يعنى الأمة جميعها · وعلى الأمة جمعاء أن تأخذ بهذا الدرس ·

« حديثا الأسبوع »

وقد وجه الرئيس فى هذا الأسبوع حديثين الى قطاعين مختلفين من الأمة · وكان الحديث الاول هو تلك المناقشة الصريحة الواضحة لوفد الاقليم الشمالى فى الغرف التجارية أما الحديث الثانى فكان موجها الى الجامعيين طلابا وأساتذة بمناسبة العيد الخمسينى لجامعة القاهرة ··

والمناقشة الأولى كانت تتمة واضحة لما أعلنه الرئيس فى المؤتمر التعاونى العام ، وان امتازت بمزيد من الوضوح والصراحة حين واجهت مشاكل رأس المال الفردى وحاولت أن تبين له سبيله النافع ، وتوضح له دوره البناء فى النهضة العربية الحديثة ·

والمتأمل فى هذه المناقشة يدرك أن الرئيس قد أشار الى أن الحكومة قد سبق أن اتخذت خطوات حاسمة فى توجيه رءوس الاموال الفردية لمصلحة الأمة عموما ، فعندما أشار الى الاقليم الجنوبى قال ان الاستثمار الذى يقوم به الأفراد يبلغ ١٢٠ مليون جنيه منها ٦٠ مليون جنيه للمبانى وأن فى نيةالحكومة أن تنزل بهذا الرقم الى ٢٥ مليون جنيه لكى ينفق الفرق فى التصنيع ومشروعات التنمية ·

وأشار مرة ثانية الى أنه قد ترك للتجارة حرية العمل على أساس منع الاستغلال ، فحرم تهريب الأموال واستيراد الكماليات وفرض الرقابة على العملة وسريانها من يد الى يد ودلالة هذين المثالين وغيرهما من الامثلة هى أن حرية الاقتصاد ليس معناها اطلاق اليد للرأسماليين الوطنين لكى يتحكموا فى السوق أو لكى يوجهوا

أموالهم الموجهة التى يريدونها فى التثمير ، بل ان هذه الحريـــة لايمكن ممارستها الا فى داخل التخطيط العام لمشروعات المستقبل أن ترك الحرية للرأسمال الوطنى قد ينتج عنها من الضرر أضعاف مايعود من النفع ، اذ قد ينصرف نشاطه الى انتاج الكماليات أو المتاجرة فى العملـة أو تجميد رؤوس الأمـــوال فى العقـــارات والبنايات ..

وقد أشار الرئيس كذلك أكثر من مرة الى أن خلق طبقة من المستهلكين هو السبيل الحقيقى لتدعيم رأس المال ، اذ أنه بدون استهلاك لايستطيع الانتاج ان يزدهر ، أو يجد له سوقا ومن هنا كانت مصلحة رأس المال الحقيقية هى رفع أجور العمال وانتاج السلع الضرورية التى يحتاج اليها أكبر قطاع من الشعب ..

« الحرية القومية »

ومن المؤكد أن الحرية المطلقة لرأس المال تشكل فى آخر الأمر افتئاتا على الحرية ذاتها . اذ أن رأس المـــال ينزع بطبيعتـه الى التسلط والسيطرة والاندماج فى تنظيمات قوية لايستطاع الوقوف أمامها .

ومن هنا كان من أهداف الثورة الرئيسية القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم ..

ان أصحاب رءوس الأموال الوطنية يجب ان يدركوا كما قال الرئيس أنهم لاخوف عليهم من التطور ، وأن كلا منهم له دور فى نهضتنا الوطنية كما أن حرية الاقتصاد المطلقة قد أصبحت وهما حتى فى الدول الرأسمالية نفسها ..

وليدركوا أيضا أن هنـــاك مفهومين للحرية .. هناك ذلك المفهوم الفردى الضيق ، الذى يحصر مجالاتها فى نطاق المصالح

الشخصية والذاتية ، وحينئذ يكون التصارع بين المصالح المختلفة والاتجاهات المتباينة ، ويجور القوى على حرية الضعيف ، وينتهى الأمر بأن يفقد الجميع حريتهم ··

وفى أمريكا مثلا يبتلع صاحب المليون حرية صاحب الألوف ، ويبتلع فورد وروكفلر حرية الجميع ··

وهناك مفهوم ثان للحـــرية ، وهو هذا المفهوم الذى تعتنقه ثورتنا ·· ان الحرية ثروة قومية ، وملك للمجتمـــع بكل طبقاتــه وفئاته · والذى ينظم هذه الحرية هو التخطيط ··

ان التجار مثلا يريدون حرية التجارة ، والزراع يريدون نوعا يلائمهم من الحرية ، والعمال يريدون حـــرية العمل والاعتصـــام والاضراب ، وأصحاب المصانع يريدون حرية الانتاج ، ولو تركت لكل انسان حريته لأصبح الأمر فوضى ، ولفقد الجميع حرياتهم ، ولاقبل الطوفان الذى حذر منه الرئيس عبد الناصر ··

ومهمة التخطيط والتشريع أن يقيم انسجاما بين « حرية » كل طائفة فى الأمة ، لكى تمتلك الأمة جميعها ·· حريتها ··

« انت تاجر ·· تريد أن تحمى مصالحك ·· والزراع كذلك ـ احنا عايزين مش الحكم لصالح طبقة من الطبقات ـ احنا عايزين الحكم لصالح لكل الطبقات » ··

« وبالنسبة للحرية ، اما أن تتمسك بالحرية وتقول الدنيا تمشى حرية ، ونسيب حرية لكل واحد ·· » ··

ان التنظيم يحد من حرية العامل ·· انا أقيد حريته ·· يعنى لما أسيب الحرية يكون فيه اعتصام وخلافه ··

ولما التاجر أقيد حريته عشان تستعيد صناعة البلد قوتهـا ونشاطها ، أبقى منطقى مع نفسى » ·

المصالحة الطبقية ..

وحين يعلن الرئيس أن الحكم يتجه لصالح كل الطبقات ، فهو يلقى مبدءا خطيرا .. هو المصالحة الطبقية ..

والمصالحة الطبقية ليس معناها بقاء كل طبقة على حالها ، وبقاء الفوارق بين الطبقات كما هى عليه ، اذ أن هذه المصالحة الطبقية ليست غاية ، ولكنها وسيلة ..

ليس هذا الصلح بين الطبقات هو الصورة النهائية للأمـــة فى المستقبل ، ولكنه طابع الكفاح الوطنى فى هذه المرحلة من حياة الأمة ..

أما الغاية فهى كما قال الرئيس .. خلق مجتمع اشتراكى ديموقراطى تعاونى ..

ولا يقوم المجتمع الاشتراكى الذى بشر به الرئيس ، الا فى ظل مساواة شاملة فى الحقوق والواجبات ، مع تضـــييق للفروق الاجتماعية والاقتصادية بين الناس ..

وهناك شيئان هامان يجب مراعاتهما ، أولهما ان العصر كله يتجه نحو المساواة وأن كل الأمم قد جعلت الرفاهية شعار حياتها المستقبلة ، وان اختلفت طرقها الى هذه الرفاهية ..

ان الاتحاد السوفييتى له طريقة ، والصين الشعبية لهـــا طريقها ، والهند لها طريقها ، ولنا نحن طريقنـــا ، وقـــد تختلف النظريات والأسماء ، ولكن رفاهية المواطنين تظل هى الغاية الأصيلة وكلمة الاشتراكية تظل هى اللواء الذى يستظل بظله الجميع ..

والأمر الثانى أن الثورة العربية ذاتها ثورة اشتراكية بطبعها، اذ انه لايمكن حماية مكاسبها الوطنية والقومية ، أو اقرار وحدتها وتحررها الا باقامة مجتمع اشتراكى .

ولذلك فليس أمامنا ان نختار بين الحرية الاقتصادية والتخطيط اذ أن هذا معناه ان نختار بين الرأسمالية والاشتراكية أولا ، وبين العبودية والاستقلال ثانيا ..

وليست المصالحة الطبقية فى آخر الأمر الا تجنبا للصـــراع الطبقى ، وطريقا مليئا بالسلام والمحبة يقودنا الى نفس الغاية التى يستهدفها العالم كله .. وهى رفاهية الانسان ..

ومن حسن الحظ أن تاريخنا كمجتمع رأسمالى تاريخ قصير ، اذ ان الأموال الوطنية لم توجه الى الصناعة الا منذ سنوات لاتزيد على الثلاثين ومن هنا كانت رءوس الأموال الوطنية تقف عادة الى جانب العمال والفلاحين ضد رؤوس الاموال الأجنبية ..

فاذا أضفت الى ذلك أن الطبقة العاملة عندنا ظلت قليلة العدد فترة طويلة أدركت لماذا لم يبرز التناقض بين رءوس الأموال الوطنية وبين الطبقة العاملة ، ولماذا أصبحت المصالحة الطبقية شعارا لهذه المرحلة من بناء المجتمع ..

ولعل هذا هو ما ألمح اليه الرئيس فى خطبته الى الجامعيين حين قال : ان عصر البخار والكهرباء قد فاتنا ، وان علينا ان لايفوتنا عصر الذرة ..

ودلالة حديث الرئيس فى المجال الاقتصادى هو ان عصر البخار والكهرباء فى أوروبا هو الذى خلق الرأسمالية الفردية ، وهو الذى ساعد على تجسيم الصراع بين الرأسماليين والطبقة العاملة أما عصر الذرة فهو عصر « الدولة » . ان الدولة وحدها هى التى تستطيع أن تمارس التجارب الذرية وتنشىء المصانع والمعامل وتنفق على المخترعات ..

ولذلك فان الدولة اما أن تسيطر على توجيه رءوس الأموال كما يحدث فى جميع البلدان المتقدمة أو أن يصبح الرأسماليون هم الدولة كما يتحقق فى أمريكا ..

ولكننا نريد لمستقبلنا - فى عصر البخار والكهرباء - ثم فى عصر الذرة أن يكون تناسقا بين جميع طبقات الشعب ، تستفيد منه جميع الطبقات ، وتمد كل منها الى الأخرى يدها فى حب ومودة ..

صباح الخير ١٩٥٨/١٢/٢٥

الدين .. والوطن .. والقومية

« لقد نسى الذين يحاربون العروبة فى لبنان باسم المسيحية ، أن رواد القومية العربية الأوائل كان معظمهم من المسيحيين ، ومسيحى لبنان على وجه الخصوص ؟ »

بين وزراء لبنان ، وزير ساخط دائما ، مخلص دائما ، وثائر لا يعرف المهادنة أو التسوية .. هو كمال جنبلاط .. وزير التربية الحالى فى حكومة لبنان الحالية ..

وكمال جنبلاط يتناول السياسة بمثالية الفنان وعمق الفيلسوف، وايجابية رجل الشارع ..

وهذه هى الملامح العامة التى تتضح فى كتابه الأخير « فى مجرى السياسة اللبنانية » الذى أصدره هذا الموسم ، وجمع فيه خلاصة آرائه فى أوضاع لبنان .

والكتاب يتحدث عن لبنان .. بعد الثورة .

انه يقول ان الثورة نجحت .. ولم تنجح

نجحت الثورة فى اقصاء شمعون ، وفى حل بعض القضايا المعلقة مثل عودة العلاقات بين لبنان والجمهورية العربية ، وشطب

الدعوى المتعسفة التى رفعتها لبنان ضد الجمهورية العربية من جدول الامم المتحدة ٠

ولكنها لم تنجح فى تصحيح وضع لبنان السياسى ، واقـرار طابعه العربى الاصيل ٠

ان مرحلة « مابعد الثورة » أصعب من الثورة ففى الثورة يكفى أن يرتفع الصوت بالهتاف ، وان تمتد الاكف بالسلاح ، وان يبذل الانسان دمه فى سبيل فكرته ٠

أما بعد الثورة ، فان مرحلة التخطيط تبدأ ، مرحلة العقـل الناضج الواعى ، الذى يفكر فى تحويل أحلام الثورة الى حقائق وانتصاراتها الى مستقبل ٠٠

وقد نجحت مرحلة الثورة فى لبنان ، وفشلت مرحلة مابعد الثورة ٠

فبعد الثورة ارتفع شعار التسوية ، وبرزت كلمـات التوازن والتضامن والتسامح ، واختفت كلمة ٠٠ العدل ٠٠ لتحل محلها كلمة المحبة ٠٠

ولكن هل هذه المحبة حقيقية ؟ أم هى اصطناع للتسامح والألفة والتراضى ٠

وهل يمكن فصل المحبة عن العدالة ، وخاصة فى شـــئون الدولة ٠٠

لا :

لأنه لولا الثواب والعقاب ، لولا الوطنية ، لولا القانون لمـا كانت هناك دولة ولا مجتمع ٠

وهكذا ، تحت نزعة التسوية والتراضى ، وتحت شعار «لاغالب ولا مغلوب » أفلت شمعون من العقاب على خيانته واستغلاله للنفوذ،

واثرائه الفاحش بالطرق غير القانونية ، واستعدائه الاستعمار على استقلال أمته ، واثارته للنزعات الطائفية والعنصرية ٠

وافلت كثيرون غيره من العقاب ، ولازالوا الى اليوم يتمتعون بتصريح للعمل فى لبنان ، ولا يزال للغرب فروع ومكاتب ، ولا يزال مابين ثمانمائه وألف خائن من غير أهل لبنان يتخذون من لبنان وكرا للتآمر والجاسوسية ٠

ولكن التسوية ٠٠ تمت !

وعادت السعادة الكاذبة تلقى ابتسامتها على شفاة الجميع ٠ لقد عاد الاقتصاد اللبنانى الى مجراه ، وفتحت الدكاكين ، وازدهرت الأسواق ٠ وامتلأت شوارع بيروت وطرق الجبل بالسواح والزائرين ٠

والأزمة رغم ذلك مختفية ، تحت غلالة هذا الابتسام الزائف ويجب الا يكتمها بعضنا عن البعض ، والا نقع فى دائرة هذا « التكاذب المشترك » لأن مستقبل الوطن لايمكن ان يقوم على التكاذب ٠

لقد كان يرجى من الثورة ان ترد لبنان الى طابعه العربى ، وان تخلصه من ازدواجه الطائفى الذى يحاول ان يستعين بالدين ، وان تجعل من أهل لبنان جميعا مواطنين بدلا من أن يكونوا مستوطنين ٠٠

والفرق بين المواطنة والاستيطان ، هو أن المواطن يحس بولائه للدولة ، ولاء عميقا ، لا يرتبط بأسرة أو طائفة أو دين ٠

أما المستوطن فهو يعيش فى الدولة بجسمه ومصالحه ، ولكن قلبه فى مكان آخر ٠

وفى لبنان ، يعيش بعض الناس ، بأجسامهم ومصالحهم ، ولكن قلوبهم فى بلاد أخرى ٠٠ في فرنسا ٠٠ أو أمريكا أو انجلترا ٠

والاستعمار يحرص كل الحرص على أن يكون « الاستيطان » لا « المواطنة » هو طابع الحياة فى لبنان ·

ولذلك فقد حرص على تدعيم الطابع الطائفى ، ففى لبنان نصف السكان يدينون بالاسلام ونبوة محمد ، والنصف الآخـــر مسيحى ·

وفى داخل النصفين عديد من المذاهب والعقائد ·

وهذه النصفية فى حد ذاتها عقبـة فى طريق ادمـــاج كل المواطنين فى تيار قومى واحد ، عقبة يجب ان تتغلب عليها الدولة بسياسة طويلة المدى ، ترسمها فى برامج التربية والتعليم والثقافة ، ولكن الاستعمار قد حرص على تدعيم الاحساس بهذه النصـفية ، حين تناثرت فى لبنان المدارس الاجنبية الفرنســية والامـــريكية ، والصحف العميلة التى تحرص على بذر بذور التفرقة ، والأحزاب التى تقوم على أساس طائفى وقد حرصت هذه المؤسسات على ان تشيع فى الاذهان مفهوما خاطئا ، يعتمد على الربـــط بين الدين والوطن ، بين فكرة لبنان وبقائه ، وبين العقيدة المسيحية ·

كانوا يذيعون دائما أن لبنان يجب أن يحافظ على كيانه الذى يتمتع فيه المسيحيون ، والموارنة على وجه الخصـــوص ، بأغلبية نسبية ، ذلك لأن انضمام لبنان لاى مجموعة عربية اخرى لن يكون من ورائه الا « تمييع » هذه الاغلبية المسيحية وعندئذ ·· فويل للمسيحية ونسى هؤلاء ان المسيحية الحقيقية ، ككل عقيدة دينية سماوية ، لاوطن لها ، تنفر من الحدود ، وتأنف من الاوطان الطائفية والقومية·

ونسوا قول المسيح عليه السلام « للطيور أوكارها وللثعالب جحورها ، وليس لابن الانسان موضع ليضع عليه رأسه » ·

ونسوا ان رواد القومية العربية الاوائل ، كان معظمهم من المسيحيين ، ومسيحيى لبنان على وجه الخصوص !

وارتفعت حناجرهم بكلمة براقة ، تخفى تحتها مدلولا قاتما ·

هى كلمة « الكيان اللبنانى » ··

وهى الكلمة التى يحرص على ترديدها شمعون ، وانصاره ·

انهم يقولون ان لبنان له وضع خاص بين الشرق والغرب ، انه ليس عربيا ، وليس لاتينيا اوروبيا ، ولكنه جسر وممر ، ووصلة من الارض بين الشرق والغرب ، بين حضارة اوروبا وحضارة آسيا ··

وحين يصبح لبنان فى عرفهم مجرد جسر بين حضارتين ، تتدعم هذه النظرة الثنائية فى كل شىء ··

تتدعم النظرة الثنائية الى لغتين · لغة عربية ولغة فرنسية يستعمل كلا منهما المواطنون على قدم المساواة ، وتصدر بهما الصحف ويكتب بهما الأدب · ويسجل بهما الفكر ··

وتتدعم النظرة الثنائية الى الحضارتين ·· حضارة عربية تمت اصولها الى القرون الأولى وحضارة فرنسية لاتينية وافدة مع الاستعمار ·

وتتدعم النظرة الثنائية الى القوميتين والى الدينين ··

ويصبح لديهم التبرير الكافى لبرامج التعليم المتعددة ، ومدارس الارساليات وصحف السفارات ، وأحزاب الخيانة ، ومكاتب العملاء ···

أليس لبنان جسرا ؟

واسألهم بعدئذ : كيف يقوم وطن على حافتى جسر ؟

ان الجسر موضع لتلاقى بلدين أو شعبين ، والجسر لا يصلح مكانا وزمانا لنشوء دولة وأمة ·· لا يبنى بيتا لجماعة على قارعة الطريق العامة !

وفى مواجهة أولئك الذين يرددون كلمة « الكيان اللبنانى » يقف المؤمنون بعروبة لبنان ، على اختلاف طوائفهم ومللهم ··

وهم لا يريدون أن يستعينوا بالدين ، بل بالحق الذى هو روح كل دين سواء أكان المسيحية أو الاسلام ··

ولكمال جنبلاط يقول ان الخطوة الاولى لتدعيمقوميةلبنانالعربية، هى أن يهتدى لبنان الى قوميته اللبنانية ··

والنفى هو الجواب الوحيد لمن يسأل : هل يشعر اللبنانيون بأنهم جماعة ، وهل يحسون برباط مشـــترك ، هو رباط القوميـــة اللبنانية ؟

ان القومية ليست هى مجرد وحدة العيش · واشتباك المصالح الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية ··

وليست هى مجرد الاحساس بأن الجميع يعيشون تحت حكم دولة واحدة وادارة واحدة ··

ولكن القومية هى الولاء للوطن كفكرة كبيرة مجردة · بغض النظر عن اختلاف المعتقدات والأديان ··

وهذا ما حرص الاستعمار على محوه فى لبنان ، حين غذى

ذلك الشعور العام عند كل طائفة دينية ، بانها جماعة منفصلة ومتميزة فى مصالحها عن الطائفة الأخرى ..

واذا اهتدى لبنان الى قوميته اللبنانية .. فستقوده حتما الى الاهتداء الى ارتباطه بالعالم العربى ..

الى ولاء اكبر للقومية العربية .

ان القومية العربية « واقع » فى لبنان مهما حاول عملاء الاستعمار ، ومروجو خرافة « الكيان اللبنانى » انكارها .. واقع يشهد به دور اللبنانيين الموارنة فى القرن التاسع عشر فى بعث فكرة القومية العربية ، ومساهمة اللبنانيين الدائمة فى الصحافة والفن والفكر العربى .. تشهد به الآلام المشتركة ، والجهد المشترك، والقصد الواحد والطريق الواحد ، والمصير الواحد ..

ولكن كيف يستطيع أن يفهم كل هذه المعانى الكبيرة من يقولون ان لبنان جسر .. مجرد جسر يعبره المارة بين قارتين .

وهناك فى رأى جنبلاط ثلاث درجات من الولاء ، لا يناقض أحدهما الآخر على الاطلاق ، ويتلو بعضها بعضا ..

أولها الولاء للوطن اللبنانى ..

وثانيها : الولاء للوطن العربى ..

وثالثها : الولاء للانسانية ، ولوطننا الام الاكبر .. الأرض .

فكيف نبدأ لكى نغرس فى لبنان الولاء للبنان ؟

أولا : الغاء مبدأ الطائفية السياسية فى اختيار النواب والوزراء والموظفين .

ثانيا : تحقيق مبدأ الالزام فى التعليم الابتدائى والمجانية فى التعليم الثانوى ، وتوحيد برامج التعليم وتعريبها ، وجعلها خاضعة لتوجيه وطنى عربى ، وتعريب المدارس الاجنبية ..

ثالثا : القضاء على نشاط الاحزاب المناوئة للفكرة الوطنية ، وعلى أوكار التجسس الاجنبى واغلاق الصحف التى تروج للدعايات العنصرية ، وتدعو للتفرقة ..

رابعا : وضع تشـــريع للخدمة العســكرية الاجبارية ، كى يحقق اختلاط المواطنين ، وتعارف بعضهم على بعض ..

تلك أربع خطوات هامة لخلق الوطن اللبنانى ، تدعمها خطوات عديدة فرعية ، يجب ان يفكر فيها المسئولون ، ان لكانوا حريصين حقا على أن يكون لبنان وطنا لكل اللبنانيين ..

فاذا تم ذلك كله ، بدأ السعى لربط لبنان بالعالم العربى ، دون عدوان على استقلاله !

وكمال جنبلاط يأكد هذه الجملة الأخيرة ، حتى لا يثير ثائرة أولئك المتشدقين بالكيان اللبنانى ، حين يتذرعون بدعوى «الاستقلال» والخوف عليه لتبرير انعزالية لبنان ، بل ويؤكد أيضا أن مسئولا كبيرا فى الجمهورية العربية المتحدة قد أوضح له أن كل ما يهم الجمهورية العربية من لبنان هو ألا يصبح وكرا للمؤامرات عليها وأن الجمهورية العربية لاتؤيد فريقا على فريق ، ولكنها تؤيد فكرة على فكرة .. ولا تتدخل فى الشئون الداخلية للبنان ..

وسبيل السعى لربط لبنان العربى المستقل بالعالم العربى هو الاقتصاد أولا ، والطريق الى المستقبل مفتوح بعد ذلك ، وكمال جنبلاط يطلق هذه الكلمات كأنها نبوءة ..

« ومن المفروض طبعا أن لا يتوقف تيار التجمع العربى عن نطاق الجامعة العربية ، والوحدة المصرية السورية ، بل أن يتعدى ذلك الى أشكال جديدة من التعاون أو الاتحاد ، ولا يمكننا اليوم التكهن بها » ..

ولكن المستقبل للبنان العربى .. فى داخل نطــاق الأمــة العربية ..

لا للبنان الجسر الذى تدوسه الأقدام ..

المعنى التاريخى للثورة العربية

ان الثورة القومية فى الشرق العربـــى : هذه الثورة التى اتخذت زعامة جمال عبد الناصر رمزا لها ، هى فى الواقع أعمق من أن تكون مجرد حركة استقلالية ، أو ثورة ضد الاقطاع لكى تخلفه الطبقة الوسطى فى مقاليد الحكم ··

ان أهدافها الاستقلال والوحدة والاشتراكية معا ··

فان الوحدة العربية ، وهى التطبيق المتجسد لدعوة القومية العربية ، لا يمكن ان تكون خلاقة مبدعة بدون الاستقلال الكامل البعيد عن أى شائبة من نفوذ ··

وهذا الاستقلال الكامل لايمكن حمايته وتدعيمه وصيانته الا بالاشتراكية ··

ولذلك فقد تداخلت أهداف هذه الثورة القومية وتجانست ، ولذلك ايضا كانت هذه الثورة اعمق مما يظن الكثيرون ·· كانت ثورة شاملة فى الداخل والخارج ، وفى الزراعة والتصنيع ·· وشجعت هذه الثورة رأس المال الوطنى ، كما أممت الصناعات

الكبرى وادخلت الحكومة فى قطاع كبير من نواحى الاستغلال ؛ واضطلعت بمسئوليات ثورية فى الجمهورية العربية وفى خارجها « من الاطلسى الى الفارسى » ووقفت موقفا ثوريا فى القضايا العالمية ..

هذه الثورة أكثر أصالة مما يظن هؤلاء .. فهى لا تمثل طبقة معينة ، ولا تسخر الحكم لخدمة أهداف هذه الطبقة ، بل هى تمثل جميع الطبقات فى نطاق التوفيق بين مصالحها المختلفة ومن المهم جدا حين نحاول تقييم هذه الثورة أن نطيل النظر الى بلادنا ، وأن لانتجاوز نطاقنا القومى ..

نحن نسلم بالتدرج الطبقى للمجتمع ، ونسلم أيضا بأن لكل طبقة مصالحها المعينة التى تتعارض مع مرحلة معينة مع مصالح الطبقات الأخرى ، هذا اذا تركت الطبقة المستغلة تمارس حريتها فى الاستغلال ، كما نسلم أيضا بالتفسير الاقتصادى للتاريخ ، وبالدور التاريخى للطبقة العاملة ..

وكل هذه المسلمات حين نطبقها على واقعنا القومى ، تصبح حجة لنا ـ نحن الاشتراكيين العرب ..

واود قبل مناقشة هذا الأمر ان أضيف حقيقة أخرى ، وهى أنه من الممكن توجيه التطور التاريخى والتخطيط له .. اذ ان حتميته لا تعنى اطلاقا أنه يتبع قوى أكبر من الانسان ، والا وقعنا فى غيبيات مرفوضة أصلا ..

والآن لننزل الى الواقع العربى ..

كان مجتمعنا قبل الثورة يتكون من طبقة عريضة من الفلاحين الاحرار ، وقطاع ضيق من الطبقة العاملة ..

وكان يتكون أيضا من طبقة متوسطة من الموظفين وصغار

التجار وصغار الملاك ، وأبناء هؤلاء من طلبة المدارس والجامعات ٠

وقد تحملت هذه الطبقة عبء الجهاد الوطنى فى ثورة ١٩١٩ فى مصر ، وفى الحركات الاستقلالية فى سوريا وغيرها من أقطار الشرق العربى ٠٠

ويتكون ثالثا من طبقة الحكام من أعضاء الأسر المالكة أو الحاكمة وأذنابهم ، ومن الرأسماليين الاجانب ، ومن الاقطاعيين وأصحاب رءوس الاموال الكبيرة من الوطنيين ٠٠

وكان الحكم قبل الثورة فى يد الطبقة الاخيرة ٠٠ وكانت هذه الطبقة توجه الحكم لصالحها ٠٠ ماذا فعلت الثورة القومية اذن ؟ قضت الثورة على هذه الطبقة ، اذ صفيت الأسرات الحاكمة والمالكة ٠٠ وتدخلت الحكومة فى توجيه رأس المال الوطنى ٠٠ ودعمت الثورة الخدمات العامة ، التى تنفع بها ـ بداهة ـ الطبقة العريضة من العمال والفلاحين ٠٠ كانت تلك مرحلتها الأولى أما فى مرحلتها الثانية فقد كان أهم ما اعلنته الثورة القومية هــو التصنيع ٠٠ وبرزت عندئذ كلمة الاشتراكية وترددت على لسان قائد الثورة وزعيمها ٠٠ ان التصنيع ليس هو اقامة مداخن عالية ، واستيراد آلات ضخمة فحسب ، ولكنه خلق طبقة صناعية كبيرة ، تشترك هى وطبقة الفلاحين التى رفعت الخدمات العامة مستواها فى توجيه مصير الوطن ٠٠

ومستقبل الصناعة سيحول الفلاح والعامل اليدوى الى عامل الى ٠٠٠ وسيقضى ـ تبعــا للتطور التاريخى الذى نؤمن بــه ، وتؤمنون انتم به ايضا ـ على بقايا المجتمع الاقطاعى ٠

وجمال عبد الناصر نفسه يعلم الى أين يقود البلاد ٠٠ بل أنه يمسك بزمام هذا التطور فى يده ، ويوجهه الى ابعد غاياته ، وهو مطمئن القلب ٠ ونحن نعلم ان لكل أمة طريقها الخاص الى

الاشتراكية ·· وتعلمون ايضا أن محاولة النسج على منوال امة من الأمم – دون تبصر أو رعاية للواقـــع القومـــى شىء يجلب الكوارث ! وانتم تعلمون ان هذه الثورة القومية قد صفت الاقطاع تصفية نهائية · وقلمت أظافر راس المـــال ومنعت سيطرته على الحكم ، ورفعت مستوى الفلاح ، وانها ستخلق فى ظرف سنوات قليلة الجبهة العريضة من الصناع والحرفيين ··

وانتم تعلمون أن هذه هى مشيئة التاريخ ··

هى جوهر تفسيره الاقتصادى ··

صباح الخير ١٩٥٩/١/١

كلام للداخل .. وكلام للخارج

قرأت كتاب « ثورتنا » الذى صدر فى بغداد يرد على مقالات كتبها الاستاذان عبد الله الريماوى وأحمد بهاء الدين ، وانا وعن ثورة العراق ..

والكاتب الفاضل قد كتب فى الوقت نفسه مقالات لم يحتويها هذا الكتاب ، ونشرت فى بعض الصحف العراقية اليومية ، وكان لى حظ الاطلاع عليها ..

وقد فوجئت حقا باختلاف لهجة الكتاب عن لهجة المقالات المنشورة فى الصحف العراقية .. فبينما تميل لهجة الكتاب الى الهدوء والتأنى والى التزام المنهج العلمى ، والى مناقشة الحجة بالحجة والرأى بالرأى ، الا فيما ندر ، حين يستسلم الكاتب لحماسته التى تحجب عن ناظره اكثيرا من الحقائق بينما تساعد على تضخيم بعضها الآخر . اذ بلهجته فى مقالات الصحف اليومية تتسم بالحدة والجموح ، وبالخطابية المفرطة ، والتجريح الى كل الحقائق ، وتشير بأصبع الاتهام والتجريح الى كل من يخالف فى الرأى الكاتب وجماعته التى يتحدث باسمها ، حتى لتغلو فى الاتهام الى حد يجرح صدر أى وطنى ، ويملؤه اسفا وندما على هذا المستوى المعيب ..

مثال ذلك ان الكاتب يكتب فى افتتاحية العدد ٢١ من جريدة صوت الاحرار يقول :

« من المؤسف أن نسجل أن أمثال الريماوى وعبد الصبور وأحمد بهاء الدين ومن يشايعهم ومن يؤيدهم ومن يستوحون منه ، قد وقفوا فى مجال الدعاية المدسوسة صفا واحدا مع التايم الاميريكية واذاعات طهران واسرائيل وصوت أمريكا ؟ .. »

طريقتان ..

هناك اذن طريقة للكتابة التى تدون فى كتاب والتى سيقرأها الناس فى العراق وخارج العراق والتى ستحسب على الكاتب ، وتصبح مناقشته ومناقشة جماعته على أساسها ، وهناك طريقة ثانية هى الطريقة التى تستغل للتهييج ضد القومية العربية ودعاتها ، وضد التضامن العربى وكتابه وهى تستعمل فى المقالات التى سيقرؤها اخواننا العراقيون الاعزاء فقط ، والتى يرجو بها الكاتب ان يسىء الى القومية وكتابها ودعاتها فى وجدان ، وهذان المستويان فى الكتابة يفصحان عن مستويين آخرين امرهما أدهى وأمر ، ويتبعهما القارىء العراقى ..

الكاتب .. مستويان فى العمل السياسى ، فى التكتيك الحزبى ، فى النظرة الى قضية القومية التى هى أهم قضية يجتازها الوطن العربى الآن هناك مستوى للعمل السياسى .. يومى .. سريع الفعالية والأثر ، ويوجه الى داخل العراق الى جموع المواطنين فى بغداد والبصرة والموصل وغيرها من مدن العراق .

وهناك مستوى آخر ، وجه آخر أو قناع آخر يرتديه الكاتب حين يواجه الامة العربية جمعاء ، فلا يملك الا أن يغير النبرة والصوت .. بل والكلمات ، ويدعى الكاتب وجماعته انهم يحافظون

على قومية هم اعداؤها ، وعن ديمقراطية هم قتلتها وسافكو دمها ، وعن تضامن هم محربوه ٠

منذ ١٤ يوليو ٠٠

وتتبع العمل السياسى للكاتب وجماعتـه منذ بدأت الثورة العراقية فى ١٤ يوليو حتى الآن يوضح تناقض افعالهم مع اقوالهم، كما يوضح هذين المستويين المختلفين فى الحديث الى اخواننا فى العراق ، وفى الحديث الى الوطن العربى بأجمعه ٠

ان السياسى الذى يلقى شعارا لكى يفتت شعارا آخر ، فاذا تفتت الشعار الأول ، وضعف صداه عند الجماهير ، وقلت قدرته على التجميع ، نبذ الشعار الثانى ، وكأنه لم يتمسك به فى يوم من الأيام ٠٠

هذا السياسى لاشك أنه قد القى بشعاره الثانى كتكتيك يومى دون أن يؤمن به ، حتى يستوفى غرضه ٠

ان السياسى الذى يدعو الى التضامن مع شقيقه الأكبر ، ثم ينتهز الفرصة لكى يتهم شقيقه بالتآمر ، وبانه يطعنه بخنجره من الخلف ، وهو يعلم كذب هذا الادعاء ٠ سياسى يجب أن تشك فى كلامه وافعاله ٠

واخيرا فان السياسى الذى يدعى النيابة عن الطبقة العاملة، ثم يثير قضايا الاقتصاد الرأسمالى والاوضاع الاقطاعية ، لكى يطعن بها اتجاها يهدد مصالحه الحزبية ٠ سياسى تنبع تصرفاته من الأخلاق الحزبية لا الاخلاق الوطنية ٠

وهذه ترجمة هذا الكلام ٠٠ فلعل فيه بعض الغموض ٠

١ ـ حين شبت الثورة العراقية الموفقة فى ١٤ يوليو كان شعار الوحدة هو الشعار الذى حمله كثير من الجماهير العراقية ، ولم يكن فى الأفق الظاهر اتجاه غيره ٠

وفجأة القى فى الميدان بشعار آخر ، هو شـــعار الاتحــاد الفيدرالى ، وبرز هذا الشعار فى المنشورات التى أصدرها الكاتب وجماعته ، وطرح الشعاران جنبا الى جنب ، زاحم الشعار الثانى « الاتحاد » الشعار الأول « الوحدة » ، وكان أصحابه يقولون «نحن نؤمن بالقومية العربية »

« نحن نقترح فقط تنسيق المصالح ومراعاة الظروف » ٠٠

وبعد قليل ، تغيرت الاحوال ، وجدت أحداث جديدة ثم اذا بأنصار الوحدة يحملون شعارهم القديم ، بينما أجد بين يدى الآن مجموعة ضخمة من صحف « صوت الاحرار ، الثورة ، الاهالى » يرجع تاريخها الى مدى ثلاثة شهور ٠ ولا تجد فيها لفظا واحدة عن الاتحاد الفيدرالى ٠

كيف تخلى هذا السياسى اذن عن مطلبه ؟ ٠٠

٢ ـ عن هم أفراد المقاومة الشعبية ٠٠

انهم ـ أو معظمهم ـ هم هذا الفريق الذى شكلته الجماعة التى ينتمى اليها الكاتب (لحماية الديمقراطية !! ٠٠ وذلك بضرب جميع الحلفاء المشتركين فى الجبهة الوطنية ، وبتفتيش المساكن والسيارات وبالوقوف على مداخل بغداد ، حتى اثاروا الفوضى والارباك كما اعترف الكاتب نفسه فى مقال له بتاريخ ١٧ كانون الأول (ديسمبر) بجريدة صوت الاحرار ٠

٣ ـ ان صحف الكاتب وجماعته تقول :

العدد ٢٢ من صوت الاحرار ٠٠ الافتتاحية ٠

« والمؤسف حقا أن يرافق هذا النشاط الاستعمارى الرجعى المشتد نشاط مماثل تقوم به جهات كان يجب ان تعرف أن نشاطها ضد العراق هو ضربة الى صميم البلدان العربية المتحررة ، والى المصالح العربية العليا ! ٠

اذا كانت الشعوب العربية تمجد مساعدة الوطنيين فى بلد عربى يحتله الاستعمار ، أو يخضع للاستعمار بشكل من الاشكال فان مساعدة المتآمرين ضد بلد عربى متحرر ، هو عمل لايختلف عن تآمر الاستعماريين مهما اختلفت النوايا والاهداف ·

« ولكننا مهما كانت مساهمة هذه الجهة أو تلك لانسمح لانفسنا أن نركز انتباه الجماهير فى الاساس الا على النشاط الانجلو الامريكى » ··

وتأملوا فى معنى هذا الكلام ··

٤ ـ لكى تصرف الانظار عن قضية توثيق العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة اثار الكاتب قضية اختلاف المستوى الاقتصادى بين البلدين ، فالاقتصاد المصرى متقدم كامل النمو ، بينما الاقتصاد العراقى جنين جديد · ويخشى عليه من أن يلتهمه الاقتصاد المصرى ·· وهذه حجة مضللة ـ لاتثير الا الراسماليين والاقطاعيين ··

بعد تلك المقدمة الطويلة انتقل الى الرد على نقطة هامة فى الجزء الذى يخصنى من كتاب الكاتب الفاضل ··

وللحديث بقية أناقش فيها هذا الكتاب ··

صباح الخير ١٩٥٩/١/١٥

الوحـدة حياتنـا ..

واتى فارس اسمه الأمل ..

طويل كجبال الصبر الذى عاناه الاجـداد ، عالى الجبهة كالمئذنة ، اسمر مثل اديـم الأرض ، وخصـبا مثلها بالوعود المثمرة ..

على فمه ابتسامة كأنها الغد ، وفى عينيه يقظة المحارب الذى لن يغمد سلاحه الا اذا انتصف لقومه من أعدائهم ، ولتاريخه من حاضره ، وركز اعلامه على قمة مستقبله ..

واصبح هذا الفارس هو امل المحـارب فى شـط المحيط ، والمضطهد فى سفح عمان ، والمناضل فى وهران ، واللاجىء فى مخيم غزة ..

وكان يرى أبعد مما نرى جميعا ، لأنه مثل كل قائد ملهم ، يمتد بصره الى آفاق لايستطيع استشرافها جنود كتيبته ..

وكانت الوحدة فى قلوب جنود الكتيبة خيالا أو كالخيال ، شيئا مثل الشعر يطوف بالصدر حينا ثم يخفت ، وتردهـم عنه صعوبة الطريق ، وكثرة الأعداء ، وأنها ما زالت خيالا أو كالخيال

ومد القائد ذراعيه ، وفتحهما ، ثم احتضن فى صدره هذا الحلم الطائف ، وضمه الى صدره ، واصبح الحلم حقيقة ·

واعلنت الوحدة بين اقليمى مصر وسوريا ·

وطافت الابتسامة على شفاه الأجداد الميتين ، وهطل الندى على قبر صلاح الدين ، واورقت جذوع المشنقة التى علق عليها ذلك الرعيل الأول من مجاهدى سوريا ، وتهامست قبور الشهداء يلقى ساكنوها تحية المساء ، ثم يرقدون فى سلام ·

ان كل شىء بخير ، فقد أتى الفارس الذى اسمه الأمل ··

حياتنا ··

ومر عام من عمر الوحدة ··

وهذا العام الفائت ليس الا خطـــوة فى الطريق ان وحدة اقليمين من أقاليم العرب ليست الا البشرى الطيبة التى تســـبق الحادث السعيد ، وان الموكب ليتقدم رغم ما يجد فى طريقه من عثرات واهوال ، وهو ممتلىء القلب بالاطمئنان ··

ونصف اطمئنانه أن على رأسه هذا القائد ، والنصف الآخر أن وراء هذا القائد ·· هذا الشعب ·

ومن صلابة القائد وصلابة الشعب ، ومن اطمئنان القائد لشعبه واطمئنان الشعب لقائده ، ترتسم صورة الغد ·· صورة انتصارات الوحدة المقبلة ·· صورة الحادث السعيد القادم الذى انطلقت بشراه بوحدة اقليمى مصر وسوريا ·· والوحدة لشعبنا العربى ليست مجرد حاجة نفسية لأن تتحد أجزاء الشعب التى فرقها الاستعمار ، فتحس عندئذ بالعظمة والمجد ، وبأن تاريخها الملىء بالمآثر قد عاد اليها فى أنضر صورة ولكنها حاجة حسمة ·· انهـا

حاجة من حاجات الحياة ·· ان الأمة العربية لا تستطيع ان تتنفس أو تمضى أو تمارس حياتها فى المستقبل الا فى ظل الوحدة ·

ان الوحدة هى الهواء الجديد النقى الذى تطلبه رئاتنا ، بعد أن كادت أن تنهكها سموم الفرقة والتشتيت ··

ولولا هواء الفرقة والتشتيت المسموم لما ضاعت فلسطين ، ولما تهاوت قنابل الانجليز على رءوس مجاهدى عمان ، ولما أديرت حرب الابادة فى الجزائر ، ولما سلب جزء من الوطن العربى الكبير لتعطيه فرنسا هدية لتركيا ، وتزرع به جرحا فى الصدر العربى ··

لولا هذا الهواء المسموم لما امكن ان تنبت فى وطننا العربى رأس خائنة ، أو قيادة مترددة ، أو فئة ضالة منحرفة ·

ان الوحدة هى سيف القضاء على الاستعمار والرجعية والانتهازية والانحراف والتضليل ·

ولذلك فقد تكتلت كل قيادات الفساد حول وحدتنا وهى لم تزل فى عامها الأول ، وهى لم تخطو الا خطوة واحدة نحو هدفها الاكبر الذى يتسع حتى يمد جناحيه من شط الخليج الى ساحل المحيط ··

ولأن الوحدة ليست فى مصلحة احد الا اصحابها فقد كاد أن يتنكر لها الجميع ، ما عدا اصحابها ·

لكى تعيش الوحدة ··

ان الوحدة اذن تنبت فى وجه مقاومة · لقد جرت فيها سنة جميع الرسالات الخالدة والعقائد العظيمة حين يصبح القابض بيده على عقيدته كالقابض على الجمر ·

ان انجلترا تحاربها بالقذيفة والمدفع ، وفرنسا تحاربهــا بالقذيفة والمدفع ، وأمريكا تناوئها بالخديعة والتآمر ، ودول شرق

أوروبا تفتح الباب لليهود الى اسرائيل لكى يصنعوا مزيدا من المآسى ، ويشردوا مزيدا من اللاجئين ·

وكلمة القومية العربية ، وهى شعار الوحدة النبيل ، تسرق وتزيف ملامحها ، وينزل بها الجبناء والمنحرفون أرض المعركة ··

وكل أعدائنا يضعون أيديهم على قلوبهم خوفا من الوحدة ، وعقولهم تدور بالمكيدة والغدر والخداع ··

ونحن نعيش أيامنا معارك فى معارك ، لانكاد ننفض تراب معركة حتى تواجهنا الأحداث بنذير جديد ··

ولكن الوحدة حياتنا ، ونحن نعرف أننا لن نستطيع التنازل عنها أو المساومة فيها ، لأن الانسان لا يتنازل عن حياته ولا يساوم على دمه وقلبه ··

عام جديد ··

والآن كيف سنواجه هذا العام الجديد وسط كل هذه الأخطار ·

سنواجهه أولا بمزيد من الوعى بثورتنا العربية وباستقلالها ، بانها ليست فى مصلحة أحد الا نحن ، وبأن أفكارها وأيديولوجيتها لا تنبع من واقع الا واقعنا ، وباننا نحن المسئولون عنها وحدنا ·

وسنواجهه بأن الوحدة بالنسبة لنا معركة حياة أو موت · وانها البشير بعودة فلسطين للعرب ، وبتحرير الجزائر ، وبأن يكف صليل المدافع فى جنوب الجزيرة ·

وسنواجهه بنظرة واسعة الى وطننا العربى وبدراسة وافية لامكانياته ولقدراته الخلاقة وأمل مشرق فى دورة فى التاريخ ··

وسنواجهه بكلمة فاصلة كالسيف نقولها فى وجوه الجميع ·· اننا نصادق كل من يصادقنا وحدتنا ، ونعادى كل من يعاديها ··

صباح الخير ١٩٥٩/٢/١٩

كنت فى بغداد عندما بدأ الانحراف

ان الانتكاس المؤسف لثورة العراق ، ذلك الذى كشف عن وجهه سافرا منذ حوالى شهرين ، كانت طلائعه واضحة فى الأفق، ان لم يكن منذ الاسبوع الأول للثورة ، ففى أسابيعها الاولى ٠

وان عبد الكريم قاسم لم يكن ليستطيع ان ينحرف بالثورة لو لم تساعده ظروف مختلفة ٠٠ بعضها فى داخل العراق ، وبعضها من خارجها وأن اوزار حكم عبد الكريم قاسم لايستطيع ان يتحملها وحده ، بل لابد ان يشاركه فى تحملها فئات وجماعات وافراد ومذاهب ٠

فمن هم هؤلاء الذين سولوا لعبد الكريم قاسم ان ينحرف بالثورة ، ثم ساعدوه بعد ذلك ، ثم وقفوا به الآن هذا الموقف الغريب ٠٠

من هم ؟؟

أعود بذاكرتى الآن الى الأيام الأولى من شهر سبتمبر الماضى ، وبالتحديد الى اليوم الثامن من هذا الشهر ٠٠

فى التاسعة من صباح ذلك اليوم كنت فى مطار بغداد قادما من القاهرة ٠٠

لن أحدثك عن ابتسامة موظفى المطار ، ولا عن تحية ضابط الجوازات وسؤاله لى عن جمال عبد الناصر ، ونظرة الود الذى كست وجهه ، ولن أحدثك عن سائق التاكسى الذى كان يتوثب بى فرحا حين سمع لهجتى المصرية ..

ولكنى سأحدثك عن شوارع بغداد ..

كان من الواضح أن ثورة بغداد هى نصـــر جديد لجمال عبد الناصر .. كانت صورته تتوسط رجلى الثورة ، عبد الكريم قاسم ، وعبد السلام عارف ، تملأ شوارع بغداد ..

كان من الواضح أن جمال عبد الناصر هو الذى قدم هذين الرجلين الى الشعب العراقى ، وقدم الثورة من ورائهما ..

ولو لم يعلن الثوار فى أول بيان لهم اعترافهم بالجمهورية العربية المتحدة لما تحمس الشعب لها كل هذا الحماس ..

فلم يكن أحد قبل ١٤ تموز يعـرف شيئا عن عبد الكريـــم وعبد السلام ، وكان الشعب العراقى كله يتطلع بآماله الى رجل واحد ، هو جمال عبد الناصر ..

حدث أن كان فيصل الثانى يبنى لنفسه قصـــرا جديدا فى الكرخ ، قصرا أبيض فخما بعث يستورد اثاثه من انجلترا ، وكان العراقيون يتندرون فيقولون :

ـ لقد بنى هذا القصر لكى ينزل فيه جمال حين ينقذ بغداد من نورى السعيد ..

وهذه القصة سمعتها من وزير مسئول ..

وكان الشعب العراقى كله ـ حتى فى أحلك أيام حكم نورى السعيد ـ واثقا من أن يوم تحرره سوف يأتى ، وذلك لأن على رأس

القوى الوطنية فى البلاد العربية ·· البطل عبد الناصر ولذلك فان شوارع بغداد كانت مهرجانا لجمال ··

واكشاك الصحف كانت مهرجانا لجمال ·· وباعة الميادين ، والباعة الصغار الذين يجلسون على افاريز شارع الرشيد كانت تجارتهم الرائجة هى صورة جمال عبد الناصر ··

وكان ذلك كله ، وعمر الثورة العراقية ، خمسون يوما ، وكان واضحا أن العراق فى طريقه الى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، وكان المتفائلون يتوقعون لهذه الوحدة أياما قليلة ··

أما من هم اقل تفاؤلا فقد توقعوا الا يطول انتظارهم الا اسابيع ··

وبين اليوم الخمسين واليوم الستين لثورة بغداد ·· حدثت تطورات هامة ، كانت خلاصتها هى ذلك الخطاب الذى القاه الرجل الصامت حتى ذلك اليوم ، عبد الكريم قاسم ، فى وفد الأدباء العراقيين فى ١٦ سبتمبر ··

قال قاسم :

« ان بعض الحكومات السابقة كانت تربط الشعب بمعاهدات واحلاف دون استفتائه فى هذه المعاهدات والاحلاف ، ولكن الحكومة الجديدة لن تصنع شيئا قبل استفتاء الشعب العراقى ، ولن تستفتى الشعب قبل رفع مستواه صحيا وماديا ومعنويا ··

وكان من الواضح أنه يشير بارتباطات الحكومات السابقة الى حلف بغداد الذى لم يخرج منه الا منذ أيام ، وبالارتباطات الجديدة الى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، كما كان من الواضح ان التذرع برفع مستوى الشعب صحيا وماديا ومعنويا هو

ذريعة مطاطة لم يقلها الزعيم ـ الذى لم يكن أوحد حتى ذلك اليوم ـ الا كسبا للوقت حتى تفرخ الخطـة الجديدة ، وتسـفر عن وجهها ..

واستقبلت بغداد تصريحاته بفتور وتساؤل ، وبقليل بل بكثير من سوء الظن ، اذ انه كانت قد سبقت هذه التصريحات احـداث رسمية ، واحداث شعبية ..

أما الأحداث الرسمية فهى خروج عبد السـلام عارف من منصبه العسكرى ..

وهى تغير لهجة الببغاء فاضل عباس المهـداوى فى محكمة الشعب ببغداد ..

وهى احتلال الفوج الأول من الشـيوعيين لبعض المناصب الهامة فى الدولة ..

أما أهم الأحداث الشعبية فهى نزول منشورات بتوقيع الحزب الشيوعى العراقى ، وكان همها مناقشة قضية الوحدة والتشكيك فيها ..

ولنستعرض الآن هذه الأحداث واحدا واحدا ..

❁

كان موعدى لمقابلة عبد السلام عارف الساعة العاشرة من صباح يوم ١٣ سبتمبر .

وفى مساء يوم ١٢ سبتمبر سمعت من اذاعة بغداد خبر اعفاء عبد السلام من منصبه العسكرى ..

وذهبت حسب الموعد الى وزارة الداخليـة ، التى ظـل عبد السلام وزيرا لها فترة قصيرة بعد اعفائه ، وأدخلنـى مدير مكتبه العسكرى اليه .

وكان عبد السلام قد خلع زيه العسكرى ، ولبس حلة مدنية ، ورحب بى فاتح بغداد وطلب كوبين من الشاى ، وجلسنا نتحدث ·· ومن اللحظات الأولى لحديثنا ادركت أن عبد السلام الثائر يحاول أن يكون حريصا ـ رغم طبعه ـ لكى لا يثير الفتنة في صفوف الثورة وضباطها وجماهيرها ··

وكان من البديهى أن أساله عن سبب خروجه من الجيش ، وأجابنى عبد السلام انه يعتبر نفسه جنديا سواء اكان فى داخل الجيش أو خارجه ··

وسالته :

ـ هل يشكل مجلس قيادة ثورة فى القريب العاجل ؟ ··

وأجابنى عبد السلام :

ـ ان هذا الأمر محل بحث الآن بين قيادات الجيش ··

وقلت له : لعل أعباء وزارة الداخلية الى جانب أعباء الجيش كانت ثقيلة عليك ، فتفرغت للداخلية ··

وابتسم قائلا :

ـ انى أتمنى أن يصل العراق الى شط الأمان ·· وعندئذ أتخلى عن كل مناصبى · واتطوع جنديا عاديا فى حرب الجزائر ·

وسألته :

ـ ما هو شط الأمان ؟ ··

وقال عبد السلام :

ـ أنت تعرف ياأخى ··

وخرجت من مكتب عبد السلام عارف لأحاول وضع النقط

على الحروف من خلال لقاءاتي مع بعض الضباط الآخرين ، وبعض السياسيين .

وعرفت من هذه اللقاءات حكايـــة مجلس قيـــادة الثورة المقترح ..

اقترح عبد الكريم قاسم انشاء مجلس قيادة ثورة من ضباط الجيش ، ووافقه عبد السلام بعد تردد ..

وكان سبب تردد عبد السلام ان من رأيه أن تعلن الوحدة بأسرع ما يمكن ، وعندئذ فلا حاجة لتنظيمات جديدة ، وقال لـــه عبد الكريم ان الوحدة آتية لا ريب فيها ، وأن من المستحسن أن يتم تكتيـل الجيش والشـــعب وتنظيف الجيوب الداخلية قبـــل الوحدة ..

واقتنع عبد السلام ، وابتدأ البحث فى تشكيل المجلس ..

ومن المقرر فى تاريخ ثورة ١٤ تموز انه لم يسبقها تشكيل ضخم محكم للضباط الأحرار مثل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، بل كانت هناك عناصر ثائرة كثيرة من الضباط ، وكان يجمـــع معظمهـا صداقات وثيقة ..

وفى الأيام الأخيرة التى سبقت الثورة كان التماسك قد زاد بين كتلة من الضباط أبرز أعضائها عبد السلام عارف وعبد الكريم قاسم وناجى طالب ..

وكانت هذه الكتلة تضم أيضا رفعت الحاج ســرى وطاهر يحيى وعبد اللطيف الدراجى وناظم الطبقلشي وغيرهم ..

وكان معظمهم من كبار الضباط ، من رتبة مقدم فما فوق ، ولم يكن لهذه الكتلة تنظيم فى صفوف الضباط الصغار ..

وبهذا المعنى يختلف تشكيل الضباط العراقيين الذين قاموا بالثورة عن تشكيل الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو الظافرة ، سواء فى العدد أو طبيعة التشكيل ..

ومن المقرر أيضا أن الذى قام بدخول بغداد هو عبد السلام عارف ، والفرقة التى يقودها ، ولذلك فقد اقترح عبد السلام أن يتكون المجلس من عبد الكريم وعبد السلام وبقية كبار الضباط القوميين المعروفين بميولهم العربية المتحررة .

واقترح عبد الكريم أن يتكون المجلس منه هو وعبد السلام ، ثم أضاف أسماء بعضها ليس له رصيد مطلقا فى الحركة الوطنية مثل المهداوى ، وبعضها معروف بميوله الشيوعية مثل وصفى طاهر وجلال الأوقاتى ، والآخرون شيوعيون تركوا الجيش من مدة مثل سليم الفخرى .

وثار الخلاف بين الرجلين وسعى عبد الكريم الى ضباط الجيش ليقول لهم :

ـ ان عبد السلام لايريد تشكيل مجلس ثورة .. انه يريد أن ينفرد بالحكم ..

وقال هذا الكلام حتى للضباط الذين اقترحهم عبد السلام عارف ..

وتجمدت المياه بين عبد السلام وبين بقية قواد الفرق ..

وعندئذ وجد عبد الكريم الفرصة مواتية .. وأخرج عبد السلام بالطريقة الغريبة التى ذكرتها الصحف أكثر من مرة .. انتهز فرصة اجتماع مجلس الوزراء الذى يحضره عبد السلام وخرج برهة قصيرة حيث أمر مدير الاذاعة تليفونيا أن يذيع بيانا باعفاء عبد السلام ..

وحين عاتبه عبد السلام فى الأمر ، قال له عبد الكريم ان تلك هى رغبة قواد الجيش .

وكان فى ذلك الحين قد افسد الجو تماما بينه وبين هؤلاء القواد ..

هذه هى الحادثة السياسية الأولى التى تمت فى الأيام العشرة بين الخمسين والستين من عمر الثورة ..

أما الحادثة الثانية فهى تغير لهجة الببغاء فاضل عباس المهداوى .

وقد يكون المهداوى لصا أو لايكون ، وقد يكون شاعرا خائبا كتب القصائد فى مدح عبد الاله أو لايكون .

ولكنه ـ رغم كل شىء ـ ببغاء يردد مايلقى اليه دون تفكير ..

وقد شاهدت المهداوى فى المحكمة فى يوم وصولى بغداد ، وكان يحاكم مذيعى راديو بغداد ومدير الاذاعة لأنهم هاجموا جمال عبد الناصر فى برامجهم الاذاعية التى كان يكتبها خليل ابراهيم كاظم الحيدرى ، ويشرف على اذاعتها ، واقفا على قدميه فى الاستديو نورى السعيد نفسه ..

وسمعته فى ذلك اليوم ، وسمعه معى مراسلو الصحف من جميع أنحاء العالم ، ومندوبو التليفزيون والسينما ، وهو يقول :

ـ كيف تسولون لأنفسكم أن تهاجموا رائد القومية العربية وبطل التحرر والسلام والحياد الايجابى .. جمال عبد الناصر .

وشاهدت المهداوى لآخر مرة ، فى ليلة سفرى عن بغداد ، وهو يحاكم فاضل الجمالى وزير خارجية نورى السعيد ، ورئيس

وزراء العراق لفترة من الوقت ، وسمعته ، وهو يؤكد لفاضل الجمالى ان جمال عبد الناصر لا شأن له بثورة العراق ٠

كان فاضل الجمالى ، ذلك الرجل النحيل الخبيث واقفا فى قفص الاتهام ، وكانت قاعة المحكمة الصغيرة فى ذلك اليوم لاتكاد تتسع لروادها ، وكانت مقاعدنا ـ نحن الصحفيين مزدحمة مكتظة شاركنا فيها المحامون والمصورون ٠ وكان الى يمينى صحفى أمريكى وأمامى مراسل البرافدا والى يسارى صحفى باكستانى ٠ كأن اذان العالم وعيونه كله فى تلك الجلسة ٠

وقال فاضل الجمالى ، الرجل الخبيث وعلى شفتيه ابتسامة ناحلة ٠

ـ سيدى الرئيس :

لقد كانت سياستى أن أجنب العراق ويلات الناصرية ٠٠

ولم يدع المهداوى فاضل الجمالى يتم كلامه ، بل لقد انتفض محمر الوجه ، وتناول منظاره الملقى أمامه ثم علقه على عينيه واعتدل فى جلسته قائلا بلهجته الخطابية المعروفة ٠٠

ـ ويحك ٠٠ أتريد أن تقول ان جمال عبد الناصر هو الذى صنع ثورة ١٤ تموز أو أنه حتى قد ساهم فى ثورة ١٤ تموز ؟ ٠٠ ان الذى صنع الثورة هو الزعيم الأوحد ٠٠ عبد الكريم قاسم وفى ذلك اليوم ولدت كلمة « الزعيم الأوحد » رسميا وسمعت بغداد كلها ، كما سمعت أنا ، هذه الكلمات المسمومة ، وزاد القلق ، واخذ التفاؤل يتبدد ، وحل محله التشاؤم ، وبخاصة وقد دخلت فى الميدان حقيقة ثالثة ٠

تلك هى تسلل الفوج الاول من الشيوعيين الى اكثر وظائف الدولة حساسية ، فقد أصبح سليم الفخرى مديرا للاذاعة ولطفى

طاهر رقيبا على المطبوعات ، وجلال الأوقانى قائدا لسلاح الطيران الى جانب أماكن حساسة أخرى ٠

وظهرت النتيجة واضحة أمام الشعب ٠

وأنا لا أنسى اليوم الذى دخلت فيه اذاعة بغداد ٠

كان يوسف العانى الممثل العراقى ومخرج التليفزيون قد مر على بالفندق وترك لى بطاقته وذهبت الى الاذاعة لأسأله عن الحركة الفنية بالعراق الحبيب ، ولم يكن يوسف موجودا ، واستقبلنى أحد موظفى الاذاعة ، ولا داعى لذكر اسمه ٠٠

كان على وجهه شعور بالغيظ ، وفى صوته مرارة المغلوب على أمره ٠

وأغلق الباب علينا ، وابتدأ يتحدث ٠

قال لى ان الاذاعة العراقية قد أصبحت اذاعة شيوعية ، ان سليم الفخرى قد حولها الى خلية يمثل هو فيها دور الموجه السياسى ٠

وقال لى أشياء ضحكت لها ، وشر البلية مايضحك ٠

قال لى ان سليم الفخرى قد منع اذاعة أغنية « وحده مايغلبها غلاب » التى يغنيها محمد قنديل ٠

وأن سليم الفخرى قد منع اذاعة نشيد « الله أكبر » الذى كانت الاذاعة تفتتح وتختتم به ، وجعل مكانه نشيدا كلماته :

يحيا السلام العالمى

ويا حماماته

يحيا محررنا البطل

هوه وعباراته

واحتج الناس على منع كلمة « الله اكبر » فاعادها سليم الفخرى مضطرا ٠

كنا نتحدث ـ انا والمواطن العراقى ـ وحديث المرأة يذاع من راديو بغداد ، والمتحدثة تسهب فى الحديث عن كفاح المرأة الالبانية والمرأة فى كوريا الشمالية والمرأة البولندية ٠٠ اخبار عن النشاط النسائى من كل مكان ، وليس هناك خبر عن المرأة العربية ، وانصتنا للحديث برهة ، وضرب محدثى العراقى كفا على كف ، وسألنى ٠٠ اترى ؟

وسألته بدورى :

ـ وماذا يفعل وزير الارشاد ٠٠ السيد صديق شنشل

واجابنى على سؤالى ، ولكن هذا مجال آخر ومن الأفضل الآن العودة الى الحادثة الرابعة التى نزعت التفاؤل من القلوب ، وحلت محله التشاؤم والقلق ، ثم نعود بعد ذلك الى موقف الوزراء المدنيين ، ومن بينهم السيد صديق شنشل ٠

وتلك الحقيقة هى منشورات الشيوعيين التى امطرت على بغداد ٠

وسأتحدث أولا عن شيوعيى العراق ، قبل ان اناقش منشوراتهم ٠

ان تاريخ الشيوعيين فى العراق جزء من تاريخ الحركة الشيوعية فى الشرق العربى ، ولذلك فان اخطاءهم السياسية هى نفسها اخطاء الشيوعيين فى أى قطر عربى آخر ٠

ولكنهم فى العراق أقوى منهم فى أى قطر عربى آخر ، والفضل فى ذلك لنورى السعيد ، اذ لولاه لكفنوا فى اخطائهم السياسية كما كفنت الاحزاب الشيوعية الاخرى في البلاد العربية كانماينقص

من الرصيد الوطنى للحكم العراقى البائد يوما بعد يوم يضاف الى رصيد الشيوعيين ذلك لأن نورى السعيد كان يتهم كل من يدعو الى الوطنية أو القومية بأنه شيوعى ٠

ولذلك كسب الشيوعيون فى الظاهر السمعة الوطنية عند بعض الناس ، رغم تركيب الحزب الغريب وتاريخه غير المشرف ، وأخطائه السياسية القاصمة وأوشكت الشيوعية أن تصبح مرادفة للوطنية فى أذهان بعض البسطاء رغم ما بين الكلمتين ٠٠

والحزب الشيوعى العراقى من أقدم الاحزاب الشيوعية فى الشرق الأوسط ، ولكنه فى تاريخه هذا قد مر بفترات مختلفة من الزعامة والاتجاه كانت الى جانب جماعات من المثقفين والمتصلين بالاوروبيين وكانت الحكومات المختلفة تناوئه وتضيق عليه الخناق ولكن فرصة الحزب الذهبية اقبلت حين قامت الحرب العالمية الثانية ، وانضم الاتحاد السوفيتى الى معسكر الحلفاء ، وعندئذ غزت النشرات الشيوعية والكتيبات التى تمجد الاتحادالسوفيتىأرض العراق ، وسمحت لها الحكومات الممالئة للانجليز بالانتشار ٠

ويظن أن الحزب الشيوعى العراقى فى ذلك الوقت كان على علاقة بالحزب الشيوعى الهندى والحزب الشيوعى البريطانى ، ومصدق ذلك موقفه من ثورة رشيد عالى الكيلانى عام ١٩٤١ ٠

وقف الحزب الشيوعى العراقى ضد هذه الثورة واتهمها بانها ثورة رجعية لصالح دول المحور ٠ وطعنة للديمقراطية فى مدنتها ، رغم أن هذه الثورة كانت ثورة قومية عربية محددة الاهداف فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الحركة القومية العربية ، ورغم ان القوميين العرب من سوريا وفلسطين أبدوا تأييدهم وحماسهم لهذه الثورة ٠

وطالب الشيوعيون حينئذ بقطع العلاقات مع المانيا ، وبتجنيد فرق من الجيش العراقى للحرب فى صف الحلفاء ٠

ولما انتهت الثورة ، وقتل ابطالها وشردوا ، ظل الحـــزب الشيوعى حريصا على محاولة اتهام هذه الثورة ودمغها بمحاربة الديموقراطية ٠

وفى عام ١٩٤٨ وقف الحزب الشيوعى العراقى ضد حرب فلسطين ، وطالب بعدم التدخل ، بل لقد هتف بعض أفراده للجيش الاسرائيلى الباسل على اعتبـار دولة اســرائيل دولة تقدميــة ديموقراطية فى وسط الدول الرجعية فى العالم العربى ٠

ونزح كثير من اليهود مضطرين الى اسرائيل ومنهم زعماء الحزب الشيوعى العراقى ، بعد أن قتل نورى السعيد أحد زعماء الشيوعية وهو زكى بسيم اليهودى متهما اياه بالصهيونية ٠

وتكتلت الاقليات حول الحزب الشــيوعى العراقى للمـــرة الثانية رغم أنه اجتمع أكثر من مرة ، ونقد تاريخه ، وأعلن انه قد تورط فى أخطاء فاحشة نتيجة لسيطرة اليهود الصهيونيين عليه ولكن الواقع أن سيطرة اليهود قد أفسحت مجالا بعدها لسـيطرة بعض الأقليات ٠٠

والايرانيون والأفغان الذين استقروا فى العـراق يتجمعون فى النجف وكربلاء وغيرهما من المزارات المقدسة ، وهم قد فروا من بلادهم نتيجة لرقة الحال أو الاضطهاد ، ثم استقروا فى العراق منذ جيـــل أو جيلين دون أن يصــل الاحساس العربى الى أفئدتهم ومعظمهم لم يحصل على الجنسية العراقية الا بين عامى ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ ، ومن الجدير بالذكر أن كامل قازنجى الزعيم الشـيوعى الذى قتل بالموصل من أصل أرمنى وأمه يهودية وكان تركى الجنسية

الى عهد قريب بينما ينحدر عزيز الحاج قوللى من أصل ايرانى ·· الخ ··

وتستطيع أن تتساءل كيف يمكن ان يمثل هؤلاء الأخلاط من الناس شعبا عربيا عريقا مثل شعب العراق ··

أما الاكراد فان موقفهم هو موقف الشعب العراقى نفسه ··

ولكن الشيوعيين فى منشوراتهم ·· التى أعود لمناقشتها بعد هذا الاستطراد الطويل ـ جعلوا من هذه الأوهام حـول الأقليات صف الهجوم الاول ضد الوحدة ··

الوحدة !! ·· نعم الوحدة ·· فقد كان ذلك هو اتجاه العراق وهدفه بعد ثورة ١٤ تموز · كان الشعب كله مجمعا عليها · ولـم يبق الا أن يخطو قادة ثورته وتخطو نحوها الجمهورية العربيـة المتحدة خطوة ، وليلتقى الشقيقان ··

ولو أجريت انتخابات أو نظم استفتاء فى تلك الأيام لنالت الوحدة الاغلبية الساحقة ··

وخرج الشيوعيون من المعتقلات والسـجون ورجعوا من المنافى لكى يقفوا أمام ارادة الشعب ، ولم يكونوا يستطيعون أن يقفوا أمام تلك الارادة فى صراحة واستقامة ، فوجـدوا أن من الأصوب أن يلقوا فى المعركة بشعار آخر ، وتدور المفاضلة عندئذ بينه وبين الشعار الأول ··

والقوا بشعار الاتحاد الفيدرالى وبرزوا شعارهم هذا بثلاثة اشياء ··

أولهما هو ماسبق أن تحدثت عنه فى قضية الأقليات ··

وثانيهما قضية الديمقراطية والأحزاب ··

وثالثهما قضية الاقتصاد العراقى قال الشيوعيون ان الشعب العراقى قد عانى أيام نورى السعيد من فقدان حرياته السياسية حتى أصبح متشوقا اليها ، وان الشعب يجب أن يكافأ على ذلك بعودة أحزابه ، فاذا كانت الجمهورية العربية المتحدة قد منعت نشوء الأحزاب فمعنى ذلك أن الأحزاب العراقية لن تعود الى الحياة ولن يكافأ الشعب ..

ومعنى ذلك أن الديمقراطية ليست الا لعبة يتسلى بها الشعب أو مائدة من طعام حرم منه ، ويجب أن يقدم اليه ، وكأنها ليست نظاما اقتصاديا وسياسياً وسياجا للاستقلال والحرية ان من العجيب أن يتحدث الشيوعيون حقا بهذا المنطق وهم الد أعداء الديمقراطية البرلمانية والمؤمنون بأن الأحزاب فى نشوئها انما هى تعبير عن ارادة طبقات متصارعة ، وكأن الشيوعيين قد نسوا أن لينين أغفى نائما فى أول وآخر جلسة للمجلس التشريعى ، وبعد أن انتهت الجلسة أخرج الجيش النواب بالقوة ..

ووجه الغرابة الثانى فى طلبهم هذا هو أن الأحزاب العراقية فى تلك الفترة كانت كلها قد صفيت فى اتجاهين ..

كان اعضاء حزب الاستقلال ، وخاصة شبابه من المحامين والموظفين والتجار قد اندمجوا مع حزب البعث وقاعدته من الطلاب والمعلمين والفلاحين فى اتجاه واحد ، هو اتجاه الوحدة العربية السريعة الشاملة ، وكانوا على أتم استعداد لأن يتنازل الحزبان عن تشكيلهما الحزبى فى سبيل الوحدة مع الجمهورية العربية ، ومال اليهم كثير من شباب الحزب الوطنى والديمقراطى ، بل وكبار أعضائه ، وأصبح الجميع يدعون « القوميون العرب » ..

بينما وقف الشيوعيون وقلة من أعضاء الحزب الوطنى الديمقراطى فى الاتجاه الآخر ..

وكان واضحا عندئذ أن عودة الاحزاب ليست مطلبا مقصودا لذاته بقدر ما هو تاكتيك سياسى لتفتيت الصفوف وتوهين الاتجاه القومى ..

وكان لكل من الشيوعيين وحلفائهم من أعضاء الحزب الوطنى الديمقراطى وبعض المستوزرين أغراضه الخاصة فى محاربة الوحدة ، أما الشيوعيون فقد كانوا يخشون على كيانهم الحزبى ومكاسبهم الحزبية الضيقة ، ذلك الى ما فى طبيعة الحزب ، حسب تشكيله ، من عداء للقومية العربية نتيجة لاعتماده على الأقليات غير العربية ..

ان اعتراف الشيوعيين بالقومية العربية لفترة ما ، كان فى واقع الأمر تاكتيكا سياسيا مؤقتا يقصدون منه أن يمكنهم من التغلغل فى الجبهة الوطنية ومحاولة السيطرة على قيادتها .. ولذلك فقد كانوا من أكثر الناس حديثا عن هذه القومية فى الأعوام التى سبقت الثورة العراقية وخاصة منذ ان ارتفع لواء هذه القومية فى يد جمال عبد الناصر بعد انتصاره على العدوان الاستعمارى وبعد وحدة مصر وسوريا ..

أدرك الشيوعيون بحذرهم السياسى أن الوقوف أمام هذا التيار الجارف هو محاولة انتحارية ، فدخلوا فى صفوفه ، وانتهزوا الفرصة المواتية .

والأحداث التى جرت بعد ذلك تؤكد عدم جدية الشيوعيين فى طرح هذا الشعار ، اذ بينما استشهد العشرات والمئات من حملة رسالة الوحدة فى سبيل رسالتهم ، لم يرفع الشيوعيون صوتا واحدا بعد ايام قليلة يطالب بالاتحاد الفيدرالى .

بل لقد غيروا تكتيكهم الحزبى ، وحولوه الى اتجاه آخر ،

هو مهاجمة الجمهورية العربية المتحدة ، واتهامها بالتآمـــر على العراق ٠٠

ذات يوم اذاعت محطة اسرائيل أن عبد السلام عارف مـر بالقاهرة قبل عودته الى بغداد ، وأقام بها عشرة أيام ، وسرعان ما تلقف الشيوعيون الخبر الكاذب وتولوا ترويجه فى كل مكان ٠٠

وكتبوا فى جريدتهم « اتحاد الشـــعب » يتهمون الجمهورية العربية بالتآمر على العراق ، وردد المهداوى ببغاء محكمة الشعب هذه الأكاذيب ٠ وحين أجريت محاكمة عبد الســـلام عارف تبين زيف هذا الادعاء ٠٠ اذ لم يرو فى المحكمة ٠٠

وزار راونترى القاهرة ، ثم سافر الى بغداد ٠٠ وأخـــذت صحفهم تنشر الاداعاءات المســـمومة عن التغير الذى طرأ على سياسة الحياد الايجابى ، وعن انتكاس سياسة الجمهورية العربية، وبعد قليل اتضح كذب هذه الادعاءات ٠٠

واتهموا الجمهورية العربية بالتآمر مع رشيد عالى ، ولم تجرؤ حكومة بغداد حتى الآن ، رغم ما أوغلت فيه اذاعتها من السـب والتهجم ، على اذاعة المحاكمة ، وعرضت على شـــاشة التليفزيون بضع قضبان من الحديد وبضعة مسدسات ٠٠ اسـلحة المؤامرة المزعومة ٠٠

كل ذلك وحكومة بغداد ، ومن ورائها الشيوعيون ، لا يحمر لها وجه ٠٠

صباح الخير ١٩٥٩/٤/٢

حديث صريح على شاطىء دجلة ..

هل كان أحد يتصور ان ثـــورة العــراق ســـتسفك كل هذا الفيضان من الدم ؟

هل كان أحد يتوقع أن تتحـــول الثورة المجيدة الى مذبحة دموية .. الى قصف بالطائرات ، وفتك بالرشاشات ، ودعاء بالقتل والويل ، ينصب فوق رءوس الأبرياء ..

لم يكن أحد يتصور كل ذلك ، ولكنه ــ ويالللأســـف ــ قــد حدث ..

وقد طرحت مرة ، هذا السؤال .. من هم المسئولون ؟ ..

وأعود الآن أطرح نفس السؤال ، وقبل أن أجيب عليه أسرد حديثا دار بين أحد زعماء الحزب الشيوعى العراقى وبينى ، فى احدى ليالى خريف بغداد الدافىء ، فى حديقة نادى المحامين على شط دجلة ..

كنت اسأل الزعيم الشيوعى عن سر تنكر الشيوعيين لشعار الشعب العراقى فى طلب الوحدة ، ومحاولة تفتيت هذا الشـــعار بطرح شعارات أخرى ، وكنت ألمح فى الحديث أيضـــا الى ماكان

يتردد فى الجو من تغير طارىء على خطة الحزب ، كما كنت احاول أن أستوضح منه ما وراء تلك الحجج التى كانت تحويها منشورات الحزب من قضية الأقليات وقضـــية الديموقراطية والاقتصـــاد العراقى ··

وقال لى الرجل :

ـ اننا لا نعادى الوحدة العربية ، ولكن للعراق وضعا خاصا وظروفا خاصة ، ومن الواجب مراعاة هذه الظروف ··

وقلت له :

ـ انك تزعم انك تؤمن بالوحدة العربية ، واذا كنت مؤمنا بها حقا فمعنى ذلك أنك تعتبرها « حالة ثابتة » وتعتبر الوضع التجزيئى للعالم العربى « حالة طارئة » ، ومن جراء هذه الحالة كانت للعراق ظروفه الخاصة التى تزعمها ، والثورة العراقية اذا كانت ثورة حقا فمن واجبها ان تتغلب على هذه الحالة الطارئة ، وأن تتجاوزها واستطردت قائلا :

ان هذه الحجج التى تقولها عن الظروف الخاصة ، كان يمكن أن تحول دون توحيد ألمانيا وايطاليا والولايات المتحدة الامريكية ، بل كان من الممكن أن تحول دون وحدة مصر وسوريا نفسها لولا أن نداء القومية أقوى من كل الحجج والظروف الطارئة ··

وأثار الرجل قضية الاقتصاد العراقى الناشىء الذى يخشى عليه من أى اقتصاد آخر متطور ··

وحجة الاقتصاد العراقى حجة مطاطة هى الأخرى · اذ أن اقتصاد العراق يعتمد على منبعين رئيسيين ، هما النفط والتمر · أما النفط فتستغله حتى كتابة هذه السطور الشـركات الأجنبية ، والتمر تستغله الشركة الامبراطورية البريطانية ··

ومزاحمة اقتصاد متطور فى قطر من الاقطار لاقتصاد بدائى فى قطر آخر لا تتوقف على الوحدة أو الاتحاد · اذ أن الاقتصاد الانجليزى مثلا يزاحم الاقتصاد الالمانى ، بينما تزاحم رءوس الاموال الايطالية واليابانية كلا الاقتصادين فى الاسواق العالمية ·· رغم انه ليست هناك علاقات وحدة أو اتحاد بين هذه البلاد ، أو بينها وبين الدول التى تستثمر فيها رءوس أموالها ·

ان الضابط الوحيد للتطور الاقتصادى بين أقاليم متحدة هو القوانين التى تشرعهـا الحكومة المركزيـة لتنسـيق اقتصاد اقاليمها ··

ودليل ذلك التنسيق الاقتصادى المتكامل بين اقليمى مصر وسوريا ··

أما قضية الديمقراطية فيجب حين نطرحها أن نتساءل :

الديموقراطية لمن ؟ ··

اذا كانت الديموقراطية للاقطاع والرجعية فانى أعتقد انك لا توافق على ذلك كما لا أوافق عليه ··

واذا كانت الديموقراطية للعناصر القومية والاشتراكية ، فان مفهومها عند هؤلاء ليس معناه ما تطالب به الآن ··

ليس معناه وجود أحزاب تتصارع حول الوصول الى الحكم، وليس معناه بث الخلافات فى الجبهة الداخلية لكى يتسلل منهـا الاستعمار وعملاؤه ·

ولكن الديموقراطية عند هؤلاء هى الالتفاف حول الأهـداف القومية ، ثم تدعيم الجبهة الداخلية ثم السير بالبلاد الى مجتمع ينمتع بأكبر قسط من الرفاهية ··

الديموقراطية عند هؤلاء تترجم الى اصلاح ومشروعات وبرامج للتصنيع وسعى دائب لتحرير الأجزاء الأخرى من الوطن العربى ..

والديموقراطية عند هؤلاء هى تصفية معركتنا مع الاستعمار ..

وقال الرجل الشيوعى .. وياللعجب !!

ـ ان معركتنا مع الاستعمار قد صفيت .. وحين قال هذه الكلمة الأخيرة ، عرفت أنه قد كشف لى ـ من وراء الحجج والمعاذير ـ عن أعمق ما فى دخيلة نفسه ..

ماذا يعتقد هذا الرجل ، ومن ورائه زملاؤه ؟

قال الرجل الشيوعى :

ـ ان الاستعمار قد قضى عليه فى الجمهورية العربية المتحدة ، وكذلك فى العراق ـ هكذا قال ـ ولذلك فان الهدف الذى اجتمعت عليه جميع الفئات الوطنية قد تحقق ، ويجب بعد ذلك ان تفتش كل طبقة عن مصالحها .

ان دور الزعماء الوطنيين الذين يجمعون حولهم جميع الفئات الوطنية قد انتهى . وان الدور الآن لزعامات أخرى طبقية ..

وسألته : هل خرج الاستعمار من الأردن ؟ هل خرج الاستعمار من الجزائر ؟ هل خرج الاستعمار من عمان وامارات الخليج العربى ؟

ان عدد الاقطار العربية يجاوز الخمسة عشر قطرا ، منها حسب رأيك ثلاثة اقاليم قد خرج منها الاستعمار خروجا نهائيا . والبقية مازالت ترزح تحت أعبائه ..

أن عدد سكان بلاد العروبة الثمانين مليونا ، منها ــ حسب رأيك أيضا ــ ما يبلغ عدد سكانه ٣٠ مليونا فقط تخلصت من قيود الاستعمار ..

ان معركتنا مع الاستعمار لم تصف ، ولم تنته بعد .. ان أمامنا شوط طويل من الجهاد ، وأخطر ما نتعرض له هو أن ننظر مثل نظرتك .. أن ننظر للأمور نظرة اقليمية ..

اننا بذلك نضع رقابنا ــ نحن الشعوب العربية المتحررة ــ فى مشنقة الاستعمار ..

ولكنكم ياصاحبى اقليميون ..

ولكنكم لا تؤمنون بالعروبة ، ولم تؤمنوا بها قط . لقد تشدقتم بها كتذكرة دخول الى حلبة المعركة الوطنية ، وأبرزتموها فى ايديكم لتتسللوا بها الى قلب الجماهير ..

ولكن هيهات !!

ان موقفكم من ثورة رشيد عالى يطاردكم ، وموقف الشيوعيين زملائكم من ثورة الجزائر يحلق فوق رءوسكم ..

زعم الحزب الشيوعى الجزائرى ــ الذى يتولى قيادته الفرنسيون المستعمرون أن قضية الجزائر لا تحل بالحرب ، ولكن تحل بوصول الطبقة العاملة الفرنسية الى الحكم ، ثم اضافوا الى ذلك أنه لا فرق بين الاستعمار الفرنسى وبين وصول « البورجوازية » الجزائرية الى الحكم ..

وكانت الطبقة العاملة الفرنسية مقدرة لموقفهم حق التقدير ، ولكن بطريقتها الخاصة ، اذ أن الوزارة الوحيدة التى اشترك فيها موريس توريز سكرتير الحزب الشيوعى الفرنسى ، هى التى قصفت

الجزائر بالطائرات ، وأثارت مذبحة رهيبة ، وكان وزير الطيران الذى أمر بقصف الجزائر شيوعيا ··

كما يطاردكم موقف زملائكم الشيوعيين فى سوريا ولبنان حين هللوا لقوات الانجليز والفرنسيين بعد الحرب الثانية ، حين دخلت البلاد على اعتبار أنها قوات ديموقراطية تحريرية ·· ثم نكصوا عن حرب الفرنسيين ، لأن خروج الفرنسيين كما زعموا يعنى دخول الانجليز ، والطبقة العاملة فى سوريا ولبنان يجب أن ترتبط بالطبقة العاملة الفرنسية ··

ويطاردكم موقفكم من حرب فلسطين ، وعلاقاتكم بالحزب الشيوعى الاسرائيلى ، انكم ياصاحبى ، لا تنظرون الى أبعد من مواطىء أقدامكم ·· وان قضايا العروبة كلها لا تحتل الجزء الأصغر من قلوبكم ··

ومهما تجتمعون لتنقدوا أنفسكم ، وتغسلوا عقولكم ، فان العرق دساس ··

نعم ·· انهم اقليميون ·

وقد التقت نظرتهم الاقليمية الضيقة بطموح الرجل الغريب الغامض ·· عبد الكريم قاسم ·

وقاسم ليس شيوعيا ، وليس قوميا بالطبع ، ودخول مثل هذا الرجل تاريخ الثورة العراقية من بابها الواسع من أغرب الامور ··

انه رجل بلا مبادىء · يكذب كما يتنفس ، ويجابه الجميع بالتسليم بآرائهم ، كان فى أول أيام الثورة يبدو امام القوميين قوميا بالغ الحماس ·· ويبدو أمام الشيوعيين شيوعيا متطرفا ·· كان

انجليزيا مع سفير الانجليز ، وهنديا مع سفير الهند ، وصينيا مع سفير الصين ..

كان يرضى الجميع ، ولكن رغبته الخفية كانت أن يصبح زعيما أوحد ..

ومن هذه الرغبة الجياشة ، ولد التحالف غير المقدس بينه وبين الشيوعيين ..

صباح الخير ١٩٥٩/٤/٩

الشـــيوعيون ..
لم يتخلوا عن المطالبـــة بالوزارة

انباء بغداد تقول ان الشيوعيين لم يتراجعوا عن مطالبتهم بالاشتراك فى الوزارة وعودة الاحـــزاب حتى الآن .. بل لقـد هاجموا الحزب الديمقراطى لموافقته على ايقاف نشاطه الحزبى ، واتهموه بالرجعية والتآمر ..

وبذلك يكون التحالف الظاهرى بين القوى الســـياسية فى العراق قد انفض بعد ان ظن الكثيرون أنه قد اســـتنفد غاياتـــه الرئيسية ، وهى القضاء على القومية العربية ، وبعد أن ظنوا ان دور جمع اسلاب المعركة قد بدأ ..

وتبعا لذلك ، فان كل القوى السياســـية فى خارج العراق وداخله ، تلك القوى التى كانت تمد أصابعها لتلعب لعبتها الخطيرة فى العراق العربى .. تراجع خططها وتستعد لخطط جديدة تتمكن بها من كسب الجولة القادمة من المعركة ..

ونبدأ بالشيوعيين العراقيين ..

اغلب الظن أن الشيوعيين العراقيين يعدون خطة جديدة الآن

.. وخاصة بعد أن صدر منذ أيام الأمر بتجريد فرق المقاومة الشعبية من حق تفتيش المواطنين أو اعتقالهم ..

فهم يدافعون الآن عن الحزبية والأحزاب ولكنهم يخسرون من وراء هذا الدفاع ولا يكسبون ، اذ أنهم هم الذين تذرعوا بجمع الصفوف حول « الزعيم الأوحد » طوال الشهور الماضية ، حتى يمكنهم من وراء هذه الدعوة أن يضربوا الأحزاب والتكتلات القومية مثل الاستقلاليين والبعثيين ولكن هذا الموقف المتناقض فى خلال شهور قليلة وهذا التغير السريع فى التكتيك قد كشف عن انتهازيتهم السياسية لكل متتبع للأحداث فى العراق والوطن العربى ..

وصحف الحزب الشيوعى تمهد لتلك الخطة ، اذ كتبت جريدة اتحاد الشعب منذ أيام تطالب أعضاء الحزب بمحاربة ما اسمته روح السلبية بين صفوف الحزب ، وتدعو كل شيوعى ان يظل مخلصا لمبادئه مهما كانت الظروف ..

ومن دلائل الخطة الجديدة أيضا بدء موسم مؤتمرات انصار السلام للمرة الثانية . ومن يتتبع توقيت مؤتمرات انصار السلام يدرك انها اما أن تكون وسيلة من وسائل الشيوعيين لاظهار قوتهم وللضغط على الحكام ، أو تكون مقدمة لحركة عنيفة يتوجهون بها الى المواطنين الأبرياء لارعابهم واخافتهم ، ولنا ان نتوقع الا ينتهى موسم مؤتمرات السلام على .. سلام ..

والدليل الأخير للخطة ، هو تشكيل وفد شعبى عراقى للطواف بالبلاد العربية ، للدعاية لثورة العراق ، كما يزعم الشيوعيون ، وجميع الأسماء التى وردت فى تشكيل هذا الوفد ، اسماء لأعضاء فى الحزب الشيوعى ، وان حاولت أبواق الاذاعة الشيوعية اسباغ صفة الشعبية عليه .

وكان الوفد يريد أن يبدأ زياراته بلبنان لولا أن منعت الحكومة اللبنانية دخوله ..

واختيار لبنان له دلالة واضحة ، وان كان المسئولون فى لبنان قد فوتوا عليهم الفرصة .. ودلالة ذلك الخبر ان الشيوعيين قد فطنوا الى أن وفودهم المتلاحقة للبلاد غير العربية . لم تفلح فى تدعيم مكانتهم لدى جماهير الشعب العربى فى العراق بل لعلها زادتهم عزلة على عزلة ، ولذلك فهم يحاولون أن يمدوا يدهم ــ فى قفاز المودة والمداهنة الى العالم العربى ..

كل هذه دلائل على خطة الشيوعيين الجديدة وعلى ان سعيهم الى الحكم ، ذلك السعى الدموى الذى تعاون مع الرجعية والاستعمار ، لم يصل بهم الى غايتهم .

ما موقف حلفائهم الانجليز ، وهم القوة السياسية الثانية التى كانت تلعب بأصابعها فى العراق ؟

كان التحالف بين الانجليز والشيوعيين العراقيين تحالفا غير شريف ، لأنه تحالف الاضرار لا المنفعة ، تحالف على قهر خصم لا على بناء مستقبل . وكان هذا الخصم الذى يريدون قهره والاضرار به ، هو القومية العربية التى تتمثل اسمى أمانيها فى الوحدة العربية ،

وصاحب هذه السياسة ، هو همفرى تريفليان سفير بريطانيا فى بغداد ، وهو قد سافر الى لندن عدة مرات ليقنع بها المسئولين فى حكومته وحكومات حلفائه الغربيين ..

وكان لدى تريفليان افتراضان ..

أولهما أن يتمكن حكام العراق من كبح جماح الطغيان الشيوعى فى الوقت المناسب ، وعندئذ يكونون مدينين لبريطانيا بعد أن أحرقوا مراكب صلاتهم بالعالم العربى .

والثانى ، أن يتمكن الشيوعيون من السيطرة سيطرة تامة على العراق • وعندئذ فلن تكون بريطانيا حريصة الا على بترولها واقتصادها ، وهى قد تلقت أكثر من تاكيد رسمى من المسئولين من كل المستويات حتى المستويات العالمية بضمانه وحمايته ••

وسياسة الانجليز الآن كما تعبر عنها صحفهم هى •• انتظر وراقب ••

وقد نسى كل الساسة الانجليز رغم دهائهم افتراضا ثالثا •• وهو دور الشعب العربى فى العراق ••

أما امريكا فان موقفها كزعيمة للعالم الغـــربى كان يفرض عليها أن تحاوب الطغيان الشيوعى فى العراق ، ولكنها فى نفس الوقت مقتنعة بخطة حليفتها بريطانيا • ولذلك فانها تلتزم نفس الموقف ، وهو الانتظار والمراقبة ، والمتتبع لصحافة أمريكا يعجب كيف اتهمت زعماء العالم كله من المحايدين والوطنيين بالشيوعية حتى كاسترو ، وهى فى نفس الوقت تتناول احداث العراق بمنطق وعقل بارد • وتعليل ذلك أنها مقتنعة بخبرة حليفتهـــا القديمة فى معالجة احداث الشرق الأوسط ، ومطمئنة الى أن الباب الواسع الذى ستفتحه لاقتصادها ورأسمالها سينفتح بعد ذلك لدول العالم كله ••

أما فرنسا ، وهذا هو العجب ، فقد دافع راديو باريس عن الشيوعيين العراقيين فى اكثر من اذاعة له ، وتطرق من الدفاع عنهم الى مهاجمة ناصر والقومية العربية ••

وآخر الأخبار ان راونترى قد اجتمع مع ممثلى دول الغرب فى تشييع جنازة دالاس ، وصرح أحدهم ، وهو وزير خارجية تركيا بأن لدى الغرب املا كبير فى مستقبل العراق •

وأخيرا ، ما موقف الحزب الوطنى الديموقراطى الذى يحظى الآن بتأييد الحكومة ، ويستجيب بأسرع من البرق لقراراتها ؟ ..

لقد قرر الحزب ، التوقف عن نشاطه السياسى ابتداء من ٣٠ مايو ، كما قرر أن يمنع الأعضاء الذين عارضوا فى وقف نشاط الحزب من الانضمام اليه بعد انتهاء فترة الانتقال غير المحددة التى وعد بها قاسم ..

وبذلك انتقل الحزب الوطنى الديمقراطى من مكان الحليف للحزب الشيوعى الى مكان الخصم ، وهاجمته جريدة اتحاد الشعب الشيوعية قائلة :

« ان المرجعية التى تحتمى وراء الولاء الزائف للزعيم وللثورة تتجمع للقضاء على جمهوريتنا »

وأخيرا ، فان من يتتبع صحف العراق اليوم واذاعته يخيل له ان هناك ثلاث حكومات لا حكومة واحدة مسئولة !

الحكومة الأولى هى تلك التى تنزع سلطات افراد المقاومة الشعبية بأمر من الحاكم العسكرى العام ، وهى التى تعلن ايقاف نشاط الأحزاب ، وبدء فترة الانتقال ..

والحكومة الثانية هى تلك التى تعلن من فوق منبر محكمة الشعب أن الشيوعية نظام اسلامى !! وتبيح للمصفقين والمهرجين واشباه الحواة أن يلفقوا القصائد ويطلقوا الشعارات الزائفة من أبواق الاذاعة وعلى شاشة التليفزيون ، والتى يقول عبد الكريم قاسم عنها فى تصريح رسمى : ان المحكمة حرة وان المهداوى حر يفعل ما يشاء ويقول مايشاء ..

ووراء هذه الحكومة الثانية صحف الحزب الشيوعى التى

تغمز وتلمز ، ولا تعترف بوقف النشاط الحزبي ، وتدعوا الى مؤتمرات السلام ، وتهاجم فى اسفاف كل من يعمل لمصلحة الشعب العربى ..

والحكومة الثالثة هى جهاز الاذاعة المحير ، الذى يمجد تارة عبد الكريم ويدافع عن وجهة نظره ، مثلما اذاع يوم الأحد الماضى تعليقا نشرته عنه جريدة الأهالى يقول فيه ان الزعيم يقول انه لم يشرك معه احدا – كما يزعم بعض الناس – حين فجر براكين الثورة ، لا احزابا ولا افرادا ولا كتلا ، من حقه ان يطلب فترة اكمل بلا أحزاب ولا افراد ولا كتل ليكمل تفجير ما لديه ! ..

هذا تعليق يوم الأحد السياسى فى اذاعة بغداد .. وقبله بدقائق كانت اذاعة بغداد تذيع محاكمات المهداوى التى يمجد فيها الشيوعية ، وتملأ برامجها بالاتجاهات الشيوعية الواضحة ، ان تغيرات خطيرة على وشك أن تقع فى العراق ..

ولن يستفيد من هذه التغيرات .. لا الشيوعيون ولا الاستعمار ولا غيرهما من الجبهات ..

ولكن الذى سيستفيد هو الشعب العراقى نفسه ..

ولنا أن نتفاءل ..

صباح الخير ١٩٥٩/٦/٤

دور الملك الصغير واسرائيل
فى المؤامـرة القادمـة

ان الشكوى التى رفعتها الأردن هذا الأسبوع لهيئـة الامم ليست مجرد شكوى عادية ·· انها جزء من مؤامرة كبرى على القومية العربية ·

والمتتبع للأحداث لايسعه الا ان يربط بين هذه الشكوى وبين احداث كثيرة سبقتها · سواء فى داخـل الأردن ذاتـه ، او فى العلاقات بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة ، او فى العلاقات بين اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة ··

واول هذه الأحداث هو مجىء هزاع المجـالى الى رئاسة الوزارة الأردنية ، خلفا لسمير الرفاعى ·

وهزاع المجالى هو عميل السياسة البريطانية الأول ، بعكس سمير الرفاعـى ذى الميول الأمـريكية الذى قالت عنه الحكومة الأمريكية منذ اربعة شهور كلمتها المأثورة ·· لا سمير الرفاعى ·· لامساعدات للأردن ··

وثانيها رحلة الملك حسين خارج الاردن ، وقد طاف حسين بامريكا ثم استدار الى انجلترا · وهناك جرت بينه وبين المسئولين الانجليز مفاوضات لم يعلن عن نتائجها ·

وثالثها ، ماتؤكده الاحداث من أن الولايات المتحدة قد تركت لحليفتها القديمة حرية التصرف فى الشرق الاوســـط · وكان من نتائج ذلك ، كما هو معروف ، التحالف بين الانجليز والشيوعيين فى العراق · وموافقة أمريكا على عزل سمير الرفاعى ·

وقد أعلن وزراء خارجية الغرب أخيرا موافقتهم على خطط بريطانيا فى المنطقة فى اجتماعهم لتشييع جنازة دالاس ·

هذا هو ماسبق هذه الضجة فى المحيط السياسى الاردنى والعراقى ·

أما ماسبقها فى محيط اسرائيل ، فهو محاولة اسرائيل منذ مدة ليست بقصيرة اثارة مشكلة الملاحة فى قناة السويس ·

وهذه المشكلة لا تثار عادة الا تمهيدا لعمل عدوانى تنـــوى أسرائيل أن تقوم به ··

ان اسرائيل تحاول أن تجعل من حرية الملاحة ورقة رابحة للتشهير بها على الجمهورية المتحدة ، ولاتهامها بخرق الاتفاقات الدولية ، وعندئذ يمكنها ان تمارس عدوانها ، ويضـــيع صـــدى العدوان فى ضجة الحديث عن حرية الملاحة ··

وقد ابتدأت اسرائيل تصرفاتها العدوانية بتحليق طائراتهـــا فوق رفح ، وبالتحرش بلبنان كوسيلة للضغط على وزارة رشيد كرامى ، وبأسر سفينة عربية ·

والمراقبون السياسيون يتوقعون أن تزداد أعمال اســـرائيل العدوانية ·

واذا انتقلنا الى الصعيد العربى الواسع ، استطعنا أن نلمس خيوطا أخرى للمؤامرة ··

ان حملة التشهير بالجمهورية العربية لايتطوع بالترويج لها

ملك الاردن الصغير فقط ، ولا بن جوريون وحكومته ، ولكن كثيرا من العملاء والمضللين يتولون ترويج هذه الحملة ·

لقد اتهمت بعض العناصر العراقية حكومة الجمهورية العربية المتحدة بانها نظمت ثلاث مؤامرات ضد حكومة العراق · ورغم أن زيف هذا الادعاء قد اتضح ، فان هذه العناصر مازالت ترddه حتى الآن ··

وهناك الآن اتهام جديد بالتسلل ··

ووراء هذه العناصر يقف الانجليز أيضا ·· ماهو المقصود اذن من هذه الحملات جميعها ·

المقصود ، هو ابراز الجمهورية العربية المتحدة بانها معتدية على حق دولى فى الملاحة ، وعلى استقلال جاراتها العربيات ··

اتهام الجمهورية بأنها مصدر شغب ·

وهذا الاتهام يراد منه عزل الجمهورية المتحدة عن العرب · وابعاد الشعب العربى عنها ، ذلك الشعب الذى ينظر اليها ، من الخليج الى المحيط ، كمصدر التحرر والقومية ··

ولكن هذه الخطوة ليست هى الخطوة الأخيرة فى المؤامرة بل لعلها هى الخطوة الأولى ·

انها مجرد التمهيد للمؤامرة ··

واستنتاجى هو أن المؤامرة لاتقل عنفا عن العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ·

ان الغرب قد أدرك أن السبب الرئيسى لفشل العدوان الثلاثى هو وقوف شعوب العرب جميعا ، حتى فى الأردن والعراق وراء عبد الناصر ·

وان السبب الثانى لفشل العدوان هو تأييد جميع شـــعوب العالم الحرة لنا ، لأنها أدركت أننا لسنا معتدين ، ولكنا ضحايا العدوان ..

ومهمة حملة التشهير هذه أن تبرزنا للعالم بصورة المعتدين .

أما العمل الحاسم بعد ذلك فان المراقبين السياسيين يتوقعون أن تحتشد له بريطانيا والاردن واسرائيل .. ولا بأس بتركيا ..

وان يكون هذا العمل موجها الى سر قوتنا .. الى الوحدة .

والعملاء الفارون من الاقليم الشمالى والعناصر غير الوطنية التى قضت الوحدة على مطامعها ومآربها الشخصية ينتظر أن يكون لها دور فى المؤامرة .

أما اسرائيل والاردن فانهما تقتسمان جبهة الشمال وجبهـــة الجنوب .. حسب الخطة المرسومة .

ويظهر أن واضعى الخطة يقدرون مدة طويلة قد تكون عدة شهور ، وقد تكون سنة كاملة ، لتنفيذهـــا ، ويتوقعون أن تكون الاحوال عندئذ قد استقرت فى العراق بشكل يرضى الغرب ..

انها مؤامرة كبيرة ..

وعلينا دائما أن نربط بين أعمال الملك الصغير واستفزازات اسرائيل ، وذلك الغموض الذى يحيط ١٠ داوننج ستريت ..

صباح الخير ١٩٥٩/٦/١١

خطوة جديدة فى سياسة الأمر الواقع

منذ حوالى أربعة شهور ، أو بالتحديد فى ١٢ مارس من هذا العام بدا كأن ضمير العالم قد استيقظ من نومه ، واندفع أولئك الرجال المكللون بالمجد والهيبة ، فى هيئة الأمم المتحدة ، يبكون ويستبكون على اللاجئين فى جميع أنحاء العالم ، ويدعون الى تخصيص عام كامل ، للدعاية لمعونة اللاجئين ، وللتفكير فى حل مشاكلهم المزمنة ، وعلاج أوضاعهم الشاذة ٠

واجتمعت لجنة خاصة ، بتكليف خاص من الملاك الطائر ، داج همرشولد ، ورأسها أحد معاونيه ٠٠ كلود دىكيمولاريا ، وتبادلت اللجنة التحيات والمقترحات ، ثم انفضت لتعود فتجتمع أياما كاملة بلياليها ، ثم أصدرت نداء تدعو فيه الى القاء الأضواء على مشكلة اللاجئين ، وأعلنت انها تمد يدها حول الكرة الأرضية ٠٠ قارة قارة تطلب المدد ، ثم ناشدت الامين العام للامم المتحدة أن يفكر بعقله الراجح فى حل نهائى لمشاكل اللاجئين ٠

وطار همرشولد الى الشرق الاوسط وتفقد الخيام للمرة العاشرة أو الألف ، واطمأن الى أن اللاجىء يحصل فى الشتاء على ما قيمته ١٦٠٠ سعر حرارى ، ويحصل فى الصيف على

ماقيمته ١٥٠٠ سعر حرارى ، وأن الاكواخ التى اقترحها فى العام الماضى ، والتى تبلغ مساحتها عشرة أقدام فى عشرة أقـــدام ، تحشر فيها كل أسرة تتكون من خمسة أشخاص فما يزيد ، هذه الاكواخ قد بنى منها عدد كتير يتسع لعشــر الـــلاجئين ، وذاق الحساء واللحم المحفوظ الذى يقدم فى الاعياد · وانحنى بقامته الطويلة فدخل خيمة وداعب طفلا ، ثم طــــار الى نيويورك ليعلن تقريره فى مؤتمر صحفى عقده هناك ، وتناقلت وكالات الأنباء هذا التقرير ··

وكانت السطور الأولى من تقرير همرشــولد توصـــــى بأن تواصل وكالة غوث اللاجئين أعمالها ··

ولهذه التوصية قصة ··

لقد كدنا ننسى أن وكالة غوث اللاجئين حين أنشئت فى عام ١٩٤٩ ، كان هناك نص خطير فى قرار انشائها ، وهو أن تنتهى مسئوليتها فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٦٠ ·

ومعنى ذلك أن اللاجئين يستطيعون أن يعتمدوا على غوث الوكالة ، سنة أخرى ، وبعد ذلك ·· لهم الله ·

وتعداد هؤلاء اللاجئين حسب احصاءات الوكالة التى يطلق عليها اسم « الاونرا » اختصارا لحروف كلماتها الطويلة الرنانة يزيد على المليون قليلا ، وهذا الاحصـــاء مهـــم لأن الدعـــاية الاسرائيلية تحاول أن توهم العالم ان الكراهية العربية المتفشـية هى التى تضخم عدد اللاجئين ·

وسوف أنقل مرة ثانية عن تقرير الوكـالة تقســيم هـؤلاء اللاجئين فى البلاد العربية ، لأننى سأعود اليه بعد قليل ·

فى قطاع غزة ٢٤٠ الفا ·

فى الأردن ٥٧٠ الفا ، يكونون ثلث سكان البلاد ٠

وفى لبنان ١٢٥ الفا ٠٠

فى الاقليم الشمالى ١٠٥ آلاف ٠

ومجموع هذا التعداد مليون و ٣٥ الفا ٠٠

وهؤلاء هم المسجلون فى دفاتر « الأونرا » ، وهؤلاء هم الذين ناشد همرشولد الأمم المتحدة أن لا تقطع عنهم معونتها بعد ٣٠ يونيو سنة ١٩٦٠ ٠

أما ما ورد بعد ذلك فى تقرير داج همرشولد فهى الدعوة الى ادماج هؤلاء اللاجئين جميعا فى البلاد المجاورة « المضيفة لهم » على حد تعبيره ، فى خلال عشرة أعوام ٠

وقال همرشولد أن المبلغ الذى ستدعو الحاجة اليه لكى تتم مشروعات الادماج يتراوح بين مليار ونصف ومليارين من الدولارات ٠

وقال ان هذا المبلغ لو أحسن استثماره فانه سيؤدى الى خلق أعمال فى الجمهورية العربية المتحدة ولبنان والأردن ، تستطيع أن تستوعب عدد الأيدى العاملة من اللاجئين ، والذى يقدر بـ ٣٨٠ الف ٠

وأشار همرشولد الى بترول الشرق الأوسط فقال ان جزءا كبيرا من هذا المبلغ المقترح يمكن الحصول عليه من أرباح رأس المال الذى يجرى استثماره فى مشروعات انتاج البترول ، وأن ذلك الجزء سوف تتاح أمامه فرص عدة لاستثمار الدول التى لاتنتج البترول ٠

هذا هو موجز تقرير همرشولد الذى استوعب ٣٦ صفحة ، والذى سوف يعرض على هيئة الأمم لاقراره فى دورتها القادمة ٠

وقد استقبلت الصحف الامريكية هذا التقرير بحماس شديد، كما عنيت به الصحف الأوروبية ، ورحبت به الصحف الأردنية ، وأذاعت اسرائيل نصه وعلقت عليه تعليقا وديا ..

فما هو موقفنا نحن من هذا التقرير . ان نقطة الخلاف بين العرب وبين همرشولد تتضح فى هذه الفقرة من بيانه .

أنه يقول : ان مشكلة اللاجئين مشكلة انسانية ..

ونحن نقول انها مشكلة سياسية أولا وانسانية ثانيا .

انهم خرجوا من بلادهم تحت ضغط ظروف سياسية ، ونتيجة لأخطاء سياسية ، وتنفيذا لمؤامرات سياسية طويلة الأمد ، ثم أصبحوا بعد ذلك فى هذا الوضع الانسانى الغريب .

انه يفكر فى المشكلة على انها مشكلة مليون لاجىء بلا بيوت ولا مأوى ولاطعام ونحن نفكر فيها على انها مشكلة مليون عربى ، من اخواننا ، كانت لهم بيوت وتركوها ، ومزارع واغتصبت منهم ووطن وتكاتفت كل قوى الشر على اخراجهم منه .

ولذلك فهو يفكر فى اعالتهم ، ونحن نفكر فى عودتهم .

وتفكيرنا هذا ليس تفكيرا ضيقا محصورا ، ولكنه يلتقى مع تفكير كل منصف فى العالم ، ويلتقى مع ما يزيد على عشرين قرارا وتوصية أصدرتها هيئة الأمم التى يتولى داج همرشولد منصب سكرتيرها العام ، تنص على عودة اللاجئين الى ديارهم ..

وهمرشولد يقول ان اقتراحه يوفق بين مصالح جميع الأطراف المعنية بالأمر ، وهو فى الواقع لايرعى الا مصلحة اسرائيل لأن تصفية قضية العودة هو فى الواقع تصفية لمشكلة اسرائيل الأولى ، فقد أدينت اسرائيل من أجل هذه القضية عشرات المرات، والتقى على اقرارها ـ اقرار عودة اللاجئين ـ الدول العربية

وروسيا وأمريكا وانجلترا ويوغوسلافيا والهند ، وحتى الشعوب التى تتعامل تجاريا مع اسرائيل ، وتقيم معها علاقات صداقة ومودة ٠٠ ان اقتراح همرشولد هو أخطرانحراف عن الخط الذى التزمته الأمم المتحدة منذ نكبة فلسطين حتى الآن ، انه لايقل خطورة عن قرار التقسيم والاعتراف باسرائيل ودخول اسرائيل الأمم المتحدة ٠

انه خطوة أخرى فى سياسة ٠٠ الأمر الواقع ٠

سياسة أن من يستطيع أن ينهب ويسلب ويعتدى بسرعة وفى غفلة عن العالم ، فمن حقه أن يحتفظ بمانهب وسلب ، حتى ولو كان الضحية مليون لاجىء ٠

وخطورة هذا التقرير أنه سيعرض على الأمم المتحدة ، وأن من الممكن بعد ذلك أن يكون هو الخط الرئيسى للسياسة العالمية بالنسبة لمشكلة فلسطين ٠٠

وخطورة أخرى ٠٠

لقد قلت ان عدد اللاجئين يمثل ثلث سكان الاردن ، ومن يتتبع تاريخ الكارثة يعرف أن الملك عبد الله كان حريصا على أن يضم هؤلاء الفلسطينيين الى امارته الصغيرة شرق الأردن ، وكان أشد حرصا على ذلك منه على حرب اليهود ٠

ومن مصلحة حفيده الصغير أن يصبح هؤلاء اللاجئون من مواطنيه بشكل نهائى خاصة وأنه قد أسس وزارة سماها وزارة الاسكان منذ سنوات ، وكانت تعتمد على المعونة البريطانية ، وكانت غايتها توطين اللاجئين ٠

وميزانية الملك الصغير ٢٨ مليون جنيه ، منها تسعة ملايين فقط من دخل الأردن ، والباقى من المعونات الدولية ، والملك الصغير بلا شك حريص على زيادة مقداره من المعونة ٠

اما العراق فان اتجاهها السياسى الأخير لا يبشر بالخير ، فى مواقفها تجاه القضايا العربية ، رغم الميدالية التذكارية ذات الوجهين التى نقش عليها ٠٠ عائدون ٠٠ عدنا ٠٠

والعبء الأكبر على الجمورية العربية المتحدة ٠٠
ولكن ما العمل ٠٠

يجب الحيلولة بين الأمم المتحدة وبين اقرار مشروع همرشولد وخير طريقة لذلك هو مواجهته بمشروع آخر عربى ، يعالج قضية اللاجئين علاجا عميقا ، ويصون حقوق العرب القومية فى ذات الوقت ٠

يجب القيام بحملة عاجلة فى الأمم المتحدة لرفض مشروع همرشولد واقرار المشروع العربى ، ونحن فى سباق مع الزمن ، وعلينا أن نكتل وراءنا أصوات الكتلة الأسيوية والأفريقية ، وذلك باستغلال مختلف الاتصالات على جميع المستويات ٠

يجب التعجيل بتنظيم عرب فلسطين واسباغ صفة الشعبية على تنظيماتهم ٠ واعداد شبابهم للدفاع عن القضية المقدسة ٠٠ قضية العودة ، ورفض كل المساومات والمناورات التى تحاول أن تصرف الأنظار عن هذه القضية أنها معركة جديدة ٠٠ وعلينا أن ننتبه اليها ٠

روز اليوسف ١٩٥٩/٦/٢٩

البلاد العربية لا تقع فى افريقيا وآسيا ..
ولكنها قــارة مستقلة ..

منذ أيام ، انتهت زيارة السيد عبد الله بن ابراهيـــم رئيس حكومة المغرب للقاهرة ..

وبعدها بأيام ، وصلت موافقة العراق على الاشـــتراك فى مؤتمر الرؤساء العرب لمناقشة تقرير همرشولد عن اللاجئين ..

وقبل ذلك بأيام ، زار القاهرة وكيل خارجية الأردن ، وأعلن موافقة حكومته على الاشتراك فى المؤتمر ..

وأذيع بعد ذلك فى القاهرة ان السيد فؤاد جلال قد التقى بالحبيب بورقيبة ، رئيس حكومة تونس ، ودارت بينهما محادثات، قدم السيد فؤاد جلال تقريرا عنها الى المسئولين ..

فما معنى ذلك كله ؟

هل معناه عودة الصف العربى الى وحدته ، وتسوية الخلافات وازالة الجفوة بين الدول العربية المختلفة ؟

أم ان هناك ظروفا جديدة ، تستدعى توحيد الكلمة ازاء بعض

المشاكل المعينة ، وتكتفى بدفع الصف العربى الى وحدته فى مرحلة معينة ؟

قد نكون متفائلين اذا توقعنا أن يعود الصف العربى الى وحدته الكاملة ، فى الايام القليلة القادمة · فان هناك كثيرا من الظروف المحلية وكثيرا من الأخطاء التى ارتكبت فى حق العروبة فى السنتين الماضيتين ، وكل تلك الظروف والاخطاء لابد من علاجها قبل أن يتم توحيد الصف العربى ··

وقد يكون الاحتمال الثانى هو الأرجح ، وهو وجود مشاكل هامة وحاسمة تجاه الدول العربية ينبغى قبل مواجهتها أن تتوحد الكلمة ··

والواقع أن أهم مشكلتين تواجهان العالم العربى تجتازان الآن « فترة غليان » ، وأن الضغط الاستعمارى والخارجى عليهما يزداد حدة واندفاعا ··

وهاتان المشكلتان هما مشكلة فلسطين ومشكلة الجزائر ·

أما بالنسبة لمشكلة فلسطين ، فان المحاولات تبذل الآن لتصفية قضية اللاجئين ، واقرار الأمر الواقع ، بعد أحد عشر عاما من الكارثة ، ويخشى أن تنجح هذه المحاولات ، وأن تسفر عن كارثة جديدة ، تروج لها الأمم المتحدة ، وتوافق عليها المآرب الاستعمارية فى المنطقة ·

أما بالنسبة لقضية الجزائر ، فقد ظلت الحرب دائرة الرحى منذ نوفمبر سنة ١٩٥٤ حتى الآن وهى تزداد كل يوم حدة وضراوة والاستعماريون من جانبهم يزدادون كل يوم بطشا وطغيانا ·

أما الآن فان محاولات كثيرة أيضا تبذل لتصفية القضية الجزائرية ، وتبديد انتصارات شعب الجزائر والهبوط بالمعركة من المستوى الثورى الى مستوى المساومة والمكاسب الضيقة ·

وهذه المحاولات تتخذ طابع المهادنة والتوفيق ، وتسبقها ضجة من الاحاديث والتصريحات ..

هاتان المشكلتان العربيتان ، فى دورهما الحاسم هما اللتان دفعتا بالعرب الى محاولة الالتقاء على رأى موحد تجاههما ..

وهذا الالتقاء كسب للعرب بلاشك ، فانه جدير بأن ينبههم الى أن العالم العربى وحدة متكاملة فى أهدافه وأمانيه وسياسته ، وجدير أيضا بأن ينبههم أن من العسير على أى دولة عربية أن تبتعد عن الصف العربى ، وتقنع بسياسة اقليمية انعزالية ، وهو بعد ذلك قد يدفع المخلصين الى محاولة القضاء على المنازعات وأسباب الجفاء فى المستقبل ..

وأنا أذكر الآن رأيا قرأته لمعلق سياسى انجليزى هو جى وينت فى كتابه « أضواء على آسيا » ، قال :

« ان الدول العربية لاتقع فى آسيا ، ولاتقع كذلك فى أفريقيا، ولكنها قارة مستقلة تمتد بين القارتين ، لها نفس الامانى والاهداف والمصالح الاجتماعية والسياسية » ..

هذا رأى من خارج المنطقة ، أما فى داخل المنطقة ، فان الوجدان العربى ، من الخليج الى المحيط ، ينزع الى الوحدة ، والى تخطى الظروف المحلية التى تحول بينها .

وأهم هذه الظروف هو اختلاف موقف الحكومات العربية بالنسبة للمعسكرين العالميين الكبيرين .

فالجمهورية العربية المتحدة مثلا تتبع سياسة الحياد الايجابى .

والأردن وتونس مثلا يميلان ميلا واضحا الى الغرب ..

والعراق يتغلغل فيها النشاط الشيوعى الى حد ملحوظ .

وهذه المواقف المتباينة تجعل كل وحدة فى الصـف العربى عسيرة صعبة التحقيق ، وذلك لأن الميل للغرب أو الميل للشـرق لاينسجم دائما مع وحدة المنطقة واستقلالها ومصالحها الخاصة ٠

والواضح مع ذلك أن كلا المعسكرين يعاملنا فى استراتيجيته السياسية كوحدة مستقلة ٠٠

فالغرب مثلا ، يدرك أن زوال نفوذه من احدى دول المنطقة ، يعنى تهديد مصالحه فى المنطقة كلها ٠ ولذلك يحافظ على مصالحه فى الأردن الجرداء الفقيرة فى منابع الاستغلال ، ويعاونها اقتصاديا طمعا فى أن يدعم نفوذه فى مناطق العالم العربى الأخرى ٠٠

والشرق يفعل نفس الشىء ٠٠

وعلينا نحن العرب ، تجاه هذه النظرة ، أن يـكون موقفنا تجاه المعسكرين ٠٠ اننا وحدة متكاملة أيضا ٠٠

ولا سبيل الى ذلك الا أن تنبع سياسـتنا من واقعنـا ، من أرضنا ٠٠

وتلك هى سياسة الحياد ٠٠

وهى وحدها السبيل الى الوحدة المرموقة للصف العربى ٠٠

صباح الخير ١٩٥٩/٧/٩

١٤ يوليــو ١٩٥٨
١٤ يوليــو ١٩٥٩

كل الثورات تقوم لتحقيق هدف كبير ، لايمكن تحقيقه الا بهذا الاجراء الحاسم السريع ··

فما هو الهدف الكبير الذى قامت ثورة العراق لتحققه ؟

وكل الثورات تتقدم من هدفها كل يوم خطوة

فما هو مدى التقدم الذى أحرزته ثورة العراق فى عام ؟

ولكل الثورات أيضا ـ لا الانقلابات ـ لها غد ·· وطريقها محدود بنظرية معينة وشعارات واضحة ، وعلامات تضعها فى نهاية الطريق ، ووضع اجتماعى واقتصادى وسياسى ثورى جديد ، قد لا يتحقق بين يوم وليلة ، ولكنه يلوح دائمـــا من بعيد ، فما هو طريق الغد للثورة العراقية ؟

على ضوء الاجابة على هذه الأسئلة الثلاثة نستطيع ان نضع ثورة العراق فى الميزان ··

● ماذا كان هدف الثورة العراقية ؟ علينا حينئذ أن نعود بأفكارنا الى صباح يوم ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ ·

فى ذلك اليوم أعلنت الثورة ، وكان أول ماقدمت به نفسها الى العالم هو اعلانها أن العراق جزء لايتجزأ من الأمة العربية ..

وبعد اعلانها بساعات ، طار جمال عبد الناصر من البحر الى موسكو ومن موسكو الى دمشق ، وهناك استقبل بعض رجال الثورة ، ووقفوا جميعا ، أمام الجماهير المحتشدة ، يرفعون أيديهم علامة التضامن والاخاء ..

وقال أحد المسئولين فى جيش التحرير الوطنى الجزائرى : ان نجاح ثورة العراق يعادل دخول عشرين فرقة الى جانب جيش التحرير الجزائرى ..

وقالت مجلة التايم الامريكية : لقد سقط الباستيل العربى ، ولن يستطيع أحد أن يوقف ثورة الشعوب العربية بعد الآن ..

أما مجلة « سكوتسمان » فقد أبدت اثر نجاح الثورة تخوفها على اسرائيل . فقالت : ان العراق على أى حال ، لم يكن محل الاعتبار الأول ، بل ان بقاء اسرائيل هو المهم ، وهذا الأمر الآن محل شك ، لأن العراق سقط والأردن سيسقط بلا شك ..

كان هذا هو الوجه الذى بدت به ثورة العراق للعالم .. انها ثورة عربية فى العراق .. جزء من الثورة العربية الشاملة .

وصحيح أن العراق كان عضوا فى حلف بغداد ، محكوما بارهاب نورى السعيد وأذنابه ..

وهذا وضع تنفرد به العراق بين الدول العربية ، ولكن أكبر ماكان يثير جماهير الشعب العراقى ضد هذا الوضع أنه كان موجها ضد الدول العربية ..

ولم تصل الثورة ضد حلف بغداد الى مدى كالذى وصلته حين وقع العدوان على مصر فى اكتوبر سنة ١٩٥٦ ، ووقف الشعب العراقى صفوفا أمام سفارة مصر ليطالب بأن تتاح له فرصة

مشاركة اخوانه العرب فى مصر فى كفاحهم ضد الاستعمار فسلط عليه نورى السعيد حرابه ، وكانت ثورة تشرين الثانى سنة ١٩٥٦ فى بغداد ووقفت مدينة « الحى » نفس الوقفة الباسلة التى وقفتها بور سعيد ..

لم يكن حلف بغداد يثير جماهير الشعب فى العراق لأن اسمه « حلف بغداد » بل لأنــــه يربط بغداد ونيويورك وأنقره وطهــــران ويفصل بينها وبين القاهرة ودمشق .

وصحيح أيضا أن العراق كان يحصل على ٣٠ فى المائة من عوائد النفط ، وبالجنيه الاسترلينى ، وأن الباقى وهو ٧٠٪ كان يحول الى بنك انجلترا لحساب مجلس الاعمار وأن مشــــروعات الاعمار كانت تدور حول بناء المطارات والطرق العسكرية .

ولكن الثورة على هذا الوضع الجائر لم تبلغ مداها الا بعد أن أممت مصر قناتها وقناة العرب ، وبعد أن عمت الدعوة الى أن تكون خيرات العرب للعرب .

اذن فثورة العراق كانت عربية فى يومها الأول ، وكان من الواضح أن أهدافها هى أهداف العرب فى كل مكان ، تلك الأهداف التى تتلخص فى القضاء على الاستعمار ، واستنقاذ الاجزاء السليبة من أرض الوطن ، وفى أن تكون منابع ثورة العرب للعرب ..

وليس هذا غريبا ..

فتاريخ العراق الثورى هو جزء من تاريخ العرب الثورى فى كل خطواته ..

فأول ثورة عراقية حديثة سنة ١٩٣٠ كانت امتدادا للثــــورة العربية التى نبعت فى سوريا اثر اضطهاد الاتراك للعرب ، وانتقلت الى الجزيرة العربية ، ومن الجزيرة العربية انتقلت مرة ثانية الى

سوريا ، حيث أقام الضباط العرب أول حكومة عربية مستقلة برئاسة فيصل بن الحسين ، فلما دخلت قوات الفرنسيين الشام ، حمـــل الضباط العرب فيصل الى بغداد ونصبوه ملكا عليها .

وثورة ١٩٤١ كانت ثورة عربية صرفة .

وكذلك كانت ثورة يناير سنة ١٩٤٨ وثـورة نوفمبر ســـنة ١٩٥٦ ..

ولنا بعد هذا كله أن نقول ان كل وجه غير عربى ــ للثورة العراقية ــ وجه مزيف .

● ماذا حققته من هدفها فى عام من عمرها ؟

لقد خرج العراق من حلف بغداد ، ولكنه خرج أيضا من صف التضامن العربى .

والجبهة العربية المتحررة لم تزدد قوة بثورة العراق ، بـل لعل أعداء العروبة وجدوا بعد ثورة العراق طرقـــا جديدة لطعن الصف العربى فى تماسكه ..

وسقط الباستيل ، ولكن ليقوم بدلا منه باستيل آخر ، يضم بين جدرانه السحيقة الصلدة ، من يؤمنون بالعروبة ووحدتها ..

وحق للخائفين على اسرائيل أن يطمئنوا وحق لبن غوريون وعصابته أن يهدأ لهم بال ..

ومازال النفط العراقى يتدفق فى الانابيب الانجليزية ..

وتسلل النفوذ الاجنبى مرة ثانية ، من عشرات المنافذ ..

واستيقظت كل النزعات الانفصالية والاقليمية ، وتحـالفت وتآزرت للقضاء على هدف الثورة الأصيل ..

وتشوه وجه ثورة بغداد العربى !

وانقسم الشعب العراقى الى اغلبية ساحقة ، ولكنها مهيضة الجناح ، محـــرومة من ابداء الرأى ، تؤمن بالشـــعب العربى وانتصاراته ، ومن بينها يوم ١٤ يوليو واقلية منحرفة من الشيوعيين وأذنابهم ذات تاريخ طويل فى الانحراف ، فقد كانت وراء الانقلاب العادى للعروبة سنة ١٩٣٦ ، وروجت للانجليز فى أيام الحـــرب العالمية الثانية ، وناصبت ثورة عام ١٩٤١ العداء ، وتنكرت لقضية فلسطين ، واعتمدت على اثارة الفتن بين جماهير شعب العراق ، وعلى تضخيم النزعات العنصرية البائدة وهاجمت الوحدة العربية ممثلة فى الجمهورية العربية المتحدة ، وأدارت ظهرها للعروبة بعد ان حاولت تلويث شعاراتها ، وسفكت الدماء وقتلـت الابريـــاء ، وأخيرا ، دنست وجه ثورة ١٤ يوليو ..

لقد كان الطريق الذى قطعته ثورة ١٤ يوليو فى عامها الأول طريقـــا مليئا بالشـــوك والمصـــاعب ، وكانت عثراتها أكثر من انتصاراتها ..

● ماذا يحمله الغد لثورة العراق . ان الانباء تتواتر عن الخلاف بين الحكومة العراقية وبين الشيوعيين ومهما كانت درجة حدة هذا الخلاف ، فهو ليس خلافا على أهداف الثورة ، ولكنـه خلاف على أسلابها ..

ولن يهم العرب من أنباء هذا الخلاف الا ماقد يتمخض عنه من انتصارات للقومية العربية ، وهذه القومية ليســـت هى حتى الآن ، الأرض التى يدور عليها هذا الخلاف ..

ورغم ذلك ، فالأمل فى غد الثورة مازال قويا ..

ان المؤرخين الاوروبيين يطلقون على العراق لقب « بروسيا العرب » ، لأن الشعب العربى فى العراق هو اشد الشعوب العربية صلابة .

وقد كان نورى السعيد ـ رغم خيانته ـ يقول ان القاهرة وبغددا جناحا العروبة ، لايمكن أن ترتفع بدونهما ، ومن الصـــحيح أن نورى السعيد حاول دائما أن يفصل مابين الجناحين ، ولكن صلة الدم والتاريخ والامانى المشتركة كانت أقوى منه وستظل أقوى من كل محاولة من بعده ·

ورغم المرارة والحسرة ، فمازال الأمل يملأ قلوبنا ··

ان ثورة شعب كشعب العراق ، فى يوم خالد مثل ١٤ يوليو، لن تنحرف طويلا ··

وستهتدى ثورة العراق الى طريقها وقد يكون الغد اقرب مما نتوقع ··

روز اليوسف ١٩٥٩/٧/١٨

الفصل الأخير من قصة قاسم والشيوعيين

كل من يتبع أخبار العراق فى هذه الأيام لابد أن يحتار ٠٠ وان يتساءل : ماهى حقيقة موقف قاسم من الشيوعيين ؟ وما هى حقيقة موقف الشيوعيين من قاسم ؟

والاجابة على هذا السؤال تبدو عسيرة وسط هذا السيل المتتابع من الأنباء والبرقيات التى يحمل كل منها معنــى ومدلولا يختلف عن الآخر ، حتى ليوشك الانسان أن يتهمها بالتناقض ٠٠

ولكن الحقيقة انها كلها أنباء صحيحة وان التناقض ليس فى الانباء الواردة من العراق ، ولكنه فى أولئك الذين يصنعون الانباء فى العراق ٠٠

مثال ذلك ٠٠

قال عبد الكريم قاسم فى أول اغسطس عن الشيوعيين انهم مخربون ٠٠ أوغاد لا ضمير لهم ولا شرف ٠٠

وبعد ذلك بأسبوع ، أعلن أنه يؤيد كل كلمة يقولها المهداوى فى محكمة الشعب ، والمهداوى هو صوت الشيوعيين الجهورى ٠٠

والشيوعيون من جانبهم ، غمزوا قاسم غمزات متتالية فى

صحيفتهم « اتحاد الشعب » ، وحذروه من مصير كمصير مصدق فى ايران ··

وبعد أسبوعين ، اجتمعت لجانهم ، ونقدت تصرفات الحزب، ووجهت اللوم لبعض المسئولين فيه على مخالفتهم لتوجيهات الزعيم الأوحد ··

تناقض ! ··

تناقض ، ولكن له سبب ، ولكى نعرف سببه يجب أن نعود الى اليوم الذى ارتفع فيه الستار عن الفصل الأخير فى القصة ، بعد التعديل الوزارى الذى دخل فيه الشيوعيون حكومة قاسم · فى ١٣ يوليو الماضى ··

فحين تم التعديل الوزارى ، بعد مشاحنات طويلة ، توقع الكثيرون أن يعود شهر العسل الطويل بين الشيوعيين وقاسم ··

ولكن الواقع أن كلا من الفريقين كان يعد الكفن للآخر ··

كان قاسم قد أقال داود سلمان الجنابى ، الضابط الذى خلف الطبقجلى · فى قيادة الفرقة الثانية ، أقوى فرق الجيش العراقى ، كما قال مدير الاذاعة الشيوعى سليم الفخرى ، ولكنه ظل يعمل بالاذاعة ·

وكان قاسم قد سمح لبعض الصحف المناوئة للشيوعيين بالصدور ، ومنها صحيفة اسمها « بغداد » ، وقد عطلها الرقيب الشيوعى لطفى طاهر ، وتدخل قاسم شخصيا لاعادتها ··

وكانت فى جعبة قاسم قرارات أخرى بحل بعض المنظمات ، وتعطيل محكمة الشعب ، حتى لقد أعلن المهداوى ذات مرة أنه سيأخذ أجازة ، ويذهب فى رحلة للصيد ··

أما الشيوعيون من جانبهم ، فقد كانوا يعدون كفن قاسم ، ولكنه كفن مضرج بالدماء ..

وبالرغم من علم قاسم بخطتهم فانه تجاهلها لأنه رأى فيها فرصة لكى يضرب فيها الشيوعيين بالقوميين فيضعف الطرفين أمامه ..

وانفجرت المذبحة فى كركوك ..

مذبحة همجية ، استمرت أياما طويلة .. وقتل فيها المئات من المواطنين المسالمين ..

وامتد لهب النار الى بغداد ، ودمر مقر صحيفتين تعاديان الشيوعية ، وهوجمت بيوت اثنين من الضباط المقربين لقاسم ، وهما العقيد شمس الدين عبد الله والعقيد عبد الكريم الجدة ، وقتل فى الكرخ بعض أعضاء الحزب الوطنى الديمقراطى ..

وهللت « اتحاد الشعب » لمذبحة كركوك ، وقالت : ان قوات المقاومة الشعبية قد وقفت موقفا حازما تجاه العصابات الرجعية ، ولقنتها درسا لن تنساه ..

وعلم قاسم أن الشيوعيين كانوا يعدون مذابح مماثلة فى كل مكان من العراق ..

وهكذا حدد الشيوعيون أوان المعركة .. وقرر قاسم أن ينزل اليها قبل أن يكمل استعداده لها ..

وابتدأ بالتلميح ..

ففى يوم ١٩ يوليو فى خطبة ألقاها فى احتفال كنيسة القديس يوسف الكاثوليكية بعيد الشكر ، انتهز الفرصة .. وأعرب عن أسفه العميق للحوادث التى جرت فى المدن والقرى ، والتي نتجت عن القسوة والتعصب الأعمى ..

وانتظر قاسم رد الفعل لخطابه ..

وجاءه الرد سريعا .. فقد علقت « اتحاد الشعب » لسان حال الشيوعيين على الخطاب بلا مبالاة ، قائلة . « ان الشعب يجب أن تترك له الحرية للدفاع عن نفسه » ..

وبذلك القت القفاز مرة ثانية فى وجه قاسم ..

أما فى الجبهات الأخرى ، فقد كان رد الفعل مما أثلج فؤاد قاسم ، وطمأنه ..

طالبت صحيفة « الأهالى » في يوم ٢١ يوليو فى لهجة صريحة بمحاكمة المسئولين عن مذبحة كركوك ..

وطالبت صحيفة « البلاد » فى نفس اليوم بحماية الشعب من طغيان الشيوعيين .. وكلا الصحيفتين من صحف الحزب الوطنى الديمقراطى ..

وقالت صحيفة « الثورة » ان البلاد قد تعرضت لحملة من الرعب والقتل يجب حماية المواطنين منها ، وأطلقت على الشيوعيين لقب المخربين ، وطالبت بانزال اقسى العقاب بهم ..

وزاد اطمئنان قاسم وثبات قلبه ..

وفى يوم ٢٢ يوليو أصدر الحاكم العسكرى للعراق ، اللواء أحمد صالح العبدى أمرا يمنع سلطات المقاومة الشعبية من ممارسة أى نشاط ، وبأن يخلع أفرادها الملابس « الخاكى » وبالغاء جميع ترخيصات حمل السلاح ، كما أعلن عن تكوين لجنة للتحقيق فى حوادث كركوك .

ولم يلق تنفيذ هذه الاجراءات أية مقاومة فازدادات شجاعة قاسم ، وانتقل من التلميح الى التصريح ، وعقد مؤتمرا صحفيا

فى أول اغسطس قال فيه ان مرتكبـــى حوادث كركوك جماعة من المخربين الوحوش الأوغاد الذين لا شرف لهم ولا ضمير · والذين يدعون الى الوطنية والمحافظة على الديموقراطية ، وهم أسوأ من الفاشست ··

وأضاف أن هولاكو لم تصل وحشيته الى هذا الحـد ، وأن لديه معلومات أكيدة بأنه قد دفن فى كركوك ٤٠ شخصا وهم أحياء ، فضلا عن ٨٠ شخصا قتلوا بوحشية ، ثم نشر أمامه الخرائط التى عثر عليها ، وامام بعض المنازل قد وضعت علامات معينة ، كان مصير أصحابها القتل ··

وأضاف انه كان من المقرر أن تنفذ أمثال هذه المذابـــح فى بغداد والناصرية ولسمادة ··

وكان لهذه التصريحات رد فعل جديد يثلج فؤاد قاسم ··

لقد انهالت الاستقالات على الحـــزب الشـــيوعى ، وعلى المنظمات التى يسيطر عليها ··

وعرف الحزب الشيوعى أنه قد انهزم فى هذه المعركة فاجتمع ليعد بيانا تلقى خطوطه العريضة تبعة التخــريب والتدمير على الجماهير الساذجة ، ولكن هذا البيان لم يستطع أن يتعرض للخرائط والوثائق التى عثر عليها رجال قاسم ·

أعلن الحزب أن هناك أخطـارا قد ارتكبهـــا الحزب بتأثير بعض القادة المنحرفين وقد ابعد عن قيادته ··

وأخيرا ، جدد الثقة بقاسم ، وكل ذلك نشـــره الحـــزب فى جريدته « اتحاد الشعب » التى كانت منذ أيام تزهو بمذبحة كركوك وتقول ان الشيوعيين قد لقنوا أعداء الجمهورية درسا لن ينسوه ·

وعندئذ ازداد قاسم جرأة ، وأعلن أن المسئولين عن مذبحة كركوك سيقدمون للمحاكمة ··

وفجأة حدث مالم يكن فى الحسبان · لقد تنازل قاسم عن دعواه واتهاماته قبل « المخربين والاوغاد الذين لا ضمير لهم ولا شرف » ، وبدلا من أن يقدم هؤلاء المسئولين عن المذبحة الى المحاكمة قدم ناظم الطبقجلى ورفاقه ·

فما هو سر هذا التحول ، أو بتعبير أدق ، سر هذا التناقض ··

انه الخوف ، ولا شىء يجعل الانسان أكثر تناقضا فى أفعاله مثل الخوف ··

وكلا الجانبين خائف ، ان السؤال الذى يتأرجح فى ضمير كل منهما هو ·· من منا الأقوى ؟

وقد كان قاسم يظن أنه هو الأقوى ، لان وراءه الجيش · ولكنه فوجىء أثناء التحقيق فى المذبحة بأن بعض أفراد الجيش قد انضموا الى المهيجين والمخربين ، وقد أعلن هو ذلك حين قال « ان بعض جنود الجيش الأبرياء قد غرر بهم ببذر الاشاعات فى نفوسهم حول المؤامرات على الجمهورية »

وهذا خبر ثان يزيد من مخاوف قاسم ، وقد اذاعته وكالات الأنباء من يومين ··

والخبر يقول أن السلطات العراقية قد اكتشفت وجود خلايا شيوعية منظمة داخل قطاعات الجيش فى يعقوبه التابعة للفرقة الثالثة ، وقد اعتقل خمسة عشر ضابطا شيوعيا فى قيادة هذه الفرقة ·

وقاسم يعلم أيضا أن ثلث ضباط الجيش العراقى قد اخرجوا أو حوكموا وأن بين الضباط الباقيين أغلبية من القوميين ··

ان سند قاسم الوحيد الذى كان يظن ان بوسعه الاعتماد عليه ، ليس معه مائة فى المائة ··

ولن يطمع قاسم أن يكون الشعب العراقى معه ، لعدة اسباب لعل أخفها أنه قد قتل فى عهده ، فى ظل الاضطرابات والفوضى الشاملة ، ما يزيد عن ألف شخص ··

والشيوعيون هم الآخرون خائفون ·

لقد بينت لهم التجربة القصيرة أنه لابد لهم من قناع يحتمون وراءه ، والا انصب عليهم غضب الشعب ··

وقد كان قناعهم هو وجه قاسم وادعاء حماية الجمهورية . ولكن هذا القناع قد زال ··

كما بينت لهم هذه التجربة أن تشكيلاتهم وحزبهم مليئان بالانتهازيين الذين سرعان مايهجرون السفينة اذا ارتطمت بصخرة أو أوشكت أن تهوى الى القاع ··

وهم يعرفون أن الشعب ليس معهم لانهم قد تحملوا رسميا جريمة قتله فى كركوك ··

والذى يجمع بين الحليفين ، أو الخصمين حتى الآن ·· هو هذا الخوف ··

خوف الشيوعيين من قاسم ، وخوف قاسم من الشيوعيين ، وخوفهم جميعا من الشعب ··

ولذلك يقفون هذا الموقف ، اذا شد الشيوعيون أرخى قاسم ، واذا شد قاسم أرخى الشيوعيون ··

ان بينهم شفرة واهنة ، ولو أحس أحد الجانبين انه يستطيع أن يعيش بدون الآخر ، أو على أشلاء الآخر ، فلن يتردد فى تمزيق هذه الشفرة ··

وكلا الجانبين الآن يقيس قوته ، بعد ان فشلت المحاولة الأولى التى حاولها كل منهما ··

روز اليوسف ١٩٥٩/٨/٢٤

لماذا يريد اليهود مقابلة خروشوف ؟ !

يطلب المؤتمر الصهيونى العالمى أن تتاح له فرصة الاجتماع بخروشوف أثناء زيارته لأمريكا ، وينوى أعضاء المؤتمر أن يناقشوا خروشوف فى اباحة هجرة اليهود الذين يقيمون فى الاتحاد السوفيتى لاسرائيل ..

وعدد اليهود المقيمين فى الاتحاد السوفيتى يبلغ مليونين ، فضلا عن بضعة مئات من الألوف يقيمون فى دول الكتلة الشرقية ..

وتثور أسئلة كثيرة حول هذا الموضوع .. اولها : ما هو الوضع الرسمى للمؤتمر الصهيونى العالمى . هل هو حكومة أخرى تختفى وراء حكومة اسرائيل ، وهل من حقه أن يناقش قضايا دولة اسرائيل الحيوية مثل قضية الهجرة ؟

والسؤال الثانى : لماذا لا يقبل خروشوف على هذا اللقاء ، رغم أن هناك علاقات سياسية متبادلة بين الاتحاد السوفيتى واسرائيل ؟

والاجابة على هذين السؤالين توضح كثيرا من نوايا اسرائيل القادمة ، كما تلقى ضوءا على تصرفاتها السياسية منذ قيامها حتى الآن ..

والمؤتمر الصهيونى العالمى ، هو أعلى هيئة صهيونية ، لأنه هو الذى يشرف على جمع التبرعات لاسرائيل ، وهو الذى ينظم خطوط سياستها ، وهو واسطة الاتصال بينها وبين اليهود المنتشرين فى جميع أنحاء العالم ..

ان عدد سكان اسرائيل حسب احصاء مكتب الاحصاء المركزى الاسرائيلى لسنة ١٩٥٨ يبلغ مليونا و ٧٦٠ الفا بينما يبلغ عدد اليهود المنبثين فى أنحاء العالم حوالى عشرة ملايين حسب احصاء تقريبى للوكالة اليهودية ..

والمؤتمر الصهيونى هو الهيئة التى تتكلم باسم هذه الملايين العشرة ، وهى التى يدين لها بالولاء كل يهودى سواء اكان أمريكيا أو أوروبيا أو شرقيا ..

والسؤال الثانى .. لماذا يتردد خروشوف فى اللقاء ؟

ان استعراض العلاقة بين الاتحاد السوفيتى واسرائيل يوضح لنا الكثير ، فعندما اعترف الاتحاد السوفيتى باسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، كانت سياسته عندئذ ـ تحت حكم ستالين ـ ترتكز على ان البلاد العربية كلها واقعة تحت سيطرة الاستعمار الغربى بكافة ألوانه ، وان من مصلحة الاتحاد السوفيتى أن تكون له نقطة ارتكاز فى الشرق الأوسط ..

وساعد على تدعيم هذه النظرة أن كثيرا من رواد الصهيونية الأوائل كانوا من أصل روسى ، أمثال ليون بينسكو وأشير غينزبرج وناحوم سولوكوف وحاييم بياليك ويعقوب بوروخوف ، وأخيرا حاييم وايزمان ..

كما أن فى اسرائيل حزبا شيوعيا له الآن فى الكنيست الاسرائيلى ست نواب ..

ولكن هذه السياسة قد اتضح خطؤها للمسئولين فى الاتحاد السوفيتى ، حين تحررت البـــلاد العربية ســـنة ١٩٥٢ ، وحين استيقظت القومية العربية ، ولمس واضعوا السياسة السوفيتية مدى قوة هذه الظاهرة الجديدة ..

كما أن الحزب الشيوعى الاسرائيلى اثبت أنه صهيونى أكثر من حزب بن جوريون ، فقد ترك الشيوعيون اليهود بلادهم ، أو أبدوا رغبتهم فى تركها الى فلسطين ، رغم ايمانهـــم بأن الهجرة اليهودية تقوم على تحويل الشباب اليهودى من صـــفوف الثورة فى أوروبا لتضعهم تحت تصرف الاستعمار البريطانى والأمريكى فى الشرق الأوسط ..

وقد اتضح فى السنوات الأخيرة بشكل نهائى أن اسرائيل تابع للاستعمار الغربى ، فقد انضمت الى اتفاقية السوق الأوروبية المشتركة ، وأرسلت مندوبين عنها بصفة مراقبين الى مؤتمر رؤساء الدول الأعضاء فى حلف الاطلنطى سنة ١٥٩٧ ، وأخيرا اشتركت مع بريطانيا وفرنسا فى العدوان على مصر ..

وعندئذ أوقف الاتحاد السوفيتى شحن البترول الى اسرائيل رغم ان اسرائيل كانت تعتمد فى وقودهـــا وصـــناعاتها على هذا البترول ، وتوترت العلاقات الى حد ما بين الدولتين ..

والسؤال الثالث :

لماذا يطلب المؤتمر الصهيونى اباحة الهجرة لاسرائيل ؟

ان مساحة اسرائيل تبلغ ٢١ الف كيلو متر مربع ، ومواردها المالية ضئيلة ، وميزانها التجارى مختل ، وهى تعتمد اساسا على المعونات الواردة اليها من الخارج ، وثلثا سكان اسرائيل يسكنون مدنا ثلاثة قريبة من بعضها ، هى حيفا ويافا ، وتـل أبيب ، أمـا

الصحراء فلم يستطع أحد اقناع المهاجرين ، ومعظمهم من شـــرق أوربا بالسكنى فيها نظرا لتعودهم على المعيشة المدنية ·

ان اسرائيل تعانى اذن فائضا من السكان ، وهى لاتستطيع أن تستوعب مزيدا من المهاجرين الا اذا لجأت الى مد حدودها ·

ومد هذه الحدود لن يكون الا على حساب الدول العربية المحيطة بها ، ولاشك أن كثيرا من هذه الأحلام يدور فى رأس بن غوريون واسحق بن زفى وزعماء اسرائيل ، ولاشك ان كثيرا من هذه الأحلام أيضا يعشش فى رأس مواطنى اسرائيل ويكفـى أن نعلم أن هذه الجملة محفورة على مدخل الكنيست ، حتى يراها كل من يطأه بقدمه :

« عتيقة حدودك يا اسرائيل من النيل الى الفرات »

ان هجرة جديدة لاسرائيل اذن معناها المزيد من العدوان ، واثارة الاضطرابات ·

وهذا مايجب أن يدركه خروشوف حين يلتقى زعماء اليهود، أو العصابة العدوانيـة التى تطلـق على نفسـها لقب « المؤتمر الصهيونى العالمى » ·

صباح الخير ١٩٥٩/٨/٢٧

قضية الجزائر فى أخطر مراحلها !

غدا أو بعد غد على الأكثر ، يعلن ديجول مشروعه الجديد بالنسبة للجزائر ..

وقد سبقت اعلان المشـروع أحداث عـدة بدأت بفشـل الوساطات بين ديجول وجبهة التحرير الجـزائرية ، ثم بانعقاد مؤتمرى منروفيا والدار البيضاء ، وسافر ديجـول بعد ذلك الى أرض المعركة لكى يلتقط صورة واضـحة عن الموقف ، ثم عـاد فاجتمع بايزنهاور منذ أسبوعين دون أن يعلن احدهمـا بعد ذلك شيئا عما دار فى هذا الاجتماع ، اللهم الا بضع كلمات مطاطـة غامضة ..

ومشروع ديجول سيعلن ، وحوادث الشرق الاقصى توشك ان تشعل النار فى رماد الحرب الباردة ، وتدفع كلا من المعسكرين المتنازعين الى محاولة حشد قواه ، والتغلـب على متناقضـاته الداخلية ..

والمشروع يعلن أيضا ، والأمم المتحدة تستعد لمناقشة قضية الجزائر فى دورتها القادمة ، اثر الطلب الذى تقدم به ٢٥ عضوا من اعضائها ، واحتمال أن تفوز فى الدورة السابقة لكى تحصل قضيتها على أغلبية الثلثين ..

والمشروع يعلن أيضا ، فى ظل التمهيد لاجتماع خروشوف وايزنهاور ، ذلك الاجتماع الذى قد يبحث فيه كل من القطبين مشاكل العالم بأسره ..

كل هذه الظروف والاحداث التى سبقت مشروع ديجول ، والتى اقترنت به والتى يتوقع أن تعقبه ، هى التى دفعت ديجول الى التعجيل بمشروعه ، وهى التى تدفع بقضية الجزائر الى واجهة الاحداث العالمية ، لكى تعيش القضية أهم أيامها الحاسمة ..

والمشروع ، أو خطوطه العامة ، على الأقل ، ليس سرا .. ان ديجول يعرض على الجزائر نوعا من الحكم المحلى ، مع الانضمام لجامعة الدول الفرنسية ، ويقترح فترة انتقال مداها خمس سنوات تنتقل فيها السلطات المحلية الى اهل البلاد ، مع الارتباط السياسى والاقتصادى بفرنسا .

والمشروع مرفوض بلا شك من شعب الجزائر ، اذ أن الاستقلال الذى يلوح به استقلال زائف .

ولكن ، حتى هذا المشروع الاستعمارى فى باطنه وظاهره ، يعرضه ديجول وهو خائف ..

وخوفه يأتى من ناحيتين ..

● الأولى تتمثل فى المليون فرنسى الذين استوطنوا الجزائر ، وسلبوا أراضى واقوات عشرة ملايين من العرب ، وارتبطت مصالحهم بمصالح الاحتكارات الفرنسية والعالمية الكبرى

التى تستغل المناجم ، والمعادن وزراعات الكروم والزيتون ، وتطمح فى المستقبل القريب أن تستغل البترول وديجـــول مدين لهـــؤلاء المستوطنين بعودته الى الحكم فى مايو سنة ١٩٥٨ ، بعد عزلتـــه السياسية الطويلة ..

وهؤلاء المستوطنون لايرون حلا لمشـــكلة الجزائر ســـوى (الادمـــاج) أى اعتبـــار الجزائـــر أرضـــا فرنســـية صرفة ، وفى سبيل مطامعهم يحارب نصف مليون جندى فرنسى فى الجزائر ، ونفوذهم يمتد عن طريق الاحتكارات التى يمثلونها الى الجيش والبوليس فى داخل فرنسا ذاتها ..

● والثانية .. تتمثل فى حلفـــائه الغربيين ، وفى الأيام الأخيرة استراح بال ديجول حول موقف حليفه بريطانيا والمانيا .

ففى بريطانيا أعلن ماكميلان أنه يعتبر قضية الجزائر قضية داخلية فرنسية ..

واديناور مستشار المانيا الغربية صامت ..

أما الحليف الأقوى ، الولايات المتحدة ، فلها مع المشـــكلة الجزائرية تاريخ طويل متناقض ..

ففرنســا تحـارب فى الجزائر بأســـلحة حلـف الأطلنطى ، ومعظمها أسلحة أمريكية وقيادة الحلف فى يد الولايات المتحدة .

ولكن الولايات المتحدة نفسها ، تمتنع رغم ذلك عن التصويت فى كل مرة تعرض فيها قضية الجزائر على الأمم المتحدة .

وهذا الغموض والتناقض فى مـــوقف الولايات المتحدة ليس مجرد اضطراب طارىء .. ولكنه سياسة واضحة ..

ان الولايات المتحدة تعرف ان خطة فرنسا فى الجزائر تثير ثائرة العالم كله ، وخاصة شعوب آسيا وافريقيا ، وهى تعرف أن

ارتباطها بهذه الخطة يجعلها شريكة فى أوزارها ، ويفقدها سمعتها الادبية فى الشرقين الاوسط والادنى ٠

ولكنها تدرك أيضا أن استقلال الجزائر معناه نهوض دولة عربية جديدة ، دولة قوية لابد أن تمد يدها الى شقيقاتها العربيات ، وأن تنشر فى الشمال الافريقى كله روح الحرية الكاملة ، وأن تهدد مصالح الدول الاستعمارية كلها بالخطر ٠٠

ولذلك فان الولايات المتحدة حريصة على الا تندفـــع وراء فرنسا بكل ثقلها ، وخاصة فى العلن ، حين تعرض القضية أمام المحافل الدولية ٠٠

وقد اتخذت الولايات المتحدة فى الفترة الأخيرة الكثـــر من موقف اثار ثائرة ديجول وعصابته ، وبث فى قلوبهم الرعــب أن تتخلى عنهم أمريكا تخليا تاما فى حرب الجزائر ٠٠

فمنذ وقت قريب ، تقدم ديجول يطلب الى حلفائه فى حلف الاطلنطى ، انشاء قيادة افريقية تابعة للحلف ، تتولــى فرنســـا قيادتها ، وتكون مهمتها الأولى هى اخماد الثـــورة الجزائرية ، وتعثر هذا المطلب الديجولى الغريب فى أروقة وزارة الخارجيـــة الامريكية ٠٠

وحين عقد مؤتمر منروفيا رأى فيه المعلقــون الســـياسيون الرجعيون فى فرنسا دليلا على احتمال تخلى أمريكا عنهم ، اذ أن جمهورية ليبريا التى عقد المؤتمر فى أراضيها تتكون من الزنوج الامريكيين ، وعلاقة الولايات المتحدة بها علاقة قوية ، بل لقد تغالى بعض هؤلاء المعلقين ، فاتهم الولايات المتحدة بانها شجعت ليبريا على عقد هذا المؤتمر فى أراضيها ٠٠

وفى هذا الجو الزاخر بالتيارات اجتمع ديجول بايزنهاور ، لكى يعرض عليه مشروعه ٠٠

كان ديجول حريصا على ادراج قضية الجزائر فى قضية الصراع بين المعسكرين ·· كما عبرت عن رأيه احدى الصحف الفرنسية ، حين قالت : ان معركة الجزائر هى احدى حلقات الصراع بين العالم الحر وبين الشيوعية ··

ولابد أن ديجول قد ذكر حليفه الأمريكى بأحداث التبت ولاوس وحوادث الحدود بين الهند والصين ··

ولابد أنه قد ذكره أيضا بمصالح المعسكر الغربى فى افريقيا، مصالح فرنسا فى السودان الفرنسى والسنغال ، ومصالح بلجيكا فى الكونغو ، ومصالح بريطانيا فى وسط القارة ، وقواعد أمريكا العسكرية فى أكثر من قطر من أقطار افريقيا ··

وكان كل ذلك لكى يحصل منه على تأييد كامل لمشروعه ، لكى تقول أمريكا « لا » اذا عرضت قضية استقلال الجزائر فى الأمم المتحدة ، ولكى تلقى بكل ثقلها ·· واضحا وصريحا وعلنيا ، فى المعركة ولكن الاجتماع لم يسفر عن بيان واضح اتفق عليه الرجلان ، وقالت الصحف الأمريكية معقبة على الاجتماع ان ديجول كان يطلب من ايزنهاور ان « يمضى له على بياض » ··

لقد كان يطلب منه التأييد الكامل لقاء ·· لا شىء ··

والشىء الذى تبحث عنه أمريكا هو الحل الموفق الذى يحفظ مصالح الجبهة الاستعمارية الغربية ، ولا يكشف وجه أمريكا أمام الكتلة الآسيوية الافريقية فى نفس الوقت ··

ان امريكا تبحث « عن رجل أسود وأبيض فى الوقت نفسه » كما قالت صحيفة « لوموند » الفرنسية ··

ولو وجد هذا الرجل الأبيض الأسود ·· اى المشروع الذى يرضى الطرفين ، فان أمريكا ستصوت فى صالحه ··

وديجول يحاول أن يقنع ايزنهاور بأن هذا الرجل الأسـود الأبيض ، هو مشروعه ، وهو يتحمل المخاطرة باعلانه قبل ان يعلن ايزنهاور تأييده له ، ويطمح فى أن يفلح هذا المشروع فى تهدئة خواطر الكتلة الآسيوية الافريقية ·· وعندئذ تقول أمـــريكا فيـه كلمتها ··

والمشروع على أى حال يعرض غدا أو بعد غد ··

وان غدا لناظره قريب ··

روز اليوسف ١٤/٩/١٩٥٩

أصدقاء الجزائر .. المزيفون

كان أخطر ماتمخض عنه مشروع ديجول هو رد الفعل الذى أعقبه . فقد كشف المشـروع عن أصـدقاء الجـزائر الحقيقيين والمزيفين .

قال عنه ايزنهاور ، انه مشـروع عادل متحرر تسـتطيع الولايات المتحدة أن تؤيده ، وتحمست له صحافة الغرب واذاعاته، وهذا كله ليس هو مكمن الخطر ، لأنه أمر متوقع ، ولكن الخطير حقا هو التأييد الذى يلقاه المشروع من بعض الدوائر العربيـة ، وخاصة من حكومة بورقيبة فى تونس . من تبرع الحبيب بورقيبة بدعوة الجزائريين الى اعلان موافقتهم وحضهم على اتباع سياسة المهادنة ، وقال لهم ان سر نجاح سياسته مع فرنسا هو اعتمادها على مبدأ « خذ وهات » ، وان عليهم أن ينهجوا سـياسة تشـبه سياسته ، كما هاجم راديو تونس اذاعة القاهرة وصحافتها لموقفها من المشروع ..

وسارعت فرنسا الى استغلال هذه البلبلة فى محاولة تفتيت اجماع الدول الأفريقية والأسيوية حول مشكلة الجزائر واتجهت جهودها الى الدول التى ترتبط بالمغرب مثل اليابان وباكستان ، كما استندت الى تأييد أمريكا فى محاولة اقناع دول أمريكا اللاتينية

بالوقوف بجانبها عند عرض المشروع فى الأمم المتحدة · وهى فى نفس الوقت تعتمد على بورقيبة فى تفتيت تماسك الصف العربى بالنسبة لتلك المشكلة ، بل تعتمد عليه أيضا فى القاء بذور التفرقة بين زعماء جبهة التحرير الجزائرية ··

ويبدو أن تلك البلبلة كانت هى الغاية التى هدف اليها ديجول من اعلان مشروعه · فالمشروع ليس حلا لمشكلة الجزائر بالمعنى الصحيح اذا درسه المراقب المحايد ، وحاول أن يكتشف أهدافه ومراميه ، ولكنه يشبه أن يكون قنبلة فارغة ضخمة الدوى ، يبغى ديجول من اطلاقها أن يغطى دويها على دوى الأحداث الهامة والايام الحاسمة التى تجتازها قضية الجزائر ، مثل تأييد شعوب أفريقيا وآسيا لها ، وقرب مناقشتها فى الأمم المتحدة ، والاعترافات المتتالية التى نددت بطغيان فرنسا وطالبت بالاعتراف بالشخصية الجزائرية ··

كانت القضية الجزائرية تندفع فى طريق النصر يوما بعد يوم ، وأدرك ديجول انه لن يستطيع أن يوقف خطى التاريخ ، فحاول أن يعرقلها بمشروعه أو أن يقف بها عند الحد الذى وصلت اليه ، حتى يكسب بعض الوقت ، الذى يعيد فيه تنظيم قواه وتنسيق سياسته ··

وأوضح دليل على أن كسب الوقت كان هو مأرب ديجول من عرض مشروعه أن كل الحلول المقترحة حلول مؤجلة ، متوقفة على شروط ، ولا يتم تنفيذها الا على مراحل ، بعد مهلة مقدارها أربع سنوات ··

فى هذه المهلة يتوقع ديجول ، بل ويطالب بأن يحل جيش التحرير الجزائرى ، وتحل الحكومة الجزائرية التى هى فى نظره جماعة ممن استولى عليهم الغرور ، ولن نرضى أن نتعامل معهم ولن نفاوضهم فى مصير الجزائر ··

أى أن ديجول يطالب الثورة الجزائرية أن تلقى سلاحها ، وأن تنعزل عن العالم ، وأن تقف وظهرها الى الحائط تستجدى عطف فرنسا باثبات حسن سلوكها ، حتى يعين ديجول عندئذ ـ فى الوقت الذى يراه مناسبا ـ تاريخ الانتخابات ٠

فى هذه السنوات الأربع المقترحة يكسب ديجول كثيرا ، وتخسر الثورة الجزائرية كل شىء لأن معنى هذه السنوات الأربع زيادة فى « فرنسة » الجزائر ، وفيضا من الانتخابات المزيفة للمجالس البلدية والمحلية كما حدث فى العام الماضى ، وربط الجزائر بالخطط الاستعمارية لاستغلال بترول العرب بشكل لانفصام له ٠٠

وبعد هذه السنوات الأربع الحافلة بالنويا السيئة يجرى الاستفتاء لاختيار حل من ثلاثة :

● الحل الأول هو ادماج جميع الجزائريين فى فرنسا بحيث تصبح فرنسا مقاطعتين كبيرتين يفصل بينهما البحر المتوسط كما يقول الاستعماريون الفرنسيون ، وتنمحى بذلك شخصية الجزائر العربية ودينها وثقافتها وكيانها الدولى ٠٠

● فاذا رفض الجزائريون هذا الحل فأمامهم الاتحاد الفيدرالى مع فرنسا بأن تشكل حكومة جزائرية تعتمد على فرنسا وترتبط بها فى ميادين الاقتصاد والتعليم والدفاع والعلاقات الخارجية ٠٠

● والحل الثالث أسماه ديجول الانفصال عن فرنسا ، أو الاستقلال ، وهو فى واقع الأمر ـ بالصورة التى يعرضه بها ديجول ـ أسوأ الحلول الثلاثة جميعا ٠٠

يقول ديجول فى بيانه :

« واذا لجأ الجزائريون الى تطبيق هذه الفكرة الخاطئة (يعنى

الاستقلال) فان الجزائريين الآخرين (ويقصد بهم المستوطنين الفرنسيين) لن تتخلى عنهم فرنسا ، وستعمل كل مافى استطاعتها لأن تجمعهم فى مكان معين وتشرف على أموالهم وأرواحهم ..

ومعنى ذلك بصريح اللفظ ان فرنسا ستقسم عندئذ الجزائر الى قسمين ، قسم يسكنه المستوطنون الفرنسيون الذين يبلغ عددهم مليون شخص ، والذين تسللوا الى الجزائر فى أعقاب جيش الاحتلال ، وقسم يسكنه تسعة ملايين من العرب ولاشك حينئذ أن الساحل الخصب ومنابع الثروة المعدنية ستكون من نصيب القسم الأول ! ..

والفقرة الثانية من حديث ديجول عن الاستقلال أكثر غرابة، فهو يقول :

« ويجب أن أؤكد أن استغلال البترول وشحنه فى الجزائر سيظل عملا من أعمال فرنسا لأن للدول الغربية فائدة فيه ، سنحافظ عليها ولن ندعه لغيرنا فى هذه الحالة ، ولو أدى ذلك الى متاعب كثيرة » ..

والبترول ــ كما يعلم ديجول ــ تقع آباره فى جنوب الجزائر، ويفصل بينه وبين الساحل هضبة جرداء من الجبال هى التى يعد ديجول الجزائريين بأن يقيموا دولتهم المستقلة فيها ، تلك الدولة التى تحدها من الشمال دولة المستوطنين الفرنسيين ، وتحدها من الجنوب دولة البترول ..

وذلك هو الاستقلال أو الانفصال كما يتصوره ديجول ، وهذا هو الحل العادل المتحرر الذى تتحمس له الولايات المتحدة الامريكية ، ويروج له بورقيبة !

أن مشروع ديجول اذن لايهدف لحل القضية الجزائرية بقدر مايهدف الى البلبلة وكسب الوقت ، ولا شك أن الثورة الظافرة فى

الجزائر لن تقبل أن تلقى سلاحها فى سبيل وعود غامضة ومريرة فى نفس الوقت ·

وقد يكون المشروع قد نجح فى هدفه الأول ، ولكنه أيضا قد كشف القناع عن وجه أصدقاء الثورة المزيفين ، وأثبت أن حرية الجزائر لـن تتحقق الا فى أرض المعركـة ·· ولاشــك أن زعماء الجزائر حين عرضوا مشروعهم المضــاد ، كان ذلك كلــه يدور بأذهانهم ··

صباح الخير ١/١٠/١٩٥٩

من الذى يستفيد لو نجح اغتيال قاسم ؟

اليد التى أطلقت الرصاص على عبد الكريم قاسم ·· هى يد عبد الكريم قاسم نفسه ··

ان الاغتيال السياسى ، والتفكير فى حل الخلافات بالقتل المدبر ·· بالجريمة الغامضة السريعة ، لايعيشان الا اذا وجدا البيئة الصالحة لهما ··

وحكم عبد الكريم قاسم منذ أن انفرد بقيادة ثورة العراق ·· كان يقود الى هذه النتيجة ·· يقود الى أن يصبح التفكير السياسى تآمريا ·· الرصاص لسانه ·· والظلام عقله ·· والاغتيال غايته ··

فعبد الكريم قاسم نفسه متآمر ، وينسج خيوط مؤامراته فى الظلام ·· ويخبىء مسدسه فى كم ثوبه وهو يبتسم ·· وهو نفسه قد ارتكب أكثر من جريمة اغتيال ··

اغتيال قاسم الشواف ، وسكان الموصل الأبرياء ، حين بلاهم بمؤتمر السلام ، لكى يوقفهم فى موقف الدفاع عن النفس ·· ثم تدك طائراته الموصل دكا ، وتقصفها قصفا ·· وكان قاسم عندئذ يعلم بكل ما يحدث ، ويدعى أنه لايعلم ·

اغتيال قاسم حق رفيقه فى الثورة عبد السلام عارف ، والقى به فى السجن ·· واغتيال قاسم شرف ثورة ١٩٤١ والقى بزعيمها رشيد عالى الكيلانى فى السجن ·· وأصبحت السبل غير النظيفة هى السبل المشروعة فى تفكير قاسم ··

وكان آخر اغتيال هو اغتيال ناظم الطبقجلى ورفاقه ··

وربما كان قد سال من قاسم دم ، ولكن هذا الدم فى الواقع لم تسله الرصاصات التى أطلقتها كف الرجل الذى يعذب من جراء فعلته الآن مئات من أهل بغداد · ولكن قاسم هو الذى أسال دمه بيده ··

ان طريق كل ثورة يتوقف على شخصية الرجل الذى يتسلم قيادها ·· وهناك ثورات تبذر الحب والحنان فى كل خطوة تخطوها، حتى تجمع كلمة الشعب كله ، وتلقى الأمن فى كل قلب ، وتشيع السلام بين طبقات الناس ، وتهدم فى أسابيع أو شهور لتقضى بقية عمرها فى البناء ··

وهناك ثورات اشبه بالمذابح ·· تبذر فى كل قلب حقدا لا ينطفىء ، وتتغذى بالعنف ، وتهدم وتهدم ·· ولا تكف عن الهدم ·· ثورات لا ترفع الظلم ، ولكنها تنقله من كاهل الى كاهل ··

وقد اختار قاسم لثورة العراق الطريق الثانى ·· الطريق الذى لابد أن يؤدى الى أن ترتفع فى وجهه أصبع ·· أى أصبع ·· لتضغط على زناد ··

والآن لنتساءل :

من الذى ضغط على الزناد فى وجه قاسم ؟

ان بغداد الرسمية تتكتم كل شىء عن الحادث ، وعن مجرى

التحقيق ، فلندع بغداد الرسمية فى صـمتها ، ونلقى هذا السؤال البديهى ·

من الذى كان يمكن أن يستفيد من اغتيال قاسم ؟

بعض المعلقين يقولون ان قاسـم قد قتل زعمـاء الوطنيين وسجنهم ، وحرم جماهيرهم من ابداء رأيها · وان اليد التى رفعت المسدس فى وجهه يد وطنية وهذا استنتاج خاطىء ، لأن الوطنيين لن يستفيدوا شيئا من موت قاسم ، لأن الفـراغ الذى يتركـه لن يشغلوه هم ، ولكن سيشغله من بيده السلطة الآن ومن بعده ··

وخريطة منابع السلطة فى بغداد الآن لن تجد عليهـا مكانا للوطنيين ··

فزعماؤهم من المدنيين بين مختف ومنفى ·· وزعماؤهم من العسـكريين قد طردوا من الجيش وعلق بعضـهم على أعواد المشانق ··

ولو كان راديو بغداد قد نعى قاسم بدلا من أن يحكى قصـة اصابته ، لوثب الى السلطة حلفاء قاسم الذين لا يقلون عنه بطشا بالوطنيين وتنكيلا بمبادئهم وبدلا من المذابح المقنعة بالقانون التى يجريها قاسم ، لكانت المذابح ستسفر عن وجهها دون قناع ··

وحلفاء قاسم هم أحد معسكرين :

أولا : معسكر الضباط الذين يشاركونه أوزار الحكم ، مثل : المهداوى وماجد أمين وصالح العبدى وغيرهـم ·· وهـؤلاء من مصلحتهم أيضا بقاء قاسم ، لأن بقاءهم مرتبط ببقائه ، ونفوذهـم ينبع من نفوذه ، ولعل أصدق معبر عنهم هو المهداوى حين يقول : « انا ومضة من ومضات عبد الكريم قاسم ·· أنا قبس من نوره

ونفحة من نفحاته الذكية الطاهرة ·· أنا حرف من الحروف التى تشع أنوارها وتتلألأ بها كلمات زعيمى وسيدى ·· الخ » ··

ثانيا : الشيوعيون ·· وهؤلاء من مصلحتهم أن يخلى قاسم مكانه · انهم حينئذ يتذرعون بحماية الجمهورية العراقية وبالثار لقاسم لكى يفتكوا بالوطنيين ، وهم حينئذ يجدون الفرصة السانحة للوثوب للحكم ، ولديهم من الحرية التى أطلقها لهم قاسم مايمكنهم من تكوين كثير من المنظمات للطلبة والشباب والتغلغل فى صفوف الجيش ، ولديهم أيضا من السمعة الارهابية ما يتيح لهم أن يلقوا الرعب فى كثير من القلوب ··

ان الشيوعيين هم الجبهة الوحيدة التى تستفيد من موت قاسم ، واليها تشير أصابع الاتهام ··

وهناك دلائل أخرى فرعية ·· منها أن طموح قاسم اصطدم بطموحهم منذ شهور عديدة حين نشب الخلاف بينهم حول بقاء الأحزاب ، وحين تباطأ قاسم فى تنفيذ حكم الاعدام فى أعدائهم من الوطنيين ، وحين كال قاسم لهم التهم بعد مذبحة كركوك ··

ومنها أن قاسم أعلن منذ أسبوع فقط أن محاكم عسكرية عليا ستجرى التحقيق فى مذابح كركوك ، وستدين المتهمين ، وكلهم شيوعيون ··

ومنها أن الشيوعيين قد أيقنوا فى الفترة الأخيرة أن قاسم حريص على بقائه فى الحكم ، وانه لن يقبل بارادته أن يكون جسرا تعبر عليه جماعتهم الى السلطة الكاملة ·· وانه استعان بهم ليضرب الوطنيين ، وقد تكون الجولة الثانية معهم ·

ومنها أن الشيوعيين العراقيين هم الفئة الوحيدة التى تستطيع أن تقف فى طريق يمر فيه قاسم دون أن تثير شبهة أحد ··

ومنها أيضا أن هؤلاء الشيوعيين العراقيين ذوو تاريخ طويل فى الاغتيال ‥ تشهد عليه مذابح الموصل وكركوك ، نعم ‥ ان الشيوعيين هم الأصبع التى ضغطت على الزناد ‥ حتى ولو سكت راديو بغداد ‥ حتى ولو فتح الله عليه واتهم غيرهم ؟ ‥

ولكن كل ذلك لا يعفى قاسم ‥

أنه هو الذى شرع سنة الاغتيال ‥ وهو الذى أتاح للمغتالين أن يبسطوا سلطانهم ‥

وشيوعيو العراق ‥ على دين قاسم ٠

روز اليوسف ١٩٥٩/١٠/١٢

الارهابى القديم رئيس الوزارة الجديدة

افتتح بن جوريون عهده الجديد فى رئاسة حكومة اسرائيل بعدوان مفاجىء قامت به طائرتان اسرائيليتان على حدود الجمهورية العربية المتحدة ..

وبينما كانت الطائرتان تحلقان فى فضائنا الجوى كان بن جوريون يطلق تصريحاته عن حكومة قاسم « الوطنية » وعن رغبة قاسم فى حماية استقلال العراق وهذان العملان هما فى الواقع سهمان يشيران الى بعيد .. انهما يكشفان سياسة بن جوريون الجديدة كلها ، ويوضحان لماذا انتصر بن جوريون وحزبه « الماباى» والأحزاب المتحالفة معه فى الانتخابات الاسرائيلية رغم الضجة التى اثيرت حول صفقة ارسال أجهزة الأسلحة لألمانيا منذ شهور قليلة ، والتى اهتزت اثرها مكانة بن جوريون وتوقع له الكثيرون ان يأفل نجمه ..

كان من العسير ان يتخلى شعب اسرائيل عن بن جوريون ، لأن حزب الماباى الذى يتولى رئاسته هو الذى تولى رئاسة حكومة

اسرائيل منذ قيامها حتى الآن ، وهو الذى رسم سياسة اسرائيل وخطط اهدافها ..

واذا كانت اسرائيل لم تغير سياستها ولم تبدل أهدافها ، فقد كان من غير الطبيعى أن يتنحى بن جوريون وحزبه عن مقعد الرئاسة ..

وقد كان الماباى يواجه معركة انتخابية عنيفة . ففى اسرائيل ٢٣ حزبا منها سبعة أحزاب لم تدخل البرلمان حتى الآن ولكن منها أيضا أحزابا قوية تستطيع أن تنافس الماباى ، وانتصر الماباى رغم ذلك فى المعركة الانتخابية كالعادة منذ قامت دولة اسرائيل .

فما هى اذن السياسة التى يتبعها « الماباى » والتى انتخب من اجلها ، والتى يشير اليها هذان العملان اللذان افتتح بهما بن جوريون حكمه الجديد ؟

أن أهم مشكلة تواجه اسرائيل هى مشكلة تأمين بقائها .. مشكلة مستقبلها ان أى شبر من أرض اسرائيل يقع فى مرمى مدافع البلاد العربية المحيطة بها وبين اسرائيل وبين العرب ثأر طويل وذكرى حرب مريرة ..

لذلك كان الموضوع الأول عند المفكرين الحزبيين الاسرائيليين هى تأمين بقاء اسرائيل . وعندئذ يتشعب تفكيرهم الى اتجاهين :

● الاتجاه الأول يقول :

أن العرب لن ينسوا الهزيمة ، وقد قامت اسرائيل بالمدفع وبقاؤها لن يكون الا بالمدفع وان الطريقة الوحيدة لاجبار العرب على الصلح معها هى المزيد من الحرب .. ومن انصار هذا الاتجاه حزب الماباى وزعيمه بن جوريون ، واعضاؤه موسى شاريت وجولدا مائير وغيرهم ..

● والاتجاه الثانى يقول :

لابد من المساومة ٠٠ فقد تركت الهزيمة فى قلوب العرب جرحا ليس من السهل أن يندمل ، ولابد أن نعمل على محو تلك الذكرى ، حتى نعقد الصلح مع العرب وعندئذ نبدأ فى توســـيع دولتنا ومن أنصار هذا الرأى اليهود المتدينون و « الصهيونيون العموميون » وغيرهم من الأحزاب الصغيرة ٠٠

ولكن اتجاه بن جوريون هو الذى ينتصر دائما ٠ انه يدرك أن العرب لن ينسوا ثأر فلسطين ، كما أنه يدرك ان عامل الزمن لايقف فى صف اسرائيل ، بل فى صف العرب ، وأن الظروف التى كانت سائدة عام ١٩٤٨ لن تتكرر ثانية ، وخاصة بعد قيـــام الجمهورية العربية المتحدة ، وانطلاق القومية العربية ولذلك فهو يعتدى دائما ليكسب سريعا ٠

وفى سبيل تدعيم هذه النظرة ابتكر بن جوريون نظرية جديدة ، لكى يقنع بها الضمير العالمى بشرعية عدوانه المتكرر على الحدود العربية ، وبخاصة فى عام ١٩٥٦ ٠

هذه النظرية اسمها نظرية الحرب الوقائية ، وملخصـــها أن الحرب تكون مشروعة اذا قامت اتقاء لحرب اخرى ٠ ان اسرائيل - مثلا - تخشى أن تزحف القوات العربية نحوها ، فتمحوها فى أيام ، وهى لذلك تبادر باثارة الحرب لتقى نفسها من خطر الحـــرب القادمة ٠

وقد لقيت هذه النظريــــة رواجـــا عند بعض العاطفين على الصهيونية من السياسيين العـــالميين ، حتى انها ترددت كثيرا فى الأمم المتحدة عند مناقشة العدوان على مصر ، وحتى ان سياسيا كبيرا مثل « هيوجيتسكيل » زعيم حزب العمال البريطـــانى حاول

تبرير الحرب الاسرائيلية استنادا الى هذه النظرية فى كتابه عن « التعايش السلمى » ٠

وبن جوريون ايضا من أنصار التعاون مع الغرب ، وهو فى هذا يختلف عن كثير من الأحزاب الاسرائيلية ٠ ولكن ارتباطه بهذا الاتجاه ، هو فى الواقع ، امتداد لنظريته فى الحرب الوقائية وموقفه من العرب أنه يعلن أن اسرائيل وحدها لن تستطيع الوقوف أمام العرب ، وأن الرأى العام العالمى فى آسيا وافريقيا يعطف على قضية اللاجئين ، فلا يجد له سندا الا فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا ٠

وفى اسرائيل أحزاب تدعو للحياد ، وفيها أيضا حزب شيوعى ولكنها كلها أحزاب ضعيفة ، لأن بن جوريون قد رسم سياسة اسرائيل منذ قيامها حتىالآن ، وقطع الطريق على هذه الأحزاب ٠

أما تصريح بن جوريون عن قاسم فهو الوجه الثانى لسياسته ٠٠

ان بن جوريون يستعجل الحرب لأنه يخشى الزمن ٠٠

واخشى ما يخشاه بن جوريون مما قد يأتى به الزمن ، هو وحدة العرب لأنه يعلم انها هى القوة الحقيقية لهم ٠٠

وحين قامت ثورة العراق وقضت على نورى السعيد أدلى بن جوريون بتصريحات مذعورة عن أمن اسرائيل ٠ أما حين قضى قاسم على ثورة العراق فقد استرد بن جوريون أنفاسه ، وأخذ يهنىء قاسم على اتجاهه المستقل ٠٠

وبن جوريون لا يكتم خوفه من وحدة العرب ، ولا يكتم أيضا محاولاته لاثارة التفرقة بينهم ٠٠

أنه يعلق فى عام ١٩٥٢ على الخلاف التقليدى بين حكام مصر قبل الثورة وحكام العراق قائلا :

« ان التنافس الدائم بين مصر وبابل قد خدم اســـرائيل فى الماضى خدمات جليلة ، وحافظ على كيان الاســـرائيليين لأمـــد طويل » ..

وقد صرخ بن جوريون متباكيا على أمن اسرائيل حين عقد المؤتمر العسكرى بين مصر ولبنان وسوريا والسعودية والأردن عام ١٩٥٦ ، ولما لم يحقق المؤتمر أغراضه سكت عن الحديث عن أمن اسرائيل ..

واضطربت اسرائيل حين عقد الحلف العســكرى المصـــرى السورى الأردنى بعد ذلك بشهور ، ثم تنفست الصعداء حين انعزلت الأردن عن الحلف ..

وبلغ خوف اسرائيل مداه حين أعلنت الوحدة ، ثم قامت ثورة العراق ..

ولكن بن جوريون الآن يظن أنه قد وجد الورقة الرابعة ، وهى الخلاف بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق أو بين مصر وبابل على حد تعبيره ..

ونسى أنه ليس خلافا بين الجمهورية العربيــة .. وشـــعب العراق ..

والآن .. ما هى خطوط سياسة بن جوريون المقبلة ..

ان زملاءه فى وزارته الائتلافية هم حزب « حيروت » الذى كان فى الأصل منظمة ارجون زفاى ليومى ، والذى قتل برنـــادوت واللورد موين ، والذى نظم مذبحة دير ياسين ، وافتخر بها بعد ذلك كجزء من تراث اسرائيل القومى ..

ومن زملائه أيضا حزب « أحدوت ها أعفودا » الذى يرى أن

من الضرورة القضاء على الأقلية العربية فى اسرائيل ‥ أو تهويدها ان امكن ‥

انها اذن وزارة عدوانية صرفة ‥

وحادث الطائرة يعنى سلسلة من العدوان ترتكب تحت هذه الكلمة المضللة ‥ الحرب الوقائية ‥

وتصريحاته عن قاسم تعنى محاولة لاستغلال الخـــلاف بين الدول العربية ‥ وتعويق ركب الوحدة عن طريق الاعتمـاد على الخونة والمنشقين واعوان الاستعمار وهذان الاتجاهان يعنيان مزيدا من التعاون مع الغرب علينا ‥ تعاونا ‥ ثمنه يدفعه الغرب ‥ طائرات مستير من فرنسا وتعويضات من المانيا الغربية ‥ وقروض وكلها توجه الى صدورنا ‥

وعلينا نحن أن نستعد ‥

روز اليوسف ١٩٥٩/١١/١٩

الواجب الأيديولوجي للاتحـاد القومى

كثر الحديث عن واجبات أعضاء الاتحاد القومى فى قراهـم ومدنهم ومراكزهم الانتخابية ، وعن دورهم فى اداء الخدمات العامة ونشر الوعى الصحى والاجتماعى والعلمى وما الى ذلك ٠٠ وهذا كله مهم بلا شك ٠٠ ولكن الأهم هو دورهم فى تطويـر الوعـى السياسى بين صفوف الشعب ٠٠

ان شعبنا العربى يجتاز مرحلة سياسية واقتصادية هامة فى تاريخه ٠٠ فهو يتطور من شعب يرزح تحت الاحتلال والتبعية الى شعب مستقل محايد ، بين المعسكرات الدولية ٠٠ ومن أمة تعمـل بالزراعة ، ويقوم نظامها الاقتصادى على الاقطاع من جهة ، ورأس المال الفردى من جهة أخرى ، الى أمة تتجـــه نحو الاشـــتراكية ، وتتلاشى فيها سيطرة الاقطاع ، ويزاحم رأس المال العام فيها رءوس الاموال الفردية ، ويخضع نشاطها الاقتصادى كله لتخطيط شامل ،

وهذا التطور الجديد ليس الا خطوة فى سبيل تطوير أكبر ، فان المجتمع الاشتراكى التعاونى الذى تنشده مازال يتمخض عن أولى ثمراته ٠٠ وما زال الطريق طويلا أمامنا لكى نحصـــل على مزيد من الخبرات والتجارب والانتصارات الاشتراكية ٠

وكل خطوة تخطوها نحو الاشتراكية التعاونية تعمل الى حد ما فى تغيير شكل المجتمع ·· ومشروعات الخمس سنوات ، وما يليها من مشروعات ، وهذه المصانع الجديدة التى ستـرتفع مداخنها ، وهذا السد العالى الذى نتكتل خلف بنائه ، كل هذه التغيرات القادمة ستولد بلا شك صورا اجتماعية جديدة وستثير أسئلة جديدة يبحث التاريخ لها عن جواب وكل هذه الخطوات خطوات محتومة للوطن العربى ، وثورتنا قد اختـارت هذا الطريق الثورى القـائم على المحبة والتكاتف هو طريق التطور كما تريد لنا ثورتنا ولكى نسير فى هذا الطريق لابد لكل فئاتنا وطوائفنا من الوعى القومى ، ومن ادراك حاجة الأمة الى هذه التغيرات الجديدة ·

وهذا هو واجب الاتحاد القومى ·· ان مهمة أعضائه هى أن يكونوا هم خطباء هذا التطور فى الأندية والمبشرين به فى الندوات واللقاءات ··

كما أن من واجبهم أن يعرفوا أن للصور الاقتصادية الجديدة فلسفة اجتماعية جديدة ·· والاتحاد القومى ليس بنيـانا جاهزا جامدا ، ولكنه تنظيم متطور هو الآخر ، عليه أن يتقبل دائمـا كل اختيارات الشعب ، وأن يكون هو الطليعة التى تتغذى شرايينهـا بالدم الجديد ·

والجمهورية العربية المتحدة لاتعترف بنظام الاحزاب ، وليست الاحزاب الا تعبيرا عن مصالح الطبقات ، والاحزاب قد تتنـازع وتتصارع فى سبيل تغليب طبقة على طبقة ، مضحية بمصالح الأمة ولكنها أيضا أقرب وسيلة لمعرفة صدى آراء الطبقات ··

والثورة تختار الطريق الأصعب والاسلم حين تبنى الاتحـاد القومى لكى تسمع عن طريقه صدى آراء الجميـع دون ان تترك الفرصة لطبقة لكى تتغلب على أخرى مضحية بالمصلحة العامة للأمة

•• وما يعنيها بالذات هو رأى الاغلبية من الطبقة المتوسطة والعمال والفلاحين •

واذا كنا لانريد لنشاط حزبى سافر أو مستتر أن يشغل تفكير المواطنين بعد الآن فان الدور الرئيسى فى القضاء على كل نشاط حزبى معوق يقع على عاتق الاتحاد القومى • انه يستطيع أن يسلب الاحزاب المختلفة من مبرر وجودها ، ويحتوى كل التيارات فى داخله فى جبهة قومية ، اذا كانت القيادة فيها دائمــــا • للتيــــار الأكثر تقدما ••

هذا هو الجزء المحلى من الواجب الايديولوجــى للاتحــــاد القومى • أما الوجه العربى لهذا الواجب فهو لايقل عنه أهمية ان الجمهورية العربية هى أكثر الدول العربية تطورا فى ميدانى القومية والاشتراكية ، وهى كذلك بللورة الوحدة العربية الشاملة • ولذلك فان عليها أن تقوم بدور الموجه والرائد فى هذا الميدان وفى البلاد العربية المختلفة منظمات قوميةكثيرة ، بعضها يعمل على شــــكل احزاب ، وبعضها هيئات ليس لها تنظيم حزبى ••

وهذه المنظمات المختلفة تخوض الآن معارك فى الكفاح العربى فى العراق والاردن ، ولبنان وغيرها من أجزاء الوطن العربى ،

وليس وراء هذه المنظمات الجماهير الضخمة التى تقف وراء الاتحاد القومى ، وليس لها أيضا الامكانيات الفكرية والدعائيــة الواسعة التى يستطيع الاتحاد القومى أن يمارسها ، ودورهــا فى معركة القومية العربية دور موقوت بانتصـــار العروبة على دعاة الانفصال والتبعية • فهى منظمات لخـــوض معـــركة الوحدة •• لا معركة البناء ••

وواجب الاتحاد القومى كشــقيق أكبر ، هو أن يمنـــح هذه المنظمات تجربته ومعونته وأن يقوم بدور القيادة الفكرية لها •

وهذه القيادة ليست شرفا ، ولكنها عبء · فهى تعنى ان يكون الاتحاد القومى ملما بكل المعارك السياسية التى يخوضها الوطن العربى ·· ووثيق الصلة بشخصياتها ، وتعنى أيضا أن يلقى الاتحاد القومى للمعركة بأهدافها الفكرية والسياسية فاذا انتصرت تلك المنظمات فى معركة القومية والتحرر ، فالاتحاد القومى هو المصب الذى تصب فيه ··

وعليه عندئذ أن يستوعبها ، ولن تكون غريبة عنه ، لأنه قد لمس جميع أوجهها ، وساهم فى تخطيط سيرها ·

والمهمة الثالثة أمام الاتحاد القومى تقع على الصعيد الدولى · وتبرز خطورة هذه المهمة حين نذكر أن اسرائيل ، تحرص على أن يكون لها صوت مسموع فى اجتماعات المنظمات الدولية ، فهى ترسل وفودها الى مؤتمرات الاحزاب الاشتراكية ، ويشترك بعض مفكريها فى الجمعيات السياسية والفكرية ، ويعقدون الصداقات مع أقطاب الفكر والفلسفة فى العالم ، ويتمتعون بحظوة كبيرة عند دور النشر ، والتوجيه والصحف الكبرى ·

واسرائيل تتاجر بالشكل الوهمى لديموقراطيتها واشتراكيتها فالأحزاب الشيوعية والاشتراكية فيها مجرد واجهة تحاول بها أن تكسب أنظار العالم ، وأن تدفعه الى المقارنة بين التقدم الفكرى والسياسى فيها ، وبين ماتزعمه من سيطرة اقطاعية ورأسمالية ، وتأخر حضارى فى البلاد العربية ومن هنا تحاول أن تخلق المبررات لوجودها وعدوانها على أساس نظرية البقاء للأصلح ، هذا رغم قيام دولة اسرائيل على أساس عنصرى عدوانى كاف لهدم كل هذه الحجج الباطلة ·

وهذه المهمة المزدوجة هى واجب الاتحاد القومى · وجانب منها هو أن نعلن للعالم تقاليدنا الاشتراكية الجديدة ، وخططنا فى

التصنيع ، ونظريتنا فى المساواة والعدالة وان نتصل بالمنظمات الاشتراكية السياسية والفكرية فى جميع أنحاء العالم ، وأن نحضر مؤتمراتها ، وأن نشترك معها فى مناقشة قضايا الاشتراكية ..

والجانب الآخر هو أن نفضح اشتراكية اسرائيل المزيفة . وأن نبرز جانبها العدوانى العنصرى البغيض ..

ان الاتحاد القومى هو جسم ثورتنا ، وحرصنا على نجاحه لا يعدله الا حرصنا على حياتنا ، ولذلك فنحن نرجو أن يظل كبيرا كما ولد كبيرا ، وأن تزيده الأيام غنى فى المحتوى ، وأن يظل رائدا للتقدم والقومية لأمتنا العربية .

روز اليوسف ١٩٥٩/١١/١٦

الخـــروج من الأزمـــة

منذ قرنين من الزمان ، حين كان الغرب يتحين الفرصة لكى يمد نفوذه الى الشرق ، كانت تتقدم جيش المستعمرين ‥ كتيبة متخفية من العلماء ٠

لم تكن تلك الكتيبة المتخفية تصاحب الجيش الزاحف خطوة خطوة ، ولم تخض معه معارك السيف والمدافع ، ولكنها كانت تخوض معركتها من اروقة الجامعات وسراديب المتاحف ، ودور الكتب ٠

وكان اسم تلك الكتيبة ‥ المستشرقين ‥ ولما كان الاستعمار قد اتجه أول ما اتجه الى الهند وفارس ، فقد نشطت الدراســات اللغوية والتاريخية الأوروبية والفارسية ، وبادرت بريطانيا فأنشأت معهدا للدراسات الشرقية بلندن ، تخرج فيه أجيال من المستشرقين منهم من أدى فى تاريخ الاستعمار البريطانى أدوارا ظاهرة ٠

وحين ابتلع الاستعمار البريطانى الهند ، واتجه الى البلاد العربية بدأ الاهتمام بدراسة اللغة العربية وتاريخها وآدابها ، بــل ولهجاتها المحلية ، كما تحركت وفود أولئك العلماء الى أرض العرب تجول فى أرجائها ‥ وتتحدث الى ملوكها وزعماء قبائلها ، وتدرس امكانياتها الاقتصادية والبشرية ‥

وأستعان الاستعمار فى جولته الرابحة بكل تلك التقارير والكتب والرسائل والبحوث التى كتبها أولئك المستشرقون واطمأنت خطى الاستعمار الغربى فى مملكته الشاسعة مايزيد على قرن من الزمان ، وفجأة ، اهتزت الأرض تحت أقدامه ولم تكف عن اهتزازها الا بعد أن حمل الاستعمار عصاه على كتفه ، ورحل عن معظم أرجائها ··

وتلفت الغرب مذعورا ·· مابال أولئك الذين كنا نحكمهم بالأمس يتمردون اليوم على حكمنا ؟ · ولجأت الحكومات الى السيف والمدافع أو الى المراوغة والتسويف ··

أما أولئك العلماء ، فقد لجأوا الى التاريخ ·

وذلك هو ماوراء تلك الكتب الكثيرة التى تخرج الآن عن الشرق ، وتزدحم بها رفوف المكاتب فى أوروبا وأمريكا · منها كتب عن الهند ، وعن السودان ، وعن البلاد العربية ، وعن اندونيسيا والباكستان ، وعن غيرها من أجزاء العالم الذى يفتح عينيه من جديد ··

ولست أقصد بهذه الكتب ·· التحقيقات الصحفية السريعة أو المشاهدات العابرة ، فتلك الكتب جهود فردية قد لايكون وراءها الا الرغبة فى التسجيل وموافاة القارىء بأحدث المعلومات ولكنى أقصد الكتب العلمية الراسخة المليئة بالتفاصيل ، التى تدل فى ثناياها على جهد كبير مبذول ، ونظرة واضحة للأمور ، ومحاولة للخروج من الأزمة القائمة بين الشرق والغرب ··

وتصدر هذه الكتب فى انجلترا عن وزارة الخارجية أو ادارة الاستعلامات فى كثير من الأحيان ، أما الكتاب الذى أعرضه ، فهو كتاب أمريكى،تولت اصداره ومساعدة مؤلفه على كتابته··مؤسسة

روكفلر ٠٠ أحد اقطاب المال فى أمريكا ، والمرشح الأول لكى يخلف ايزنهاور فى رئاسة الحكومة الامريكية ٠

ومؤلف الكتاب « ولفرد كانتويل سميث » مدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة « ماك جيل » بمونتريال ، وقد عاش سنوات طويلة من عمره فى الهند وباكستان ، وطاف بالبلاد العربية ، واندونيسيا وايران وتركيا ، وأجاد للغات العربية والفارسية والأوردية ، لأنه عرف أن مفتاح فهم شعب من الشعوب هو أن تعرف لغته ٠

وفى الكتاب خبرة طويلة عريضة ودراسة متعمقة الى أبعد الحدود ، واسماء يدهشك أن تجدها تجرى على لسان مؤلف امريكى ، فهو يعرف آراء طه حسين وتوفيق الحكيم ، ويفرق بين نظرة شفيق غربال الى التاريخ ونظرة نبيه أمين فارس ٠ ويقف احيانا عند افتتاحية احدى الصحف اليومية ، أو سطر من سطور مقال للعقاد أو هيكل ، أو رأى مهجور لجمال الدين الافغانى ٠٠

عالم واحد !! ٠٠

واسم الكتاب ٠٠ « الاسلام فى التاريخ الحديث » ٠٠

وللمؤلف فى اختيار العنوان وجهة نظر ٠٠

ووجهه نظره أن العالم الاسلامى كان وحدة لاتتجزأ قبل أن يلتقى بالغرب تمتد حدودها من الهند الى المغرب الأقصى وقد تعيش مقسمة الولاء بين عدة ملوك ودول ، ولكن وحدة الشعور تجمعها جميعا ٠٠

وحين انتصر السلطان محمد الخامس « التركى » على القسطنطينية منذ خمسة قرون ، عم الابتهاج جميع المسلمين من حدود الهند الى مراكش ، رغم أن جميع تلك البلاد لم تكن خاضعة لسلطان العثمانيين ٠٠

والمؤلف يقول ·· ان جميع التغيرات التى تحـدث الآن فى الشرق ، والتى واجهها الغرب ، ينبغى حين ننظر اليها أن ندرس الاسلام ، نعرف تاريخه ، وأثره على نفسية « العالم الاسلامى » ·

والملاحظ أن معظم المؤلفين الأجانب مازالوا حتى الآن يؤثرون كلمة « العالم الاسلامى » حين يتحدثون عن هذه الشعوب المختلفة ، رغم أن هذه الكلمة لم تعد تستعمل فى الشرق نفسه ، بعد أن ثبتت القوميـــات المختلفة أقدامهـــا ، ونبتت القومية العربية والهنديــة والفارسية والتركية ، وانفصلت دولة باكستان الاسلامية عن الهند ، ولم يصبح الدين هو المحرك الأول للسياسة فى هذه المنطقة ··

فهل يستفيد الغرب من اطلاق هذه الكلمة على جميع الشعوب والقوميات المختلفة التى يدين معظم افرادها بالاسلام ؟

لنرجع الى الكتاب ··

انه يدافع فى الفصل الأول عن الاسلام دفاعا حارا ، محاولا تقريب أوجه الخلاف بينه وبين المسيحية ، وقبل أن يختم ذلك الفصل يدعو المسلمين الى الوقوف مع المسيحيين فى العالم ضد الفلسفة الملحدة المادية !

وذلك هو ماوراء اطلاق هذه التسمية ولكنه ـ لحسن الحظ ـ يتجاوز تلك النقطة الحرجة مسرعا ، ليمضى فى محاولته رسم صورة للمسلمين فى العالم الحديث ، وليضع الأســـس الجديدة لعلاقتهم بالغرب ، وعلاقة الغرب بهم ··

الفشــل ··

لقد فشلت تجربة الغرب مع الشعوب الاسلامية ، وكان مقدرا لها أن تنجح ·

وليس معنى الفشل أن تنسحب الجيوش وتزول مناطق النفوذ وتقوم الحكومات المستقلة مكان المستعمرات ..

أو على الأصح ، ليس هذا وحده .. معنى الفشل ..

ولكن هناك فشلا آخر .. أكبر .. وأخطر .. .. وأعم ، ذلك هو فشل الغرب فى الاحتفاظ بتقدير الشرق .. فشله فى أن ينشر مثله العليا ، وقيمه الفكرية ، وطريقة حياته .. وبايجاز .. فشله فى « تغريب الشرق » ..

وقد كانت الطرق أمامه ممهدة .. فحين ابتدأ المسلمون يفكرون فى اصلاح أحوالهم .. منذ زمن بعيد ، فكروا أولا مثل كل أمة لها تاريخ وليس لها حاضر ، فى العودة الى التاريخ ..

وبرزت الاتجاهات المسماة بالاتجاهات « السلفية » أى العودة الى « السلف الصالح » .. الى ماكان الناس منذ ألف سنة يعملون ويفكرون .. الى العصر الذهبى للاسلام ، عصر الخلفاء والصالحين وخرجت دعوتان سلفيتان فى وقت واحد

أولاهما من الجزيرة العربية ، وهى دعوة محمد بن الوهاب مؤسس طائفة الوهابين ..

والثانية — وهذا محل الغرابة — من الهند ، وقد قادها ملك من ملوك المغول ، الأسرة المسلمة التى كانت تحكم الهند ، واسمه الشاه ولى الله ، الذى كان فى نفس الوقت شيخا للطائفة النقشبندية!

ولكن الدعوتان لم يكن لهما صدى بعيد خارج حدودهما ، أما الدعوة التى هزت أرجاء العالم الاسلامى ، وانتقلت من قطر الى قطر ، تشعل الثورة ، وتؤجج النار ، وتزلزل الأفكار ، وتهز صرح التقاليد ، فقد قادها رجل كان يفكر كما يفكر الغربيون ..

وذلك الرجل هو .. جمال الدين الأفغانى .

وكان انتصار جمال الدين الأفغانى هو الدليل الأول على أن الغرب قد دخل بتفكيره وطريقته الى العقل الشرقى ، وحتى طريقة الغرب فى اختيار الحكومة وانتخاب النواب والفصل بين السلطات كانت من ضمن مطالب ذلك الثائر المسلم ٠٠ العصرى ٠٠

وبين منتصف القرن التاسع عشر ، ومنتصف القرن العشرين ولد وعاش جيل ضخم من المفكرين المسلمين ، كانوا كلهم يعيشون بقلوبهم مع الاسلام وعقولهم مع الغرب ٠٠

والمؤلف يسرد أسماءهم ٠٠ طه حسين فى مصر ، وأمير على وابو الكلام آزاد بين مسلمى الهند وسانجو لازى فى ايران ونامق كمال وعبد الحق حامد وتوفيق فكرى فى تركيا ٠

ويستطرد المؤلف قائلا :

ان المفكر الاسلامى الهندى أمير على يكتب فى احدى مؤلفاته انه قرأ شكسبير وميلتون وكيتس وبيرون ولونجفلو وغيرهم من شعراء الانجليز ، كما قرأ روايات ثاكرى وولتر سكوت ، اما توفيق الحكيم المؤلف المصرى المسلم فانت تقرأ رواياتـــه وكأنهـــا مترجمة عن الفرنسية ٠٠

ذلك جيل ضخم من المفكرين ، كلهم مسلمون ، ولكن الغرب قد مس وجدانهم وفى مصر مثلا يختلف مدى التعبئة الفكرية للغرب ، فبينما يبلغ أقصاه عند طه حسين وهيكل ، يضيق مداه عند محمد عبده ورشيد رضا وأحمد أمين ٠

ولأنهم جميعا عرفوا الغرب تفكيرا لا عملا ، وتأملا لا سياسة، فقد أخذوا من الفكر الغربى نزعتين هامتين :

● الأولى نزعة تحرر الفرد من سيطرة الأفكار القديمة ، والتقاليد البالية ، والتفكير فى كل مايدور حوله من احداث ٠

ولكن هذه النزعة لم تنعكس على المجتمع اذ انهم جميعا مفكرون فرديون ينتمون الى الطبقة الوسطى الناشئة فى تلك المجتمعات الجديدة ·

أما النزعة الثانية فهى نزعة القومية بمعناها الذى عرفته أوروبا · القومية التى لاتعتمد على الدين أو العنصر ، بل على المصالح المشتركة والتاريخ المشترك والأهداف المشتركة ·

وكانت تلك النزعة تحمل فى صميمها العداء للغرب ، وان كان الذين حملوها لم يشعروا بذلك الشعور ، وان كانت النزعة نفسها مستمدة من تاريخ الغرب وتفكيره ·

ولكن هذه النزعة وحدها لم تكن كافية للقضاء على اثر الغرب فى العقل الاسلامى فلقد قضى الغرب على نفسه بنفسه ·· لقد تدهورت مكانة الغرب بعد احتلال مصر ، وازدادت تدهورا حين اتفقت بريطانيا وفرنسا فى عام ١٩٠٥ على اقتسام نصف العالم المسلم ، وعجلت معاهدة سايكس بيكو السرية بالانهيار ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وهوى انشاء اسرائيل بالحجر الأخير فى ذلك البناء الذى استغرق تشييده قرنا من الزمان ، الى الارض ، وأصبح لسان حال المفكرين المسلمين يقول :

« لن يكون تقديرنا للغرب اكثر من تقدير الغرب لنفسه » ·

الطريق الجديد

والمؤلف يتساءل ··

ماذا فعل « العالم الاسلامى » حين فقد احترامه للغرب ؟

ان أمامه ثلاثة نماذج ·· أولها العالم العربى ، وثانيها باكستان ، وثالثها تركيا ··

ولنبدأ بالعالم العربى ..

ان شخصية الانسان العربى تتركز على محورين رئيسيين فى خلقه وتصرفاته .

هذان المحوران هما الكبرياء والحساسية .. والكبرياء تنبع من تاريخه المجيد . أما الحساسية فتنبع من حاضره الحزين .

وليس لازما أن يكون العربى متدينا أو حتى مسلما ليحس بنار الكبرياء المنبعثة من تاريخه . ان جورجى زيدان مؤرخ تاريخ العرب الروائى ، وشارل عيسوى وفيليب متى وجورج عطية وغيرهم من مؤرخى العرب الذين يعيشون بيننا فى أمريكا ، ليسوا جميعا مسلمين ..

والسبب الرئيسى لفشل الغرب فى تعامله مع العرب هو انه لم يقدر كبرياءهم حق قدرها ..

فى عام ١٨٨٢ هوت قنابل الانجليز على ثغر الاسكندرية ..

وفى عام ١٩٢٥ هوت قنابل الفرنسيين على دمشق ..

ولم تكن القنابل وحدها هى التى تهوى على رءوس العرب ، فقد هوى الغرب باحتقاره وتعاليه على نفوسهم ، فأطلق عليهم كلمة « الوطنيين » ..

لا بمعنى الولاء للوطن ، بل بمعنى انحدارهم درجة أو درجتين عن الرجل الأوروبى ،

وكبح الغرب آمال الطبقة المتوسطة وشككت تقارير المندوبين السامين الانجليز والفرنسيين فى كفاءتها ومقدرتها ..

وكانت الطبقة الأخيرة لكبريائهم هى الصهيونية ، فلم يعد العرب يعانون من الغزو الخارجى وحده ، بل من الغزو الداخل كذلك ..

والمؤلف يعترف أن الأوروبى المستعمر ينظر للعربى نظرته الى انسان متخلف غير جدير بالحياة ..

وهو يحكى هذه القصـــة ، وان كان يتردد بين تصـــديقها وتكذيبها ..

لقد اتهم الصليب الأحمر ـ غير مرة ـ وهو منظمـــة دولية انسانية ، بأنه كان فى اثناء حرب فلسطين يعالج جرحـــى اليهود ولا يلقى بالا لجرحى العرب ..

وليس هناك أمر من جرح الكبرياء ، وقد تحـــول الشـــعور بالاعجاب بالغرب وبالولاء الفكرى فى ارجاء البلاد العربية الى نقيضه حين تسمم جرح الكبرياء بهذه الأحداث المتوالية ، وانعزل المفكرون العرب الميالون للغرب عن الجماهير ، ورد طه حســين أوسمته التى سبق أن نالها من فرنسا ، وأصبح الموضوع الأثير عند المفكرين الجدد هو الكتابة عن تاريخ العرب الفكرى والفلسفى وتوضيح انهم اكثر عبقرية واصالة من الشعوب ..

فكتب عمر فروح اللبنانى عن اثر العرب فى الفلسفة ، ومحمد عبد الله عنان عن الصفحات المطوية فى تاريـــخ العرب ، وظهـر مؤرخون متحمسون للعروبة مثل ساطع الحصرى وشفيق غربال وحسين مؤنس وحسن ابراهيم حسن فى مصر وعبد العزيز الدررى فى العراق ونبيه أمين فارس اللبنانى المسيحى ..

كانت مهمة هذه الكتب الجديدة ، وهؤلاء المؤرخين هـــى أن يستردوا للعرب كبرياءهم التى وهرها الغرب ..

وفى السياسة ارتفعت دعوة القومية العربية التى قد لاتستفيد من الغرب الا من ثمرات العلوم التطبيقية ، وتحاول أن ترضى كبرياءها بأصالتها واستقلالها وعلى كل من يريد أن يتعامل مع العرب أن يحذر جرح كبريائهم ، ولابد للغرب من أن يتعامل مع العرب .

وليس عبثا أن غلاف الكتاب قد رسمت عليه قافلة ابل ومنارة مسجد وهلال ونجمة ٠٠ وبئر بترول ! ٠

والنموذج الثانى هو تركيا ٠٠

وتركيا قد أعلنت منذ قامت فيها ثورة مصطفى كمال انها قد فصلت الدين عن الدولة ، وحرمت أى نشاط دينى ٠

ولكن أحداثا غريبة تدور فى تركيا الآن ٠٠

لقد بدأت المجلات الدينية تظهر فى أنقرة وفى عـــام ١٩٤٧ سمحت تركيا لأول مرة لأبنائها بالحج الى مكة ، وفى عام ١٩٥٠ ابتدأت اذاعة بعض البرامج الدينية من راديو أنقرة وأبيحت زيارة قبور آل عثمان ، وافتتحت بعض المدارس لتخريج الائمة والخطباء ٠

ولكن تركيا لم تصبح دولة دينيـــة بعـد وان كان الكثيرون يتوقعون أن تقترب تركيا من الاسلام كلما زادت حدة تهديد جيرانها ٠

وتركيا لم تعان كثيرا من لقائها بالغرب ولعل فى هذا مايحفظ للغرب خط رجعه هناك ٠

ولكن حيرة تراكيا الحاضرة بين ماضـــيها كأمة اســـلامية وحاضرها كدولة أوروبية وذلك الاضطراب الذى تعانيه فى تحديد نظرتها تجاه الاسلام وتجاه التقاليد الأوروبية على حد سواء ٠٠ جدير بأن يثير كثيرا من التفكير ٠

أما باكستان فقد أعلنت من اليوم الأول لاستغلالها أنها دولة اسلامية وكان ذلك أمرا ضروريا ، اذ أن الدين كان هو المبرر الأول لانقسام باكستان عن الهند ٠

وبعد الاستقلال بشهور اجتمعت لجنة لتضع دستورا حسب تقاليد الاسلام وقد مضت عشر سنوات على استقلال الباكستان ، ولم يوضع الدستور بعد ٠

ان علماءها مازالوا يفكرون حتى الآن :

كيف تكون الدولة الاسلامية ٠٠ فى القرن العشرين ؟ ٠٠

روز اليوسف ١٤/١٢/١٩٥٩م

هل تعود الأحزاب العراقية .. بعد غد

بعد أيام تنتهى فترة الانتقال التى اعلنها قاسم ٠٠ وتعود الاحزاب العراقية الى نشاطها العلنى ٠٠ والاخبار الواردة من بغداد تؤكد ان أربعة أحزاب ، هى الحزب الوطنى الديمقراطى ، والحزب الشيوعى والحزب الكردى الديمقراطى وحزب جديد يحمل اسم « الشعب » ويتزعمه فاضل المهداوى ، قد تقدمت الى المسئولين فى بغداد ، تطلب السماح لها بممارسة نشاطها الحزبى ٠٠

وينبغى الا نتورط فى تصديق قاسم هذه المرة ، فقد لا تمر الأيام الا ويعدل قاسم عن رأيه متذرعا بحجة ما ، كما أننا ينبغى الا نتورط فى التفاؤل ، فنعتقد أن عهدا جديدا على الابواب فى العراق، وان هذا العهد الجديد سيتخذ الديمقراطية الحزبية ، وحرية التعبير عن الرأى ، شعارا له ، ومنطقا لتصرفاته ٠

ولكن ، هل كان النشاط الحزبى بكل اتجاهاته ، متوقفا فى العراق ، خلال فترة الانتقال ؟

لقد كان الشيوعيون يعرضون نشاطهم الحزبى من خلال لجان الشبيبة ، والمقاومة الشعبية ، ولجان السلام ، واتحادات الطلبة وغيرها من المنظمات ، ومن خلال هذه المنظمات استطاعوا فرض

طغيانهم الدموى على العراق وارتكبوا السحل والشنق والتخريب والتدبير ، وكان كل ذلك يتم فى ظل نفس القانون الذى ينتهى أثره بعد أيام ·

وكان الوطنيون الديمقراطيون يجتمعون ويتناقشون ، وكانت لهم صحف تعبر عن وجهة نظرهم ، وتروج لها ··

أما الاتجاه الوحيد ، الذى حرم من ابداء الرأى ، وصودرت حريته وأغلقت مقار أحزابه ، وأقفلت صحفه وتعرض للمحاكمات والتنكيل ، فهو الاتجاه القومى ، بجميع الاحزاب والهيئـات التى تتبناه ··

وهنا تتضح غاية فترة الانتقال ··

لقد كانت غاية هذه الفترة أن تقضى على الاتجاه القومى فى العراق ، ليستطيع قاسم وأعوانه بعد ذلك أن ينفردوا بحكـــم العراق ··

وفى سبيل ذلك ، تمت أعجب صداقة بين قاسم والشيوعيين ، صداقة دعامتها عدم الثقة ، واستغلال كل منهما للآخر وهو يتحين الفرصة للايقاع به ، فسمح لهم بارتكاب المذابح ، ومحاربة العروبة آملا أن يقضى عليهم بعد أن يقضوا له على القوميين ··

وتحالف قاسم أيضا مع الاستعمار ، فظلت مصالح الاستعمار مؤمنة ووجوه استغلاله لخيرات العراق مكفولة ، وتكاتف مع جميع العناصر الرجعية فى الداخل والخارج ، فأوقف تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، وأفرج عن معظم أعوان نورى السعيد ··

وأعلن بورقيبة تأييده لحكومة العراق أكثر من مرة ، ولهج بن جوريون واذاعة اسرائيل بوطنية قاسم وحكمته ··

ورغم ذلك ، فان قاسم لم يستطع القضاء على الاتجاه القومى فى العراق ، بل لعل الاتجاه القومى الآن ، أقوى منه منذ سنة مضت ..

ولو حدث ، وشكلت الاحزاب العراقية من جديد ، فان ميزان القوى ، سيكون مختلفا جد الاختلاف ، عما عهدته العراق فى العام الماضى ..

وأول الأسئلة التى ترد على الذهن .. ما مدى قوة الشيوعيين وماذا أصابها من تطور منذ ١٤ تموز ؟

كان الشيوعيون هم القوة المنظمة الوحيدة التى لم تفقد ذكاءها وتقديرها وفاعليتها حين نشبت الثورة ..

وسرق الشيوعيون الثورة من أيامها الأولى ، سرقوا الحرية الوافدة والجمهورية الجديدة ، بل وظنوا انهم سرقوا عبد الكريم قاسم نفسه ..

وكان تقدير قاسم السياسى أن يستعين بالشيوعيين على القضاء على الاتجاه القومى الذى يشكل خطرا على بقائه ، بينما لا يشكل الشيوعيون هذا الخطر ، نظرا لضعف شعبيتهم ، وارتكاز قواعدهم على قطاعات قليلة من المثقفين والطلاب ، فان نصف قوة الشيوعيين فى العراق لاتعود الى وفرة عددهم بقدر ماتعود الى فاعليتهم وسرعة تصرفهم ، وتنظيم نشاطهم ..

واستطاع الشيوعيون أن يخدعوا قطاعا من الجماهير فترة طويلة ، بما رددو من الفاظ مطاطة ، مثل حماية الجمهورية ، أما الحزب الوطنى الديموقراطى فقد كان يفكر بعقلية لم تتطور بعد الى مستوى الأحداث ، كان يفكر فى الديمقراطية والاستقلال ، ولكنه لم يتخذ له موقفا من أهم مشاكل العصر ، وهى مشكلة القومية

وبكل حزب عربى لا يحدد موقفه من القومية العربية ، فى هذه الأيام الجياشة من تاريخ الأمة العربية ، يعتبر متخلفا عن الموقف ، حتى ولو كانت آراؤه فى جميع المشاكل الأخرى تقدمية ··

ولذلك فان من العسير أن تعرف الآن سياسة هذا الحزب ، فرئيسه كامل الجادرجى قد اعتزل السياسة ، وله وزراء فى وزارة قاسم الحالية ، ولكن كلا منهم له موقف يختلف عن الآخر · وحسين جميل الذى يعود من منصبه ليتولى سكرتيرية الحزب ، اختلف مع الشيوعيين مرة ، عاد بعدها الى الهند فايران ، ولايستطيع أحد أن يتكهن بما سيكون عليه موقفه ازاء الحياة السياسية الجديدة فى العراق ··

وعلى كل حال ، فان الحزب الديموقراطى لم يدع يوما لنفسه أغلبية شعبية تتبع مبادئه كحزب ، بل ان التأييد الذى يتلقاه موجه الى اشخاص زعمائه ، مثل الجادرجى ومحمد حديد وحسين جميل وغيرهم : ومعظمه يرجع الى مواقفهم الوطنية أيام نورى السعيد ، لا الى مبادرتهم السياسية فى هذا العهد ··

أما الحزب الكردى · فهو حزب يدعو الى قومية كردية ، تشمل الأكراد فى العراق وايران وتركيا · وهو يدرك أن احياء هذه القومية لا يتوقف على العراق وحده ، بل يتوقف بنفس الدرجة على هاتين الدولتين الأخيرتين · والدولة الكردية عنده أمنية قومية · وقد وقف هذا الحزب فى أول عهد الثورة الى جانب القوميين العرب ··

أما حزب الشعب الذى سيؤلفه المهداوى ·· من جماهير محكمته المصفقة ، واتباع قاسم الانتهازيين ، فأمره معروف ··

ان القوى التى ستتقدم الى المسئولين اذن لكى تمارس نشاطها الحزبى ، قوى مفتتة أو زائفة ، أما القوة التى استفادت حقا من

فترة الانتقال ، وبخاصة فى شهورها الاخيرة ، فهى قوة القوميين العرب •

لقد ازداد تماسكهم ، ورفعتهم المعركة الى مستوى من المبادرة والتنظيم يقارب مستوى الشيوعيين ، وزالـــت الخـــلافات بين اتجاهاتهم المختلفة من استقلاليين وبعثيين وقوميين ••

وزاد فى شعبيتهم ، سخط الجماهير غير الواعية على الأحوال السيئة فى العراق •• فقد ارتفعت أسعار السلع ، واستورد العراق القمح لأول مرة فى تاريخه الحديث •• وانخفضت ايرادات الميزانية غير عوائد النفط ، من ٤٠ مليون دينار الى ١٥ مليون دينار ، وبلغت قيمة الأموال التى هربت من العراق ، نتيجة لعدم الاستقرار ١٦٠ مليون دينار ، وهذا كله لابد أن يترك أثره على حياة المواطن العادى الذى أدرك أن المخرج الوحيد لأزمته هو زوال قاسم ، وانتقال السلطة الى القوميين ، ولكن هل يسمح قاسم للقوميين بالنشاط الحزبى ؟ •

لا أظن ذلك ، لأن هذا سيكون موقفا غير منسجم مع موقفه العام ، فى أحاديثه وخطبه ، وفى محاكمات المهداوى ، وسيكون أيضا خطرا على طموحه الفردى الانتهازى •

واذا لم يسمح قاسم للقوميين بالتنظيم الحزبى ، فسوف يظل الوضع السياسى فى العراق كما هو ، القوى غير الأصيلة الزائفة تعمل على السطح • وتثير الضجة •• وتلقى بالشعارات • بينمـا تظل القوة الأصيلة الحقيقية تنمو تحت الأرض ، وتزداد تنظيماتها تماسكا وفعالية ••

لماذا اذن نتوقع ــ رغم هذا الاستدراك ــ أن يكون العام الجديد عاما فاصلا فى حياة العراق ؟

لأسباب كثيرة ••

اهمها أن قاسم منته ·· رجل ميت ، حتى لو عاش حبيساً بين جدران وزارته ولأن القوة الوحيدة ، التى ستخلفه ، من قوة القوميين حتى ولو لم تظهر على سطح بغداد السياسى ··

ولأن الحالة فى بغداد الآن ، تشبه كثيرا حالتها فى السنة الأخيرة من حكم نورى السعيد ··

كل الناس يتوقعون التغيير ·· ولكنهم يتساءلون متى تتحرك القوة السياسية الشعبية لتصنع هذا التغيير ؟

روز اليوسف ١٩٦٠/١/٤

أرشح هذا الرجل لجـائزة الدولة التقديرية

قصة حياته غريبة ، ولكنها منسجمة ٠٠

ولد فى صنعاء باليمن ، واصل والديه من حلب ، وتلقى بعض تعليمه فى اسطنبول وعمل مدرسا فى البلقان ، ثم وزيرا فى سوريا ، ومديرا للآثار ، ثم وزيرا بالعراق ، واضطرته الظروف للجوء الى لبنان ، وعاد بعد غيبة ربع قرن الى ســـوريا ليعمل وزيرا مـرة ثانية ٠٠

وهو الآن فى الثانية والستين من عمره ، نظره كليل ، وأذناه لا تكادان تسمعان الا بمشقة ، وكل مايمتلكه من هذه الدنيا قد كومه فى غرفة صغيرة ، بفندق صغير فى أحد شوارع القاهرة ٠

ان كل من بالفندق يعرفه ، صاحبه وخادماته ونزلاؤه ، فغرفته هى وطنه الأصغر ، وهو يعيش فيها منذ حوالى عشر سنوات ، وماذا عساه يريد من الدنيا بعد هذه الحياة الحافلة ، الا فراشه ومكتبة ، وكرسيين عليهما اثار عز قديم يئنان كلما اتكأ عليهما الجالس بثقله،

ويجلس الرجل العجوز ، ويتحدث فى صوت خفيض هادىء وأفكاره أكثر هدوءا من صوته ، ولكن هذه الأفكار الهادئة تصنع الثورات ٠

الثورة العربية فى سوريا مثلا ·· منذ حوالى اربعين عاما ··
لقد عاشها يوما بيوم وشرب كأس انتصارها وانكسارها ·· وخرج طريدا مع فيصل الأول ، ودخل معه العراق ، حيث انتخب فيصل ملكا وكان هو ــ الرجل العجوز ــ الذى لم يكن عندئذ عجوزا ، مشرفا على التعليم ثم وزيرا ·

وثورة رشيد عالى الكيلانى ، كان هناك عندما شبت نارها ، واسهم فى اشعال هذه النار ، ثم اكتوى بلهيبها شهورا طويلة من النفى ·

وثورة سوريا عام ١٩٤٥ ، حين قصفت دمشق بالقنابل ، وهبت تطلب استقلالها وحريتها · كان هذا الرجل هناك ، وحين نجحت الثورة عرف مكانه بين بناة الاستقلال ، وانطلقت افكاره الهادئة التى تصنع الثورات ·· وتباركها ·

قصة حياة غريبة ·· أجل ، ولكنها منسجمة حتى لتوشك غرابتها ان تضيع فى روعة انسجامها ··

ان حياة تبدأ فى صنعاء اليمن ، وتتوج بالمشيب فى القاهرة ، وتوزع سنواتها الخصبة على كل مدينة من مدن العرب لتشير من أول يوم من أيامها الى أن صاحبها له قضية ·

وقضيته هى العروبة ·

وان مكانه الدائم مع كل ثورة فى أرجاء الوطن العربى ، من الثورة العربية الأولى الى ثورة ٢٣ يوليو ، حين يختار لنفسه ميدان « العقل » فى هذه الثورات ·· فيتولى التعليم دائما وزيرا ومستشارا ، وأستاذا فى المعاهد العالية ، يشير الى أنه قد عرف سلاحه ·

وأن سلاحه هو الفكر ·

وكتبه السبعون ، وتلاميذه الألوف والفكرة التى نادى بها منذ خمسين عاما وكتب عنهَا مئات الصفحات ، حتى انتصرت ، ومشت تحت رايتها الاجيال ترشحه لأكبر تكريم نستطيع أن نسبغه على العلماء والمفكرين ·

نرشحه لجائزة الدولة ·

ولكن الرجل بعيد عن الأنظار ، قابع فى غرفته الصغيرة ·· بالفندق الصغير لايقول أبدا ·· أنا صنعت ·· أنا ناديت أنا قلت ، لأنه ما زال يصنع وينادى ويقول :

هذا الرجل اسمه ·· ساطع الحصرى وجنسيته ·· عربى بأوسع ما للكلمة من معنى ··

وصناعته ·· مفكر بأشرف ما للكلمة من مدلول ··

يوم ميسلون ··

عرفت ساطع الحصرى – لأول مرة – من كتابه ، يوم ميسلون ·

ويوم ميسلون يوم مطموس فى تاريخ العروبة ، مثل يوم رشيد حين هزم عرب مصر قوات الانجليز ، ويوم المنصورة حين أسر لويس التاسع فى دار ابن لقمان ، ومثل عديد من الأيام الأخرى الخالدة فى تاريخ العرب ·

ولكن يوم ميسلون ، له شأن آخر ، فان شهوده أو بعضهم على الأقل مازالوا احياء ، ومن هؤلاء الشهود ساطع الحصرى ··

ولم يكن ساطع الحصرى شاهدا لذلك اليوم من بعيد ، فقد كان وزيرا فى الحكومة التى قدر لها أن تخوض معركة ذلك اليوم ··

كانت أول حكومة عربية قد شكلت في سوريا بعد الحرب

العالمية الاولى بقيادة فيصل بن الحسين ٠ واعلن الانجليز تأييدهم لها اعترافا بجميل فيصل وأبيه الملك حسين حين وقفا مع الحلفاء خلال الحرب ٠

ولكن انجلترا كانت تلعب لعبتها المزدوجة كعادتها ، فقد كانت قد اتفقت مع فرنسا فى نفس الوقت على أن تترك لها سوريا ولبنان فى مقابل أن تترك فرنسا لانجلترا فلسطين والعراق ٠٠

وزحف الجنرال جورو الفرنسى على سوريا بجيش تعداده ١٠٠ الف مقاتل والحكومة العربية الجديدة ماتزال فى شهورها الأولى ، تحاول أن تلم شمل المواطنين ٠

ووجه جورو انذارا لفيصل ، الذى تجرأ واعلن استقلال سوريا العربية ٠٠ وتصميم الدولة الجديدة على تحرير الوطن العربى كله واحياء وحدته ، وكان الانذار يطالبه بتسريح الجيش وحل الحكومة ،

واحتارت الحكومة الوليدة ، أما فيصل فقد كان يميل الى الموافقة على بعض شروط الانذار ، وأرسل عميل الخيانة المبكر ، نورى السعيد ، لكى يفاوض الفرنسيين فى شروط وقف القتال ٠

وأما الحكومة ، فقد تحمس معظم أعضائها للحرب ، وكان اكثرهم حماسا يوسف العظمة وزير حربيتها ، وأرسلت الحكومة وزير المعارف ساطع الحصرى ٠٠ لكى يجس نبض الفرنسيين ٠٠

كانوا جميعا يعرفون أن استقلال سوريا الوليد لابد أن يضيع بين مكر بريطانيا وجشع فرنسا ، وكان أكثرهم يقينا هو يوسف العظمة ، وحين خرج يوسف العظمة يودع صديقه وزميله ساطع الحصرى ، الذاهب لمفاوضة جورو ، انتحى به جانبا ، وقال له :
ـ لاأريد منك الا شيئا واحدا ، هو ان تؤخر الفرنسيين ٢٤ ساعة حتى أنظم قواتنا ٠

وذهب ساطع الحصرى ، وتحايل على تنفيذ وصية يوسف العظمة ، وجمع يوسف قواته ، ووقف عند ميسلون ينتظر جحافل جورو ٠

وعاد المفاوض بعد أن أتم مهمته ، والتقى بالقائد الجسور وتسلم منه ابنته ليلى الصغيرة ، وكلاهما تخنقه العبرات ٠

وبدأت المعركة فى الصباح الباكر ، وانتهت فى العاشرة ، ووصل نعى يوسف القتيل ، بل المنتحر ، والشهيد على أى حال ٠

وانهدمت الدولة العربية الاولى ، وطرد فيصل ووزراؤه من الشام ، ولم يبق من أمجاد ذلك اليوم العظيم الا نصب تذكارى عند منعرج الجبل فى ميسلون ، وتمثال ليوسف العظمة فى ساحة نادى الضباط بدمشق ، وكتاب لساطع الحصرى ٠٠

الفكر ٠٠ الفكر !! ٠٠

وخرج فيصل تائها ، ثم مالبث أن حط رحاله فى العراق ملكا لها ، وكان ساطع الحصرى معه ٠

فى هذه المرة أخذ ساطع الحصرى يفكر ٠

لقد كانت الثورة مشتعلة فى الشام قلب العالم العربى ٠٠ ومع ذلك فان كثيرا من أجزاء العالم العربى ، لم تأبه بهذه الثورة

ومصر هى أكبر قطر عربى ، ولكنها لاتفكر قط فى مستقبل العروبة ، مع أنه لاخلاص للعروبة بغير مصر ٠٠

وفى العراق هذا البلد الجديد الذى نزل به ، تعيش كثير من النزعات الاقليمية البعيدة عن الاحساس العربى ٠

ان الأفكار لم تهيأ بعد لفكرة القومية العربية ، اننا نثور على الانجليز ، ونثور على الفرنسيين ، ولكننا نقدس الحدود التى رسموها لبلادنا ٠

ولابد من ثورة جديدة ·· ثورة دائمـــة ثورة فى الافكار والعقول ·· وفى هذه المرة اختار ساطع الحصرى نفس الحقـل وأدرك ساطع الحصرى من مناقشاته الاولى معهم أنه لن ينتهى الى نتيجة · فسكت على مضض ··

وفى يوم من الايام دعاهم ليستمعوا لشاعر شعبى عراقى ، وجلس الشاعر الشعبى ومعه أرغولة ، واخذ ينشد نشيدا ··

وصاح أحدهم : كما فى الصعيد عندنا ··

وابتسم ساطع الحصرى ، وهو يقول :

عندنا مثل عندكم ·· السنا وطنا واحدا ؟ ·

وظل ساطع الحصرى طوال تلك السنوات شديد الاتصـــال بالحياة الثقافية المصرية ، يكتب فى مجلات الرســـالة والمقتطف والهـــلال ، ويناقش قضـــايا الثقافة والفـــكر والعروبة فى كتبه ومناقشاته ·

وظل يوالى معاركه الفكرية حتى قامت ثورة رشيد عالـــى الكيلانى فى العراق ، فخرج من العراق ملتجئا الى لبنان ·

وقامت الحكومة الوطنية فى سوريا عام ١٩٤٥ وتولى ساطع الحصرى شئون التعليم ·

وكان أول مافعله هو تعديل المناهج ·· انه يعبر عن التعديل بكلمة « النسف » ويقول : ان ماحدث كان فى واقع الأمر نسفا للثقافة الفرنسية التى كان الاستعمار قد أرسى كيانها فى سوريا ··

واطمأن ساطع الحصرى قليلا · وخاصة حين خرج الدستور السورى يعلن ان الشعب السورى جزء من الأمة العربية ، وبعدها بعام كونت الجامعة العربية ، واجتمع فيها ممثلو دول العرب ··

قال لى ساطع الحصرى :

ـ كنت دائما افكر فى مصر ، وحين اعلنا اول حكومة عربية فى عام ١٩١٩ جئت الى مصر لأقتبس مناهج التعليم فيها ، ولألتقى بزعمائها • فوجدت الثورة المصرية مشتعلة الاوار ، وهلل قلبى لها •• ولكن حكومتنا مالبثت أن طردت من سوريا ، وعدت الى مصر مرة ثانية لأستعين بزعمائها ، ولكنهم كانوا لا يأبهون لنا ، ولايفكرون فى عروبتهم ، ثم خالطت مثقفى المصريين بعد ذلك عشرين عاما ، فوجدت العجب ، بعضهم يخلط بين العروبة والاسلام وآخرون يصيحون •• نحن مصريون ••

ولكنى لم أتشاءم •• ان العربى الذى لا يؤمن بالعروبة واحد من ثلاثة •• جاهل ، وهذا يجب أن نعلمه ، وغافل وهذا يجب أن ننبهه ، وخائن وهذا يجب أن نطرده ••

وكانت مصر غافلة ••

كانت تفكر فى معاركها فقط ، ناسية أن قوة العروبة قوة لها ، وأن قوتها قوة للعروبة ••

وقامت جامعة الدول العربية ، وتعثرت فى أول عهدها ، وقال الشامتون •• ألم نقل لكم ؟ هؤلاء هم العرب !! ونسوا أن الجامعة العربية لم تكن جامعة الشعوب العربية ، بلى جامعة الدول العربية ••

وانكسرت قوة العرب فى فلسطين ، وارتفعت ضجة الشامتين ونسوا الحقيقة الهامة ، وهى اننا انهزمنا فى فلسطين لأننا كنا سبع دول ، ولو كنا دولة واحدة فقط لما قامت اسرائيل ••

وعرف جمال عبد الناصر وزملاؤه هذه الحقيقة ، والتقت ثوريتهم بأفكار العرب فى كل مكان ••

وأضاء طريق المستقبل •• الى آخر مداه ••

أبو خلدون ..

قلت لساطع الحصرى :

ـ متى تتم الوحدة العربية الشاملة ؟

وقال :

قد يراها ابنى ، ولكن لا شك أن حفيدى سيراها ..

وسألته :

ـ هل لك حفيد ؟

ـ حفيدان .. عمر وعلى .. وأبوهما اسمه خلدون ، وسيكون اسم احدهما عندما يكبر « ابن خلدون » سيكتب تاريخ الأمة العربية الجديد ، كما كتب ابن خلدون تاريخ الأمة العربية القديم وابنى نفسه استاذ فى جامعة بغداد .. أو هكذا كان منذ ثلاثة أسابيع ، قبل أن يلتجىء الى لبنان ..

روز اليوسف ١٩٦٠/١/١١

نجحت الوحـــدة

هل نجحت الوحدة ؟ ٠٠

سؤال قد يلقيه الكثيرون من المعلقين السياسيين فى صحف الخارج اليوم ، ويحاولون الاجابة عليه ٠٠ أما نحن ، فقد لانلقى لهذا السؤال بالا ، لأن الوحدة لنا مسألة حياة ، والانسان لايسأل نفسه ، هل هو يعيش أم لا ، مادام يحس بأنفاسه تتردد فى عروقه ودمه يجرى فى شرايينه ٠٠

والوحدة ، بالنسبة لنا ، هى الوضع الطبيعـــى ، والتفرق والانقسام هو الوضع المقلوب ، وقد كان لابد أن تقف الأمة العربية على قدميها ، بعد ان كان الاستعمار يدس رأسها فى رمال صحرائها ولذلك كانت الدولتان اللتان سبقتا الى الوحدة ، هما مصر المستقلة وسوريا المستقلة ٠٠

ورغم ذلك ، فمن الواجب علينا ان نفكر فى هذا السؤال ، وأن نعرف اجابته ٠٠ لكى نستطيع أن نكشف عنها للعالم ولنعرف نحن أيضا ان الطريق الذى سلكناه نحو الوحدة كان هو افضل الطرق ٠٠

كيف يقاس النجاح ؟

أن الوحدة غاية ووسيلة فى نفس الوقت ، هى غاية لأنها نهاية طريق طويل من الكفاح ضد الاستعمار ، وهى وسيلة لأنها هى بداية الطريق الجديد لتدعيم هذه الحرية ، وتحقيق الرفاهية للانســـان العربى ٠

فكم اذن مشينا من الطريق الجديد فى خلال عامين ؟

لنعد بضع سنوات قبل الوحدة لنشهد القوى المتصارعة فى الوطن العربى ، وموقفها من حرية هذا الوطن ٠

كان النفوذ الغربى يصارع ليحتفظ بقواعده ويقدم مشروعاته المتوالية كحلف بغداد والدفاع المشترك وحلف البحر الابيض والحزام الافريقى ٠٠ ومشروع ايزنهاور ، وكل من هذه المشروعات يستهدف أقطارا عربية ، ويحاول ربطها بعجلة الغرب ٠

وكان وراء هذه المشروعات كلها نظرية غامضـــة ، سرعان ما اتضحت حين وجد لها ايزنهاور التعبير الملائم وسماها « بنظرية الفراغ » ٠٠

ومعنى هذه النظرية بأوضح عبارة وابسطها هو أن شعوب هذه المنطقة ٠٠ صفر ٠٠ وأنها لا تستطيع قط أن تملأ هذه المنطقة أو تدافع عنها ٠

وكان هناك أيضا تغلغل الشيوعية المحلية فى كثير من الاقطار ٠٠ والشيوعيون من أبناء المنطقة لايحسون بتبعيتهم لأوطانهم بقدر ما يحسون بتبعيتهم لدول أخرى ٠ وهم يتصـــرفون وفقا لتعليمات واجتهاد وتفسير الآخرين ٠

وكان معنى تصرفهم أيضا هو أن شـــعوب هذه المنطقة ٠٠ صفر ٠٠

ودخلت قوة القومية العربية ٠٠ كقوة ثالثة ، نابعة من نفس

الأرض التى جبل الشعب من طينتها ·· وأنتصرت هذه القوة الثالثة يوم اعلان الوحدة ، وولد الانسان العربى الحر ··

وكسبنا الحرية كشعور ·· حرية الناضج الذى يأخذها بيده، لا القاصر الذى ينالها بمعاهدات واتفاقات ، والحرية الكاملـة فى الشخصية والمعتقدات والتفكير ·· الحرية التى تميز صـاحبها ، وتخلع عليه أصالته وعرفنا عندئذ أن نتحمس لعروبتنا فحسـب ، والا نحس الا بها · وذلك ليس كسبا ضئيلا بل لعله أهم مكاسب الوحدة ··

واليك مثلا :

كان هناك من يقول : أنا فرعونى ومن يقول : أنا فينيقـى ، ومن يقول : أنا من أصل تركى ، ومن يقول : أنا افريقى ·

وكان هناك من يقول : أنا ميال للغرب ، ومن يقول : أنا ميال للشرق !

وضاعت كل تلك الكلمات ، ولم يبقى الا كلمة العروبة ·

ومنذ أسابيع حدثنى أحد الاصـدقاء العائدين من الغـرب قائلا :

لقد حاول الاستعمار ان يبث فى المغرب دعوة لما اسـماه « القومية المغربية ، وردد كثير من السذج هذه الكلمة ، ولذلك فقد كانت الفائدة المدققة لزيارة جلالة ملك المغرب للمشرق العربى أنه أكد اكثر من مرة ايمانه بالقومية العربية ووحدة مشاعر العرب من الخليج الى المحيط »

وحين ولدت الشخصية العربية الحديثة وتسلحت بحريتها ، لم تقف عند حد ، ورفعت قلاعها فى كل مكان ·

وروع اعداؤها · وحاولوا بكل جهودهم ان يوقفوا عقارب

الساعة ، ولذلك كانت المعركة بين القومية العربية وبين الشيوعيين المحليين ٠

وليس هناك فئة من الناس تشكو من « فقر الدم » القومـــى كالشيوعيين العرب ، وتاريخهم فى فلسطين والعـــراق والجزائر يدينهم بذلك ٠ وقد فوجئوا بانطلاق القومية العربية ، فحاولوا أن يحنوا لها رءوسهم ، ظانين أنها موجة وتهدأ ، فلما وجدوا الموجة أعمق وأقوى مما يظنون ، حاولوا الوقوف فى وجهها فى معركـة حاسمة على أرض العراق ٠٠

وفى كل معركة ، هناك تيار صاعد أبدا ، وتيار هابط ، ورغم أن التيارين قد يبدو أنهما متعادلان أو متكافئان ، الا أن من يمعن النظر يعرف أين يميل وجه التاريخ ٠

والتيار الصاعد الآن هو الوحدة لأن قاسم العراق وأذنابه من الشيوعيين والعملاء والانتهازيين يخشون زحف الوحدة ، أما نحن فلا نخشى شيئا ٠٠

أماالاستعمار الغربى فقد صفيت قواعده فى كثير من أقطار العرب ٠٠ ولكن الاهم أن قواعده الذهنية صفيت بعد الوحدة ٠ وملأ الانسان العربى بأفكاره ومثله العليا ، مكانه على خريطة العالم ٠

ولمعركة الحرية وجه ملموس ، هو اسرائيل ٠٠

ولاشك أن اسرائيل روعت بالوحدة وهى تفزع من كل تضامن جديد أو وحدة جديدة بين العرب ، لأن اسرائيل لم تستطع أن تجد لها مكانا فى أرض العرب الا فى ظل التفرقة ٠٠

واسرائيل الآن فى أزمة ، وزعماؤها أنفسهم لاينكرون ذلك ٠٠

انهم يرون جيشى الجمهورية العربية الاول والثانى ، يقفان على شمال اسرائيل وجنوبها ، ويرون العالم كله ، وقد بدأ يحاول

أن يتفهم موقف الجمهورية العربية المحايد بين المعسكرات الدولية ، ويحاول أيضا أن يقدر هذا الموقف ، وأن يتلاقى معه ، بعد أن فشل فى توجيهه لصالحه ٠

ويرون أيضا ـ وهذا أهم ـ ان الجمهورية العربية تنتقل الى ميدان تحقيق الرفاهية للانسان العربى ٠٠

وليس من الغريب أن يقع العدوان الاسـرائيلى الأخيـر فى أعقاب السد العالى وسد الفرات ، وتحسن العلاقات بين الجمهورية العربية وبين الغرب ، دون أن تتنازل الجمهورية العربية عن شىء من حقوقها أو أهدافها والتقارب الملمـوس بين الجمهورية العربية وبعض الدول العربية الأخرى ٠٠

ان كل هذه الخطوات الجديدة التى تمت فى الأشهر القليلة الماضية كانت اشارة البدء لنا ، أننا نتجه نحو اشتراكيتنا العربية ، التى ترفع من مستوى الانسان العربى ، وتحل له مشكلة الغذاء والمسكن والتعليم ، لينطلق بعد ذلك مستردا قواعده المسـلوبة ، وكانت أيضا اشارة البدء لاسرائيل أننا قد عرفنا الطريق لمواجهتها فى الجولة الحاسمة ٠٠

وحاولت اسرائيل بعدوانها الاخير أن تضع حصاة صـغيرة بين عجلات القطار الزاحف ، ولم يتوقف القطار وداس الحصاة ، ليدوس من بعدها على رأس اسرائيل ٠٠

والآن ٠٠ هل نجحت الوحدة ؟

قلبى وعقلى يقولان : نعم ٠ لقد رفعت رأسى ، واسـترددت عروبتى ، وملأ التفاؤل نفسى ٠٠

انى أحسن أنى أقف على بداية طريق مشرق طويل ، من علاماته

السد العالى وسد الفرات ومنخفض القطارة ، وفى نهايته وحـدة شاملة من الخليج الى المحيط وشعب عربى فى فلسطين يســترد أرضه ، وشعب عربى فى الجزائر يطهر أرضه · وخير يتدفق فى كل مكان ·

وأحس أيضا أن الطريق الذى سرنا فيه خلال عامين ·· كان طريق السلامة ··

صباح الخير ١٩٦٠/٢/٢٥

جريمة تحدث الآن !

انها ليست مؤامرة ! ..

انها جريمة .. جريمة محكمة ، والمجرم يغمس يده فى دم ضحيته ، وهو يبتسم ، ويحاول أن يخلع على وجهه ملامح الشرفاء ..

ان الاردن ـ التى تتبجح اذاعتها ، بحرصها على قضية فلسطين ، وتتطاول أبواقها الرسمية على رجل العروبة الأول ، قد عقدت الصفقة ، وسلمت اللاجئين ، وباعتهم الى اسرائيل ..

وقد نبعت خيوط المؤامرة من أرض الوطن السليب ، أو مابقى حرا من أرضه وتتبعت هذه الخيوط حتى امتدت نهايتها الى أصابع الملك الهاشمى الحسين بن طلال وخطة المؤامرة رسمتها الصهيونية العالمية وأقرتها الحكومة الامريكية وعهدت بتنفيذها الى حكومة الأردن وعملائها فى معسكرات اللاجئين ..

وهدف المؤامرة هو دفن قضية فلسطين .. ان قرارات الأمم

المتحدة تنص على عودة اللاجئين الى ديارهم ، وهذا هو مطلبنا العربى العاجل ، وحكومة الأردن تريد بذكائها الغـــادر وخططها الخبيثة أن تطرد اللاجئين عن ديارهم ، بل عن الأرض العربية كلها الى مكان بعيد .. بعيد .. وعندئذ تتلفت الأمة العربية ، وهيئة الأمم ، والضمير العالمى ، فلا يجـــد اللاجئين ولا ديارهـــــم ، ولا قضيتهم ..

لقد عينت الحكومة الأردنية عملاءها لكى ينبثوا بين صفوف اللاجئين ، ويقنعوهم ببيع بطاقتهم التموينية ، وهى الخيط الباقى الذى يربطهم بقضيتهم ، ويربطهم ايضا بأرضهم العربية ، وكل ذلك لقاء مائة وخمسين دينارا أردنيا تدفع للاجىء فيتنازل عن بطاقته الى الأبد ، وينتهى كل مابينه وبين وكالة الاغاثة ، وبين الأمــــم المتحدة ، وبين ضمير العالم ، ويسقط اسمه من عداد اللاجئين ..

وبعد ذلك ، تتولى الحكومة الاردنية مع الصهيونية العالمية ترحيل اللاجىء الذى تنازل عن كيانه الى أمريكا الجنوبية ، بعد أن تعد له حكومة الاردن كل الاوراق اللازمة ..

بل ان الحكومة الاردنية تدفع للاجىء المسافر ثلاثين دينارا كمعونة على السفر .. ومن الغريب أن الحكومة الاردنيـــة التى تدفع هى نفس الحكومة الاردنية التى تعتمد ميزانيتها اساسا على القروض الامريكية والانجليزية ..

وهناك مكتب فى بيروت ومكتب فى عمان ، وأسماء صاحبى المكتبين عندى — هذه المكاتب هى التى تتولى عملية بيع اللاجئين ، وتشرف على كليهما حكومة الاردن .

بل لقد ذهبت المؤامرة الى مدى أبعد !

ان عملاء حكومة الاردن يحاولون اقناع سكان الضفة الغربية

الذين تجاور حدودهم أسرائيل ببيع أراضيهم ، والهجرة عنها وكان المشترى دائما هو الحكومة الاردنية التى تريد أن تجعل من هذه الأرض مقرا لمشروعاتها فى التوطين ..

والوقائع تقول ان الحكومة الاردنية استطاعت فى هذه الفترة القصيرة أن تتولى ترحيـــل ١٢٧٥ لاجئا فلســطينيا الى فنزويلا والبرازيل .

هذه هى سياسة الحسين بن طـلال بن عبد الله الكبير (فى الخيانة طبعا) فى نجدة فلسطين وانقاذها .. ومؤامرة حسين هى المؤامرة الأخيرة حتى الآن ، ولكنها ليست هى المؤامرة الأولى .

ان واقع الامر أن الاردن قد قبلت توطين اللاجئين منذ زمن طويل ، وان لم تعترف بقبوله ..

والتوطين ، هو احلال اللاجئين فى الدول المضيفة لكـــى لايصبحوا شوكة فى حلق اسرائيل ، وتموت القضية وأصداؤها فى سمع الأمم المتحدة وضميرها .

وقد أعلن الملك الهاشمى ، ومجلس الجامعة العربية ينعقد لمناقشة قضية فلسطين فى الأسبوع الماضى ، فى تصريح مسموم ، أن كل فلسطينى قضى فى الاردن أربع سنوات يتمتع تلقائيا بالجنسية الاردنية .

ومعنى هذا الاجراء أن سكان الضفة الغربية الذين ضـمهم الملك عبد الله الى مملكته الصغيرة غدرا وعدوانا ، بعد تواطئه مع اسرائيل ، قد فقدوا كيانهم كفلسطينين ، بل انه يدعـــو اللاجئين أنفسهم أن يتنازلوا عن هذا الكيان .

ان الملك الهاشمى يتم ما شرع فيه أجداده ، ولهم فى خيانة القضية العربية تاريخ طويل .

ان فيصل هو أول عربى التقى بحاييم وايزمان زعيم الصهيونية العالمية فى عام ١٩١٨ ، وجلسا على مائدة واحدة ، وأعلن فيصل بعدها موافقته على منح فلسطين كوطن قومى لليهود ، وسلم فيصل لوايزمان رسالة خطية رحب فيها بتعاون العرب واليهود على بناء الشرق الاوسط تحت رعاية (بريطانيا العظمى) ٠

والأمير عبد الله ـ جد حسين بن طلال ـ اجتمـــع بعد ذلك بصديقيه وايزمان وتشرشل واتفقا منذ أربعين عاما على تســليم الضفة الغربية للاردن لليهود ، والضفة الشرقية له ، وخلع الامير عبد الله زيه التركى ، ولبس رداء ضابط فى الجيش البريطانى ٠

وحلقات الخيانة طويلة متصلة ، منها تسليم اللد والرملــة لليهود فى عام ١٩٤٨ وعقد مؤتمر « أريحا » الزائف الذى بايــع عبد الله بلقب ملك لضفتى الاردن ٠

وطرد نصف مليون عربى من وطنهم نتيجــة لخيانـــة الملك عبد الله ٠

واليوم يريد حكام الاردن استئناف حلقات الخيانة الموروثة ٠

ولكن الزمان غير الزمان ٠٠

ان الأمة العربية لم تعد كمــــا كانت ٠٠ ان رءوس الخيانة لاتستطيع اليوم أن تمضى فى خيانتها وتواطئها الى الابد ٠

ان أمر الخيانة لابد أن ينكشف ٠

وان لصبر الشعب العربى على الخونة مدى وبعده يرفع الشعب قبضتيه ليقول ٠٠ لا ٠

وقد تجرع الشعب العربى من خيانة الاسرة الهاشمية كثيرا ،

ووصل الصبر الى مداه ، ولن يســـمح لحفيدهـــا أن يخون بعد اليوم ..

والمؤامرة التى يحيكها الآن ليست مؤامرة صـــغيرة ، انها جريمة .. انها بيع ما بقى لنا من حق فى الوطن السليب .

والشعب العربى يقول .. لا ..

ولابد أن يسمع الرجل الصغير ، الجالس على العرش المنهار في الاردن ، كلمة الشعب الكبير .

روز اليوسف ١٩٦٠/٣/٧

بن جوريون يلتقى بديجول وماكميلان
بعد لقائــة بأيزنهــاور

ليس اسخف من قول بعض الصحف الغربية ان الجمهورية العربية المتحدة تثير الأزمات مع اسرائيل لكى تصرف الانظار عن المتاعب التى تلاقيها فى الاقليم السورى • والغريب أن هذه الحجة السخيفة تتردد فى اذاعات وصحف أوروبا وأمريكا كانها نوع من الحملة المنظمة ••

وسخافة هذا القول يثبتها امران : أولهمـــا ان الجمهورية العربية المتحدة لم تتخير اوان المعركة •• فقد بداتها اســـرائيل بعدوانها على المنطقة المنزوعة السلاح ، وقصف مدافعها لقريــة التوافيق وبيوتها القليلة المتناثرة •• بل لقد تبجحت اسرائيل لأول مرة فى حياتها ، فاعترفت بهذا العدوان ، وأدانتها لجنة الهدنــة عليه ، فلم تعبأ بتلك الادانة ••

وكان الموقف على الحدود العربية الاســرائيلية قبل العدوان على التوافق راكد ، فقد كنا ننظم شئوننا ونبنى اقتصادنا ، ونستعد لمواجهـــة كل أعداء العرب حين يحين الوقت ونحـن أقويــاء ••

واسرائيل هى الأخرى تحاول أن تدعم نشاطها الاقتصادى فى دول العالم المختلفة ، وأن تسبغ بعض الشرعية على وجودها ٠٠

كان الموقف عند الطرفين راكدا ، حتى اثارته اسرائيل بعدوانها على التوافيق ، وعندئذ انفجر البـــارود ، وتوتر الموقف ، ووقف الرئيس عبد الناصر وسط شعبه لكى يرفع روحه المعنويـــة ويعده للمعركة التى اختارت اسرائيل أوانها ٠

وعندما التقى الرئيس بشعبه ٠ وكان اللقاء اجماعا عاصفا مثيرا ، أدركت اسرائيل ان الحرب المحدودة وهم ، وأنها لن تستطيع أن تعتدى بنفس الطريقة التى كانت تعتدى بها فى المرات السابقة ٠٠ ثم تكسب من وراء هذا الاعتداء ، حين تهدم قرية ، أو تشرد سكان منطقة من فلسطين ، أو تغنم مساحة من الأرض ، وأدركت أن الحرب ، هذه المرة ، حرب شاملة قد تكون نهايتها دمار اسرائيل، وعندئذ ، وعندئذ فقط أخذت اسرائيل تتحدث عن السلام ٠٠

والأمر الثانى : ان الاقليم السورى مثل الاقليم المصرى ٠ يحس بأنه يحمل أمانة العروبة ، ويحس بأن الرئيس عبد الناصر هو قدر العروبة ورجلها ٠٠ وأنه أملها فى النصر ٠ واستقبالات الرئيس أوضح دليل على ذلك ٠٠

هذان الأمران هما اللذان ينقضان ما تقوله الأبواق والصحف الاستعمارية الغربية ، وهو قول تلتقى به هذه الابواق مع تصريحات شيمون بيرنز فى باريس وجولدا مايير فى تل أبيب وبن جوريون فى الولايات المتحدة حين يتحدثون عن السلام ، ويزعمون أن الجمهورية العربية كانت هى البادئة بحشد الحشود ، والاستعداد للمعركة ٠٠

وعلى أى حال فان السياسة الاسرائيلية قد انتقلت الى مرحلة جديدة بعد أن أدركت فشل سياسة الحرب المحدودة وترويــــج تلك الحجة هو بوادر المرحلة الجديدة ٠٠

والمرحلة الجديدة هى محاولة نقل القضية الى صعيد دولى ..
وتحويلها الى ورقة متداولة فى مؤتمر الأقطاب وفى السياسات الخارجية للدول الكبرى فى العالم ..

وقد استجابت دول الغرب لمحاولة اسرائيل حين أعلنت أن التصريح الثلاثى مازال قائما ، وأولئك الذين أعلنوا قيام التصريح الثلاثى واستمراره يدركون بلا شك أن فقراته الثلاث قد انتهكت مرارا فى السنوات العشر السابقة .. فقد انتهكت الفقرة التى تنص على خطر تسليح دول الشرق الأوسط حين تدفقت الأسلحة الامريكية والفرنسية والانجليزية على اسرائيل ، وانتهكت الفقرة التى تنص على عدم التدخل فى شئون المنطقة حين أعلن مبدأ ايزنهاور فى عام ١٩٥٧ وحين نزلت القوات الأجنبية أرض لبنان والأردن ، وانتهكت الفقرة الخاصة بالمحافظة على الحدود الراهنة لدول المنطقة حين قام العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، وطالب الحليفان : بريطانيا وفرنسا ، قوات العرب بالانسحاب الى غرب قناة السويس ، وكأن سينا ليست أرضا عربية ..

التصريح الثلاثى اذن قد مات كما قال الرئيس عبد الناصر ، ومحاولة احيائه محاولة فاشلة ، ولابد من تأكيدات جديدة لاسرائيل .. وقد ذهب بن جوريون الى أمريكا لكى يحصل على هذه التأكيدات ..

والأنباء تقول ان بن جوريون سيطير الى لندن فى السابع عشر من هذا الشهر لكى يلتقى بماكميلان ..

والأنباء تقول أيضا أن بن جوريون يبحث امكانيات لقائه بديجول فى النصف الثانى من هذا الشهر أيضا ..

والانباء تقول أخيرا أن بن جوريون وأديناور قد يلتقيان فى نيويورك أثناء وجودهما فى الولايات المتحدة ..

وفى نفس الوقت يعلن راديو اسرائيل أن ٣٠ مبعوثا اسرائيليا سوف يزورون ٤٥ دولة من دول العالم ، وأن على رأس هؤلاء المبعوثين موشيه ديان وزير زراعة اسرائيل الذى يطير قريبا الى أمريكا واليابان ..

فماذا وراء هذا النشاط الدبلوماسى الاسرائيلى ؟

ان وراءه رغبة فى بعث التصريح الثلاثى بصيغة جديدة وثوب جديد ..

وبعض المعلقين الاسرائيليين لا يكتمون رغبتهم فى أن يصبح التصريح الثلاثى تصريحا رباعيا ، وأن ينضم اليه الاتحاد السوفيتى ..

وهذه الرغبة سهم يشير الى اتجاه اسرائيل .
والاتجاه هو : مؤتمر الاقطاب ..

والآن لنا ان نتساءل .. ماذا تريد اسرائيل من نشاطها الدبلوماسى ، ومن مؤتمر الأقطاب ، ومن لقاء رؤسائها ووزرائها بديجول وماكميلان وايزنهاور واديناور ؟

ان اسرائيل تريد من الدول الكبرى ، وخاصة دول الغرب أن تضغط على العرب لتفرض عليهم الصلح مع اسرائيل ..

واسرائيل تخشى اذا لم يعقد الصلح فى وقت قريب الا تمر سنوات قليلة الا وتزول اسرائيل وتمحى .. فهى تريد أن تستغل رغبة العالم فى السلام لكى تدخل قضيتها بالتدليس على مؤتمر الأقطاب ، ولكى تخدع العالم وتوهمه ان قضيتها جزء من قضية السلام ..

وزعماء اسرائيل يستجدون الضغط على البلاد العربية ، كما يستجدون السلاح والأموال والمعونات .

ان سياستنا واضحة ، فنحن نعلن أن الصلح مع اســـرائيل مستحيل وان المعنى الوحيد للسلام هو عودة الأرض الى أصحابها، وان التصريح الثلاثي عدوان ثلاثي ، مهما غير من ملامحه ، وتنكر فى ثوب جديد ٠

وهذا هو ماقاله عبد الناصر للعالم كله فى خطبته الأخيرة ٠٠

صباح الخير ١٩٦٠/٣/١٠

الذكاء : السلاح الجديد فى معركة الجزائر

معركة أخرى ، تدور الى جانب المعركة الحربية فى الجزائر ، وسلاح المعركة الجديد هو ٠٠ الذكاء ٠٠

هى معراكة بين دهاء ديجول السياسى وبين مبادرة الحكومة الجزائرية وجبهة التحرير لكشف ذلك الدهاء ٠

انها معركة أذكياء ، لامحاربين ، وديجول يطمع فى ان ينتصر بهذا السلاح الجديد بعد أن فشل فى أن ينتصر فى حرب دامت خمس سنين ونصفا ٠٠

ولكن الدهاء فشل ، تجاه المبادرة والصراحة ، والاتجاه المباشر لمخاطبة الرأى العام فى الجزائر ، وفى فرنسا نفسها ، وفى كل بقاع العالم ٠٠ هو الاتجاه الذى التزمته جبهة التحرير ٠٠

ولذلك عاد ديجول مسرعا الى سلاحه القديم ، وابتلع الوعود التى بذلها باجراء استفتاء لتقرير المصير فى الجزائر ، وبالوقوف فى وجه غلاة المتوطنين ٠٠ عاد مرة ثانية ، نازيا بربريا كما كان ، وأعن فى الاسبوع الماضى بيانا اثار دهشة الحلفاء قبل الاعداء ٠٠ أعلن أن فرنسا ستبقى فى الجزائر ، وانه يأمل فى وضع نهاية للحرب بعد نصر عسكرى ٠

وكان تصريحه الأخير صدمة ، وتساءل الكثيرون : لماذا اذن حارب ديجول ثورة الغلاة من الفرنسيين المتوطنين فى الجزائر ولماذا اعتقل أورتيز وطارد لاجيارد ، ولماذا طرد سوستيل من الوزارة بل لماذا أعلن حق تقرير المصير فى بيانه الشهير منذ ستة شهور ؟

وقال البعض :

ان ديجول كان يظن نفسه أقوى من المتوطنين ٠٠ كان يريد أن يتمتع بالنفوذ الحقيقى لرئيس دولة ، وان يحكم فرنسا من باريس لا من الجزائر ، وان يثبت انه أقوى من ادجار فور وفليملان اللذين أسقطهما غلاة المتوطنين الجزائريين،وأن يثبت أن جمهوريته الخامسة أقوى من الجمهورية الرابعة التى سقطت يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ لأن المتوطنين ثاروا ضدها ٠

ولكن قوة ديجول صادفت امتحانا عسيرا ، حين تكررت ثورة المتوطنين ٠ وحاول ديجول أن يتحرر من جميل أولئك الذين رفعوه من هاوية النسيان الى الحكم فاذا بجميلهم مازال يطوق عنقه بسلاسل من حديد ، واذا بهم هم القوة الوحيدة التى تساند حكمه ، والتى تستطيع فى نفس الوقت أن تتخلى عنه ، فتعود به الى هاوية النسيان ٠

فديجول اذن ، تبعا لهذا القول رجل طيب ، ولكنه ضعيف ٠

ولكن الواقع أن ديجول ليس طيبا ، وان كان ضعيفا ، وهو ليس ضعيفا ضعفا شخصيا ، ولكنه ضعيف لأنه رئيس دولة ضعيفة، وممزقة ، وحائرة ، ولأنه هو الشاهد الاخير على ضعفها وتمزقها وحيرتها ٠٠ انه الرجل الذى اختاره الزمن لكى يسترد فى عهده ما سلبته بلده من قديم ٠

وديجول يعلم أن هذه هى ارادة القدر ولكنه يأبى الا أن يبحث عن حل ثالث ٠

وقد كانت تصرفات ديجول السياسية من سبتمبر عام ١٩٥٩ حتى الآن مجرد محاولة للبحث عن حل ثالث ٠

وهذا التاريخ الذى أذكره هو تاريخ اعلان مشروعه لانهاء الحرب الجزائرية وفى ثنايا هذا المشروع كان يكمن الحل الثالث ، لقد نص المشروع على استفتاء شعب الجزائر ، والاستفتاء عادة يكون بين أحد أمرين ٠٠ اما الاستقلال واما البقاء تحت سيطرة الدولة المستعمرة ، وفى حالة الجزائر أطلق على الاستعمار كلمة « الاندماج » أى الاندماج فى فرنسا ٠٠

وكان المتوقع أن يكون الاستفتاء بين هاتين الكلمتين ٠٠ الاستقلال أو الاندماج ٠٠ ولكن ديجول اقترح طريقا آخر ، وهو التقسيم ، أى تقسيم الجزائر بين التسعة ملايين عربى مسلم وبين المليون مهاجر أوروبى فرنسى وايطالى ويهودى وغيرهم من اشتات الأمم ، وكان المشروع ينص فى حالة قبول التقسيم على أن يترك الساحل الخصب والصحراء الغنية بالبترول للمتوطنين ، وأن ينال العرب المسلمون أرض الوسط الجرداء ٠

ورفض الجزائريون مشروع ديجول ، وقدموا مشروعا مضادا رحبوا فيه بعرض تقرير المصير ، واتضح بين سطور بيانهم انهم كشفوا الخديعة المختفية وراء عرض ديجول ، فاقترحوا ضمانات لتقرير المصير ، منها ان لا يتم الاستفتاء تحت اشراف الجيش الفرنسى فى الجزائر ، وهو الجيش الذى يحاربونه خمس سنوات ونصف ، وأن يستبعد التقسيم من شروط الاستفتاء ، فالجزائر لن تصبح « بلقان » أو « اسرائيل » أخرى كما اشترطوا اطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين ٠٠ وان تتكافأ الفرص بين العرب والمتوطنين فى الدعاية والاجتماعات قبل اجراء الاستفتاء ٠٠

وكانت خطوة بارعة من حكومة الجزائر المؤقتة ، فهم لم

يرفضوا اليد التى مدها ديجول ، ولكنهم مدوا أيديهم هم الآخرون بشروط أكثر عدلا وانصافا ..

بل لقد وجه فرحات عباس رئيس الحكومة بيانا الى الأوروبيين من سكان الجزائر دعاهم فيه الى التعاون مع العرب والمسلمين فى بناء الجزائر الجديدة المستقلة ، وطمأنهم على وضعهموأموالهم اذا اختار الجزائريون الاستقلال ..

وبادر ديجول فأشاع فى الجو السياسى حديث المفاوضات المقبلة ، وأوحى لبعض أبواقه أنه لا يعترض فى المفاوضات الا على شخصية بن بللا كرئيس لوفد المفاوضات .

واعلنت بعض مصادر جبهة التحرير أنها لا تصر على رئاسة بن بللا لهيئة المفاوضة ، وأن من سيشتركون فى المفاوضات هم كريم بلقاسم وبن طوبال وبوصوف من زعماء الجبهة ..

وكان وراء هذه الشائعات التى اطلقها ديجول مناورة جديدة .. غايتها البحث عن كتلة ثالثة .

كتلة من الجزائريين العرب ، تنشق عن اجماع جبهة التحرير، وتضغط على زعمائها ، وتمثل الجزائر فى المفاوضات ، ويعتمد عليها ديجول فى تزوير رأى الجزائر ، وفى اسباغ صفة الشرعية على اجراءاته المزيفة ..

واعلن قادة الجزائر ردا على شائعات ديجول أن المعركة الآن لا تدور من أجل الاستقلال وتمثيل الجزائر ، ولكنها تدور من أجل « بطاقة الانتخاب » ، وأن الوفد المفاوض لن يبحث مستقبل الجزائر ، ولكنه سيبحث تنظيم عملية تقرير المصير وضمان حرية اجراء الاستفتاء ، فهو وفد شبه فنى .. لا وفد سياسى ..

وانسد الطريق فى وجه ديجول ، ولم يفلح ذكاؤه فى خلق الكتلة الثالثة ، أو لفت الأنظار الى الحل الثالث ..

وفى تلك الأثناء قامت ثورة المتوطنين فى الجـــزائر ، تلك الثورة التى تزعمها ماسو الذى رفع ديجول الى الحكم ، وسوستيل وزير ديجول ، وكان من أنصارها وزراء فى وزارة ديجول ، بل لقد تردد أن رئيس وزارته نفسه ، ميشيل دوبريه ، الذى مازال فى منصبه الى الآن ، كان طابورا خامسا للثوار فى قصر رئاسة الجمهورية ..

ومهما كانت هذه الثورة ، فهى لم تكن ضد ديجول ، بل لقد ابتلع ديجول . فى ضجيجها كل ماسبق أن أعلنه من تصريحات حول حق تقرير المصير .

لقد عاد ديجول فارتدى الزى العسكرى لماريشال فرنســا ، وأعلن أن الجيش الفرنسى لن يخرج من الجزائر ..

لقد لبس ديجول جلده القديم .. لأن جلد التنكر لم يخدع أحدا ..

ووقف ديجول ، ووقفت الجزائر أمام حلين .. اما الاستقلال واما « الاندماج » أو بالأحرى الاستعمار ..

اما الجزائر الواحدة الموحدة .. واما لا جزائر ..

ولن يموت شعب لم يخلع ثياب المعركة خمسة وستين شهرا .. كل يوم منها انتصار .

روز اليوسف ١٤/٣/١٩٦٠

ســـر التراجــع

كانت مقدمات العدوان عام ١٩٥٦ هى نفس المقدمات ٠٠

تحدثوا أولا عن الملاحة وحريتها فى القناة ، ثم ما لبث الموقف ان تطور الى تحالف عسكرى بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، والى معركة غادرة انتصرنا فيها لأننا أقوى مما يظنون ٠٠

وحين فشل العدوان أصبح واضحا ان الحديث عن الملاحة وحريتها لم يكن الا مجرد تبرير زائف التقت عنده مطامع اسرائيل، ورغبة الغرب فى استعادة نفوذه فى الشرق الاوسط ٠٠

وعاد الحديث عن الملاحة وحريتها مرة ثانيــــة هذه الأيام ، ونشبت معركة المقاطعة التى كان العرب يديرونها من موانيهم ٠٠ واليهود يديرونها من موانى الولايات المتحدة ٠ والمعركة لم تكـن جديدة ، بل كانت حلقة من حلقات الصراع الطويل بين العرب ، وبين الصهيونية العالمية حين تبحث لها عن حليـف فى جبهـــة الغرب الواسعة ٠ ٠

وتأزم الموقف ، وبدا أن اسرائيل قد عثرت على الحليف الأقوى فى جبهة الغرب ، وهو الولايات المتحدة الأمريكية ٠٠

وكان قرار الكونجرس نوعا من التأييد العلنى لاسرائيل ٠٠

وكانت صفقة الأسلحة ، وخاصة فى هذا الوقت ، تأييدا علنيا أخر ٠٠

وكان تصريح ايزنهاور الذى قال فيه انه لا يرى الا القوة سبيلا لحل هذه المشكلة ، وان كان لا ينصح باستعمالها ٠٠ كان هذا التصريح نوعا من التأييد الغامض لاسرائيل ٠٠

كانت الصهيونية العالمية تتحفز اذن وتحاول ان تورط حلفاءها فى المعركة ٠

فهل كان استعمال القوة هو خطتها ؟

وما سر العدول المفاجىء عن قرار المقاطعة ، وسرُ تخلى القوة السياسية الغربية عن تأييد اسرائيل فى هذه المعركة ٠٠

لقد قاس خصمنا قوتنا وقوته قبل ان يقرر المضى معنا فى المعركة الى نهايتها ٠

وتراجعه كان أكثر افصاحا عن خطته من المضى فيها ٠٠

ان دراسة اسباب انتصارنا عام ١٩٥٦ ٠٠ ونجاح تجربة المقاطعة كان دليلا ناصعا أمام عينيه على ان انتصارنا مازال هو الاحتمال الأرجح ٠٠

فقد انتصرنا على العدوان عام ١٩٥٦ لأننا مؤمنون بحقنا ، والايمان لم يتغير ، ولأن العرب كلهم ، شعوب العرب ، من المحيط الى الخليج تضامنت معنا ٠٠

وقد تكون السنوات القليلة الماضية أوهمت بعض الناس ان التضامن العربى قد وهن ، وخاصة بعد الخلافات التى ثارت بين بعض الدول العربية حول القضايا المحلية ، ولكن نجاح

المقاطعة اثبت بما لا يدع مجالا للشك أن التضامن قد صار أقوى ، وان حماس الشعب العربى ويقظته واندفاعه مازال فى مستوى المعركة ٠٠

وانتصرنا أيضا بفضل تضامن شعوب آسيا وافريقيا معنا ٠٠ وقد حاولت اسرائيل خلال السنوات القليلة الماضية أن تتسلل الى قلب هذه الشعوب الجديدة الناهضة ، ولكنها فشلت رغم بعض ما حققته من نجاح اقتصادى ، وأوضح دليل على فشلها أنه فى نفس أسبوع المقاطعة احتفلت وفود القارتين بيوم افريقيا فى الأمم المتحدة فلم يدع مندوب اسرائيل الى الاحتفال ، وكان المندوب الآخر الذى لم توجه اليه الدعوة هو مندوب جنوب افريقيا ٠٠

وهذان امران يدخلان فى التقدير ، والأمر الثالث ، والأهم ، هو أن قضية فلسطين ـ بعيدا عن الدعاية الصهيونية المضللة ـ قد أصبحت أكثر وضوحا حتى فى ذهن الرجل الأمريكى نفسه ، وأوضح دليل على ذلك هو موقف السيناتور فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية الذى قال لأول مرة فى الكونجرس الامريكى أن على السياسة الامريكية ان تتحرر من نفوذ الدعاية الصهيونية والصوت اليهودى فى الانتخابات ٠٠ وطالب بلاده بأن تفكر فى اعادة اللاجئين الى ديارهم ٠٠

نحن الآن اذن أقوى مما كنا فى عام ١٩٥٦ ، وأى خصم يحسن حساب أرباحه وخسائره لا يستطيع أن يفكر فى استعمال القوة ضدنا ٠٠

ولم تكن الخطة اذن مثل خطة عام ١٩٥٦ لأننا مازلنا أقوياء ٠

ولكن الخطة الفاشلة كانت تتجه اتجاها آخر ٠٠

لقد حاول اليهود التأثير أولا على عمال فنلندة ، ثم السويد ، ثم الولايات المتحدة الامريكية ٠٠

وأختيار الولايات المتحدة له دلالة هامة ٠٠ فهى دولة كبرى ، ولها مصالح فى البلاد العربية ، وقد مرت ٦٠٠ سفينة أمريكية خلال القناة فى العام الماضى ، كانت تحمل من شحنات البترول وحده ٨ مليون طن خام مسافرة الى أمريكا ٠٠

ان اختيار الولايات المتحدة وتضليل عمالها يرفع القضية تلقائيا الى أعلى قمة الأحداث ، ويرشحها لأن تصبح معروضة على مؤتمر القمة ، أو مؤتمر الاقطاب ، ويبرزها أمام انظار العالم كله ٠٠ بدوله ٠٠ ومنظماته ونقابات عماله ٠٠

فمصالح أمريكا ٠٠ أمريكا الدولة الكبرى ٠٠ هى المهددة بالخطر ٠٠

كان اليهود يريدون تدويل القضية عن هذا الطريق ، واستصدار قرار باباحة عبور سفن اسرائيل لقناة السويس ٠

والعرب عندئذ امام أمرين ٠٠

فاما أن يرضخوا للقرار ، وعندئذ فعفاء على القومية العربية والتضامن العربى ، وحلم اللاجئين بالعودة لفلسطين ٠٠ وليعد الاستعمار الى قواعده على اشلاء الهزيمة الأدبية الكبرى للعرب ٠٠

واما أن يعارضوه ، فيقفون عندئذ فى وجه هذا العالم ٠٠

ولكن حتى هذا لن يكون ٠٠

لأن اسرائيل انهزمت أيضا هذه المرة ، ولأن الضمير السليم

تارة والتفكير السـليم تارة اخـرى قد اقنـع الامريكيين بانهاء المقاطعة ..

وفشلت الخطة ، وابتلعت اسرائيل هزيمتها ..

وشكرا للأحداث التى صنعت المقاطعة .. وللمقـاطعة التى صهرت العرب جميعا فى جسد عمـلاق واحد ، من الخليـج الى المحيط ..

روز اليوسف ١٩٦٠/٥/٩

مدينــة غارقــة فى الظــلام

هل تقف الاضطرابات فى تركيا عند هذا الحد ؟ ٠٠

وهل يستطيع الحزبان المتنافسان أن يعودا الى التعاون بعد أن سالت بينهما الدماء ، أم أن من الضرورى : اما أن تقتل الحكومة المعارضة ، أو أن تعود المعارضة الى الحكم على أشلاء قتلاها ٠٠

ان المعلقين الغربيين يقولون ان كلا من الجبهتين قد استفادت بعض الدروس من الحوادث الأخيرة فقد أدركت الحكومة ان عليها أن تكون أكثر مسالمة ومهادنة ، وأن تزيف الانتخابات ٠٠ ولكن الى حد ، وتحكم بالقوة ، ولكن فى قفاز من حرير ٠

أما رجال المعارضة وزعيمها عصمت اينونو ، فلا بد انهم قد ادركوا أن مضيهم فى اثارة الاضطرابات لابد ان يقف عند حد أيضا ، لأن هذه الاضطرابات قد لاتقوض حكومة مندريس وحدها ٠ بل ربما قوضت ولاء تركيا للعرب ، ووضعهما فى حلف الاطلنطى ، وتبعيتها لمعسكر « العالم الحر » ٠٠

وهذا مايحرص الجانبان ــ الحكومــة والمعارضــة ــ على الابقاء عليه ٠٠

وبمناسبة العالم الحر فان اكثر مايستهوى المعلقين السياسيين فى التراجيديا التركية الأخيرة ، كان هو توقيتها ..

لقد وقف ممثلو الجبهة العريضة للعالم الحـــر فى اجتماع مجلس وزراء خارجية حلف الأطلنطى فى اثناء اجتماعهم بانقره واطلوا من الشرفة ليجدوا المدينة الصخرية الكبيرة غارقة فى ظلام منع التجول وقوانين المشبوهين السياسيين ..

ولابد أن أحدا منهم سال نفسه فى ذلك الوقت : أهذه هـــى سمات العالم الحر الذى اتينا لنجتمع باسمه ؟

ولابد أن أحدا منهم أيضا سال نفسه : هل هناك رابطة ما ، أو علاقة ما ، بين مايجرى فى كوريا الجنوبية ، من طرد سنجمان رى ، والنهاية الأليمة لنائبه وبين مايجرى من الاضـــطرابات فى تركيا .

وهل الدول الصغيرة فى « العالم الحر » على أبواب أزمة ؟

وربما كان بعض الممثلين الكبار لدول الغرب قد فكروا فى ان من الأصوب تنحية عدنان مندريس ليحل محله رجل آخر يستطيع ان ينهض بالحكم ، ويكون قريبا من الشعب التركى كما هو قريب من الغرب ..

ربما كانت حلول كثيرة للأزمة التركيــة تطوف الآن بأذهان مندوبى الغرب الكبار ..

ولكن الحل الوحيد الذى لن يخطر على بالهم هو أن يتركوا هذا العالم حرا .. حقيقة .. لاخداعا وأن يسمحوا لســـكانه فى آسيا وأفريقيا أن يعرفوا الحرية . ويجربوها ، يعيشوها !

روز اليوسف ١٩٦٠/٥/٦

بأيــة لهجــة سيتكلم خروشــوف ؟

لخروشوف لهجتان يستعملهمـــا فى الحديث الى الغرب ٠٠ اللهجة الأولى نغمتها الافتتاحية : نرحب بصـــداقتكم ٠٠ نتمنى التعاون معكم ، وترتفع النغمة حتى تصـــبح فى دفء الغزل بين الحبيبين ٠

واللهجة الثانية نغمتها الافتتاحية : ســنعيش لندفنكم ٠٠ سندمركم بالصواريخ ٠٠ وترتفع النغمة الحادة ، وتمتلىء نبراتها بالتهديد ٠٠ والغيظ ٠٠ والاحتقار ٠٠

وخروشوف يستعمل كلا من اللهجتين بتكتيك ٠٠ ونظام ٠٠ وليكسب الموقف ٠

وقد افتتح خروشوف مؤتمر الاقطاب بعمل مذهل ٠٠

انه ينظر الى أمريكا من فوق سفينة الهواء ، وهو مرتفع الرأس وأمريكا ترقد تحت أقدام المؤتمر مدموغة بتهمة التجسس ، ووثائق التهمة هى حطام الطائرة ، وجسد الطيار ٠

لم يبدأ خروشوف المؤتمر بداية دبلوماسية ، يتبـــادل فيهـــا الاقطاب عبارات المودة ، وتدور الأنخاب على الحاضرين ، وتهتف الافواه بالصداقة ٠

لقد عاد خرشوف عاملا من أوكرانيا ، كما بدأ حياته ، يرفض أن يمد يده الى خصمه ٠٠ ويسحب دعوته لزيارته ، ولا يبالى بما فى ثنايا عباراته من اهانة ، والطريف حقا أن عودة خروشوف الى بساطته وقسوته الاولى كانت كاملة ومسحت على أربعين سنة من الدبلوماسية والتمرس بالحكم والماركسية ، حين وقف كأنه « ابن بلد » عريق ليقول :

« أشهد الله ٠٠ ان قلبى نظيف ، ويدى نظيفة كذلك ٠٠ »

وكأنه « يلقح » بالكلام على كل من ليس قلبه نظيفا ، ويده نظيفة ٠٠

ولكن الخصومة بين خروشوف وايزنهاور ، ليست خصومة شخصية ، ومؤتمر الاقطاب ليس مؤتمرا خلقيا لتبكيت الضمائر ، ولكنه فرصة للعالم كله لكى يسوى مشاكله ، ويتغلب على العقبات التى تقف أمام فرص السلام ٠

وخروشوف يعلن ذلك ، فلماذا يعرض المؤتمر اذن للتدمير ؟

ان خروشوف يعلم ان المؤتمر لن ينجح فى حل المشاكل الماثلة أمامه ، أو هو لا يتوقع للمؤتمر كثيرا من فرص النجاح ٠

والمشكلة الاولى المعروضة أمام المؤتمر هى مشـــكلة توحيد المانيا ٠

وتوحيد ألمانيا رغبة يبديها الجميع ، من الروس الى الانجليز والفرنسيين ٠٠ الى الامريكان ٠٠ ولكن ليس لدى أى منهم خطة واضحة لاجراءات هذا التوحيد ٠

وليس لدى أديناور نفسه هذه الخطة ٠

ولذلك فان مشكلة توحيد ألمانيا ، لو طرحت على بساط البحث

ستكون مجالا لتبادل الاتهامات بين الشرق والغرب ، وسيتهم كل منهما الآخر بعرقلة وحدة الشعب الألمانى ، ثم ينفض المؤتمر على قرار تأجيل بحث هذه المشكلة ٠

والمشكلة الثانية أمام الاقطاب هى مشكلة نزع السلاح ، وايقاف التجارب الذرية ٠٠

والتجارب الذرية نوعان : نوع يجرى فوق الارض ، حيث يمكن احكام الرقابة عليه ٠٠ ويستطيع التفتيش الجوى أن يكشفه ، ونوع يجرى فى الدهاليز والسراديب ٠

ومن الممكن أن ينزع السلاح فوق الأرض ، ولكنه لن ينزع من تحت الأرض ٠

ومن الممكن تدمير القنابل الذرية فى مخازن الاقطاب ، ولكن من المستحيل نزع سر تدمير الذرة من عقول العلماء ، فى بلاد الاقطاب ٠٠

والمؤتمر لم يكن ليحقق كثيرا من الآمال التى يعلقها عليه العالم ٠

وقد يكون خروشوف ، باستعماله اللهجة الثانية ، الى آخر مداها ، يريد أن يلقى تبعة فشل المؤتمر ٠٠ على أمريكا وحدها ، بدل أن يتقاسم الأقطاب الاربعة عبء هذه المسئولية ٠٠

رجلنا ٠٠ فى هافانا

للكاتب الانجليزى « جراهام جرين » مؤلف قصة « الامريكى الهادىء » التى يتحدث فيها عن دور أمريكا فى الهند الصينية قصة جديدة ، صدرت بعد « الامريكى الهادىء » اسمها « رجلنا فى هافانا » ٠٠

القصة عن جاسوس انجليزى فى أمريكا اللاتينية ·· رجل فقير فاشل عاجز عن الحياة ، وجد سبل العيش مقفلة امامه ، والتقطته المخابرات الانجليزية وقالت له : كن جاسوسا ·· فكان ·

والرجل يسافر الى هافانا ، ويرسل فى طلب النقود من حكومته ، ويبعثر هذه الأموال على نفسه ، زاعما انه يبعثرها على العملاء المزعومين ويلتقط معلوماته السطحية الضئيلة من عرض الطريق ، فيبرق بها الى رؤسائه ، موهما اياهم انه قد أصاب كبد الحقيقة التائهة :

وقصة هذا الرجل هى قصة الغرب : أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول الاستعمارية حين تفاجأ بظهور القوى الشعبية الجديدة فى افريقيا وأمريكا اللاتينية ، فلا تحاول أن تقطع نصف المسافة لتلتقى بهذه القوى الجديدة ، على صعيد المودة والصداقة المتبادلة ، بل تحاول تخريب الثورات بالتآمر والتجسس واثارة الاضطرابات ·

وأخبار الصحف الآن بالنسبة لغانا وغينيا وكوبا وبناما وغيرها من البلاد الجديدة ، حافلة بحكايات المؤامرات والدسائس ضد نكروما وسيكوتورى وكاسترو وغيرهم ، وكل هذه المؤامرات تفتضح ، لأن الذين ينفذونها ، مثل هذا الرجل فى هافانا · مجرد مرتزقة ، يخدمون كلا الخصمين ، ويعملون على الوجهين ·

آخر اقتراح تقدم به خروشوف للقضاء على طائفة الجواسيس هو أن توحد كل من روسيا وأمريكا ادارات التجسس عندها · وأن تكون لهذه الادارات ميزانية واحدة ، لأن هذا أوفر أولا ولأن كلا من الدولتين تعتمد على نفس الاشخاص ·· ثانيا ·

موت ·· على خان

كان من الغريب أن يموت على خان على سريره أو يعيش الى الثمانين ثم يذوى بالشيخوخة والربو وضغط الدم ، لأن موت أى انسان يكون هو اللمسة الأخيرة فى حياته ، هو الذى يبرز معناها ··

ان موت أى انسان ، فى القصة التى تنسجها الاقدار لكـــل منا ، يجب ان ينسجم مع حياته ·

سقراط مات بالسم ، فاصبح رمزا للاستشهاد فى ســـبيل الفكرة ، وبرناردشو مات فى التســـعين وهو يكتب فكان رمـــزا للخصوبة المتجددة التى لايعرفها الا القديس أو النبى ، وعلى خان مات فى حادث سيارة ، مثلما مات البير كامى وجيمس دين ، فكانت ميتتهم تتويجا لحياتهم ، واطارا لها ··

فيلسوف العبث ·· مات عبثا ··

رمز العبث ·· مات عبثا ··

أكبر رجل عابث فى العصر الحديث ·· مات عبثا ·

صباح الخير ١٩٦٠/٥/١٩

بعد أسبوع ترفع راية جديدة فى افريقيا

منذ حوالى ثلاث سنوات سقط لنا شهيد على هذه الأرض ..

كانت الشمس الافريقية فى الظهيرة ، والطريق الرئيسى فى المدينة يموج بالناس ، وفجأة امتدت يد تحمل خنجرا لامع النصل ، وأخذت تغمده أكثر من مرة ، فى صدر الرجل وظهره ، وسقط الرجل ..

وسال دم عربى على أرض الصومال .. فى سبيل استقلالها، وكان هذا الدم تتويجا لدور مصر ، والجمهورية العربية من بعد ، فى سبيل استقلال الصومال ..

الصومال : الدولة التى سيعلن استقلالها بعد أسبوع ، وسيرفع علمها الأزرق الذى تتوسطه نجمة مخمسة بيضاء ، مكان العلم البريطانى والايطالى على أرضها ، وستنضم الى ركب الدول الافريقية المستقلة ..

ولكن طريق الاستقلال لن يكون سهلا أمام الصومال ، لأن الأيدى التى امتدت لتقتل شهيدنا « كمال الدين صلاح » ، والتى كشف التحقيق عنها دون أن يستطيع أن يكشف عن الساعد الذى

خراكها ودفعها ، هذه اليد ستمتد مرة ثانية ، وستحاول أن تضع العراقيل فى سبيل استقلال الصومال ووحدته ..

وفى نفس الوقت الذى يستعد فيه الصوماليون لاعلان دولتهم الجديدة ، يفكر صناع المؤامرات والاستعماريون فى خططهم القادمة وتتناثر أصداء مؤامراتهم وتنكشف ظلالها ، أحيانا على وجه الصحف البريطانية والفرنسية والايطالية فى الآونة الأخيرة ..

والنغمة السائدة : هى أن شعب الصومال شعب بكر ، وفقير فى الخبرة ورأس المال ، ولا يستطيع أن يحسن استغلال ثرواته من الحديد والبترول والزيوت والثروة المائية ، ولذلك فهو فى حاجة الى خبرة أوروبا ونصائحها .

والنغمة الثانية : أن شعب الصومال شعب متفرق تتنازعه العصبية القبلية ، وانه لم ينضج بعد الى الدرجة التى تنصهر فيها كل القبائل فى وحدة قومية . وهذا الاختلاف قد يثير حربا أهلية بين سكانه .. وهى نفس ما يقال عن الكونغو وكينيا ..

والأطماع تحوط بالصومال من كل جانب ؟ من ايطاليا وبريطانيا وأمريكا والحبشة وفرنسا .. واسرائيل ..

ولكل من هذه الجبهات الاستعمارية هدف ومأرب ، ولكنها تلجأ فى بعض الأحيان الى تنسيق مآربها ، حتى تستطيع أن تفوز بالغنيمة ..

وكثيرا ما يتفق اللصان اذا كان المسروق يقظا ، والغنيمة ضخمة ..

وقد كانت الصومال تعيش بعد الحرب العالمية الثانية فى واقع مرير ، وحلم مشرق ..

أما الواقع فهو أن الصومال مقسم الى خمسة أجزاء ..

الجزء الأكبر منه تحت وصاية الأمم المتحدة ، وجزء تحت الحماية البريطانية ، وجزء ثالث تحت الحماية الفرنسية ، وجـزء رابــع ضمته بريطانيا للحبشة ، وجزء خامس ضمته لمســتعمراتها فى كينيا ..

والى هذه الأجزاء الخمسة ، التى تعيش فى حلـم الوحدة ، تشير الأذرع الخمس ، للنجمة البيضاء فى علم الصومال ..

ولكل من هذه الأجزاء قصة مع الاستعمار ..

كان الجزء الاكبر ، الذى تسلمته وصاية هيئة الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٦ .. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، خاضــعا لايطاليا قبل الحرب ..

وقد دخلته ايطاليا عن طريق التجارة .. كما دخلت بريطانيا الى الهند ..

وكان أول استعمارى ايطالى فى الصومال يطلق على نفســه لقب « كبير الكومبانية الايطالية » ..

وفى عام ١٨٩١ تجرأت ايطاليا ووضــعت الصــومال تحت حمايتها ، وفى نفس الوقت كانت انجلترا قد فازت بجزء من الصومال فلم تقف فى طريق ايطاليا .

وقد اختارت بريطانيا فى هذه المرة طــريق الدين ، فبدأت بارسال المبشرين ، ثم تدخلت لحمايتهم من تعصب المسلمين .

أما فرنسا فقد استولت بالحرب ، كعــادتها ، على ميناء جيبوتى ، ومنه وسعت نفوذها ..

والجزء الرابع المسلوب من الصومال له قصة ..

منذ ٦٣ عاما عقدت أثيوبيا وبريطانيا معاهدة سرية تنص على أن منطقة « الأوجادين » من أرض الصومال من حق الحبشة ..

وظلت المعاهدة السرية مطوية فى أدراج وزارة الخارجية البريطانية ، وفى خزائن امبراطور الحبشة حتى عام ١٩٤٦ ، حين ابتدأ الحلفاء يفكرون فى تصفية الممتلكات الايطالية ··

وعندئذ ، وقف بيفن فى مجلس العموم البريطانى ، ليكشف خطة حكومته ، فقال :

« ان الحكومة البريطانية ستساعد الصومال على تحقيق الأمل الكبير ، وهو الاستقلال والوحدة ، فى نطاق الكومنولث البريطانى ، وذلك بعد ١٠ سنوات من الوصاية البريطانية » ·

وكان صدى تصريح بيفن هو الثورة فى الصومال ··

وعندئذ سحب بيفن تصريحه ، والتقى المهزوم والمنتصر واتفق بيفن وكارلو سفورزا وزير خارجية ايطاليا على أن تعود ايطاليا لحكم الصومال ··

وثارت ثائرة الصوماليين مرة ثانية وانتقم منهم بيفن بأن نفض الغبار عن المعاهدة التى يبلغ عمرها ٦٣ سنة ، وضم منطقة من الصومال الى اثيوبيا ·

وأصبحت هذه المنطقة مشكلة حادة بين شعبين افريقيين : شعب الصومال وشعب الحبشة ··

والمشكلة الخامسة ، أو الجزء الخامس هو الجزء الذى ضمه الاستعمار الى كينيا ·

ولم يهدأ الصومال طوال تلك السنوات ·· وعاشها فى واقعه المرير وحلمه المشرق بالاستقلال والوحدة ··

فماذا سيتحقق فى أول يوليو القادم من هذا الحلم ؟

لم تستطع الأصابع الاستعمارية أن تعبث بمصير الصومال

« تحت الوصاية » لأن الاوصياء الثلاثة ، كانوا هم مصر الجمهورية العربية المتحدة » فيما بعد ، وكولومبيا والفلبين ٠٠

ولأن دما عربيا أريق على أرض الصومال ٠٠

وسار الصومال الايطالى القديم ، والذى أصبح تحت وصاية الأمم المتحدة ، بعد تصفية المستعمرات الايطالية ، سار هذا الجزء نحو الاستقلال ٠٠

وحدد موعد اعلان استقلاله ، وأصبح على رأسه زعيم وطنى، يحب العرب والعروبة ، هو عبد الله بن عيســـى ، رئيس وزارته الآن ٠٠

وعندئذ قامت السياسة البريطانية بأبرع حركة سياسية غير متوقعة ، واعلنت استعدادها لانهاء الحماية البريطانية عن الصومال البريطانى والموافقة على ضمه الى الوطن الأم ٠٠

واصبح عيد التحرير عيدا لأول خطوة ايضا فى سبيل وحدة الصومال ٠٠

ما هى خطط الدول الاستعمارية تجاه الصومال ؟

ان بريطانيا قد كشفت عن خطتها منذ عام ١٩٤٦ ، فهى تطمع الى اخراج حلفائها لتستأثر بالسلطة فى هذا البلد الجديد ٠٠

وخطتها فى اخراج حلفائها ، هى احراجهم أمام الصوماليين، واظهارهم بمظهر المعارض للاستقلال والوحدة ، وباظهار بريطانيا بمظهر الحليف المخلص والصديق المبادر الى المساعدة ٠٠

ولذلك خرجت من الصومال البريطانى دون عناء ، وهى تتمنى أن تخرج فرنسا من جيبوتى ، وأن تتم وحدة الصومال ، ثم تضم هذه البلاد الجديدة الى الكومنولث البريطانى ٠٠

وللصومال أهمية استراتيجية كبرى بالنسبة لبريطانية ، فشواطئه تمتد على المحيط الهندى وخليج عدن ، وحدوده تتاخم حدود كينيا ، واذا ربطنا بين مشروعات بريطانيا فى الصومال ، ومشروعاتها فى اقامة نظام فيدرالى فى محمياتها فى جنوب الجزيرة العربية ·· أدركنا أن المشروعين وليدا فكرة واحدة ، وهى السيطرة على المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وربط جنوب الجزيرة العربية ، وشرق افريقيا ، وهى وحدة جغرافية واحدة ، بالتاج البريطانى ··

وعن طريق ارتباط الصومال بالتاج البريطانى ، على أية صورة من الصور ، تستطيع بريطانيا أن تضمن أسواقا لمنتجاتها ، ومواد خاما لمصانعها ، وطرقا حرة لملاحتها ··

أما أمريكا ، فقد تسللت الى الصومال فى فترة انتداب هيئة الأمم ، عن طريق البعثات التبشيرية ، وبعثات التنقيب عن البترول ومكاتب المعونة الصحية ، والثقافية ··

وأمريكا تطمح الى تنفيذ مشروع الحزام الافريقى ، والصومال حلقة من حلقاته · وقد استدعى امبراطور اثيوبيا قريبا سفراء بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا والجمهورية العربية فى اديس أبابا لكى يعلن اليهم عدم موافقته على استقلال الصومال ··

والدولة الطامعة الثالثة هى ايطاليا ·

وقد عانى الصوماليون من الفاشست الايطاليين أسوأ أنواع المهانة والعذاب · وقاطعوا ثقافتهم ومؤسساتهم حين كان الاستعمار الايطالى يبسط ظله على البلاد ·· ولكن الايطاليين استطاعوا فى تلك الفترة أن يسيطروا على الاقتصاد عن طريق الشركات الايطالية، وأن ينقلوا الى الصومال جالية ايطالية كبيرة نسبيا استأثرت بموارد الثروة فى البلاد ، وبالأرض الزراعية الخصبة ··

وايطاليا ، الحكومة ، لم تكشف للآن عن خطتها بعد ..

أما فرنسا ، فهى ناقمة ، ويؤكد حكامها أنها لن تتخلى عن محميتها ..

ووراء فرنسا اسرائيل ..

فمنذ ثلاث سنوات أجرت فرنسا لاسرائيل ميناء جيبوتى فى الصومال الفرنسى ، كما أنها سمحت للحكومة الاسرائيلية بانشاء عدة مصانع فى المحمية ..

ان النغمتين اللتين ترفعان الآن فى صحف الاستعمار تتردان دائما حين تفوز دولة ما فى افريقيا الوسطى باستقلالها .

والفقر فى الخبرة ورأس المال ليس مسئولا عنه الدولة الجديدة بقدر مسئولية الاستعمار الذى حكمها ..

ان عدد سكان الصومال ثلاثة ملايين ، يعيشون بمعدل ٣ من السكان فى كل كيلو متر مربع ، وعدد تلاميذ المدارس بكل أنواعها لا يزيد عن ١٢٫٠٠٠ تلميذ .. وعدد الأطباء ٧٠ طبيبا أى بمعدل طبيب واحد لكل ٤٦ الفا من السكان ، وليس بين سكان البلاد مهندس أو خبير .. وذلك كله رغم ٥٠ عاما طويلة من الاستعمار الايطالى والفرنسى البريطانى .

ولكن كل ذلك التخلف لن يقف عقبة فى طريق الصومال ، كما لم يقف ذلك التخلف عقبة فى طريق غانا وغينيا وغيرهما من دول افريقيا الجديدة ..

ان القوة الحقيقية التى تتمتع بها الدولة الجديدة هى الانسان ووعيه بمشاكله وحياته ..

وهذا الوعى هو الذى صهر المجتمع القبلى ، الذى تتحدث

عنه الدعاية الاستعمارية ، وحوله الى مجتمع قومى متماسك ..

واوضح مثال على ذلك ان كل الأحزاب الصومالية قد اتحدت تحت شعار واحد هو استقلال الصومال ووحدته ، وان هذه الأحزاب لم تتكون بشكل قبلى ، بل بمفهومات وطنية وسياسية ، يلتف حولها مؤيدوها ..

فى ابريل عام ١٩٥٧ سقط لنا شهيد على ارض الصومال ..

وفى اول يوليو عام ١٩٦٠ سيرتفع للصومال علم على ارض افريقيا ..

ان دم الشهيد لم يضع هدرا ..

روز اليوسف ١٩٦٠/٥/٣٠

خروشوف هو الذى يختار رئيس امريكا الجـــديد !

عندما يعود القائد منتصرا تحيطه امته باكاليل الورد ..

وعندما يعود مهزوما تحيطه أمته بدموع الشفقة ، ولكن دموع الشفقة سرعان ما تجف ، وتتندى الشفاه بعبارات النقد ، ثم اللوم ثم التجريح ..

وحين عاد ايزنهاور من باريس استقبل استقبال الأبطـال ، وقال مواطنوه جميعا : لقد خسرنا الاتفاق ، ولكننا كسبنا كرامتنا . ووقف وراءه الجمهوريون والديمقراطيون على الســـواء ، ولكن سرعان ما انتهى أسبوع الشفقة ، وبدأ أسبوع الملامة ، وأخذ نفس المواطنين الذين صفقوا له يقولون : لو فعل ايزنهاور كذا ! ولو قال كذا !

وتكونت لجنة من الكونجرس للتحقيق فى أسباب فشل مؤتمر الاقطاب ، واسترد الحزب الديمقرطى انفاسه ، لكى يستعد للمعركة الانتخابية القادمة ، ويقهر الجمهوريين مستغلا السلاح الذى القاه خروشوف فى يده . وهو فشل مؤتمر الأقطاب ..

والغريب أن خروشوف أصبح صاحب صوت انتخـــابى فى

أمريكا ، حين تختار رئيسها الجديد ، فالقنبلة التى ألقاها حين قال أنه مستعد لمفاوضة من يخلف ايزنهاور جعلت الامريكين يتساءلون : من هو الرجل الذى يقبل خروشوف أن يفاوضه حين تنتهى مدة رئاسة ايزنهاور ؟

كان نيكسون هو المرشح رقم « ١ » ، ولكن خروشوف هاجمه وأطلق عليه لقب « استاذ التجسس » ، وتوارى نيكسون الى الظل ، وارتفع من ورائه اسم نلسون روكفلر ..

هذا فى صفوف الجمهوريين ..

أما فى صفوف الديموقراطيين ، فقد بادر ستفنسون الى تسجيل موقفه من ايزنهاور . وألقى عليه عبء فشل المؤتمر حين قال : ان ايزنهاور هو الذى أعطى خروشوف الفأس التى حطم بها المؤتمر ، واقترب ستفنسون بتصريحه خطوة جديدة من مقعد الرئاسة ..

ومع ستفنسون يفتش جون كنيدى أيضا عن فرصته ، عن طريق لوم ايزنهاور .

لقد أصبح التفاهم مع خروشوف هو الورقة الرابحة فى انتخابات الرئاسة الأمريكية ، وتحمل ايزنهاور وحده خطيئة ارسال طائرات التجسس .. بل وسقوط احداها ..

ومع ذلك فهناك تيار آخر فى الولايات المتحدة لعله رد فعل لهذا التيار المهادن المستسلم ..

لقد أعلن السناتور دؤد ، أحد أعضاء الكونجرس الامريكى وممثل الاقلية الكاثوليكية فى المجلس ، بأن على الحكومة أن تعتقل المليونير سيروس ايتون لأنه صافح خروشوف فى مطار باريس ..

وايتون مليونير أمريكى من أصل كندى ، كان من أوائل من

دعوا الى التعايش السلمى ، وقد نال هذا العام جائزة السلام من موسكو ..

وكتب الصحفى دافيد كورنس فى «النيويورك هيرالد تريبيون» وهو معلق ذو مكانة تقارب مكانة « والترليبمان » كتب يدعو الى ان تقطع الولايات المتحدة علاقاتها السياسية بالاتحاد السوفيتى ، لأن اليد التى امتنعت عن مصافحة رئيس الدولة لا يحق لها أن تصافح السفير ..

وهؤلاء المتشددون يدعون الى اختيار رئيس جديد للولايات المتحدة يكون أكثر حزما وصلابة فى معاملة السوفيت ..

وعلى أى حال ، فان خروشوف أصبح أحد الذين لهم صوت فى اختيار الرئيس الجديد للولايات المتحدة ..

ومن الطريف ان خروشوف سئل فى باريس ، من هو الرئيس الأمريكى الذى تحب التفاوض معه ؟

وقال خروشوف : روزفلت ..

وكأنه كان يعلم أن قنبلته ستثير كل هذا الاضطراب فأبى الا أن يزيد الموقف مرارة .. بالسخرية ..

الانتخابات .. لماذا ؟ !

الانتخابات العامة تجرى فى الجزائر ، ومليون جزائرى لاجئون على الحدود الجزائرية ، واعضاء جيش التحرير عصاة فى شريعة ديجول وقانونه ، وفى الجزائر ثلاثة أرباع مليون جندى فرنسى ، وأسلحة حلف الأطلنطى تتدفق على السفاحين . والمستوطنون وحدهم هم الذين لهم الحق فى تعليق اللافتات وطبع المنشورات والدعاية فى أبواق مكبرات الصوت ..

ومع ذلك كله يزعم ديجول أن الانتخابات تتم فى حريــــة ، ويتمادى فيعلن ان مستقبل الجزائر متوقف على هذه الانتخابات ..

وغاية ديجول من الانتخابات هى تفتيت صفوف الجزائريين ، وخلق طائفة من الخونة الذين يطلق عليهم اسم « المعتدلين » ، لكى يوافقوا على مشروعه الذى أعلنه فى يناير الماضى ، والذى خير فيه الجزائريين بين الاندماج فى فرنســـا ، أو تقســـيم الجزائـــر بين المستوطنين الأوروبيين وأهل البلاد ، مع الاحتفاظ بالساحل والمناطق الغنية للأوروبيين ..

وحين تؤدى انتخابات ديجول ، التى لم يشهدها أحد ، ولم يراقبها مراقبون محايدون كما طالب بعض أعضاء هيئة التحرير ، حين تؤدى هذه الانتخابات مهمتها ، يكون قد انهى مهمته القــذرة بوسائل نظيفة السمعة !

ولكن فات ديجول شىء ، وهو أن المسألة ليســت مسـألة انتخابات وديموقراطية شلكلية ، لن يستطيع بهذه الانتخابات أن يدلس على ضمير العالم اليقظ ، المؤيد لكفاح الجزائر ، لأن الشعوب الحرة كلها تعرف مدى ما فى هذه الوسائل التقليدية من تزييف ، فشعوب آسيا وافريقيا لن تلقى بالا لنتيجة الانتخابات .. أما حلفاؤه فى الغرب فهو ليس مطالبا باقناعهم ، لأن الذى يربطه بهم ، والذى يجعلهم يؤيدون حكمه فى الجزائر ، ليس هو شرعية هذا الحكم أو عدم شرعيته ، ولكنها المصالح المشتركة ، والمطامع المتوازية ..

والمصالح والمطامع لا تحتاج الى اقناع .. ومعركة الجزائر لا يحلها الا التفاوض مع أصحاب الحق الأصلاء ، أو الحـــرب .. لا الانتخابات المزيفة !

حتى انت ·· ياكيشى ؟!

سقطت حكومة سينجمان رى فى كوريا ، وهـــرب العجوز الكورى الى أمريكا ، والجماهير تطالب بحرقه ··

وسقطت حكومة مندريس فى تركيا بعدها بشـــهر ·· تولى الجيش مقاليد السلطة ··

وفى فيتنام الجنوبية ثورة واضطراب ··

وأخر حكومة موالية لأمريكا تتعرض للهزيمة هذه الأيام هى حكومة كيشى فى اليابان وسبب السخط هو أن الحكومة تنوى أن تعقد معاهدة دفاعية مع أمريكا ، والأحزاب الاشتراكية والشيوعيون فى اليابان لا يوافقون على هذه المعاهدة ، والجماهير تمشى وراء هذه الأحزاب ، لأن بينها وبين أمريكا جرحا لا يندمل : هو جـــرح قنبلة هيروشيما ··

وكان ايزنهاور قد قرر أن يزور اليابان فى يونيو المقبل ، ولكن مستشاريه ينصحونه بتأجيل الزيارة ، لأن شوارع العاصمة اليابانية لن تبتسم فى وجهه ، حتى وان ركب العربة المكشوفة فى صـــحبة الامبراطور ··

وقصة كيشى والاضطراب التى واجهها مثل قصص العسكر والحرامية ··

بدأت القصة بالمعاهدة التى حاول أن يحصل على موافقـــة برلمانية عليها ، وفى اليابان مجلسان احدهما للنـــواب والآخـــر للشيوخ ، وقد بدأ كيشى بعرضها على المجلس الثانى تفاديا لعرضها على المجلس الأول الذى قد يرفضها فتموت المعاهدة ومرت المعاهدة من الشيوخ لتتعثر بين أيدى النواب ··

وثارت ثائرة شباب المدارس والجامعات وهاجموا كيشى ذات ليلة في قصره ، فاذا به فى بيته الريفى فى الضواحى ٠

وفى اليوم الثانى هاجموه فى بيته الريفى ، فاذا به قد قضى تلك الليلة فى قصره ٠

والمعركة مازالت دائرة ، وقد سقط كيشى قبل ١١ يونيو ، يوم زيارة ايزنهاور ٠ وقد يكون الرجل الذى يستقبله أقل من كيشى جراءة وتحديا للشعب ، وتموت المعاهدة ٠٠

ان أمريكا حزينة على مصير كيشى لأنها كانت حريصة على أن تجعل اليابان رمزا لنجاح سياسية « الأمركة » ونشر الأسلوب الأمريكى في الحياة ابتداء من مضغ اللبان حتى التحدث بالانجليزية وكانت الأفلام الامريكية تقدم صورة خيالية رائعة للمحبة المتبادلة بين الامريكان واليابانيين ، وانكشفت أمريكا ، وأصبح على كيشى أن يلحق بزملائه سنجمان رى ، ومندريس ونورى السعيد ٠٠

أو ان يكف عن التأمرك ! ٠٠

صباح الخير ١٩٦٠/٦/٢

هــل تعود المكارثيــة ؟

فصل مدرس تاريخ باحدى المـــدارس الأمـــريكية لأنه قال لتلاميذه : ان خروشوف هو اعظم سياسى فى عصرنا ٠

وتضارب النجمان السينمائيان فرانك سيناتراوجون دين فى أحد أندية هوليود الليلية ، لأن جون دين استعان بالروائى الامريكى البرت مالتز فى اعداد سيناريو أحد افلامه ٠

والروائى الأمريكى كان قد اتهم فى أيام مكارثى بالنشـــاط المعادى لأمريكا ، واستدعى للتحقيق معه أمام احدى لجان الكونجرس فامتنع عن الحضور ، وسجن لبضعة شهور ، ثم أفرج عنه ، ولكن التهمة ما تزال لاصقة به ، وهى تختفي وتعود مع استقرار العلاقات الدولية وتوترها ٠

والخبر الثالث أن امريكا ستعيد محاكمة المتهمين بالتجسس لحساب الروس ، وستصدر عليهم أحكاما قاسية ٠

ولابد أن المحاكمة ستتسع ، والتهمة ستشمل عشـــرات من الأبرياء الى جانب الآحاد المدنيين ٠

والظروف التى تعيش فيها أمريكا الآن تشبه الظروف التى

ارتفع فيها اسم السناتور مكارثى ، والتى أصبحت فيها المكارثية علما على الحياة فى أمريكا ..

فحين تحول النزاع بين المعسكرين الى حرب ساخنة فى كوريا خرجت منها أمريكا دون نصر حاسم ، لتدخل معركة الحرب الباردة حينئذ بدأ اسم مكارثى فى الارتفاع ..

كان الشعب الأمريكى يؤمن عندما بدأت الحرب الكورية انها مجرد نزهة لقوات الأمم المتحدة ، ولكنه فوجىء لاول مرة بعد الحرب بقوة المعسكر الشيوعى وامكانياته الكبيرة ..

واستغل مكارثى حالة الدهشة ، وحولها الى ذعر ، وعن طريق هذا الذعر استطاع ان يبسط نفوذه فوق المنظمات والهيئات والأحزاب والكونجرس والبيت الأبيض ..

وظل نفوذ مكارثى يزداد حدة الحرب الباردة ، وفجأة أخذت حدة الحرب الباردة تتبدد ، وامتد أمام الناس طريق للمستقبل ، يسوده السلام والاخاء بين الشعوب ، وخرت شعارات التعايش السلمى بين المعسكرين وعاد الذعر قلقا ودهشة ، ثم تبدد وتلاشى .

وكان نجم مكارثى يخبو كلما ارتفعت شعارات التعايش السلمى ..

وحين مات مكارثى فى الأيام السعيدة للتعايش السلمى بين المعسكرين لم يأبه لموته أحد ، بعد أن كان منذ سنوات قليلة أقوى رجل فى أمريكا ومن أشهر الرجال فى العالم ..

ومع حدة الحرب الباردة الآن ، تعود نغمة النشاط المعادى للارتفاع فى الولايات المتحدة ، ويصبح التعاطف أو التقدير للاتحاد السوفيتى أو خروشوف .. جريمة كبرى ..

نرجو أن لا تطول فترة الحرب ، حتى لايظهر فى الولايات المتحدة مكارثى جديد ، لأن الأرض الآن مهيأة لقدومه ..

روز اليوسف ١٩٦٠/٦/٢٦

تركيــا ليست فى أوروبــا

كان الانقلاب التركى الأخير ، والمظاهرات العاصفة الدموية التى سبقته ، مفاجأة للعالم ، فلم يكن احد يتوقع أن يثور الشعب التركى ، أو يتبادل الحزبان الحاكمان فيه مظاهر العداء ، حتى يستدعى الأمر تدخل الجيش ٠ وذلك لأن تركيا عرفت لونا هادئا من الاستقرار منذ عام ١٩٢١ ، حين تولى كمال اتاتورك حكم البلاد بيد من حديد ، بعد أن قضى على الخلافة العثمانية ، ومنـذ ذلك الحين ، والحياة السياسية التركية تسير هادئة ساكنة ، لا تتطاير أصداء معاركها الى خارج حدود الأرض التركية ، ولا يتتبعها العالم كما يتتبع أخبار الثورات والاضطراب فى كل مكان ٠٠

وقد حكم كمال أتاتورك البلاد سبعة عشـــر عاما متوالية ، ومات فى السابعة والخمسين من عمره ، ليسلم الحكـــم لخليفته عصمت اينونو ، الذى كان جنرالا فى جيشه ، وهزم اليونانيين فى معركتين ، أطلق اسم احداهما عليه ، وظل اينونو يحكم البلاد من خلال الحزب الجمهورى الذى انشاه أتاتورك اثنى عشر عاما ٠ حتى أقصاه عن الحكم فوز عدنان مندريس عليه فى الانتخـــابات التى أجريت عام ١٩٥٠ ٠

وعدنان مندريس من الجيل الذى أتى بعد اتاتورك واينونو ٠ وقد دخل السياسة حين انتخب نائبا فى المجلس الوطنى التركى عام ١٩٣١ بأمر من كمال أتاتورك ٠٠ وكان قبل انتخابه مواطنا عاديا من احدى قرى الأناضول ، ورث عن أبيه عشرة أفدنة ، باع منها جانبا ، وافتتح به محلا تجاريا على أحدث طراز فى أحد شوارع أنقرة ٠

وفى عام ١٩٤٥ انشق عدنان مندريس عن الحزب الجمهورى، وكون مع ثلاثة من النواب ، واحدهم جلال بايار ، حزبا معارضا أسموه الحزب الديموقراطى ،

ونال هذا الحزب الاغلبية التى تتيح له تولى الحكم فى عام ١٩٥٠ ، فاصبح جلال بايار رئيسا للجمهورية ، وعدنـــان مندريس رئيسا للوزراء ٠٠

واجرى مندريس بعد ذلك انتخابين عامين فى عامـــى ١٩٥٤ و ١٩٥٧ ، وزيفهما بما يضمن له الفوز ٠

لقد انتقلت السلطة خلال أربعين عاما من يد أتاتورك الى يد اينونو ، ثم الى يد مندريس ، فى هــدوء ، ودون ضجة ٠

واستقبلها مندريس بوحشية وعنـف ، فأغلـــق المـــدارس والجامعات والأندية والمسارح ودور السينما ، وأصدر قرارا بمنع أى اعطاب للسيارات العامة أو الخاصة بالشوارع وقرر أن من يحدث عطب لسيارته فعلية أن يتركها على يمين الشارع ، ويمضى لحال سبيله ، وقرر أيضا أن يكون البعد بين السيارة والسيارة التى وراءها ٥٠ مترا على الأقل ، ومنع الاجتماعات منعا باتا ، ولو كانت من ثلاثة أشخاص ٠

وكان اغرب مافى هذه المظاهرات هو أوانها ٠٠

كان وزراء حلف شمال الاطلسى يجتمعون فى أنقرة اجتماعهم الدورى ، وكان هناك هيرتر ، وسلوين لويد ، وكوف دى مورفيل وغيرهم من أقطاب الغرب ، ونظر بعضهم من شرفة مكان اجتماعهم، ليجدوا الجماهير الثائرة تهتف بسقوط مندريس ، وتنشد نشيد الحرية الذى وضعت كلماته فى أيام أتاتورك : « ماهو المجد على قمة ألجبل ٠٠ فهيا الى المجد أيها الاصدقاء »

وفى نفس الوقت لكان رؤساء حكومات حلف بغداد « الذى أصبح اسمه الحلف المركزى » يجتمعون فى طهران ، ولكان على مندريس أن يطير اليها ليجتمع بزملائه ولم يطر مندريس ، واغتذر عن الاجتماع ذلك ما أحاط بالاضطرابات التركية فى منطقة الشرق الاوسط ٠

اما فى المحيط الدولى ٠ فقد ابتدأت الاضطرابات ومؤتمر الأقطاب بعد العدة للانعقاد ، وأزادت حدتها حين توقف المؤتمر ٠ وتلقت حكومة عدنان مندريس الانذار السوفييتى بضرب القواعد التى تخرج منها الطائرات الأمريكية بالصواريخ وهى تضرب الشعب بالرصاص ، وتلقى فى وجهه بالقنابل المسيلة للدموع ٠

وكان سينجمان رى قد سقط لتوه فى كوريا ، وكانت الاضطرابات تثور فى فيتنام الجنوبية ، ونظام سينجمان رى ونظام فيتنام الجنوبية قريبان من نظام مندريس ٠

وواجه مندريس الاضطرابات بشدة ، ولكن الموقف أفلت من يده حين تدخل الجيش ، ووضع بايار ومندريس ورفاقهما فى السجن ٠٠

والجيش التركى يعد الشعب الآن بانتخابات جديدة ، وعلى نتيجة هذه الانتخابات يتوقف لون الحكومة التى تحكم تركيا ٠٠

هل يعود مندريس وحزبه ، أم يعود عصمت اينونو بعد غيبة عشر سنوات عن السياسة ،

ولكن قبل ان نتحدث عن الانتخابات التركية القادمة ، يجب أن نسأل عن سبب الأزمة ٠

ان معرفة سبب الأزمة هو الذى يوضح لنا اذا كان من الممكن أن تتكرر هذه الأزمة ، أم انها لن تتكرر ٠٠

لقد بدأت المعركة بين الحكومة والمعارضة المتحدة فى صورة الدفاع عن الديموقراطية ، خرجت مظاهرات الشباب تهتف بالموت لمندريس لأنه حرم المعارضة وزعيمها عصمت اينونو من الطواف بأقاليم الأناضول للدعاية لحزبه ، فلما احتج المعارضون وأمر مندريس بطردهم من المجلس ، ثم كون لجنة من ١٥ عضوا للتحقيق فى نشاط المعارضة ، فكان أول ما قررته اللجنة هو منع النشاط السياسى لمدة ٣ شهور ٠٠

ولكن هل الدفاع عن الديمقراطية هو الدافع الحقيقى والأصيل وراء المظاهرات ؟

ان تركيا عضو فى حلف بغداد ، الذى أصبح اسمه الحلف المركزى ، وهى أيضا عضو فى حلف شمال الاطلنطى ، والعسكريون الامريكان يطلقون عليها « درع آسيا » ٠٠

والجيش التركى يتكون من ٤٠٠ الف مقاتل ، ونصف ميزانية تركيا تنفق على الجيش ، وسبعون فى المائة من المساعدات التى تنهال عليها من الغرب تنفق أيضا على التسلح ٠٠

والحالة المالية فى تركيا سيئة ٠ فديون الحكومة الماضية بلغت الف مليون دولار يجب أن تدفع فى ٤٠ عاما ٠ فضلا عن ٤٠٠ مليون دولار قرضا من منظمة التعاون الاقتصادى الأوروبى ، وقد

انخفض سعر الليرة التركية بنسبة ١٠٠٪ فى عشر سنوات من حكم مندريس ٠٠

وقد كان عدنان مندريس يعد الشعب التركى بالنهضة الصناعية ، ويقنع المواطنين ان الانتماء للغرب يعود على تركيا بالنفع ، ويدعم الصناعة ، ولكن ما اتضح فى خلال عشر سنوات أن المساعدات الامريكية كلها كانت حربية أو استهلاكية ، ولم تقدم معونة جادة قط ٠

وحين انحازت تركيا الى معسكر الغرب فى عام ١٩٤٧ ، فى أوائل سنوات الحرب الباردة ، كان يبدو للجميع أن أمريكا ومعسكرها هم سادة العالم ، أنهم هم الأقوى فى الصراع الدائر بين الكتلتين ٠

ولكن تفوق السوفييت العلمى ، واهتداءهم الى أسرار الذرة ، وتفكك المجتمع الدولى الغربى ، قد قلب ميزان القوى ٠

ولابد أن كثيرا من الأتراك تساءلوا : هل كان مندريس على حق حين راهن على الجواد الأمريكى ، واندفع فى تأييده بكل قواه ٠٠

ولابد أن هذا السؤال تردد كثيرا بعد سفينة الفضاء ، وبعد فشل مؤتمر الاقطاب وبعد تهديد خروشوف بنسف أى دولة تسمح للطائرات الامريكية بالابحار فى أراضيها ٠٠

وأحس مندريس بتعاسة سياسته المعتمدة على مساعدات الغرب حتى أن الحكومة التركية اقترضت فى العام الماضى مرتبات الموظفين وبين تهديد خروشوف الذى لم يكن هو أول تهديد ، بين ميل كفة الميزان فى الحرب الباردة لجانب السوفيت ٠

ولعل هذا هو ماجعل مندريس يفكر فى تبادل الزيارة مع

خروشوف ، ولكن مندريس كان حريصاً على الارتباط بالغرب لأن بقاء حكومته ، واستمرارها فى الحكم يعتمد على رضـا الغــرب عنه ٠

وكان أيضا يخشى المعارضة ، ويخشى أن تستغل هذه المعارضة سوء الحالة الاقتصادية لكى تسحب كرسى الحكم من تحته ٠٠

وفكر مندريس فى مارس الماضى أن يجعل أمريكا ترتبط به ، لا أن يرتبط هو بأمريكا ٠٠

وعرض على البرلمان صيغة اتفاق ينص على حق الحكومة فى طلب المعونة العسكرية من الحكومة الامريكية فى حالة التهديد غير المباشر وغير المسلح ٠٠ وكانت العبارة مائعة ٠٠

وأدرك رجال المعارضة أن المقصود بها هو التهديد الذى تمثله المعارضة ٠٠ ونوقشت صيغة الاتفاق فى البرلـمـان ، وقال النواب المعارضون ان هذه العبارة المطاطة يجب أن تسحب ، والا فعل مندريس مافعله شمعون فى لبنان حين استعان بأمريكـا فى صـراعه مع المعارضة ، وأنزل الأسطول الأمريكى فى شواطىء لبنان ٠

ان الازمة اذن ليست أزمة ديموقراطية وأحزابا وجولة انتخابية ولكنها أعمق من ذلك بكثير ، وقد يكون عمق الأزمة غير واضح فى أذهان زعماء المعارضة الأتراك ٠ بل وفى أذهان بعض أولئـك الطلبة الذين يتزعمون المظاهرات ، ولكن لابد أن يتضح فيما بعد ٠٠

انها أزمة نظام تركيا كله ، منذ أن انحازت الى الغرب انحيازا كليا فى عام ١٩٤٧ والأعوام التى تلته ٠

لابد لتركيا من سياسة جديدة ٠٠

وهذه السياسة الجديدة يجب أن تفهم وضع تركيا الجغرافى والسياسى والتاريخى ٠

ان السياسة التركية الآن تعيش بتركيا فى أوروبا ، وهى دولة من آسيا ، وتحاول أن تقطع الصلة بين ماضى تركيا وبين حاضرها ، وكان هذه الأرض أرض بلا ماض قومى أو تاريخ حضارى ٠

انها تنتقل بتركيا مئات الأميال الى اليمين ، لتضعها فى حلف شمال الاطلسى ومكان تركيا الطبيعى هو الوسط ، مثل معظم شعوب آسيا وافريقيا ٠٠

واتاتورك حين قامت ثورته هزم اليونان ومن ورائهم حلفاؤهم الانجليز فى المعركة ، ولكنهم هزموه فى السلم ٠٠ وقرر اتاتورك أن يجعل تركيا بلدا أوروبية ، وان يقطع مابينها وبين الشـــرقية ، وأعلن العداوة على الطربوش والحبرة واليشمك ٠ والتقدم والتحضر مطلبين مشروعان بالنسبة لكل أمة ، ولكن مهمة السياسى الناجح هى ان يبنى مستقبل امته الحضارى على تراث ماضيها وجذوره ٠

وقد قطع اتاتورك الجذور وبنى البناء الجديد على ســـطح جديد ٠

كان اتاتورك يجلد المرأة التى ترتدى الحبرة واليشمك ، ويشنق من يضع الطربوش على رأسه ويطارد خطباء المساجد ــ حدث مرة فى حفلة دبلوماسية أن شاهد سفيرا عربيا يضع طربوشا على رأسه، فمد يده ، وألقى بالطربوش على الأرض ، وكانت أزمة دبلوماسية ٠

ومع ذلك التعجل ، وذلك القسوة التى اتسمت بها محـــاولة ادخال الحضارة فى تركيا ، فان عجلة الحضارة دارت فى بلاد كثيرة من بلدان الشرق الاوسط أسرع مادارت فى تركيا ٠٠

ولنضرب مثلا : الطربوش اختفى فى البـــلاد العربية دون ضجة ، ودون تشريع ٠ والمرأة خلعت الحجاب دون أن تجلد فى الميادين ٠٠ وفى أنقره الآن ٢٠ امرأة تشتغل بالمحاماة ، وفى القاهرة

العربية المسلمة التى لم تتخل عن ماضيها اضعاف هذا العدد ..
والتطور الحضارى يسير عندما أسرع مما يسير فى تركيا ، رغم اننا لم نسن القوانين ، ولم نتنكر لماضينا وتقاليدنا ، ولم نلحق انفسنا زورا بأوروبا . وسياسة اتاتورك هى التى دفعت بتركيا سياسيا ، بعد ذلك الى احضان الغرب ، وكأنما الناس تقول :

مادمنا لسنا مسلمين ، ولسنا فى آسيا ، فـــلابد أن نكون أوروبيين صرفا .

وما دمنا فى أوروبا فلا بد أن نشارك أوروبا مصيرها ..

وهكذا أصبحت تركيا عضوا فى حلف الاطلسى ، ونيلا لأمريكا فى عهد مندريس والآن .. ما الحل ؟

الحل أن تعود تركيا مئات الاميال من ملكانها المزعـــوم على شاطىء الاطلسى ، لكى تربض بين شعوب آسيا .. وان تفكر كشعب آسيوى فى مصير العالم ، فتلتزم الموقف الذى تلتزمه شعوب آسيا وافريقيا المستقلة والا تصبح ذيلا للغرب ..

روز اليوسف ١٩٦٠/٦/٦

هل يسرق الاستقلال ؟ !

ذكرت هذا الفيلم السينمائى ، وأنا اتتبع الاحداث الأولى لثورة الكونغو واجمع فى ذهنى خيوط المؤامرة البلجيكية على استقلالها ٠٠

كان اسم الفيلم « قصة راهبة » ، وكانت تقوم ببطولته الممثلة ذات الوجه البرىء « اودرى هيبورن » ، وكانت قصة الفيلم تسبح فى جو عاطر بالتراتيل ، معبق بأنفاس الكتاب المقدس ٠٠

ولكن وراء هذا الوجه البرىء ، وهذه القصة العاطرة ، كان يختفى مضمون أسود كالح ٠٠

كانت القصة عن فتاة صغيرة تترك بيتها الصغير فى بلجيكا ، لتنخرط بين الراهبات ، تسافر الى الكونغو ، لتنشر السلام والطمانينة والصحة والايمان فى نفوس أبنائها السود ٠

وكانت الصورة التى اختارها مؤلف قصة الفيلم لأهل الكونغو صورة قاتمة ، مليئة بالوحشية والعنف ونكران الجميل وكانت الصورة التى رسمها للمستعمرين البيض صورة ناصعة ، كأنهم ملائكة لا ينقصهم الا أن تنبت لهم أجنحة ٠٠

ولابد أن مخرج الفيلم وضع فى ذهنه أن يخرج المتفرج ، وفى

نفسه احساس بأن هذا الشعب الاسود فى الكونغو شعب متأخر ، ساذج ، حقود ، وأن بقاء البيض فيه انما هو وفاء لرسالة مقدسة ، هى تمدن هذا الرجل الاسود وتهذيب خلقه ··

والفيلم الأمريكى ، والصحافة الغربية وصراخ المستعمرين ، كل ذلك يتم وفقا لخطة موضوعة ، غايتها أن تبرر للرجل الابيض أن يقف فى وجه التيار الصاعد فى أفريقيا ··

لقد أصبحت كلمة الاستقلال هى الكلمة السحرية ، انها شعار نافذ كالسهم مايكاد ينطلق حتى تتلقفه القلوب ولايستطيع أن يقف فى مواجهته أحد · ومحاولة سرقته حتى يصبح مجرد وثيقة ·

وقد بدأت حوادث الكونغو لأن أهل الكونغو حاولوا أن يكون استقلالهم أكثر من وثيقة ··

ان عدد قوات الأمن فى الكونغو ٢٥ الفا من الافريقيين ، لهم الف ضابط من البيض ، وليس فيهم ضابط أسـود واحد فقد كان الاستعمار البلجيكى فى الكونغو لا يسمح بترقية الجندى الأسـود الى أكثر من جاويش ·

وثار الجيش الاسود مطالبا « بأفرقة » وظائف الضباط ، وكانت الازمة ، وانطلقت الحامية البلجيكية من معسكراتها ، تنهب وتسلب وتطلق النار على المواطنين العزل حتى لقد قالت مجلة « تايـم » الامريكية ·

« لقد قامت القوات البلجيكية وهى تشق طريقها فى ليوبولدفيل بعد الاستيلاء على المطار بضرب كل افريقى يقابلونه ، وينزع سلاح القوات الافريقية ، حتى أن أحد رجال قوات المظلات البلجيكية أطلق النار على مراسل صحيفة تيم «لى جريجز» ثم اعتذر بعد ذلك قائلا : لقد ظننتك افريقيا فى الظلام ! »

وحاول لومومبا رئيس الحكومة الجديدة ان يعالج الموقف ، فاستقل طائرة ليطوف بالمناطق الثائرة ، وطار به طاقم الطائرة البلجيكى ساعتين فوق الغابات ·· ثم هبطوا به،فى نفس المطار الذى اقلع منه ، وهم يسخرون منه ، ويقولون :

لقد خدعنا القرد الأسود ··

وعندئذ ، وفى الوقت المناسب ، برز موريس تشومبى ، حاكم اقليم كاتانجا ، جنوب الكونغو ، وأعلن استقلاله وطلب من بلجيكا أن تحميه ، ومن الدول الغربية أن تعترف بانفصاله عن الكونغو وتشعبت القضية ، وبدأ شبح الانفصال وتمزق الوحدة القومية الى جنب شبح ضياع الاستقلال ··

وموريس تشومبى رئيس وزراء كتانجا عميل استعمارى قديم ·· وأبوه هو المليونير الافريقى الوحيد فى اللكونغو وقد أشرفت على تمويل حزبه فى العام الماضى شركات التعدين البلجيكية المسماه « اتحاد مناجم كاتانجا العايا » ··

ويزعم تشومبى كما يزعم المستعمرون البيض ان الشيوعية تهدد افريقيا ، ويصور نفسه بأنه ، بأقليمه كاتانجا ، يقيم جسرا للنفوذ الغربى فى أفريقيا حتى يرد عنها غائلة التوسع الشيوعى ·

وأصبح الموقف عسيرا ، ووقف باتريس لومومبا حائرا ··

من هو لومومبا ؟ ···

وباتريس لومومبا اسم أفريقى جديد لم يكد يبزغ الا هذا العام، ولومومبا فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وقد ولد باحدى القرى الافريقية ، وتلقفته مدرسة القرية التبشيرية ، حيث خلعت عليه اسم بياتريس ، كما خلعت مدارس التبشير فى أفريقيا اسما مسيحيا

على « فرانسيس » نكروما « وجوهانستون » كيةياتا ٠٠ و « وهاستنجز » باندا ، « وتوماس » ربوبا ٠٠

واذا كان هؤلاء الزعماء قد نالوا حظا من التعليم العالى ، وسافروا الى أوروبا فان لومومبا لم تتح لـه هذه الفرصـة لأن الاستعمار البليجيكى ، وهو يفوق الاستعمار فى وحشيته وسـوء معاملته للمواطنين ، كان حريصا على أن يمنع خروج أى مواطن من الكونغو خارج بلاده أو حصوله على قدر عال من التعليم ٠٠

وقد استطـاع هؤلاء الزعمـاء الافريقيون حين خرجوا من أفريقيا أن يلقوا ببعض الشباب الاشتراكيين فى أوربا ، وأن يعقدوا صداقات شخصية مع الاحزاب العمالية واليسارية ، وأن تتسع آفاقهم لفهم الظروف الدولية ، أما لومومبا فقد عمل بوظيفة كاتب بريد فى ليوبولدفيل ثم دخل الحركة النقابية ، وحضر مؤتمر « اكرا » فى العام الماضى رئيسا لوفد الكونغو ، وألقى فيه خطبا تحدث فيه عن ضرورة استقلال الكونغو ، وعندما عاد من المؤتمر الأفريقى نظم مؤتمرا فى ليوبولدفيل ، دعا فيه الى الاستقلال ٠

وقامت الثورة ، وسجن لومومبا ، ثم اضطر البلجيكيون تحت ضغط الثورة الى عقد مؤتمر فى بروكسـل لمناقشـة منح الكونغو استقلالها ٠

وأجريت الانتخابات ، ففازت الحركة الوطنية التى يتزعمها لومومبا ، ودعى الى رياسة الوزارة ٠

ولومومبا الآن فى موقف لا يحسد عليه ٠٠

ان عدد سكان الكونغو ١٤ مليونا من الافريقيين ، وحوالى ٥٠ ألف بلجيكى أبيض ٠٠

وعدد خريجي الجامعة من هؤلاء الافريقيين ١٦ خريجا ٠٠

والخمسون الف بلجيكى بيض وهم ضباط الجيش وموظفو الادارة ومهندسو المناجم ، والمدرسون ، وضباط الأمن ٠

هم باختصار تروس الآلة التى يمثل الافريقيون وقودها ٠٠

وقد كانت بلجيكا تستخلص من الكونغـــو الف مليون جنيه سنويا ، ويعود منها ٨٢ مليون جنيه فقط للاستثمارات الجديدة ، وفى الكونغو ١٠ فى المائة من نحاس العالم ، و ٧٥ فى المائة من الكوبالت ، وثروة ضخمة من الماس واليورانيوم ، فضلا عن الثروة المائية والزراعية ٠٠

وهذه الثروات كلها فى حاجة الى خبرة وكفاءة ٠٠ وأمانة ٠

ولومومبا يقول لأتباعه ومريديه من الشباب :

« ابذلوا جهدا كبيرا فى دراستكم لأرسلكم الى الخـــارج ، وتصبحوا مهندسين ،

ولكن حتى يصبح هؤلاء الشباب مهندسين يقف لومومبا فى مازق ، سيواجهه بعد أن يفرغ من مواجهة قضية انفصال كاتانجا ، التى لايعتقد احد أنها ستستطيع أن تنفصل نهائيا عن الكونغو الأم ٠

ذلك لأن هذا الانفصال ضد رغبة الجميع ٠٠ بلجيكا والولايات المتحدة ، وفرنسا وبريطانيا والكونغو ٠٠

انه مجرد تهديد ، أو اثارة لزوبعة ، لكى يستطيع الغـــرب العودة الى الكونغو فى غبرها المتطاير ٠٠

وحين يقول الغرب لتشومبى : اسقط فيسقط ! ٠٠ وذلك فى الوقت المناسب وذلك بعد أن يطمئن الى عودته بشكل ما ٠٠ الى الكونغو ٠٠

فبلجيكا تعرف أنه اذا استقلت كاتانجا تحت النفوذ البلجيكى ،

فان هذا الوضع سيكون قائما على حرف بركان يهدد بالانفجار ، وتضيع مصالح بلجيكا وأموالها فى الكونغو نهائيا ، عندئذ ، لأن الزمن طال أو قصر سيكون فى صف وحدة الكونغو كله ٠٠

وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة يـدركون أن انفصـــال كاتانجا قد يدفع لومومبا الى طلب المعونة العسكرية من الاتحـاد السوفيتى ٠ لامجرد التهديد بها كما فعل ، وتصبح الكونغو عندئذ كوريا ثانية ، والغرب يخشى كل الخشية أن يصبح للاتحاد السوفيتى نفوذ ضخم فى أفريقيا ، ويكفى الولايات المتحدة ماتلاقيه فى أمريكا اللاتينية نتيجة لتطوع الاتحاد السوفيتى للمساعدة ٠٠

ولذلك فان دولة من دول الغرب لم تعترف باستقلال اقليـــم كاتنجا ، رغم مناشدة تشومبى لها ٠٠

والواقع أن قوات الامم المتحدة ستستطيع أن تفصل بين القوات البلجيكية وقوات الكونغو وتستطيع أن تقر الأمور وتعيدهـــا الى الهدوء ، ولكن دور الأمم المتحدة يجب الا يقف عند هذا الحد ٠٠

ان دور الامم المتحدة هو بذل يد المساعدة الحقيقية للكونغو ، لئلا يسرق الاستقلال بطريقة أو بأخرى ، تحت ستار المساعدة ٠٠

وهذا هو ما تكشف عنه الأيام القادمة ٠

روز اليوسف ١٩٦٠/٨/١

لمــاذا نقف وراء الكونغو ؟ !

معركة الكونغو معركة حاسمة ..

تماما ، مثل معركتنا مع العدوان عام ١٩٥٦ ، ومثل كل المعارك الحاسمة الأخرى ، لأنها معركة لها ما بعدها ، ونتائجها تمتد الى أبعد من أيامها وحدودها واشخاصها ..

فلو نجح الاستعمار فى القضاء على ثورتنا الوطنية عــام ١٩٥٦ ، لامتد أثر هذا النجاح الى ابعد من حدودنا ، وانتكست معظم الحركات الوطنية فى افريقيا سنوات طويلة قادمة ، وسكت صوت التحرر فى الشرق الأوسط ..

ومعركة الكونغو هى معركة افريقية الثـانية .. الحاســمة كمعركتنا ..

فمعظم بلاد افريقيا التى استقلت حديثـا ، او على وشــك الاستقلال ، تمر بنفس ظروف الكونغو ..

فالاستعمار مضطر تحت ضغط الثورة الوطنية ، والرأى العام العالمى ، الى اعلان استقلال هذه المستعمرات ..

وثروات البلاد المخبوءة والظاهرة ، كلها فى أيدى الاستثمارات الأجنبية . والجالية الأوروبية الصغيرة تسيطر على كل شىء ..

والاستعمار قد حاول جاهدا ، خلال سنوات بقائه الطويل ، أن يحرم سكان البلاد من كل خبرة فى الميدانين العلمى والاقتصادى .

والطريق الذى تفتحه بلجيكا للعودة الى الكونغو ، لو نجحت فى سلوكه ، سيكون هو طريق الدول الاستعمارية للعودة الى مستعمراتها القديمة ، فى ثوب جديد ، وبأسلوب جديد ..

وهو نفس الطريق الذى تلمسته فرنسا ، فى غينيا ، حين خرجت ، فلم تترك آلة واحدة ، ولم يكن لغينيا نقد أو خبرة اقتصادية وفشلت فرنسا فى العودة ، وتلمسته أيضا فى مجموعة الدول التى استقلت حديثا ، ورضيت بالانضمام الى مجموعة الدول الفرنسية ..

وهو الطريق الذى تتلمسه ، لتخوض فى وسط دماء الماو ماو فى كينيا الى وضع ييسر لها الاستقلال الاقتصادى .. ولتستغل ثروة تنجانيقا الى الأبد ، ولتسيطر على روديسيا بعد استقلالها .

ولكن بلجيكا كانت مكشوفه الوجه وقد يكون ذلك لأنها وجدت حلفاءها كثيرا ما يفشلون فى خططهم الجديدة ، فأعدت خطتها بسرعة ، ونفذتها بسرعة .

ان لديها الحكومة العميلة ، حكومة تشومبى ، فى اقليم كاتنجا أغنى اقاليم الكونغو ، الذى يحتوى على ٦٠ فى المائة من ثروة البلاد ..

ولديها اتحاد مناجم كاتنجا العليا ، والكنيسة الكاثوليكية هناك ، وهما يسيطران على المناجم والمدارس والمستشفيات والمؤسسات ..

ولديها قاعدة عسكرية تكلفت ٢٠ مليون دولار ، من أمـوال حلف الأطلنطى ٠

فكيف اذن لا تطمئن الى بقائها فى الكونغو ، والى أن خطتها ستكون أكثر نجاحا من خطة الفرنسيين فى غينيا أو وهكذا أعلنت بلجيكا الاستقلال ، وبعدها بساعات أوعزت لتشومبى أن لا يعترف بالحكومة المركزية وأثارت فتنة الجيش لتجبر فنييها وموظفيها على مغادرة البلاد ٠٠

ولكن وجدان العالم كله كان يقظا ، لأن المعركة معركة حاسمة ٠

ووجدان افريقيا ، وعضلاتها أيضا كانت يقظة ٠٠

ان جيش غانا وغينيـــا والجمهورية العربية المتحدة يعلـن استعداده لامداد الكونغو بالمعونة العسكرية ٠٠

والرد الذى أرسله سيكوتورى الى موريس تشومبى ، عميـل الاستعمار البلجيكى ، يلتقى فى خطوطه العامة ، أن لـم يكن فى الفاظه ، مع الرد الذى أرسله جمال عبد الناصر ٠٠

ونكروما يدعو الى مؤتمر من ممثلى دول افريقيا المســتقلة لتنسيق التدخل الحربى اذا عجزت قوات الأمم المتحدة ٠٠

ان افريقيا كلها تلقى بأسلحتها فى المعركة ووراء افريقيا تقف كل شعوب العالم الحرة ٠٠

فما هو موقف المعسكر الاستعمارى ؟ ٠

ان بلجيكا ليست مجرد دولة مستعمرة ٠٠ ولكنها عضو بارز فى حلف الأطلنطى ٠٠ فى معسكر كبير ينتظم فى عضويته الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا ودول غرب أوروبا الأخرى ٠ ٠

وقد اختلف موقف دول الحلف حين عرضت القضــية على مجلس الأمن ٠٠

امتنعت فرنسا عن التصويت على خروج القوات البلجيكية السريع من الكونغو ·· لأنها دولة متواطئة ، ولها مصالح فى افريقيا ومثال بلجيكا ــ ان نجح ــ ييسر لها العودة الى استغلال مستعمراتها السابقة ··

والولايات المتحدة تحاول أن تجد لها منفذا فى الكونغو · لترث كعادتها غنائم المعركة ، وتمد نفوذها الاقتصـــادى ليخلف النفوذ البلجيكى ، وقد مهدت لذلك بالمفاوضات الفاشـــلة التى دارت بين لومومبا أثناء وجوده فى أمريكا ، وبين أحد المليونيرات الأمريكيين، ولذلك فقد وافقت على انسحاب القوات البلجيكية تماما ·· كمـا اظهرت امريكا مساعدتها فى أيام العدوان ، فلما انحسر العدوان ، اسرعت بطرح مشروع ايزنهاور ·

وبريطانيا على موعد مع الاستقلال لمستعمراتها الافريقية خلال هذا العام ، والأعوام القليلة القادمـة ، فى روديســيا ، وكينيا ، وتنجانيقا وغيرها ، وهى تعلم أن وقوفها السافر فى صف بلجيكا جدير بأن يثير سوء الظن فى وجدان قادة هذه المستعمرات ، وأن يفسد عليها ماترتبه من خطط لربط هذه المستعمرات بعجلاتها فى المستقبل ··

وهكذا ·· اختلف موقف معسكر الاســتعمار ، بينما وقف المعسكر الافريقى ، ومن خلفه كل شعوب العالم الحــرة ، ثابتـا متضامنا ··

وكان لابد أن يصدر قرار مجلس الأمن بانســحاب القوات البلجيكية ، ودخول قوات الأمم المتحدة اقليم كاتانجا ··

وأطلق تشومبى طلقاته الأخيرة ، ليعكر الجو ··

أعلن أولا أن قوات الأمم المتحدة عاجزة عن اقرار الأمن فى كاتانجا اذا خرجت القوات البلجيكية ··

وهذه مغالطة واضحة ، لأن قوات الأمم المتحدة عددها ١٢ الف جندى ، بينما لاتزيد القوات البلجيكية المرابطة فى الاقليم عن ٥٠٠ جندى ٠٠

وبعث تشومبى بوفد من اذنابه الى مجلس الأمن ، وحضر الوفد الاجتماع كمراقبين ، ولم يعبأ به أحد ٠٠

واخيرا ٠٠ حاول تشومبى ان يقنع « رالف بانش » الأمريكى الجنسية ، أن دخول قوات الأمم المتحدة سيثير مذبحة ،

والغريب أن رالف بانش ٠٠ الأمريكى الجنسية ٠٠ اقتنع بهذا المنطق ، وعاد الى همرشولد ليعرض عليه الموقف ٠

وعاد همرشولد الى مجلس الآمن وفى جلسة عاصفة فوض المجلس همرشولد بأن يدخل بقوات الأمم المتحدة اقليم كاتانجا ٠٠

ودخل همرشولد ، ولم تحدث المذبحة !

والأيام القليلة القادمة ، هى الأيام الحاسمة ، للمعركة الحاسمة ٠٠

وشعوب أفريقيا ، وشعوب العالم المحب للسلام كله ٠٠ انها تقف وراء باتريس لومومبا،حتى يحقق استقلال الكونغو،ووحدته ٠

وتقف وراءه حتى تجلو القوات البلجيكية عن الكونغو ، ويغادر اخر جندى بلجيكى القاعدة العسكرية التى تستتر وراءها مطامع دول حلف الاطلنطى ٠

وتقف وراءه حتى يستطيع ادارة عجلة الحياة الاقتصادية هناك فتبذل له الخبرة الخالصة ، دون جزاء أو استغلال ٠

وهذا ماتفعله الجمهورية العربية المتحدة ، حين تمد يدها بالسلاح مهددة قوى الاستعمار ٠

وتمد يدها الأخرى بالعلاج والمعونة الفنية الى شعب الكونغو ٠

وهذا هو ما يفرقنا نحن ، الشعب العربى ، كشعب يمتد وجوده على رمال افريقيا وآسيا ، ويبذل كل أيامه ودماءه وعرقه فى معركته مع الاستعمار ، وبين دولة مخيلة على أفريقيا وآسيا ، زيل للمعسكر الاستعمارى ، حين تسرع بمفاوضة حكومة تشومبى الخائن ، وشعب الكونغو يخوض معركته ضد الخيانة ٠

روز اليوسف ١٥/٨/١٩٦٠

هجوم جديد على القومية العربية

كتابان غريبان مسمومان مليئان بالأخطاء والتحامل والسباب صدرا فى احدى البلاد العربية هذه الأيام ، اسم احدهما « صراع ضد الباطل » ، والثانى « القومية فى نظر الاسلام » ..

الكتابان لمؤلف واحد ، سقط على هذا البلد من مكان لايدريه أحد ، وانطلق يمارس الكتابة دون علـــم ، ودون أن يقرأ الا بعض قصاصات الصحف اليومية ، وتسلل الى الحياة العامـــة الى أن أصبح يحرر فى احدى صحف هذا البلد .. ويذيع بعض الاحاديث فى الاذاعة ومحور الكتابين الهجوم على القومية العربية وهو أعزل مكشوف الظهر ، فاحتمى بكلمة الاسلام ، وزعم أنه يدافع عن الدين ، الذى أصبحت دعوة القومية العربية أخطر عليه من أعدائه الستة « الروس والامريكان والفرنسيين والانجليز واليهود والبراهمة » !! كما يقول الكاتب .

لماذا ؟

لأن دعوة القومية العربية تصدر من القاهرة ..

والقاهرة بلد الكتاب (الرقعاء) ذوى الاقلام الخبيثة ، الذين يهدمون الاسلام .

والقاهرة ·· أنعمت على شاعر عربى هو الشـــاعر القروى « رشيد سليم الخورى » بوسام من أرفع الأوسمة ، وهو مسيحى ··

وهو يهاجم احسان عبد القدوس ·· وتلامذته ! ثم يهاجـم سلامة موسى وأمينة السعيد ، وأحمد زكى ، ويوسف السباعى ·· و ·· و ·· يهاجم لكل هؤلاء مجرد هجوم لفظى ·· شتائم ·· لماذا ·· لأنهم كتاب من الجمهورية العربية المتحدة ، ويهاجم القاهرة لأن جامعاتها تدرس العلوم الدنيوية وتخرج شبابا لا يعرف الاسلام ، وهذا الشباب يذهب الى هذا البلد لينشر العلم فى مدارسها ، فيؤثر فى عقلية شبابها ، ويبعدهم عن الدين ··

هكذا يقول الكاتب البليغ ، ويطالب فى آخر هذا الفصل الأول من كتابه بابعاد مدرسى القاهرة عن حقل التعليم فى هذا البلد،لأنهم قد فقدوا اسلامهم ودينهم وأخلاقهم ·· وفاقد الشىء لا يعطيه ·

وهو يريد أن تنعزل القاهرة عن العالم العربى ، وأن يشكك العالم العربى فى القاهرة العربية ورسالتها ··

وكان ذلك وحده هو الطريق الى رفع شأن الاسلام ، وتوحيد كلمته ولا أهمية بعد ذلك لمحاربة الاستعمار ، أو طرد الصهيونية موضوعات لم يتعرض لها الكاتب فى كتابيه الجارحين ··

ولكن الكتابين ـ مع ذلك ـ قـد يثيران بعض المناقشـــات ، من بيت المقدس ، أو رفع مستوى المسلمين المادى والمعنوى ، فكل تلك ويلقيان ببعض الافكار التى تستحق التعليق ··

مثلا :

انه يقول ان القومية العربية لم تكتشف اكتشافا ، وانها كائنة فى نفس كل عربى ، يحس بانتمائه الى العرب ، ويتكلـــم باللغــة العربية ، وليس لأحد فضل ادعائها ··

وهذا صحيح ، ولكنه نصف الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فالقومية العربية كائنة ، منذ أحس العرب بوجودهم ، وهذا الاحساس الكائن فى النفس ، لم يخلقه أحد ·· ولكن خلقه التاريخ ··

ولكن هناك دائما فرق بين معنيين للقومية ، ولو قرأ المــؤلف لبعض مفكرى القومية ، أو علماء التاريخ لأدرك هذا الفرق هناك فرق بين النوعية فى حالتها الثابتة الراكدة ، أو حالتها « الاستاتيك » كما يقول المؤرخون وعلماء الاجتماع ··

وهناك فرق بين القومية فى حلتها الناميــة المتطــورة التى تستهدف الأحسن ، وتحاول أن تتفوق على وضــعها لتحقق جديدا أفضل وأحسن ، أو حالتها « الديناميك » كما يقول نفس المؤرخين ·

هناك فرق بين القومية حين تكون مجرد شعور ، وبينها حين يتحول هذا الشعور الى هدف ومعركة وكفاح ··

والقومية كشعور ·· سلبية ·· محافظة ·· راكدة ··

والقومية كمعركة ·· ايجابية ·· تطورية ·· متحركة ··

ولو عاشت القومية كشعور فقط آلاف السنين لما حققت شيئا ، وسر انتفاضة العرب الاولى على يد زعيمهم القومى محمد عليــه السلام ، أنها تحولت من مجرد الشعور الى حالة حركيــة مليئــة بمحاولة تحقيق الأحسن والأفضل ··

والذين يحملون شعار القومية العربية الآن لا يدعون لأنفسهم خلق القومية العربية ، بل ان كل مايستطيعون ادعاءه لأنفســـهم ، والاعتزازية هو أنهم خاضوا معركة القومية العربية فى سبيل التحول بها من شعور الى معركة ··

والاسلام هو دين الغالبية العظمى من العرب ··

وهو أيضا أحد المقومات الرئيسية لشخصية الانسان العربى ·

ولكن العرب لا يشكلون الا أقلية لا تتجاوز الربع بين المسلمين فى العالم ·

ولهؤلاء العرب تراث حضارى وفكرى خاص يتمثل فى لغتهم وتقاليدهم وتاريخهم المتضامن الطويل ، وهذا التراث يميزهم عن بقية أجزاء العالم الاسلامى ، وان جمعت بين الجميع كثير من الروابط والصلات فان مما لا شك فيه أن نقط الالتقاء بين العربى المصرى والعربى الحجازى أكثر منها بين المسلم فى الهند والمسلم الأندونيسى مثلا ··

ان هذين الأخيرين لا يتحدثان لغة واحدة ولم يتوحدا فى التاريخ ، ولم يربط بينهما أدب واحد وفكر واحد ، وليست لهما نفس الأهداف فى المعركة الحالية للبناء والوجود ، ومعركة المستقبل للتطور والنماء ··

ومن هنا ، كانت القومية العربية دعوة سياسية واجتماعية تنظم علاقة العرب بالأرض ··

وكان الاسلام دينا يلتقى فيه معظم العرب مع غيرهم من المسلمين لتنظيم علاقاتهم بالسماء ··

والدرس الأخير الذى يمكن للكاتب أن يتعلمه هو أن الوحدة وحدها لاتكفى ··

فاذا كان يحاول أن يلقى بشعار « تضامن العالم الاسلامى » لكى يكون بديلا لشعار « تضامن العالم العربى » فهو مخطىء لأن للكل من الشعارين معناه ، وهما لا يتعارضان ··

انهما حلقتان متكاملتان ، تتمم احداهما الاخرى ، ولابد أن تكون الثانية متممة لها ، ومتوجة لانتصارها ··

ان تضامن العالم العربى يعنى طرد الاستعمار ، والقضاء على الصهيونية ، وتحقق العدالة الاجتماعية ، وتصفية النظم المتحجرة كالاقطاع والنبلية واستبداد راس المال ٠٠

واخيرا ، القضاء على الكهانة ، لأنه لا كهانة فى الاسلام ولا فى العروبة ٠

وهذه الأهداف كلها لا تتحقق أولا ، وبسرعة ، الا فى نطاق امة واحدة ، تنطق بلسان واحد ، وتحتل من العالم موقعا جغرافيا موحدا ، وترتبط بتراث تاريخى واحد وقد خاضت معارك تاريخها الف سنة ، كتفا الى كتف ٠٠

وبعد ذلك ، فمن الممكن أن تتحقق هذه الأهداف فى أرجاء العالم الاسلامى الواسع ، ومن الممكن أن تتضامن عناصر العالم الاسلامى وأجناسه ، وأن تتمازج وتتلاقى ثقافيا واجتماعيا وحضاريا لكى تصنع مجدها الحديث ، ولكن ليس قبل أن يتوحد العرب ويحققوا رسالتهم فى اصلاح أحوال الانسان العربى ٠٠

وأخيرا ٠٠

فان القومية العربية تضع الدين الاسلامى ٠٠ وتعاليمه وأمجاده فى أقدس مكان من ملكها ، ولكنها لا تتاجر به ضد نفسها ، ولا تسمح لأحد أن يتاجر به ، لينصر الاستعمار ، والاقطاع ، والغيبية ، والكهانة ٠٠

روز اليوسف ١٩٦٠/٩/٢٦

الثورات فى حياة روزاليوسف

حين صدرت روز اليوسف منذ ٣٥ عاما ، كانت مجلة فنية صرفة ، تصدر فى ١٦ صفحة ، وتباع النسخة منها بنصف قرش ٠ ولكن المجلة ما لبثت ان خاضت بحر السياسة المضطرب بعد ستة شهور من عمرها ، وكان المقال السياسى الاول فيها بامضاء صاحبة المجلة ٠٠ الفنانة روز اليوسف ، التى هجرت المســـرح منذ عهد قصير ، وكان المقال تسجيلا لمشهد يشبه مشاهد المسرح التى عرفتها الفنانة الكبيرة الشابة ٠٠ مشهد محاكمة أحمد ماهر والنقراشـــى واصحابهما فى قضية الاغتيال السياسى ٠

كانت المحاكمة تمثيلية متقنة الاعداد ٠٠ قام بتلفيق فصولها ضباط انجليز ، يضعون على رءوسهم الطرابيش الحمراء الزاهية ويفاقئون بالعربية ، ويشرفون على بوليس مصر ، وعرضت القضية على قضاة انجليز ، يرأسهم قاض اسمه غريب ٠٠ مستر كرشو ٠٠

جلست الممثلة فى مقعد الصحفيين ، تستمع الى أبطال المسرحية الجديدة ٠٠ وتقارن بين قاضى المحكمة وقاضى المســـرح ، وبين قواعد القضاء ، وقواعد الفن ، ومتهمى الحياة ومتهمى التمثيل ٠ ثم خرجت فى الطريق الى بيتها ومجلتها ، فى الشقة المرتفعة التى

تقع فى أعلى عمارة متواضعة بشارع جلال ، صـــعدت الدرجات الخمس والتسعين ، وجلست لتكتب مقالتها السياسية الأولى ··

وكتبت روز اليوسف :

ذهبت الى المحكمة ، وقد أعجز عن تحديـد الأســـباب التى حملتنى على الذهاب ·· ولكن ذهابى لم يكن لمجـرد (الفرجـــة) وحسب ، بل لعل سر هذه الرغبة هو ميل خفى الى المقـــارنة بين مانفهمه نحن الممثلين والممثلات عن المحاكمات و (أبطالها) من قضاة ومحامين ومتهمين ·· وبين حقيقة ما يجرى فى المحكمة · « انـــى الآن لأقارن بين القاضى الحقيقى مستر كرشو وبين الممثل بشـــارة واكيم أفندى رئيس قضاة المحكمة فى رواية جاكلين ·· فلا استطيع الا أن ابتسم ·· الخ »

وأثارت المقالة ضجة كبيرة ، ونزلت روز اليوسف الى ميدان السياسة ، وتوارى الفن ، صفحاتها الأخيرة ·

وكان لابد أن تنزل المجلة الى هذا الميدان ·· أياما يأكل الناس فيها خبزهم مخلوطا بالمناقشة ·

ولم تكن روز اليوسف ــ من عددها السياسى الأول ــ حائرة أو غافلة عن الخدعة ··

كانت تعرف أن فى مصر قوى ثلاثا أولها الشعب الذى أراق دمه على مذبح الثورة ، وبرز له من خلال الزحام وجه مصرى ·· أول مصرى خالص يتصدى لقيادته بعد عرابى ومصطفى كامل،وجهه أسمر صارم التقاطيع ، ركب على قامة عملاقة ، فمشى الشعب وراءه فى تسليم دون أن يجهد نفسه فى البحث عن ماضيه ··

كانت زعامة سعد زغلول ظاهرة العصر التى استعصت على

التعليل فى ذلك الوقت ، قال عنه بعض خصومه ، ان سعد زغلول قد يكون رجلا عظيما ، ولكن المصريين يتخيلونه أعظم مما هو ٠

والواقع أن المسألة لم تكن مسألة عظمة أو خيال ، ولكنها كانت احساسا بالقرب والالفة من هذا الفلاح الذى خرج الى الحياة عاريا من مجد الوراثة أو الثروة كما خرجوا جميعا ، ثم وصل الى القضاء والوزارة باجتهاده وذكائه ٠٠

ومن ينافسه ؟

عدلى يكن ، وكلمة « يكن » بالتراكية معناها صهر أو نسيب ، وقد نال جده هذا اللقب لأنه صاهر محمد على الكبير منذ مائة سنة، ومحمد محمود ابن محمود باشا سليمان الذى تعلم فى كامبريدج ، والذى يروى الناس انه يرسل ملابسه بالطائرة لتكوى فى لندن ، وعلى ماهر ، ابن محافظ القاهرة السابق ، واسماعيل صدقى ، ابن الأعيان وصهر الأعيان ، وعبد الخالق ثروت وزيور التركيين ٠٠

واختار الشعب سعد ، ولم يكن مخطئا فى اختياره ، فكل هؤلاء كانوا لا يؤمنون به ، ويطلقون على أنفسهم تارة اسم « العناصر الرشيدة » كما قال محمد محمود ، وكم سخرت روز اليوسف من هذين التعبيرين الجديدين فى السياسة المصرية ٠٠

وكانت القوة الثانية ، هى قوة الانجليز ٠٠ وممثلهم فى قصر الدوبارة ٠٠

أما القوة الثالثة ، فهى الملك فؤاد الذى التقطه الانجليز من على موائد القمار،فتصارع فى نفسه ولاؤه لهم ورغبته فى الاستبداد فلم يجد منصرفا لاستبداده الا الشعب ٠٠

واختارت روز اليوسف القوة الأولى ٠ ووقفت فى وجه القوتين المعاديتين ، وكانت القوى الثلاث تختلف فى طبيعتها ، فقوة الملك

فؤاد قوة شرعية بحكم الدستور والقانون ، وقوة الانجليز قــــوة فعلية لا يعنيها دستورا أو قانون وقوة الشعب هى القوة الحقيقية التى يخشاها الجميع ويحاولون تحطيمها أو تضليلها ..

وقامت روز اليوسف بدورها فى توعية الشعب وتنبيهه الى حقوقه ، وقامت بدورها أيضا فى محاولة ايقاف القوتين المعاديتين له عند حدودهما ..

عاتبت روز اليوسف فى اعدادها الأولى أعضاء مجلس النواب لتغيبهم عن جلسات المجلس ، وقالت لهم ساخرة : « أتريدون أن نعين لكم « ألفة » تكون مهمته مراعاة الحضور والغياب » ..

وحدث فى عامها الثانى أن أوعز المندوب السامى لبعض أعيان الصعيد أن يوجهوا له الدعوة لزيارة قراهم ، وزار المندوب السامى الصعيد ، وخطب فى المحتفلين به متحدثا عن القطن والتعليم وكان ذلك ضربة قاسية للاستقلال الناشىء ، وكتبت روز اليوسف .

« ان المندوب السامى مازال يجرى على نفس الخطة التى كان يسلكها من سبقوه ، وينهج نهج من يحسب نفسه واليا فى مستعمرة أو حاكما لاحدى أملاك التاج » .. واستطردت روز اليوسف فوصفت من دعوه الى النزول فى بلادهم من الأعيان بأنهم « أكوام قذرة من اللحم النتن الرخيص » ..

وكثير من القراء يذكرون فضيحة اليخت « فخر البحار » التى أثارها فاروق . حين دفع الدولة الى شرائه واصلاحه ليستغله فى رحلاته الماجنة ، ولكنهم قد لايذكرون أن فؤاد أثار ضجة أخرى تشبه تلك الضجة فى عام ١٩٣٧ ..

فى يولية عام ١٩٣٧ اراد الملك فؤاد أن يزور أوروبا فى رحلة اعلن انها شخصية ، ورفض أن يصحب فيها رئيس وزرائه أو وزير

خارجيته ، وطلب من مجلس النواب الذى كان يرأسه سعد زغلول اعتماد ٢٠ الف جنيه تكاليف الرحلة ٠ ٠

ورفض سعد زغلول ورفض المجلس وراءه ، وقال النواب ٠٠ مادامت الرحلة رحلة شخصية فعلى الملك ان يدفع تكاليفها من جيبه الخاص ٠٠

وتراجع الملك عن موقفه لكى يستجدى العشرين ألف جنيه وقبل أن يصحب وزيره الأول ، وأصبحت الرحلة بعد ذلك الاجراء رسمية ٠

وكان ذلك فرصة لاتعوض لروز اليوسف لتبدأ فى السخرية بالملك ، فعلقت على الخبر فى لهجة شـــامتة ، وتتبعت رحلة الملك بالسخرية والتهكم ٠٠ حدث أن دخل يخت الملك ميناء طولون دون أن تحرسه باخرة مصرية واحدة لأنه لم يكن عندنا فى ذلك الوقت أسطول ، فعلقت روز اليوسف قائلة :

« ان يخت الملك لم تحرسه ٠٠ يا عينى ٠٠ الا عناية الله ٠ وزار الملك ليفربول فهبط سعر القطن فى ذلك اليوم فى بورصتها ريالين ونصف » ٠٠

وقالت روز اليوسف :

« كم كان الفلاح المصرى يغتبط لو ان سادة القطن المصرى فى لانكشير رفعوا أسعاره يوم زيارة جلالة الملك لبورصة القطن ، ولو ريالا واحدا على سبيل الذكرى »

وكانت الصحف المماثلة للسراى فى تلك الايام تفيض فى وصف الحفاوة التى يلقاها الملك ٠٠

ومات سعد زغلول ، ويتولى رياسة الوفد بعده مصطفى النحاس

وأقاله الملك الاقالة الأولى · وأحست روز اليوسف أن الدستور قد انتهك ، فكتبت تقول :

« ان اقالة الوزارة أمر لا تتسع له ذمة أى مشرع ، بل هو أمر يتراجع أمامه وينزوى خجلا كل دستور »

وصودر العدد الذى كتبت فيه روز اليوسف هذه الكلمات :

وتولى الوزارة محمد محمود ، وظهر محمد محمود بنغمة جديدة ، وهى أنه ممثل أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، وسليل البيوتات الكبيرة ، ولم ترض هذه النغمة الجديدة روز اليوسف ، مجلة الشعب ، فجعلت من كلمة « البيوتات الكبيرة » محل سخريتها اعدادا متتالية ·

كتبت روز اليوسف فى ٨ يوليو عام ١٩٣٠ تحت عنوان « سياسة الشوارع وسياسة البيوتات » تقول :

« ان سياسة الشوارع وحى من الله ونفس من انفاس الحرية ، ومشعلة مقدسة تأكل طغيان الظالمين »

وكان اسماعيل صدقى عندئذ ، وهو ابن بيوتات مثل سلفه محمد محمود ، يذيق الشعب أقسى ألوان العذاب ، وقام حكم اسماعيل ، وكثرت مصادراته للمجلة ، ولم يزدها ذلك كله الا تفاؤلا ، وليقرأ القارىء هذه الكلمات المضيئة :

« أمل واحد هو الذى يقف فى سبيل عزرائيل (اسماعيل صدقى) هو أملنا فى القرن العشرين · لقد حدثونا كثيرا عن الشعوب فى القرن العشرين ، وقالوا لنا ان الشعوب لا تحكم فيه مرغمة بالسيف والنار · فليظلم الليل مايظلم ، وليقس الطغيان مايقسو فى سفك الدماء · فوراء الليل وان طال فجر يصرع الظلم فيه مرة أخرى ، وسيكون مصرعه هذه المرة آية الآيات فى القرن العشرين »

وعطلت روز اليوسف بعد شهور قليلة من حكم صدقى عاما كاملا ، ظهرت فيه باسم الرقيب وصدى الحق والشرق والأدنى ومصر الحرة · وحين احتفلت روز اليوسف بعامها السابع أحصت الأعداد التى ظهرت منها فاذا بها ١٨٥ عددا فى الوقت الذى كان يجب أن تصدر ٣٦٠ عددا ·· كانت نصف سنواتها الأولى مصادرة وضغطا وتعطيلا ، وكانت تلك هى أقسى السنوات فى حياة مصر ·· السنوات التى تمخضت عن ثورة عام ١٩٣٥ والمعاهدة التى تلتها ·

ان لروز اليوسف دورا كبيرا فى اشعال شرارة هذه الثورة · ولكن كم كانت خيبة أملنا حين تمخضت الثورة عن هذا الكسب الضئيل ·

وروز اليوسف هى المجلة الوحيدة التى هاجمت معاهدة عام ١٩٣٦ قبل اصدارها وبعده ··

كانت روز اليوسف تحس أن طبخة المعاهدة قد تم طهيها قبل أن يجتمع المتفاوضون ، فقد نشرت فى ١٧ فبراير سنة ١٩٣٦ هذا الخبر القصير الذى أثار أزمة كبيرة فى ذلك الوقت :

« تشرف حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بالمقابلة الملكية يوم الثلاثاء الماضى ، وكانت مقابلة جديرة بأن يخلدها تاريخ مصر الحديث ، اذ عرض فيها رئيس الوزراء على مسامع جلالته الحل الذى وصل اليه دولته مع السير مايلز لامبسون » ·

وما لبث أن اجتمع المتفاوضون ، وشاع فى الناس أن الانجليز يطلبون بقاء قواعدهم العسكرية فى مصر ، وكتبت روز اليوسف تحت عنوان « استقلال واحتلال » تقول :

« اذا كان هناك من يدعى ان القضية المصرية تخرج عن هاتين الكلمتين ، فهو أما مخلوق جاهل لا يعيش فى هذه البلاد ، وأما

ثعبان خبيث يريد أن يتجاهل ما سلف من تضحيات الأمة لبيعهـــا رخيصة ·· وقد كان فى وسعنا منذ بدأت المفاوضات أن نشير الى أن طلبات الانجليز فى المسائل العسكرية معناها قلب القضية المصرية رأسا على عقب ، وكان فى وسعنا أن نقول أن قبول الدخـــول فى المفاوضة على هذا الأساس ليس الا امتهانا لآمال البلاد وتضحياتها ·· الا أننا اجتمعنا ، وفضـــلنا ان نتريث على أمـــل أن يتمكن المفاوضون المصريون من اقناع انجلترا بحل يرضى أمانى المصريين ولا يقر ما تدعيه بريطانيا من وجوب الخضوع للظـــروف الدولية الحاضرة ·

ولكن المباحثة فى هذه النقطة قد تعدت وطالت به أن الرأى قد تم بين الجانبين المصرى والبريطانى على مسألة النقط العسكرية ، وان ما اتفق عليه مبدئيا قد أرسل الى لندن لمعرفة رأى ولاة الأمور فيه ··

ونحن نحب ان نؤكد لكل من يخطر بباله ان يقبل التهاون فى هذه المسألة بالذات على أمل أن يخدع الأمة بشكل الاتفاق بينما يفوز الانجليز بجوهره وموضوعه أن كلمة الخيانة ستدمغ جبينه الى الأبد وأن لعنة البلاد ستظل تلاحقه ولو توارى منها وراء ألف باب وباب ·

ولكن الخيانة تمت ، والخديعة أحكمت ، وخرجت روز اليوسف وعلى غلافها هذه الكلمات القصيرة :

« وقعت المعاهدة ، والعياذ بالله » ·· وتوالت هجمـــات روز اليوسف على المعاهدة · كان عنوان المقال الافتتاحى الأول « خطوة موفقة ، ولكن نحو الموت الزؤام » ··

وتحت هذا العنوان كتبت المجلة فى لهجة مريرة ساخرة«أمضيت المعاهدة التى تبيح للانجليز كل شىء اذا رأوا ذلك ، ولا تعطـــى

للمصريين حقا ·· اللهم الا بأن يسمح للطائرات المصرية بالتحليق بنورها فى سماء لندن ··

اية مهزلة تلك التى مثلت فى هذه الأيــــام الأخيرة · وكان ضحيتها شعب طيب استثير فى سبيل الاستقلال التام ، فبذل دمــاء رخيصة طوال عشرين عاما »

وتنطلق الجرائد الحكومية ــ وأية جريدة لم تصــــبح بعد حكومية ؟ لتهنىء الشعب بهذا الفوز الذى احرزته مصر ، وبهذه الخطوة الموفقة التى خطاها وفد المفاوضة خطوة موفقة ·· نعم ··

ولكنها نحو الموت الزؤام ·

وعلى غلاف العدد الذى يليه نشرت روز اليوسف كاريكاتيرا يمثل مصر وقد انهمرت دموعها ، وهى تميل على ابى الهول منكسرة، جريحة ، وكتبت تحته : « تمثال نهضة مصر بعد المعاهدة » ··

وذهبت روز اليوسف الى أبعد من ذلك ، فدعت الى الثورة ، واعلنت أن الوطن قد نفض يده من جميع زعمائه ومستوزريه ، وأنه لا سبيل أمامه الا الجهاد المسلح ··

نشرت روز اليوسف فى عدد تال لهــذه الاعداد لكاريكاتيرا للشخصية التى ابتدعتها لتكون رمزا لرجل الشارع والمواطن البسيط « المصرى أفندى » كان المصرى افندى يقف وعلى وجهه تصــــميم نافذ ، وقد كوم حوله عشرات من البنادق والسيوف والقنابل ، وعن يمينه مدفع ضخم ، وكتبت تحتها « المصرى أفندى يهجر الســـــياسة والاشتغال بالأعمال الحرة » ··

وجاءت الحرب العظمى بظلامها الدامس وأحكمها العسكرية المتعسفة ، ورقابتها القاسية ، فسكتت روز اليوسف مضطرة ولكن البذرة التى ألقتها طوال بضع عشرة سنة كانت تورق فى النفوس ··

وحين أعلنت الهدنة عادت روز اليوسف لتؤدى دورها الوطنى فى الحض على الثورة رغم قيود الرقابة والأحكام العرفية التى ظلت معلنة على مصر ٠

هاجمت روز اليوسف اللورد كيلرن سفير الانجليز ، فصودرت وهى فى أيدى الباعة ٠٠

وفى عم ١٩٤٦ أغتيل أمين عثمان رسول (الصداقة) المصرية الانجليزية ، فكتبت روز اليوسف تحمل الزعماء والسياسيين جميعا تبعة قتل الرجل الذى عاون الانجليز لأنهم هم الذين مكنوه من أن يكون صاحب رأى فى السياسة المصرية ٠

وتصاعدت نغمة التحريض على الثورة سنة بعد سـنة حتى بلغت مداها فى عام ١٩٥١ ٠٠

ومن الجدير بالذكر أن هزيمة فلسطين وجدت صداها الأليم على صفحات روز اليوسف ، ومن خلال الخيبة التى عانيناها اتضح أمام روز اليوسف طريق الأمل وكتب احسان عبد القدوس فى روز اليوسف فى فبراير ١٩٤٩ :

« ان قضية فلسطين لم تنته ولكنها بدأت ، والذى انتهى هو الأسلوب الذى عولجت به ، والذى بدأ هو أسلوب جديد مرسوم لأجل طويل ، وليس فيه خطب ولا ولائم ولا اجتماعات » ٠٠

وكتب احسان بعدها بشهرين يتساءل :

« لماذا لا تقام حكومة عربية مركزية واحدة ، تتولى وحـدها الشئون الخارجية والعسكرية لكل دولة من الدول ؟ ولكن لو حاولنا أن نطبق هذا الاقتراح فماذا يكون مصير السادة الاجلاء الذى يهمهم أن تبقى كل دولة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخـرى من جميـع

النواحى ، حتى تكون خاضعة لهم يوجهونها بما شاءت لهم نفوسهم وماشاء لهم الهوى »

كلام مبكر فى أدائه ، جرىء فى اتجاهه ، ولكنه لايصدر الا عن روز اليوسف وقبل الثورة بأيام كانت النغمة قد ارتفعت الى أعلى مداها ٠

كتبت روز اليوسف فى ٣ يوليو سنة ١٩٥١ تحت عنوان « حكام من الأسياد وأمة من العبيد » !

اذن أين المفر

أين المفر من الظلم ، وأين المفر من الفقر ، وأين المفر الى النور ٠٠

ليس هناك الا أن يجتمع الفقراء فى وجه الاسياد ، ومادامو قد فهموا ، فلن يتجمعوا فى شكل عصابات اجرامية للسطو٠، بل يتجمعون فى شكل عصابات ثورية واعية لها هدف ولها نظام ٠٠

انى احذر ٠٠

فمصر لن تنام طويلا ٠٠

ولم تنم مصر طويلا ، حين استيقظت مصر استيقظ معها العرب فى كل مكان ٠ ان تاريخ أعوام ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، فى حياة روز اليوسف تاريخ حافل ٠ كانت الحملات التى أثارتها أكثر من أن تحصى ٠٠ حملة تشريعات الصحافة ٠٠ حملة أنباء القصر ٠٠ حملة الاسراف ٠٠ الحملة على فجور الملك فى الخارج ٠٠ الحملة على أذناب الملك من غير المسئولين وأخيرا ، الحملة الباسلة على الاسلحة الفاسدة ، ولو تتبعت هذه الحملات واحدة واحدة لما اتسعت لها صفحات هذا العدد ٠

وقامت الثورة ·· وكانت ثورة واعية لها هدف ولها نظام ، وثورة عربية تهدف الى توحيد شمل العرب ، واقرار تضـــامنهم ، ثورة اشتراكية لا تعترف بابناء البيوتات الذين حاربتهم روز اليوسف ·· طردت الثورة القوتين الغاشمتين ·· الانجليز والملك ·· ولـــم تبق الا القوة الضخمة الساحقة التى وقفت روز اليوسف بجانبها خمسا وثلاثين سنة ·· قوة الشعب ··

روز اليوسف ٣١/١٠/١٩٦٠

عيد الرجل المندهش !

الصعيدى الأزهرى الذى عبر البحر الى أوربا منذ مائة وخمسة وثلاثين عاما ، فلما نزل مارسيليا ، هو وزمــــلاؤه · حجزوه فى الحجر الصحى ، وفوجىء عندما حان وقت الطعـــام بأن الخدم « فرنساوية ، ولم يكن يظن ابدا ان الخواجات تعمل خدما · وفوجىء أكثر حين جاءوا بطبليات عالية ، لكل مجموعة طبلية ، ثم رصوا عليها الصحون البيضاء ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز ، وسكينا وشوكة ومعلقة ، ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى ، ثم جاءوا بالطبيخ ، فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا ، ليغرف ء الفة) الطبلية ·· فيعطى لكل انسان فى صحنه شيئا بقطعة بالسكين التى قدامه ثم يوصله الى فمه بالشوكة التى فى يده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينه ، ولايشرب من غير قدحه ابدا ··

هذا الانسان الذى نقلت لك عبارته فى الفقرة السابقة بنصها تقريبا ، وهو يحكى ذكرياته عن السنوات الخمس التى قضاها فى باريس · ويجمعها فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، هو رفاعة الطهطاوى ·· أول متعلم ومعلم فى بلادنا فى العصور

الحديثة ، وهو الرجل الذى يجب أن نذكره ، ونحن نحتفل بعيد العلم ٠

لقد قضى رفاعة خمس سنوات فى باريس ، لم يكف اثناءها عن رفع حاجبيه من الدهشة ، حين يرى النساء والرجال والجامعات والمدارس والمسارح ودور الكتب ، والمعامل والعلماء والصحف والمجلات ، والثورات التى تسيل فيها الدماء ، والمناظر الطبيعية الجميلة التى تسر القلب ٠

ولكنه كان يشفع دهشته دائما بالحركة ، الحركة المتجهة الى المعرفة ، فأخذ يقرأ ويدرس ، ويترجم ويلخص ، وهو يفكر فى نفس الوقت : كيف ينقل كل ذلك العلم ٠٠ كل تلك المعرفة ٠٠ كل هذا النور الى ظلام وطنه ٠

وحين عاد حدث أبناء وطنه عن جان جاك روسو ، ومنتسكيو والحكيم فولتير ، وكتب لهم أن عدد القارات ست ، وأن الأرض كروية ، وتدور أيضا حول الشمس ٠٠ وانك تستطيع أن تحل مسألة من مسائل الحساب دون أن تفكر فى اعراب كلماتها أولا ، كما كان يفعل علماء الازهر الشريف ٠

وأدهشت كلمات الرجل مواطنيه ، وفتحت عيونهم ٠٠ فتحركوا ٠٠

هذا الرجل هو رمز الشرق الذى استيقظ ، والذى يجب أن يظل يقظا دائما ، يأخذ من الغرب علمه وثقافته ، دون ان يركبه الغرور أو الزهو أو التواضع الوضيع ، اقدمه فى هذا الاسبوع عبرة لأولئك الصارخين ، الذين يقولون وهم يحتمون بجهلهم ٠٠ كفانا تراثنا العربى !! لماذا اذن لا يدعون للجلوس على الطبلية ؟!

روز اليوسف ١٩٦٠/١٢/١٩

ثمن كلمة ((لا)) !

ان الجمهورية التى يفكر ديجول فى اقامتها فى الجزائر ستكون جمهورية « مستوطنين » لا جمهورية « مواطنين » .. جمهورية يكون فيها الجزائريون مواطنين من الدرجة الثانية ، أو مواطنين من الدرجة الأولى فى الصحراء القاحلة ، بينما ينهب الفرنسيون السواحل الخصيبة ، ومنابع البترول فى الجنوب .

جان لوى بارو هو أكبر ممثل مسرحى فى فرنسا .

ومسرح الكوميدى فرانسيز ، هو اكبر مسارح باريس ..

وكثيرا مايقدم جان لوى بارو على مسرح الكوميدى فرانسيز اخراجه المبكر لمسرحية شكسبير الجديدة « يوليوس قيصر ، ويستمر عرضها اسابيع طويلة .

وفى هذا الموسم المسرحى ، قدم جان لوى برو مسرحيته ليومين فقط ، ثم قرر أن يوقفها ، لأن شخصية يوليوس قيصر ارتبطت فى اذهان المتفرجين بشخصية ديجول ، ولأنه خشى ان يكون فى المصير الذى ترسمه المسرحية ليوليوس قيصر تحريض غير مباشر على وضع الكلمة الأخيرة فى مصير ديجول .

ان كليهما يشبه الآخر حتى فى الشكل ، فيوليوس قيصر من خلال تماثيلة التى حفظتها لنا المتاحف ، وصورته التى رسمها لــه المؤرخون ، طويل القامة كبير الأنف ، ملامحه ناطقة بالغرور مثــل ديجول ·

أما فى الموضوع فكلاهما ارتبط اسمه بالدولة اثر حــرب ، تحولت من هزيمة الى نصر ، وكان ديجول قد انتصر بمعونة أصدقائه الانجليز والامريكان ، وكلاهما أيضا ، أعلن أنه هو الدولة ، والدولة هــى شخصه ، وكلاهما ايضا يطعنه أصدقاؤه وزمـــلاؤه بنفس السيوف التى رفعوه بها الى مقعد الحكم ··

ان سالان وماسو ولاجيار واريتز ، والثلاثة الاول ضـــباط قدماء ، والرابع صاحب مقهى تحول الى السياسة والزعامة،هؤلاء هم الذين جاءوا بديجول للحكم بعد عزلته الطويلة ، وهم أنفســهم الذين يمسكون بالخنجر ليغمدوه فى صدر القيصر العجوز ، وهؤلاء الأربعة هم الذين يتولون زعامة المليون متوطن فرنسى فى الجزائر ، وهم يقولون لهؤلاء المتوطنين : ان معنى استقلال الجزائر ان يأكلكم الجزائريون ، فبعد ست سنوات من الحرب الدامية ، لا تستطيـــع الحكومة الجزائرية التى قد تقوم فى المستقبل أن تنسى ثارها ودماء ابنائها وترحب بكم كمليون من المستوطنين وسط عشرة ملايين من أهل البلاد ، ويجب ان تحكموا ـ أنتم ـ الجزائر ··

ويحاول القيصر العجوز أن يتفادى الخنجر المصــوب الى ظهره ، وأن يتفادى استقلال الجــزائر فى نفس الوقت ، فيقــدم مشروعاته المتوالية ، واقتراحاته المتذبذبة ، التى كان آخرها مشروعه باجراء استفتاء شامل فى فرنسا والجزائر فى أول يناير ، يوجه فيه للجميع سؤالا واحدا مكونا من نقطتين ، على أن تكون الاجابة عنهما بنعم أو لا ··

والسؤال هو :

ـ هل تؤيد مبدأ تقرير المصير بالنسبة للجزائر ، واذا أيدت المبدأ ، فهل تؤيد الاجراءات التى يقوم بها الجنرال ديجول لجعل الجزائر جزائرية ؟

وسافر ديجول الى الجزائر وفى ذهنه أن يطوف بالبلاد · وان يلتقى بالمستوطنين الأوروبيين ، وأن يحاول اقناعهم بالانضمام اليه بدلا من السير وراء سالان وماسو ، ولاجيارد وأورتيز ··

واعتمد ديجول فى كسب تأييد المتوطنين على شيئين ، أولهما شخصيته ، وثانيهما ١٥ الف جندى بوليس فرنسى متخصص فى تفريق المظاهرات ·

ولكن البوليس الذى استقدمه ديجول لم يكف لتفريق المظاهرات والقضاء على المعارضة ، لأن المليون متوطن اختفى معظمهم فى جحورهم ، وخرج الى الهواء الطلق ، عشرة مليون جزائرى يعلنون رأيهم ، ويقولون لديجول : عد الى بلدك ، ولعباس فرحات : تقدم الى الحكم ··

لقد تم الاستفتاء فى الجزائر قبل موعده المحدد بشهر ، وكانت نتيجته ، لا ··

وسالت دماء كثيرة ، ثمن « لا الكبيرة التى أطلقها المواطنون الجزائريون ·

وهذه الدماء التى سكبت هذا الاسبوع هى التى صبغت مناقشات الأمم المتحدة حول تقرير المصير ، وهى التى لوحت بها الجبهة الافريقية الآسيوية ، تلوح بها أمام الدول المترددة ، أو الخائفة ، من تأييد قضية الجزائر ··

لقد كان معظم المعلقين السياسيين يتوقعون قبل مذبحة الجزائر

الأخيرة أن يتقدم سوستيل ، ومن ورائه زعمـاء المتوطنين للقيام بانقلاب ، يمينى ضد ديجول ٠٠ أن يطعنوه بخنجر بروتس ، ولكن هذا الاجماع الذى واجه به الشعب الجزائرى ديجول ، وهذه الدمـاء التى أريقت جعلتهم يردون الخنجر الى غمده ويفـكرون الآن فى الوقوف وراء ديجول ، وتأييد مشروعه ٠٠

لقد كانوا يقولون : لاتلقوا بالا لجبهة التحرير ٠٠ لأنها مجرد مجموعات متفرقة من الثوار ، لا تمثل شعب الجزائر ٠٠

ولكنهم وجدوا ، ووجد العالم كله معهم ٠٠ أن شعب الجزائر كله ثوار ، حين قامت المظاهرات فى القصبة وقسطنطينية ووهران ، فى كل مناطق الجزائر ٠٠

انهم أدركوا أنهم قد وقعوا فى نفس الخطأ للمرة الثانية ، ففى المرة الاولى أعلن مديس فرانس ومن بعده جى موليه ، حين كانا رئيسين متعاقبين لحكومة فرنسا فى أعوام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، انهما يعدان برنامجا للحكم المحلى فى الجزائر ٠٠

كانت الثورة عندئذ فى بدء سـنواتها ، ووقـف المتوطنون الفرنسيون بضراوة ضد مشروعات منديس فرانس وجى موليه ٠ وكانت النتيجة أن انضم من كانوا يسمونهم بالمعتدلين من الجزائريين الى ركب الثورة ، وكان على رأسهم فى ذلك الوقت فرحات عباس نفسه ، الذى أصبح فيما بعد رئيسا لحكومة الجزائر المؤقتة ٠

وهذه هى المرة الثانية ٠٠ وكانت نتيجتها أن انضم الجميـع بلا استثناء الى الثورة ٠

ووضع المتوطنون خنجر بروتس فى غمده ، وابتدأوا يفكرون فى كلمات ديجول ٠

وكلمات ديجول مطاطة دائما ، وهى أيضا سلسلة من التنازلات ٠

ففى المرة الأولى منذ عام تحدث عن « الشخصية الجزائرية ثم تحدث عن « الجزائر الجزائرية » ، ومنذ شهرين تحدث عن « الجمهورية الجزائرية » ٠

وأمام السلم الطويل المنحدر من الكلمات كانت تدفعه متاعبه ومخاوفه ٠٠ وخبثه ٠

انه يحرص على أن يحيط كل كلمة من كلماته بغشاء من الغموض ، وعلى أن يدفع أحد معاونيه بعد اطلاق هذه الكلمة أن يسحبها بنفس التصريح الذى يحاول أن يوضحها فيه ٠

فحين تحدث عن تقرير المصير ، وعرض حلوله الثلاثة : الاندماج أو دخول مجموعة الدول الفرنسية أو الاستقلال حرص على أن يدفع ديبريه رئيس وزرائه الى أن يقول :

ان الاستقلال معناه تقسيم الجزائر الى قسمين : قسم غنى خصب تسكنه الأقلية الفرنسية ، وقسم قاحل للجزائريين ٠٠ وديجول يختار لكلماته الوقت المناسب ٠٠ ففى العام الماضى ، قبل أن تطرح قضية الجزائر فى الأمم المتحدة بشهرين أعلن ديجول عن مشروعه بشأن تقرير المصير ، وكأنه يقول للمجتمعين : أرجوكم أن تتوقفوا عن اصدار قراركم بادانتى وادانة فرنسا حتى تروا خطواتى لتقرير المصير وكسب ديجول عاما طويلا ، وصبرت عليه الأمم المتحدة ٠٠ حتى تقدمت الجبهة الافريقية الآسيوية بمشروعها لاجراء استفتاء الجزائر تحت رقابة الامم المتحدة بعد عام طويل من الانتظار ٠٠

وأسرع ديجول والامم المتحدة منعقدة لمناقشة المشروع ، وأعلن عن الجمهورية الجزائرية ، وعن استفتاء الفرنسيين ، ليضمن تأييدهم له فى خطواته ٠

ان ديجول يريد أن يقطع الطريق مرة ثانيـة ، على الامـــم المتحدة ٠

ولكن ماهى هذه الجمهورية الجـــزائرية التى يعلن عنهـــا ديجول ٠٠

لنبحث أولا الشروط التى يعلن ديجول أن الجمهورية الجزائرية ستقوم فى ظلها ٠٠

● لن يتم اتخاذ أى اجراءات بشـــأن انشـــاء الجمهورية الجزائرية الا بعد سنوات طويلة ، يلقى فيها الثوار الجزائريـــون سلاحهم ، ومعنى ذلك ان يفقد الشعب الجزائرى الحائط الذى يستند اليه ، ويواجه تصرفات ديجول ، وهو أعزل وظهره عريان ٠٠

● فى الاستفتاء بشأن اجراءات ديجول نحصى أصوات كل اقليم من اقاليم الجزائر الستة على حدة ، بحيث يمكن استخدام هذه النتيجة لتمييز حدود التقسيم فى المستقبل ، اذا أصر الجزائريون على الاستقلال التام ٠٠

فاذا علمنا أن المدن الكبرى والموانىء مثل قسطنطينية ووهران هى التى تتركز فيها أغلبية المواطنين ، أدركنا مـــاذا وراء هذا الشرط ٠

● الجيش الفرنسى فى الجزائر هو الذى يشـــرف على اجراءات التمهيد للاستقلال ٠ نفس الجيش الذى قتل عشـــرات الألوف من الجزائريين ، وشرد مليونا من السكان ، ولم يعرف فى حينه الا الهزيمة فى فرنسا وداكار وسورية والهند الصينية ، ولـــم يبق له للانتقام من كل أصناف الاذلال والمهانة التى تعرض لها فى كل مكان ، الا الجزائر ٠

وتحت هذه الشروط الثلاثة التى يلوح بها ديجول ، لاينتظر

ان تكون الجمهورية الجزائرية الا جمهورية مستوطنين • لاجمهورية مواطنين •

جمهورية يكون فيها سكان البلاد مواطنين « من الدرجة الثانية» وعلى أحسن الاحوال يكونون مواطنين من الدرجة الاولى في الصحراء القاحلة ، ويبقى الشط الخصيب لعصابات لاجبار دوسالان وريتز ولكن لماذا كان هؤلاء اذن يعارضون ديجول طوال السنة الماضية ؟

لعلهم كانوا يريدون ابادة الشعب الجزائرى كله ، حتى تخلو لهم الأرض ، بعد أن القى فى عقولهم الخربة طوال سنوات وسنوات أن الجزائر مقاطعة فرنسية •

ولعلها – أيضا – وهذا ليس غريبا خطة لكسب بعض الأرض لديجول ، حين تبرزه ازاء العالم ، العاقل الوحيد وسط مجموعة من المجانين •

روز اليوسف ١٩٦٠/١٢/٢٦

اسرائيل ليست فى آســيا

ان موقفنا حين نصر على رفض الاشتراك فى أى مؤتمر تدعى اليه اسرائيل ، وتحضره الدول الاسيوية أو الافريقية ·· موقف طبيعى ، ومنطقى ، ومنسجم مع الواقع القريب ، ومع التاريخ البعيد أيضا ··

والـدول الآسيوية او الافريقيـــة التى تدعو اســـرائيل الى مؤتمراتها ، أو تسمح لها بالتغلغل فى ارجائها ، أو تتوقع ان تستفيد بعض الخبرة الاقتصادية أو الفنية منها ، هذه الدول تخطىء فى حق الواقع ، وفى حق التاريخ ··

ان اسرائيل ليست دولة اسيوية ، وان كانت الأرض التى تحتلها تقع فى اسيا ··

وليست أيضا دولة آسيوية ، وان كان شعبها يحاول ان ينبت انتماءه الى يهود فلسطين قبل ميلاد المسيح ··

ولكن الحقيقة ، كما كشفتها كتابات المؤرخين ، هى أن شعب اسرائيل الحالى لا تمت الاغلبية العظمى منه بصلة ما الى الشعب اليهودى الذى عاش فى فلسطين قبل الميلاد ··

وليس هناك نسب اطلاقا بين شعب موسى ويعقوب وابراهيم وغيرهم من أنبياء العهد القديم ، وبين شعب بن جوريون وحاييم لاسكوف وناحوم جولدمان ..

والصلة الوحيدة التى قد تكون بينهم هى كالصلة بين رجل كاثوليكى فى فورمورا مثلا ، دخل الكنيسة بفضل بعثات التبشير ، وبين القديس بطرس المسماة باسمه كنيسة روما ، والذى يتربع بابا الفاتيكان على عرشه ، كما يقول المؤرخ « أرنولد توينبى » أكبر مؤرخى الحضارة الاحياء الآن ..

وبالطبع ، لا يستطيع الصينى الكاثوليكى أن يدعى أن له الحق فى ان يرث كنيسة القديس بطرس ..

ولكن بن جوريون وجولدمان ومن قبلهم تيودور وهرتزل زعموا أن لهم الحق فى وراثة موسى وابراهيم ويعقوب .

كيف حدث ذلك ؟

لنعد الى التاريخ .. الى أعمق أعماق التاريخ ..

لقد سكن اليهود فلسطين ، قبل الميلاد بحوالى ثمانية قرون مع غيرهم من الامم كالفينيقيين والمؤابيين والسلوقيين ..

ولكل هذه الامم انتهت ، واندمج أفرادها مع شعوب أخرى ، وكونوا قوميات أقلية تخشى أن يضيع كيانها ، اذا فقدت تماسكها ، ولذلك فقد حرص حاخاماتهم وكبار رجال الدين منهم ، على أن يلقوا فى أذهان تابعيهم ان اليهود هم شعب الله المختار ، وان الامم الاخرى تقل عنهم فى الدرجة ..

وبفضل هذه العنصرية ، ولكونهم اقلية ، استطاع اليهود أن يحتفظوا بتماسكهم ، رغم انهيار دولتهم فى القرن الاول قبل الميلاد

ورغم أن الفرس والاشوريين والرومان حاولوا ان يفرقوهم وأن يبعدوهم عن فلسطين ..

وكان عددهم كما يقدره المؤرخون لايزيد عن بضع مئات من الألوف ، وكان هروبهم الى مصر وأرجاء الشام والعراق واليمن والمغرب ..

واستقر معظمهم فى القرون الوسطى فى الدولـــة العربيـــة الاسلامية الواسعة التى بشرت بالتسامح الدينى ، ومكنت بعضــهم من ان يصل الى كرسى الوزارة .

لقد كان وزير المهدى أحد خلفاء الدولة العباسية اسمه يعقوب بن داود .

والتاريخ العربى الاسلامى يحفظ فى ثناياه أسماء موسى بن ميمون الطبيب اليهودى ، واســـحق بن سهل الشـــاعر اليهودى وغيرهما ..

ولكن الغريب انه حين بدأت الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، بعد نشوء الصهيونية الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر ، كان جميع المهاجرين من الأوربيين !

وكانوا بالذات من روسيا القيصرية وبولندا ولتوانيا وألمانيا ، والآن مثلا يحمل جميع زعماء اليهود أسماء أوروبية ألمانية التركيب مثل حاييم « جولدمان » وجولدا « مائير » أو روسية التركيب مثل « لاسكوف » ..

والوزير اليهودى الذى اختاره كنيدى اسمه روسى الاشتقاق .. حاييم « ريبكوف » ..

والسؤال الآن : من أين أتى هؤلاء اليهود ؟

هذا السؤال يجيب عنه كثير من المؤرخين وفى مقدمتهم أرنولد توينبى فى تاريخ الحضارة ·· وجرينز فى « تاريخ اليهود » وغيرهما ··

فى القرن الثامن الميلادى قامت فى روسية الجنوبية ، قبل أن تقوم القيصرية الروسية دولة تدعى دولة « الخزر » ·

كانت هذه الدولة مكونة من بعض القبائل المغولية التى استوطنت المنطقة من بحر قزوين الى البحر الاسود ، وبنت عاصمتها « انيل » على نهر الفولجا ·· ولكن يحدها من الغرب الدولة البيزنطية المسيحية ، ومن الجنوب الدولة العربية المسلمة ، فوجد « خاقان » ـ أى حاكم ـ هذه الدولة الوثنية أن انتماءه الى احدى الديانتين معناه الوقوع تحت سيطرة الدولة التى تتبع هذه الديانة ، فاعتنق الديانة اليهودية هو وشعبه ··

والمؤرخون يقدرون تعداد شعب الخزر بعشرة ملايين نسمة فى ذلك الوقت · وظل الخاقانات اليهود يحكمون دولتهم قرنين ونصفا من الزمان حتى قامت دولة روسيا الجديدة ، ودمرت حكومة الخزر فى عام ١٠٦٦ ميلادية · فهاجر بعضهم الى كييف فى أوكرانيا ، وفر آخرون الى أراضى بولندا ولتوانيا ورومانيا ، وتفرق الكثيرون فى بلاد أوربا المختلفة ·

ولما كانت الحكومة القيصرية الروسية حكومة مسيحية متعصبة فقد الزمتهم بالاقامة فى الأحياء اليهودية المغلقة « اخيتو » · وأقصاهم القياصرة المتوالون عن الاشتغال بالحياة العامة ·

أما الذين هربوا الى المانيا وانجلترا وأمريكا بعد ذلك · فقد ظلوا يحتفظون بأسمائهم الروسية ، وظلت أوربا تطلق عليهم لقب اليهود الروس ، بل ظلت اسماء معظمهم تتضح ذلك الاصل الخزرى الروسى ·

ونظرة الى أسماء مفكرى الصهيونية وقوادهـــا على مـدى تاريخها تثبت انها غزو أوربى لقارة آسيا ، من أول ايامها ٠

فمثلا موشى هيس ، ألمانى ٠٠ وليون بينسكر ، روسى ٠٠ واسبرينزبرج الذى غير اسمه الى احادها عام ، بمعنى واحد من الشعب « روسى ايضا ٠٠ وناحوم سوكونوف ، روسى ٠٠ وحاييم نحمان بياليك ، روسى ٠٠ وهيرمان سابيرو ٠ روسى ويعقـوب بورخوف روسى ، و أ ٠ د غوردون بولندى ٠

وهؤلاء هم زعماء الفكرة الصهيونية ٠ قبل نشوء دولـــة اسرائيل ٠ أى خلال الفترة بين ١٨١٢ و ١٩٤٨ ٠

أما حكام اسرائيل الحاليون فجميعهم من أصل روســـى أو بولندى أو المانى أو مهاجرى أمريكا ٠

هذه هى كلمة التاريخ البعيد حتى نصل الى نشوء الدولـــة فى عام ١٩٤٨ ، فنجد ان اسرائيل تصبح اكثر « أوروبية » واقل « آسيوية » ٠٠ عاما بعد عام ٠

لقد كان عدد اليهود فى فلسطين عام ١٩١٨ حين اعلن وعد بلفور ٥٥ الفا ٠٠ وصلوا الآن بفضل الهجرة الى مليونين تقريبا ٠

وجداول الهجرة الصادرة من الوكالة اليهودية تكشـف عن خطة اسرائيل فى الهجرة ٠

فبين عامى ١٩١٨ وعام ١٩٤٨ كانت نسبة المهاجرين الأوروبين والامريكيين الى المهاجرين عموما ٦ر٧٩ فى المائة ، وارتفعت هذه النسبة بين عامى ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ الى ٨٩ فى المائة ٠

أما بقية المهاجرين فهم من يهود آسيا ٠٠ يهود اليمن والمغرب وتركيا وايران وبقية بلاد الشرق الأوسط وهم يعيشون فى ارض

اسرائيل حقاة لاتفوقها فى السوء الا حياة العـــرب الذين بقوا فى اسرائيل بعد الكارثة ·

وشكواهم المرة من الاضطهاد الذى يصبه عليهـــم اليهـود الاوروبيون لا تنتهى ·

وبعد ··

فهذه هى اسرائيل ·· التى تتوهم بعض الدول الافريقيـــة والآسيوية انها جزء من آسيا ·

انها تاريخيا ، وبالارقام ، جزء من أوروبا المستعمرة ·

روز اليوسف ٢/١/١٩٦١

لا قبرص .. ولا لبنان ... بل الواقع

فى أوائل الاسبوع الماضى ، لبس ديجول حلتــه الزرقــاء الداكنة ، كما قالت صحيفة « النيوزويك » الأمريكية ، ووقف امــام عدسات التليفزيون وأبواقه ليوجه حديثه الى الشعب الفرنسى ، والى المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر ، والى أهل الجزائر انفسهم ٠

وقال الذين شاهدوه ان الرجل الذى حاول فى الســنوات القليلة الماضية ان يصبح نصف ملك ، فجمع فى يده كل السلطات ، وقال للفرنسيين أنه مندوب العناية الالهية لانقاذهم ، هذا الرجل .. أصبح أمام التليفزيون نصف ذليل ، ولم تستطع الحلة الزرقــاء الداكنة ، والالوان الغامقة التى تخلع على شاشة التليفزيون كبرياء وغموضا ، ولا النشيد الوطنى الفرنسى الذى سبق كلماته لــم يستطيع كل ذلك ان يخلع على ديجول شارات العظمة التى حاول ان يثبت بها سلطانه فى السنوات الأخيرة ٠

وكان اكثر ماقدمه ديجول دليلا على ضعفه هو كلماته ، التى تراوحت لهجتها بين الرجاء الملحف والتهديد المستمر ، قال ديجول لمستمعيه :

« ان طلب المستحيل خطأ ، واذا اراد الانسان مــالا يكون

فليأمر بما لايمكن ·· وتحويل المسلم الجزائرى الى فرنسى مستحيل فارجوكم أن تصوتوا الى جانبى فى استفتاء ٨ يناير المقبـــل ·· قولوها « نعم » صريحه مدويه ، وقعوا الى جانبى و « نعم » التى يطالب ديجول الفرنسيين والجزائريين بأن يقولوها ، تعنى ان يوافقوا على حق الجزائر فى تقرير مصيرها ، على ان يتـــرك التفكير فى خطوات هذا الحل وفى تنفيذها لديجول وحده ·

فمن يقولون « نعم » يوافقون على مشروعات لم تعرض بعد · وعلى افكار لم تعلن حتى الآن ، انهم يوافقون على مايدور فى عقل ديجول ، دون ان يكشف ديجول نفسه عما يدور فى هذا العقل ·

وقد كان ديجول قد عرض من قبل ان يوجه استفتاء الى شعب الجزائر يخير فيه بين ثلاثة حلول :

الاندماج ·· أو الارتباط بفرنسا ·· أو التقسيم ··

وبالطبع كان اعلانه الأخير أن « الجزائر جزائرية » معناه تنازله المطلق عن مبدأ الاندماج ، وفى كلمات خطابه الأخير مايوضح انه قد ابتلع هذا الحل الوهمى الذى كلفه ست سنوات من الحـــرب ونصف مليون جندى يحملون سلاحهم صباح مساء ··

ويبدو كذلك أنه قد أحس أن الارتباط بفرنسا هو الآخر حل زائف ، وخاصة أنه شهد غينيا ، حين خيرت بين الاســـتقلال مع الارتباط بفرنسا ، وبين الاستقلال التام ، فآثرت الاستقلال التام مع مايحيط به من مصاعب تواجه كل دولة ناشئة ، وشقت غينيا طريقها ورسمت علاقاتها بالشرق والغرب ، وحصلت على المعونـــات التى رفضت فرنسا أن تهبها لها دون عدوان على الاستقلال ·

وديجول أيضا يخشى التقسيم ، لأن الضمير العالمى لن يبتلع جريمة كهذه فى عام ١٩٦١ ، وخاصة بعد ان أصــبحت قضـــية الجزائر اقرب الى أن تكون قضية دولية ·

والذين يفكرون لديجول فى قصر « الاليزيه » ، ويرسمون له خطواته المقبلة مازال فى جعبتهم مشروعات جديدة ٠٠ يتقدمون بها الى الديكتاتور العجوز ٠

انهم يديرون عيونهم فى خريطة العالم بحثا عن بلاد تتعايش فيها العناصر المختلفة ثم يحاولون أن يطبقوا نظم الحكم فى هذه البلاد على الجزائر فى سنواتها القادمة ٠٠

ومشروعات الذين يفكرون فى قصر الاليزيه ، لم تعلن بعد ، ولكن الصحف الغربية ، فى أمريكا وأوروبا تتكهن بها ٠٠ وتطـرح بعض خطواتها العامة على الرأى العام فى بلادها ٠٠

وأول هذه المشروعات هو مشروع « جزائر قبرصيه » ، أو جزائر يطبق فيها النظام الذى طبق فى قبرص ٠

وقد كتبت عن هذا المشروع صحيفة «النيويورك هيرالدتريبيون» الامريكية وقالت أن حكومة فرنسا ستعلن تبنيها له خلال أسبوعين قادمين ٠

ففى قبرص رئيس جمهورية يونانى ، ونائب رئيس جمهورية تركى ، ولنائب رئيس الجمهورية حق الفيتو ، أى الاعتراض على القرارات ٠٠

والمشروع الفرنسى يقترح أن يـــكون رئيس الجمهـــورية الجزائرية عربيا ، ونائبه فرنسى له حق الفيتو ٠

وليس للبرلمان فى قبرص ـ حسب الدستور ـ حق التشريع أو التدخل فى الشئون الداخلية البحتة لاحدى الطائفتين ٠

وهكذا يرسم المشروع خطوط دستور الجزائر القادم ، التى يتكون تسعة أعشارها من المسلمين ، مما يجعل للاغلبية المســلمة السيطرة على البرلمان ٠

أما الحكم فتمارسه ـ فى المشروع الجديد ـ ادارات محلية فى المدن والمقاطعات ·· والمقاطعات التى تزيد فيها نسبة المستوطنين العددية يكون حاكمها فرنسا ·· والتى تزيد فيها نسبة الجزائريين يكون حاكمها جزائريا ·

معنى هذا أن يحكم المدينتين الكبيرتين الجزائر وزهران ·· حاكم فرنسى ·

ولكل طائفة محاكمها ومدارسها وقوانينها ··

هذا هو المشروع ، ومعناه فى الواقع هو التقسيم والسيطرة والاستعمار ·· ولكن بطريقة مليئة بالالتواء ··

انه يجعل من مليون مستوطن فرنسى دولة داخل الدولة ، بل دولة فوق الدولة ·

● والمشروع الثانى هو مشروع « جزائر لبنانية » ··

وهذا الحل ليس بجديد ، بل لقد تحدث عنه انطوان ببناى رئيس الوزراء الفرنسى الأسبق منذ سنوات عديدة ·

ان فى لبنان طوائف كثيرة ، تنقسم اجمالا الى المسيحيين ومحمديين ، وتقيم معا دولة واحدة ، حسب دستور غير مكتوب هو الميثاق الوطنى الذى أعلن عام ١٩٤٣ فرياسة الجمهورية حسب هذا الميثاق للموارنة ، ورياسة الوزارة للمسلمين السنيين والوزارات موزعة بين الطوائف المختلفة ·· وهكذا ·

فلماذا لايستفاد من هذه التجربة فى الجزائر ، فيتفق على ان تترك بعض المناصب للمستوطنين ؟

وعيب هذا الحل هو أن الطوائف الدينية كلها فى لبنان تنتمى

الى عنصر واحد ، العنصر العربى ، الذى عاشت طوائفه المتعددة متآخية متآزرة على مدى التاريخ ٠

● والمشروع الثالث هو « بلقنة » الجزائر » كما تحدثت عنه صحيفة « لموند » الفرنسية ٠

وكلمة « بلقنة » اصطلاح سياسى ٠٠ مأخوذ من كلمة البلقان ، ذلك الاقليم الذى يضم اليونان وبلغاريا ورومانيا والمجر حاليا ٠٠

وقد كانت سياسة أوروبا فى القرن التاسع عشر هى ان تمزق هذه الاقاليم الى دول صغيرة ، حتى تستطيع الدول الكبرى ، الروسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا وفرنسا ، السيطرة عليه ٠٠ وحفظ توازن القوى فى اوربا ٠

ومن ذلك الوقت ، وهذا الاصطلاح السياسى « البلقنة » معناه تقسيم الوحدة الواحدة الى وحدات صغيرة ، لتسهيل ابتلاعها ٠٠

وديجول الآن يفكر ، أو يفكرون له فى بلقنة الجزائر ٠

والاستفتاء القادم قد نصت شروطه على ان تحسب أصوات كل مقاطعة على حده ، لكى يستطيع الانتفاع بهذه النتائج فى معركة اتجاه البلاد ٠

ويعتقد بعض الذين يتتبعون خطوات ديجول ان فى نيته ان يقسم الجزائر الى ثلاثة اقاليم :

● الساحل للمستوطنين ؛

● والوسط للمسلمين ٠

● والصحراء ٠٠ لباريس ٠٠ لأن فيها البترول ٠٠

ومشروعات البلقنة ليست غريبة على فرنسا ، فقد خلقت

فرنسا احدى عشرة دولة فى افريقيا الاستوائية الفرنسية سابقا ، منها دول لايزيد عدد سكانها عن نصف مليون ·

وهذه الدول الضعيفة تحس دائما بحاجتها الى فرنسا «الأم» وتستمد منها نفوذها وبقاءها ·

وهذه الدول هى التى تحاول الآن أن تتوسط غير مشكورة بين ديجول وجبهة التحرير الجزائرية لحساب ديجول ··

وهذه الدول هى التى تبنت تقديم موريتانيا الى الأمم المتحدة، رغم رغبة شعبها وشعب المغرب معا ·

هذه الدول التى لم يشذعن اجماعها الا موديبو كيتا وحكومته فى مالى ، حيث أدار ظهره لفرنسا ، وانضم الى قافلة التحـــرر الافريقية ·

وسبب ضعف هذه الدول هو بلقنتها وهكذا تريد فرنسا أن تصنع فى الجزائر أو هكذا تفكر ··

والايام القليلة القادمة ستكشف خطى ديجول المقبلة ولكن واحدة منها لن تنجح ·

ان السياسيين الفرنسيين الذين يديرون عيونهم فى خريطة العالم أن يخفضوا عيونهم الى واقعهم الحى الملموس ·

ان الحل الوحد هو استقلال الجزائر والاعتراف بحكومـــة الجزائر المؤقتة والتفاوض معها ، لخلق دولة جزائرية عربية يتمتع المستوطنون الفرنسيون فيها بكل الحقوق المدنية التى تمنـح لأى مواطن ·

هذا ·· والا فلينتظروا أن تنهار فرنسا للمرة الاخيرة ، بعد ديان بيان فو أخرى على أرض الجزائر ·

روز اليوسف ١٩٦١/١/٩

نهاية الأنبيـــاء الصغار

فى احدى المناقشات العاصفة فى مجلس العموم البريطانى وقف ماكميلان رئيس الوزراء ليقول :

– ان قيادة القوات الأمريكية فى بريطانيا قد قررت ترحيل نساء الجنود الأمريكيين وأطفالهم الى وطنهم ، ولن يبقى على سطح الجزيرة البريطانية الا الجنود المحاربون ..

ووقف نائب عمالى ليقول ساخرا :

« انى اسأل رئيس الوزراء .. أليس من الأفضل للشــعب البريطانى أن يرحل الجنود ، وتبقى النساء ، بدلا من أن ترحــل النساء ويبقى الجنود ؟

وضحك بعض النواب ، وكتم بعضهم ضحكاته ، لأن المشكلة كانت أكبر من الضحك ..

انها مشكلة موقف بريطانيا من حليفتها الكبرى ، **هل تظـل** بريطانيا قاعدة أمريكية على شواطىء أوروبا ، تسدد منها الصواريخ الأمريكية الجديدة « بولاريس » الى الاتحاد الســـوفياتى ، وتذرع الغواصات الذرية الأمريكية شواطئها ..

وهل تستمر بريطانيا فى ولائها لحلف الاطلنطى ، فتخصص جزءا كبيرا من ميزانيتها لتنشىء قوة ذرية مستقلة تتضامن وتتآزر مع قوات حلف الأطلنطى ·· حين يحين الأوان ··

كانت هذه هى المشكلة التى عاشتها بريطانيا طوال الشهرين الماضيين ·· وشغلت مناقشتها اعمدة الصحف ، وجلسات البرلمان ، والمؤتمرات السنوية للحزبين الكبيرين ، المحافظين والعمال ·

وكان الذى اشعل المشكلة والهبها ، هو أن أمريكا اخترعت صاروخا جديدا ، وغواصة ذرية جديدة ·

والغواصة الذرية الأمريكية الجديدة تستطيع البقاء شهرين على عمق ٥٠٠ قدم ، دون أن تخرج على سطح البحر ، وتبلغ سرعتها اكثر من ٤٠ ميلا فى الساعة ، وشحنة واحدة من اليورانيوم تمكنها من أن تمخر عباب الماء ٧٠ الف ميل ، وتحمل ١٦ صاروخا ، وتتكلف مائة مليون دولار ··

والصاروخ الذى تحمله الغواصة انجح صاروخ أمريكى حتى الآن ، وقد أطلق عليه اسم « بولاريس » ·

وحين اهتدت أمريكا الى الغواصة الجديدة ، كان أول ما فكرت فيه أن تزود قواعدها فى بريطانيا بهذا السلاح الفتاك ، الذى قال عنه أحد القواد الأمريكيين انه لا يصلح لفن الحرب ، وتبادل الطلقات وتمهيد الطريق للمشاة ، كما تفعل الأسلحة الاخرى، ولكنه يصلح فقط ··· للتدمير ، ومحو الحياة ··

وفى اسكوتلندا ، وعلى شاطئها ، فى منطقة هوكى روش ، وضعت الولايات المتحدة غواصتين ذريتين ··

وسأل بعض النواب البريطانيين رئيس الوزراء ماكميلان ، فى

البرلمان : هل يكون من حق بريطانيا أن تتشاور مع حليفتها قبل أن تنطلق نيران الغواصتين ؟

وقال بعضهم : اننا نخشى أن يضع أمريكى مجنون اصبعه على الزناد ، ويطلق النيران على الاتحاد السوفياتى ، فيجيبه الروس بمحو جزيرتنا من الوجود ونكون نحن ضحايا المعركة التى لم نشعل نارها ..

وأجابهم رئيس الوزراء بانه قد حصل على تاكيد من رئيس الولايات المتحدة أن اصبعا واحدة لن تضغط على الزر ، بل اصبعين .. احداهما أمريكية والأخرى بريطانية .

وهدأت ثائرة بعض النواب ، ولكن ليوم واحد ..

فقد أعلن موظف صغير فى وزارة الدفاع الأمريكية أن رئيس وزراء بريطانيا كان متفائلا أكثر من اللازم ، وأن الرئيس الأمريكى لم يؤكد له أن اصبعا بريطانية ستشترك فى الضغط على الزر مع الاصبع الأمريكية ..

وثارت الأزمة مرة ثانية .. أشد وأقسى ، وتعرض رئيس الوزراء المتفائل لأعنف هجوم عرفه فى تاريخه السياسى .

أما نواب المحافظين وجماهيرهم ، فقد وقفوا وراء رئيسهم ، لأن تقاليدهم وأفكارهم السياسية منذ أن وضع أساسها الحديث ونستون تشرشل تحرص على صداقة أمريكا أشد الحرص ، وتؤمن بوحدة ما يدعونه « بالعالم الحر » ..

وحزب المحافظين هو ممثل الأرستقراطية البريطانية ، وساسته من أصحاب الألقاب أو كبار الرأسماليين ، وجماهيره من أصحاب الحوانيت الذين يمثلون قطاعا كبيرا من الشعب البريطانى .. شعب الطبقة الوسطى ..

وقديما أطلق نابليون بونابرت على بريطانيا جزيرة « أصحاب الحوانيت » ٠

أما حزب العمال فقد انتفض ، وانقسم قسمين :

وقف ثلثا نواب الحزب وراء جيتسكيل زعيم الحزب الذى وقف بدوره وراء ما اكميلان زعيم المحافظين ، وأعلن انه سيحارب ويحارب ٠٠ ويحارب ٠٠ وكررها ثلاثا امام جماهير الحزب ، فى سبيل حلف الاطلنطى والقاعدة الذرية الأمريكية ٠٠

وثلث نواب الحزب وقفوا يصرخون فى وجه جيتسكيل ، ويقولون له « انه غنى ومغرور ، ومتعنت ، وذيل للمحافظين !!

وقالت له جنى لى ، أرملة بيفان ، الزعيم العمالى الثـــائر ، الذى توفى قريبا « انك مثل تشرشل » وتلك فى رأيه أوجع كلمة تقال لسياسى عمالى ، وقد كانت احدى مآثر زوجها الراحـــل أنه كان يستطيع أنه يواجه تشرشل ، ويغمزه ، ثم ينهال عليه بالهجوم ، دون أن تأسره بلاغة تشرشل وفصاحته ٠

وقال له سياسى عمالى معروف ، هو « ايان ميكاردو » : ان القواعد الأمريكية تعرض بريطانيا للخطر ، ولست مســـتعدا أن أرى أحبائى يتعرضون للاشعاعات الذرية ، دون أن أرفع يـــدى معارضا ٠

وتعالت الأصوات الصاخبة ، ووقف جيتسكيل يرد عليهم وفى صوته نبرة الاحتقار قائلا :

اننى أعرف أن هناك بريطانيين يرغبون فى رؤية الأمريكيين ، وهم يحملون متاعهم وأسلحتهم ويرحلون ، ولكن هؤلاء كانـــوا بلا شك فى غاية السرور حين رأوا الأمريكيين يهبطون الى بلادنا

فى عام ١٩٤٢ لحمايتنا : ان هؤلاء الجبناء يقولون : لا نريد اسلحة ذرية ·· لا نريد أن ننفق ميزانيتنا فى آلات الحرب ولكنهم فى الوقت نفسه يطلبون من أمريكا حمايتهم لوجه الله ··

كانت تلك المناقشات كلها تدور فى المؤتمر البرلمانى السنوى لحزب العمال ·· وحين أخذت الأصوات فى النهاية ، نال جيتسكيل ومعارضوه ٨١ صوتا ·

وهكذا انشق حزب العمال الى فريقين ··

فريق ينادى بأن تفتح بريطانيا صدرها للقواعد الامريكية ، وان تنفق جزءا كبيرا من ميزانيتها على التسلح بدلا من توجيهه الى الخدمات العامة ، وان تجعل قصارى همها أن يكون لها قوة نووية تابعة لحلف الأطلنطى ·

وفريق آخر ينادى بأن تنزع بريطانيا سلاحها ، وان تطرد القواعد الأمريكية عن أرضها ، وأن توجه كل ميزانيتها للخدمات العامة ·

بل لقد نادى بعض أنصار هذا الفريق بأن تلزم بريطانيا سياسة محايدة بين المعسكريين ·· مثل شعوب آسيا وأفريقيا المحايدة ·

ان الانقسام ليس أمرا جديدا على حزب العمال ، فكثيرا ما ثارت المنازعات بين زعمائه ، حتى لقد فكر الحزب ذات مرة فى فصل أنيورين بيفان نائب رئيسه لخلافه مع الرئيس ·

ولكن هذا الانقسام هو أخطر انقسام عرفه الحزب فى تاريخه ، انه انقسام الثلث والثلثين بين نوابه ، أما بين العمال قاعدة قاعدة الحزب ، فهم جميعا يقفون ضد جيتسكيل ، وضد حلف الأطلنطى وضد أمريكا ·

فقد اعلن مؤتمر نقابات العمال مطالبته العاجلة بنزع السلاح

من جانب واحد ، أى دون انتظار لما يفعله العملاقان الكبيران ٠٠ روسيا وأمريكا ، وهكذا يقف جيتسكيل وحزب العمـــال معلقا فى الهواء ٠٠ بلا قاعدة ٠٠ بلا جمهور ٠

وهذا هو ما جعل معظم المعلقين السياسيين يتوقعون نهايـة الحزب الذى عاش الى جانب المحافظين والأحرار ، حزبا من احزاب الاقلية نصف قرن من الزمان ، ثم أزاح حزب الأحرار ليصبح شريك المحافظين وبديلهم فى الحكم فى ربع القرن الأخير من حياة بريطانيا السياسية ٠

وهم يتوقعون أن يعود حزب الأحرار ليحتل مكانه وليصـبح حزبا ثانيا فى الحياة السياسية البريطانية ٠

وهكذا تنتهى الأيام المجيدة لأكبر حزب فى أوروبا ، أطلق على نفسه كلمة الاشتراكية ، وحفل تاريخه بأسماء أكبر مجموعة من المفكرين الانجليز برنارد شو وبياتريس وسيدنى ويب وهـ ٠ ج ٠ ولز وبرتراند رسل ، وج ــ هـ ٠ كول ، وهارولد لاسكى ورامزى ماكدونالد وآنيورين بيفان ٠

وهو الحزب الذى كان شريكا فى الدولية الثانية الى جانب لينين وتروتسكى ٠٠

وهو الحزب الذى حاول مفكروه أن يثبتوا بكل وسيلة انه من الممكن أن يكون الانسان اشتراكيا دون أن يكون ماركسيا ٠

لقد نشأ الحزب تحت شعار الاشتراكية ، وكان زعماؤه الأوائل من شباب المفكرين والنقابيين يحملون بمجتمع جديد ، تتحقق فيه العدالة ويتمتع العامل بثمار عمله ، وتزول ملكيـــة الرأسماليين لأدوات الانتاج ٠

وكما قال سيدنى ويب : لقد استطاع العالم أن يعيش دون اقطاعيين فلماذا لا يعيش دون رأسماليين ٠

وكان الحزب حين نشأ حزبا يساريا ، يؤمن بالتطور ، ويناصب المحافظين والأحرار اليمنيين العداء ، ولذلك التفت حوله جماهير الطبقة العاملة النامية ، وكان مدرسة سياسية لمعظم المفكرين الانجليز ، حتى أنك لاتجد اسما واحدا لمفكر انجليزى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، الا وكانت له صلة بالحزب ، أو بجمعيته الفكرية « الجمعية الفابية » ٠

حتى الثوار الأحرار من المستعمرات الأفريقية البريطانية لهم بالحزب صلات ، مثل توم مبويا وجوموكينياتا ٠

ولكن لكما يقول احد المعلقين الفرنسيين : ان كل شىء فى انجلترا يتجه نحو اليسار الا حزب العمال ٠

وكما يقول « برنارد شو » : ان حزب العمال مثل كرستوفر كولبس ٠ خرج يتجه يسارا الى الهند ، فوصل الى اليمين ٠٠ الى أمريكا ٠

لقد كان الذين بنوا الحزب مجموعة من الأنبياء الصغار ٠

كونوا فى أول الأمر جمعية للدراسات الاشتراكية ، أطلقوا عليها اسم الجمعية الفابية ، نسبة الى البطل الرومانى القديم « فابيوس » الذى اختارته روما ليواجه الطاغية القرطاجنى « هانيبال » ٠

وآثر فابيوس ان يتذرع بالصبر والحكمة فى مواجهة هانيبال كما آثر اولئك الشباب أن يستعينوا بالوقت لمواجهة الرأسمالية الضارية ٠

كانت النظرة الشيوعية تعلن أنه لابد من الثورة الشاملة

العاجلة التى تقضى على الرأسماليين ، وترفع العمال الى مقاعد الحكم ٠

وكان الأنبياء الصغار الذين يكرهون الـــدم ، ولا يؤمنون بالثورة ، يقولون ان التطور والاقناع كفيلان مع الزمن بالقضاء على الرأسمالية ٠ وانك تستطيع أن تكسب كل يوم مكسبا صغيرا دون أن تسفح قطرة دم واحدة ، بدلا من أن تكسب كل شيء ، بعد أن تروى الأرض بالمذبحة ٠

وكان بعض أولئك الأنبياء الصغار من خريجى أوكسفورد ، وبعضهم من أبناء الطبقة المتوسطة ، أو زعماء نقابات العمال الأذكياء

وكان فيهم هـ ٠ ج ٠ ولز وأمه خادمة وقد دخل المدرسة العليا بالصدفة ٠

وكان فيهم جورج برنارد شو الارلندى الجلف ، الذى يرتدى رداء من الصوف الرخيص ، تملأ الأمطار ثقوبه ووبرته ويبلل بـه الصالون عند دخوله ٠

وكان فيهم نساء جميلات ، قلوبهن مليئة بحب العدالة ، ولهن قصص حب أيضا مع الرجال ٠٠

وكانت أجملهن فتاة من الطبقة العليا اسمها بياتريس بوتر ، كان ابن عمها أحد أولئك الشباب المتحمسين ، فأغراها مرة بالتردد على اجتماعاتهم ٠

ورأت بياتريس نماذج مختلفة من الشباب ، وربما أعجبها أن تحس بوقع جمالها على نفوسهم ، فكانت تدعوهم لقضـــاء نهـاية الأسبوع فى منزل والدها الريفى ، فكانوا يلبون الدعوة جميعـــا ما عدا ذلك الارلندى الأحمر الشعر الذى لا يأكل اللحم ، ولا يشرب الشاى ولا الخمور « برنارد شو » ٠

وسألته بياتريس : لماذا لا يحضر مع زملائه الى المنزل الريفى ؟
وقال لها برنارد شو :

لأن واحدا منا يحبك ، ولو ترددت كثيرا على منزلكم لاختطفتك منه ، وحطمت قلبه ، وأنا لا أريد أن أحطم قلب احد اصدقائى ٠

وسألته بياتريس مندهشة :

ـ من هو ذلك الذى يحبنى ؟

وقال شو :

ـ أنه سيدنى ويب ٠

وأبتدأت بياتريس تهتم اهتماما خاصا بسيدنى ، وتشجع سيدنى فعرض عليها الزواج ، وتزوجت بنت الطبقة العليا من المكافح الفقير ٠

وحين تزوجت معه اشتراكيته ، وأصبحا معا من اكبر دعائم الجمعية الفابية ، وحزب العمال فيما بعد ، وكتبا معا عديدا من المؤلفات والدراسات ، ودفنا فى قبر واحد فى كنيسة وستمنستر ٠

ولكن الى جانب قصص الحب ، كانت هناك قصص كفاح انتهى بعضها بما لم يكن يتمناه المفكرون الأحرار ، ومثال ذلك يوم « الأحد الدامى » ١٣ من نوفمبر عام ١٨٨٧ ٠

خرجوا فى ذلك اليوم فى مظاهرة للمطالبة ببعض حقوق العمال وحين وصلوا الى ميدان ترافلجار انهالت عليهم عصى البوليس ، وجرح معظمهم ، وسال الدم من وجه برنارد شو وهو يصيح بزميلته المتظاهرة « آن بيزانت » التى اصبحت زعيمة المذهب الثيوصوفى ، ومن المؤمنات بتناسخ الأرواح فيما بعد ، وكان ينصحها بالهرب من المعركة المفاجئة ٠

وأيقن الأنبياء الصغار أن العنف لا يلد الا العنف ، فلم يجربوا بعدها سلاح التظاهر والاضراب أبدا ، بل أخذوا يكتبون ويحاضرون فكتبوا فى سنوات قليلة ما يقرب من مائة نشرة اشـــتراكية كانت النشرة تباع بنصف بنس ، وألقوا مئات المحاضرات فى جميع أنحاء الجزيرة البريطانية ٠

وابتدأ المواطن البريطانى العادى يعرف الكلمة الجديدة ٠٠٠ الاشتراكية ٠٠ ويناقشها ٠٠ ويؤيدها ، أو يلعنها ٠

وكان ذلك هو بداية الوعى الاشـــتراكى الذى ولد فى تياره حزب العمال البريطانى ٠

كان ميلاد الحزب التقاء لمجموعتين ، مجموعة الفابيين المفكرين يتزعمهم برنارد شو وسيدنى وبياتريس ويب ومجموعة العمـــال النقابيين يتزعمهم كير هاردى ٠

وكان كير هاردى أول نائب من العمال يدخل البرلمان ، وكان يحرص على أن يحضر الجلسة بثياب العمل ، حتى لامته على ذلك بياتريس ويب ، بنت الذوات التى انضمت الى الطبقـــة العاملة ، وقالت له ان حضور الجلسة بثياب العمل مجرد بوز ٠٠ أو حركة !

كان ذلك فى عام ١٨٨٨ ، وفى انتخابات عام ١٩٠٦ نال الحزب ثمانية وثلاثين مقعدا فى مجلس العموم ٠

وفى يناير عام ١٩٢٤ كون رامزى ماكدونالد زعيـــم الحزب البرلمانى أول وزارة عمالية لم تعش الا عشرة شهور ٠

وكون عام ١٩٢٩ وزارته الثانية التى عاشت ست سنوات ٠

وكانت حكومة كليمنت آتلى التى خلفت تشرشل بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية هى ثالث حكومة عمالية ٠

وفى عام ١٩٥١ عاد المحافظون الى الحكم ، وما زالوا يحكمون

بريطانيا حتى الآن ، وتضاءلت فرصة العمال فى الحكم الى ابعد الحدود ٠

لقد كان العمال فى كل مرة يصلون فيها الى الحكم يخرجون منه وهم اضعف مما يدخلونه ، ويفقدون قطعة واسعة من الأرض التى يقفون عليها ٠٠

وذلك لأنهم لا يستطيعون ، أو لا يجرؤون أن يحملوا مبادئهم معهم الى الحكم ٠

فحين تولى رامزى ماكدونالد مثلا رياسة الوزارة العمالية ، وكانت مصر عندئذ تستعد لمفاوضة بريطانيا تفاءل كثير من المصريين ، وعلى رأسهم سعد زغلول رئيس المفاوضين المصريين ولكن هذا التفاؤل تبدد حين فوجىء المصريون بأن المفاوض العمالى لايقل استعمارية عن المفاوض المحافظ ٠

اما فى الداخل فان الوزارة العمالية لم تنفذ شيئا من برنامج الحزب وسقطت برغم انه كان من اعضائها سيدنى ويب كوزير للتجارة ، وسيدنى أوليفييه الاشتراكى العريق كوزير لشؤون الهند وكلاهما له فى الاشتراكية مؤلفات ودراسات ٠

وكانت وزارة ما كدونالد الثانية اشد بعدا عن الاشتراكية من وزارته الأولى ٠

والوزارة العمالية الوحيدة التى حاولت أن تنفذ جزءا من برنامجها كانت وزارة كليمنت أتلى التى تولت الحكم فى عام ١٩٤٥ ، حين حصل حزب العمال على أغلبية مقدارها ٣٩٤ مقعدا ، كان ٢٣٠ مقعدا منها يشغلها اعضاء فى جماعة الفابيين « الجناح المفكر فى الحزب » ٠

واستطاعت حكومة العمال ان تؤمم بنك انجلترا ، ومرافق

التلغراف واللاسلكى والطيران المدنى ، والنقل ومنـــاجم الفحـم وشركات الكهرباء والغاز والخدمات الطبية وشهدت هذه السنوات عددا وافرا من الاصلاحات الداخلية فى بريطانيا ، ولكن الجانـــب الخارجى من سياسة العمال كان مظلما ·

كان وزير خارجية أتلى هو أرنست بيفن الذى لا يؤمن كثيرا بالأفكار الاشتراكية ، ويحرص على ألا تضـــيع الامبراطورية على يديه ·

وكثيرا ما اصطدمت مفاوضاتنا السياسية مع العمال على صخرة عناد أرنست بيفن واستعماريته ·

وبيفن هو أول من قاد الحزب نحو التحـــالف مع أمريكا ، وتحمس لحلف الاطلنطى ، وآمن بسياسة التسلح وألقى بانجلترا فى قلب الحرب الباردة ·

ومات بيفن ، وتنحى أتلى ، وصعد هيو جيتسكيل الى مكان الرياسة فى الحزب ·

وفى الوقت نفســه غادر جميع الرواد الاشتراكيين الأوائل الحيـاة ، وتركوا الحزب الاشـــتراكى الأول فى أوربا للسياسيين المحترفين ·

ماتت بياتريس ويب فى عام ١٩٤٣ ، ومات زوجها سيدنى ويب فى عام ١٩٤٧ ·

ومات ستافور كريبس وهارولد لاسكى ·

ومات برنارد شو فى عام ١٩٥٠ ، وقبل أن يموت بعشرات السنين كان قد قنع من السياسة بأن يعالجها فى رواياته وكتبه ،

وآثر أن يهمس فى آذان قرائه فى هدوء ، بدلا من أن يصرخ فى اذان الناخبين ·

والجيل الجديد من المفكرين مثل « كروسلاند » الذى يطلقون عليه « صبى جيتسكيل المدلل » لا يعنى كثيرا بالاشتراكية بقـــدر ما يعنى بتبرير أخطاء زعيمه وميله نحو أمريكا ·

والنتيجة ··

النتيجة كما تقول « آن فريمانتل » · مؤلفة هذا الكتاب الذى لخصت لك بعض فصوله أن الحزب يضعف يوما بعد يوم ·

وسر ضعفه أنه لم يستطع برغم النوايا الطيبة التى ملأت قلوب أبنائه الصغار أن يكون اشتراكيا ، يؤمن بالسلام كما يؤمن بالرخاء ، ويؤمن أيضا بأن السلام والرخاء ·· والاشتراكية ، حق لجميع البشر ، لا للانجليز وحدهم ··

روز اليوسف ١٩٦١/١/١٦

ثـــورة آســـيا

كان من عادات مدينة البندقية ، فى العصور الوسطى حين تحتفل بعيد الكرنفال ، أن يلبس أحد مهرجيها ثيابا صينية زاهيـة الألوان ، وأن يقف فى أكبر ميادينها ، ويسترسل فى « الفشـــر » والكذب ، والجميع من حوله يضحكون ويسخرون ..

وكان يطلق على هذا المهرج الكذاب لقب « ماركو » الملايين ، لأن كل شيء يتحدث عنه كان يسبقه رقم مليون ، فقد قطع فى رحلاته مليونا من الاميال . ورأى مليون حديقة من حدائق الورد المزهر فى الربيع والشتاء ودخل مليون قصر حدائقها من الذهب ، ونام مليون ليلة مع مليون امرأة ..

وكان ماركو الملايين ينسب كل ما يزعم أنه قد رآه الى بـلاد خيالية بعيدة ، تفصلها عن البندقية ، وعن أوروبا آلاف الأميال ..

كان ينسبه الى بلاد الصين ..

وكان هذا الكذاب المحترف يســمى « ماركو » نسبة الى الرحالة ماركو بولو أول أوروبى زار الصين ، وعاد منها فى عام ١٢٩٥ الى مدينة البندقية ليحدث أهلها عن البلاد العظيمة التى رآها .

كان ماركو وأبوه نيقولو وعمه ماتيو بحارة مغامرين أرست سفينتهم على شواطىء عكا فى أحد أيام عـــام ١٢٦٩ فى رحلـــة للتجارة بين جنوة وسواحل الشام ..

وباع البحارة الثلاثة واشتروا ، ثم فكروا فى التوغل فى أرض الشام ..

ومن عكا ساروا الى جبل لبنان ، ومن جبل لبنان قادهم حب المغامرة الى العراق ومن العراق الى فارس ، ثم خراسان ، والهند حتى وجدوا أنفسهم على مشارف بلاد الصين ..

وبعد رحلة مضنية فى الصحراء ، صعدوا فيها سور الصين العظيم وهبطوه وجدوا أنفسهم فى بلاد امبراطور الصين العظيم « كوبلاى خان » الذى اذن باستقبالهم بوصفهم رسلا من بلاد الغرب الذليلة ..

وقضى المغامرون الثلاثة ستة وعشرين عاما فى بلاد الصين ، ثم استبد بهم الحنين الى الوطن فأذن لهم الامبراطور العظيم فى العودة ..

ووقف ماركو وأبوه وعمه على أبواب البندقية ، وقد طالت لحاهم ، وعفر التراب وجوههم وملابسهم ، وهم يستأذنون حراس أبواب المدينة أن يفتح لهم ، ويزعمون أنهم أولئك الرجال الثلاثة الذين خرجوا من المدينة منذ ستة وعشرين عاما ..

وتردد الحارس ، وتردد المواطنون أن يفتحوا لهم ثم أذنوا لهم بعد جدل طويل ..

وقال لهم ماركو بولو انه طوال السنوات الماضية فى بـــلاد الصين . هذه البلاد الواسعة الشاسعة التى يحكمها امبراطور أعظم من جميع ملوك مدن أوروبا ، والتى يتعامل فيها الناس بالورق بدلا

من الذهب ويلبسون الحرير الزاهى الألــوان ، ويسكنون فى قصرو فخمة ، ويستحمون لكل يوم • •

ولم يصدق أحد ماركو بولو ، ولا أباه • ولا عمه • •

ولجأ ماركو بولو الى الورق ، فكتب فى عام واحد قضاه فى غرفته كتابا عن رحلاته التى استمرت ستة وعشرين عاما لعـــل الأجيال القادمة تصدقه ••

تحدث فى هذا الكتـــاب عن كـــل ما رآه •• عن الحدائق والمستشفيات والمدارس والجسور والحمامات والمتاجر •• حتى عن فتيات اللهو الصينيات الجميلات ، اللائى يلبسن الملابس الأنيقة •• ويتعطرون ، واللائى يختار الامبراطور منهم ثلاثين أو أربعين فتاة سنويا ، ويستبقيهن فى قصره ، ويعهد بكل واحد منهن الى احـدى قهرمانات قصره عاما كاملا ، لتتأكد أنها تنام نوما هادئا •• ولا تغط اثناء النوم ولا تنبعث رائحة كريهة من أى جزء من أجزاء جسمها فاذا تأكدت من ذلك قدمتها الى الامبراطور ••

ولم يصدق أحد الكتاب أيضا ، وحين أدركت ماركو بولـــو الوفاة وقف أحد القساوسة على رأسه لينصحه أن ينجى نفسه من العذاب بأن يتنصل من كتابه •• ولكن ماركو بولو أجاب القسيس قائلا : « ولكنى لم أذكر فيه الا نصف الحقيقة » ••

وحين مات ماركو بولو أنعمت عليه مدينته باللقب الساخر « ماركو الملايين » وأصبحت تحتفل به سنويا ، حين يقوم أحـــد المهرجين ليقلد ويسرد الأكاذيب كمــا كان ماركـــو بولو يســـرد الحقائق •• والتى لم يصدقها أحد ••

كان الناس يتساءلون • هل من المعقول أن تكون هناك ، فى الشرق ، بلاد أكثر منا حضارة وتقدما ورقيا ؟

هل من المعقول أن يكون الرجل الآسيوى ، كما صوره ماركو بولو ، رقيقا نظيفا ، ودودا ، مرتب الفكر ؟

كانت صورة الآسيوى فى ذهن سكان أوروبا ، صورة رجل همجى كافر ، مشوه الخلقة وربما كان يأكل لحم البشر ..

وكانت صورة المدينة الآسيوية ، فى ذهن الأوروبى ، مجموعة من الاكواخ المتناثرة القذرة ، أو مجموعة من الخيام ينصبها أصحابها كيفما اتفق ..

وفاجأهم ماركو بولو بالصورة الجديدة فكذبوه ، وحين ابتدأوا يصدقونه بعد خمسة قرون من الزمان ، اسال كلامه لعابهم ..

كان قد حدثهم عن الجواهر ، والبهار والعطور والذهب فسال لعاب المطامع ، وانزلقت السفن الى سواحل الصين ، والهند وجنوب شرقى آسيا بحثا عن الثروة فقتلت ونهبت وشردت .. ونسجت المؤامرات عادت بالثروة الطائلة ، ولكنها لم تكسب صداقة الانسان الآسيوى ، ولم تحاول أن تكسبها ..

كان ماركو بولو أكثر ذكاء من أولئك الذين خلفوه ، رغم أن خمسة قرون من الزمان تفصل بينهم ، كان البحار المغامر يريد أن يتعرف على الانسان الآسيوى ، ويؤمن بأن هناك حضارة أخرى تختلف عن ضارة أوروبا التى عرفها ، وأن عليه أن يقترب منها ، وقد اتسع صدره وفكره ، لكى يستطيع فهمها ..

أما خلفاؤه فقد كانوا لصوصا الى جانب أنهم مغامرون فحاربوا الصين بالأفيون ، والهند بالمذابح ، ولم يستطع الغرب طوال قرنين من الزمان قضاهما فى آسيا ، أن يتعامل مع الآسيويين معاملة الند للند ، وأن يمزج حضارته بالحضارة الآسيوية . كان عند

الغرب مثلا خبرة وافرة فى « التكنيك » والصناعة ، تتقدم يوما بعد يوم ، وكان لدى آسيا مصادر ثروات طائلة وكان من الممكـــن أن تمتزج الطاقة والخبرة لمصلحة العالم ، ولكن العلاقة بينهما ظلت دائما هى العلاقة بين السارق والمسروق ، أو بين اللص وصاحب البيت ··

وكان لدى الغرب نظام ديمقراطى للحكم ، وأفكار جديدة عن العلاقة بين الفرد والمجتمع ، أفكار بدأت حين قطعت انجلترا رأس الملك شارل ، ثم ازدهرت على يد جاك روسو ومونتسكيه وفولتير والحركات الاشتراكية فى منتصف القرن التاسع ، وكان عند آسيا نوع من الأنظمة « الأبوية » فى الحكم ، التى يقوم فيها الحاكم بدور الاب الرشيد ، وكان من الممكن أن يتلاقح النظامان لينتجا نظامـــا جديدا ، يصلح لهذه الدول المترامية الأطراف ، التى تكاد تنعدم فيها طبقة الموظفين ، وتصعب فيها مهمة الحكومة المركزية ··

ولكن شيئا من هذا كله لم يحدث وظلت علاقة أوروبا بآسيا تتنفس فى جو العداء المسموم ··

وحين استقلت آسيا بعد عام ١٩٤٧ بدا الأمـــر كله مفاجأة لأوروبا · ففى أعوام قليلة ولدت دولة الهند وباكستان وبورما ولاوس وكمبوديا وفيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية وأندونيسيا والملايــو وسيلان والصين الشعبية ··

وخرج النفوذ الانجليزى والفرنسى والهولندى من آسيا ··

وكان بعض الأوروبيين يظنون أنه من الممكن بعد أن حصلت هذه الدول على استقلالها ، أن يعود الأمر قريبـــا كما كان ، وأن يقوم نوع من الصداقة بين آسيا الجديدة وأوروبا ، ولكن الأيام تمضى لتثبت العكس ··

ان الصداقة صعبة ، ولو بحد السلاح •

وصاحب هذا الكتاب الذى أعرضه عليـــك « جى وينت » ، انجليزى متخصص فى الدراسات السياسية الآسيوية ، وقد عمـــل محررا لشئون آسيا عشر سنوات فى جريدة المانشستر جارديان وهو يكتب الآن فى صحيفة الأوبزرفر • وقد كان عضوا فى بعثة عصبة الأمم ألى الصين فى عام ١٩٣٢ ، ثم خدم الحكومة البريطانية فى الهند والصين وسنغافورة ، وألف كتابا عن ازمة السويس ••

وعنوان الكتاب أضواء على آسيا ، والفكرة الرئيسية فيه هى أن مستقبل أوروبا فى آسيا مظلم لأن ماضيها هناك اكثر ظلاما ••

وآسيا هى القارة التى تنطبق عليها لكلمة « الكل فى واحد » كما يقول المؤلف •

فقد تعود الأوروبيون أن ينظروا الى القارة كلهـــا كوحدة متكاملة ، رغم أن عدد سكانها أكثر من نصف سكان العالم ورغـم أن فيها دولا شاسعة المساحة ، مختلفة فى تاريخها الحضـــارى وتراكيبها الاجتماعى ، مثل الهند والصين •

ولكنها رغم ذلك وحدة ، لأن مشاكلها كلها مشاكل واحدة ، تتلخص فى شعار واحد •• الاستقلال ، ثم رفع مستوى المعيشة •

ويمكن تقسيم آسيا الى خمس مناطق : شبه القارة الهندية ، والصين ، واليابان ، ووسط آسيا ثم جنوب شرقى اسيا ، الذى يضم لاوس وفيتنام وكمبوديا وأندونيسيا والفلبين وسيام •

ومستقبل أوروبا فى كل منطقة من هذه المناطق متوقف على ماضيها فيها •• على الجهد الذى بذلته لكى تفهم طبيعة الانســان الآسيوى فيها ، ولكى تقدم له ما يساعده على التقدم ••

وأنجح تجربة أوروبية ـ ولنذكر أن صاحب الكتاب انجليزى ـ كانت فى الهند ·

ان المؤلف يعترف أن معظم حكام الهند الانجليز كانوا استعماريين ، يغيرون جلدهم حالما يعبرون قناة السويس ، ولكن من خلال هذا اللقاء بين الانجليز والهنود ، ثم بعض الامتزاج ثم خلق الهند الحديثة ·

لقد أفلح النظام الانجليزى فى الهند فى خلق طبقة من المثقفين الهنود ، الذين يدينون بمنهج تفكيرهم للحضارة الغربية وطبقة المثقفين هى الطبقة التى تنبت دائما الطبقة العليا · وقد كانت الطبقة المثقفة الهندية تتكون من أولئك الذين تلقوا تعليمهم فى الجامعات الانجليزية أو التى تتبع النظام الانجليزى ، ومعظمهم قد انحدر من الطبقة الوسطى ، وهذه الطبقة هى التى نظمت حزب المؤتمر ، واتحادات التجار ، وساهمت فى الحركة الغاندية وكونت فيما بعد الحزب الشيوعى الهندى وهم الذين يكتبون فى الصحف ويحررون النشرات ، ويعلمون فى المدارس ، وينظمون المظاهرات ·

وقد تبنت هذه الطبقة تفكير مثيلتها فى انجلترا ، بل لقد تبنت لغتها ايضا حتى قال أحد أعلامها وأحد كبار تلاميذ غاندى وهو المستر رجاجو بلاشارى فى احدى خطبه بعد الاستقلال :

ان اللغة الانجليزية هى هبة الآلهة « ساراسواتى » الهة الكلام لنا · لقد أعطت مختلف اللغات لمختلف الناس · فلماذا لا نعتز بما أعطته لنا ؟ لقد أتى الانجليز الى هنا ، ثم رحلوا وخلفوا هذه الهدية ، فلماذا نرد اليهم ما أغرتهم الآلهة بتركه ؟

ثم يشير المؤلف الى أنه كان من بين مؤسسى حزب المؤتمر وهو الحزب الذى حقق استقلال الهند ·· اثنان من الموظفين الانجليز فى حكومة الهند ·

ان مستقبل الغرب فى الهند لا يبدوا مظلما • رغم أن الحزب الشيوعى قد فاز بالأغلبية ذات مرة فى احدى الولايات ، فالحزب الشيوعى الهندى نفسه قد تكون من طبقة المثقفين التى تلقت تعليمها فى الجامعات الانجليزية ، كما أن الهند الحديثة قد استطاعت أن تلائم بين الروح الديمقراطية الغربية وبين فكرة الحاكم الرشيد الذى يقوم بدور الأب ممثلا فى شخصية « نهرو » •

ولكن هذا لا يعنى قط أن الهند تابع للغرب ، انه يعنى فحسب أن الهند ليست عدوا تقليديا للغرب •

أما التجربة الفاشلة حقا ، فقد كانت فى الصين •

ان الصين أمة قديمة ، لها نظام اجتماعى وحضارة موغلة فى القدم •

وقد كان النظام الاجتماعى الصينى يقوم دائما على ثلاثة قواعد •• الشعب والامبراطور وخدم الامبراطور •

كان الشعب هو مجموعة الفلاحين والصناع والمعلمين والأدباء •

أما الامبراطور ، فهو الرمز السياسى للصين ، يجلس على عرش التنين ، ويحكم بالحق الالهى •

أما خدم الامبراطور فهم الحكام وجباة الضرائب ، والفرق بين هؤلاء وبين طبقة الموظفين هو أنهم يدينون بولائهم للامبراطور لا للدولة ••

وكان الشعب الصينى بتأثير الديانة الكونفوشيوسية التى يعلن رائدها أن شعارها هو أن تعيش حياة هادئة ، وأن لا تتدخل فيما لا يعنيك ، لا يعنى كثيرا بالسياسة ، ويترك شئون الدولة للامبراطور وخدمه ••

والفلسفة الكونفوشيوسية الى ذلك تعطى الآب فى الأسـرة منزلة كمنزلة الامبراطور فى الدولة ، ثم هى تعطى الاسرة نوعا من الاستقلال والاكتفاء ، كأنها هى الصورة الوحيدة التى تستحق الاهتمام من صور المجتمع ..

وعند الصينيين ـ بعكس غيرهم من الشعوب الآسيوية ـ نوع من الزهو والكبرياء القومى ، ولدته فيهم قرون طويلة من الحضارة الزاهرة والمجد العريق ..

وحين اتصلت بهم الحضارة الغربية كان أول ما فعلته أن أهانت هذا الكبرياء القومى فى الصين ..

حكت بيرل بك الكاتبة الأمريكية التى اقامت فترة من حياتها فى الصين فى كتابها « عوالمى المختلفة » أنه كان مكتوبا على باب احدى حدائق شنغهاى « ممنوع دخول الصينيين والكلاب » ..

وثانى ما فعلته هذه الحضارة أنها تنازعت على ثروة الصين، دون أن تهتم بمعرفة الانسان الصينى ودراسته ، وساعد على هذا التنازع أن أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، كانت كلها تتنازع ثروة الصين الطائلة .

وانشغل اللصوص الخمسة بالغنائم والدسائس لكى ينفرد كل منهم بأكبر قسط منها عن محاولة التقريب بين الحضارة الصينية والحضارة الأوروبية ، فلم تنشأ فى الصين طبقة مثقفة على الطراز الأوروبى ، ولم يصبح لكلمات مثل : الديمقراطية أو العدالة أو المساواة مدلول فى نفسية الصينى المثقف .

وكانت مهمة الأوروبيين فى الصين هى تدمير الشعب لا تنويره .

فالأفيون مثلا دخل مع البرتغاليين .

والدخان ممزوجا بالأفيون دخل مع الانجليز ٠

وأكبر حرب نشبت بين الصين فى جانب ، وفرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا فى جانب آخر ، كانت لأن دول الغـــرب طالبت الصين أن تجعل تجارة الأفيون مشروعة ٠

واستولت فرنسا على الهند الصينية انتقاما لموت أحد المبشرين الذى كان فى الحقيقة لا يزيد عن ٥٠ لص ٠

ودخلت الولايات المتحدة فى آخر فصول الروايـــة ، فاعلنت سياسة « الباب المفتوح » ومعناها أن لكل دولة الحق فى أن تتصرف فى الصين على هواها ٠٠ وحسب قدرتها ٠

وهكذا كانت الصين عندما قام حزب الكومنتانج يعلن الثورة منذ خمسين عاما ٠

وفشل الكومنتانج ، وتولى الحزب الشيوعى قيادة الثورة ، وقادها الى النصر وانعزل شانج كاى تشيك فى جزيرته الصغيرة

ولنسأل ؟

لماذا فشل الكومنتانج بينما ينجح حزب المؤتمر الهندى ؟

ان المؤلف يقول ان نظام الحكم الشيوعى شبيه جدا بالنظام التقليدى الذى عرفته الصين فى عصورها الغابرة ٠٠ الامبراطور ٠٠ وخدم الامبراطور ٠٠ والشعب ، أو بالمفهوم الحديث الزعيم ٠٠ والحزب ٠٠ والجماهير ٠

ويقول أيضا :

ان الانجليز فى الهند قد أفلحوا فى تعـويد الهنـــود الحياة البرلمانية ، بحيث يصبح فى امكان حزب كالمؤتمر أن يحتوى مختلف

التيارات ، وأن ، تتمكن كل من الأغلبية والأقليـــة من التعبير عن رأيها ٠

أما الغرب فى الصين فانه لم يفلح الا فى اذكاء روح الانتقام فى نفس المواطن الصينى ، المليئة بالكبرياء وعزة النفس ٠

ولذلك فان حزب الكومنتانج ٠ الذى كان حزبا على الطريقة الغربية ، لا يميل كل الميل الى العداء للغرب ، لم يستطع أن يقود الصين ٠

ولذلك أيضا ٠٠ لا مستقبل للغرب فى الصين ٠

وبعد ٠٠ هذا ما يقوله المؤلف ٠٠

ولنا ــ نحن ــ أن نتساءل ٠٠

لقد كانت تجربة الغرب مع الهند والصين أهم تجربتين خاضهما فى آسيا ٠

والغرب الآن يخوض تجربة أخرى فى جنوب شرق آسيا كله حين يحاول أن يبحث عن حكومات صديقة ٠

فهل يعرف الغرب مثلا تاريخ لاوس أو حضارتها ، وتراثها ، وماذا تريد لاوس ؟

وهل يعرف ماذا تريد دول جنوب شرق آسيا ؟

أم أن هؤلاء الساسة ما زالوا يعيشون بعقلية أولئـك الذين قالوا عن ماركو بولو منذ سبعة قرون « ماركو بولو الكذاب » لأنه قال لهم من الحقائق ، ما زعزع ثقتهم بأنفسهم ، وفتح عيونهم على انسان جديد لا يقل عنهم حضارة ورقيا وانسانية ٠

روز اليوسف ٦/٢/١٩٦١

معنى عــدم التدخــل

« عدم التدخل فى الشئون الداخلية » اصطلاح جديد ، أو شبه اصطلاح يتردد فى كثير من البيانات التى يصدرها بعض الرؤساء العرب حين يلتقون ..

ويتردد أيضا فى اذاعات عمــان ، وتونس ، وغيرهـــا من الاذاعات العربية .

ويتردد فى بعض الصحف العربية التى تصدر فى بغداد وعمان وبيروت ..

وجميع هذه الاصوات .. الاذاعات ، والصحف والرؤســاء يقولون أن على كل دولة عربية أن تحترم الشئون الداخلية للدول العربية الأخرى ، ولا تتدخل فيها من بعيد أو قريب ، ولا تعلـــق عليها ، ولا تتناولها بالنقد أو محاولة التوجيه والاصلاح .

ولابد أن هذه النغمة السائدة ستتردد كثيرا فى مؤتمر بغداد ، كما ترددت فى مؤتمر شتورة ، وفى غيره من الاجتماعات ..

والكلمة ـ عدم التدخل ـ جميلة من بعيد ..

ولكن فهمها من قريب يخدش جمالها ‥ ويبرز ما فيها – فى بعض الاحيان – من عورات ‥

انها – فى بعض الاحيان – كلمة حق يراد بها باطل ‥

ولنعرف حقها من باطلها يجب أن نحدد معنى عدم التدخل ! ‥ ومعنى الشئون الداخلية ‥

فمن الشئون الداخلية لدولة من الدول العربية مثلا أن يكون حاكمها ملكا أو رئيس جمهورية ‥

ومن الشئون الداخلية أن يكون رئيس وزرائها فلان أو غيره ، وأن يكون لها برلمان ودستور ، أو أن لا يكون لهـا لا برلمـان ولا دستور ‥

وهذه كلها أمور لا تعنينا ، أو لا تعنينا كثيرا ، ومن حق الدولة أن تتمسك بها ، في هذه المرحلة التى يعيشها وطننا العربى – كشأن من شئونها الداخلية ‥

ولكن هناك أشياء ، فى هذه المرحلة من تاريخ وطننا العربى ، ليس من حق أى دولة أن تتمسك بها كشأن من شئونها الداخلية ، لسبب بسيط ، وهى أنها تهم كل العرب ، سواء أكانوا من أبناء هذه الدولة بالذات ، أم من أبناء غيرها من الدول ، ومادامت تهمهم . فمناقشتها ، ومحاولة اصلاحها اذن ، من حقهم ‥

فمثلا :

موقف دولة عربية ما ، من قضية فلسطين ، ليس شأنا داخليا من شئون هذه الدولة ، ولكنه قضية عربية عامة ‥ من حق كل عربى أن يناقشه ، ويعلق عليه ، ويحاول صـلاحه اذا كان يلتزم جانب الخطأ ‥

ومثال آخر .

موقف دولة عربية ما من الاستعمار الغربى ، وافساح المجال فى أرضها لقواعده وخبرائه ، وتمكنه من نهب خيرات وطننا العربى ليس هو الآخر موضوعا محرما ، على أى عربى ، فى أى مكان ..

والذين يروجون لعبارة « عدم التدخل » هذه مع ما فى هذه العبارة من مطاطية وتضليل ، ولكنهم مع ذلك يتمسكون بها ..

لماذا ؟

لأنها أنسب عبارة سياسية تصلح ترجمة مهذبة للمضمون البشع .. لعزل شعب دولة عربية عن الشعب العربى فى الدول الأخرى ..

والصفة الغالبة لهذه المرحلة من تاريخنا القومى ، هى السعى نحو الوحدة .. الوحدة التى تقفز فوق القواعد المصنعة ، وتتخطى الحدود الوهمية المتعسفة ، وتفرض شكلها وروحها وايديولوجيتها من خلال هذا السعى ، وكثمرة ناضجة لنجاحه ..

والذين يرددون هذه الكلمة « عدم التدخل » يخشون الوحدة فى المدى البعيد ، ويخشون السعى الشعبى العربى نحوها فى المدى القريب ، هذا السعى الذى قد يولد أشكالا جديدة من الحياة لا تخطر لهم على بال ، ولا يحبون أن تخطر لهم على بال ..

وهم يحاولون بشتى الوسائل الوقوف فى وجه هذا التيار ، واحدى هذه الوسائل هى رفع شعار عدم التدخل ولأن الشعار فاشل لأنه ضد التاريخ ، ضد هذه المرحلة التاريخية التى نعيشها الآن ..

لذلك فانهم يحاولون البحث له عن سند قانونى ..

والسند القانونى الذى يختارونـــه هو : ميثـــاق الجامعة العربية ··

والميثاق يتضمن مادة بهذا المعنى ··

ولكن شتان بين الظروف التى أبرم فيها الميثاق ، والظروف التى نعيشها اليوم ··

اننا نعيش فى مرحلة أخرى ، مختلفة تماما عن المرحلة التى عقد فيها الميثاق ·· وقوى الاحتلال يسيطر على معظم أجزاء الوطن العربى ، والمسافات الثقافية والوجدانية بعيدة متسعة بين معظم تلك الأجزاء ··

كان الاستعمار الانجليزى فى مصر والعراق والســودان ، أو الاستعمار الفرنسى فى تونس والمغرب ، والنفوذ الغربى فى كل أجزاء الوطن العربى ··

وكان الميثاق هو الحد الأقصى الذى تسمح به هــذه القوى الاستعمارية وحتى الذين وقعوا على الميثاق كانوا يدركون أنه نقطة بدء ، وكان الشعب العربى فى كل مكان يقاسمهم هذا الادراك ··

وفى أثناء مناقشات عقد هذا الميثاق اقترح مندوب احدى الدول العربية أن ينص فى بنوده على السعى لوحدة العالم العربى أو اقامة اتحاد فيدرالى بين أجزائه المختلفة ··

كان ذلك فى عام ١٩٤٥ ، وكان ذلك المندوب ، هو كاظم القدسى رئيس وزراء سوريا ، أولى الدول العربية استقلالا فى ذلك الوقت ·

ورفض بقية الأعضاء الاقتراح ··

ومنذ أبرم الميثاق جدت تطورات كثيرة ، ومن عار الهزائم الكبيرة انبعثت الثورة العربية الكبرى ..

الثورة التى تلزمنا اعادة تفسير عبارات الميثاق ، اذا لم نستطع اعادة صياغتها .

وأهم هذه العبارات هى عبارة « عدم التدخل » ..

روز اليوسف ١٩٦١/٢/٦

أزمـــة تطلب الحـــل

فى اللجنة التحضيرية ، تحدث الدكتور زكى نجيب محمود ، ثم نقيب المحامين مصطفى البرادعى عن أزمة البطالة بين خريجـــى الكليات النظرية ، وكان حديث كل منهما قاصرا على الظواهر التى تعنيه ، دون أن يصل الى ادراك جوهر المشكلة ..

تحدث الدكتور زكى نجيب محمود مثلا عن طلابه فى كليـــة الآداب ، حين يتخلل اليأس نفوسهم ، وهم يجدون الدفعـــات التى سبقتهم الى التخرج ، ماتزال تبحث عن عمل ، وتحدث الأســـتاذ البرادعى عن أزمة المحامين تحت التمرين ، وكيف يعانون ضـــيق الرزق ، وصعوبة الحياة ..

والمشكلة فى الحق ، هى مشكلة انعدام التخطيط فى حياتنا الجامعية ، ففى نفس الوقت الذى يعانى فيه خريجو كليات الآداب والحقوق هذه الأزمة ، تعلن الاحصائيات فى مصر عشـرة آلاف طبيب ، بينما يحتاج أبسط برنامج للتأمين الصحى ، ولنشر الخدمة الطبية فى جميع انحاء الجمهورية الى ثلاثين الف طبيب ، وفى مجال آخر نجد أن المهندسين جميعا يعينون فى الحكومة بأوامر تكليف ، تصل اليهم قبل أن يجتازوا اختبار البكالوريوس ، وفى مجال ثالث ،

وهو مجال الكيماويين والمشتغلين بالتعدين ، تستعين فى ابحاثنا البترولية والمعدنية بالخبراء ، بل وبالعمال الحرفيين الأجانب ··

ولو ظلت امور الجامعات تدور على هذا المستوى فلا شك ان الأزمة ستزداد حدتها عاما بعد عام · فكل موسم دراسى جديد يضيف الى رصيد العاطلين الف عاطل جديد · ولا يجب ان تصدمنا الاقتراحات الجريئة كاغلاق كليات الحقوق خمس سنوات او سبعا ، وتحديد عدد من يدخلون كليات الآداب بالمئات القليلة فى جامعاتنا الأربع ، وتصفية كلية دار العلوم ·

اما هؤلاء الخريجون من كليات الآداب ، فانى اقترح ان يفسح لهم مجال عاجل فى التدريس · فان الدولة التى خفضت ساعات العمل فى المصانع ، لتستوعب عمالا جددا · تستطيع ان تخفض نصاب المدرس فى مدارسها حصتين كل اسبوع ، فاذا كان عدد المدرسين ثمانين الف مدرس ، فان عدد الحصص التى تنتج عن تخفيض النصاب يتجاوز ١٦٠٫٠٠٠ حصة ·· يحتاج اداؤها الى ستة آلاف معلم جديد ··

اما خريجو الحقوق المتعطلون ، فامامهم وظائف امناء السر بالمحاكم وبعد ذلك ·· لابد من التخطيط ·· والجراة فى التخطيط · حتى لا تتحول الأزمة ·· الى مأساة ··

روز اليوسف ١٩٦١/٢/١٨

المقيـــاس الجديد للوطنيـــة

كثير من الناس حين أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا ، قفز الى اذهانهم سؤال سرعان ما تردد على شفاههم ..

ـ ماهى الدولة العربية الثالثة التى ستنضم الى الجمهورية العربية المتحدة ؟

وكانت هناك تخمينات كثيرة كل منها يرشـــح دولة معينة ، مؤيدا تخمينه بشرح ظروفها السياسية والاقتصادية .. ومـــرت سنوات ثلاث ، ولم تنضم دولة عربية ثالثة الى الجمهورية الجديدة ، ولم يصدق تخمين واحد ..

فهل هذا نصر أم هزيمة ؟

وهل معنى ذلك أن الوحدة العربية قد تجمدت عند هذا الحد ؟

الواقع هو أننا عندما نريد الاجابة على هذا السؤال يجب ألا نقف عند الشكل .. عند الاعداد .. عند حساب عدد الدول . بل علينا أن نقفز الى المضمون . فالدول العربية التى لم تدخـــل فى الوحدة قد تأثرت بتيار الوحدة وروحها بنفس الدرجة التى تأثرت بها مصر وسوريا .

حقيقة ·· أن مصر وسوريا أصبح لهما علم واحد ، ونظام سياسى واحد ولكن الأهم أن مقياس الوطنية ، فى مصر وسوريا ، قد تغير عند الناس ·· عند المواطن العادى ·· عند رجل الشارع ·

أصبح المقياس هو : هل أنت مع الوحدة ·· أم أنت ضد الوحدة ··

فاذا كنت مع الوحدة ، فأنت وطنى · واذا كنت ضد الوحدة ، فأنت لاشىء وهذا المقياس الجديد قد استوعب مقاييس أخرى كثيرة ، كانت شائعة بين العرب كان البعض يقولون ان الحرب ضد الاستعمار وحدها ، هى الوطنية ·· وكان الآخرون يقولون ، ان اقرار العدالة الاجتماعية ، هو الوطنية ·· وكان فريق ثالث يقول : ان العمل من أجل الديمقراطية ، هو الوطنية ·

وحين أعلنت الوحدة تبين لجميع هؤلاء أن كل هذه الأهداف الطيبة أجزاء من كل واحد متكامل ، وأن الوحدة العربية هى الكلمة الوحيدة التى تحتوى فى داخلها على كل الجوانب المضيئة من تفكير العرب وحياتهم ··

وبنفس الدرجة التى حقق بها اعلان الوحدة هذا الاحساس فى نفسية أبناء الجمهورية ، تحقق نفس الاحساس فى نفسية الوطنيين من أبناء الشعب العربى فى كل مكان ، مهما اختلفت الدول التى ينتمون اليها ، والأنظمة التى تظلهم وهذا الاحساس بأن الوحدة هى الوطنية الجديدة ، هى الاستقلال والاشتراكية والديمقراطية فى كلمة واحدة ، هى مضمون الوحدة ··

وليست الدول التى انضمت الى الوحدة والنظم التى تسير عليها الا مجرد أشكال يتحقق خلالها هذا المضمون ·· ولنعد الآن للاجابة على السؤال :

ـ ماهى الدولة العربية الثالثة التى ستنضم الى الجمهورية العربية المتحدة ؟ والجواب عندئذ هو :

ـ ان كل الدول العربية قد انضمت فعـــلا الى الجمهوريــة العربية المتحدة ‥ لأن شعوب كل الدول العربية أصبحت تؤمن بأن المقياس الوحيد للوطنية هو الوحدة ‥

وهذا يكفى ‥

لأن كل مايعنينا هو الشعب ‥

روز اليوسف ١٩٦١/٢/٢٧

فى سـبيل الزعـامة فقط

الحبيب بورقيبة ، رئيس جمهورية تونس ، يحاول هذه الأيام ان يقوم بدور الوساطة بين ديجول ، وين زعماء جبهة التحرير الجزائرية ..

وقد بدأت القصة حين التقى ديجول فى احدى الحفلات بسفير بورقيبة فى باريس ، وقال له : اننا نؤمل أن يزورنا بورقيبة ..

ولم يكذب بورقيبة الخبر ، واشاع انه سيتوسط بين ديجول وجبهة التحرير .. ثم سافر الى سويسرا بحجة الاستشفاء ، حتى يحدد ديجول موعد الزيارة ، فيطير من سويسرا الى باريس .

وبورقيبة يقضى الآن بعض الأيام فى سويسرا ، بينما يدور وزيره المصمودى بين زعماء جبهة التحرير ، وبين ديجول ، ينقل وجهات النظر ، ويحاول التقريب بينها ، ويمهد فى نفس الوقت للقاء بين ديجول وبورقيبة ..

وموقف زعماء جبهة التحرير من هذه الوساطة موقف مشوب بالحذر ، وهم يعلنون بشكل ما انهم لا يأملون فى كثير من وراء هذه

الوساطة ، ولكن لا بأس من المحاولة ، التى تدفعهم اليها الرغبة فى السلام ، من أى طريق ..

وهم يقولون دائما ان مطالبهم واضحة ..

فهم يصرون على أن يعقد لقاء مباشر بين ديجول وحكومته وبين قادة الحكومة الجزائرية المؤقتة ، حتى لا يتكرر ماحدث فى ميلون حين أناب ديجول عنه بعض أعوانه ، وضاعت مسئولية فشل المفاوضات ، بين صغار الفرنسيين ، غير المسئولين ..

وهم يصرون على أن تدور المفاوضات حول مسائل محددة أيضا ..

أولها اجراءات تقرير المصير التى يسبقها انسحاب الجيش الفرنسى من الجزائر .. والاعتراف بالحكومة المؤقتة كممثل شرعى للجزائريين ..

أما موقف ديجول فيشوبه فى ذلك الغموض الذى يحرص دائما على اضفائه على خطواته ومنهج تفكيره ..

ولكن بعض الكلمات المتناثرة ، هنا وهناك ، توضح الخطوط الاساسية لسياسته التى عرضها على وزير بورقيبة . والتى يطمح فى أن يقنع بها بورقيبة حكومة الثوار ..

انه يقول .. تقرير المصير ، نعم ، ولكن الجيش الفرنسى بجنوده النصف مليون موجود فى الجزائر ، ولا بأس من ان يدخل الجيش ثكناته ، على أن يلقى أفراد جيش التحرير أسلحتهم ، فى مقابل ذلك ..

ولا يمانع ديجول فى اقامة حكومة جزائرية وطنية ، على أن تضم بعض الوزراء الفرنسيين أو المستوطنين ، وعلى أن يشرف هؤلاء الوزراء على شئون الدفاع والخارجية والاقتصاد .

والشرط الأخير هو أن تناصف فرنسا الجزائر فى البترول بأن تنشأ مؤسسة لادارته تتمتع فرنسا بنصف أسهمها ..

ذلك هو المدى الذى وصل اليه ديجول ، والذى يحاول أن يقنع به بورقيبة ، ليقنع بدوره زعماء الجزائر .

وفى هذا المدى الضيق ، لا شك أن ديجول قد تنازل كثيرا ، عما قاله فى العام الماضى ، وفى العام الذى سبقه ..

وديجول مدفوع للتنازل دائما ، لأنه يخشى من تدخل أعدائه ، ويخشى أكثر من تدخل أصدقائه !

أما أعداؤه ، فهم جبهة الشعوب العريضة التى تؤيد قضية الجزائر .

أما أصدقاؤه ، فهى أمريكا ورئيسها الجديد كنيدى ..

لقد ابتدأ كنيدى يتحرك بسرعة ليرث ديجول فى الجزائر .. ولكنيدى بعض رصيد سابق ..

كان كنيدى قد أدلى بتصريح فى عام ١٩٥٧ ، حين كان عضوا فى الكونجرس ، قال فيه : ان على فرنسا أن تمنح الجزائر استقلالها .. وقد عاد كنيدى منذ أسبوعين ، فأكد ذلك التصريح ..

وفى الاسابيع الماضية أوعز كنيدى الى سفرائه فى روما وباريس وبون بأن يستقبلوا ممثلى جبهة التحرير بأنفسهم ، بدلا من أن يتركوا أمر استقبالهم لصغار السكرتاريين فى السفارات كما كان يحدث ، وأن يطمئنوهم الى تأييده لاستقلال الجزائر ..

وفى الشهر الماضى أرسل كنيدى بعثة من ثلاثة من أعضاء الكونجرس الأمريكى . ومعهم روبرت كنيدى ، شقيق الرئيس . لكى يدرسوا أحوال افريقيا ، وعادت البعثة وعلى لسانها كلمة واحدة

لابد من حل مشكلة الجزائر قبل أن يكون لأمريكا مكان فى افريقيا ..

وحرصت حكومـــة كنيدى على اذاعـــة هذا التقرير بكـل الوسائل ..

ولعل مما يزيد من حماس كنيدى للعمل ما يحدث فى الغرب ، اذ تلقى المغرب ١٤ طائرة نفاثة من روسيا ، ولم تفلـــح تهديدات أمريكا بوقف المعونة فى زحزحة المغرب عن ابرام هذه الصفقة .

وزار الرئيس السوفيتى برزنيف ملك المغرب ، ويتوقع أن يزور كل من خروشوف وتيتو وسيكوتورى الدار البيضاء قريبا ..

وقبل ذلك حضر ملك المغرب مؤتمر الدار البيضاء ..

ولولا بعض الخجل لاتهمت الصحافة الأمريكية ملك المغرب ، بأنه شيوعى .

وكنيدى يخشى اذا استقلت الجزائر دون أن يفصل لها هو نوع استقلالها ، أن تسير فى ركب الدول المتحررة ، مع المغـــرب والجمهورية المتحدة .

ويخشى أيضا اذا طالت معركة الجزائر حتى تستعمل فيها الأسلحة السوفيتية والصينية ، أن ينقلب الاعتراف بالجميل الى ولاء وتبعية ، حسب فهمه الأمريكى الساذج للأمور .

لذلك لابد أن تستقل الجزائر ، ولكن مع الارتباط بالغرب ، الذى تمثل أمريكا اكبر قوة فيه ، والتى يدعم نفوذها هذا الرصيد الطيب الذى ابتدأ كنيدى يبدر كلماته منذ عام ١٩٥٧ .

وعلى سفراء أمريكا فى روما وبون وباريس أن يعملوا على اجتذاب بعض العناصر فى جبهة التحرير الجزائرية .

وعليه ـ هو الرئيس ـ أن يضغط على ديجول لحل مشـــكلة الجزائر ، وأن يبرز هذا الضغط ما أمكنه .

وعليه أيضا أن يستعين ببورقيبة وقد وجه كنيدى هو الآخـر الدعوة لبورقيبة لزيارة أمريكا حين استقبل سفيره ·· منجى سليم، قبل أن يغادر السفير واشنطون الى منصبه الجديد ·

وكان بورقيبة هو أول رئيس دولة توجه اليه الدعوة لزيارة أمريكا فى عهد كنيدى ·

لقد أصبح بورقيبة ، بين عشية وضحاها ·· الضيف المحبوب الذى يتنافس على لقائه كل من ديجول وكنيدى ·

ذلك لأنه هو الوسيط الوحيد الذى يقل أن يحاول حل قضية الجزائر ، على أساس الولاء للغرب ·

وقد ذهب كنيدى الى مدى أبعد فى اجتذاب بورقيبة ، فأعلن اليه أن مشكلته هو ـ بورقيبة ـ حول القاعدة الفرنسية فى بنزرت من الممكن حلها ·

ان القوات الفرنسية تستطيع ـ بل يجب ـ أن تنســحب من القاعدة ، على أن تحل محلها قوات حلف الأطلنطى ·

ونحن نعرف ، ما معنى قوات « حلف الاطلنطى » ولابـد أن بورقيبة سيوافق لأنه رجل غربى ! يقول انه يتعامل مع الغرب على أساس الند ·· للند ·

وهذا الحل الذى يقترحه كنيدى ، قد يكون هو أيضا الحل الذى يقترحه ، أو يطمع فى أن يفرضه ، لو اســتقلت الجــزائر ، بعد مفاوضات بورقيبة ·

هذه هى سياسة أمريكا التى ترسمهـا من خـــلال بورقيبة أيضا ·

ولكن هل يدرك بورقيبة الدور المطلوب منه أن يؤديه ؟

نعم ··

ولدى بورقيبة أسبابه التى تدعوه للحماس •

ان تونس دولة يبلغ تعدادها أربعة ملايين ، تجاور الجزائر التى يبلغ تعدادها عشرة ملايين ، وبعدها المغرب الذى يزيد تعداده على خمسة عشر مليونا •

والمغرب العربى بأقطاره الثلاثة يكاد يـــكون وحدة واحـــدة وبورقيبة عنده عقدة غريبة •• هى طموحـــه لزعامة هذا الجناح العربى من أراضى العروبة •

وفى الأيام الأخيرة ســـاءت العلاقات الرسمية بين المغـــرب وتونس ، بأثر أزمة موريتانيا ، وبرز موقف مملكة المغـــرب كقوة متحررة للتعاون تماما مع المشرق العربى •

وكادت زعامة بورقيبة أن تضيع •

ولم يكن هناك انسان ـ أشد اســفا ـ على تأييد المعســـكر الشيوعى لحرب الجزائر من بورقيبة •

وكلا هذين العاملين يؤكدان له ان زعامته المتوقعة لجنـــاح العروبة الغربى ، بعد استقلال الجزائر ، أصـــبحت وهما الا اذا دعمها الغرب ••

ولكنه يحاول •• يحاول أن يسبق خطى الزمن ، فتتفاوض مع الغرب ، على من يربط الجزائر بالغرب ••

كل ذلك ، لتبقى له زعامته •

روز اليوسف ١٩٦١/٢/٢٧

الهدف البعيد والهدف القريب !

لقد أصبح واضحا ، بعد ان بلغت ازمة الكويت مداها ، ثم انتهت نهايتها التعيسة بعودة البوارج البريطانية وتحويل الكويت الى ثكنة عسكرية ، ان هذه الأزمة لم تكن من تدبير فرد واحد او جهة واحدة ، ولو اتبعنا منطق التحقيق البوليسى الساذج فى قضايا الحياة ، وسألنا « من المستفيد » لكى نستطيع ــ بعد تحديد المستفيد ــ ان نوجه الاتهام ، لكان المستفيد الاول فى هذه القضية الكبرى التعيسة البداية والنهاية هو الاستعمار البريطانى ، ولكان هو ــ أيضا ــ المدبر الأول ٠

ولكن السياسة المتشابكة ، جعلت ، المتهم الأول يلبس دور المنقذ وجعلت الأداة الفاعلة ، التى لا تكاد تملك من أمرها شيئا ، تلبس دور المفكر والمدبر ٠

وقد أصبح واضحا أيضا ــ أن الأزمة بتطوراتها ونتائجها ــ كانت مرسومة لتقود مثل هذه النهاية !

فحين أعلن اللواء قاسم أن الكويت جزء من العراق ، يتبع متصوفية البصرة لم يكن يتوقع ، بالطبع ، أن يسارع الشيخ

عبد الله الصباح حاكم الكويت الى متصرف البصرة ، ليعلن اليه ولاءه له ، ولحكومةبغداد ، وللواء عبد الكريم قاسم ٠

ولابد انه كان يتوقع ، أن حاكم الكويت سيستنجد بحليفته ، وأن بريطانيا ستستجيب لندائه ، وتنزل جنودها فى الكويت ، بحجة حمايتها من الجيش العراقى المحتشد على الحدود الذى يذيع راديو بغداد أخبار تحركاته وسكناته ٠

ان أى تفكير سياسى مهما كان ساذجا لابد ان يتوقع كل ذلك ٠٠

وهكذا توقع مدبروا الأزمة ــ وهم كما قلت ــ أكثر من واحد ٠٠ بأكثر من جهة ٠

ولكن هذا ليس كل شىء ٠

ان وراء خلق الأزمة والوصول بها الى نهايتها غرضا أكبر ٠٠ هدفا أكثر غنما ومكسبا ٠٠ هدف للتاريخ البعيد ٠

هذا الهدف الذى وجه اليه اللواء قاسم طلقات قراره بضم الكويت ، والذى وجه اليه الأسطول البريطانى مدافعه وبوارجه ، هو كل شعار قومى عربى ثورى ، هو رغبة العرب فى الوحدة وعداؤهم للاستعمار ، وتبشير جمال عبد الناصر والطليعة الثورية من ورائه بأهداف الثورة العربية الجديدة ٠

لقد كان المقصود هو تشويه هذا الهدف ٠٠ وتوريط دعاته ٠٠

وكان ذلك القصد المبر ، الى تشويه ذلك الهدف التاريخى ، واضحا منذ البداية ٠

فحين حاول مدبروا الأزمة أن يخلعوا على قرار اللواء قاسم شكل الرغبة فى توحيد قطرين عربيين ، وأن ينفخوا فى نار الأزمة

بحشد الحشود وانزال الجنود ، كانوا يقصدون ان تجد كل دولة عربية بوجه عام ـ والجمهورية العربية بوجه خاص ملزمة بتوضيح وجهة نظرها ، وكانوا يطمعون أن تتخلى الجمهورية العربية عن شعار الوحدة ـ ازاء هذا الاختيار المدبر الخبيث ٠

وأعلنا وجهة نظرنا ، ولم يختلط علينا الأمر ٠

اننا ـ كثوريين عرب ـ نؤيد الوحدة من كل قلوبنا ، ولكننا نستنكر الضم والفرق بين الوحدة والضم ، هو ان الوحدة ارادة شعب ، وأن الضم نزوة حاكم ٠٠

والضم قد يبحث له عن مبررات ، من تاريخ العرب أيام الدولة العثمانية أو من المعاهدات والاتفاقيات التى عفا عليها الزمن ، أما الوحدة ، فان مبررها الوحيد هو رغبة الشعب ، وتعبيره المطلق العفوى عن هذه الرغبة ٠٠

ولو استطاع اللواء عبد الكريم قاسم أن يقنع شعب الكويت بالوحدة مع العراق ، واستطاع هذا الشعب أن يبرز رغبته ، لكنا أول المرحبين بهذه الوحدة باعتبارها خطوة نحو الوحدة العربية الشاملة ٠٠

ولكن اللواء عبد الكريم قاسم أوقف شعب العراق فى وجه شعب الكويت ، ورفع سلاح جيش العراق ، وسدده الى أبناء الكويت ٠ ٠

فهل هذه وحدة ٠٠ أو رغبة فى وحدة وهكذا اتضح موقفنا ، بل لقد اكتسبت دعوتنا التوحيدية أبعادا جديدة ، تزيدها تحديدا وجلاء ، لأنها اجتازت امتحانا جديدا ٠

وسر أصالة نظريتنا الثورية دائما انها تتفتق عن كسب جديد كلما تعرضت لأزمة جديدة ٠٠ لقد كسبنا من أزمة السويس ، ومن

أزمة نزول الأسطول السادس فى بيروت ، ومن أزمة معركتنا مع العناصر الفوضوية والعملاء فى العراق ، وها نحن نكسب من أزمة الكويت أن اتضح الفرق الشاسع فى المفهوم بين الوحدة والضم !

كانت تلك هى احدى طلقات المدفع التى وجهت الينا ، والتى هى الهدف البعيد من خلق أزمة الكويت ، وكان المطلوب أن يصل صداها الى كل عربى يؤمن بالجمهورية العربية المتحدة ودورهـــا الثورى القيادى ، من الخليج الى المحيط ·

وكانت الطلقة الثانية طلقة مليئة بالغبار ·· محاولة أخرى لتشويه موقفنا ·

لقد انقسمت الدول المعنية بأزمـــة الكويت الى طائفتين ·· أصدقاء الكويت ·· وأعداء الكويت ·· أو هكذا يقول الاستعماريون وأذنابهم !

الطائفة الأولى تضم : بريطانيا وأمريكا والسعودية والأردن وايران ·· والجمهورية العربية المتحدة ·

والطائفة الثانية ·· تضم العراق فقط ·

وحرصنا للمرة الثانية على أن نوضح موقفنا ·· ـ أننـــا لا ننتمى فى موقفنا الى معسكر أو طائفة ·· الا مصـــلحة العرب ورغباتهم ·

ـ ان وقوفنا ليس فى صف الكويت ضد العراق ، بل نحن مع شعب الكويت وشعب العراق معا ، لأننا نكره أن يحمل عربى السلاح فى وجه عربى ·

ـ وموقفنا هو استجابة لواقعنا ، لا يرتبط الا بمفهوماتنا ، ونحن نقف مع الدول العربية التى تقف نفس موقفنا ، بالقدر الذى ينسجم فيه هذا الموقف مع مفهوماتنا ـ اننا نستنكر هبوط القوات

الانجليزية الى أرض الكويت ، وندين كل من شارك فى توجيه الأزمة والوصول بها الى هذا المدى التعيس .

وحين أعلنا موقفنا ، تبددت سحب الغبار التى تحويها هذه الطلقة الخائبة وفشل مدبرو الأزمة فى تحقيق هدفهم البعيد .

ويبقى امامنا ، وأمام شعب الكويت والشعب العربى فى كل مكان بما فيه العراق ، ان تكافح لنضيع عليهم فرصة تحقيق هدفهم القريب وهو العودة الى الكويت أو الاستقرار فيها ..

وهذه هى معركتنا التالية ..

روز اليوسف ١٠/٧/١٩٦١

لـــاذا لا تشرب الحساء ؟

جون جنتر الصحفى الأمريكى المعـــروف ، كتب فى الطبعة الجديدة من كتابه « فى داخل أوروبا » هذه القصـــة الغريبة عن ديجول :

ان وزراء ديجول مجموعة طـــراطير ، ولكن عند ديجـــول مجموعة من الرجال يشغلون بعض الوظائف فى مكتبـــه ، ويعهد اليهم بالأعمال الهامة ، وكان من أولئك الرجال شاب اسمه جيشار ، أحبه ديجول ، وقربه اليه ، وعهد اليه بمسئوليات هامة ، ثم أخذ يدعوه الى العشاء ، على مائدته ، التى يحرص الجنرال على أن تكون مائدة فرنسية صميمة وان يكون الحساء الفرنسى هو أول الاطباق التى تقدم على المائدة ، حرصا على التقاليد الفرنسية فى الأكل واعداد المائدة ٠

وفى كل يوم ، كان ديجول يقول لمساعده :

ـ الا تناولت قدرا من الحساء ياجيشار ؟

ويجيب جيشار معتذرا بأدب :

ـ شكرا ٠٠ ياسيدى الجنرال ؟

وتكرر هذا الحوار ثلاثين يوما ، وفى اليوم الحادى والثلاثين ، جرى نفس الروتين ·· سأل ديجول واعتذر جيشار ، ولكنه فوجىء بديجول ينظر اليه نظرة حانقة متعالية ، ثم يقول فى غضب :

ـ جيشار ·· قل لى كيف تصبح فرنسا عظيمـــة ، اذا كان رجالها لا يشربون الحساء الفرنسى الذى كان يشربه أجدادنا ؟

وسكت جيشار ، وانفضت المائدة ، ومن ذلك اليوم ، وديجول لا يعهد لجيشار بأية مهمة ، ولا يقربه اليه ··

لقد انتهى الرجل لأنه لا يحب الحساء !

·· · ·· ··

وهكذا يفكر ديجول ··

انه يتوهم ان فرنسا كانت فى يوم من الايام دولة عظيمة ، لأنها خرجت يوما فى حرب صليبية تحت لواء ملك يتوهم أنه قديس ، ووصلت سفن قراصنتها منذ قرون الى كندا وجنوب شرقى آسيا ، واحتلت الشمال الافريقى بخديعة ·· ولأن رجالها يشربون الحساء الفرنسى ولو كانوا يكرهون مذاقه محافظة على تقاليد فرنسا ··

وينسى ديجول أن فرنسا دلست على العالم واقنعته بعظمتها بأشياء أخرى ·· بكتابات فولتير ، ومسرحيات موليير ، وهتافات روبسبير ، ودعوة هيجو للعدل ، وصرخة روسو فى سبيل المساواة وهؤلاء جميعا لا يحبهم ديجول ، ويفضل عليهم الرجال الذين يشربون الحساء ··

ورجل كهذا ، ليس من الغريب ، حين يصبح حاكما ، أن يقود مذبحة فى الجزائر ، وأخرى فى بنزرت ، وان يلقى فى صـــحراء افريقية ·· على أرض لا يعرفها ولا تعرفه ، قنبلة ذرية قذرة ··

ولكن الغريب ـ حقيقة ـ أن يصبح هذا الرجل الذى يجب أن يكون مكانه « المتحف » ·· حاكما فى قصر الأليزيه ··

روز اليوسف ١٩٦١/٨/٢٨

ازمــة احتــرام

همرشولد جريئا هذه المرة حين قال فى تقريره السنوى عن الأمم المتحدة ٠٠ ان هذه المنظمة التى يجب ان تحترم قراراتها تعانى من ازمة « عدم الاحترام » !

وقد اذيع هذا التقرير اخيرا ،

واصابت الدهشة كثيرين ممن قراوه لم يكونوا يتوقعون ان يبادر سكرتير الأمم المتحدة الى جلاء هذه الحقيقة ، فى نفس الوقت الذى يتعرض فيه هو شخصيا لهجمات المعسكر الشيوعى ، ومطالبة خروشوف الدائمة بعزله ، او باختيار هيئة ثلاثية تمثل الشيوعيين والمعسكر الغربى ودول عدم الانحياز ، لتولى اعبــاء الســـكرتير العام ٠

والواقع انه لامبرر للدهشة ، ان همرشولد يوجه الضربة قبل ان توجه الضربة اليه ، فقد استطرد فى الفقرة التاليــة من تقريره ليقول : ان اللوم لا يقع عليه ولا على معاونيه ، ولـــكن على الدول نفسها التى تشترك فى المنظمة ٠

لقد قال همرشولد : ان الأسرة العالمية لم تستطع ان تصل بعد ،

فى تطورها الخلفى الى المرتبة التى تصبح فيها احرص على السلام ، وأكثر حبا للعدالة والمنطق ··

والاتهام الذى يلقيه همرشولد اتهام صحيح ، بل هو اداته واضحة ، ولكن كان من الاجدر بهمرشلد أن يحدد الى أين تشير أصابعه ··

وقد ساعدت ازمة بنزرت على تحديد « العناصر المشاغبة » فى الأسرة العالمية ··

ومن سوء الحظ أن هذه العناصر المشاغبة ، هى اقوى افراد الأسرة ، بحكم السلاح ، والعدد والنفوذ ··

وقد كانت أزمة بنزرت امتحانا له خاصة ·· ان الدولة الشاكية ·· تونس ·· دولة معتدى عليها ، وصغيرة لايزيد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين ونصف وأرض المعركة فى صميم أرضها ، وهى — وهذا هو الأهم — ليست دولة شيوعية ، ولم تكن حين حدث الاعتداء ، دولة صديقة للمعسكر الشيوعى ، بل لعلها كانت أقرب الى الغرب منها الى الحياد نفسه !

وتقدمت الدول الافريقية الآسيوية بمشروعها الذى يقضى برجوع القوات الفرنسية الى مراكزها السابقة ، قبل العدوان ، وبقرار حق تونس فى طلب جلاء القوات الاجنبية عن جميع أراضيها كما يوصى القرار الطرفين المتخاصمين بالدخول فى مفاوضات لحل المشكلة بالطرق السلمية ·

والقرار ، كما هو واضح ، قرار معتدل وحكيم الى اقصى حد ، ليس فيه لوم ولا تجريح ولا اثارة ·

وكان بورقيبة ، رئيس تونس ، يتوقع أن تقف الولايات المتحدة وبريطانيا معه أو أن تشاركا فى الضغط على فرنسا ، كما حدث حين

صوتت الولايات المتحدة ضد البرتغال حين عرضت مشكلة «أنجولا» على الأمم المتحدة ·

و ·· خاب الامل فى الغرب ··

وانكشف وجه الاستعمار ، وتمزق عنه الحجاب ·

ولكن اغلبية الأمم المتحدة ، دول افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، الستة والستين ، اغلبية العالم ، وقف فى صف تونس !

وأصدرت الأمم المتحدة قرارها والكثيرون يتساءلون :

ـ هل ضحت الولايات المتحدة بصداقة ست وستين دولة فى سبيل الفرنسيين فى بنزرت ؟

والواقع ان الولايات المتحدة لم تضح بهذه الصداقة من اجل بقاء الفرنسيين فى بنزرت ، بل من اجل بقاء الغرب فى برلين !

ان برلين هى سر المشكلة ، فالولايات المتحدة حريصة فى هذه الفترة على ان يدخل الغرب متماسكا ازاء تهديدات خروشوف ، انهم يخشون من الفرنسى المدلل « ديجول » ان ينفض يده من المشكلة ، وديجول يجيد اللعب بورقة بقائه فى حلف الأطلنطى ، وبوقوف فرنسا مع الغرب ·

ان المسالة اذن هى مسالة معسكرات عالمية ·· لا اسرة عالمية ، وكل معسكر يقف ازاء الآخر ، وعلى أى دولة فى المعسكر الغربى أن تقف مع غيرها من دول المعسكر سواء اكانت ظالمة ·· أو مظلومة !

وهذا هو عيب الأمم المتحدة ··

ولاشك أن هذا العيب الخطير سيكون اكثر وضوحا فى الأيام

القليلة القادمة لقد انسحبت فرنسا من الجلسة ، ثم اعلنت انها لم تعترف بقرارات الأمم المتحدة لأنها قد ابرمت فى غيبة مندوبها !!

وعلى الامم المتحدة أن تتحرك بعد ذلك ولكن هل تستطيع الأمم المتحدة مثلا أن تفرض عقوبات اقتصادية على فرنسا ؟

وهل تستطيع الأمم المتحدة أن تستخدم قوة دولية لاجلاء الفرنسيين ؟

لا أظن ..

ولو اتخذت الأمم المتحدة قرارا من هذه القرارات باغلبية دول آسيا وافريقيا ، فلا شك أن دول الغرب ستعارضه ، وستستطيع بقوتها المعنوية فى الأمم المتحدة أن تعطله .

ان الأمم المتحدة تكونت فى عام ١٩٤٥ وكان قانونها ونظامها « مفصلين » .. على وضع العالم فى ذلك الوقت .

ونحن الآن فى عام ١٩٦١ ، والعالم لم يعد معسكرين بينهما فراغ واسع ولعل هذا هو ما عناه الرئيس جمال عبد الناصر ، حين اجاب على سؤال لمندوب التليفزيون الامريكى .

ـ اننا نريد بالطبع أن تتاح الفرصة للأمم المتحدة لتكون منظمة عامة ، لقد كانت تتألف فى البداية من خمسين دولة ، ولكنها الآن تضم تسعا وتسعين دولة ، وهكذا فان مابين عامى ١٩٤٥ ، ١٩٦١ ، مرت فترة لابد ان يعاد بعدها تنظيم الأمم المتحدة .

الاصـــلاح

والواقع ، أن كثيرا من العناصر السياسية فى داخل المعسكرين تحاول أن تجد العلاج للاخطار التى تهدد الأمـــم المتحدة ، حتى

لا تصبح مجرد مجتمع دولى رمزى ، فى قراراته واتجاهاته ، مثل عصبة الأمم ، التى تكونت بعد الحرب العالمية الأولى ٠

ولكن العيب فى كل اقتراح يقدم أو يعلن » هو أنه موجه «ضد» المعسكر الآخر ، لا « مع » الاسرة العالمية ٠

واقتراح خروشوف معروف ٠٠

ولهيو جيتسكل ، زعيم حزب العمال البريطانى ، اقتراحات أخرى لاصلاح الأمم المتحدة ، وقد بسطها فى كتابـــه « التعايش السلمى » الذى صدر منذ عامين ٠

وأوضح الأخطار التى تتعرض لها الامم المتحـــدة فى رأى « جيتسكل » هو أن السلطة تكاد تنحصر فى مجلس الأمن ٠٠

وفى مجلس الأمن هناك شىء اسمه « الفيتو » ٠

وهو يقترح الغاء الفيتو ٠٠

والاقتراح الثانى لجيتسكل هو تشكيل قوة دولية دائمة مثـل قوة الطوارىء الدولية ، لفض المنازعات بين الدول ٠٠ وهنا ينهض السؤال حول كيفية استخدامها بالضبط ، ومن سيقودها ويتراجع جيتسكل عن نصف اقتراحه فلو وضعت القوة الدولية تحت قيادة الجمعية العامة ، التى تتمتع الدول الصغيرة ـ شبه المحايدة وغير المنحازة بثلثى أصواتها ، فمعنى ذلك أن هذه القوة ستكون خاضعة لهذه الدول ٠

ولو وضعت تحت قيادة مجلس الأمن الذى تتصارع فيه الدول الكبرى ، فلن يكون لها دور ، لأن منازعات المجلس وعدم اتفاقه على رأى لن تترك لها مجالا للعمل ٠

واذن فلنفكر فى علاج المجلس ٠٠

فالمجلس فى الوقت الحاضر كما يقول جيتسكل ـ مبنى على الوضع القائم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولكن منذ ذلك الوقت حصلت أمور كثيرة ، وباستثناء التبدل فى الحكومة الصينية فقد ظهرت الدول غير المنحازة ، بالأخص الهند ، وانتعشت الدول المندحرة ، مثل اليابان وألمانيا الغربية ٠

وهنا يقترح جيتسكل أن تنضم الدول الأربعة الهند والصين الشعبية واليابان وألمانيا الغربية كأعضاء دائمين فى مجلس الأمن ٠

وعندئذ يصبح المعسكر الغربى ممثلا بخمسة دول :

الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واليابان وألمانيا الغربية ٠

والمعسكر الشيوعى بدولتين : الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية ٠

ودول عدم الانحياز بدولة واحدة ، وهى الهند وعندئذ ـ أيضا ـ يمكن أن توضع القوات الدولية تحت سيطرة مجلس الأمن ٠٠

وهكذا نرى أن اقتراح جيتسكل ، اقتراح « ضد » المعسكر الشيوعى ، لا « مع » العالم ٠

والدور الآن ، لمؤتمر الدول غير المنحازة ، لكى تقدم الاقتراح الذى ينقذ مصير العالم ، لأنه ٠٠ معه ٠٠ قلبا وروحا ٠

روز اليوسف ١٩٦١/٩/٤

اشـــتراكية التعــليم

ليست اشتراكية التعليم أن يكون التعليم حقا للجميع ، كالماء والهواء فحسب ..

فهذا اسمه مجانية التعليم ..

ولكن اشتراكية التعليم ، هى أن ينال كل انسان القسط من التعليم الذى يصلح له ، ويساعده على بناء حياته ، وعلى ان يرد للمجتمع ما بذله من جهد فى تعليمه ، أضعافا مضاعفة من الخدمات والانتاج ..

وذلك لأن الاشتراكية تؤمن بـ أول ماتؤمن ـ أن الانسان هو أثمن راسمال ..

وعقلية مجتمع الطبقة الوسطى تفكر فى التعليم كتـرف .. وزينة .. ونوع من الامتياز يتميز به افرادهـا على غيرهـــم من الناس ..

لذلك فهم يبحثون دائما عن الاسم أو اللافتة التى تطلق على

المتعلم بعد ان يكمل دراسته ·· ويكفيهم أن ينال أحدهم لقب ··
مهندس · ·أو دكتور ·· أو استاذ

أما عقلية المجتمع الاشتراكى ، المجتمع الذى عبر عنه الرئيس جمال عبد الناصر بقوله « كلنا عمال ·· من رئيس الجمهورية الى أصغر عامل فى مصنع أو حقل » فهو لا يبحث عن الاسم أو اللافتة ، بل هو يبحث عن كيفية استثمار الانسان بواسطة التعليم ·· ليصبح أفضل وأكثر استنارة ، وأكثر فائدة للمجموع ··

وفهم هذا الفرق ، واجب هذه الأيام ··

فمعظم أولياء الأمور وطلبة المرحلة العامة يبحثون عن الجامعة اولا ·· أى كلية ·· سواء المجتمع فى حاجة الى خريجيها ، أم لا ·

انهم يحرصون على اللقب الرنان ·· خريج جامعة ··

فاذا لم يجدوا لأبنائهم مكانا فى الجامعة بحثوا عن مكان فى المعاهد العليا ، ليكون لهم لقب رنان آخر ·· متخرج من معهد عال ·· وكفاية كلمة « عال » !

والقليل ·· القليل ·· من يفكر فى معاهد التدريب المهنى ·· باختياره ، لا مضطرا لنقص المجموع ، أو ضيق ذات اليد ··

هذا ، رغم أن خريج معاهد التدريب المهنى يجد فرصته فى الحياة ، مادية ومعنوية ، اكثر من خريجى بعض الكليات ، ويفيد المجتمع أكثر ··

وتقول لهم ذلك ، فيجيبون بشبه اقتناع ، ولكن ·· « برضه اسمه مؤهل متوسط ! »

متوسط ! عال ! كلمتان غريبتان فى المجتمع الاشتراكى ··
المجتمع الذى لا يعرف الا بالانسان العامل ·· العالى دائما ·· لأنه
أثمن **رأسمال** ··

ولكننا مازلنا نفكر بعقلية الطبقة الوسطى !

روز اليوسف ١٩٦١/٩/١١

وزارة العصر الحـــديث

زمان ٠٠ كانت قمة الدولة مكونة من ملك ، ووزير ، وحاجب للملك وكانت مسئولية الدولة غير محددة ، وكان قيامها بقضـــاء حاجات المواطنين ، يضيق ويتسع ، حسب ذمة الحاكم وضميره ٠

ومع تقدم الانسان ، اتسعت الدولة ، وتحددت مســـئولياتها وخلقت المسئوليات الجديدة وظائف جديدة ، وأصبح الوزير الواحد وزيرين ٠٠ وثلاثة ٠٠ وعشرة وعشرين ٠

فحين نشأت المدن الكبرى مثلا ، وزحفـــت ســـيول العمال والموظفين من الريف ، وجدت وزارات الاسكان ٠٠

وحين واجهت الحكومات شبح الجوع العالمى القادم ، وجدت وزارات التخطيط ٠

وهكذا ٠٠ كل مسئولية جديدة تضعها الدولة على عاتقها ، معناها وزارة جديدة ٠

وبهذا المعنى ، تكون هناك وزارات كلاسيكية ، عمرها من عمر وجود المجتمع الانسانى المنظم ، مثل الداخلية والمـــالية والعـدل والتعليم ٠

وهناك ايضا وزارات عصرية تماما لم تنشأ الا لأن الدولة أصبحت دولة حديثة ، وأضافت مسئولية جديدة الى مسئولياتها ٠

وأهم وزارة عصرية عندنا ـ هى وزارة البحث العلمى ، فاذا كان « التخطيط » هو طريق المستقبل ، فان البحث العلمى هو النور الذى ترتفع أعمدته على جانبى الطريق ، ومن هنا كانت وزارة البحث العلمى مطالبة بأن تخضع فى كل بحوثهـــا لاهتماماتنا ، ومطالبنا وامكانيات بيئتنا ٠

مثلا :

أمامها الآن موضوعات عاجلة مثل « دودة القطن » التى تلتهم جهد الفلاح ، ومثل الأدوية ، وصنعها من النباتات المحلية ، حتى لانخضع لمساومات الشركات العالمية ، ومثل علاج أمراضنا الوبائية، كالرمد والملاريا وشلل الاطفال الذى أصبح الآن شبحا يهدد الآباء ، ومثل استنبات اصناف اوفر محصولا من القطـــن والذرة والأرز والقمح ٠

هذه كلها مجرد أمثلة ، ولكن أمامهــا على المـــدى الطويل ، شمسنا التى يمكن تحويلها الى طاقة ووقود ، ونيلنـــا الذى يمكن تحويله الى ثروة ، ورمالنا وجبالنا ، وشواطئنا الممتدة من اللاذقية الى السلوم ، ومن السويس الى سفاجة ٠

ان العلم هو معجزة العصر الحديث ، ومهمة هذه الوزارة ان تنقلنا الى عصر المعجزات ٠

ففى هذا العصر أصبح كل شىء على الأرض ثمينا ، ونافعا ٠٠ حتى الهواء ٠

روز اليوسف ١٩٦١/٩/١٨

الأسبوع الصعب !!

قلبى مع الآباء والأمهات هذا الأسبوع ..

كم أم ستتمنى لو لم تعرف الزواج والحمل والولادة ، وكم أب سيتمنى لو عاش طول حياته أعزب ، لا يحمل هما ..

فهذا الاسبوع هو أسبوع دخول المدارس . أكبر هموم السنة عند الأسرة ، أو هو الصخرة العنيدة فى بحر حياتها الهادىء ..

ان متوسط ما يتكلفه فى هذا الاسبوع ، لا يقل عن عشرة جنيهات ، فاذا كانت هناك أسرة لديها ٥ أطفال ، فان عليها أن تدبر ٥٠ جنيها بأى شكل ، واذا كانت هناك أسرة عندها ٣ أطفال فان عليها ان تدبر ثلاثين جنيها ..

والمبلغ مشكلة . ولا يستطيع أحد أن يطالب باعداد هذا المبلغ طوال العام لكى تدفعه فى أول أكتوبر ، فنحن نعلم ان التوفير صعب، وان المرء لا يستطيع باختياره ان يحجز جزءا من دخله ، وخاصة اذا كانت أوجه انفاق هذا الدخل ليست مرنة ولا مطاطة ،

ما العمل ؟

انى أسأل السيد وزير التربية والتعليم ، وهو معلم قديم ، وناظر عرفت عنه السرعة فى البت والتنفيذ ، ومن أخبر الناس بالتعليم عندنا ، وهو لا شك قد رأى عشرات الالوف من أولياء الأمور ، يطالبونه بالمجانية ، أو يطلبون منه الاعفاء من بعض الرسوم المدرسية وثمن الزى المدرسى انى أسأله : من الممكن تقسيط المصروفات المدرسية على شهور السنة ، ولو بالنسبة للراغبين فى هذا التقسيط من أولياء الأمور ٠

واذا كان هذا صعبا ، فانى أسأل لجان الاتحاد القومى :

ـ هل من الممكن أن تنشأ فى كل لجنة من اللجان ، فى القرى والمدن ، لجنة فرعية مهمتها أن تيسر هذا التقسيط ، بأن تشكل جمعية تعاونية من أولياء الأمور الراغبين ، تتلقى أقساطهم الشهرية وتجمعها لتدفعها للمدارس فى أول العام الدراسى ٠

وقد يستطيع الاتحاد القومى بفضل تشكيله الشعبى أن يحقق ما لا تقدر عليه الحكومة ٠٠

هذا شىء ٠٠

والشىء الثانى أن كثيرا من أولياء الأمور يتساءلون :

ـ لماذا تغير الزى المدرسى هذا العام ، وهو مازال جديدا على أجسام الأطفال ٠٠٠ ألا تستطيع مؤسسة المكساء الشعبى ومصانع معونة الشتاء أن تبيع انتاجها للناس ، بدل من التلاميذ ؟

ويتساءلون :

هل أدت مجالس الآباء دورها ، حتى يصبح الاشتراك فيها واجبا ، كالرسوم المدرسية سواء بسواء ؟

وكلا السؤالين يحتاج الى ايضاح ٠٠

روز اليوسف ١٩٦١/٩/٢٥

كل ما يهمنا الآن هو ·· أنت

كنا فى هذه الايام ، نتلمس وجهك ·· صور الصحف ، وعلى شاشة التليفزيون ، حين تلتقى بشعبك ·

وكنا نتسمع صوتك ، وفى عمق نبراته الحزينة كانت جراحنا تبكى وفى ارتفاعه الزاخر كانت أعصابنا تلتهب ·· كنـــا نقتات الاعصاب ونشرب الدمع ·

وحين وقفت كقديس ·· لا كرئيس حكومة ، وتمنيت الخير لشعب سوريا ، دون ان تفقد ذرة من ايمـــانك بالوحدة العربية ، وبالقومية العربية ، كنا نشرب صوتك ، وقلوبنا مليئة بالفخار بك ·

كنت تبث فى قلوبنا الشجاعة ، وتهون من وقع الجرح ، وأنت اكثرنا جرحا ، لأنك تلقيت ـ يا أبا العرب ـ كل جراح ابنائك ··

ولكن الجرح ، أيها الرجل النبيل ، أخذ يلمع على صدرك ، حتى أصبح وساما ··

ونحن الآن فى غداة المأساة ، بعد أن تعلمنا منك الرجولة ، حين وقفت كرجل ، نقف لنتساءل :

ما المرارة فى القلب ·· ما الحزن فى العينين ·· ما الألم حين يتغلغل فى الروح ليهد الجسد ؟

كلها أشياء ستزول ، ليحل محلها التفــاؤل ، والعهد على الكفاح ، والاستعداد للمعركة القادمة ؟

ونتساءل :

ما الشكل الدستورى للوحدة ·· ما الاطار الذى ضم الدولتين؟ ليس ذلك كله الا خطوة من خطى التاريخ ، تعثرت فى مهدها ، لتولد من جديد ، برئتين قويتين ، وقلب من حديد ·

ولهذا ، فنحن أبناؤك العرب ، نقول لك فى هذه اللحظة القاسية من تاريخ أمتنا :

ـ ان كل ما يهمنا الآن ·· هو أنت !

اننا نخشى عليك من الحزن ، اننا نفزع حين نرى شعرة بيضاء جديدة على تاج رأسك ، اننا لانطيق أن نحرم ابتسامتك ، ان مصباحى عينيك البراقين هما نور مستقبلنا ، ان صوتك الحنون ، حين تغشاه نبرة البهجة هو أجراس أفراحنا ·· انك مستقبلنا ··

فابتسم ـ يا أبا العرب ـ لتشيع الفرحة والأمل والتفاؤل فى بنائك ·· ليستطيعوا أن يصنعوا المستقبل ، معك ·· تحت لوائك ··.

روز اليوسف ١٩٦١/١٠/٩

مـــن بـــيروت

غادرت دمشق الى بيروت قبل الحركة الرجعية بيوم واحد ··

وحين نزلت الى بيروت ، كان كل من يلقانى يسألنى :

ـ كيف أحوال دمشق ؟

وكنت أقول لهم : ان دمشق بخير ·· الاحوال هادئة ، والمتاجر مفتوحة ، والطرقات مليئة بالمواطنين ، ومقاهى طريق دمر عامرة بروادها ·

وكان بعضهم يبدى دهشته ، ويتأرجح بين الشك والتصديق · وبعضهم يضرب كفا بكف ، ويقول : اذن ·· كيف نشرت بعض صحف بيروت أن دمشق تلمؤها الدبابات والمصفحات ·

وكان هذا فعلا ما نشرته بعض الصحف اللبنانية ··

فقد اخذت بعض صحف بيروت ، وهى صـــحف الجبهـــة الاستعمارية وعملائها ، تنشر قبل الانقلاب باسبوع اخبارا مثيرة عن دمشق ·

كانت صحيفة كميل شمعون مثلا قد نشرت مانشيت على عرض

الصفحة الأولى ، ان الجيش الاول قد نزل الى طرقات دمشــق بدباباته ومصفحاته !

وفى اليوم الثانى ، نشرت صحيفة « الانوار » التى يتولى رئاسة تحريرها الصحفى العربى سعيد فريحة تكذيب هذا الخبر ، وأكدت أن دمشق هادئة ٠

وكانت دمشق ٠٠ هادئة فعلا ٠٠ كان شعب دمشق العربــى لايعنى بأصوات العملاء وأعوان الاستعمار ، ويدافع عن قضيته العربية ، بأن ينطلق فى طريق التعمير والحياة والاشتراكية ٠٠ فى هدوء ويقين وفهم ٠

وقد سمعت ، وأنا فى بيروت ، أن فرقة صغيرة من الجيش اللبنانى قامت فى هذه الأيام باستطلاع اخبار دمشق فاتجهت الى الحدود اللبنانية السورية عند قرية « المصنع » ، وأخذت تتلمس أخبار الاقليم السورى ، ثم عادت لتبلغ المســئولين فى الحكومة اللبنانية أن كل شىء هادىء ٠٠ فى الاقليم ٠

ولكنت حين أؤكد للذين التقيت بهم فى بيروت ، قبل الحركة الرجعية بيوم واحد ، أن الاقليم السورى هادىء ، أحكــم على ما رأيت فى دمشق ، وكم أكن أعلم ان الاستعمار يعد خطته المحكمة للقيام بهذه الحركة الرجعية الانفصالية ٠٠ بدأ الاعداد لهذه الحركة الرجعية الانفصالية بهذه الحملة المسعورة من صحف الاستعمار ، التى تروج لأنباء الاضطراباب فى الاقليم السورى ، قبل الحركة بأسبوع ٠

ولم تكن هناك اضطرابات ٠

وقبل الحركة بيوم ، كان الجيش الاردنى قد أعلن حــالة الطوارىء ، واحتشد على الحدود السورية الاردنية ، وحشدت الاذاعة الاردنية فى يوم الحركة كل امكانياتها ، وأعلنت أنها تضعهم

فى خدمة الحركة الرجعية ، واخذت تدعى المستمعين الى انتظار الحدث السعيد ·

زيارة الاسطول السادس لبيروت وتوقيتها !

وهذا هو المهم

فقد أعلن ان الاسطول السادس الأمريكى سيزور بيروت فى الثانى أو الثالث من اكتوبر ·

وهبت طوائف الشعب العربى فى لبنان تعلن غضبها واستنكارها لهذه الزيارة التى تحمل فى ثناياها طابع العدوان والاستفزاز للشعب العربى ، فى هذه الفترة من تاريخه ·

وامتلأت حوائط بيروت وطرابلس وصيدا بعبارات الاحتجاج على زيارة الاسطول ·

ونوقشت زيارة الاسطول الامريكى لبيروت فى مجلس النواب اللبنانى ·

ووقف أحد النواب ـ ولا داعى لذكر اسمه ـ ليقول انه قرر حمل لواء المعارضة لهذه الحملة الغوغائية ضد زيارة الاسطول السادس ، التى تعبر فى الواقع عن علاقة الصداقة بين لبنان وأمريكا ··

وفى تلك الأثناء ، منذ أسبوعين ، والمناقشة دائرة بين الوطنيين وعملاء الاستعمار ، حول زيارة الأسطول الأمريكى ·· زارت قطعتان بحريتان بريطانيتان ميناء بيروت ، وعقد قائد الاسطول البريطانى مؤتمرا صحفيا أعلن فيه أن هذه الزيارة زيارة ودية،وأن الأسطول البريطانى يقوم بجولة فى موانى البحر الأبيض ، وشرح للمستمعين قوة المدمرتين وقوة الأسطول البريطانى ، واشار الى أن هذا الأسطول سيظل يطوف بموانى شرق البحر الابيض مدة طويلة ··

لقد كانت مظاهرات الأسـطولين الأمريكى والبريطانى تطوف بموانى شرق البحر المتوسط ••

وبعدها بيومين ، اعلن الأسطول السادس الأمريكى انه لـن يزور بيروت ••

وكان ذلك بعد أن قرر الرئيس عبد الناصر أن الوحدة عقيدة وطنية ، لا معركة حربية ، وأصـــدر أوامره الى القوات العربيـة بالعودة ••

وهنا يجب أن نسأل :

لماذا تقررت زيارة الاسطول الأمريكى ؟

ولماذا عدل الأسطول السادس الامريكى عن زيارته رغم انه مازال يجول فى شواطىء البحر المتوسط ؟

هكذا تساءلت بيروت ، وعرفت بيروت السر ••

والواقع أن خطاب الرئيس عبد الناصر يوم الجمعة ، كان هو المصباح الكشاف الذى ألقى الضوء على حقيقة الحركة الرجعية والانفصالية •

فحين أعلنت اذاعة دمشق قيام الحركة فى صباح يوم الخميس دون تحديد أسماء ، كان الناس يتساءلون :

من وراء هذه الحركة ؟

وكان البيان الثـانى الذى أذاعوه خيطا ضـئيلا من النور يكشف أهداف الحركة ثم فضـــحت الحركة نفسها ، حين أعلنت أسماء الوزراء •• فل النـــاس هنـا ، يعرفون مـأمون الكزبرى وتاريخه فى خدمة الشيشكلى ، وانـــه كان رئيس مجلس نوابـــه المزيف ، ونائبه فى رئاسة الجمهورية •

ومعظم الناس هنا يعرفون أسماء وزراته ، ويعرفون تاريخهم فى الخيانة ٠

مثلا : هناك وزير أرمنى اسمه ليون زمــارية ، أو « نيفون زماريا » ٠

هذا الوزير هو ابن اخت ميخائيل لبان ، القومى السورى الذى اشترك فى مؤامرة اغتيال عدنان المالكى والهــارب الآن من الاقليم السورى ٠

وهو الى ذلك ، قد ورد اسمه فى مؤامرة حزب « الطاشناق » الارمنى ، التى أعلنت منذ شهرين ٠٠

ووزراء آخرون كل رصيدهم انهم من أبناء العائلات الاقطاعية الكبيرة فى الاقليم الشمالى ، العائلات التى كون خمسة من أفرادها شركة تستغل كل خيرات الاقليم ، وكان مأمون الكزبرى هو محاميها وزوج بنت أحد أصحابها وحين أعلنت اسماء الوزراء أخذ المواطن اللبنانى العادى يجمع المعلومات الى بعضها ، ويحــاول أن يتنبأ بطبيعة الحركة ٠

وحين أعلن الرئيس جمال عبد الوناصر فى خطابه الثانى أن الحركة رجعية انفصلية اتضحت الأمور ٠

وانقسمت لبنان ٠

اغلبية عظمى تكون من الشباب القومى والأحزاب الوطنيــة والشخصيات الوطنية ، وكل عربى قومى مخلص للعروبة ٠

كانت هذه الأغلبية هى التى قادت المظاهرات فى بيروت وصيدا وطرابلس وترددت فى هذه المظاهرات والهتافات لعبد الناصــــر والوحدة والعروبة ٠

وكانت اكبر المظاهرات هى التى خرجت من المسجد بعد صلاة الجمعة ، وطافت بشوارع بيروت تهتف للوحدة وعبد الناصر ٠

وتجمع الشباب القومى فى كل مكان فى مقهى فيصل امــــام الجامعة الأمريكية وفى مقاهـــــى راس بيروت ، كانت الاجتماعات والمناقشات تستمر الى ساعات الصباح الأولى ٠

لم تنم بيروت ليلتين كاملتين ، كانت ساهرة تستمع الى اذاعة القاهرة وصوت العرب وحلب ، حتى لقد قال لى صاحب محل راديو فى بيروت انه باع مائة جهاز ترانزيستور فى مدة اليومين وكانت هناك اقلية ضئيلة من الخونة اعداء القومية العربية ، وان كان يقف وراءها الاستعمار الأمريكى والانجليزى والفرنسى ٠٠ وكل استعمار فى العالم ٠ هذه الأقلية أقامت حفلات واعياد سالت فيها الخمر حين اعلن عن الحركة الانفصالية وقد اقفلت الحدود السورية اللبنانية ولم يسمح بفتحها فى الأيام الثلاثة الأولى الا ثلاث مرات ٠

● المرة الأولى حين قدم مندوب من حركة الانقلاب الرجعى لمقابلة صائب سلام رئيس الحكومة اللبنانية ليحصل على اعتراف لبنان بالحركة الرجعية ٠

واستقبله صائب سلام ، وانباء ان حكومة لبنان لا تفكر فى الاعتراف بالحركة الرجعية ٠

وقد اكد لى احد المحيطين بالرئيس اللبنانى ، انه سيستقيل اذا تعرض لضغط ما ، كى يعترف بالحركة الرجعية الانفصالية ٠

● والمرة الثانية حين دخل السفير البريطانى فى بيروت الى الاقليم السورى والتقى باعضاء حكومة الحركة ٠

والخيانة والغدر وحدهما يعلمان ماذا دار بين السفير وبين الذنابة من وزراء الحركة وضباطها ٠

● والمــرة الثالثـــة : انتقلت عربتان محملتان بالقوميين السوريين الى دمشق وفتح لهما رجال الحركة الحدود السـورية والقوميون السوريون ، هم أصحاب التاريخ الملوث ، قتلة رياض الصلح وعدنان المالكى ، أعوان الاستعمار منذ أن عرفت البـــلاد العربية ضغط الاستعمار الحديث ، على المـــانيا وايطاليا يوم كان المحور فى أوج سلطانه ، ثم عملاء فرنسا ، وانجلترا وأمريكا ، السيد الجديد ، اليوم ٠

لقد أصدروا بيانا فى بيروت قالوا فيه ان الوحدة العربية خرافة ، وانه يجب اعادة النظر فيها من الأساس وهللوا للحركة الرجعية الانفصالية وكان راديو دمشق على شىء من الحياء أو الحذر ، فلم يذع هذا البيان ولكنه نشر فى صحف كميل شمعون وغيرها من صحف العملاء فى بيروت ٠

ثم انتقلت الفلول الخـــائنة الى دمشـــق للتهنئة بالحركـة الانفصالية ٠

والواقع أن كثيرا من وزراء الحركة لهم ميول قومية سورية ، وكذلك التقت الخيانة بالخيانة ٠

والآن ، اكتب من بيروت ، وهى تعيش على أعصابها ، وتردد كلمات الرئيس عبد الناصر عن المستقبل انها تستعد لكفاح الوحدة الطويل ٠

روز اليوسف ٩ ـ ١٠ ـ ١٩٦١

كيف نلمس الاشتراكية باليد ؟

فرحة هذا الاسبوع هى اهتمام الدولة بمساعدة المواطن العادى على جمع أطراف حياته فى يديه ، وبث الاطمئنان الى مستقبله ومستقبل أولاده فى نفسه ٠٠ اقتراب صدور قانون الموظفين ٠٠ تخفيض نصف المصروفات المدرسية ٠٠ اجتماع وزيرين لبحث تخفيض أسعار السلع الشعبية ٠٠ الى جانب الخطوات الأخرى القادمة ، التى ستكون أكثر شمولا وايجابية ٠٠

وأهم من هذا كله أن نعرف التفكير الذى يوجه هذه الاهتمامات والاعمال ٠٠ ان قوام هذا التفكير هو ادراك أن الاشتراكية يجب أن تلمس باليد ، وتعاين بالعين المجردة ، ويفيض بعض خيرها العاجل على الجميع ، فالى جانب الأمل الوارف الظلال الذى تنعشه الاشتراكية فى نفوسنا ، فان المواطن العادى يتمنى لو يفتح باب بيته ذات صباح ، فيجد الاشتراكية على الاعتاب ٠ ٠

وقد يكون هذا التفكير تفكيرا متسرعا ، ولكنه رغم ذلك موجود ٠ وهناك خطوتان لابد منهما لكى نحول هذا التفكير المتسرع الى تفكير واع مدرك لظروف حياتنا ، ومصاعب تخطيط مستقبلنا ٠

والخطوة الأولى هى مهمة الاتحاد القومى ووسائل الاعلام

والثقافة ٠٠ أما الاتحاد القومى فعلى لجانه أن تجعل من أعضائها رسلا للتبشير بالاشتراكية ، مع ماتقتضيه مهمة الرسول الأمين من شرح العقبات ، وابراز الصعاب ، ورسم صورة المستقبل المجيدة ، وفى هذه اللجان يجب ان يتسع المجال للمناقشة والمقارنة ، حتى يحس الشعب كله بدوره فى بناء مستقبله ، وحين تصبح أيدى الشعب كله فى العمل يشعر كله تلقائيا بالحماس ، ويحلو الانتصار والترقب ٠٠

ومهمة وسائل الاعلام أن تعمد ، دون تزييف ومبالغة أو تزويق، الى شرح المشاكل التى يعانيها ريفنا ومدننا ، والى حصر امكانياتنا الحقيقية ، وعندئذ يصبح المواطنون جميعا فى مستوى معركـــة البناء ٠

أما الخطوة الثانية فهى مهمة الموظفين عموما ، هذا القطاع الضخم المسئول عن الخدمات العامة ، ابتداء من انارة الشوارع ـ وشوارع القاهرة بهذه المناسبة تعيش فى ظلام دامس معظم لياليها ـ الى محاربة دودة القطن وصرف السماد والتقاوى للفلاح ٠٠

هؤلاء الموظفون يجب أن يعلموا أنهم واجهة النظام الاشتراكى، ان تصرفا خاطئا من أحدهم ، أو اهمالا عارضا ، قد يسـىء الى مفهوم الاشتراكية فى التطبيق أكبر اساءة ٠٠

ان جمال عبد الناصر ـ رئيس الدولة وصـاحب النظرية الاشتراكية التعاونية ـ لايمكن أن يوجد فى كل مكان ، فلنكن نحن فى كل مكان ٠٠ جمال عبد الناصر ٠٠

روز اليوسف ١٦/١٠/١٩٦١

ملاحظــات عــابرة

قائمة مساهمى الشركات التى حددت الحكومة حق الفرد فيها بما لايزيد عن عشرة آلاف جنيه ، والتى نشرت فى الأهرام كانت وثيقة اقتصادية وسياسية تستدعى بعض التأمل ٠٠

وهذه بعض ملاحظات عابرة ٠

أولا : ثلث الاسماء تقريبا اسماء أجنبية ، تنتمى لجــاليات أرمنية أو يونانية أو فرنسية ٠

ثانيا : عدد كبير من الاسماء من طائفة المتمصرين ، وهــم طائفة غريبة ، هبطت أرض مصر ، بعد أن قطعت صلتها بوطنهــا الأصلى مستغلة معرفتها باللغة الفرنسية لتعمل فى المحاكم المختلطة والبورصة وأسواق المال ٠ بعضها مثلا ينتمى الى لبنان أو الشام ولكن علاقاتها بهذين البلدين مقطوعة ، وقد سعى أجدادهم للحصول على الحماية أو الجنسية الفرنسية ، وحصل بعضهم على ألقــاب تشريف فرنسية ، مثل لقب كونت وغيره ٠٠ كونت شديد ٠٠ كونت دى صعب ٠٠ الخ ٠

ثالثا : عدد أبناء البلاد ممن حصلوا على ثرواتهم بكفاحهــم

المنتج مثل كبار الاطباء أو المحامين لايكاد يتجاوز أصابع اليدين ، وثروات هؤلاء لاتزيد عن عشرة آلاف جنيه الا قليلا ·

رابعا :

أبشع تطبيق لارث الغنى وأرث الفقر الذى تحدث عنه الرئيس نجده فى هذه القائمة ، فأسماء القصر الذين يملكون الاسهم والسندات ، وآباؤهم مازالو أحياء كثيرة ··

هل المفروض فى هؤلاء القصر أن يقفوا فى البورصة · ويعرفوا هبوط الاسعار وصعودها ؟

وملاحظة أخيرة ··

سياسى مصرى سابق ، كان أصحابه يهللون لنزاهته ويقولون انها الميزة التى تغطى قصوره السياسي وضعف عقليته وقسوته على المواطنين ·

هذا السياسى النزيه تبين من القائمة ان زوجته وولديه يملكون ١٥٠ ألف جنيه من الأسهم والسندات وهذا فى الشركات التى حددت الحكومة نصيب الفرد من رأسمالها ·· فقط ·

·· ·· ·· ··

ايتها الاشتراكية ··· مرحبا بك

روز اليوسف ٢٣/١٠/١٩٦١

والمثقفون أيضـــا

بعيدا عن المعانى السياسية الحافلة فى بيان الرئيس ، لـــم يسعدنى شىء قدر ذكره للمثقفين ، واهتمامه بدورهـــم فى الحياة الجديدة للوطن ٠

والمثقفون ليسوا طبقة ٠ فنحن لا نستطيع أن نقول « طبقـــة المثقفين » كما نقول طبقة العمال أو الطبقة الوســـطى أو الطبقـــة الرأسمالية ، ولكن المثقفين طليعة ، أو قطاع طبقى ، وكما أن هناك مثقفا هو طليعة الاقطاع ، فهناك أيضا مثقفون هم طليعة الاشتراكية ٠

ومن الواضح أن المثقفين الذين مد لهم الرئيس يده ، هـــم المثقفون الاشتراكيون طليعة العمال والفلاحين والموظفين ٠

انهم نحن ، الذين دخلنا المدارس بمحض الصدفة ، وكان من الممكن ان نكون فلاحين أجراء فى الريف ، أو عمالا فى المصانع ، لأن أعمامنا وأجدادنا ، بل وآباءنا فى معظم الاحيـــان ، مازالوا يشقون بفئوسهم صفحة الارض الطيبة٠ان جذورنا ممتدة فى الريف المصرى الى أعمق الاعماق ، ولن نستطيع ، ولو أردنا ، أن ننسلخ عن الفلاح والعامل ، ومن واجبنا اذا كنا نتمتع بشىء من عرفان الجميل ، ان نرد الجميل لهذا البلد الكريم ، الذى أعطانا الفرصة ،

لكى نقرأ ونكتب ، ونتجادل فى الأدب والفن ونتلاقى فى الندوات والمقاهى ، ونخرج الكتب ، وتصبح لنا أسماء تطبع بالبنط الكبير والصغير ٠

ان هذا البلد الكريم قد أعطانا فأجزل العطاء ، أعطانا الكثير على قلة ما يملك ، ومن حقه أن يطالبنا بالوفاء ٠

ولن نستطيع ان نفى بهذا الدين الا اذا أدركنا ان طابع ثقافتنا يجب أن يحدد بكلمتين رئيسيتين ، وهما ٠

● العروبة أولا ، بمعنى أن ندرك أننا نكتب لأمة العرب ، بلغتها ، واننا نعبر عن تقاليدها وأفكارها وآمالها ، وعندئذ فمن الواجب ان نعرف تراثنا حق المعرفة ، ونربط حلقاته بعضها بعضا فى عقولنا ووجداننا ، ونتمثل صورته فى خيالنا ٠

ان المثقف العربى يجب ان يدرك انه سليل ابن خلدون والجاحظ وأبى العلاء والمتنبى وغيرهم ٠ وان عليه أن تكون جذور قدمية عميقة فى أرض بلاده ٠

● والمعاصرة ثانيا : بمعنى أن نكون معاصرين للعالم الحديث ، فى القرن العشرين ، فنفتح عيوننا على مايدور حولنا ، ونستفيد من آداب الامم التى تعايشنا وثقافتها ، ولكن هذه الاستفادة لن تزلزل أقدامنا عن أرضنا ٠

ان الحياة وقفت بنا منذ عشرة قرون من الزمان ، فى شتى المجالات ، سواء فى الأدب أو العلم أو الفن ٠٠ وتقدم العالم الا نحن ، وعلينا أن ندرك فى سنوات قليلة كل مافاتنا ، ونهضمه ونتمثله ونسبغ عليه طابعنا العربى ٠

وليس معنى الأدب الاشتراكى ان تصبح أشعارنا هتافات وقصصنا صرخات وأغانينا شعارات ، فالحياة الاشتراكية هى الحياة

الانسانية العميقة فى شتى مجالاتها · والمجتمع الاشتراكى يرحب بالتأمل ، ويرحب بالحب ، ويبارك كل ماهو جميل ·

ان المجتمع الاشتراكى يتيح لكل مثقف ان يتفتــــح عن أروع امكانياته ، يتيح للشاعر ان يقبس كلماته من نار قلبه ، وللقصاص ان يمد أبعاد رؤيته الى أعمق أعماق النفس والمجتمع ، وللمسرحى ان يخلق أبطالا كأنهم آدميون ، وحين يصبح الأدب غنيا بالانفعالات والاحساس ، بالبكارة والتجديد ، وبالجرأة والمخاطرة ، ينعكس هذا كله على نفس الجمهور القارىء ·· يصبح القـــارىء أكثر جدية وعمقا وتأملا ·· أكثر ارتباطا بحياته وفهما لها ·· أكثر معرفـــة بقلبه ونفسه ، بحبه وكزاهيته ، بدورة الزمن من حوله ، بل تنبت للقارىء فى مكان عينيه الغافيتين بؤرتان مشعتان بالفهم ، وحينئذ يصبح انسانا اشتراكيا ·

ومن العبث أن يصيبنا الغرور ونقول :

ـ ان لدينا ثقافة تستطيع ان تقف الى جوار ثقافات الأمـم الأخرى ، فنحن ـ فى الواقع ـ عالة على الترجمة فى المسرح والقصة والبحوث التاريخية والفنية وغيرها ·

ان عندنا فى الواقع نوايا ثقافية طيبة ، ولكن ينقصها التخطيط والتوجيه وتيسير السبل أمام الاجيال القادمة ·

ومن واجب جمعية الادباء ـ فى هذا العهد الاشتراكى ـ ان تتحول الى أداة فعالة ، لنشر الثقافة الاشتراكية وتوجيهها ، ولاتاحة الفرص أمام الاجيال الجديدة من المثقفين ، وللوقوف فى صـــف حركات التجديد وتقويم خطاها ، على ان تكون الجمعية جزءا من تشكيل القاعدة الشعبية الكبير ·

وانى لاقترح أن تقسم جمعية الادباء الى شعب ·· شـــعبة للقصاصين ، وشعبة للشعراء ، وشعبة للمترجمين ، وشعبة لكتاب

المسرح ، وشعبة للنقاد وغيرهم · وأن يكون لكل شـــعبة من هذه الشعب تخطيط اشتراكى واسع المدى · تمارس من خلاله دفـــع حركات التجديد ، والاشراف على النشر لمن لا يملكون أداة النشر ، ومناقشة المشـــاكل اللغوية والتعبيرية والفنية التى تواجهنـــا ، والاتصال بمثقفى العالم ، وخاصة بمثقفى الشعوب الجديدة ، ونقل الجيد من ثقافتنا أو ترشيحه للنقل ، ليتولى مجلس الفنون والآداب هذه المهمة ·

وأهم من ذلك كله ، يصبح لهم من خلال لقاءاتهم طابع ثقافى متميز ، من الممكن أن يطلق عليه « الثقافة العربية »

عندئذ ، يصبح هذا القطاع من المثقفين وهو الادباء ، أهلا لتحمل مسئولية العمل الثورى ، فى ميدانهم الذى اختاروه ·

روز اليوسف ٢٣/١٠/١٩٦١

مصير الاشتراكية فى يدهم

هذه الأيام امتحان ·

والشعب هو الممتحن ، والاشتراكية هى المتقدم للامتحان وأوراق الامتحان هى هذه الشركات المؤممة ، التى تشتغل بالنسيج والحلاجة والزيوت وانتاج السلع الشعبية الأخرى ·

فاذا أحس الشعب بأن الأسعار قد انخفضت نسبيا ، أو أن الانتاج قد تحسن ، أو أن المعروضات أصبحت تكفيه ، فقد كسبت الاشتراكية معركة التاريخ ·

واذا لم يحس الشعب بذلك كله ، فان الاشتراكية قد خسرت المعركة ، وعليها أن تستعيد مواقعها ، لتكسب المعركة القادمة ·

ولذلك فان المسئولية الكبرى فى هذه الأيام تقع على عاتق الادارة الجديدة للشركات المؤممة · ان مصير الاشتراكية فى ميدان الانتاج فى يد هذه الادارة ، كما أن مصير الاشتراكية فى ميدان الخدمات ، فى يد الموظفين ·

مصير الاشتراكية فى ميدان الانتاج فى يد هذه العناصر المختارة ، التى لابد أن تكون طليعة للشعب فى فهم الاشتراكية

وتطبيقها ، فان أخطاءهم لن تحتسب أخطاء فردية تنسب اليهم كأشخاص ، ولكنها ستحسب أخطاء للمبدأ الذى يطبقونه ·

وهناك جانب آخر من مسئوليتهم ··

وهو مسئوليتهم نحو العمال فى الشركات والمؤسسات التى يديرونها ··

ان المدير الذى يفكر بطريقة رأسمالية فى هذا العهد الاشتراكى يرتكب جريمة · ان مفتاح تفكير كل ادارى مسئول يجب أن يكون هو كلمة الرئيس الحاسمة « كلنا عمال من أصغر عامل فى مصنع الى رئيس الجمهورية » · وعندما يعى هذه الحقيقة يدرك أن وضعه على رأس الادارة ، ليس معناه أنه مدير موهوب ، ولكن معناه أنه عامل طليعى ، أكثر كفاءة فى شئون الادارة من غيره من العمال ، وان كان أقل منهم خبرة يدوية ·

والمسألة أن كل انسان يوضع فى المكان الذى يناسبه ··

ان الأيام أيام امتحان ، ومعركة الانتاج وتدعيمه واستقراره وتوزيعه هى معركة الاشتراكية الكبرى ·· أننا نناشد هذه الادارة الجديدة أن تكون أهلا لمسئولياتها ، وموقفها التاريخى ·

اننا حريصون على اشتراكيتنا ·· انها قمة انتصاراتنا ··· انها الثمن المجزى الوحيد لدماء أجدادنا وشهدائنا ·· ولا نريد لها أن يسقط أحد اعلامها المرفرفة ، مهما كان الثمن ·

وأنتم ــ أيها المديرون فى العهد الاشتراكى ، حملة الأعلام ··· اليوم !·

روز اليوسف ١٩٦١/١٠/٣٠

٣٦ عاما من الصراع ضد الرجعية

من هو الرجعى ·

الرجعى هو الانسان الذى يقف ضد ارادة التاريخ ، ويحاول ان يعوق عجلة التطور ·

فاذا كان التاريخ يتجه نحو الرأسمالية ، فالاقطاعى هو الرجعى ، واذا كان التاريخ يتجه نحو الاشتراكية فان الرجعى فى هذه الحالة هو الرجل الرأسمالى ··

والرجعية طبقة ، ولكنها ايضا تفكير ·

فالعمال الانجليز ، الذين هجموا على المصانع ، وحاولوا تحطيم الآلات فى النصف الأخير من القرن الماضى ، لأن الآلات تهددهم بزوال الصناعات اليدوية هم رجعيون ·

انهم لم يدركوا أن المجتمع يتحول من الاقطاع الى الرأسمالية، ومن مجتمع الحرف اليدوية الى مجتمع المدنية الكبير ·

هذا ، رغم انهم عمال ، والعمال هم عادة أكثر قطاعات الشعب ثورية وتطورا ·

ولكنهم فى الواقع ،لم يكونوا رجعيين اصلاء ، ولكن الرجعية اثرت عليهم ، فجعلتهم يخوضون معركة خاسرة ‥ معركة ضـــد التاريخ ٠

لقد اثرت عليهم رجعية أصحاب الاقطاعات ، ورجـــال الدين الذين يلوذون بضعف أصحاب الاقطاعات ، والمفكرين والادباء الذين يؤيدونهم ، فيبشرون فى نقاباتهم ، بالسماء الصافية التى لا يلوثها غبار المداخن ، وبالريف الهادىء الذى لاتعكر هدوء صفارات المصانع وبالطرق الساذجة البسيطة فى الحياة والتفكير ٠

واثرت عليهم ايضا رجعية السياســـيين المحافظين ، الذين يخشون من قيام المصانع ، وتجمعات العمال ، ودخول الشعب كقوة آساسية فى الصراع السياسى ٠

ان الرجعية اذن موقف تاريخى ، وطبقة متغيرة الطابع من جيل الى جيل ٠

فاذا انهزمت الرجعية فى الاقطاع ، وتفتتت ملكية الأرض ، بحثت الرجعية عن وجه آخر ، وهو الرأسمالية سواء اكانت تجارية أم صناعية ، ولكن لها دائما ــ مهما تغير وجهها ــ مفكرون وصحافة ودعاة ٠

وروز اليوسف كانت فى تاريخها الطويل ، تقف دائما ضـــد الرجعية ٠

وقفت ضد رجعية الاقطاع ‥

ووقفت ضد رجعية راس المال ٠

وتاريخ مصر فى القـــرن الذى نعيش فيـــه يمكن حكايته بطريقتين ٠

الطريقة الأولى ان نتحدث عن المعاهدات والاتفاقيات والاحزاب والجماعات ، والشخصيات السياسية والخديوية والسلاطين والملوك ٠

ويمكن حكايته بطريقة أخرى ، هى الحديث عن صورة المجتمع، حتى تقودنا هذه الصورة الى ادراك حقيقة هامة ٠

وهى أن هذا المجتمع الاشتراكى الذى نبنيه الآن ، وهذه الثورة الاشتراكية الأخيرة ، كانا خطوة لابد منها ٠٠ كانا قدرا ٠٠ كانا مصيرا ٠٠

وليس هناك صورة لهذا التطور المحتوم اكثر وضوحا وجلاء من اعداد روز اليوسف فى ستة وثلاثين عاما ٠

« مع الوفـد »

لقد وقفت روز اليوسف مع الوفد أحد عشر عاما منذ عام ١٩٢٥ الى عام ١٩٣٦ ، بشجاعة واستبسال ، رغم ماتعرضت له من مصادرة واغلاق ٠

لماذا وقفت روز اليوسف مع الوفد هذه السنوات الطويلة ؟

لأن الوفد كان يمثل التقدمية ، وكانت أحزاب الاقليات والقصر والانجليز ، يمثلون الرجعية ٠

كان الوفد حزبا تقدميا ، حسب مقاييس تلك الفترة ، ولنعد الى التاريخ ٠

ان المتتبع للتاريخ السياسى للفترة من أول القرن العشرين حتى عام ١٩٣٦ ، وهو عام توقيع المعاهدة المصرية الانجليزية وبدء انهيار الوفد يستطيع أن يلحظ تيارين رئيسيين ٠

أولهما : الحزب الوطنى بزعامة مصـــطفى كامل ، ثم الوفد بزعامة سعد زغلول ، ثم السنوات الاولى من رياســـة النحــاس للحزب ٠

وثانيهما : حزب الأمة بزعامة محمود باشا سليمان ، ثم حزب الاحرار الدستوريين بزعامة عدلى يكن ثم محمد محمود ٠

وهذه هى الاسماء ، ولكن وراءها تيارات ومواقف بل وطبقات اجتماعية وعلينا أن لانفتش فى الاحزاب عن قادتها فقط ، بل عن جماهيرها ، ثم اتجاهاتها فى الاصلاح والتشريع ، لكى نعرف من تمثل هذه الاحزاب ٠

كان مصطفى كامل قاهريا مثقفا ثقافة غربية ، معتزا بولائه للخلافة الاسلامية ٠

وكانت ثقافته الغربية تربطه بالمعانى الانســانية الكبرى ٠٠ الحرية الاخاء ٠٠ المساواة ٠ التى ابتكرتها الثورة الفرنسية ، ثــم مالبثت أن هجرت هذه المعنى أرض فرنسا لتعيش فى أرجاء العالم المتحضر كله ٠٠ الا فرنسا ٠

وكانت عواطفه الاسلامية تربطه بالنـــاس ٠٠ بالجماهيــر المصرية الباحثة عن أمل ، التى لم تعـــرف لها حتى الآن وجودا مستقلا عن الوجود الدينى ٠

وحقيقة ، كان على رأس الحزب الوطنى مصطفى كامل ابـن البيوتات ، ومحمد فريد ابن ناظر الجامعة ، وغيرها من الاعيان ، ولكن جماهير الحزب كانت من الشعب ٠ كانت جماهير الحزب هى المثقفون الشرفاء وطلاب المدارس العليا والموظفون ٠

وكان الفلاح عندئذ بعيدا عن الحركة ولم تكن هناك طبقـــة عمالية بعد ٠

وفى الجانب الآخر كان حزب الأمة ، حزب الاقطاعيين ، الذى يضم كبار ملاك الاراضى الزراعيـــة ، وكان على رأســـه محمود سليمان أحد كبار أقطاعيى الصعيد ٠

كان الصراع اذن بين حزب الطبقة الوسطى ، وهو الحــزب الوطنى ٠

وبين حزب الاقطاع وهو حزب الأمة ٠

وحين قامت الثورة المصرية الاولى عام ١٩١٩ ، تصـــدى لقيادتها الحزبان فى جبهة وطنية ٠

وكانت هذه الجبهة هى الجبهة الوطنية الاولى فى تاريـــخ مصر السياسى ، لقد ضمت سعد زغلول ممثل الطبقة الوسطى الى جانب حمد الباسل ومحمد محمود ممثل الاقطــــاع ، الى جـــانب اسماعيل صدقى ، الممثل البكر للرأسمالية المصرية ، التى لم تكن قد تكونت بعد ٠

وانتهت الجبهة الوطنية وانقسمت أحزابهــــا ، والثورة فى عنفوانها ٠

وانشق عنها ممثلو الاقطاع ليكونوا حزب الاحرار الدستوريين الذين كانوا يطلقون على انفسهم تارة لقب « أصحاب المصــــالح الحقيقية فى البلاد » وتارة لقب « العناصر الرشيدة » ٠

وظل الوفد يحمل امانة تمثيل الطبقة الوسطى ، من الموظفين وصغار التجار والملاك ، الذين نشأوا من بيئات الفلاحين والعمال ، واستطاعت الطبقة الوسطى ان تقود وراءها هذه الجذور الريفية التى انبتتها وأصبح الوفد حزبا شعبيا قويا ولم يجد الاقطاع امامه الا أن يتهادن مع القصر ويتماشى مع الانجليز ، ويحاول التاثير على رجال الدين ، لطعن حزب الشعب ٠

وفى عام ١٩٢٧ هاجمت روز اليوسف بعض شيوخ الازهر ، لأنهم حاولوا اثارة الاضطرابات فى وجه الحكومة الدستورية ، وأشارت الى أن وراءهم فى هذه المحاولة شخصا ما ، وكانت تشير الى الملك .

قالت روز اليوسف :

« يشاع ان الازهر يعمل فى سبيل احد الاحزاب ، وارجو الا تضحك من هذه الاشاعة ، لأن هذا الحزب عاجز عن تحريك نفسه ، فكيف يقوم بتحريك سواه ، هل هذه الجبهة الخاصة هى المندوب السامى . كلا ! لأن المندوب السامى لو كان يريد استغلال الموقف لاستغله يوم ذهب اليه بعض علماء الازهر يستعدونه على الحكومة وعلى الدستور ، واخيرا هذه الجهة الخاصة ليست انا ولا انت ، بل هى الطرف الثانى .. والطرف الاول هو الامة وقادتها من الزعماء ..

وكان موقف روز اليوسف التقدمى واضحا فى ميدان الاقتصاد وضوحه فى ميدان السياسة .

وكان من الواجب أن تنشأ الصناعات الوطنية وأن يفلت رأس المال الوطنى من السيطرة الاجنبية بانشاء مصارف يساهم فيها الشعب .

وكانت تلك هى دعوة طلعت حرب مؤسس بنك مصر .

وليس صدفة - بأى حال من الأحوال - أن يفكر المصريون فى انشاء مصرف وطنى ، فى نفس الوقت الذى قامت فيه ثورة الطبقة المتوسطة الوطنية فى عام ١٩١٩ .

وقد كانت روز اليوسف من أكثر الصحف حماسا لطلعت حرب ودفاعا عنه ، حتى سمته مرة « أعظم رجل فى البلاد » .

ولاشك ان الاقطاع كان الممثل فى ملكيات الارض الزراعية ، لم يكن يريد أن ينجو الاقتصاد المصرى ، ويصل الى مرحلة الاسهام فى الصناعة ، وكان على رأس هذا الاقطاع ـ فضلا عن أعيـــان الاحرار الدستوريين ، أمراء الاسرة المالكة ونبلاؤها ٠

وكتبت روز اليوسف فى فبراير عام ١٩٢٧ ٠

« وأصحاب السمو أو معظمهم على الأقل ، ولله الحمد ، من أصحاب الثروات الضخمة والبلد فى حاجة الى كثير من المنشآت الاقتصادية والصناعية ، ومصر التى طالما نادى أصحاب الســمو بأنها « وطنهم العزيز » وأنهم من أبنائها البررة المخلصين قد بــح صوتها ، وهى تنادى اغنياءها ، وتهيب بوطنيتهم أن ينقذوها من تحكم الاجنبى فى مصالحها الاقتصادية ، وأن يبذلوا بعض ما أنعم الله به عليهم فى تشييد استقلالها المالى والصناعى »

ضد رأس المال الأجنبى

وهاجمت روز اليوسف حكومة اسماعيل صدقى ٠٠

كانت حكومة اسماعيل صدقى تمثل تغلغل رأس المال الأجنبى فى البلاد ٠٠ ومن ورائه رأس المال الذى لايشترك الشعب فى تنميته والمساهمين فيه ٠٠ كما كان يصنع طلعت حرب ٠

فاسماعيل صدقى هو الذى أعطى امتياز تعلية خزان أسوان وغيره من المشروعات لثلاث شركات انجليزية ٠

وهو الذى أعطى شركة السكر الأجنبية امتياز زراعة القصب واستخلاص السكر ٠

وهو الذى أعطى أمين يحيى شقيق وزير خارجيته عبد الفتاح يحيى ، امتياز انشاء شراكة ملاحة بحرية ، رغم أن مصلحة السكك

الحديدية المصرية كانت قد تقدمت بنفس المشروع · ولم يساهم فى هذا المشروع مصرى واحد ، الا الرأسمالى أمين يحيى ··

وفكر فى افتتاح استديو سينمائى لحساب شركة بارامونت لينافس « استديو مصر » الوليد وهو الذى فكر فى مد امتياز شركة قناة السويس · وعندئذ هاجمته روز اليوسف هجوما حادا ، نجد تفاصيله فى عدد ١٣ فبراير عام ١٩٣٣ ·

قالت روز اليوسف :

« استفاضت الاشاعات منذ بضعة شهور ، ورددتها هذه المجلة على سبيل التأكيد ، بأنه قد وقعت محادثات بين دولة صدقى باشا ومدير شركة قناة السويس ، كان محاولة الاتفاق على مد امتياز شركة قناة السويس » ·

ثم نشرت روز اليوسف نص الاتفاق وعلقت عليـــه قائلة :

« ويقول العارفون بالشئون المالية ان مصر تخســـر فى هذا المشروع لو نفذ ٢٠٠ مليون جنيه على أقل تقدير ·

ومن حقك ، ومن حقى ان ندهش ونتساءل أيضا عن سر العجلة فى السعى الى تجديد عقد امتياز الشركة مع ان باق على نهايته ٣٥ عاما » ·

سقوط الوفد

وظل الصراع دائرا بين الوفد الذى كان يمثل الشعب وطليعته من الطبقة الوسطى وبين أحزاب الاقليات التى كانت تمثل الاقطاع والرجعية وتدخل رأس المال الأجنبى ومحاولته القضاء على رؤوس الاموال الوطنية ·

وفجأة سقط الوفد ··

سقط الوفد حين ابتدأ يساوم على قضية البلاد ، ويهادن لكى يعود الى الحكم وكانت بوادر تلك المهادنة هى مهادنة الوفد لوزارة توفيق نسيم التى خلفت وزارة صدقى ، وكان من المعروف أن توفيق نسيم هو رجل الملك المطيع ··

وهاجمت روز اليوسف توفيق نسيم ·· كانت روز اليوسف تفهم شيئا واحدا ·· وطنية أو لا وطنية ، ولكن النحاس ومن التفوا حوله فى تلك الفترة ممن اسمتهم روز اليوسف « بطانة من ذئاب وكلاب » زينوا له أن يهادن لكى تجرى انتخابات ويعود الى الحكم ·

وهادن النحاس الانجليز والسراى ولكن روز اليوسف لم تهادنهم ·

وشن الوفد على روز اليوسف حملة لانظير لها فى تاريخ السياسة المصرية ، لقد صادر اعدادها ، وأغلق الجريدة اليومية التى كبدت صاحبتها خسائر بلغت فى مجموعها ٢٥ ألف جنيه ، ومنع عنها الاعلانات الحكومية ، ولفق القضايا لمحرريها ·

وكان لكل ما قالته روز اليوسف بأن زعامة الأمة أصبحت فى مستوى أضعف من قضيتها ، لأن هذه الزعامة لم تعد تشغلها الآن سوى أمور الدنيا وفتنتها ·

وكان تتويج هذه المهادنة هو تكوين الجبهة الوطنية التى تولت عقد معاهدة عام ١٩٣٦ ·

لقد دخل فيها الوفد ، ورأسه النحاس ، ولكن كان معه فى هذه الجهة ممثلون للاحرار الدستوريين وحزب الشعب المزيف الذى أنشأه صدقى باشا وحزب الاتحاد المزيف الذى كونه الملك فؤاد ·

لقد كانت جبهة تضم الشعب الاقطاعى أو على الاصح ممثلو الشعب وممثلو الاقطاع · وكانت نتيجة هذا الحلف المشئوم هو معاهدة ١٩٣٦ التى كانت أكثر شؤما ·

ومما يشرف روز اليوسف انها كانت الصحفية المصرية الوحيدة التى هاجمت معاهدة سنة ١٩٣٦ فى مقالات اضافية ، ودعتها خطوة الى الموت الزؤام » لا الى الاستقلال التام » ٠

لقد أصبح الوفد حزبا رأسماليا ٠٠ أو على الأقل أصبحت قيادته خليطا من العناصر الاقطاعية والرأسمالية ٠٠ لقد فقد الوفد مبرر وجوده ، وسبب تكوينه ٠

لقد كان المنتظر من الوفديين عامى ١٩١٩ ، وعام ١٩٣٦ ، أن يتحولوا الى شعبى يتولى قيادة العمـــال والفلاحين والمثقفين ، ويتقدم الى الناس بأفكار جديدة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ٠

ولكن الوفد حين اصطدم بالملك ٠٠ وأقصى عن الحكم مرتين آثـــر أن يصـــبح حاكمــا على أن يصبح حـــزبا ثوريا ، وآثرت روز اليوسف أن تصبح ثورية ، وفتشت روز اليوسف للشعب عن أمل جديد ٠

كان النجم السياسى الصاعد عندئذ هو على ماهر ٠٠ رجل غير مجرح ، لم تفسده الحزبية ، ويعلن دائما أنه يفكر فى برامج الاصلاح ٠

وليس هناك وثيقة تدل على تفكير روز اليوسف فى ذلك الوقت مثل هذا الخطاب الذى وجهته فى عام ١٩٣٩ على صفحات مجلتها الى على ماهر ، تدعوه لانشاء حزب سياسى جديد ٠

قالت له روز اليوسف : « تخل عن الاحزاب ، واتجـــه الى الطبقات الصغيرة من الشعب وبين العمال والفلاحين لكى تدعوهم الى التكتل ضد شرور الحزبية ، وضد الانجليز ٠ »

بل لقد دعت روز اليوسف الى تكوين حزب جديد ، هى نفسها ،

وكتبت الى بعض أصدقائها ٠٠ ومن بينهم الاستاذ فكرى أباظة ٠ ورد عليها فكرى أباظة قائلا :

« ان أولئك عاشـوا وترعـرعوا وكبروا فى أحضـان الاحتلال ، وفى حضن معاهدة ١٩٣٦ ، لا يرجى منهم الخير الكثير ولا القليل ، لابد أن نعتمد على جيل جديد ، وأين هو ؟ أتجدينه فى المدارس ؟ أتجدينه فى الوظـائف ! أتجدينه فى البيوتات الكبيرة والأسر ذات الحسب والنسب ؟ لقد طغى التضخم الخلقى على كل هؤلاء فأنت وأنا فى حاجة الى نفر قليل فى عـدده ، كبير فى استعداده وروحه ، فيكون الخميرة ، فابحثى معى عن هذا النفر ، وعن هذه الخميرة : »

وفجأة أعلنت الحرب ٠٠

وما كادت الحـرب تتوقف ، وأحكام الرقابة ترفع ، حتى احتلت روز اليوسف مكانها فى التمهيد للتغيير الجديد ٠

وكانت هزيمة فلسطين ، وفضيحة الأسلحة الفاسـدة هى شهادة الوفاة لأحزاب الرجعية والأقطاع ورأس المال ٠

انهم جميعا لا يصلحون لهذا الزمن ٠٠ لقـد تجمعوا جبهة رجعية كبيرة فى وجه التيار الشعبى الصاعد ٠

لقد تبلورت المعركة صراعا بين كتلتين ٠

● الشعب دون قيادات ، الفلاحون الذين يقتلون فى حقول الاقطاعيين ٠٠ والعمـال الذين يسـامون الخسف فى مصـانع الرأسماليين ، والطبقات الفقيرة التى تطحنها الأزمة طحنا ٠

● والأحزاب كلها كانت فى جانب آخر ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ٠٠ وكلها تهادن وترضى وتتملق ٠٠ حتى الوفد يحمى الملك بقوة القانون الجائر ٠

وكتب احسان عبد القدوس فى ٣ يوليو سنة ١٩٥١ ، قبل الثورة بعام واحد تحت عنوان اين المفر من الظلم ؟ « ليس هناك الا ان يتجمع الفقراء فى وجه الأسياد ، وماداموا قد فهموا ، فلن يتجمعوا فى عصابات اجرامية للسطو ، بل يتجمعون فى شكل عصابات ثورية واعية ٠٠ لها هدف ونظام ٠٠ وهذا ما حدث فى كل دولة ، وهكذا بدأت كل ثورة ٠٠ وبدأ كل انقلاب ٠٠ انى احذر من الثورة ٠٠ احذر منها الأسياد حتى يحسبوا حسابها ، وحتى يتجنبوها بافساح مكان فى الدولة للفقراء ، والفقراء هم الأمة ، وهم الذين أقيمت الدولة لصيانة حقوقهم ، وهم الذين وضعت القوانين لحمايتهم ، وهم الذين فرضت الضرائب لاسعادهم ، وهم الذين يعيش بهم اسياد ، ويموت بهم الأسياد ٠٠ انى احذر ٠٠ فمصر لم تنام طويلا ٠ »

ولم تنم مصر الا عاما ثم قامت الثورة ٠٠ الثورة الاشتراكية التى نقلت المجتمع الى أروع صورة ٠

روز اليوسف ١٩٦١/١١/٦

أكتب .. لأخيفكم .. !

جواهر لال نهرو ، احد حكماء العالم ، اعلن هذا الأسبوع انه يائس من أخلاق الانسان التى ضاقت ، وعقله الذى اتسع وأنه يتوقع الدمار فى كل لحظة .

وبر تراند راسل ، حكيم آخر من الغرب ، جلس على الرصيف، بوقار سنى حياته الثمانين ، احتجاجا على التجارب الذرية ، وحملوه من الرصيف الى السجن ، ثم خرج من السجن الى الرصيف مرة ثانية انه يجلس على رصيف الحياة ، لأن طريق الحياة لم يعد يعجبه .

وقنبلة الميجاتون ، التى انفجرت فى السماء ، ومست ألسنة لهيبها الأرض ، لم يستطع العلماء التحكم فى مداها ، أرادوا أن تكون قوتها ٥٠ مليون وحدة دمار وموت ، فكانت ٧٥ مليون وحدة، أو مائة مليون وحدة ... حتى العلماء أنفسهم احتاروا ...

ومثل لعبة التنس ، تنتقل الكرة من الشرق الى الغرب ، ويعلن بطل الغرب أنه سيفجر قنبلة اسمها النيوترون .. قنبلة أخذت من الموت سر أسراره ، كأنها ملاك الموت الذى تتحدث عنه الأساطير ، حين يدخل من نوافذ البيوت ، وأبواب القصور ،

وقضبان الشرفات فلا يلقى بالا الا الى شىء واحد ·· هو روح الانسان ، وسرعان ما يمد عصاه ، ويقول للروح : اخرجـــى ··· فتخرج !

انها قنبلة ··· عزرائيل ·

نعم ·· لقد وصلت « البروفة » الأمريكية ، التى اجريت فى هيروشيما منذ سبعة عشر عاما الى مستوى رائع من النضـــوج والاتقان · ان جزار اليوم يتفوق على جزار هيروشيما الف الف مرة، وفى هيروشيما منذ سبعة عشر عاما ، مات فى دقائق ، مائتا الف · وشوه ٩٠ الفا ·

ان التتار يصارعون التتار ، قبائل همجية تتلاقى كما كان يحدث فى فجر التاريخ ، قبائل تعرف « العلم » ولكنها لا تعرف « المدنية »

واخيرا :

« انى خائف ··· اكتب لأخيفكم ··· كل العلماء الذين اعرفهم خائفون ·· هذه الأرض ·· سفينة الدمار ، الى اين تسير ·

وهذه ليست كلماتى ، ولكنها كلمات البروفيسور هامولد أورى مكتشف الماء الثقيل ، واحد الذين ساهموا فى صنع القنبلة الذرية الأولى ·· لقد قالها فى عام ١٩٤٥ ، حين القيت القنبلة الأولى ، ومات بعد خمس سنوات ··· من الخوف ·

روز اليوسف ١٩٦١/١١/٦

الكلمـة .. والقـانون

رئيس وزراء ايران ـ على أمينى ـ طالب الاغنياء بالتضحية من أجل الفقراء ، وزعم أن هذه التضحية هى الاشتراكية !

وهذه المطالبة ، التى تناشد الضمير وتخاطب الوجدان ، هذه الدعوة الى الصدقة ليست اشتراكية ، ولا تمت الى الاشتراكية بصلة .. انها أكبر لطخة بوجه الاشتراكية ..

ان طريق الاشتراكية هو التشـريع .. هو القانون ، الذى ينقض الظلم ويعيد بناء العدل . ان قلوب الأغنياء لاتتحرك بالدعوات مهما كانت بلاغتها ، والا لكانت تحركت لكلمة المسيح « الحق أقول لكم أنه يصعب أن يدخل غنى الى ملكوت السموات وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب ابره أيسـر من ان يدخـل غنى الى ملكوت الله » أو تحركت لكلماته « لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيـث يفسد السوس والصدا ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولاصدا ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون » .. ولكانت تحركت أيضـا لكلمـات الله « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » .

ان الكلمات الطيبة لاتصنع ثورة ·· ولا تغير أسلوب الحياة · بل لابد أن تقف وراءها السلطة ، ويؤيدها التشريع ، ان الاسلام مثلا فرض قانون المزكاة نوعا من الضريبة الاجتماعية ، تؤخذ من الغنى ليعود خيرها على الأمة ، وتمنى عمر بن الخطاب – وهو الحاكم – فى مرض موته لو أطال الله عمره فأخذ فضول أموال الأغنياء وردها الى الفقراء ·· بالقانون والتشريع ·

ولكن الحاكم لكى يكون مشرعا اشـــتراكيا ، لابد أن يكون انسانا اشتراكيا أولا ·· انسانا من الشعب · ان حكومة رجعية – مثل حكومة ايران ، وحتى رئيس وزرائها هذا – لاتستطيع أن تكون اشتراكية · لأن كل اشخاصها يرتبطون بالطبقة الغنية ، من الشاه الى وزرائه ولذلك فان الأصوات التى ترتفع من بينهم لتشدق بالبر والتقوى تحاول فى الواقع أن تؤجل معركة الاشتراكية ، بدلا من أن توقد نارها ·

ولو كان أمينى هذا اشتراكيا لنادى الشـعب أن يأخذ حقه من الامبراطور وعصابته ، بدلا من أن ينادى الامبراطور وعصابته أن يتصدقوا على الشعب ·

روز اليوسف ١٣/١١/١٩٦١

أؤمن بالخير .. فى شــعبنا

كانت خطوة لابد منها أن تحجز العناصر الشريرة فى المجتمع الاشتراكى الجديد ، فى هذه المرحلة من تاريخه ، ولذلك صــــدرت الأوامر باعتقال اللصوص والنشالين وتجار المخدرات وتجار الرقيق الأبيض .

ولكن هذه الخطوة نصف العلاج فقط . لأنه من غير المعقول ان تظل هذه العناصر المنحرفة محجوزة عن المجتمع الى الابد ، ونحن ـ كاشتراكيين ـ ينبغى أن نؤمن بأن الانسان خير بطبعه ، برىء حين يهبط الى الأرض ، ولكن التربية السيئة ، والظروف القاسية ، هى التى تدفع به الى الشر . كما أننا نؤمن ـ كاشتراكيين ـ أن من الممكن اصلاح الانسان وتقويم روحه ، وتوجيه طاقاته وجهة صالحة .

ولذلك فان الخطوة القادمة ينبغى أن تكون هى محاولة اصلاح هذه العناصر ، بتهيئه ظروفها لتلقى اشعاعات الخير ، ومحاولــة ازالة أثر الظروف السيئة التى عاشتها ، ينبغى أن تجرى لهم عملية « غسيل روح » ، تخلصهم من قذرات حياتهم ، وتعدهـــم لحياة جديدة .. ينبغى أن تكون هذه الاماكن التى تحجزهم فيها الدولة « اصلاحيات » لاسجون ..

وهذا يستدعى ان نهيىء لهم الواعظ الدينى المستنير ، الذى يلقى فى نفوسهم الاحساس بالخير والشر ، والاخصائى الاجتماعى المتحمس الذى يعاملهم ككائنات بشرية ، على ان تدرس حالاتهم بين فترة وأخرى ، حتى تخرج العناصر التى تستصلح ، ثم تمهد لها بعد ذلك سبل العيش الشريف ..

وبعد ذلك ، تأتى مشكلة عائلاتهم ، التى كانوا ينفقون عليها ، وهذه المشكلة تحتاج هى الأخرى لدراسة فردية عاجلة ، تتبع الحالات واحدة واحدة ..

وأخيرا ..

فمن البديهى أن هناك صفا ثانيا لهذه العناصر الخطرة على المجتمع ، فتاجر المخدرات الكبير له صبيان ، ورئيس عصابة اللصوص له أعوان .. وهكذا . وفى مصير هؤلاء يجب أن نفكر .. نفكر فى استصلاحهم قبل ان تمر سنوات قليلة فيصبحون خطرا جديدا يجب مواجهته ..

ولست أزعم أن هذا كله كفيل بأن يصبح المجتمع كله ملائكة ، ولكنه كفيل بأن ينقص عدد الشياطين فيه .. والصورة الاشتراكية للمجتمع فى السنوات القادمة تتكفل بمعظم الباقى ..

انتى أؤمن بالخير فى شعبنا .. وخاصة فى ظل الاشتراكية .

روز اليوسف ١٩٦١/١١/٢٠

القتــل .. للتســلية !

اقشعر بدنى ، وانا اقرأ ترجمة لمقال نشر فى صحيفة «الجيورنو» الايطالية عن تعذيب الجزائريين واغتيالهم فى قلب باريس ٠

والصحيفة الايطالية صحيفة محايدة ، بل هى أميل الى الغرب ٠ وكاتبة المقال شابة مذعورة ، كانت تؤمن قبل أن ترى ما رأت أن فرنسا بلد الحرية ، ومهد حقوق الانسان ٠٠ حتى شاهدت مايقزز النفس ٠ ويملأ الروح بالاشمئزاز ٠٠

تقول الكاتبة :

فى حى « لاجوت دور » وهو الحـى الجزائرى فى باريس ، فرض نظام منع التجول ، وأصبح الصمت والظلام والخوف يحكـم شوارع الحى قبل ان تميل الشمس الى الغروب ، فاذا شوهد جزائرى بعد السادسة مساء سيق الى مركز البوليس ٠٠ حيث يضرب حتى تتكسر عظامه ، وتسرق محفظته وساعته ٠٠ ثم يمر بين صفين من حاملى الأسياخ الحديدية ٠٠ فينهال عليه ضربا ٠٠ وتسمى هذه المرحلة « الضرب الجماعى » ٠

فاذا كان عمره طويلا ، ونجا من هذه المراحل أخذوه فى عربة مغلقة الى نهر السين ٠٠ ثم القوا به فى الماء ٠٠ وحين يحـاول

السباحة ·· يطلقون فوق راسه بعض الاعيرة ، حتى يملأ الرعب قلبه ·· فيغوص فى القاع ··

واستطردت الكاتبة الايطالية فى وصف مشـاهد التعذيب ، وختمت مقالها قائلة :

ان البوليس الفرنسى حين يريد أن يتسلى ، يغلق أحد الاكواخ على سكانه ثم يشعل فيه النار ··

من المسئول عن هذه المذابح الوحشية ·· من المسئول عن هذه الجثث التى يلفظها السين كل صباح ·· هل البوليس وحده هـو المسئول ·· أم ديجول أيضا ؟!

تذكرت ، وأنا أقرأ هذا المقال مناقشة دارت منذ ثلاث سـنوات بين فرانسوا مورياك ·· الكاتب الفرنسى المعروف ، وبين جـان سرفان شرايبر رئيس تحرير « فرانس أوبزرفاتير » على صـفحات تلك المجلة ·

كان شرايبر يندد بالتعذيب فى الجزائر ويستنكره · فأجابه مورياك قائلا : ان الجيش الفرنسى فى الجزائر هو المسئول عن هذا العنف الذى لا تصل أصداؤه الى سمع ديجول ، لأن البحر الذى يفصل بين الجزائر وفرنسا يغرق تلك الاصداء فى مياهه ··

لقد كان مورياك يحاول تبرئة ديجول ، ولكن ماذا يسـتطيع مورياك وأمثاله أن يقولوا هذه المرة ، والتعذيب يجـرى على بعد أمتار من قصر « الاليزيه » مقر رئيس الجمهورية الرسمى ·

ان كل دم جزائرى أريق على أرض الجـزائر ، وعلى أرض فرنسا ·· جريمته فى عنق ديجول ·· ولطخته الحمراء على يديه ·

روز اليوسف ١٩٦١/١١/٢٧.

تعـــلم الاشـــتراكية ..

فى عام ١٩٠٨ عاد الى مصر بعد غيبة بضع ســـنوات فى فرنسا ، شاب فى حوالى الثلاثين من عمره ، وهو يحمل شهادة فى الطب ، وأملا فى المستقبل .

كان اسم هذا الشاب الدكتور محمد جمال الدين ، الذى دعا الى تكوين أول حزب للفلاحين فى العالم العربى وسماه « الحزب الاجتماعى المبارك » .

واصطدم هذا الشاب بتقاليد المجتمع المصرى الساكن فآثـر السكوت بعد جولة واحدة ، ويظهر انه اضطر للعودة الى فرنسا .

وفى عام ١٩١٠ عاد من انجلترا ، شاب مصرى آخر بعد أن التقى هناك ببرناردشو و هـ . ج ويلز وغيرهما من أقطاب الفكر الاجتماعى الانجليزى ، الذين كانوا يكونون جمعية للمطالبة بتحسين أحوال العمال وتحرير المرأة ، وفى مصر دعا هذا الشاب الى تكوين حزب « اجتماعى » .

كان هذا الشاب هو ، سلامة موسى .

وانت ـ أيها القارىء ـ لو تصفحت بعناية بعض المجـــلات

والصحف التى كانت تصدر من خمسين أو أربعين سنة ، مثلا ٠٠ المقتطف ٠٠ المستقبل ، لوجدتها تملأ صفحاتها بالحديث عن المذهب « الاجتماعى »

ما هو هذا المذهب « الاجتماعى » الذى كانت تدعو اليه هذه المجلات والذى أطلقه محمد جمال الدين وسلامة موسى على حزبيهما :

انه « هو نفسه » المذهب الاشتراكى الذى نتحدث عنه الآن ، ان كلمة « الاجتماعى » هى الترجمة الأولى لكلمة « الاشتراكى » ٠

وليس هذا خطأ فى الترجمة ، لأن الواقع ان المعنى الأول ، أو المداول الاول ، لكلمة اشتراكى هو كلمة اجتماعى ٠

ولأن هذا نفسه حدث فى أوروبا ، فقد كانوا يطلقون كلمة « سوشيال » فى القرن الثامن عشر ، على كل انسان يبدى اهتماما بشئون المجتمع ، قبل أن يصبح معنى هذه الكلمة هى «الاشتراكية» ومازالت هذه الكلمة « سوشيال » تستعمل بنفس المعنيين حتى الآن ٠

فالاشتراكية اذن لها تعريف بسيط جدا ٠٠ هو الاجتماعية ٠٠ هو الاحساس انك تعيش فى مجتمع ٠٠ والانسان الذى يهتم بأحوال مجتمعه ، ويحس أنه واحد منه ، ويشغل قلبه بمشاكل الناس ٠٠ العمال والفلاحين والموظفين ٠٠ انسان اشتراكى ٠٠

والانسان الذى يقول ٠٠ وأنا مالى ٠٠ ولا يهتم الا بمشاكله الخاصة ، ولا يحس بأن الناس كلهم اخوته ٠٠ انسان غير اشتراكى ٠

أو باستعمال لغة المصطلحات ٠٠ انسان فردى ٠٠

والناس كلهم نوعان :

اجتماعيون أو اشتراكيون ٠

وفرديون أو رأسماليون ٠

ولكن ـ ما الصلة بين الفردية والرأسمالية ؟

ماهو رأس المال ؟

ان الانسان هو الكائن الذى يملك الأرض وما عليها ٠ يملك الحقول الواسعة والمناجم العميقة ، والانهار المتدفقة ، والصحراوات الواسعة ٠٠ انه يملك الكرة الأرضية ٠

والانسان ليس هو أقوى المخلوقات ولا أوسعها حيلة ، انه ليس أقوى من الأسد ، ولا اكثر دهاء من الثعلب ، ولكنه اذكى المخلوقات ، والعاقل الوحيد فيها ٠

ان الانسان هو الحيوان العاقل ، الذى يملك الذاكرة والخيال فالأسد فى الغابة لايحلم ولا يتخيل ، والسمكة فى البحر لا تفكر فى الغد ، ولا تعتبر بدروس الماضى ٠ انها تسقط فى شبكة الصياد كما كانت تسقط جدتها من مليون سنة ٠

وعن طريق الذاكرة والعقل والخيال ، ابتكر الانسان الآلة ٠

عرف أنه حين يحبس كمية من البخار فى اناء مقفول ، ثم تتسرب هذه الكمية رويدا رويدا ، فانها تستطيع أن تحرك ذراعا قصيرة ، وتحرك هذه الذراع ذراعا أطول ، وهكذا ٠٠ حتى تستطيع هذه الكمية الصغيرة من البخار أن تدفع باخرة فى حجم الجبل ٠

وحين عرف الانسان الآلة ، زاد رأسماله فى الأرض ٠٠ زادت ملكيته ، واضيفت الى الحقول الواسعة والمناجم العميقة ملكيات جديدة ٠ لقد امتلك الانسان المصانع والبواخر والطائرات وحقول البترول والمناسج والمغازل الكبيرة ٠

وكلما تقدمت الآلة اتسعت حدود ملكية الانســـان ، وكبـر راسماله ٠

ولكن هل يملك البشر كلهم ما على وجـــه الأرض ، ومافى باطنها ، من خيرات ٠٠ بالتساوى ٠

لا ٠٠

واذا آمنا ان التساوى مستحيل ، فهل الفروق ضئيلة بين من يملك ومن لا يملك ؟

لا ٠٠

الواقع ان راسمال الانسان كله ، وهو الكرة الأرضية ، يملكه افراد ، قد يكون عددهم مليونا او مليونين او عشرين مليونا ، ولكن من بين كم ؟

من بين ألفى مليون ونصف ، هم عدد سكان الكرة الأرضية ٠

انهم افراد قلائل وسط محيط ضخم من البشر ، والصــورة نفسها ـ على مدى أضيق ـ تجدها فى اى دولـــة تتبع النظـــام الرأسمالى لو اخذت هذه الدولة على حدة ٠٠ ان الراســـماليين اقوياء ٠٠

وهل يتصرف هؤلاء الافراد ٠٠ تصرفا فرديا ٠٠ هل يعيشون حياة « فردية » ٠٠ حياة ضد المجتمع ٠٠

ولكن هل هم أقوى ٠٠ او اذكى ٠٠ او اعظم من غيرهم من الناس ؟ حتى يستحقوا التفوق على الآخرين ٠

هل هم مثلا اذكى من غيرهم بنسبة واحد الى مليون ، حتى يكون هنا الفرق فى الثروة واحد الى مليون ٠

لا ٠٠٠

اذن ‥ لابد أن هناك سببا آخر ، فى طبيعة تكوين المجتمع الرأسمالى ٠

كيف يصبح انسان اغنى من انسان آخر مليون مرة ، رغم ان مستوى ذكاء الانسان يتراوح بين ثلاثين فى المائة عند المتخلفين ومرضى العقل وبين مائة فى المائة ، عند العباقرة ، كما يقول علماء النفس ؟

ان الألف جنيه الأولى دائما هى الصعبة ‥ هى التى لايحصل الانسان عليها الا ببذل العرق والجهد والذكاء ٠

واكل شىء يهون بعد الألف او الآلاف الاولى ٠

والمليون جنيه تلد مليون جنيه أخرى ، بعد مدة قصيرة ٠

وبعد مدة ، يصبح رأس المال يتحرك وحده ‥

لقد أصبح رأس المال كائنا حقيقيا ‥ له اذن يسمع بهـا الأخبار ، وعين يلمح بها التغيرات ، ومخاوف ومطامع ولذلك فهم يقولون عادة ‥ رأس المال جبان ‥ رأس المال مغامر ‥ رأس المال جشع ‥ أو قوى ‥ أو ‥ أو

ويقولون أيضا : النظام الرأسمالى ‥ القوانين الرأسمالية ‥ حتى الاخلاق ‥ هناك اخلاق رأسمالية ٠

وهناك مثلا طائفة من أبناء الرأسماليين ، أو العاطلين بالوراثة لا يعرفون أن يعدوا من واحد الى مائة ٠

ان رأسمالهم اقوى منهم ‥ انه اكثر منهم ‥

ما السبب فى وصول رأس المال الى هذه المكانة ؟

السبب : ظاهرة نستطيع أن نسميها ‥ التراكم الرأسمالى، وأبسط مظاهر هذا التراكم الرأسمالى ، هو الميراث ‥

والميراث فى صورته الاولى تأمين ضد الخوف ·· الخوف على الزوجة الأرمل ·· أو الأطفال الايتام ، لكى يجـــدوا اللقمة والدواء والمأوى ·

وكل انسان يشعر بهذا الخوف ، ويفكر فى هذا التأمين ··

ولكن هناك طريقتان للتغلب على هذا الخوف ··

الطريقة الفردية ، التى شعارها « أنا ·· ومن بعدى الطوفان »

ان الرجل يجمع ويكدس ، ويغامر ويخدع ، ويشترى ويبيع ، وقد تستهويه بعد ذلك لذة المكسب والتكديس ، فينسى هدفه الأول ، ويتغلب رأس ماله على انسانيته ، لأن كل زيادة فى غنى الغنى ، هى فى نفس الوقت زيادة فى فقر الفقير ··

أما الطريقة الاجتماعية أو الاشتراكية ، فهى النظر الى المجتمع كوحدة ·· التفكير فى معاشات الشيخوخة ، وتســـهيل الخدمات العامة وتأمينها ، واتاحة الفرص المتكافئة للجميع ، وتعميم دور الحضانة والمدارس المجانية ان « بوليصة » التأمين هى ضمير المجتمع وتضامنه ، والانسان الذى يحس بتضامنه مع المجتمع ، عليه أن يوجه طاقته الى مطالبة الدولة بهذه الضمانات ، بدلا من أن يوجهها الى جمع الأموال ·· عليه ان يفكر أن أولاد الناس هم أولاده أيضا ، وانه مسئول عنهم مسئوليته عن أبناء اللحم والدم ··

ولكن ·· الآن ··

هل وصلت الخدمات العامة عندنا الى المستوى الاشتراكى ؟ ليس بعد !

ولذلك فان دولتنا الاشتراكية تبيح الميراث فى الحدود التى تجعل الانسان يطمئن على أن أبناءه سيجدون المـــأوى واللقمة والدواء ··

ولكنهم ٠٠ لن يكونوا ٠٠ عاطلين بالوراثة ٠٠

عندما تشترى مثلا ، زوجا من الاحذية ، أو متر قماش ، أو جهاز راديو ، أو ثلاجة لكهربائية ، وتدفع ثمنها ، فهل تسأل نفسك : لماذا تدفع هذا الثمن بالتحديد ؟ ولمن تدفعه ؟

وعندما ينخفض الثمن أو يرتفع ، فلماذا ، لماذا يزيد قرشا أو قرشين أو جنيها أو عشرة ؟

ولماذا تفكر الحكومة الآن فى تخفيض اسعار بعض السلع بعد صدور القوانين الاشتراكية الأخيرة ، هل هذا التخفيض مجرد رغبة طيبة ، نوع من « الهبة » الممنوحة للشعب ، أن الصحف تقول ان هناك دراسات تجرى قبل تحديد ثـــمن أى ســـلعة ، فما هى هذه الدراسات التى يضعها المسئولون امامهم ، وماهو التفكير الذى يوجه هذه الدراسات ؟

والسؤال الأخير :

هل السلعة أرخص فى ظل الراسمالية أو الاشتراكية ؟

ان الرأسمالى يقول ان ثمن السلعة ، زوج الحذاء ، مثلا يحدد على الاساس الآتى :

الجلد هو المادة الخام ٠٠ هو العنصر الأول مضـــافا اليه تكاليف دباغته واعداده ٠

والعنصر الثانى هو الآلة فى المصنع ، ومبانى المصنع وتكاليفه والآلة مثلا تستهلك على عشرين سنة ، ومبانى المصنع تستهلك على أربعين سنة ٠٠ وتكاليف ادارة المصنع يقدرها كما يشاء ٠ ٠

والعنصر الثالث هو : أجر العامل ٠

أما العنصر الرابع والأخير ، فهو ربح رأس المال ، على مجرد

وجوده ، وهذا الربح غير المكافآت والمرتبات لمديرى المصـنع اذا كانوا من أصحابه ٠

وهو لا يحدد حسب ظروف السلعة أو ظروف رأس المال ، ولكن حسب حاجة الانسان الى هذه السلعة ٠٠

وقد كانت أكثر المصانع ربحا ، واعلاها نسبة فى تقدير نصيب رأس المال ، هى المصانع التى تنتج السلع الضرورية للشعب ٠٠ السلع التى لاغنى عنها ٠٠

وكثيرا مايكون العنصر الرابع ٠ وهو ربح رأس المال اكبر من العناصر الثلاثة الاولى ٠

والآن ٠٠ ماذا يقول الاشتراكى ٠٠ ؟

انه يقدر ثمن المادة الخام ، واستهلاك الآلة والمصنع تقديرا معقولا ٠٠ أولا ٠٠

ويرفع أجر العامل ٠٠ لكى يعاونه على الحياة الآدمية ٠٠ ثانيا ويستبعد العنصر الرابع ٠٠ وهو ربح رأس المال ، ويقلل منه ما أمكن ، لكى يزيد فى انتاج المصنع ، فيفتح مجالات جديدة للعمل ٠

وربح رأس المال فى النظام الرأسمالى ، هو صورة أخـرى من صور التراكم الرأسمالى ، مثل الوراثة ٠٠ تستطيع هى الأخرى ان تخلق طبقة من العاطلين الوارثين ، كما أنها تساعد على تكوين طبقة من أصحاب المصانع ، تزداد غنى كلما ازداد الفقراء فقرا ٠

وهى تنعكس على وعليك ، فى الزيادة غير المعقولة ، لثمن السلعة التى تشتريها ٠٠ زوج الحذاء ٠٠ أو متر القماش ٠٠ او الراديو والثلاجة ٠٠

كان أجدادنا ـ زمان ـ يعتمدون على انفسهم فى كل شىء ،

يزرعون القمح أو الشعير فى الحقل ، ويأكلونه ، ويدبغون جلـــود الحيوانات ، ويصنعون منها نعالا ، وينسجون ملابسهم على النول اليدوى الصغير ، الذى تجلس عليه المرأة فى أوقات فراغها ، كما تجلس حفيدتها الآن ، لتنسج صوف التريكو ٠٠ ولكن ، لم يكن بلوفر التريكو وحده هو الذى يغزل فى البيت بل كل مايستر جسم الانسان، وكانت ملابس الانسان أكثر بساطة من ملابسنا الآن ، لم يكن هناك تفنن فى الالوان ، ولا أناقة فى التفصيل ، ولا موضات تتغير من سنة الى أخرى ٠٠

وحين رأى الانسان الجمال فى الطبيعة ، أراد أن يخلع هذا الجمال على نفسه ، وولد نظام « التخصص » فى كل نواحى الحياة ، فأصبح هناك « نساج » متخصص يجلس فى دكانه أمام نوله اليدوى « وصباغ » متخصص فى مزج الألوان ، « وخياط » متخصص فى تفصيلها ٠٠ وكذلك فى البناء ومظاهر الحياة الأخرى ٠٠

ولذلك كان مجتمع المدن فى العصور الوسطى يتميز بطبقـــة « الاسطوات » المهرة هذه الطبقة التى تركت لنا نقوش الأرابيسك التى تشهد بالصبر وطول البال،وتركت لنا فسيفساء المساجد الزاهية الألوان ، وتركت لنا ألوان النسيج الجميلـة التى نشاهدهـــا فى المتاحف ٠٠

وفجأة ٠٠ اكتشفت قوة الآلة ، وتقدمت الميكانيكا ٠٠ وانتهى دور الصانع اليدوى ٠٠ فان النول اليدوى قد يستطيع أن ينسج ثلاثة أمتار فى اليوم ، ولكن الآلة تستطيع ان تنسج ثلاثـــة آلاف متر ٠٠

وبدلا من طبقة « الاسطوات » أصبح المطلـــوب هو طبقـــة « العمال » ، ودخل بين الصانع والمستهلك وسيط جديد ، هذا الوسيط هو صاحب رأس المال ٠٠

وكثر أصحاب راس المال ، وكونوا طبقة ، اختلافها رحمـــة واتفاقها لعنة ··

واتفاق أصحاب راس المال هو ما يسمونه بالاحتكارات أو بالتعبير العلمى « التروستات »

وتبدأ المسألة هكذا ··

ان هناك مصنعين مثلا يعملان بنفس السلعة ، ويتنافسان عن طريق ترخيص الاسعار أو تجويد الانتاج ومن خلال العمل يـدرك صاحبا المصنعين ان من مصلحتهما أن يتفقا فيكونا شركة مشتركة بينهما ، أو يتخصص احدهما فى صنف ، ويختص الآخر فى الصنف الثانى ·· ويتفقان على احتكار السلعة ··

والمصنع الذى يحتكر مثلا صناعة « السكر » ، يستطيع تنفيذ أمرين ، بمنتهى السهولة ··

أولا : تحديد أجر العامل كما يشاء ، واللى مش عاجبه ·· لن يجد عملا ··

ثانيا : تحديد ثمن كيلو السكر كما يشاء ، وليذهب المستهلك الى الجحيم ··

والاحتكار هو قمة الرأسمالية ، ومعناه أن هذا القومسيونجى أو الوسيط ، الذى لا يملك الخبرة ، بل يملك النقود ، قد مد ذراعيه، فخنق باحداهما العمال ، وخنق بالأخرى ·· المستهلكين ··

ما هى الثروة ··

ان المجتمع الرأسمالى يقول ان الثروة هى النقود · وان العمل ليس الا طريقة لجمع النقود ·· مجرد طريقة الى جانب طرق أخرى ·· كالسمسرة والوراثة والاحتكار ··

أما المجتمع الاشتراكى ، فهو يقول ان الثروة هى العمل وان النقود ليست الا مظهرا للعمل ·· ونتيجة له · ان النقود هى أجر العمل · وبدون العمل لن يكون هناك نقود ·

وقد يبدو هذا الخلاف خلافا نظريا ، غير واضح المعالم · ولكنه فى الواقع أعمق خلاف تعرفه الحياة ·

ولو بدأنا من الاول ، وسألنا : ماهى مطالب الانسان الاساسية لكانت هى الاكل والشرب والملابس والمأوى ؟

وكل هذه المطالب الأساسية تستطيع أن تشتريها بالنقود ولكنك لا تستطيع أن « تقضيها » بالنقود ·

هل تستطيع أن تأكل عمله ذهبية ، وان تنسخ ثيابـــك من أوراق البنكنوت ، وان تبنى كوخا من الفضة لتسكن فيه !

طبعا ·· لا ··

انك لا تستطيع أن (تقضى) حاجاتك بالنقود ، بل ان تشترى حاجاتك ·· لابد أن يخرج القرش أو الجنيه من جيبك ليدور فى ايدى الناس ، فتشترى به رغيفا من الخبز ، وماء من مؤســـسة ميـــاه القاهرة ، وثوبا من بائع الأقمشة ، وتستأجر شــقة من صـــاحب الملك ·

ان النقود اذن تظل سلبية ·· ساكنة ·· جامدة ، حتى تتحرك فتصبح ايجابية ··

ومعنى حركة النقود ، هو العمل ··

فلكى تشترى انت رغيفك ، يجب ان يزرع الفلاح ·· ويطحن الطحان ، ويخبز الخباز ، ولكى تلبس ثوبك هناك عديد من الاعمال يجب ان تؤدى من أول زراعة القطن الى صناعة الدبابيس ·

ان قيمة النقود انها تتحرك فتنتج عملا ، وانها تدفع أجـرا عن عمل ··

وقد تستطيع الانسانية أن تستغنى عن النقود · لو أمكن أن يعود نظام المقايضة · ولكنها لاتستطيع أن تستغنى عن العمل · فالانسانية لاتستطيع أن تعيش على مدخراتها أسبوعا واحدا ، لأن الثياب ستبلى ، والأكل سيفسد ·· والماء سيعطن ، والعلب المحفوظة ستنفد ··

وأكبر عيوب المجتمع الرأسمالى أنــه يعطى النقود اكبر من حقها ، ويعطى العمل أقل من حقه ·

والمجتمع الرأسمالى حين يسأل عن الانسان يقول :

كم ثروته ··

والمجتمع الاشتراكى يسأل :

ماذا تستطيع أن تعمل ؟

من لا يعمل ·· لا يأكل ··

هذا هو قانون الحياة العادل ، لأن العمل هو المبرر الوحيد للحياة ، ولأن الكسول أو الطفيلى لا يضر نفسه فحسب ، ولكنه يضر الحياة أيضا ، لانه يقاسم العاملين ثمار عملهم دون وجــه حق ··

والنقود هى أجر العمل ، والمجتمع الاشتراكى مجتمع يعمل كل أفراده ، ماعدا العاجزين أو الأطفال ، حتى ربة البيت تعمل ، لأن انجاب الاطفال ورعايتهم ، وتعليمهم الحنان والمودة والخلـق الطيب ، عمل من أقدس الاعمال الاشتراكية ··

فهل معنى ان كل اعضاء المجتمع الاشتراكى اعضاء عاملون كل منهم بقدر طاقته ، ان ينالوا أجرا متساويا على أعمالهم ··

لا ٠٠ لأن الأعمال تختلف ٠٠

فالانسان يعمل أحيانا بعضلاته وغرائزه ، مثل شيال المحطة ، وعامل البناء ، وبواب المنزل ٠٠

ان هذا العامل لا يستخدم الا الحد الادنى من امتياز الانسان وتفوقه ٠٠

وأحيانا اخرى ٠٠ يعمل الانسان مستغلا خبرته الى جانب عضلاته وغرائزه ٠٠

والخبرة هى ميراث الانسان من بدء الخليقة حتى الآن ، فان أجيال الاسود أو الفيران مثلا لا تتوارث خبراتها ، ولا تدونها فى كتب ، ولا تتعلمها فى مدارس ٠

والفار مازال يسقط فى نفس المصيدة منذ مليون سنة ٠٠

وخبرة الانسان تختلف من البساطة الى التركيب ٠٠ من الخبرة الساذجة كخبرة الخباز أو عامل النول اليدوى الى الخبرة المعقدة مثل خبرة الطبيب أو المهندس أو الكيماوى ، وبين هذين الطرفين تقع خبرة « الاسطوات » مثل الميكانيكية أو الموظفين الاداريين أو موظفى الحسابات ٠٠

وهؤلاء يجب ان ينالوا أجرا أعلى من أجر الفئة السابقة من العمال ، لأنهم يبذلون جهدا انسانيا أكبر ، لا مجرد الجهد العضلى، فالانسان ليس عضلات مفتولة فحسب ، ولكنه عقل وخبرة أيضا ٠٠

أما أعلى مراتب العمال فهم العمال الموهوبون ٠٠

العمال الذين يجمعون الموهبة الى الخبرة ٠ انهم ممتازون عن غيرهم بهذه الخبرة المتفوقة ٠٠ مثل المخترعين والفنانين والادباء – بحق – والمهندسين النابغين والاطباء العباقرة ٠٠ هؤلاء هم

« ملح الأرض » اذا استعرنا تعبير السيد المسيح ، لأنهم هم خلاصة البشرية ، وآية تقدمها وهم باختراعاتهم وتصميماتهم وموسيقاهم وأدبهم ، يجعلون الحياة سهلة ، وجميلة ، ولائقة بالانسان ٠٠

والآن ٠٠ كيف يجد كل انسان مكانه فى الحياة ٠ كيف يصبح احدنا عاملا عضليا ، ويصبح الآخر عاملا ذا خبرة ، ويصبح ثالثنا موهوبا ؟

الحل بسيط ٠ يتلخص فى كلمة واحدة ٠٠ « تكافؤ الفرص » ٠٠ يجب أن ينال كل انسان فرصته ، عن طريق التعليم المنظم ، والاسرة الهادئة ، وظروف الحياة المطمئنة ٠٠

يجب أن يسقط قانون « الوراثة » ، ليقوم بدلا منه قانون « تكافؤ الفرص » ٠٠

كان المثل القديم يقول :

« قل لى من أصدقاؤك أخبرك من أنت » ٠

فالانسان يختار أصدقاءه عادة ، لأنهم يشبهونه فى نواح كثيرة ٠ ٠يستطع أن يتحدث معهم فى الموضوعات التى تعنيه وتعنيهم ويستطيع ان يجلس معهم فى الأماكن التى تروق لهم ٠ يستطيع ان يلبس كما يلبسون ، ويأكل كما يأكلون ، ويستطيع أن ينفق كما ينفقون ٠٠ فالموظف الذى يبلغ دخله عشرة جنيهات فى الشهر لايستطيع أن يجد له أصدقاء فى نادى الجزيرة ٠ والعامل الذى يشرب فنجان قهوة بقرش ونصف فى حى السيدة زينب ليس له اصدقاء فى الهيلتون ٠٠

والحياة الاجتماعية مكونة من مجموعة علاقات ، احداها الصداقة ٠ فأنا مثلا لى مجموعة من العلاقات فى المؤسسة التى أعمل بها ٠ والشارع الذى أسكن فيه ، والجمعيات أو الاندية التى

انتمى اليها ، والاماكن التى اسهر فيها • والاقارب تتحدد شخصيتى وتفكيرى واهتماماتى ، وبهذه العلاقات احس بانتمائى الى قطاع من المجتمع •• الى طبقة من الطبقات ••

وأنا لم أضع نفسى فى هذه الطبقة باختيارى الكامل • فان الوراثة قد وضعتنى على احدى درجات السلم الاجتماعى وقد أستطيع أن أرتفع عن هذه الدرجة ، وقد انحدر عنها الى درجة أدنى منها ، ولكن المجتمع ــ على أى حال ــ قد اعطانى نقطة البدء ، حين قسم كل المواطنين الى طبقات •

وأكثر المجتمعات التزاما بالقوانين الطبقية هو المجتمع الرأسمالى • وقد كان التفكير التقليدى فى المجتمع الرأسمالى يقسم الناس الى طبقات ثلاث :

أولا : الارستقراطية ، أو الطبقة العليا ، وتتكون من الاقطاعيين واصحاب رءوس الاموال وابنائهم من العاطلين بالوراثة ••

ثانيا : الطبقة الوسطى ، وتتكون من الموظفين والتجار وملاك الأراضى غير الاقطاعيين ، والفنيين ، والمحامين والأطباء •

ثالثا : الطبقة الدنيا • وتتكون من العمال والفلاحين وصغار الموظفين ••

ومن البديهى ان المجتمع الرأسمالى يحاول المحافظة على سلم الطبقات ، بحيث يتبع دائما لأبناء الأغنياء أن يصبحوا أغنياء • ويلزم أولاد الفقراء أن يظلوا فقراء •

ولكن •• كان يحدث أن يتخطى بعض المحظوظين هذا الحجاب الحاجز ، ويثبون من طبقة الى طبقة اخرى •• من الطبقة الوسطى مثلا الى الطبقة الارستقراطية ، ولكن الطبقة الجديدة تتلقاهم دائما

بحذر وارتياب ، وبتقزز فى بعض الاحيان • ولا تعترف بانتمائهم اليها الا فى الجيل الثانى أو الثالث منهم ••

ومن الواضح •• أن نظرة المجتمع الرأسمالى الى الطبقة وتحديدها تعتبر القيمة الحقيقية للانسان هى الثروة •• لا العمل ••

وهذا ظلم صارخ •• لطبيعة الحياة والمجتمع •

المجتمع الرأسمالى ينقسم الى ثلاث طبقات ، الطبقة الأرستقراطية ، ثم الطبقة الوسطى ، والطبقة الدنيا فى قاعدة السلم وآخر درجاته •

والطبقة الرأسمالية أو الارستقراطية هى أقل هذه الطبقات عددا ، ولكنها أوسعها نفوذا ولذلك أطلق اسمها على اسم المجتمع ذاته •

انها اقلية من الاغنياء •• اقلية ضئيلة ، ولكنها من حيث النفوذ والسلطة هى الأغلبية ، لأن خمسة من الرأسماليين فقط أوسع نفوذا من مليونين أو ثلاثة ملايين من العمال والفلاحين •

والطبقة الرأسمالية تسيطر دائما على مراكز النفوذ فى المجتمع •• أنها تسيطر على الوزارة والبرلمان والمحاكم والمدارس والصحف وحتى •• المساجد !

وعندنا مثلا فى مصر ، كان معظم الوزراء من أبناء الاتراك المتمصرين مثل شريف باشا ورياض باشا ومصطفى فهمى ومحمد سعيد وزيور وعدلى يكن •

ثم أصبح الوزراء من أبناء الاقطاعيين أو من الرأسماليين الكبار مثل محمد محمود واسماعيل صدقى ، وحتى الأفندية المصريين الذين أدخلهم سعد زغلول وزارته ، أصبحوا مع الزمن رأسماليين ، أو متصلين بالرأسمالية ، وانقطعت صلتهم بالشعب •

والطبقة الرأسمالية تسيطر أيضا على البرلمـــان ، وطبيعة الحياة البرلمانية الحزبية تقود الى هذه السيطرة فقبل ان تصبح عضوا فى البرلمان يجب أن تدفع تأمينا نقديا ضخما بالنسبة للعامل أو الفلاح ، وهو ١٥٠ جنيها ، ثم تنفق فى المعركة الانتخابية مبلغا قد يصل الى ألفى جنيه أو ثلاثة أو خمسة آلاف جنيه ، وتتقاضى بعد نجاحك مكافاة برلمانية زهيدة ، ثم تتعرض بعد حـــل المجلس للبطالة ٠٠٠ ومعنى هذا كله أنك يجب ان تكون رأسماليا قادرا حتى تستطيع أن تعمل بالسياسة ، وتدخل فى عداد نواب الأمة ٠

وقد كانت الطبقة الرأسمالية تسن التقاليد الملائمة لها لتظل وزارة الخارجية والجيش فى يدها ٠ فالمرشح للعمل بالخارجيـة ينبغى أن يكون لديه دخل خاص يستطيع أن يحافظ به على مظهره ، بغض النظر عن ثقافته أو استحقاقه لتمثيل بلاده ، وكأنه مانيكان لا سفير سياسى ، وطالب الكلية الحربية يجب أن يثبت أنه من أولاد الذوات ، قبل أن يقبل فى صفوف الكلية الحربية ٠

أما المحاكم فالسيطرة عليها تتم على درجتين :

أولا : السيطرة على التشريع ، على القانون نفسه ، ليصبح القانون رأسماليا ، ينصر صاحب العمـل على العـــامل ، ومالك الأرض على المستأجر ، وصاحب العمارة على الساكن . وصاحب المصنع على التاجر الصغير ٠ ومن البديهى ان البرلمان الراسمالى لا يلد ولا ينتج الا قوانين رأسمالية ٠

ثانيا : السيطرة على المحكمة ، ومن المسلم به ان القضـاء نزيه ، وان القاضى هو ظل الله فى الأرض ، ولكن لكى تصل الى القاضى لابد لك من اجراءات ، ورسوم وتوكيل محام ، ولكى توكل محاميا نابها يستطيع اقناع القاضى بحقك لابد من أن يكون معـك

نقود ، وكم من حقوق ماتت لأن أصحابها لا يملكون رسوم المحكمة ، وأجر المحامى ٠

ولكن ٠٠ كيف تستطيع الرأسمالية البقاء تحت ظل هذا الظلم الفادح ٠٠ انها يجب ان تقنع الناس ان السكين التى توضع على أعناقهم هى مجرد يد رقيقة تمسحها وتربت عليها وهنا يأتى دور المدارس والصحف ٠٠ وبعض رجال الدين ماذا يلزم لاصـــدار صحيفة ٠٠ فى هذه الأيام ؟

ان أول شرط لوجود صحيفة ، ليس هو الـــرأى الذى تعبر عنه ، ولا وجهة النظر التى تحملها ، ولا الصحفيون والكتاب الذين يعملون فيها ٠٠ ان أول شرط لوجود صحيفة الآن ، هو وجود مائة الف جنيه ٠٠ على الأقل ٠

وهذه الجنيهات الكثيرة تستطيع أن تخرج صحيفة الى حيز الوجود ، وتدفع منها ثمن المطبعة والحبر والورق وأجور المحررين ، ولكنها لا تستطيع أن تطيل عمر الصحيفة أكثر من أيام معدودة ، لأن تكاليف الجريدة اليومية أكثر من القرش الذى تدفعه ثمنا لها ، وأكثر من المليمات الستة أو السبعة التى يأخذ بها المتعهد الجريدة ليبيعها للقراء ٠

ولكن « الاهرام » مثلا عمرها حوالى مائة عام ، والاخبـــار عمرها حوالى ٢٠ عاما ، فكيف اذن عاشت هذه الصحف ، رغم ان التوزيع الأكبر معناه خسارة أكبر ؟

ان الصحف تعيش بالاعلانات ٠ ولا يفكر فى الاعـــلان عن السلعة الا التاجر الكبير أو المستورد الكبير أو الرأســـمالى ، فالبقال مثلا لا يعنى بالاعلان عن سلعته ، بينما يعلن مصنع الجبنة أو مستورد الخمور عن سلعته ٠ وكلما كبر انتاج الرأسمالى زادت اعلاناته ٠

وفى لبنان مثلا ، أعرف مجلة أسبوعية ، يصدرها أحد كبار المستوردين · لقد فكر هذا المليونير فى اصدار مجلته ، لأنه يستورد تشكيلة كبيرة من السلع ، تبدأ من أبر الخياطة واسطوانات الموسيقى ، وتنتهى بالفريجيديرات وأجهزة التسجيل ، وفى ميزانية كل شركة من شركاته جزء للاعلان ، فجمع هذا المليونير كل هذه الميزانيات الاعلانية المتناثرة ، واخرج بها مجلة ، وحشد لها كتابا ومحررين ، ووضع بين كل اعلان واعلان مقالة أو تحقيقا صحفيا ومحنه الصحافة الحقيقية ليست هى رقابة الحكومة ، بقدر ما هى رقابة الرأسمالية على الصحف ، وبعض الصحف تشتريها صفحة اعلانية واحدة وبعض الصحف لابد لشرائها من عشرات الصفحات، وليس معنى شراء الصحيفة أن تصبح الصحيفة اداة ترويج للرأسمالية ، وتبشير بمحاسنها ، ولكن يكفى ان تكف عن مهاجمتها، أو ان يكون الهجوم لينا رقيقا ·

هذا فضلا على ان التفكير الاشتراكى له منطق جديد فيما يستدعى الاهتمام ومالا يستدعى الاهتمام ، سواء فى الموضوعات الأدبية أو الاجتماعية أو حتى مشاكل الحب والزواج ، وهذا المنطق لا تكاد ترحب به الصحافة الرأسمالية الا مضطرة · وتحاول ان تشوهه فى معظم الاحيان ·

ان الرأسمالى وحده هو الذى يستطيع اصدار صحيفة ، وهو الذى يعطى الصحيفة حياتها واستمرارها ، وهو الذي يسيطر عليها ·

والصحيفة هى التى تصنع الذوق العام ، وتوجه تفكير الناس واحساسهم ، بجانب المدرسة والراديو والتليفزيون ، ولذلك كانت من أول الاهداف التى تسعى الرأسمالية للسيطرة عليها ·

كثير من حسنى النية يقولون لك :

– نحن نوافق على الاشتراكية ، ونؤيدها فى محاولتها اشاعة العدل بين الناس ، لولا أنها تقضى على الحافز الشخصى ··

وحين ينطلقون بكلمة « الحافز الشخصى » تلمع عيونهم ، وتبدو على وجوههم علامات الاقتناع الشديد ، ثم يبتسمون لك فى اشفاق ، كأنهم قد أوقفوك حائرا فى ركن ضيق ·

فما هو الحافز الشخصى ·

الحافز الشخصى هو الرغبة فى أداء عمل أكثر ، لكى تنال اجرا أكبر ، وتحصل على نقود أكثر ، تحقق بها مستوى افضل من الحياة لك ولأولادك · وهذا العمل يجب اساسا أن يكون قانونيا مشروعا ، فما لاشك فيه ان اللص لديه حافز شخصى للكسب ، وكذلك المرتشى ، ولاعب الثلاث ورقات ·

وبالطبع ، ليس هذا هو الحافز الشخصى الذى يعنيه محدثك أنه يعنى بالحافز الشخصى ، الرغبة فى مضاعفة العمل فى الكتب والعيادة والمصنع والادارة والحقل ·

وكل هذه الانواع من العمل ، أما ان تكون فردية ·· أو جماعية ولنقرب المسألة :

ان (م) من الناس طبيب ماهر يثق فيه مرضاه · وأجر الكشف عنده مرتفع نتيجة لهذه الثقة · وهو يعمل عشر ساعات فى اليوم · لكى يكسب نقودا أكثر ، ويعيش فى مستوى افضل ·

والاشتراكية قد وضعت له حدا أعلى للكسب ، وبعد هذا الحد الأعلى ترتفع الضريبة الى نسبة عالية ، والطبيب الماهر ينال هذا الحد الاعلى الذى يصل الى مائة ضعف بالنسبة لمستوى الدخل القومى للفلاح ·· وهنا نسأل ، الا تكفى هذه النسبة مكافأة على الحافز الشخصى ؟

أما النوع الثانى من العمل فهو الاعمال الجمـاعية ، ومن البديهى عندئذ ان موظفا فى ارشيف وزارة ، أو عاملا فى مصنع ، لن يجد هذا الحافز الشخصى لمضاعفة العمل ·· لأن هناك حدا أدنى من الاتقان ، ينال عليه أجره من الدولة أو المصنع · ولو قل انتاجه عنه ، لو تغيب يومين فى الأسبوع بدلا من يوم واحد ، أو قضى خمس ساعات فى العمل بدلا من ست ساعات ، لكان محلا للمؤاخذة الشديدة ·

ومن البديهى أيضا أنه لا يستطيع أن يعمل ثمانى ساعات بدلا من ست أو عشر بدلا من ثمان ، لأن العمل الذى يقـوم به لايؤدى وحده الى نتيجة ، فالعامل أمام آلة النسيج لا يستطيع أن يعمل بدون زملائه العمال اللذين يقفون على الآلات الاخرى وبدون وجود رئيس العمال وبدون وجود المهندس ··

ان الحافز الشخصى هنا ·· هو اتقان العمل القانونى ·· ومن حقه عندئذ أن يحصل على الأجر الكافى ·

ولعله من الغريب أن كلمة « الحافز الشخصى » لاينطق بهـا الا الكسول ·· أو العاجز !

كل نظام لابد له لكى ينجح من أشخاص يفهمونه ، وينقذونه ، ويحافظون عليه ·

وكلمة « النجاح » تعنى بالنسبة للنظـام الاشـــتراكى غير ما تعنيه بالنسبة للنظام الرأسمالى ·

فالنجاح فى النظام الراسمالى ، هو أن يجمع صاحب رأس المال أكبر كمية من الارباح ، وأن يعيد توظيف هذه الارباح ليحصل على أرباح أكثر · وأن تكون القوانين مطاطة ما أمكن ، فيستطيع أن يختصر قيمة الضرائب ، ويتخلص من الجمارك ، ويخفض أجر العمال ·

والمجتمع الرأسمالى ظاهرة الرخاء ، ولكن باطنه العذاب ، فالرخاء يتركز فى المدن الكبرى ، وفى قطاعات الطبقة الوسطى المتصلة بالرأسماليين ، ولكن الفقر الذى يزيد يوما بعد يوم ، هو كابوس حياة العمال والفلاحين ٠

أما النجاح فى النظام الاشتراكى فهو يعنى شيئا آخر ٠ انه يعنى رفع مستوى الجميع ، الفلاح والعامل والموظف ، واتاحة الخدمات العامة للجميع ، وتساوى الفرص وتكافؤها بالنسبة لابناء الشعب كله ٠

ومن هنا يختلف معنى كلمة « الادارة » فى مصنع أو مؤسسة، فى ظل الاشتراكية وفى ظل الرأسمالية ٠

الرأسمالية تهتم بالربح فقط ٠ والاشتراكية تهتم بالانسان ، اولا والربح ثانيا ٠

فالعامل حين يعمل عشر ساعات يعود الربح على الرأسمالى، وحين يعمل سبع ساعات بنفس الأجر ، فقد دخل عنصر جديد فى التعاقد بين العامل والمؤسسة ، وهو انسانية العامل ٠

والخدمات العامة أيضا ، لها أسلوب الادارة فى ظل الرأسمالية وأسلوب آخر فى ظل الاشتراكية ٠

والدولة تتوسع فى تأميم الخدمات العامة كلما ازداد احساسها بمسئوليتها ٠

وكثير من نقاد الاشتراكية يقولون : ان الادارة الرأسمالية فى المرافق المؤممة أفضل من الادارة الاشتراكية ٠٠ والواقع أنهم يغفلون حين يوجهون هذا النقد أمرين رئيسيين ٠

أولهما : أن طابع الخدمات العامة فى المجتمع الاشتراكى هو

أن تتجه للجميع ، لا لقلة قليلة من النـــاس ، وأن كل الدول حتى الرأسمالية تتوسع الآن فى تأميم الخدمات العامة ·

ثانيهما : ان الاخطاء ليست هى أخطاء الاشتراكية ، ولكنها أخطاء « الادارة » التى تتصرف بعقلية رأسمالية · وكما قلت ــ فاذا كل نظام لابد له لكى ينجح من أشخاص يفهمونه ، وينفذونه ، ويحافظون عليه ·

والاشتراكية لا ينفذها الا الاشتراكيون ، فليدرك ذلك مديرو المصانع ، والقائمون على المؤسسات ، والمشتغلون بالخدمات العامة، فى مجتمعنا الاشتراكى ·

ان المجتمع الاشتراكى لا يعترف بالطبقات ، ولا يقر البناء الطبقى ، الذى تعلو على قمته الطبقة الرأسمالية ، وتتميز هذه الطبقة بثرائها ونفوذها ، ثم تليها الطبقة الوسطى ، طبقة المســـاعدين والمنفذين والاداريين والوسطاء الذين يحكمون باسم الرأسمالية ، ولصالحها ، وتمتد دون الطبقتين مساحة واسعة من البشر الفقراء الجهلة ، المتخلفين ، هم الفلاحون والعمال ·

وقد قام المجتمع الطبقى على عنصرين ، أولهما تفاوت الدخل، وثانيهما الوراثة ·

وتفاوت الدخل هو الأصل · والدخل ليس معناه المرتب الذى يتقاضاه الانسان من الحكومة أو من المؤسسة التى يعمل بها فقط ، ولكنه ينطبق أيضا على دخل الصناعة والتجارة والمضاربة وغيرها· ومن البديهى ان نسبة تفاوت الدخل فى المجتمع الرأسمالى قد تصل الى أن تصبح النسبة بين دخل انسان ودخل انسان آخر واحدا الى خمسة آلاف ، أو أكثر ·

والدخل الكبير لا ينفق كله ، لأن مطالب الانسان ، مهما كانت شدة تبذيره وبذخه ، محدودة بحاجاته ، وفائض الدخل يتكوم عاما بعد عام ، ليصنع الثروة ·

والثروة تنتقل من الرجل الى ابنائه بالوراثة ، وبعد جيل أو جيلين من الغنى أو الثراء ، لن يحس غنى بأن هناك انسانا فقيرا ، أو طفلا يموت من نقص الغذاء ، أو أسرة تتقاسم رغيفا فى عشائها ، رغم أنه قد يقرأ فى الصحف الاحصائيات المثيرة عن وفيات الاطفال وحالات الفقر المدقعة ٠

والمجتمع الاشتراكى لا يعترف بالتفاوت الكبير فى الدخل ، بل هو يمتص الدخل الزائد عن الحاجة بواسطة القانون ، كما أنه يتيح تكافؤ الفرص لأبنائه لكى يبدأوا بداية متقـــاربة فى طريق الحياة ٠ بغض النظر عن جاه الأسرة أو سيطرة المال ٠

ما وضع الطبقات فى المجتمع الاشتراكى ؟

ان الناس فى المجتمع الاشتراكـــى لا يتميزون ، ولا يتحدد وضعهم الاجتماعى ، بثرواتهم أو وراثتهم ، بل بعملهم ٠

ولذلك فان المجتمع الاشتراكى يتكون من قطاعات ٠٠ كلها تعمل فى الخدمة العامة ٠٠ خدمة الوطن ٠

ومن هذه القطاعات مثلا : قطاع الفلاحين ، وقطاع العمال وقطاع الموظفين ، وقطاع المثقفين ، وقطاع المهنيين ٠٠ الخ ٠

ولكل قطاع من هذه القطاعات دوره ، ومشاكله ، وأسلوب حياته والدولة الاشتراكية هى التى تستطيع أن تنسق عمل هذه القطاعات ، فى سبيل المجموع ٠

وهذه القطاعات ليست كالطبقات ، طبقة فوق طبقة ، تكتـم أنفاسها ، وتتميز عليها بالغنى والثروة ، ولكنها جميعا ، قطاعات متجاورة ، كمثل مساحات الألوان فى لوحة ، ومن انسجامها ، يتضح ما فى اللوحة من جمال ٠

سلسلة مقالات بروز اليوسف
من ٢٠ ـ ١١ ـ ١٩٦١
الى ١٢ ـ ٢ ـ ١٩٦٢

موسيقى اللحم والدم

الآن المفاوضات السابعة فى خلال عامين ، بين جبهة التحرير الجزائرية ، وبين ديجول ، أو تدور مقدماتها على الأقل ٠

ويقال أن مسافة الخلاف بين المحاربين وبين المراوغين قد ضاقت ، بعد ثمانى سنوات من الحرب والموت ، وأن الاجتماع الرسمى الأول سيكون اجتماعا لاعلان الاتفاق ، للاتفاق على التفاوض ٠

ومع ذلك ٠ فان التفاؤل خجول ، والابتسامة خافتة ٠

ففى كل مرة ، كان نفس الكلام يقال ٠٠ لكان الأمل يزدهر ، ثم ما يلبث أن يموت ، أثر تصرف غريب من ديجول أو تصريح ملتو من « ديبرية » رئيس وزرائه ، أو غيره من الرجال الرسميين أو بين التصريح والتصريح المضاد ٠

وكان المفاوض الجزائرى عندئذ يجد نفسه حائرا بين التصريح والفعل ، ويحس أن الحرب فى الجبال أكثر استقامة من مناورات الدهاليز ٠٠ فينسحب ، وسلاحه فى يده ٠٠

ولكن الواقع أن كل دعوة للتفاوض كانت كسبا للمفاوض

الجزائرى ، لأن سلسلة الدعوات للتفاوض ، كانت أيضا سلسلة من التنازلات ٠

لقد تنازل ديجول عن كثير ، ولم يتنازل المحاربون عن شىء

تنازل ديجول عن ادعائه بأن الجزائر فرنسية ٠

ثم تنازل عن ادعائه بأن الجزائر جزائرية ٠ ولكن فى الدائرة الفرنسية وتنازل للمرة الثالثة عن دعوى التقسيم ، وخلق جزائرين، لا جزائر واحدة ، السواحل الخصبة لمليون من المستوطنين ، فرنسيين وايطاليين واسبان ويهود ، والداخل المجدب لتسعة مليون جزائرى عربى ٠

ولم تبق الا نقطتا خلاف ٠٠ وهما :

وضع المستوطنين فى الدولة الجديدة ، وبترول الصحراء ٠

ومشكلة المستوطنين مشكلة ضخمة انهم لايكونون عشرة فى المائة أيضا من الثروة ٠

وراءهم فى فرنسا الأم ، كل الاحتكارات الفرنسية الضخمة ٠ شركات البترول والتأمين والخمور والمعادن والفواكه ٠

وهذه الشركات هى التى تمول جيشهم السرى الارهابى ٠٠ هى التى تدفع لسالان وشال وغيرهما ٠

ورغم ان هؤلاء المغامرين العسكريين يحلمون بحكم فرنسا أيضا ، لمصلحة الاحتكارات الفرنسية الا أن أسبانيا هى مهبط وحيهم ، ومثلهم الاعلى ، فلقد حدث منذ خمسة وعشرين عاما أن زحف « فرانكو » قائد جيوش أسبانيا فى المغرب على بلده الأم لكى يطرد الحكومة الديمقراطية ، ويقيم طغيانه العسكرى ٠

والحكومة الفرنسية حين ادركت أن محاولة اقامة حكومة

للمستوطنين لن يكون مصيرها الا الفشل ، تعرض الآن حلا آخر للمشكلة ·

انها تقترح أن يكون للمستوطنين جنسيتان ·· جنسية جزائرية فى الجزائر ، وجنسيه فرنسية فى فرنسا ·

ولكن تطلى اقتراحها هذا بطبقة من الزبد ، تقترح أن تطبق نفس الثنائية على الجزائرين الذين يعملون فى فرنسا !

انها تقترح ، وربما لأول مرة فى التاريخ ، خلق مليون من البشر المزدوجى الجنسية فى الجزائر ، وربع مليون آخرين فى فرنسا ·

ولكن الفرق بين هؤلاء وهؤلاء ليس فرقا عدديا فحسب ، انه فرق نوعى أيضا ·

ان المليون مستوطن أوروبى فى الجزائر يملكون تسعة اعشار الثروة ، بينما يعيش الجزائريون فى فرنسا فى أدنى درجات المجتمع ··

وللمليون مستوطن أوربى مصالح اقتصادية ، يطمعون أن تحميها جنسيتهم المزدوجة ··

أما الربع مليون جزائرى ، فليس لهم الا الفقر والبطالة والضياع ·· أن الجنسية المزدوجة عبء عليهم ·

والنقطة الثانية التى قد يدور حولها الخلاف هى مستقبل الصحراء الجزائرية ·

وقد كانت الصحراء الجزائرية أرضا موحشة حتى ارتفعت فيها حفارات البترول ·· ابراج كنائس العهد الجديد ·

والشركة التى تستغلها الآن هى شركة « سيبا » الفرنسية ·

والجزائريون يدركون انه ليس من مصلحة أحد أن يتوقف تدفق البترول ولكن هناك فرقا بين ان يخـــرج البترول من أرض جزائرية حرة لمصــلحة فرنسا والعالم والجـــزائر أولا ٠٠ وبين أن ينهب هذا البتـــرول من أرض مســـتعمرة ، لمصلحة شــــركات الاحتكار ٠

وقد ألقت احدى الصحف الامريكية فى الأسبوع الماضى هذا السؤال :

ـ من هو رئيس الحكومة الجزائرية ، بعد الاستقلال ؟ هل هو فرحات عباس الصيدلى العجوز ، والدبلوماسى الهادىء أم أحمد بن بللا الثورى والقائد العسكرى ، أم بن يوســـف بن خدة الصيدلى الشاب ، الاشتراكى النزعة وبعبارة أوضح : كيف تكون صورة الجزائر بعد الاستقلال؟،وقد كان بوسع الصحيفة الامريكيةأن تلقى هذا السؤال الأخير ، دون أن تعرض أسماء هؤلاء القادة ، لو أدركت أن الثورة الجزائرية فى سنواتها النهائية قد صهرت كـل الاتجاهات فى بوتقة واحدة ، فان رفقة السلاح ، طوال هذه المعارك جديرة بأن تخلق للثورة الجزائرية طابعا ، ومنهجا ، وأسلوبا فى التفكير والعمل ٠

ان جيش التحرير يحرر الارض بيد ويوزعها على الفلاحين باليد الأخرى ٠

والثورة الجزائرية تعلم أنها لن تواجه بعد الاستقلال رأسمالية وطنية ضخمة أو بورجوازية جزائرية كبيرة ، ولكنها ستواجــه احتكارات أجنبية ٠ لأن العشرة مليون جزائرى لايملكون الا عشرة فى المائة من ثروة الجزائر ٠

والاحصاءات تقول ان متوسط دخل الفرد الجزائرى تسـعة عشر جنيها فى السنة ٠

والطبقة الوسطى الجزائرية تتكون من المحامين والاطباء والصيادلة والمعلمين لا من رجال الاعمال ، وحتى الموظفين · ثلاثين فى المائة منهم من الجزائريين ·

فالثورة الجزائرية اذن ثورة فلاحين وجنود جيش التحرير معظمهم من الفلاحين ، ولن يقوم تناقض طبقى بين فئات الشعب الجزائرى ، لأن الراسمالية الوطنية لم تستطع أن تنمو حتى تشكل طبقة ذات مصالح محددة كما أن معظم أصحاب الاقطاعيات من المستوطنين ·

وفى ظل هذا الواقع نجد أن هدف الثورة الجزائرية الأول هو أن يحس الفلاح بالكرامة ·· فوق أرضه ·

والهدف الثانى أن تبنى الجزائر الجديدة التى تقوم فيها الصناعة الانتاجية لا الصناعة التحويلية · كما كانت السياسة الفرنسية تقضى وتنفذ ·· كصناعة النبيذ من العنب أو السماد من الفوسفات ··

وتوزيع الارض هو العدل ، والتصنيع هو الكفاية ، والهدفان معاهما الاشتراكية ·

ولكنها ـ وهذا ما يجب أن يتبينه كل من يتحدث عن الثورة الجزائرية ـ اشتراكية أصيلة تنبعث من تاريخ الاستعمار الفرنسى الدامى ، ومن الانتفاضات الشعبية التى سبقت الثورة ومن دماء مليون جزائرى اريقت على جبال الاوراس ·

ولقد اهتدت الثورة الجزائرية الى هذا الطابع بعد عديد من التجارب ، وعديد من الاخطاء ·

وكانت حصيلة هذه التجارب هى الاهتداء الى الوجهة الصحيحة ·· الى قومية جزائرية عربية ومعاصرة فى نفس الوقت ·

فقد كان الحال مثلنا تماما فى مصر ، حين فكرنا فى البعث القومى ، وتوزعتنا الاتجاهات والدعوات ، ولكن هذه المرحلة من الحيرة التى استغرقت من حياتنا تسعين سنة منذ اواخر عهد محمد على حتى ثورة يولية عام ١٩٥٢ ، لم تستغرق فى الجـــزائر الا عشرات قليلة من السنين ، وحسمتها الثورة كما حسمت الثورة حيرتنا ..

كان عندنا اتجاه اسلامى ، يدعو الى العودة الى تقاليد السلف الصالح ، والى الالتفاف حول القومية الدينية ، ولعل أهم ملامحه فى تاريخنا الحديث تتركز فى الشيخ محمد عبده ..

وفى الجزائر نشأت جمعية العلماء بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، تدعو الى الرجوع الى القرآن والسنة وكما كان الشيخ محمد عبده بعيدا ــ فى أواخر حياته ــ عن العداء السافر للانجليز معنيا بشئون الدين ، كذلك كانت جمعية العلماء الجزائرية ..

وعندنا .. دعا بعض المثقفين الى تبنى الحضارة الغربية ، وأسلوب التفكير الغربى ، ولعل اول رائد لهذا الاتجاه الخديوى اسماعيل الذى قال كلمته المشهودة « أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا » ولعل اسماعيل كان يعنى بالمظهر دون الجوهر ، ولكن بعض المثقفين ــ بحق ــ كانوا يدعون نفس دعوة اسماعيل ، وذلك حين يقارنون بين حالنا وحال الغرب ، فيشعرون ازاءه بالضآلة والتخلف ، ويتمنون أن ننسلخ عن واقعنا وشـــرقنا وعروبتنا ، لنلتصق بجلد هذا العملاق الأشقر ..

وفى الجزائر ، كانت مأساة « التغريب » أشد قسوة ، لأن السياسة الاستعمارية كانت تستهدف جعل الجزائر جزءا من فرنسا حتى أنها قسمت الأرض الجزائرية الى ثلاث محافظات ، والحقت ادارتها بوزارة الداخلية الفرنسية واختارت من الطبقة الوســـطى

الجزائرية نوابا عن الجزائر فى البرلمان الفرنسى ، وحاربت اللغة العربية حربا عنيفة ، لتحل محلها اللغة الفرنسية ..

ومن الغريب أن بعض زعماء جبهة التحرير الجزائرية كانوا يوما ما من أنصار التغريب ، حتى مستهم روح الثورة . فاندفعوا فى صفوفها .

وعندنا ..

فكر بعض المتحمسين للاصلاح الاجتماعى فى الشيوعية ، وتعاطفوا مع الاحزاب الشيوعية فى الشرق العربى حتى تبين لهم أن السياسة تطغى على المبادىء ، وان العلاج المستورد لايمكن أن ينفع لمداواة الامراض (الوطنية).

وفى الجزائر نشأ حزب شيوعى . ومن المؤسف (وهذا يتكرر كثيرا فى شرقنا العربى) أن الحزب الشيوعى الجزائرى نشأ تحت زعامة فرنسى يدعى « جان شاتترون » ويلقب « ببارتل » ، وكانت معظم قياداته من المستوطنين ، وأعلن الحزب الشيوعى موافقته على ادماج الجزائر فى فرنسا فى عام ١٩٤٣ ، وفى ٨ مايو عام ١٩٤٥ ألقت الحكومة الفرنسية قنابلها على منطقة « ستيف » ومات أربعون ألفا من السكان كما قدرهم القنصل الامريكى ، وكان فى الوزارة عندئذ وزيران شيوعيان ، أحدهما موريس توريز . سكرتير الحزب .

وحين قامت الثورة الجزائرية فى نوفمبر عام ١٩٥٤ ، أصدر الحزب الشيوعى الجزائرى بيانا يهاجم الارهاب الفردى الذى يقوم به الثوار .

ومات الحزب الشيوعي الجزائرى ، وكفن فى أخطائه .

وبعد ذلك ..

بقى اتجاه رابع ، هو الاتجاه القومى العربى الاشتراكى ٠٠ وهو اتجاه الثورة الجزائرية ٠

اتجاه أول ملامحة الاحساس بالقرابة الوثيقة نحو توزيـــع الأرض على الفلاحين ، ورحى الثورة دائرة ٠

والحرص على الوقوف موقفا محايدا بين اتجاهات العالـم المتنازعة ٠

وأخيرا ٠٠ الحرص على أن يرقرف هذا الجناح الممدود بين العرب جميعا ٠٠ لغتهم ٠٠ ان مدارس الجيش تعلم اللغة العربية ، كما تعلم فنون الحرب والقتال انه ذلك الحرص الذى عبر عنه ـ بالفرنسية ـ شاعر الجزائر « مالك حداد » حين يقول :

ابى يا ابى

لماذا حرمتنى تلك الموسيقى المنسوجة من لحمى ودمى
انظر الى ٠٠٠ الى ابنك ٠

ابنك الذى يلقونه أن يقول فى لغة غريبة ٠

تلك الكلمات الحلوة التى كان يعرفها ٠

٠٠ عندما لكان راعيا ٠٠ يا الهى ٠٠

ما أشد وطأة الظلام فى عينى هذه الليلة ٠

أماه

ياأماه هل يمكن أن يكون اسمك

روز اليوسف ١٩٦١/١٢/١٨

مجلــس الثــورة الجــديد

حين تنتهى مهمة اللجنة التحضيرية « المعينـــة » تبدأ مهمة مؤتمرات الشعب ولجانه « المنتخبة » من المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الى مؤتمر الاتحاد القومى الى مجلس الأمة ·· وكل هذه تشكيلات منتخبة ، يختار فيها الشعب مندوبيه اختيارا مباشرا ، ويمتلك زمام ثورته ، ويصبح هو ـ بملايينه السبعة والعشرين ـ مجلس ثورتها الخالد ··

ومادمنا نتحدث عن الانتخاب ، فيجب أن نتحدث عن «الادارة» التى ستجرى هذا الانتخاب ، فى المصـــانع والمزارع ، والقـرى والبنادر ، والنقابات والهيئات ·· سواء منها الانتخـــابات التى ستجرى على مستوى أفقى أو رأسى ، فى مؤتمرى القوى الشعبية والاتحاد القومى ··

ان الادارة بطبعها جامدة ، غير متفتحة ، وقد كانت لجنـــة الانتخاب فى الماضى ، تنزل فى مقر الاقطـــاعى أو بيت العمدة ، وتمارس من قلعتها المزيفة اشرافها على الانتخابات وطائفة الموظفين عندنا قد ابتلاها الله فى كثير من الأحيان بالنزوع الى تكريم الثروة واحترامها ، والاستهانة بالفقر ، رغم معظمهم من أبنـــاء العمال

والفلاحين ، ولذلك فان من الواجب أن يكون هؤلاء المشرفون على الانتخابات فى مستوى عال من النزاهة والاشتراكية معا ·· النزاهة التى تقدس الحق والضمير ، والاشتراكية التى تدرك أن مسئولية بناء الوطن الجديد مسئولية خطيرة وتاريخية ··

ومن الواضح ان اللجنة التحضيرية حينما ارادت ان تستعرض القوى الشعبية لكى تمثل فى المؤتمر الوطنى ، رأت أن من واجبها أولا أن تحصر القوى غير الشعبية وتعمل على استبعادها ، ولاشك أن غربال العزل سيفلت منه الكثير ، وهنا تظهر أصالة الشعب حين يمارس حريته الانتخابية فى الخطوات القادمة ··

فتنقل مهمة العزل من اللجان الى المواطنين جميعا ، كما أن من واجب الشعب أن يضع أسسا جديدة لاختيار مرشحيه حتى لو كانوا جميعا من ضمن ما اصطلحنا على تسميته بالقوى الشعبية ··

ان العناصر التى نريدها فى التشكيلات القادمة ، يجب أن تكون أصلب العناصر ، واكثرها وطنيـــة وارتباطا بالجمهــور ، واعمقها وعيا اشتراكيا ، لأنهم يشكلون قمة مجلس الثورة الجديد ، الذى يشكل الشعب كله ·· قاعدته ··

روز اليوسف ١٩٦١/١٢/٢٥

عودة الأسد العجوز

الأسد البريطانى لوى جمال عبد الناصر ذيله فى عام ١٩٥٦ ، عاد يزأر من جديد هذه الأيام ..

ففى الكونجو ، كشف « أوبريان » مندوب هيئة الأمم ، الايرلندى الأصل ، وأحد رجال همرشولد المختارين ، عن دور الاستعمار البريطانى فى المشكلة ، فلقد كانت رءوس الاموال البريطانية هى الذراع التى تسند تشومبى ، وتقيم بنيانه المتهدم ، وتغطى وجه خيانته السافر ، بصحافتها ووكالات أنبائها ..

وقد كشفت الأيام الأخيرة من مأساة الكونجو ، عن التناقض بين الاستعمار البريطانى والامريكى ، فالبريطانيون قد ابتدأوا محاولة اقناع حلفائهم أنهم أقدر المستعمرين على فهم افريقيا والشرق الأوسط ، وتقدير القوى المختلفة فيها ، والتعامل مع الخونة والأذناب . وضرب القوة الوطنية النامية ..

لقد تبين من الفصول الأخيرة لهذه الازمة ، أن بريطانيا وفرنسا وبلجيكا جبهة واحدة ، وأن أمريكا حين لم تفز من غنيمة الكونجو بشىء آثرت الفوز بالاياب الخائب ..

وبريطانيا الآن تلعب فى الشرق الاوسط بعد لعبتها فى افريقيا ، ان القرن التاسع عشر يعود ، حين يتحرك الأسطول البريطانى من قواعده ، بأسلحته ورجاله ، على أثر خبر تتلقاه المخابرات البريطانية ٠ وانجلترا تظن أن تحرك الاسطول كفيل بأن يلقى الرعب فى المنطقة ، وبأن يهز القوى الوطنية ، وأن يدعم جبهة العملاء ٠٠

ولكن هل نحن فى القرن التاسع عشر ؟ لا ٠٠

ان فى المنطقة عاملا جديدا لم تحسب بريطانيا حسابه ، وهو الشعب العربى ، بغض النظر عن ملوكه وحكامه ، هذا الشعب الذى استيقظ على دعوة الحرية والثورة والاشتراكية ، والذى يؤمل فى مستقبله الموحد المتحرر ويسعى فى سبيله ، وسواء كان هذا التهديد الاستعمارى موجها ضد الكويت أو ضد العراق لاقامة حكومة عميلة سافرة ، أو ضد الجمهورية العربية المتحدة ، فان الشعب العربى سيدرك بنظرته السليمة وغريزته الوطنية الصافية ، أين يقف ، وعن أى شىء يدافع ٠٠

ان الأسطول البريطانى يقوم برحلة خائبة ، سيواجهها الشعب العربى ، ليفرغ بعد ذلك لحساب أولئك الخونة والعملاء والمخربين ، الذين يتنادون الأسطول البريطانى كلما ابتعد ، ويدعونه كلما رحل ٠٠ بتصريحاتهم الغريبة ٠ أو رحلاتهم المشبوهة ٠٠

ولنذكر ـ حين نتحدث عن الأسطول البريطانى كشف الرحلات الملكية الأخير ٠٠ الحسين بن طلال فى لندن ، وسعود بن عبد العزيز فى واشنطن ، ولاننسى شمعون فى باريس ، أن دورهم فى تصفية الحساب بعد أن يصفى حساب الأسد البريطانى ، ويلوى ذيله مرة ثانية ٠٠

روز اليوسف ١٩٦٢/١/١

مــلء الفــراغ !!

قضية الحزب السورى وانقلابه المخرب فى بيروت ، قضية تحتاج الى مزيد من التفكير ..

لقد نشأ الحزب فى عام ١٩٣٤ ، فى فترة ازدهار النازيـة والفاشية وتقلب الحزب بعد ذلك بين ألوان مختلفة من الولاء حين سقطت راية المحور ، فتارة يكون مواليا لفرنسا ، أو لبريطانيا ، أو أمريكا ، أو بغداد نورى السعيد ، أو عمان حسين بن طلال ..

والاموال تصل الى الحزب عن طريق كل هذه الجبهات المعادية لفكرة العروبة ، والاحصاءات تقول : ان عدد جماهير الحزب فى هذه المنطقة العربية يجاوز العشرين ألفا ..

فهل العشرون ألفا يتقاضون ثمن خيانتهم وانحرافهم .. ان من السذاجة أن نقول : نعم .. فالمرتشون والمستفيدون هم رءوس الحزب مثل أسد الأشقر وعبد الله سعادة وغيرهم ، وهم أعـداد ضئيلة لا تزيد عن العشرات ، أما البقية فهم جمـاهير مضـللة مخدوعة ..

ما سر الخدعة التى يلتف حولها هؤلاء العشرون ألفا ؟

لقد نشأ الحزب فى فترة فراغ سياسى فى العالم العربى ، فى عام ١٩٣٤ ، وكانت مصر الرسمية فى ذلك الوقت بعيدة عن فكرة العروبة وكانت الثورة العربية الاولى قد انحرفت الى الخيانة واقتسام الاسلاب ٠

وفى هذا الفراغ نشأ الحزب القومى السورى ، واستطاع بفضل مظاهراته وترتيباته وخلاياه ، وغير ذلك من مظاهر التنظيم المصطنع أن يجمع حوله بعض السذج ممن تستهويهم هذه المظاهر التى تشبه الألاعيب ٠

والآن ٠٠ بعد ثلاثين سنة ٠٠

ما زال هذا الحزب يمثل الخطر الاول على العروبة ، رغم أن العروبة قد أصبحت اتجاها ، ووعيا عاما ، وأسلوب حياة ، يتمثل فى دولة شريفة ، تفهم الاستقلال الحق ، وتعادى الاستعمار بصدق ٠

اذن ٠٠ نحن مقصرون تجاه هؤلاء العشرين ألفا من المضللين ٠٠ نحن كاشتراكيين قوميين عرب لم نستطع أن نعزلهم عن قياداتهم لنظل هذه القيادات مكشوفة ، معلقة فى الفراغ ٠

وحين أقول نحن ٠٠ لا أقصد « نحن » هنا فى الجمهورية العربية فحسب ، بل فى كل مكان عربى ٠٠ ان انتهازية البعثيين وسلبية بعض القوميين وتذبذب الاشتراكيين بين النظرية الجامدة والواقع الحى ، كل هذا هو المسئول عن وجود الحزب القومى السورى حتى الآن ، ووجود أشباهه من العملاء الذين يتسترون بالدعوات البراقة كالدين ، أو التاريخ ، أو الجنس والعنصر ٠٠

فليتحمل الجميع مسئوليتهم كطليعة ثورية ، ولنوحد كلمتنا ، ولنتنازل عن مطامحنا ، ونرتفع فوق ضعفنا الشخصى ، حتى يكون جبهة عربية قومية واسعة ، كلمتها واضحة ، وحجتهـــا مقنعة ، وقاعدتها الجمهورية العربية ، وزعيمها ·· الرجل الذى اختاره لنا التاريخ ·

وهذا وحده ، هو الذى يمنع المؤامرة القادمة ··

روز اليوسف ١٩٦٢/١/٨

نحو جبهـــة قوميـــة

الاستعمار قد رسم خريطة جديدة للعالم العربى ، وأعد خططه ومشروعاته ، ووضع القوة والمال فى أيدى رجالـــه لتنفيذ هذه الخريطة الجديدة ، حتى لو اصطبغت الوانها وخطوطها بالدماء ٠٠

لقد اتجهت المنطقة العربية الى الوحدة منذ أن عرفت ثـورة ١٩٥٢ واقعها العربى ٠٠ اكان اتجاه الوحدة قبل الثورة اتجاهـا حذرا مترددا ٠ فأصبح ٠ ثوريا حاسما ، وسرعان ما تغيرت خريطة المنطقة العربية ، فانضمت سوريا ومصـر فى دولة واحدة ، وارتفع شعار الوحدة غلابا قويا فى كل مكان ، حتى تبناه أعداؤه ، ورحب به خصومه ، طمعا فى خديعة الشعب ٠٠

والاستعمار لا يخشى الوحدة كرمز مجرد ، ولكنه يخشاهـا كواقع ثورى ، لا يخشى الوحدة اذا تمت على يد القوميين السوريين أو الحسين بن طلال ، ولكنه يخشاها اذا أصبحت صرخة جماهيرية، تعنى أول ما تعنى : الحرية والاشـــتراكية ، والقضـــاء على الاستعمار ٠٠

وهنا يتجه الاستعمار بدهائه الى محاولة سرقة شعار الوحدة

وتلويثه ، ومن هنا كانت الخريطة الجديدة التى رسمها الاستعمار للعالم العربى خريطة مزيفة •• الخط الأول فيها فصل مصر عن العروبة ، ومصر هى القلب النابض بين شرق العروبة وغربها ، هى الجسر الموصل بن أقصى الشرق والرباط فى أقصى الغرب ، كما أنها أكبر البلاد العربية تعدادا وثروة وأوسعها امكانيات ، والعروبة بدون مصر تظل مجروحة القلب ، لا أقول ذلك لأنى مصرى ، بل لأنه الواقع •• الواقع الذى تحدث عنه أستاذنا ساطع الحصرى ، وغيره من مفكرى العروبة ••

والخط الثانى هو مشروع الهلال الخصيب ، ودعامة هذا الهلال هو الحسين بن طلال ، والهلال الخصيب تحت سيطرة الاستعمار لن يكون له دور فى عالم العروبة ، مثل العراق تحت ظل قاسم ، فلقد ايقظ قاسم النعرات الطائفية والعصبية التى انقلبت الآن وبالا عليه ، والانجليز يعرفون أنهم فى سوريا ولبنان والعراق يستطيعون أن يوقظوا النزعات الفينيقية ـ القومية السورية ـ والنزعات الكردية والأرمنية بل ويوقظوا التعصب الدينى والطائفى ، ويضيع عندئذ طابع الدولة الجديدة العربى ، وتتبدد ملامحها القومية ••

ان العدو الاول للاستعمار هو فكرة العروبة المتحررة ، وهذا ما يجب ان نعلمه جيدا ، وللقضاء على هذه الفكرة يجب عزل القاهرة أولا ، وهذا مايجب أن يعلمه القوميين العرب فى كل مكان ، يجب أن يعلمه السوريون الذين خدعتهم المؤامرة ، والأردنيون الذين يكافحون حكم الملك الصغير ، والعراقيون الحائرون فى شخصية قاسم ، كل عربى مطالب بأن ينتبه •• اننا ندعوكم من مصر •• من القاهرة •• ندعوكم أن تنسوا كل شىء ، وتنظروا للقاهرة ، لأن عزل القاهرة عن العروبة •• معناه « الكارثة » •

ان القاهرة لن تبتعد عنكم ، فلا تبتعدوا عن القاهرة •• !

روز اليوسف ١٩٦٢/١/١٥

الشـــعار .. والحقيقـة

لا يستطيع أحد أن يقف فى وجه الاشتراكية ، او أن يعوق سبيلها ، وخاصة اذا استطاعت الدولة ترجمة الاشـــتراكية من شعارات الى حقائق ..

ان الشعارات من الممكن ان تزيف ، ويشوه وجهها ، من الممكن أن ترفع حكومة رأسمالية شعار الاشتراكية ، وتبتكر له من التفسيرات ماتشاء ، وتوهم شعبها لفترة من الزمن ، تحت تأثير ادوات الفشر المضللة ، أو الخطب الجوفـــاء ، أن ما يعيشـــون فى ظلـــه هو الاشتراكية ..

ولكن ترجمة الشعارات الى حقائق هى التى تثبت للاشتراكية ملامحها ، وترفع رايتها الحقة ، وتجعلها ابعد مـــدى من تزييـف المزيفين وخداع المفسرين ..

والحقيقة الاشتراكية الأولى بالنسبة للفلاح هى الأرض ، هى ملكيته للأرض التى سكب عليها عرقه ، وثوت فى عروقها عظـــام اجداده ، والحقيقة الاشتراكية الأولى بالنسبة للعامل هى المصنع ، الذى يقف أمام آلاته ، ويمنحها نور عينيه وفتوة شبابه ..

واشتراكيتنا العربية اشتراكية ايجابية ، دائمة الحركة ، دائبة التطور ، بل لعل الحقائق فى واقعها كثيرا ما تسبق الشعارات فلقد فكرنا مثلا فى قانون الاصلاح الزراعى يوم كنا نرفع راية « العدالة » لا « الاشتراكية وكان دافعنا الى هذا القانون هو فكرة الحق المطلق والاحساس الفطرى السليم ، دون نظريات أو شعارات، وحين رفعنا شعار « الاشتراكية » تلاحقت خطواتنا فى طريقها ، حتى أصبح المفكرون النظريون يلهثون جريا وراء الواقع الاشتراكى العملى ، يحاولون تفسيره ، واستنباط منطقه وأساسه الفكرى ..

وقد حاولت الحكومة الانفصالية فى سوريا ان تزيف الاشتراكية كشعار ، ولكنها اصطدمت بها كحقيقة ..

حاول رئيس الحكومة فى بيانه أن يومىء الى أن حكومته حكومة اشتراكية ، ترفع نفس الراية التى ترفعها حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، ولكن الخدعة مالبثت ان انكشفت عند التجربة والتطبيق .. هل تستطيع حكومة دمشق « وهى حكومة الرأسماليين» أن تبقى الأرض فى يد الفلاحين والمصانع فى يد العمال ، هل تستطيع أن تجعل العامل والفلاح يرفعان رأسيهما ، ويحسان أن البلد ملك لهما ، وأن الوزراء ورجال الحكم الذين يجلسون فى مقاعدهم الوثيرة هم مجرد طليعة ثورية للعمال والفلاحين والمثقفين ؟

لا .. وهنا ينفضح وجه الحكومة المزيفة ، التى اجترأت على سرقة الشعار ، فداهمتها الحقائق التى صنعتها ثلاث سنوات من الوحدة ..

وهاهى المعركة تثور فى سوريا ، وستظل المعركة دائرة حتى ينتصر الشعب .. وتنتصر الاشتراكية ..

روز اليوسف ١٩٦٢/١/٢٢

الرجـل الفـاضى

لست ادرى من ذلك الرجل الفاضى الذى يصمم استمارات الحكومة المطبوعة ، فيملؤها بعديد من البيانات التى لا يجاب عنها قط ، وتظل خانتها بيضاء ، ويدرك العقل والمنطق السليم انها لا لزوم لها ، ولكنها تتكرر فى استثماره ، كأنها استعراض للحذر والذكاء الذى لايفوته شىء ٠

مثلا :

امامى استمارة دفع ضريبة التليفزيون ، ومن البديهى ان انسانا لا يملك تليفزيونا لن يفكر فى دفع هذا المبلغ متبرعا ومتطوعا ، ولو كنت سآخذ الجنيهين والنصف بدلا من أن ادفعهما لوجب الحذر والتحقق من شخصية صاحب الاستمارة ٠ ولكن هذه الاستمارة التى سأدفع بموجبها تطلب منى رقم بطاقة شخصيتى والجهة المستخرجة منها ، ورقم تليفونى (ان كان موجودا) ، ومعظم الناس طبعا ليس عندهم تليفون ، ورقم تليفون عملى ، واسم التاجر الذى اشتريت منه الجهاز ٠ ورقم شاسيه الجهاز ٠٠ الخ ٠٠

وهذه الصورة صورة بسيطة ، ولكن هناك استمارات اخرى ، تطلب بيانات لها العجب ، ونحن نكتفى عادة بملء بضعة أسطر منها

ونترك الأسطر الاخرى بيضاء ، وكثيرا ما يقول لك الموظف المسئول اترك هذا السطر ٠٠

فاذا كنت اتركه ٠ فلماذا كتبتموه ؟

وهذه الظاهرة تتكرر فى استمارات الضرائب والعوايد وعقود النور والتليفونات والبيع والشراء ، بكل أنواعه ، وربما كانت استمارة التليفزيون أخف من غيرها ٠٠

واعتقد أن تعقيد هذه الاستمارات هو أحد أسباب تعقيد الأداة الحكومية ٠ فان المنطق الذى يوجه الاداة الحكومية من ناحية المال والدفع والصرف ، هو منطق الشك فى لصوصية الناس ، ولذلك يتخذ واضع اللائحة كل الطرق الكفيلة لكى يحافظ على مال الدولة ، فيضع القيود ويكثر من الامضاءات والمراجعات ، وتتعدد جهات الاختصاص ، ناسيا أنه يضع مع كل قانون جديد وسيلة لحرقه ومخالفته ، وان ما قد يضيع من مال الدولة عن طريق الاجراءات الطويلة ، وضياع الوقت الثمين ، وتعطيل الاعمال ، أكثر ألف مرة مما قد يضيع عن طريق قلة قليلة من خربى الذمة وضائعى الضمير ، كما أن هذه الاجراءات الطويلة لن تمنع مخادعا من أن يخدع ، أو مرتشيا من أن يرتشى ٠٠ بل لعلها ساعدت على ذلك ٠

فلتكن عقلية الاداة الحكومية من ناحية المال ، مؤمنة بالسرعة وبالحسم فى التنفيذ وبتسهيل الامور ، بدلا من ايمانها بالشك فى الناس ٠٠

روز اليوسف ١٩٦٢/١/٢٩

ابتسامة للفلاحين !

القرية تبعد عن القاهرة مائة وعشرين كيلومترا ، وترقد على حافة الصحراء الغربية ، وزمام أرضها أربعة آلاف فدان ، وعدد سكانها ستة آلاف نسمة ونصف الارض كانت مملوكة للاقطاع ، ولم توزع بعد واسم القرية « دلاصى »

هذه هى القرية التى اتجهت اليها قافلة الثقافة ، كان عشرة فقط من أهالى القرية يلبسون جلبابا نظيفا · وثلاثة من كل خمسة منهم لا يعرفون عبد الحليم حافظ وتسعة من كل عشرة لم يدخلوا السينما مرة واحدة فى حياتهم ، ونحن يتقدمنا ثروت عكاشة ، نجلس بينهم ، ونرقب انفعالات وجوههم ، وهم يشاهدون المسرح والسينما والغناء ، ربما لأول مرة منذ انفتحت عيونهم ·

كنت أبحث فى وجوه الفلاحين عن تعبير واحد ، اذا وجدته ازدادت سعادتى ، وأحسست بنجاح التجربة ، واذا غاب عن هذه الوجوه الهضيمة والعيون المرقبة ، أحسست أننا لم نصنع شيئا ··

كان التعبير الوحيد الذى أبحث عنه هو السعادة ، هو الابتسامة ، هو الضحك ، وكنت حين أسمع قهقهة فلاح ، يقهقه قلبى فرحا ·

لقد كانت الحكومة عند الفلاح دائما زائرا مقيتا مكروها ، أن الحكومة هى عصا عسكرى البوليس ، ودفتر المخالفات الذى يحمله معاون الزراعة ، وورقة المحضر الذى يحجز على الماشـية ٠ ان « الأفندى » هو آخر ما يريد الفلاح أن يراه فى حياته ، وهاهو سرب من « الافندية » يلبسون بدلا نظيفة ، ويقدمون للفلاح مايسـعده ويضحكه ويملأ قلبه بهجة ، وعلى رأس « الافندية » وزير ، يبتسم لهم ، ويبتسمون له ٠٠

وقد حمدت الله فى هذه التجربة ان المحافظ قد تغيب عن الحفل فتغيب تبعا لذلك مدير الامن ومأمور المركز وكبار ضباط البوليس ، والف عصا غليظة على الأقل ، كانت جديرة بأن تشرع فى أيـدى العساكر ، وسهرت البلدة الى الثامنة والنصف مساء ، وكانت ليلة عيد تحتفل به القرية على اضواء كشافات القافلة ٠

والبرنامج ٠٠٠٠

بعضه فعلا يبعث على الضحك ، ويملأ القلب بالسـعادة ، وبعضه ثقيل ٠٠ عسر الهضم ، فبدلا من فيلم كدعاء الكروان،أعرض عليهم فيلما فيه العمـائر التى يسـمعون عنها والسـيارات التى لـم يروهـا ، والعصـر الحديث الذى لا يعرفونـه ، واجعل غايتك هى الاسعاد ، هى الاضحاك ، بأكثر معانيه سذاجة ٠

ولكن التجربة مفتوحـة ٠٠ والوزير يطـالب المثقفين أن يشاهدوها ، وأن يفكروا معه والغاية هى أن تعود الفلاح أن يبتسم ، لأن عهود الاقطاع والرجعية قد عودته أن يحمل الهم ٠

روز اليوسف ١٩٦٢/٢/٥

الفن .. والقانون .. والتنظيم السياسى

كان ارسطو يقول : « لست أبالى اذا انا وضعت اغانى أمة ان يضع غيرى قوانينها » والاغنية فى عصرنا الحديث هى كل مايتغنى به الشعب ، كل ما يتجه الى وجدانه ويصل الى هذا الوجـــدان ، فيشكل بعد ذلك لونه ونظرته الى الحياة ويلون نعمه بالوانه ، هى الفن والثقافة بكل الوانها ٠

والقانون يفرض ويأمر ، ويضع العقوبة نصب العين ، ولكن الفن يناشد ويتلطف ويلوح بجنة السعادة الوجدانية ونعيمها والقانون يعامل الافراد كمجموع ، والفن يعامل المجموع كأفراد ، كأنه يصوغ كل انسان على حدة ٠

ومن هنا كان الفن اقـــوى فى نفس الانســـــان من القانون وتمنى المعلم الأول ان يصنع الاغنية ، ولا يصنع القانون ، ولكى تكون لنا ثقافة سليمة ينبغى ان نفكر فى علاقة منتجى الثقافـــة بالاتحاد الاشتراكى ووضعهم فى داخل تنظيماته ، وضمان انفعالهم به وانفعاله بهم ٠

ولكى تبدأ من بداية ينبغى ان نسأل : ماهى الثقافة السليمة التى يجب ان تعمر قلوب الشعب الاشتراكى !

وفى اجابتنا على هذا السؤال علينا ان نسترشـــد بخبرات التاريخ ومواقع اقدامه ·

لقد كانت تجربة حصر الثقافة فى نطاق خدمة الحياة اليومية، وسط الشعارات السياسية وترجمتها ، تجربة خاطئة خـــرج منها الساسة والقانون مجهدين · انك لا تستطيع ان تفرض على الفنان موضوعا بعينه ، وزاوية رؤية بذاتها ، ومرسما لانتاجه ، وصورة لتفننه · ولو فعلت ذلك فانك لن تحصل منه الا على اسوأ جوانبه ·

وليس هذا مجال الاطاحة فى هذا الموضوع ، فمعظم الدول الاشتراكية قد تراجعت عن وجهة النظر تلك ، بعد معركة « ذوبان الجليد فى الأدب ، ونقد التحكم الفردى فى السياسة ·

وليست الحال فى مجتمع « دعه يعمل ، دعه يمر »(*) ، حين بلغ أقصى انطلاقه فى صورة الراسمالية الحديثة ، ليســت هذه الحال حالا مناسبة لأمة تبنى نفسها من جـــديد وتعتنق شـــعار الاشتراكية ·

القيم والقوانين ·

وقد يقال انه لا احتكارات ولا رأســمالية فى وطننا العربــى الجديد ، ولكن هل يكفى التنظيم الاقتصادى للقضاء على العقلية الاحتكارية الفنية ! ان القيــم الاجتماعيـــة لا تتغير بالقـــرارات ولا بالقوانين ·

وتحت يدى الآن الترجمة العربية لكتاب « ت · س · اليوت » المعروف «ملاحظات نحو تعريف الثقافة » واليوت يمثـــل قمـــة النضج الفكرى فى المجتمع الراسمالى · وفى هذا الكتاب يدافع المؤلف عن النقاط الآتية :

● وجوب وجود طبقة ارستقراطية تتوارث الثروة والنفوذ ، لكى تنتقل من خلالها الثقافة ، وتفرض حمايتها عليها ·

(*) المجتمع الرأسمالى فى صورته المتطرفة

● دور الاستعمار فى النهوض بالمجتمعات المتاخرة ٠

● ربط الثقافة بالدين ، حتى انه يقول ان الثقافة هى تجسيد للدين بالمعنى الذى نجده لكلمة « تجسيد » فى الديانة المسيحية ومن البديهى ان « البرت » ليس كاتبا سياسيا ، ولا رجـــلا من اعمدة الامبراطورية ولا موظفا عموميا فى وزارة المستعمرات ولكنه شاعر وناقد وفنان ، وكل ما هناك انه ابن مجتمعه وعصره ووطنه ، وهو حتى حين يلبس رداء الحياد منحازا الى بيئته ومفاهيمها ، قاصر الرؤية ٠

ثقافة وطنية جديدة

نحن اذن فى حاجة الى ثقافة وطنية جديدة ــ هنا فى الجمهورية العربية المتحدة ــ ثقافة موازية لصورة المجتمع الجديد ، ولكنها ليست ظلا باهتا من ظلالها ٠ واذا كان المجتمع الاشـــتراكى هو مجتمع الكفاية والعدل ، فان الثقافة الجديدة ، ينبغى ان تكون هى ثقافة الصدق والمباشرة ٠

وكفاية الانتاج وتجويده فى الصناعة تصبح فى الأدب مرادفة للصدق فى التعبير عن النفس ، والثراء فى التجربة الانســانية فى ابتكار الوان التعبير ، والانفتاح على التيارات الجديدة فى الفن ، بل تصبح استيعابا قادرا للمذاهب الجديدة ، وتمثلا لها ، وولعا بالمغامرة الفنية والأدبية وبحثا متعمقا فى التراث العربى والانسانى ودراسة متمعنة القيمة الخط واللون والنغمة والصورة كقيمة مفردة وكعناصر بناءة ٠

ان ثقافة الصدق عمل جاد منظم يحس خلاله الفنانون بارتباطهم الوثيق بأوراقهم واقلامهم وريشتهم ، ويحسون خلاله أيضا بأصالتهم كافراد ٠ وينفتحون ويزدهرون الى ما لا نهاية ٠

والصدق الواجب للفنان هو صدقه نحو الفن ٠

اما العدل فى التوزيع فى المجتمع الاشتراكى فان نظيره فى ميدان الثقافة هو وصول الثقافة الى اكبر قدر ممكن من الناس .. الثقافة الجيدة التى تزيد قلب الانسان ثراء وغنى .

ان الفن الاشتراكى اذن هو كل فن جيد ، مخلص ، عميق .. من الموال الى السيمفونية ، ومن قصيدة الحب الى ملحمة البطولة، من اللوحة التجريبية التى تدرس اللون والضوء الى صورة من صور بطولتنا .

ولكن .. ورغم مطالبنا بالعفوية والازدهار التلقائى .. ينبغى ان تكون الصورة العامة لثقافتنا صورة متفائلة ، مرتبطة بالناس . والفنانون بطبيعتهم انطوائيون وفرديون . ومن هنا كان وجوب التفكير فى خلق الارتباط بين الفنانين وبين الاتحاد الاشتراكى لكى تعمق صلتهم التلقائية المعنوية بالشعب ، ولكى ينفعلوا به وينفعل بهم .

ان كثيرا من الانحرافات الفكرية ترجع فى اسبابها الى ضعف الرؤية أو قصورها وقد تعرضت بنفسى لتجربة غريبة . كنت اسمع عن قانون الاصلاح الزراعى وانه لم يحقق نتائج مرضية ، وذات يوم سنحت لى فرصة لزيارة كل مناطق الاصلاح الزراعى ، وعندئذ فقط ، من خلال الرؤية المباشرة الواسعة تبينت مدى نجـــاح هذا القانون ، ومدى عظمة تلك التجربة . وتمنيت لو تتاح هذه الفرصة لغيرى من الكتاب ، لأن كلا منهم سيجد نوعا لفنه ، أو توســـعا لزاوية رؤيته .

ومن هنا كان من الواجب ان ينشأ تنظيم واسع قوى للفنانين، يشمل الادباء والموسيقيين والســـينمائيين والفنانين التشـــكيليين والمسرحيين وغيرهم ، على ان ينقسم الى اتحادات فرعية لكل فن من الفنون وتنقسم تلك الاتحادات بدورها الى تنظيمات فرعية لكل

فن من الفنون فيكون هناك مثلا تنظيم للقصاصين ، يمثل جزءا من اتحاد الأدباء الذى يكون بدوره جـــزءا من تنظيـــم الفنانين الواسع ٠

وهذا التنظيم بدوره ، هذا التنظيم الكبير هو جزء من جسم الشعب الحى ، جزء من الاتحاد الاشتراكى العربى ، جزء لا يتبعه ولكنه يتحرك معه ٠ وبحركة فى ناحية من النواحى ٠

وتكون مهمة هذه الاتحادات الأولى هى :

● تنظيم صلة الاستيحاء والرؤية المباشـــرة بين الفنانين والشعب بالرحلات واللقاءات والقرارات الأدبية والعروض الفنية ٠

● دراسة وسائل تطوير الانتاج الفنى وتفهمه بين المتلقين والاشراف الفنى على اتجاهات مؤسسات النشر والانتاج السينمائى والمعارض الفنية وترجمهها ٠

● ان تكون هى ـ لا الحكومة وأجهزتها الادارية ـ السلطة الرقابية على الاعمال الفنية ٠

● ان تشجع التجارب الجديدة فى الأدب والفن ، وتحمى البراعم الشابة من الذبول تحت وطأة اقرارات الحياة اليومية أو النجاح السريع ، أو الكل ٠

ومن البديهى ان مجالس هذه الاتحادات ينبغى ان تكون منتخبة انتخابا حرا من الأدباء والفنانين ٠ ومن البديهى أيضا ان السياسة العامة ينبغى ان تكون هى نقل سلطات الاجهزة الادارية فى مجال الفن والثقافة الى هذه المجالس المنتخبـة على المـــدى البعيد أو القريب ٠

الأهرام ١٩٦٢/١٢/١٩

الثقافة العربيـــة المعاصرة فى ظل البناء الســـياسى الجديد

كان الميثاق الوطنى تجسيدا للرؤية الواضـــحة للنظريـــة السياسية التى اهتدت اليها ثورة عام ١٩٥٢ ، وكان اعلان البــدء فى تنظيم الاتحاد الاشتراكى تجسيد لايمان الثورة بأن الشعب لابد أن يحمى ثورته ويصنع خطواتها القادمة ٠

ومن البديهى ان لكل ثقافة طابعا قوميا ، وأن الثقافة الوطنية الجديدة ينبغى أن تكون ثقافة عربية ملائمة لتطلعات الشعب وأماله، ونحن نستطيع بسهولة واضحة ، أن نلحظ التوازن والتقارب بين طابع حياتنا السياسية وطابع اهتماماتنا الثقافية منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الآن ، بل لست أغالى اذا قلت ان دراسة الفكر المصرى بخاصة والعربى بعامة فى تلك الفترة جديرة بأن تكشف لنا حقل السياسة المصرية ٠ وجديرة أيضا بأن تلقى الأضواء على كثير من المواطن الشاحبة الضوء فى تاريخنا السياسى ٠

وحين نستطرد مع هذه الدراسة للفكر المصرى نستطيع أن نجد السبب الدافع الى اختيار العروبة طريقا للحياة والاشتراكية أسلوبا لتنظيمها ٠ وهذا التكافل بين دور الفكر الوطنى فى مصر

منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وبين تطورات السياسة المصرية لابد أن يجعلنا أكثر فطنة واهتماما بالثقافة والفكر ، بحيث ندرك الأهمية البالغة لتحديد طابع فكرنا العربى فى مصـــر ، ودوره ، ووجوب حمايته ·

ميلاد الفكر الحديث

واذا كانت مصر الحديثة قد ولدت منذ مجىء الحملة الفرنسية فكذلك كان الفكر المصرى الحديث · ولعل الى قريب من هذا اشار الميثاق الوطنى حين قال « على ان الحملة الفرنسية جاءت معها بزاد جديد لطاقة الشعب الثورية فى مصر · فى ذلك الوقت جاءت ومعها لمحات من العلوم الحديثة التى طورتها الحضارة الاوروبية بعد أن اخذتها من غيرها من الحضارات والحضـــارة الفرعونية والعربية فى مقدمتها ··

وقد كان طابع الحياة الثقافية فى مصر فى المـــدى الطويل الخصب للقرن التاسع عشر يتأرجح بين محورين هما : العثمانية والمصرية ·

اما العثمانية فلقد كانت تفسيرا منحرفا للولاء الدينى ، بحيث أصبحت الخلافة العثمانية ممثلة لهذا الولاء الدينى – وهى من الدين براء – وساعد على انتشار هذا الولاء قيام الدولة العلوية وضعف الصلة التقليدية بين ماضى مصر وحاضرها ·

كان هؤلاء المفكرون العثمانيون والمصريون فى ذات الوقت لايرون لهم قومية الا فى الديـــن ، ولا يقربون من ثمرات الفكر الا كتابات السلف الصالح · ويمكننا تتبع هذا الاتجاه حتى نصل الى قمته عند الشيخ محمد عبده ، وهو أكثر السلفيين استنارة ، حيث يحدثنا تلميذه الشيخ رشيد رضا انه كان يرى الايمان بالخلافـــة الاسلامية ثالث مظاهر الايمان بعد الشهادتين ·

والى جانب هذا الاتجاه الفكرى كان هناك اتجاه «المصرية» ومن البديهى ان هذا الاتجاه لم يولد الا فى احضان التاثر بالحضارة الاوروبية ، وتحت تاثير المفهوم الاوروبى لكلمة « الوطن » و«المواطن» و« المواطنة » ، وقد استعار المرحوم « رفاعة الطهطاوى » اعظــــم شخصية فكرية هذه الكلمات من تراث الثورة الفرنسية حين أقام فى فرنسا حوالى عام ١٨٣٠ ، فعاد يبشر بالوطن ومحبة الوطن ، وهو يقصد مصر لا الاستانة ، ومن عبارة رفاعة الطهطاوى خرج هذا المفهوم الجديد للوطن ، وتبعه مفهوم جديد للفكر · اما الوطن فهو مصر ونيلها وسماؤها وترابها وتاريخها ، اما الفكر فهو ذلك الفكر المصرى الحر المتطلع الى تراث الحضارة الاوروبية المترجم لثمراتها

المراهقة الفكرية الأولى

على ان خيرات أوروبا الفكرية حين قدمت الى مصر على ايدى المترجمين لم تكن خالصة غير مسممة،فقد قدمت معها طلائع الاستعمار الاوروبى ، اضف الى ذلك ما فى الطبيعة البشرية من ولع المغلوب بتقليد الغالب ، الذى يشبه ولع المراهق الضـــعيف بتقليد القوى واحتذائه · وقد كانت نتيجة ذلك ان بعض مفكرينا لم يقفوا وقفة الأحرار الاصلاء تجاه الفكر الاوروبى ، بل صفقوا أمامه ، وظنوه كاملا لايشوبه النقص ، ولم يفطنوا الى ان « مشعل الحضارة ينتقل من بلد الى بلد » وان ديننا لاوروبا لايزيد عن دين أوربا نحونا بوصفنا من ارباب الحضارات السابقة وليس عهد الدعوة الى ان نولى وجوهنا شطر البحر الأبيض وننزع أنفسنا من دائرة الشرق ليس عهد هذه الدعوة ببعيد · ولعل من نتائج هذه الدعوة ان انعزلت سياستنا فى داخل حدودنا ، وعمت عيوننا عن ادراك الواقع العربى ابتعدنا عن مشاكله · ان العهد الذى كان يجسده هؤلاء فى الفكر كان يجسده سعد زغلول فى السياسة · وقد كانت ثورة ١٩١٩ هى

أصدق تعبير عن ذلك الاتجاه فكريا وسياسيا · وقد ساعد على ذلك أن النزعة العثمانية لقيت حتفها بفعل التاريخ · فأصبحت كلمة الوطن عندئذ تعنى « مصر » وحدها ، بحدودها الجغرافية المعروفة، وتمكن عندئذ طابعان ثقافيان اساسيان أران ، يستقبلهما المثقفون بنوع من الترحيب المقرون بالاستسلام ، وهما الطابع الانجلوسكسونى والطابع اللاتينى الفرنسى ، حتى قال أحد المفكرين مرة ان المثقفين المصريين مرضى بأحد مرضان « هما الانجلوفونيا » أو « الفرانكوفيليا » · ولكن مما لاشك فيه أن هذه المراهقة الفكرية كانت مثمرة فى الفكر الء حد كبير ، فهى التى أفردت لفنون المسرح والمقالة الادبية والقصة القصيرة والطويلة مكانتها ، وهى التى أرست للمنهج العلمى فى تذوق الأدب ونقده دعائمه · ولكن هل هناك خير خالص ·· ؟

التوازن

لقد كان التوازن فى السياسة اقرب منه فى الفكر · وكان هذا التوازن هو الاهتداء للعروبة · والميزة الحقيقية للدعوة العربية انها تأكيد لواقع ومستقبل بقدر ماهى اسم لتراث مشترك بل لعل وحدة الامل هى أهم عناصرها ·

واللغة هى وعاء التفكير ، والتفكير هو خطة العمل ، ومن هنا كانت اللغة وكان الفكر الدعامة الأولى للوحدة العربية · وقد كانت فكرة القومية العربية مختفية أولا فى ضباب « العثمانية » بوصفها تفسيرا منحرفا للدين ، وثانيا فى ضباب المراهقة الفكرية ، والرغبة فى الانتماء للغرب فى فكره وثقافته بنوع من التسليم المطلق ·

والآن كيف يكون طابع الفكر العربى الحديث ؟

ان الثقافة العربية الحديثة يجب أن تنمو فى اتجاهين رئيسيين هما : العروبة أولا والمعاصرة ثانيا ·

وهى عربية اللغة والطابع والتصور · وهى معاصـــرة فى أفكارها وأشكالها والمشكلات التى تواجهها ·

يجب ان نستفيد من الحضارة الاوروبية بأكبر ماتستطيع ، دون أن بنكر جذورنا ، ودون أن نتوهم ان كل ماتنتجه أوروبا زائف فنلقى به فى البحر ، أو مقدس فنبعده ، ودون أن نتوهم أيضا ان هذه الحضارة الاوروبية صنيع أوروبا وحدها · فالعالم كله وحدة وكذلك فكره وحضارته ·

وثقافتنا العربية الجديدة يجب أن تحذر من اتجاهين :

أولها : « العثمانية » الجديدة ·· أولئك الذين يكرهون كل جديد ، ويدافعون عن التراث بخيره وشره باستبسال وضراوة ، يجب ان نحذر هؤلاء فى حقل الثقافة كما نحذر الرجعيين فى حقل الحياة السياسية العامة ·

وثانيهما : أصحاب المراهقة الفكرية الثانية : وهم المقلدون المستسلمون لكل مايفد من وراء البحر ، الذين يريدون أن تنزع الصلة بيننا وبين واقعنا العربى وبين تراثنا بخيره وشره ·

ان انسان الميثاق ·· الانسان العربى المعاصر ، بحاجة الى فكره العربى المعاصر ، وكما اخذ الميثاق من واقعنا ، وحلق به فى سماء المعاصرة المالية ، كذلك يجب أن يصنع الفكر ·

وانسان الميثاق عندنا فى بدء ولادته ، وكذلك الفكر العربى ·

الأهرام ١٩٦٣/١/٢٢

لمـاذا تتدخل الدولة فى صناعة النشر ؟

أتاح لى عملى ـ كمسئول ـ باحدى مؤسسات النشر التابعة للدولة ان المس ما تبذله الدولة من جهد ومال لاتاحة الكتاب بكثرة قارئة جديدة تنمو مع الأيام وبتزايد عددها ، وفى الوقت ذاته أتاح لى هذا العمل فرصة رؤية جوانب أخرى من الموضوع ، ودفعنى الى التفكير فى مستقبل هذه الادوات الثقافية التى تشـرف عليها الدولة ، وطرق مواجهة أوجه النقص فيها ، والوصول بهـا الى أعلى مستوى ممكن من الكمال ٠

ومن البديهى ان اسهام الدولة فى صناعة النشر أمر قديم ، ففى ظل الحكومات المتوالية التى حكمت مصر قبل الثورة ٠ وخاصة فى الفترات المتأخرة ، كان يرتفع أحيانا صـــوت المثقفين مطالبا بترجمة بعض روائع الأدب العالمى ، أو باصدار بعض الكتب الضخمة التى يعجز الناشر الفردى عن اصدارها ، وعندئذ كانت الحكومات تتصدى لمثل هذا العمل ٠ ومثال ذلك ان دار الكتب قد اصدرت بعض مجموعات من التراث العربى القديم ٠ كما ان ادارة الترجمـــة بوزارة المعارف العمومية (وقتئذ) قد اصدرت بعض المترجمات الهامة ٠ ولكن كل تلك الاعمال لم تكن تخضع لخطة منظمة ، أو تستهدف غاية معينة ٠ بل هى نوع من « المبادرة الخيرية » التى

تتم أحيانا فى ظل الرأسمالية والتى تفترق كثيرا عن التخطيط الاشتراكى لنشر الثقافة وهو ماتحاول الدولة الآن أن تصنعه ·

ولعل أول خطوة من خطى تدخل الدولة كانت مشروع « الالف كتاب » الذى صدر من وزارة التربية والتعليم ، ثم انتقل عنها الى التعليم العالى ، وقد حقق هذا المشروع كثيرا من النتائج الطيبة · ثم اصدرت مصلحة الاستعلامات فى أوائل فترة المد القومى فى عام ١٩٥٦ مجموعتين من الكتب السياسية والقومية · وتحول هذا الفرع من نشاط مصلحة الاستعلامات الى « الدار القومية » ، وفى مارس عام ١٩٦٢ صدر قرار جمهورى بانشاء المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر واتباعها لوزارة الثقافة ·

وصورة تدخل الدولة فى صناعة النشر الآن تزدحم بالتفاصيل والكتب التى تصدرها المؤسسات وبيوت النشر التابعة للدولة كثيرة وملاحقة ، ومن واجبنا الآن بعد ان اجتازت هذه التجربة سنوات طويلة من عمرها أن نتوقف قليلا لتناقش ماقدمته هذه الكتب والمطبوعات ·

أهداف الدولة

تستهدف الدولة من تدخلها فى صناعة النشر أمرين هامين :

الهدف الأول هو توجيه الثقافة العربية بحيث تستطيع أداء دورها فى خلق المواطن العربى الجديد المؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية · وتلك ليست غاية سهلة · والذين يتوهمون ان نفسية المواطن تتأثر بالشعارات أو بالثقافة الضحلةجد واهمون·فقد خربت قرون كثيرة من الاستعمار التركى والاوروبى نفسية شعبنا العربى ، وقضت أو اوشكت ان تقضى على المفاهيم التقدمية فى التراث العربى ، كما انها حالت بيننا وبين ثمرات الفكر الاوروبى المتقدمة، بحيث أصبح من واجبنا أن نعيد النظر فى تراثنا لننقل الى الاجيال

القادمة ما يصلح منه للبقاء ، ويكون دافعا للحياة والنماء والتجدد ، كما أصبح من واجبنا ان نتلقى ثقافة العالم كله بعين مفتوحة ونفس متبصرة ، فنسمح لكل التيارات ان تهب على بلادنا دون ان نسمح لاحدها ان يقتلع جذورنا ٠

والاشتراكية فى حاجة الى المواطن الجاد المتأمل لا الى المواطن الذى يتلقى الثقافة العابرة بالنظرة العابرة ٠ وعلى اكتاف هذاالجيل قد القيت المهمة التاريخية التى تتلخص فى تحويل الأمة العربية من أمة سلبية الى أمة ايجابية ٠ ومن هنا كانت ضـــرورة التزام المستوى المدروس فى كل ما نقدمه غذاء للشعب ٠

ان الدولة اذن قد استهدفت ان تعمل فى مستويين : المستوى الأول مستوى الاتساع ، حين تنشر التراث القديم كما تنشر الفكر الحديث ، وحين تطوف هذه الكتب بين أوربا والشرق الاقصـــى وأمريكا وتاريخنا القديم ٠ والمستوى الثانى مستوى العمق حين نلتزم الجدية فى كل ما نقدمه حتى ولو كان ملزمة صغيرة أو كتبا صغيرا ٠

أما الهدف الثانى فهو توسيع القاعدة القارئة ٠ ومما يبهج النفس أن بعض الكتب التى تصدرها الدولة يصل توزيعهـــا الى عشرين الفا وخمسة وعشرين الفا ، وذلك رقم كبير بالنسبة لمعدل توزيع الكتاب العربى ، ولكننا اذا أدركنا ان تعداد الشعب العربى يبلغ حوالى مائة مليون لتفاءلنا ان توزيع الكتاب العربى سيصل الى أرقام متضاعفة وبخاصة حين تزداد وحدة العالم العربى وتنسيقا ٠

الوحدة الثقافية

هذان هما الهدفان اللذان تستهدفهما الدولة : توجيه الثقافة العربية وتوسيع دائرة القارىء العربى ، وهـذان الهدفان همـا

اللذان يحققان هذه الوحدة الثقافية التى هى احد الجدران الصلبة للوحدة العربية ، ولو احسسنا بهذا المعنى لاستشعرت ضـــمائرنا جسامة المهمة وعظم المسئولية ٠ ولادركنا ان تقصـــيرنا فى هذا الحقل قد يكون من حيث لا ندرى عاملا ضارا مؤثرا على كيـــان الوحدة العربية السياسى وبنائها المادى ٠

ولعل اخطر ما تمر بـــه هذه التجربة الآن هو تعدد الاجهـــزة العاملة فى هذا الحقل ، واختلاف فهمها وتقديرها للهدف الذى نعمل من أجله ، فمن هذه الاجهزة نجد مشروع الألف كتاب بوزارة التعليم العالى ، ودار الكتب ، والمجلس الأعلى لرعـــاية الآداب والفنون ، ومصلحة الاستعلامات ، والدار القومية للطباعة والنشر ، والمؤسسة العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، والمجلس الأعلى للبحوث الاسلامية وغيرها ٠

وكل جهة من هذه الجهات تعمل بمفهوم يختلف عن الجهات الأخرى والقليل منها يلتزم الخط الاشتراكى التحررى فيما يقدمه من أعمال ، ويربط بين الانتاج وبين خطط الدولة لخلق المواطـــن الجديد وتكوين ثقافته ومن هنا كان من الواجب ان يعاد النظر فى تكوين هذه الأجهزة ومهماتها ٠

قضية التخطيط

ولعل من الواجب اشراك صفوة المفكرين الاشتراكيين فى عملية التخطيط لهذه الاجهزة ٠ وقد يكون من الأصوب ادماج كل جهـــات النشر فى جهاز واحد قوى فعال ، تتوفر له كل الادوات الفنية من حيث الطباعة والاخراج ، وكل الفرص المواتية لسهولة النشـــــر والتوزيع ٠ ولن يفيد هذا الجهاز الجديد المقترح فى شىء أن يعهد بالتخطيط له وادارته الى البيروقراطيين من موظفى المكاتب جامدى الثقافة ٠ بل لعل نقطة البدء هى اشراك المفكرين الاشـــتراكيين

القوميين كما سبق ان قلت ، وقد رأيت فى يوجوسلافيا شبيها بهذه التجربة اذ يتكون مجلسان عادة لمؤسسات النشر ، احدهما ادارى لتنظيم عمليات النشر واصدار الكتب ، والآخر فكرى من الادباء والمفكرين ، للتخطيط والتوجيه واستقبال الاعمال الفنية والادبية الجديدة وتقويمها ٠

ولو وضعنا هذا المشروع فى قلب نظام المؤسسات العامة عندنا ، لكان الزاما علينا ان تنشىء مؤسسة عامة للنشر ، تضم كل أجهزة النشر فى الدولة ، ويتكون مجلسها من مجموعة من المفكرين الاشتراكيين القوميين المشتغلين بالحياة الفكرية والأدبية ٠ وتكون مهمة هذا المجلس هى التخطيطوالتوجيه ، ثم يتفرع من هذه المؤسسة ثلاثة أجهزة قوية قادرة ، أولها جهاز للنشر بحيث يصدر الكتاب فى أعلى مستوى فنى من حيث ألوانه ورسومه وخطوطه ودوقه ، ويصبح هذا الكتاب حين يلقى فى السوق دليلا على تقديم صناعة النشر ، ويتضح المبرر الفنى لتدخل الدولة فى هذه الصناعة وثانيها : جهاز للطباعة يضم جميع المطابع التى تملكها الدولة ، وينسق بينها ، ويدير آلاتها ، ويستورد المطابع الجديدة ويدار ادارة فنية اقتصادية ٠ وثالثها : جهاز قوى للتوزيع يجعل دائرة نشاطه العالم العربى كله ، ولعله من المؤسف ان مطبوعات دور النشر الفردية تملك جهازا للتوزيع فى العالم العربى لا تملكه ولم تستطع ان تصل الى مستواه مؤسسات الدولة مع وفرة امكانياتها ٠

الأهرام ١٩٦٣/٤/٢٠

مؤتمر الأدبـــاء العرب ..
لمـــاذا لا يعقد فى الجزائر !

انعقد مؤتمر الأدباء العرب ثلاث مرات من قبـــل ، مرة فى دمشق ، ومرة فى القاهرة والثالثة فى الكويت ، وكانت المؤتمرات الثلاثة ، رغم ما حدث من اضطراب فى مؤتمر الكويت ، فرصـــة للادباء العرب كى يتعارفوا ، ويتناقشوا فى المشكلات الادبية والفنية التى تواجه انتاجهم ، كما كان المؤتمر مهرجانا قوميا اسهم فى توضيح مفهوم القومية العربية فى اذهان الأدبـــاء والجمهور على السواء .

وحين يجتمع الأدباء العرب فى مؤتمر يكون ذلك بلا شـــك اعلانا بأن للقومية العربية الى جانب مفاهيمها السياسية ومحتواها الاقتصادى الاشتراكى ، جانبا ايديولوجيا تسهم الفنون والآداب فى تدعيمه وتوضيحه وترتبط به وتخدم عن طريقه الحياة والتقدم .

وحين اضطربت الاحوال بعض الشىء فى الشرق العربى ، اثر انحراف ثورة العراق ، والنكسة الانفصالية فى دمشق مرت ثلاثة أعوام أو أربعة دون أن ينعقد مؤتمر الأدباء العرب . خاصة وأن

المغرب العربى لم يكن تربة مهيأة بعد لكى تجتمع فيه كتيبة الأدباء والمثقفين لتناقش مفهوم الأدب القومى العربى وقضاياه ·

والآن ·· بعد أن أوشكت الاحوال فى معظم أرجاء الشرق العربى على الاستقرار وخرجت القضية العربية منتصرة فى كل معركة خاضتها ، رغم التسويف والدسائس والمؤامرات ، وبعد أن تحررت الجزائر ، وانتصرت الثورة اليمنية ، وانهار الحكم الرجعى فى سوريا ، والحكم المطلق الانتهازى فى العراق ، أصبح من واجبنا أن ندعو الأدباء العرب ليعقدوا مؤتمرهم الرابع ·

واقترح أن يعقد المؤتمر هذه المرة فى أرض الجزائر ، ولهذا الاقتراح أكثر من معنى ومدلول ، فالجزائر المنتصرة فى الحـرب تخوض الآن معركة باسلة جديدة هى معركة استرداد وجه الجزائر العربى بعد أن شوهته ، وخلعت عليه الاقنعة لزائفة سنوات طوال من الاستعمار الفرنسى ·

ان الجزائر تحاول أن تعيد اليها لسانها العربى ، وهى تعرف أن اللغة هى الجناح الممدود بين أقطار العروبة ، والجسر العظيم الذى تعبر عليه الافكار والانفعالات من شرق العالم العربى الى غربه ، وتتلاقى فى وجدان شعبى مستنير والادباء العرب يجب أن يكونوا كتيبة من كتائب التعريب · وانى لاتصور الآن حشدا ضخما من كتاب العروبة ، وهم يعقدون مؤتمرهم فى الجزائر ، وقد حملوا معهم هدية رمزية ·· آلاف بل وعشـــرات الآلاف من الكتب من مؤلفاتهم ومطبوعاتهم ، ومؤلفات زملائهم واسلافهم فى مهنة القلم الشريفة ، منذ أن ارتجل أول كاتب أو شاعر عربى سطرا أو بيتا من الشعر فى فجر تاريخ العروبة حتى الآن ·

وأتخيل هؤلاء الادباء من جميع أقطار العروبة بعد انفضاض الثورة الرسمية رؤتمرهم ، وقد انتشروا فى مدن الجزائر وقراها

اسبوعا أو اسبوعين ، يمحون الأمية ، ويحاولون تعريب لســــان الاطفال وتطهيره من العجمة والالتواء ٠

وأتخيلهم أيضا ينفعلون ويتناقشون ، ويؤكدون مفهوم الأخوة العربية ، ويكتبون ويحاضرون ، وينتجون بعد ذلك الاثار الأدبية عن هذا الشعب البطل الذى ولد على موعد مع التاريخ ٠

اخر ساعة ١٩٦٣/٥/٢٩

القيـــادة الجماعيـــة
وقانون المؤسسات الجديد

التطبيق الاشتراكى والمؤسسات العامة

نظام المؤسسات العامة هو قوام الاقتصاد المصرى الآن ، بل هو جسمه وكيانه ، وبقدر ما ينجح هذا النظام بقدر ما يقدر لخطط التنمية نجاحها وتحقيقها ما يتوقع منها · ولذلك فان من الواجب أن يدرس هذا النظام دراسة متمعنة وان يوالى المشتغلون بالتفكير الاقتصادى اعادة النظر فى تفصيلاته على ضوء التجربة ·

ويكفى دليلا على اهمية نظم المؤسسات العامة ، ان مجال خدمات المؤسسات الكائنة فعلا يشمل حتى الآن صناعات التعدين والنسيج والصناعات الكيماوية والغذائيـــة ومواد البناء والبترول والقطن والادوية والصناعات الحربية والكهرباء والمقاولات والأبنية وتعمير الأراضى والاسكان والسياحة والفنادق والسينما والمسرح والنشر والنقل البحرى والداخلى والصيد كما يشـــمل عديدا من الصناعات التى تتمثل بخدمة الجمهور مثـــل المخـــابز والمطاحن والتخزين والبنوك والتأمين ··

وتشرف المؤسسات التى تقوم بهذه الأوجـــه المختلفـة من

النشاط على عديد من الشركات التى تنفرد بألوان من النشـــاط الفرعى ، والتى تعتبر المؤسسة مسئولة عن التخطيط والاســـتثمار والانتاج فيها وقد كان نظام المؤسسات العامة هى الخطوة الأخيرة فى تطورنا الاقتصادى نحو الاشتراكية · وهو تحقيق كامل لتدخل الدولة فى توجيه الاقتصاد ، ومن البديهى ان النظام الرأســـمالى لا يكاد يسمح بنظام المؤسسة العامة الا فى حدود معينة وبالنسبة للصناعات التى تحتاج الى رأس مال ضخم ، ولا يكاد يجرؤ رأس المال الفردى على المغامرة فيها ، أو بالنسبة للصناعات التى تتجه الى خدمة الجماهير دون ان تستطيع أن تحقق ربحا ضخما كصناعات الطيران والنقل البحرى والسكك الحديدية وغيرها ·

اما الصناعات التى تعتبر مربحة والتى يستطاع التحكم فى تسويقها فان الدول الرأسمالية تتركهـــا لمبادرات رؤوس الأموال الفردية · وقد كان من العبث بالنسبة لدولة ناشـــئة كالجمهورية العربية المتحدة ، تعانى من التخلف ، وتطمح الى الانتقال من المجتمع الزراعى الى المجتمع الصناعى ، كان عبثا ان تترك خطة التنمية للمغامرة الرأسمالية ، حتى فى أدق تفاصيلها ، ولذلك فحين بدأت الدولة عندنا خطواتها الاشتراكية بتأميم بعض الشركات المختلطة التى يشارك فيها القطاع العام والقطاع الخاص · نجد هذا حـــلا ثانيا ، وعندئذ نقلت بعض المرافق الى « الدومين العام » كمرفق للنقل وغيره ، ثم مالبثت حين استكملت صورة المتغير الاشتراكى فى يولية عام ١٩٦١ ان توسعت فى تنظيم المؤسسات العامة ونقلت اليها جميع نواحى الانتاج والتصنيع وقد ورثت المؤسسات العامة فى فترة حياتها الأولى حركة التفكير الرأسمالى · لقد كان قانون الشركات الأول ، الذى صدر القانون المعدل له فى ديسمبر الماضى، ينبع من الظروف الرأسمالية ولذلك فقد اصطدم حين جرى تطبيقه فى الشركات العامة بعقبات كثيرة ، تنبع أساسا من اختلاف الواقع الاشتراكى ونقطة الانطلاق الرأسمالية للقانون ·

ينظر القانون القديم الى الشركة كرأس مال خـاص والى مجلس الادارة كمجموعة من كبار المساهمين ، قد يجتمعون مرة أو مرتين فى العام ، وخاصة فى اجتماع اقرار الميزانيـــة ، وعندئذ يرأس أكبر المساهمين الذى يكون عادة رئيس مجلس ادارة الشركة هذا الاجتماع ويقرون الميزانية ، ثم ينفض اجتماعهم ٠

اما العضو المنتدب فهو الخبير الوحيد وسط هذا المجموع ولذلك فقد جعل القانون القديم العضو المنتدب رئيسا للجهاز الادارى للشركة ، وممثلا لها فى علاقاتها مع الجهات الادارية ، ومع البنوك ومع الأشخاص العاملين ، وحصر كل السلطات فى يده ٠

وقد كان هذا وصفا عادلا بالنسبة لرئيس مجلس ادارة هو أشبه بضيف الشرف وبأعضـــاء مجلس ادارة ينتقون لثروتهـــم لا لخبرتهم ولكن حين كونت ماجلس ادارات الشركات العامةبدل التناقض واتضح ، فرئيس مجلس الادارة وأعضاء المجلس ليسوا الا من المشتغلين فى الحقل الذى تعمل فيه الشركة ، ولهم.أيضـا خبرتهم وكفاءاتهم وهنا يدب الخلاف عادة بين رئيس مجلس ادارة الشركة وبين عضوها المنتدب وبين اعضاء مجلس الادارة المتفرقين ٠

فرئيس مجلس الادارة اذا كان حريصا على اداء عملـــه ، مؤمنا بأن من حقه ان يشارك فى التخطيط ويتولى مراقبة التنفيذ يجد نفسه واقفا وظهره الى الحائط لأن القانون ليس فى صفه ، فقد كانت العقلية الرأسمالية التى وضعت القانون تعرف ان الشـــركة الخاصة هى مجموعة من رؤوس الأموال التى تنقصها الخبرة وقد كرمها اصحابها ، ووضعوها بين يدى خبير ، وهو العضو المنتدب ، لكى يستغلها احسن استغلال ٠

ولم تعرف الشركات فى النظام الرأسمالى نظام العضـــو المتفرغ الذى يعهد اليه بكمية من العمل تناسب اهتمامه الا نادرا

ولذلك فقد كان هؤلاء الأعضاء يجدون أنفسهم حائرون بين القانون ، وبين فهمهم للروح الاشتراكية التى تولدت عنها انظمة الشركات والمؤسسات العامة .

ان الروح التى أملت التكوين الجديد لمجالس ادارات المؤسسات والشركات تتلخص فى ان تكون هذه المجالس « مجالس مديرين » ، لا مجالس ادارة بالمعنى المعروف ، فلكل منهم مسئول عن قدر من العمل ممارسة ومسئوليته واضحة أمام رئيس المجلس وأمام الجهة الادارية التى يمثلها الوزير ، وبعد عام من التجربة تقريبا اتضح هذا التناقض بين القانون القديم وبين الروح الاشتراكية ، وصدر القانون الجديد الذى يجعل لرئيس مجلس ادارة الشركة حق الاشراف على الجهاز الادارى وحق تمثيل الشركة ، ثم صدر قانون المؤسسات الذى يمنح نفس الحق لرئيس مجلس ادارة المؤسسة .

وهذا القانون خطوه اشتراكية هامة اذ انه يلقى تلك النظرة التى كانت تتوهم ان رئيس مجلس الادارة واعضاءه ممثلون للمساهمين ، بل انهم فى ظل هذا القانون موظفون عموميون يخدمون الدولة والشعب وهو صاحب رأس المال الوحيد ، وكلهم مسئولون ازاءه .

وروح القانون تبين ان كل عضو من أعضاء المجلس يجب ان يعهد اليه قطاع من العمل ، يكون مسئولا عنه « وللمجلس ان يعرض على أحد أعضائه أو أحد المديرين القيام بوظيفة محددة » مادة (٧) بند (٥) .

كما ان روح القانون توضح أن السلطة العليا فيه هى للمجلس مجتمعا ، وفى ذلك اقرار سليم لمبدأ القيادة الجماعية وهو المبدأ الذى تبناه الميثاق الوطنى واتضح فى التنظيم الجديد للدولة .

اما الكسب الثانى الذى اضافه القانون فهو تحديد العلاقة بين الشركات والمؤسسة التى تتبعها ، وبين المؤسسات والوزير ٠٠ الذى تتبعه ٠ ذلك ان القانون القديم لم يكن يحدد علاقة مجلس ادارة الشركة بمجلس ادارة المؤسسة ٠ ومتى يكون من حق مجلس ادارة مجتمعا ، وفى ذلك اقرار سليم لمبدأ القيادة الجماعية وهو المبدأ حق الوزير المختص ان يراجع قرارات مجلس ادارة المؤسسة ٠ وكان ينتج عن ذلك كله نوع من الارتباك البالغ اما القانون الجديد فقد حدد هذه النقاط فيما يلى :

اللوائح ـ الميزانية التقديرية ـ الميزانية العمومية والحساب الختامى ـ برامج الانتاج وأهدافه ـ برامج التسويق والتصدير ـ برامج الاستثمار والتمويل فليس كل قرار لمجلس ادارة الشركة اذن خاضعا لرقابة مجلس ادارة المؤسسة واجب العرض على الوزير ، وفى ذلك فائدة واضحة :

انه لا يضيع وقت المؤسسة ووقت الوزير فى مراجعة التفاصيل وتتبع الجزئيات ٠

انه تطبيق على مبدأ اشتراكى هام وهو مركزيـــة التخطيط ولا مركزية التنفيذ فالاجهزة العليا مسئولة عن التخطيـــط ويجب اخلاء مسئوليتها عن أوجه العمل الأخرى لتتفرغ للتخطيط ، امــا التنفيذ فالاقربون الى حقل التنفيذ ادرى به وأقدر عليه ، وعلى تطويعه لمقتضيات العمل اليومى ٠

هذان كسبان هامان للاشتراكية فى قانون المؤسسات الجديد ، ولكن ٠٠

مازال هناك أخطار هامة على الاشتراكية يجب ان نعالجها ٠

الأهرام ١٩٦٣/٨/٧

نحو ثقافة عربيــة اشتراكية

ليس هناك كلمة تثير الاختلاف فى معناهـــا ومدلولها بقدر ما تثيره كلمة « الثقافة » ·· وحتى فى اللغات الأجنبية التى تم تحديد معانى المصطلحات والألفاظ الحضارية فيها ، ما زالت هذه الكلمة تثير كثيرا من الاختلاف · وهى تختلط كثيرا فى معناهـــا بكلمات أخرى مثل « الحضارة » أو « المدنية » · ويدل البناء العربى للكلمة على المعنى الذى اختاره لها الذهن العربـــى ، فان كلمة « ثقف » فى القواميس العربية تعنى أتقان الصنعة ، وهذا المعنى بالغ القرب مما يقصده علماء الانثروبولوجيـا وعلوم الانســـان المحدثين حين يستعملون هذه الكلمة · فهم يطلقون كلمة « الثقافة » على كل المعارف والخبرات الانسانية المتوارثة من جيل الى جيل ، بادئين بزراعة الأرض وصناعة السفن والألعاب الرياضية ، حتى الاداب والفنون والعلوم ، معتبرين كل ذلك مظهرا واحدا لنشاط الانسان وتقدمه فى التاريخ ·

فالانسان فى عرف اولئك العلماء يواجه الطبيعة بذكائـــه وحدسه وقوته البدنية ، ويطالبها بحاجاته ، ويسخرها لاستعمالاته ، ومن هنا تتزايد خبراته وتتراكم جيلا بعد جيل ، وتلك الخبرات هى مجموع ثقافته ·

وفى الطرف الآخر نجد بعض العلماء ، وخاصة دارسى الأدب والفلسفة يقصرون مدلول كلمة « الثقافة » على الخبرات الروحية للانسان ، كالسحر والدين والفن والأدب والفكر المجرد · ولعله من العسير أن يقطع الانسان برأى فى الخلاف ، فهو لو اختار وجهة نظر الانثروبولوجيين لاتسع مدلول الكلمة حتى يشمل الحياة كلها ، بكل ما فيها من مظاهر مادية وروحية · ولأصبحت لكلمة « الثقافة » مرادفة لكلمة « الوجود » · ولو اختار مفهوم الأدباء والفلاسفة لقطع قطعا متعسفا بين هذه النشاطات الروحية كالفن والأدب والفلسفة ، وبين جذورها المادية والاقتصادية ، وفى ذلك ما فيه من مخالفة واضحة للمفهوم الشامل المتكامل المعاصر لكلمة « الانسان » ، الى جانب ما فيه من تضييق للدائرة ونظر فى ظاهر الموضوع دون تبين جذوره وتعقب امتداداته ·

والأوفق عندئذ أن نفصل بين الجذور للمجتمع ، وبين ثقافته ذاتها · فالجذور الثقافية للمجتمع تستطيع أن تشمل كل دراسات المجتمع وخبراته فيما عدا الأدب والفن والفكر الفلسفى · وأول هذه الجذور هو التركيب الفيزيائى للانسان · فقد استطاع علماء الانسان أن يضعوا تصنيفا للجنس البشرى حسب بنائه العضوى وخصائصه الفيزيولوجية · ومن هذا التقسيم البشرى حسب بنائه العضوى وخصائصه الفيزيولوجية · ومن هذا التقسيم الفيزيولوجى وتفاعله مع البيئة يتكون نمط معين من الخبرات ، نستطيع اعتباره أحد الجذور الثقافية للانسان · فلكى يعيش الانسان على هذه الأرض اضطر أن يتعامل مع بيئته · بل لقد تجاوز دائرة هذا التعامل والتأقلم الى تغيير معالم البيئة ذاتها ، فزرع الأرض وشق الطرق وبنى البيوت وأبتكر وسائل النقل وصنع الأسلحة ، وأشعل النيران وحفر الخنادق والافخاخ · وتكونت من كل ذلك خبرات جديدة ·

وكلما تقدم الانسان فى التاريـــخ زادت خبراته وتكاثفت ٠ والانسان هو الحيوان الوحيد الذى يتمتع بالذاكرة التى تعى خبرات الماضى ، كما أنه استطاع أن يطور مخارجه الصوتية فى محاولتـه للكلام ، وأن يدون هذه الخبرات بعد ذلك على الحجر والورق ٠ ولا شك أن هذه الخبرات كانت فى أوانهــا هى الثقافة الوحيدة لانسان ذلك العصر ٠ وحين اهتدى الانسان الى اللغة استعملها وعاء لخبراته ، ومع اهتداء الانسان الى اللغة عــرف التجمــع البشرى والمعنى الحقيقى للتجمع البشرى فى قرى ومدائن هو تكون لون من العادات والأعراف المتفق عليها ، ومحاولة الاهتداء الى لون من التدين يشمل أفراد المجموعة ، ومحاولة تحديد العلاقة بين الأفراد بعضهم مع بعض وبينهم وبين الحاكم الذين يشرفون على شئون هذه المجموعة ٠

ففى القرى البدائية اذن وجد لون من التعليم المتوارث جيلا عن جيل ، تنقله الأم الى ابنائها ، ووجد لون من العقيدة يحدد علاقة الانسان بالقوى المسيطرة على حياته ووجد لون ثالث من التشريع الاجتماعى المدنى والجنائى يحدد العقوبات والجزاءات ٠

ولعل هذه العناصر الثلاثة التى صاحبت نشأة الانســان : التعليم والعقيدة والتشريع هى التى حددت اتجاه الثقافة دائما ، وكانت هى الأصول الجذرية التى تنمو فوقها شجرتها ٠ فتســتمد الثقافة عندئذ غذاءها ، وتتلون أوراقها وأثمارها بلون تلك الجذور ٠ وقد أضيف الى تلك الأصول والجذور عنصر جديد ، حينما ازدادت حياة الانسان تقدما ، وذلك الأصل هو التنظيم الاقتصادى ٠

كان المجتمع البدائى مجتمعا مشاعا ، وحين عرف الانسان الزراعة والاستقرار ، ابتدأ ينوع فى طعامه ، ويستغل عقله الى

جانب عضلاته ، ويتبادل أفراده خيرات الأرض والبحر وتسلط بعض أفراده على منابع الثورة البدائية فيه ، ومن هنا وجدت الحاجة الى تنظيم اقتصادى ، ولكن الانسان يعدل سواء بالعنف أو اللين هذا التنظيم الاقتصادى كلما تغيرت صورة حياتـــه ، من مجتمع الصيد الى مجتمع الزراعة الى مجتمع الصناعة ٠

ومع تغير الصورة الاقتصادية لحياته ، كانت تتغير نظرته الى الجذور الثقافية الأخرى التى أشرنا اليها ٠ فان العادات والتقاليد الاجتماعية تتغير من نظام الى آخر ، ولو استعرنا كلمة أخـــرى جديدة للعادات والتقاليد لكانت هى كلمة التعليم ٠٠ فليس التعليـم فى جوهره الا وسيلة لنقل العادات والتقاليد التى تحفظ تماسـك المجتمع من جيل الى جيل ٠ ويتضح صدق ذلك المفهوم اذا أخذنا فى اعتبارنا تاريخ التعليم حين كان المؤدب يصاحب تلميذه ويخرجه على الخلق الى جانب القاء بعض المعلومات والخبرات العامة اليه ٠

وكذلك كانت نظرية التشريع تتغير من جيل الى جيل ٠ ومن صورة اقتصادية الى صورة أخرى ، حتى لقد وجدت علوم قانونية جديدة الى جانب التشريعين المدنى والجنائى مثل قوانين الاجراءات حين تعددت صور التقاضى والتحكيم ٠ والقانون الدستورى حين أرادت الأمم أن تحدد حق الحاكم والمحكوم والقانون الدولى حين تشابكت مصالح الدول والحكومات ٠ وهذه القوانين نفسها عرضة للتغير حتى فى أصولها ونظريات انبثاقها مع تغير صـــور الحياة الاقتصادية ٠

وكذلك الأمر فى المعتقدات الدينية التى تحولـــت من عبادة الطبيعة الى عبادة الآلهة الى التوحيد ٠

تلك هى الجذور الأربعة التى تمتد فى باطن الأرض ، وتحدد

طابع المجتمع الثقافى ، ذلك لان الفن والادب والفلسفة وهى أهم ظواهر الثقافة تنبع منها وتصطبغ بألوانها ·

ولذلك فان أى دراسة جادة لمشاكل حياتنا الثقافية المعاصرة ، لابد أن تمد دائرة بحثها الى تلك الجذور · ونحن فى هذه المرحلة التى نعيشها ، مرحلة التخطيط للوحدة الثقافية وتنظيمها لتكون درعا للوحدة السياسية ، محتاجون أشد الاحتياج الى دراسة جذور ثقافتنا · وهذه الدراسة يجب أن تغور فى أعماق الماضى ، وان تحيط بالحاضر ، وأن تستشرف الى المستقبل ، يجب أن تكون دراسة تاريخية بالمعنى الاستمرارى لكلمة التاريخ ، وقد يزيدنا اهتماما بهذه الدراسة أن ندرك أن مهمة الثقافة ليست هى خلق الانسان المثقف فحسب بل هى خلق الانسان المتجانس ثقافيا ، ونحن لا نريد أن نحقق هذا التجانس الثقافى فى مصر وحدها · بل فى اقطار العروبة على امتدادها ، وتلك هى مسئوليتنا التاريخية ·

والتزاما بهذا المنهج يجب أن ندرس بالترتيب ما ألم بالجذور الثقافية من تغيير فى مجتمعنا العربى الحديث ، سواء فى ميدان التنظيم الاقتصادى أو فى ميدان التربية والتعليم ، أو فى ميدان التشريع بمعناه الواسع كعلاقة بين الفرد والفرد من ناحية وعلاقة بين الفرد والدولة من ناحية أخرى ·

وبعد استكمال هذه الدراسة ، نستطيع أن نلقى نظرة مستنيرة الى الفن والأدب والفكر الفلسفى ، وأن نهتدى الى الصورة الملائمة لهذه الفنون ، وما التوحيد بعد ذلك كله الا قضية مستويات ، حيث نرفع المستوى الأدبى ، من قطاعات الشعب العربى الى المستوى الأعلى باستخدام الوسائل الثقافية ، التى هى الكتاب والراديو والتليفزيون وغيرها ·

الكاتب ٦/١٩٦٣

الشيخ الشجاع

قال هذا الرجل كلمته ثم آثر الصمت · كانت كلمة أكثر شجاعة من الزمن الذى عاش فيه ، وأشد وضوحا من الغموض الذى كانت فيه مصر ·

كانت مصر قد حصلت على وعد بالاستقلال ، وحصل سلطانها على لقب الملك ، وكانت الخلافة العثمانية قد سقطت فى أيدى الكماليين ، وأعلن مصطفى كمال أن تركيا دولة علمانية · وكما سعى الظاهر بيبرس منذ مئات السنين الى استقدام أحد أبناء الخلفاء العباسيين الى مصر كى يحكم من ورائه ، حاول الانجليز اقامة خليفة للمسلمين خاضعا لنفوذهم ، ويحكمون باسمه ، وطمع الملك فؤاد الى هذه المكانة فيمن تلمحوا اليها من الملوك ومهراجات الهند ، وأوعز الى حاشيته بث هذه الفكرة بين الناس ·

لابد عندئذ من التباكى على الخلافة العثمانية الضائعة ، ومن المغالاة فى بيان قيمة الخلافة عند المسلمين ، حتى يهم بعضهم أن يقول ان الخلافة من أركان الاسلام · وفى هذه الظروف كتب هذا الرجل « الاسلام وأصول الحكم » ، وصدر الكتاب باسم على عبد الرازق وهو من خريجى الأزهر،وقضاة المحاكم الشرعية ، وابن

لبيت من بيوت الجاه بمصر ، فى ظل هذا المناخ المشبع بروح المحافظة بجانب غيره من الظلال الارستقراطية لاتبـاع حـزب الأحـرار الدستوريين ، حزب أصحاب المصالح ، وأبناء الطبقة الحاكمة ٠

ان أمرا بالغ الغرابة أن يصدر مثل هذا الكتاب الجرىء عن مثل هذا الكاتب ٠ كان المتوقع أن يكون رجـل كعلى عبد الرازق محافظا أشد المحافظة ، اذ نشأ فى الأزهر ، وولد فى الصـعيد ، وتربى فى العز والسلطة ، ولكن قوة الضمير وعزة الفكر لايعوقهما عائق ٠ افلم يكن الأزهر على مـر السنين منبـع المحافظة على التقاليد ، أو لم ينبت الأزهر فى هذين الجيلين أعلام التقدم ، ورجال الاقدام الفكرى مثل الشيخ حسن العطار ، ورفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وسعد زغلول ٠

وانفجر الكتاب كالقذيفة ، فاغضب من أراد ان يغضبهم ، وانهالت العقوبات على الشيخ المجتهد ، من الملـك ، ومن بعض رجال الدين ، ومن سلطات الأمر والنهى فى البـلاد ، سـلطات الاحتلال ٠

وابتعد الرجل عن الحياة العامة زمنا طويـلا ، بعد أن قال كلمته التى كانت اشجع من زمانها ٠

اما الكلمة ، فهى باختصار ــ ان الدين الاسلامى برىء من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون ، وبرىء من كل ماهيأوا حولها من رغبة ورهبة ، ومن عزة وقوة ، والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية ، كلا ، ولا القضاء ولاغيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة ٠ وانما تلك كلها خطط سياسية صرفة ، لاشأن للدين بها ٠ فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولانهى عنها ، وانما تركها لنا ، لنرجع فيها الى احكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة ٠

كما ان تدبير الجيوش الاسلامية ، وعمارة المدن والثغور ،

ونظام الدواوين لاشأن للدين بها وانما يرجع الأمـــر الى العقـل والتجريب ، أو الى قواعد الحـــروب او هندســـة المبانى وآراء العارفين ٠

لاشيء فى الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الأمم الأخـرى فى علوم الاجتماع والسياسة كلها ، وأن يهدوا ذلك النظام العتيق الذى ذلوا به واستكانوا اليه ، وأن يبنوا قواعـد ملكهم ونظـــام حكومتهم على أحدث ما انتجت العقول البشــرية ، وأمتن مادلت تجارب الامم على انه خير أصول الحكم ٠

هذه هى الكلمات الأخيرة للمؤلف ، مركزة وحاسمة ، ولكنها تهدم تفكيرا أو تبنى تفكيرا ٠ تهدم التفكير المقلد الكسول الذى تنبع منه كل التيارات الرجعية حتى زماننا هذا ، وتبنى التفكير المتقدم الوثاق الذى ينفع الحياة ويبنهما ٠

وينبع اجتهاد الشيخ عبد الرازق من استقراء القرآن الكريم والسنة النبوية حين لايجد فيهما ذكرا للخلافة أو اشارة اليها ٠ فهى اذن ليست من أصول الاسلام ثم يطرح السؤال : هل كان كل من تولى أمر المسلمين باسم الخلافة من رجال الدين والشرع ، وهل كانوا يعتبرون الخلافة امتدادا للرسول أم ميراثا يرثه الابناء عن الآباء ٠ فهى اذن لم تكن خلافة ، ولكنها كانت ملكا تقليديا ، يتوارثه ملك عن ملك فاذا أخذت البيعة كما فى حالة مبايعة معاوين ابن ابى سفيان لابنه يزيد ، فهى بحد السيف ٠

ويكتب على عبد الرازق عبارات من نار حول فساد «الملوك» فى عصر حكم الملوك ، وقبل ان يهنأ الملك فؤاد بلقبه الجديد الذى لم ينله الا منذ شهور قليلة يقول مثلا :

« ان ذلك الذى يسمى عرشا لايرتفع الا على رؤوس البشر ، ولايستقر الا فوق اعناقهم ٠ وان ذلك الذى يسمى تاجا لاحياة له

الا بما يأخذ من حياة البشر ولا قوة له الا بما يغتال من قوتهم ، ولا عظمة له ولاكرامة الا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم ··

هؤلاء الملوك اذن من يزيد بن معاوية حتى عبد الحميد سلطان تركيا وخليفتها الطاغية لم يكونوا من الدين فى شىء ، وانما هم قد قهروا الأمة باسم الدين فلا حاجة اذن الى تكرار المأساة ·

كان على عبد الرازق اذن يبشر بالحكومة المدنية ، حكومة العلم والخبرة والتجريب ، ويطمح أن يضع الدين فى مكانه الصحيح

ويدخل على عبد الرازق عندئذ فى بحث عريض ، وهو أكان الرسول عليه السلام رسولا وحاكما زمنيا ، أم رسولا فحسب وهنا ينتهى الى أن حكم الرسول كان لونا خاصا من الحكم ، فهو لم يرسل حكاما الى الاقاليم التى دانت للاسلام بل أرسل لها معلمين للدين ، « وكانت ولايته على قومه ولاية روحية منشاها أيمان القلب وخضوعه خضوعا صادقا يتبعه خضوع الجسم » فلم يكن عليه السلام ملكا أو شبه ملك ، بل كان رسول معلما · وهذا الدور لايورث ولاينتقل منه الى غيره ، ولا يستطيع أحد سواء القيام به ·

والاسلام يطالب اتباعه بالدين الواحد ولكنه لايطالبهم بالحكومة الواحدة « معقول أن يؤخذ العالم بدين واحد ، وان تنتظم البشرية كلها وحدة دينية ، اما أخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة فذلك مما يوشك أن يكون خارجا عن الطبيعة البشرية ·

هذا كله كلام كتب على الورق منذ أربعين سنة أو تزيد ، بعد أن تمخض عنه فكر مستنير وقلب يقظ ، ولكن فيه ـ شأن الكتابات العظيمة جميعا ـ شيئا من روح الخلود وكأننا حين نقرأه الآن نرى

الفصول تتكرر ، من استتار وراء شعار الوحدة الاسلامية للتمكين للاستعمار ولحكم الملوك ، ومن استتار وراء كلمـــة الدين لتبرير التخلف والرجعية ٠

لقد صودر هذا الكتاب فى أيام فؤاد وأصبحت نسخة نادرة فهل يطبـــع الآن من جديد ، وخاصـــة بعد أن مات الرجـــل الذى قال كلمته ، ثم أختفى حتى عن التكريم ؟

الأهرام ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٦٦

عصـــر فى رجــل

لن نجد اسما من الاسماء التى شغلت مصر والشرق العربى خلال نصف من الزمان الا وله علاقة بهذا الرجل ، علاقة صحبة أو مودة أو تلمذة او تأثر · ولن تجد مجالا من مجالات العمل العام فى تلك الفترة الا وجدت لهذا الرجل قدما فيه ، واثرا فى أصحابه ، فى السياسة والأدب والفكر والثورة · كان محمد عبــده تلميذه وصفيه ، وكان البارودى مجدد الشعر وأديب اســحق الناثر ، وعبد الله النديم الزجال أصحابه وخلصـــاءه ، وكان احمد عرابى مقربا اليه ، وكان سعد زغلول من مستمعيه · كل هذه الشخصيات

الكبيرة وسواها كانت تدور حوله كانه الكوكب المتالق ، وهم التوابع الخلصاء ، أو كانه كما قال محمد عبده ·· حقيقة كلية ، تجلت فى كل ذهن بما يلائمه ، أو قوة روحية قامت لكل قطر بشكل يشاكله ·

وربما كانت حياة الافغانى ومواقفــه ـ وهو الرجـــل الذى نتحدث عنــه ـ هـــى كتابه الأول والكبير ، وكان كل فصـــل من فصولها فى الهند وايران وأوروبا ومصر وتركيا ، هى فصـــول روايته المبدعة الخالدة ، وكانت كل كلمة من كلماته اثر موقف من المواقف الحادة هى عبرة هذه الفصول الخالدة · فنحن لانستطيع

ان ننسى حين نفاه الانجليز من مصر ، وسأله تابعه كيف سيعيش انه قال : « ان الليث لايعدم فريسته اينما ذهب » ونحن لاننسى حين عتب عليه سلطان تركيا وخليفه المسلمين انه يعبث بحبات سبحته فى حضرته انه قال « ان مولانا السـلطان يعبث بأرواح رعاياه فهل من الكثير على العبث بحبات مسبحة · ونحن لا ننسى حين عرض عليه الانجليز ملك السودان عقب القضاء على الثورة الهندية انه قال للورد سالسبورى : « اسمحوا لى ياحضرة اللورد ان اسألك : هل تملكون السودان ، حتى تريدوا ان تبعثوا اليه بسلطان » ؟!

كل تلك المواقف هى فصول من رواية حياته التى هى بلا شك ابدع ما كتب ، ولكنه رغم ذلك لم يكن قليل التدوين كسقراط ، وربما كان ذلك لأنه اشتغل بالصحافة كوسيلة شريفة من وسائل اثـارة الراى العام ، فأصدر هو وزميله محمد عبده « العروة الوثقى » فى سنوات الجهاد الثورى التى قضياها فى أوروبا ، بعد فشـل الثورة العرابية ، وربما كان ذلك أيضا لأنه اتيح له فى آخر ايامه ان يسجن فى القضبان من ذهب · حين قربه السـلطان عبد الحميد اليه ، والزمه بالبقاء فى الآستانة ، فانطلق يملىء خطراتـه على تابعه محمد باشا المحرومى الذى حفظ لنا هذه المذكرات فى كتاب · ولكنه على كل حال لم يكـن يكتب لمجـرد الكتابة فقط · ولـم يدون لتسويد الصفحات وزركشة الكلمات ، ولذلك فان أسلوبه قد خلا من كل أثقال الزينة التى عرفها زمانه من سجع وجناس وتورية وغيرها ، وانطلق كالسهم المرسل الى هدفه ، يقصد الى القلب عن طريق العقل ، أو يخاطب القلب والعقل معا ، فى نبرة هادئة مقنعة ·

وقد كانت كتابات جمال الدين مبعثرة بين كتيباته التى سبق نشرها ، وبين خطراته التى جمعها تلميذه وبين أعـداد العروة الوثقى · وكان الحديث عن اثر جمال الدين الافغانى معظمه يجرى

على السماع ، مما جعل كثيرا من دارسيه يتورطون فى آراء لم يتحدث بها المفكر الثائر ، أو يخلطون بين بعض كتاباته وكتابات تلميذه محمد عبده اللذين تفرقت بهما السبل بعد الصحبة ، وسار محمد عبده فى طريق الاصلاح والتعليم والمهادنة للقوى الأجنبية ، بينما ظل جمال الدين حريصا على أن يكون أقرب الى الخطر وأبعد عن المهادنة ·

ومنذ أيام أصدرت دار الكاتب العربى ـ مشكورة مبرورة ـ كتابا ضخما يحوى « الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى » جمعها وعلق عليها وكتب لها مقدمة طويلة الأستاذ محمد عمارة ، وهو أحد الشباب المهتمين بقضايا القومية والعروبة وبتاريخ العالم العربى السياسى فى القرن التاسع عشر ·

والمقدمة دراسة ممتازة فيما يزيد على مائة صفحة ، تتحدث عن نضال الافغانى ضد الاستعمار وآرائه فى الاسئلة المصيرية المطروحة فى عصره مثل قضية الاشتراكية وقضية الجامعة الاسلامية وقضية القومية العربية ، والقضايا الثلاث هى أهم القضايا التى واجهها وما زال يواجهها شرقنا العربى منذ قرن من الزمان ·

اما قضية الاشتراكية ، فهى قضية الثروة وتوزيعها بين المواطنين ، أو هى الجانب الاقتصادى من حياتنا ، بينما تمثل القضيتان التاليتان انتماءنا المصيرى ووجودنا المتجسد ، كشعوب صغيرة ينبغى ان يجمعها ارتباط ما حتى تستطيع ان تواجه عداوة الاستعمار ومطامعه ·

ويتبع الأستاذ محمد عمارة موقف الافغانى من هذه القضايا الثلاث ، فيتبين لنا أن الافغانى كشأن أى مفكر مخلص ، كان كثيرا ما يعدل آراءه أثر اختبارات حياته ، ففى كتابه المبكر « الرد على

الدهريين » نجده يتخذ من الاشتراكية موقفا معاديا ، ثم ما يلبث بعد سياحته الطويلة فى العالم العربى والاسلامى أن يدرك أن التحرر من الاستعمار لا يكفى وحده لخلق الدولة الحديثة ، بل لابـــد من النظر فى قضية الثروة القومية للأمة ، فلا يلبث أن يقول :

« وهكذا دعوى الاشتراكية ·· وان قل نصـــراؤها اليوم ، فلابد أن تسود فى العالم يوم يعم فيه العلم الصـــحيح ، ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة ، وان التفاضل انما يكون بالانفع من السعى للمجموع » ·

يرى الأستاذ محمد عمارة فى مكان آخر ان فكر الافغانى قد مر بثلاث مراحل فى قضية الجامعة الاسلامية والقومية العربية ·

الأولى : عندما كان يرفض اعطاء أى وزن للفكر القومـــى والخصائص القومية مكتفيا بوحدة العقيدة الدينية ·

والثانية : عندما اعترف بالخصائص القومية الى جوار عامل وحدة العقيدة الدينية ·

والثالثة : عندما اعترف بأن الغلبة فى التأثير انما هـــى « لجامعة اللسان » أى لوحدة اللغة بكونها وحدة الثقافة والوجدان، ومن ثم للخصائص القومية ، وعندئذ نجده يقول :

« لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى الا بلغتها ، فالأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه الى دليل أو برهان » ·

وبهذه الدراسة التى تعتمد على الاستقراء وتتبع التاريخ ، ووضع الرجل فى اطار عصره ينطلق المؤلف الى تجميع خيوط فكر الافغانى المتشعبة لكى يخرج لنا منها صورة لعقل من أشد العقول ذكاء ولماحية وأمانة فكرية ، صورة مفكر شرقى مسلم يواجد العالم

الحديث معتمدا على تراثه ، ولكنه يستعين بمنهج الفكر الاوروبى فى قدرته على الاســـتدلال وخضوعه للمنطق ، وبعده عن البراهين النقلية والافحام بالاستشهاد بالنقول الدينية والسلفية الى الاقناع بالعقل والملاحظة ٠

والسياحة فى كتاب جمال الدين الافغانى تنقلك الى العصر فى قمته ، فتشهد فيها اصطراع القوى الاوربية على الشرق العربى، ومحاولة تركيا أو الرجل المريض ان تحفظ الشرق العربى بالجهل والطغيان ومحاولة تحويل العرب الى أتراك ، والثورة الكامنة فى احشاء بلاد المنطقة كلها ، كما تشهد فيها صـــورا قلمية ناطقـة لعبد الحميد السلطان وتوفيق الخديوى ونوبار الوزير وغيرهم من الشخصيات التى عرفها الافغانى عن قرب فسلط عليها أنوار فطنته حتى كشف عن عيوبها وصغر حجمها ازاء جسامة الأحداث ٠

وهذه السياحة كذلك تلفتنا الى أمــر أهم ، وهو أن ما كان يواجهه الافغانى منذ قرن من الزمان هو ما نواجهه الآن ، ضعفنا فى مواجهة قوة المستعمرين ٠٠ والمفاهيم المتخلفة التى نواجه بها الدول العصرية ٠ وشوقنا الى اقامة حياة جديدة لانساننا تعتمد على الديموقراطية فى ناحية والتفكير العلمى فى ناحية أخرى ٠

حين نقرأ الافغانى سنرى فى زمانه زماننا ، وسنسمع صوت رجل من ذلك الزمان يتحدث الينا بما نفعل ٠ وقــد نجد فى بعض آرائه ، بل فى معظمها صوابا كثيرا ٠

المصور ١٩٦٨/٤/١١

أفـــكار قوميـــة

القاهرة ١٩٦٠

هـــذا الكتــاب

لامراء اننا نعيش اليوم فى مرحلة ثورية ، بكل ماتنطوى عليه الثورة من قوى التطور والابداع ، والثـــورة لا تعنى أشـــــهار السلاح ، وسفك الدماء ، وسحل الناس فى الطرقات ۰ فأن فعلت كانت ثورة رعناء ۰ ولكن الثورة تعنى فى غايتها السامية ، وأهدافها النبيلة التغير الجذرى الاصيل ، والتطور البالغ العمق ، فى أسلوب الحياة وتنظيم المجتمع ، وفى تفكير الناس وطرائق معايشهم ، انها تعنى استئصال القديم الفاسد ، وتشييد الجديد البناء فى تعقـل وروية ۰۰ وايضـــا فى جـراة ومضاء ، وفى حركة دائبة ونشاط خلاق ۰۰

ولن تستطيع الثورة بهذا المفهوم الرفيع المجرد ، أن تغدو نقطة انطلاق نحو حياة أرغد وأسعد ، مالم يواكبها ادراك يرفـــع الجماهير الى مستواها ، وينزل بهم على منطقها ، حتى يكون انفعالهم بها ، وتجاوبهم معها على أساس من الفهم الواعى المستنير ، فهما يستوعب حقائق الحياة من حولهم ، ويستشف تيارات الفكر التى تعتصر العالم ، ويميط اللثام عن البواعث الخفية والظاهرة التى تحكم السلوك البشرى دولا وجماعات وأفرادا ۰

ذلك أن كل ثورة افتقدت ركائزها من الوعى والفهم والادراك ، لم تعمر الا كما يعمر البرق الخاطف فى الظلام المدلهم ، ثم لم تلبث أن تخطفتها الطير وألقت بها الريح فى مكان سحيق ·

وكل أمة ارادت أن تعيد بناء نفسها ، وان تجدد الخلايا التالفة فى جسمها بأخرى تفيض بالحيوية والحياة ، وجدت أن منطق الأمور يقضى عليها ، أن تجعل لنفسها نقط انطلاق رئيسية ، تتخذها أساسا تقيم عليه خطتها من أجل البناء ، والا تميعت اتجاهاتها ، وتفرقت بها السبل وأضحت أمة بلا هدف ، أو بالأخرى أمة بلا روح ·

وكم من أمم صحت عزيمتها على البناء · ولكن بناءها لم يلبث أن خر عليها من القواعد ، ولم تلبث امانيها أن ذهبت ادراج الرياح وما ذلك الا لأنها لم تكلف نفسها عناء الدرس والتمحيص ، لكى تحلل الظروف التى مرت بها خلال تاريخها الطويل ، ولم تستعرض تجارب ماضيها ، لترى فيها مواطن النجاح والفشل ، ولم تمعن النظر فى تجارب ، ولو فعلت لوعت حقيقة وجودها ، ولتبينت مواقع اقدامها ولتفتحت أمامها مصاريع المستقبل وغياهب الغموض ·

ولقد طفت على سطح المجتمع عندنا مفاهيم جديدة وقيم مستحدثة ، تحمل فى طياتها معنى الثورة ، وتتبلور فيها أهدافها ، وهى فى حاجة الى مزيد من الشرح والايضاح ، حتى ليزول ما قد يعتورها فى عقول الخاصة والعامة من ابهام وغموض ، حتى اذا ماتشربتها عقولهم ونفوسهم ، انعكست على سلوكهم وعلى جوارحهم وكانت مرتكزا نحو آفاق من الفهم أرحب وأوسع ·

ومن أجل ذلك ، كان لزاما علينا أن نعالج تلك المفاهيم والقيم معالجة هادفة حتى نجليها فى اذهان الناس ، وحتى نبدد ما عسى ان يكون قد ران عليها من ريب وشكوك ·

والكتاب الذى بين ايدينا ، لمسات موفقة ، حاول بها المؤلف أن ينهج هذا النهج الذى خططنا معالمه ، وحاول أن يسلط الاضواء على الأفكار القومية ، التى أخذت تتدافع ، فى زحمة الاحداث التى يزخر بها مجتمعنا ، فى سرعة خاطفة ، لتأخذ مكانها فى الفكــــر العربى المعاصر ، ولتأخذ دورهــــا فى معــــركة القومية العربية وانطلاقها •

نقدمه لقراء العربية راجين أن يؤتى اكله ويحقق نتائجه •

والله هو المستعان •

لجنة كتب قومية

كيف عرفنـا عروبتنـا !

كنا نتناقش ــ احد الاصدقاء وانا ــ فى مشاكل وطننا العربى وأهدافــه ، وتحدثت بحـــرارة تفيض من قلبى وحلقى عن أولئك « العرب » الذين يعادون وحدة الوطن العربى ، ويقفون ضد انطلاقته وحين أوشكت نبرات صوتى أن تنتقل من الاحتجـــاج المرير الى الاحتجاج الصاخب ، استوقفنى الصديق قائلا :

ــ مهلا ٠٠ فلا تقس على هؤلاء اليوم ٠٠ فسيعودون يوما ما الى طريق العروبة حين تتضح امام أعينهم الحقائق ، وينكشــف سراب الوهم ٠

ــ وما ادراك أنهم سيعودون ؟

ــ ان دعوة القومية العربية هى الدعوة الاصيلة ، الممتدة الركائز فى النفس ، انها نداء التاريخ واللغة والثقافة والمصالح ٠٠ وكل تلك هى أولى عناصر الحياة ٠ ولابد أن تتغلب دعوة العروبة فى ضمير العربى ٠٠ على غيرها من الدعوات ٠٠ ان كان صافى الضمير ٠

ــ ولكننا الآن فى معركة !

ـ ان المعركة ليست معركة قصيرة العمر ، انها معركة خالدة طويلة · بعض خطوطها حرب وبعضها سلم ·· بعضها تجميع وبعضها تنسيق ·· بعضها وحدة وبعضها بناء · والمعركة تستقبل كل يوم محاربين جددا · وربما كان هؤلاء الذين تشكو منهم بعض محاربيها فى المستقبل ··

ان غاية الانطلاقة العربية هى تجميع قلوب العرب وابدانهم من الخليج الى المحيط ·· ويالها من غاية ·

وغايتها أيضا هى رفع مستوى المواطن العربى الثقافى والاقتصادى والنفسى من الخليج الى المحيط ·· وياله من طريق طويل ·

ولكل عربى مدعو لأن يكون جنديا فى المعركة · فى موقعة من مواقعها فى جيل من أجيالها ، ولابد أن ينضم لكل عربى الى الكتيبة · وسألته :

فما بال أولئك الخارجين عن ركب العروبة يركبون بحر اللجاجة ، ويتمادون فى الاساءة الى جوهر العروبة ؟

وابتسم صديقى قائلا : سيعودون ولو كان التضليل قد اعمى بصائرهم ، لأن ستار التضليل لابد ان يرتفع · اما اولئك الذين باعوا أرواحهم ، وقبضوا لها الثمن ، فسوف تطردهم الجماهير اللجاجة ، ويتمادون فى الاساءة الى جوهر العروبة ؟

وعندئذ لايبقى فى أرض العرب الا من يؤمن بوحدة العرب ·

قلت :

ـ ذلك أمل بعيد ·

وقال الصديق :

ليس هذا بعيدا ... وتذكر تاريخنا

وتذكرت تاريخنا

تاريخنا كأفراد

وتاريخنا ـ كجزء من الأمة العربية

وشردت في الذكرى

نحن ابناء جيل ولد في بطن المأساة ، ولست اقصد مأساة الجسد ورغبات الحياة . ولكني اقصد مأساة النفس .

كان كل يوم يمر علينا يفاجئنا بأحداث غريبة ، تسلبنا اعتزازنا بوجودنا ، وايماننا ـ في بلدة مستعمرة ، تتنازعها تيارات الأحزاب الرجعية والمضللة والمتاجرة بالوطنية . بين ظهراني فلاحين يعانون من ضيق الحياة وشظف العيش ، في مهب ثقافات متباينة وتيارات فكرية مختلطة .. كلها دخيل ، ومعظمها مسموم .

ونحن الذين كان لنا حظ التعليم في المدارس في ذلك الحين ، ومغادرة قرانا أو مدننا الصغيرة الى العاصمة كنا نحس بمسئولية غامضة عن حياة أولئك الذين تركناهم وراء ظهرانينا ، في قرانا أو مدننا الصغيرة .

وفي السن الصغيرة التي يفكر فيها الشباب الصغار في متعة الفن أو الرياضة كنا نحن نفكر في السياسة ، وكان مفهوم السياسة عندنا مفهوما متقدما بالنسبة لعجائز الجيل . كان مفهومها هو خروج الاحتلال ، وأصلاح أحوال المرحلة .

وتشعبت امامنا الاتجاهات .

وعاد البعض الى سيرة السلف الصالح ، بضمائر لم تتفتح لاتجاهات العصر وأهدافه ، وأعين لم تبصر بعد ما جد على الدنيا

من تطورات ٠ ثم انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة المتفتحة ، فما لبثوا ان أصبحوا اعداء للمجتمع ، يواجهونه بالخنجر والمسدس بدلا من النصح والتوجيه ٠

وتعلق البعض بأوربا فى مظاهر حضارتها المتقدمة وعلمها التطبيقى ، وديموقراطيتها التقليدية ٠

وتعلق البعض بالمذاهب الجديدة الوافدة ٠ دون تمعن أو تمحيص وانما اعجبتهم منها الصورة البعيدة بخطوطها الواسعة ، وهم يستقون معرفتهم بها من مصدر واحد ، ونبع واحد ٠

وتمزقت وحدة الأمة ، وتمزق صفاء نفس هذه الشبيبة الجديدة ٠

وتشعبت الاتجاهات ، وتصارعت وتحاربت ولكن قضية الوطن لم تتقدم خطوة واحدة ٠٠

لم يتحقق الاستقلال ، ولم ينصلح الحال ٠

وكانت العروبة غائبة عن وجداننا ، مثل الدم الذى يجرى فى عروقنا ، ولكننا لانحس بوجوده الا اذا اصابنا الجرح ، وانفجر الدم من الشريان ٠

وحين قامت ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، تحسسنا جراحنا ، فعرفنا قوميتنا ، وعاد ركب هذا الجيل ، الذى كاد يضيع بين التيارات الغربية ، الى كتيبة العروبة ٠

ولم تكن الازمة الى عاصرناها أزمتنا نحن الشباب فحسب ، ولكنها كانت أزمة شاملة تجتاح المفكرين ورجال السياسة أيضا ٠

كان هناك من المفكرين وكبار أهل الأدب والثقافة من يدعون الى العودة الى الفرعونية ، والى اعتبار الهجرة العربية فى القرن

السابع الميلادى حركة غزو لاتكاد تفترق عن غزو الرومان واليونان والترك والانجليز والفرنسيين ٠

وكان هناك من المفكرين من يدعو الى نبذ الحضارة العصرية بكل مظاهرها ٠ والى العودة الى عصور السلف الصالح ، والى الارتباط بالشعوب الاسلامية وحدها ٠

ومن المفكرين من كان يدعو الى الارتباط بحوض البحر المتوسط ويزعم اننا أقرب الى الغرب منا الى الشرق ، وأن علينا أن ندرس فى مدارسنا الثانوية اللغات اللاتينية واليونانية ٠

وكان لكل مفكر وطنه الروحى ٠ كان هناك من يجد وطنه الروحى فى فرنسا ، وباريس بملاهيها ومناخها وانوارها ٠

ومن يجد وطنه الروحى فى انجلترا بتقاليدها وادبها ، ونظمها السياسية والاجتماعية ٠

ومن يجد وطنه الروحى فى العالمين الجديدين اللذين بلغا شأوهما بعد الحرب العالمية الثانية ٠٠ أمريكا ٠٠ وروسيا ٠

ولا أحد ينظر الى مواطىء اقدامه ٠

وحين قامت ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، وتوالت انتصاراتها ابتدأ المفكرون ينظرون الى مواطىء أقدامهم ٠ وأخذنا نحاول ان نقيم لنا فلسفة فكرية عربية معاصرة ، تستمد اصولها من تاريخنا وتراثنا وفى نفس الوقت تقف أمام التيارات العالمية ، فى محاولتها حل مشاكل العصر ، والتخطيط لمستقبله ٠

فلسفة تقف على ركيزتين ، لا تستغنى عنهما فلسفة تريد أن تعيش بين الناس ، هما الاصالة والمعاصرة ٠

وعند هذا الحد توقفت ٠٠

بعد ان قست بفكرى المرحلة الطويلة التى قطعناها ٠٠ أفرادا وجيلا ومفكرين ، حتى وجدنا عروبتنا ٠

وشملنى تفاؤل غامر ، لأنى أدركت ان الطريق أمامنا طويل ، وان دعوة العروبة ستكسب كل يوم محاربين جددا · كما كسبتنا جميعا ، وآمنت ان العلم سيرتفع يوما ما على أبعد نقطة نائية ·· بين الخليج والمحيط ، وأن العروبة ستدخل أشد القلوب اغلاقا ، بين ثمانين مليونا من العرب ·

ولن يتخلف عن الركب ، على مدى رحلته الطويلة ، الا الخونة وهؤلاء ·· لاحاجة لنا بهم ··

ان الرحلة القادمة الطويلة تحتاج الى الفكر كما تحتاج الى العمل لكى تصبح ثورة تاريخية ·· لكى تصبح علامة من علامات التاريخ ·

والفرق بين الحدث التاريخى والحدث غير التاريخى أن الاول يحفر خطاه فى التاريخ ، ويكون تجربة يصح ان تستقى منهـا العبرة ويغير الى حد كبير صورة المجتمع وخلقياته ومنهج تفكيره ·

أما الحدث غير التاريخى ، فهو حدث عـابر ، قد يثير من الضجة أكبر مما يثير الحدث التاريخى ، ولكنها حجـة ظرفية ، موقوتة بأوانها وسرعان ما تتبدد فى مهب الريح ·

ان الثورة الفرنسية حدث تاريخى ، أما قيام نابليون وسقوطه فهو ليس حدثا تاريخيا ·

لقد ألقت الثورة الفرنسية شعارات وأهدافـا ، ودخلت فى مجال التجربة الثورية للعالم كله ، وأصبحت ·· عبرة ·

أما الفتوح والانتصارات ، والمعارك والهزائم ، فهى لا تعيش فى ذاكرة التاريخ الا بمقدار ما تصنع من الأفكار فاذا كانت فقيرة فى الأهداف والافكار ·· كانت مجرد ضجة على أبواب التاريخ ، لا تستطيع ان تدخل ساحته ·

ولكى تكون ثورتنا العربية ثورة تاريخية لابد لها من الأفكار · لابد لها من ايديولوجية ·

تابع كتاب أفكار قومية

العناصر الثلاثة للأيديولوجية العربية

الايديولوجية هى الفكر الذى يوجه العمل ٠

فهى اذن تشمل المذهب السياسى والفكرى الذى تصدر عنه أعمال الانسان فى حالة جماعيته ، وتحدد نقطة بدئه ، وغايته أيضا وهى ليست ثقافة فحسب ، بل لعل الثقافة احد مقوماتها ٠ وهى الجوهر الذى يبدو وراء مظاهر العمل السياسى اليومى ، وهذا العمل السياسى اليومى يهدف بطبيعته الى الوصول الى شكل اجتماعي معين ٠ هذا الشكل الاجتماعى تحدده الايديولوجية ٠

ومثال ذلك :

ان الايديولوجية الماركسية تتبنى المذهب المادى فى تفسير التاريخ ونقطة البدء عندها هي ادراك صراع الطبقات ، وحتمية التطور القائم على هذا الصراع ٠ والغاية عندها هي المجتمع الشيوعى المرموق ٠

والثقافة الماركسية ـ على سبيل المثال أيضا ـ تساهم هى والعمل السياسى فى تحقيق هذه الايديولوجية ونقلها من عالم الفكر الى عالم العمل ٠

ولكى تكون لنا ايديولوجية ينبغى أن يدرس المفكرون العرب العناصر الثلاثة التى تكون الايديولوجية ، وهى الانسان والزمان والأرض ٠

ودراسة الانسان العربى تبدأ بدراسة تاريخية ، وتراثه من ثقافة وفكر ووراثات حضارية واجتماعية ، لكى تتجه بعد ذلك الى دراسة حاضره ٠ فتستطيع عندئذ أن ترسم صورة لمستقبله ٠

والانسان العربى ـ رغم تعدد نماذجه فى الاقطار العربية المختلفة ـ الا أنه من السهل ادراك الصورة العامة لكيانه النفسى ، فهو بلا شك يختلف عن انسان أوروبا كما يختلف عن انسان الشرق الاقصى ٠ فقد صنعت له حياته التاريخية تقـــاليد معينة ، ونظرة خاصة للفضيلة والخير ، وتطلعا معينا الى شكل الحكم الملائم ، وصبغت الى الحياة بصبغة خاصة ٠

كل تلك المميزات من الممكن ادراكها من دراســـة تراث هذا الانسان العربي ، سواء منه التراث الأدبي أو الحضاري ، ثم اعادة النظر فيه ، واستبقاء الجوانب الصالحة منه ، واسقاط النواحي المعطلة أو المعوقة ٠

والحكم فى صلاحية بعض تراثنا للنماء أو الاهمال هو للزمن، والزمن هو العنصر الثانى فى الايديولوجية ٠

والزمن الذى نعيش فيه هو الركن الثانى من ايديولوجية فمن المسلم به أن مطالب الانسان العربى فى عصرنا تختلف عن مطالبة فى عصور مضت ، كما ان من المسلم به أن كثيرا من التغيرات قد حدثت فى العالم الذى يحيط بنا ، وتركت اصــداءها فى عالمنـــا ٠ ولبناء الأيديولوجية العربية الجديدة سيحتفظ الانســـان العربى الجديد بما نبتت صلاحيته من تراثه الماضي واوجه نشاط جيلــه الحاضر ٠ وسوف يضيف اليها ما أثبته الزمن من مثل سياسية

وفكرية جديدة أصبح من العسير أن يستغنى عنها الانســان حين يشرع فى بناء حياته المستقبلية ٠

ينبغــى ان يشــعر الانسان العربـــى ان تجارب العالـــم وتراث العالم ومعارك العالم ، بدروسها وعبرها ، كلها ملك له ، وان ايديولوجيته الجديدة هى فى ذات الوقت معاصرة متفتحة ٠

ولكى يمكن توجيه هذه الايديولوجية ، ولكى يمكن جعلها نقطة بدء لنشاط الانسان العربى لابد لها من دراسة عنصـــر المكان ٠ والمكان هو الأرض العربية ٠ ودراسة طبيعة هذه الأرض ـ كوحدة اقليمية وسياسية ـ من ألزم الدراسات ٠

لقد تشعبت الدراسات العربية ، ولكن دراسة واحدة شاملة ـ فيما عدا الدراسة الادبية التقليدية ـ لم تقدم للواقع العربى ٠ فهو فى حاجة الى دراسة اقتصادية واجتماعية توضع على اساس وحدة البلاد العربية ، وتستهدف ان تجلو منابع الخصب فى هذه الوحدة ٠ وجدوى هذه الوحدة على الارض العربية كلها ٠ هى فى حاجة الى عملية « مساحة » لامكانيات الأرض العربية ومقدراتها لكى يمكن بعد ذلك تنسيق نشاطها الاقتصادى والاجتماعى ٠

فما هى اذن غاية الايديولوجية العربية بعد هذه الدراسات كلها ؟

ليست الغاية هى الوحدة فحسب ، لأن الوحدة دون استهداف لسعادة الانسان الفرد لا تصلح غاية سياسية معاصـــرة ٠ ولكن الوحدة يجب ان تتم فى ظل سعادة الانسان ومن اجله ٠ ولذلك فان عنصرى المكان والزمان عند رسم مستقبل الانســان العربى عنصرين هامين ولذلك كان انفتاح الفكر العربى على دراسة كل التيارات والمذاهب المعاصرة ٠ وبمنابع الثروة والخصب التى يجب ان ينعم فى ظلها الانسان هما السبيل لكى تكون الايديولوجية العربية فكرا يوجه العمل ، ومذهبا ونقطة بدء ، وتحديدا واضحا للغاية ٠

تابع كتاب أفكار قومية

خصـــائص الانســـان العـــربى

ربما كان تلمس خصائص واضحة للانسان العربى على مر العصور المختلفة التى عاشتها الأمة العربية فى التاريخ محتاجا لجهد كبير فى المراجعة والاستقرار ، ولكن النظرة الأولى تبدى لنا خصائص كانت دائما أقوى من أن تطمسها الاحداث او تؤثـر فى جوهرها السنون ، هذه الخصائص هى التى حافظت بلا شك على الكيان العربى حين تخلت السلطة عن العرب فى مملكة الاسلام ٠

ابتدأ العرب يفقدون سلطانهم الزمنـــى والدينى فى مملكة الاسلام منذ ان استجلب الخلفاء العباسيون المماليك الاسيويين لكى يجعلوا منهم قوة ومنعة لسلطانهم فمـا لبث هــؤلاء ان استبدوا بالسلطان ، وفقد الخليفة العربى المسلم سلطانه الزمنى ثم ما لبث ان فقد سلطانه الدينى أيضا على أيدى الاتراك العثمانيين ٠٠

ولا شك ان لتماسك الأمة العربية أثرا كبيرا فى انها لم تفقد سلطانها الروحى على الشعوب الاسلامية رغم فقدانها للســلطان الدينى الشرعى الممثل فى الخليفة ٠٠ والسلطان الزمنى الممثل فى الحاكم أو الملك مهما تسمى به من أسماء ٠

لقد اندمجت الشعوب الناطقة بالعربية فى وحدة كانت تصل

احيانا الى حدها الادنى ·· فتتفرق تلك الشعوب الى ولايات أو مماليك ·· وتصل احيانا الى حدها التاريخى فتندمج تلك الشعوب في شبه وحدة ··

والدين واللغة كانا عنصرين كبيرين فى اقرار تلك الوحدة ، والعنصر الاخير خاص ، وان كان نتيجة للعنصر الاول ، الا أنه يفوقه أهمية فى بناء الشخصية العربية الحديثة ، اذ ان اللغة تعنى الثقافة ، والثقافة هى الكلمة المكتوبـــة أو المنطوقة التى تجمـــع الشعوب ولذلك فان اللغة العربية كنقطة التقاء من أهم مشخصات الأمة العربية ، وربما بدا هذا الأمر حتى الآن تحصيل حاصل ، ولكن دلالته تتضح اذا انطلقنا من هذه البداية الى مناقشة قضايا العامية والفصحى ، وقضايا اقليمية الأدب وبيئته ، وهى كذلـــك تعاوننا فى مناقشة مشاكل الحوار المسرحى ، والاغنية ، والاحاديث الاذاعية ، ومستقبل السينما وما الى ذلك من الخطوات التى يجب أن نخطوها لتدعيم وحدتنا ·

ليس من الغريب أن نحس ـ نحن المصريين ـ بقربنا من شعوب عربية شقيقة اكثر مما نحس بقربنا من شعوب اخرى ، وأنا أميل الى الظن باننا نألف لهجات بعض الاجزاء من الوطن العربى اكثر مما نألف لهجات اخرى ، ونحن لذلك قد نكون أشد قربا ـ رغـــم توحدنا جميعا فى العروبة ـ الى شعب دون آخر ··

والانسان العربى « انسان بلاغى » ان صح هذا التعبير ، اذ ان أغلب تراثه الحضارى هو من فن الكلام الجميـــل ، وقد كان الشاعر يقول البيت فى العراق فينشده المنشد فى مصر ، وكما حفظت هذه اللغة ، هذا الحد الأدنى من وحدتنا فستكون من أهم الادوات الفاعلة على الوصول بهذا الحد الأدنى الى اقصاه ··

ولذلك فان المفكر العربى مطالب بأن يفكر للعـــرب جميعا ،

والأديب العربي مطالب كذلك بأن يكتب للعرب جميعا والانسان العربي مطالب بأن يعرف ان لغته ذراع ممدودة الى اخيه الانسان العربي في كل مكان ..

وعلى مدى حياة الشعب العربي لم يفقد هذا الشعب تماسكه القومي ، فهو لم يغلب لبعض العناصر ، كالترك والمماليك وغيرهم الا لأنهم لبسوا على وجوههم قناعا يحبه هذا الشعب ، وهو قناع الاسلام ، ولما كان معنى الاسلام والعروبة مختلطا اشد الاختلاط في نفس المواطن العربي في القرون الوسطى فقد اعتقد انه لم يحدث ثمة تغيير ، وحين نزل الفرنسيون مصر لم يستطع جيشهم على وفرة عدده وعديده أن يقر لنفسه مقاما بها ، وحين انتشر الوعي في البلاد العربية ، وأصبح المواطن العربي قادرا على ان يفرق بين مفهوم العروبة كوطن والاسلام كدين هبت الثورة العربية الكبرى ضد الاتراك بعد أن سبقتها على أرض الشام ملاحم ومعارك وبطولات ، وتعددت ثورات العراق على الحكمين التركي والانجليزي ..

الانسان العربي اذن « انسان ثوري » حقيقة هو في حاجة الى كثير من الوعي لكي يعرف عدوه ، ثم لكي يكون طريق ثورته هو الطريق الصائب .. ولكي تؤتي ثورته ثمرتها المرجوة ..

وهو في هذه المرحلة الجديدة في حاجة الى وعي اشمل ، لكي تتجه ثورته التاريخية الحديثة وجهتها الصحيحة ، وتبلغ هدفها المنشود .. والهدف الذي يتمثل للثور العربية ليس هو الوحدة فحسب ، بل هو الاشتراكية ايضا ..

ان شعار الثورة العربية الحديثة هو كما رسمه قادة الوطن العربي ، الوصول الى صورة اشتراكية تعاونية للمجتمع ، والاشتراكية لا تتم بدون حرية ، والوحدة ايضا ضمان لهذه الاشتراكية ان تكون طاقاتها اكبر ونتائجها اشمل واعم ..

وواجب المفكر العربى ان ينمى المعـــانى الثورية فى نفس المواطن العربى ، وان يجعل هذه المعانى الثورية معانى مبصـــرة واعية ، تعرف طريقها لاحسن النتائج واشمل الغايات ٠٠

استفادت الثقافة الثقافية العربية دائما من ثقافات الأمـــم الأخرى ، فعرف الفكر العربى فلسفة اليونان ، وتصـــوف الهنود وحسابهم ، وتقاليد الفرس الحضارية ، وفن المصريين القدماء ٠٠ كانت الميزة الحقيقية للانسان العربى أنه انسان متفتح ، فهو لـــم يحاول أن يدمر حضارات الشعوب التى دانت له مثلما كان يفعل التتار أو ينهب خبرتها الفنية كما كان يفعل العثمانيون ولكنه شجع هذه الثقافات وتلك الخبرات على الازهار واستفاد منها وأفاد من بعد ذلك العالم كله ٠٠

وبعد اربعة قرون من الدولة العربية أصبح من العسير ان تفرق بين الخيط اليونانى والخيط الفارسى فى نسيج هذه الحضارة الجديدة اذ تفتحت كل تلك الازهار تحت الشمس العربية ٠

والانسان العربى المعاصر يعايش الآن ثقافات أخرى ، وكل من هذه الثقافات قد بلغت حدا بعيدا من النضج والتفتح ، وقـــد أصبح العالم الثقافى الآن عالما واحدا وان فرقته أمم شتى ٠٠ ومن واجب الانسان العربى ان يظل محـــافظا على ذلك التقليد النبيل الذى علمه له الاجداد ، منذ ان قال النبى العربى « اطلبوا العلم ولو فى الصين »

ووجب المفكر العربى فى ذلك هو ان يـــكون متفتحا ، وأن يدعو المواطن العربى الى التفتح فاننا نستطيع أن نمتلك كل ما عند الآخرين من ثقافة وخبرة ، فنزداد بذلك غنى ، ولا نسلبهم شيئا لأن الثقافة ملك للجميع ٠٠

تابع كتاب افكار قومية

الزمن .. والثورة العربية

للثورة العربية المعاصرة مغزى تاريخى ، اذ هــى نموذج لثورة ناجحة تختلف اختلافــا كبيرا عن الحــركات الوطنية أو الاصلاحية الأخرى التى تمت منذ أوائل القرن العشرين ·

ان هذا القرن قد شهد منذ بدايته غليان الحركــات الثورية سواء فى أوروبا أو فى اسيا وافريقيا وسواء فى الدول المستقلة التى تعانى من التخلف الاجتماعى أو التفكك القومى ، أو المستعمرات التى تهدف ثوراتها الى تحقيق سيادتها القومية ·

ومن أمثلة الثورات فى الدول المستقلة نجد مثالين هما أوضح الأمثلة واكثرها جلاء · اولهما الثورة الشــيوعية ١٩١٧ · ومن الواضح ان هذه الثورة كانت تطبيقا عمليا لنظرية معينة فى السياسة والاقتصاد هى النظرية الماركسية وان هذه النظرية لم تنبت فى أرض روسيا ، ولم تهدف فى تقدير كارل ماركس الى اشعال نار الثورة فى تلك البلاد · ولذلك فان هذه الثورة لم تكن ثورة قومية بالمعنى الواضح لهذه الكلمة ، بل لعل كلمة القوميــة كانت من الكلمات الكريهة المذاق فى الفم عند رجالات هذه الثورة · ولقد اكد لينين اكثر من مرة فى خلال سنوات صراعه مع المنشقين والذين يريدون

تعديل النظرية الماركسية أنه ليس للعمال وطن • وان القومية نزعة عدوانية متعصبة • وقد كان له موقفه الواضح من الحرب العظمى الأولى اذ كان يراها صراعا بين الطبقة المستغلة الاحتكارية فى كلا المعسكرين ، كما كان يرى ان من واجب الطبقة العاملة أن تقف على الحياد •

ولا شك ان هذا الموقف وأمثاله كان مرتبطا بظروف تاريخية معينة • ولكن الذى يبقى لنا من الحقيقة التاريخية الدائمة بعد ذلك هو ان هذه الثورة كانت ثورة طبقية • وانها قد انكرت القومية • لقد كان هدف هذه الثورة هو القضاء على طبقة المستغلين والاحتكاريين واقامة حكومة اشتراكية للطبقة العاملة عن طريق تشكيلاتها الحزبية •

ونجحت تجربة الثورة فى اقامة المجتمع الذى هدفت اليه • ولكنها تعرضت لكثير من الازمات اضطرت فيها ان تلجأ الى ذلك الركن الركين فى النفوس ، الا وهو الاحساس القومى • وكان ذلك أوضح ما يكون فى تجربة الحرب العالمية الثانية • اذ كانت الدعاية والتجنيد للمعركة يتجهان الى استثارة الشعب الروسى والجيش الروسى بالذات ، الى جانب استثارتها للاستجابات العامة مثل اقرار السلام والدفاع عن الحضارة والتقدم •

وها نحن الآن بعد أربعين سنة من عمر هذه التجربة الخطيرة نجدها أكثر تسامحا مع الدعوات القومية ،و اكثر تقديرا لظروف كل قطر من الاقطار أو بلد من البلدان • وها هى ذى كلمة مثل كلمة لينين التى اوردها الآن تعود الى الدراسات الماركسية •

« اننا لا نعتبر النظرية الماركسية أمرا كاملا منزها • بل على العكس من ذلك ، فما هى الا حجر الزاوية فى ذلك العلم الاجتماعى الذى يستوجب على الاشتراكيين ان يكيفوه فى كل اتجاه حتى لايتخلفوا عن سير الحياة ، ونعتقد ان واجب الاشتراكيين الروس

بوجه خاص هو ان يقوموا بدراسة النظرية الماركسية دراسة مستقلة لأنها نظرية عامة يمكن ان تطبق فى انجلترا مثلا بطريقة تختلف عن فرنسا ، وتختلف فى فرنسا عنها فى المانيا ، وتختلف فى المانيا عنها فى روسيا » ٠

وتلك كلها بشائر بتغيير قد يكون رئيسيا فى النظرية الماركسية هذا التغير الذى أصبح حقيقة واضحة لاينقصـــها الا ان تقال ، واضحة فى علاقة الاتحاد السوفيتى بالحركات الوطنية فى البـــلاد المختلفة وواضحا أيضا فى طريقتها فى التخلص من مآزقها فىعلاقتها مع دول شرق أوروبا ، واضحا ثالثا فى محاولتها مد يدهــا الى الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية فى غرب اوروبة وتخفيف قبضتها عن الاحزاب الشيوعية فى العالم ٠

ان القومية تعود لتأخذ مكانها كعنصـــر فعال فى الكفــاح الوطنى والاجتماعى ٠

والمثال الثانى من أوروبا هو مثال الانقلاب الهتلرى سنة ١٩٣٣ ومن الواضح ان هذا الانقلاب لم يكـن ليلقى اســتجابة لولا ان المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى كانوا يسدون الطريق أمام عودة الشعب الالمانى الى الحياة الطبيعية التى يتمتع فيها بكرامته القومية٠ ولذلك فما كاد هتلر يصيح فيهم صيحته العدوانية حتى أصـــبح معبود عامة الشعب الالمانى ٠

كان هتلر قوميا بالمعنى العدوانى لهذه الكلمة ، لايؤمن بعنصر غير العنصر الالمانى ، ولا بمستقبل غير مستقبل المانيا ، وكان يلقب الاشتراكيين والماركسيين بالخونة الدوليين وأطلق على بقية العالم لقب « السلالات المنحطة » ٠ وكانت الاشتراكية عنده كلمة بلا مغزى وان وصفها شعارا لحزبه ، فقد كان يتصور ان مستقبل الشـــعب الالمانى هو ان يصبح تعداده ٢٥٠ مليونا وان يستولى على النمسا

وهولندا وبلجيكا لأنها تتحدث الالمانية ، وان يكون مجال هذا الشعب الحيوى هو أرض العالم كله ٠

لقد فشلت النازية فشلا ذريعا كدعوة قومية اصلاحية ٠ ولكن فشلها هو فى حد ذاته عبرة واضحة ٠ اذ ان هذا الفشل قد اوضح ان القومية يجب الا تكون دعوة عدوانية ، وانه ليس معنى ان تكون قوميا ان تدير ظهرك للعالم أو تركله بقدميك ، بل ان تقف مع بقية القوميات الأخرى على مستوى الصداقة والمساواة ٠

كما ان هذا الفشل قد أوضح ان الاســـتقلال والقوة المادية وحدهما لايكفيان لصنع مستقبل الأمـــة ٠ بل لابد من شق الطرق أمام هذه القوة لكى تتسرب اليها ٠ وهذه الطرق طرق سلمية بعيدة المدى تهدف فى آخرها الى الرخاء الشامل المسالم ٠

ونهاية كل ذلك هى الاشتراكية ، الاشتراكية فعلا لا اسما ٠٠

والثورة العربية كثورة تاريخية يفتتح بها النصف الثانى من هذا القرن قد تجاوزت هاتين الحركتين بعد ان وعت دروسهما ٠ وبعد ان استفادت من اخطائهما ونواقصهما ٠

فالثورة العربية قومية أولا ، بمعنى انها تهدف الى استرداد استقلال العرب ووحداتهم ، وهى لا تبغى ان تقف بهم ازاء العالم ، بل بجانبه ٠ ولا تجمع صفوفهم للعدوان ، بل لاقرار السلام ٠

وهى اشتراكية ، ولكن اشتراكيتها تنبع من داخل قوميتها ٠ ان اشتراكيتها هى طريق للوفاء بحاجات شعوبها الحيوية ، وهى خاضعة فى خطواتهـــا لمراحل كفاحهـــا الوطنى وتامين تقدمهـــا الاقتصادى واذا كان جانبها القومى ثوريا لأنه معركة كرامة فان جانبها الاشتراكى سلمى تطورى ، لأنها معركة عدالة ومساواة فى داخل نطاق تحقيق مصالح جميع طبقاتها ٠

الدرس الثالث الذى وعته الثورة العربيـة كان من كفـاح المستعمرات ٠

لقد تمتعت كثير من المستعمرات باستقلالها فى هذا القرن اثر مفاوضات سلمية أو ثورات مسلحة ضد الاستعمار ٠ وخرج الاستعمار العسكرى من معظم ثكناته وقواعده فى المستعمرات ٠

ولكن هذا الاستعمار المراوغ خرج من الباب ليعود من النافذة وفى هذه المرة كانت عودته مصطبغة بالقوة والخفاء معا اذ كان يسندها رأس المال والمصالح الاقتصادية وحدة الصراع العالمى وسعاره ٠ وقد ابتكر الاستعمار كثيرا من النظريات لتبرير وجوده دون ان يخدش غلالة الاستقلال ٠

مثلا هناك رأى شائع عند بعض مفكرى المعسكر الغربى يقول ان الاستقلال بمعناه القديم لم يعد ممكنا فى العالم الحديث ، اذ ان تشابك المصالح ووجود منابع الثروة فى بعض الاقطار ورأس المال اللازم لتثميرها فى اقطار اخرى مع تربص عدو مشترك بنمو الرأسمالية الفردية ومصائر الطبقات الحاكمة كل ذلك يوجب على الدول المستقلة ان تتنازل راضية عن جزء من سيادتها فى سبيل تنسيق وضمان المصالح العامة لجميع الدول ، وتسمى هذه النظرية فى عرف هؤلاء بنظرية « التكافل العالمى » ٠

وقد فقدت كثير من الدول التى حصلت على استقلالها حديثا هذا الاستقلال فى واقع الأمر وان ظلت لها مظاهره ، بفضل اعتناقها لهذه النظرية ٠

وشىء آخر ، هو ان الاستقلال الوطنى فى كثير من الشعوب وقع فى يد « غير الوطنيين » اذ تولت الحكم فئة من اصحاب المصالح أو ذوى العروش الذين وجدوا من مصلحتهم التعاون مع الاستعمار ضد مسعى شعوبهم الى ان تتولى السلطة ٠ وقد كان هذا أكثر

وضوحا فى الشرق العربى فى حكومات الاقليات فى مصر منذ اعلان الدستور ، وفى كثير من الحكومات العربية ٠

ان الدرس الذى وعته الثورة العربية من كفاح المستعمرات هو ان الاستقلال لابد ان يؤمن ، وان الحكم الوطنى لا يكون وطنيا حقيقة الا اذا تولى أموره من لايتهاونون مع الاستعمار ولاترتبط مصالحهم به ٠

لقد أصبح واضحا ان أصعب الفترات فى حياة الأمم هى فترة ما بعد نجاح الثورة ٠٠ مابعد الاستقلال ٠

ان تاريخية الثورة العربية هى انها وعت هذه الدروس جميعها فماذا أمامها من الخطوات اذن ؟

أمامها ان تعيد التفكير فى هذه الدروس ، وان ترسى فى ثقة وجرأة ، مع مزيد من الدراسة والتمعن معالم قوميتها واشتراكيتها وتدعيم استقلالها ٠

تابع كتاب أفكار قومية

انهــا ثورة العرب جميعــا

من الخطأ الذى يقع فيه الكثيرون انهم يفتشون عن جذور ثورة ٢٣ يوليو فى تاريخ مصر وحدها · فى ثورة عرابى ســـنة ١٨٨٢ ، وفى الحركات الوطنية التى قادها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وفى ثورة سنة ١٩١٩ ، وفى الثورات الصغيرة المتلاحقة التى حفل بها تاريخ اقليم مصر ، قبل ثورته الكبرى ··

وهم لايربطون بين هذه الثورة ، وبين الثورات التى اشتعلت فى كل أقاليم العروبة ، فى سوريا ولبنان ، وفى الجزيرة العربية ، وفى العراق ، وفى المغرب العربى ··

وخطورة هذه النظرية الاقليمية هى انها تلقى ظلا كثيفا على الاتجاه القومى العربى لثورة ٢٣ يوليو ، انها تبرز ذلك الاتجاه ، وكأنه مجرد استجابة عارضة لظروف سياسية معينة تعرضت لها الثورة أو كأنه شعار وقتى حملته الثورة لمرحلة معينة ، فلما أثبت نجاحه ظلت الثورة تحمله فى المراحل التالية ··

وهذا خطأ واضح وشنيع ، وكثير من المعلقين السياسيين فى صحف الغرب يقعون فيه ، عن قصد أو غير قصد ··

ان الدارس المتأمل يجد ان جذور ثورة ٢٣ يوليو ، تمتد فى تاريخ البلاد العربية كلها ، كما تمتد فى تاريخ اقليم مصر ٠ وان هذه الثورة اذا كانت هى ثورة مصر الكبرى فهى ايضا ثورة العرب الكبرى ، وذلك لأنها تمثلت تاريخ العرب الثورى كله ، وتلافت اخطاء الثورات العربية السابقة كلها ٠٠

لقد كانت خلاصة كل التجارب التى خاضها العرب تسرى فى شرايين هذه الثورة ، منذ قيامها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠٠

وتجارب العرب الثورية تمتد طولا نحو قرن من الزمان قبل ثورة يوليو ، وتمتد عرضا حتى تشمل انحاء العالم العربى كله ٠٠

فقد بدأت الانتفاضات الثورية على الاستعمار التركى والانجليزى والفرنسى فى وقت واحد تقريبا ، فى أواخر القرن التاسع عشر ٠ واستمرت بلاد العالم العربى تغلى حتى انفجر المرجل فى ثورتين هامتين ، الأولى الثورة العربية التى انطلقت من جزيرة العرب سنة ١٩١٧ ، والثانية هى الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ ٠٠

أما الثورة العربية ، فقد نشبت احتجاجا على ظلم الاتراك ، وكان من اهدافها توحيد العالم العربى واستقلاله ٠٠ فهى اذن ثورة قومية عربية بالمفهوم الوجدانى للقومية العربية ٠ ولكنها فشلت رغم ذلك فى تحقيق أغراضها ، اذ ان الثوار من الأسرة الهاشمية استعانوا بالانجليز للتخلص من سيطرة الاتراك ٠ وسرعان ما انحرفت الثورة وظنت انها قد حققت اهدافها حين أقامت بعض العروش الواهية على حراب الانجليز ٠٠

لقد كان الخطأ الرئيسى لهذه الثورة انها ساومت بالعرب فى مجال التنافس الدولى ، وظلت جراثيم هذا الخطأ تتغلغل فى كيان جميع الدول العربية الجديدة التى ولدت بعد هذه الثورة ، مثل

العراق وشرق الاردن ، ووقف النفوذ الاجنبى حائلا دون ان تستكمل الثورة هدفها ، وهو وحدة العرب ٠

وليس غريبا ان تكون هذه تجربة نفسها ، هى أول امتحان خاضته ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فقد بدأ الضغط على قادة الثوار الجدد فى صلابة ضد هذه الاحلاف ٠٠

وكان الغرب يتوهم ان هؤلاء الثوار الجدد ليس لديهم من التجربة السياسية ما ينبههم الى خطر ادخال قضية العرب فى حلبة التنافس الدولى ٠٠ وفاته انهم قد تمثلوا تجربة الثورة العربية الأولى التى انحرف بها الاستعمار ٠٠

وكان ذلك التمثيل هو ميلاد سياسة الحياد الايجابى ٠٠

اما الثورة الثانية ، فهى ثورة ١٩١٩ فى مصر ، وقد كانت صيحات مصطفى كامل ومحمد فريد تمهيدا لهذه الثورة الوطنية ٠ وقد كان من الممكن ان تحقق هذه الثورة بعض اهدافها ، لو لم تكن — فى طبيعتها — ثورة اقليمية ، بعيدة عن العروبة ٠٠

كان من رأى الرجل الذى تصدى لقيادتها ، سعد زغلول ان الدول العربية اذا اجتمعت لا تزيد على اصفار ، وقد يكون على صواب فى تلك النظرة فى ذلك الحين ، ولكنه كان غافلا عن قوة الشعوب التى تحكمها هذه الاصفار من الحكومات ٠ واستغل الاستعمار هذه الفرصة ، فعمل على عزل مصر عن البلاد العربية الاخرى ، رغم ان هذه البلاد كانت تنظر الى ثورة مصر فى اكبار ومحبة ٠٠

وحين انطلقت ثورة ٢٣ يوليو ، حاول الاستعمار ان يحصر الثورة الجديدة فى نفس الخطوط الضيقة التى انحصرت فيها ثورة

سنة ١٩١٩ ، حتى يتمكن من العبث بأهدافها ، والسيطرة عليها فيما بعد فعمل على عزل مصر عن البلاد العربية ، ولكن الثورة كانت قد وعت تجارب كل الثورات الاقليمية السابقة ٠٠ وأدركت أن السبب الحقيقى فى فشلها هو انعزالها عن جماهير الشـــعب العربى من الخليج الى المحيط ٠٠

وأصبحت ثورة ٢٣ يوليو قومية عربية توجه نداءها الثورى الى العرب فى كل مكان ٠٠

والدرس الثالث الذى وعته الثورة من تاريـــخ العرب ومن تجاربهم الثورية هو اخطر الدروس ٠٠

ان الثورة الناجحة هى الثورة التى يكون لها هدف اجتماعى الى جانب هدفها الوطنى ٠٠

هى الثورة التى لا تكتفى بهدم المجتمع البائد ، بل ببناء مجتمع جديد على انقاضه ٠٠

وجميع الثورات العربية السابقة ، كانت تفكـــر فى الجانب الوطنى فحسب ، أو تفكر فى الاستقلال أو الوحدة أو طرد الاستعمار أو القضاء على الخونة ٠٠

ولكنها لم تكن تفكـــر فى اقتصــــاد العرب وثروات العرب ورفاهية العرب ٠٠

وكان هذا سببا رئيسيا من اسباب عدم استمرارها ٠٠

ان ثورة الحجاز سنة ١٩١٧ ٠ وثورة مصر ١٩١٩ وثورة بغداد سنة ١٩٢٠ وثورة سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦ كلها أمثلة على ذلك ٠٠

أما ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، فان الوجه الثانى لدعوتهـــا القومية هو المجتمع الاشتراكى الديمقراطى ٠٠ والوجه الثانـــى للحرية فى نظرها هو الرفاهية ٠٠

تابع كتاب أفكار قومية

فلسفة التخطيط

نصت المادة الرابعة من الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة على ان « ينظم الاقتصاد القومى وفقا لخطط مرسومة » تراعى فيها مبادىء العدالة الاجتماعية ، وتهدف الى تنمية الانتاج ورفع مستوى المعيشة ··

والمادة ٧٢ من هذا الدستور تقول « يكون المواطنون اتحادا قوميا للعمل على تحقيق الاهداف القومية » ولحث الجهود لبناء الأمة بناء سليما من النواحى السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية

فالحكومة العربية اذن حكومة تخطيط ، وهى تحاول ان تدرك ــ فى سنين قليلة ــ راكب التاريخ ، وهى تعلن أن قيامها مرتبط بحاجة الافراد الى تنمية الانتاج وبناء المجتمع السليم ··

والحكومة الجديدة كذلك لا تدعو المواطنين الى السير وراءها معصوبى الاعين مسلوبى الارادة ، فان لدينا الوعى بدور الحكومة والفهم الكامل لمعنى الحرية فى المجتمع التعاونى الجديد ·· نحن نعرف اننا لا نتنازل عن شىء ولا نصغر تجاه عملاق كبير اسمه الدولة ، ولكننا لأننا شعرنا بحاجتنا الى عمل اكبر ، وتنظيم اشمل

ويد أصلب ، فقد أقمنا حكومتنا الجديدة ·· حكومة التخطيط والتوجيه ··

فما هى المفاهيم المختلفة للفرد والحكومة والحرية ؟

وما هو المفهوم الذى اخترناه نحن ، واختاره شعبنا ؟

كان هناك نظرية قديمة اسمها نظرية الحق الالهى ، كان الحاكم ممثل الله على الأرض ··

وحين بدأت الشعوب تستيقظ ، ويكون لبعض طبقاتها دور فى توجيه سياستها ، ابتدأ الفكر السياسى الحديث ··

وجان جاك روسو الفيلسوف الفرنسى من أوائل أصحاب النظريات فى علاقة الفرد بالدولة ··

تقوم نظرية روسو فى العقد الاجتماعى على مبدأ أصيل ، هو ان الفرد حر كامل الحرية ، وانه يتنازل بمحض ارادته للدولة عن قدر من حريته ، اذ انه يتعاقد مع سواه من الافراد نوعا من التعاقد لكى يستطيع كل منهم ان يمارس حريته دون ان يعدو على حريات الآخرين ··

وقد ظلت هذه النظرية الفلسفية هى معين القرن التاسع عشر فى تحديد كلمة الحرية ، وساعدت هذه النظرة على تدعيم الاسس الاجتماعية لذلك العصر ، فالانسان الفرد هو محور الكون ، وهو يقبل طائعا ان ينضم الى المجتمع ، ومن حقه ان يرفض ، والصورة الأولى للكون هى الانسان الفرد الحر ، والفرد اذ يشبع مطالبه الخاصة فهو يؤدى فى الوقت نفسه مطالب مجتمعه ، والمشروعات الفردية والامتياز الفردى هى غاية الغايات ، والاقتصاد الحر هو الصورة الطبيعية للاقتصاد فى العالم ومبدأ خطير مثل « دعه يمر ·· دعه يعمل » يجب ان يسود ، اذ ان فى تقييده افتئاتا على الحرية ،

وتعسفا موجها للانسان واجبارا له على ان يتنازل عن قسط من حريته ، دون رضاء كامل ..

ومن جانب آخر ، قال هيجل « ان الدولة هى الفكرة الخالدة على الأرض ، انها القوة المطلقة على وجه الكون ، ان لها كل الحقوق وبيدها كل السلطات على الفرد ..

وهيجل فى هذه النظرة يجعل الصورة الرئيسية للكون هى الدولة ويجعل الفرد شيئا ضائعا ، أو هو أداة تباشر فيها الدولة سلطاتها فى السيادة والاستغلال ..

والواقع ان الدولة ليست الا مجموعة افراد ، ولكن هيجل كان يعنى بالدولة جهاز الحكم والفكرة التى تقوده .. وقد عبر الدستور الايطالى الذى أصدره موسولينى عن هذه الفكرة فى مقدمته حين قال : ان الأمة الايطالية ، بقوتها وخلودها هى جهاز له وجود وغايات ووسائل للعمل ، أعلى من الافراد ، سواء متفرقين أو مجتمعين ، ممن تتكون منهم الأمة !!

وبين هذين القطبين ، روسو الذى يجعل الفرد محور الكون ، وعلة الحياة الاجتماعية ، وهيجل الذى يمحو الفرد تجاه الدولة .. تذبذبت مفاهيم الحرية الحديثة على مدى القرون الحديثة ، كما نبعت الرأسمالية والديمقراطيات البرلمانية من هذه الفكرة التى القى بها روسو ، فقد ازدهرت أفكار هيجل فى الدستور الايطالى وعلى صفحات كتاب كفاحى لهتلر ، وولدت منها الفاشية الحديثة ..

ومفهوم الحرية من المفاهيم الاساسية التى لابد لكل نظام اجتماعى ان يناقشها ، وان يتخير مفهوما لها تنبع منه أعماله ، ويكون هو الخط السياسى للدولة ..

ومجال الحرية هو ، أولا وأخيرا ، مدى العلاقة بين الفرد والمجتمع .

ان دخول الفرد فى المجتمع ليس امرا يستفتى فيه الانسان نفسه ولم يحدث بينه وبين المجتمع ذلك التعاقد سواء فى صورة الاختيار السافر أو المستتر ، والمجتمع أكثر تركيبا مما ظن روسو ، وفى ذات الوقت أكثر بساطة ، فهذه الحياة ليست من حقنا حتى نستطيع ان نرفضها أو نقبلها ، كما ان هذه الصورة الاجتماعية ليست وليدة جيل من الاجيال أو ثمرة تفكير أمة من الأمم ، ولكنها صورة قديمة كقدم الانسان ، خالدة كخلوده ، وكل ما يستجد فيها من تغيرات أو ما تأخذه من أشكال انما هو مما يمس مظاهرها دون الجوهر ·

والدولة كذلك ليست هى ذلك الوحش الاسطورى الذى يمد الوف الاذرعة حول الناس لكى يخنق ارادتهم أو يميت طاقاتهم الخلاقة ·· وهى اذا اتخذت ذلك المظهر لمدة من الزمن فلا بد ان تتخلى عنه بحكم ملزم قاس ، وجميع النظم الفاشية التى قامت عبر التاريخ قد لاقت حتفها على أثر أى انتفاض يمسها من الداخل أو الخارج ··

هناك اذن صورة ثالثة للتكامل الاجتماعى ، وتقوم هذه الصورة على ان الانسان لا يختار أن يكون « اجتماعيا » ولا يستطيع أن يكون « فرديا » والمجتمع ليس عدوا للفرد ، وليس هو قوة أعلى منه · بل ان تقدمه هو مجموعة الطاقات الخلاقة لجميع الافراد الذين يكونونه ··

ولما كان التقدم الاجتماعى هو هذه الطاقات الخلاقة ، فقد كان لابد من اختيار بعض الافراد لكى ينظموا هذه الطاقات الخلاقة · ولكى يوجهوها جميعا نحو تقدم المجتمع ··

وتاريخ عملية الاختيار هذه ، هو تاريخ تطور صور الحكم ··

والدولة اذن هى قوة جماعية ، تستمد قوتها من الافراد ،

وتمارس سلطاتها فى حدود تنظيم امكانياتهم وتوجيهها ..

ويتسع نفوذ الدولة ويضيق تبعا لحاجة الافراد لاتبعا لما يتنازلون عنه من حرية ..

وقد يكون هذا الفرق غير واضح نظريا ، ولكنه يتضح فى التطبيق فالدولة التى تمارس سلطاتها وقد وضعت فى ذهنها أنها تتصرف فى حدود ما تجبر الافراد على التنازل عنه من الحريات تسعى دائما لأن تمد من سلطانها على حساب الافراد .. وهى عادة لا تعبأ بالفرد وتطالبه كل يوم بصك تنازل جديد فى هيئة قانون أو تشريع . وهى أيضا تحاول أن تبرر هذا العدوان بالشعارات والالفاظ الخداعة ، ومثال ذلك الدول الفاشية التى لا تملك فى الواقع شعارا الا العدوان واثارة كراهية الافراد .

أما الدول التى تمارس سلطاتها تبعا لحاجة الافراد فهى تملك وجهة النظر ، وقد حددت الغاية والهدف ، واعمالها جميعها تنبع من نظرية سياسية أو فهم لدور الأمة فى الحضارة العالمية .

وهذه الدول قد يتسع سلطانها فى فترة من الفترات ، وقد تسن من القوانين والتشريعات ما ينظم جميع اوجه النشاط ، وما يتدخل الى حد بعيد واضح فى تنظيم الامكانيات الفردية وتوجيهها .

ان الحجة الوحيدة لامثال هذه الحكومات هى أن الافراد محتاجون الى هذا الجهاز المنظم ، وان الحكومة لا تسلب حقا ولا تفتئت على حرية . ولكنها تمارس دورا .

وفى القرن العشرين اتسع نشاط كثير من الحكومات ، وأصبح دورها الخطير فى المجتمع لازما وواضحا ، ذلك لأن العلل الاجتماعية التى شكا منها القرنان الثامن عشر والتاسع عشر قد وصلت الى حد لا يسمح باهمالها أو تركها للطاقات الفردية الصغيرة ، وقد

أصبح لزاما على كثير من الدول ـ إذا ارادت أن تدرك ركب التاريخ ـ أن تسمح لحكوماتها بمجال من العمل أوسع ..

وكان كل ذلك استجابة لحاجة الافراد ..

هذا هو الفرق الأول بين الحكومات الفاشية وحكومات التخطيط أو الديموقراطيات الموجهة أو الحكومات الشعبية .

أما الفرق الثانى فهو فى الهدف ..

ولنعد الآن الى مفهومى الحرية اللذين أسلفنا بيانهما فى أول المقال .

ان المفهوم الفردى الأول للحرية يصل الى غايته حين يتــاح للفرد أن يأخذ من المجتمع مقابل ما تنازل له عنه من الحرية بموجب تعاقده الاجتماعى .

وهدف مجتمع قائم على هذا المفهوم هو اتاحـة الفرصـة للفرد لكى يصل الى غايته من المجد أو الرفعة أو الثروة أو السلطة بغض النظر عن التكامل الاجتماعى ، وليس من العسير أن ندرك ان مجتمعا قائما على هذه الفردية ، قد يكون بلا هدف .

ولذلك كانت مجتمعات القرن التاسع عشر مجتمعات نمت فيها قدرة الفرد على الاستغلال والتحكم فى الآخرين ، وتضخمت فيها رءوس الاموال ، وتضخمت معها المشاكل الاجتماعية والطبقية ..

أما المفهوم الثانى ، ذلك المفهوم الذى يقيـم الدولة بنيانا شامخا لا تتطاول اليه ارادات الأفراد ، فهو بلا هدف ايضا ، ولذلك فان جميع الحكومات الفاشية قد فشلت فى ان تجعل لها هدفا ثابتا ، وقد كتلت تلك الحكومات الافراد وراءها كانهم أعواد الحطب ثـم دفعت بهم الى الحريق العالمى دون هوادة ..

اما حكومات التخطيط والديموقراطيات الموجهة فهى تعلـن الهدف أولا ثم تمشى اليه ووراءها الافراد جميعا .

اشـــــتراكيتنا

فى الطريق وعلى شفاه الناس تتناثر أسئلة كثيرة ·· ان كلمة جديدة قد دخلت حياتنا ، وبسطت ظلها على حاضرنا ومستقبلنا ، هذه الكلمة الجديدة هى الاشتراكية ، وهى كلمة تحتمل كثيرا من التأويلات والمعانى · وهناك من الاشتراكيات فى العالم بقدر عـــدد الدول التى تلتزم هذا المنهج فى التفكير والحياة ·

ورغم ذلك فهناك جوهر عام للاشتراكية · هو الذى يحـــدد اختلافها عن المذاهب السياسية والاقتصادية الاخرى ·

والسؤال الاول الذى يثور بين الناس هو :

هل الاشتراكية صورة مخففة من الشيوعية ؟

والاجابة عن هذا السؤال بالنفى · ان الاشـــتراكية نظرية سياسية مستقلة ، لها تاريخها الفكرى المستقل · ورغم أن كلا من النظريتين قد نشأت احتجاجا على المهانة التى كان يرزح تحت عبئها العمال ، أثر الثورة الصناعية فى أوروبا الا ان كلا منهما أعطت حلا مختلفا لهذه الأزمة ··

اقترحت الشيوعية أن يقضى على الطبقات الاخرى ، ما عدا

طبقة العمال ، وان تتولى الدولة ببنائها الضخم الجديد ·· الاشراف على كل منابع الثروة وملكية كل أدوات الانتاج ·

واقترحت الاشتراكية أن تقلم أظافر رأس المال وأن تدعم حقوق العمال تجاه الرأسماليين ، وان تقف الدولة رقيبا على أى انحراف مجرد رقيب ·

ان الاشتراكية تؤمن بالنشاط الفردى ، وتفسح المجال ليعمل ، ولكنها توجهه لمصلحة المجموع ·

والاشتراكية تؤمن بالعدالة الاجتماعية · ولكنها لا تفرضها بالقانون وحده ، بل بخلق الظروف الملائمة لها ، ونشر الوعى الحر الذى يمهد للعدالة ، والعدالة هنا هى عدالة الفرص التى تمكن الفرد من ان ينتج فى المجال الذى يرتضيه لنفسه ·

واجمل ترجمة عملية جديدة للمنهاج الاشتراكى هى ما قال الرئيس فى خطابه يوم ٢٢ يوليو ·

« عندما نبنى الخطة لزيادة الانتاج ، لابد ان نضع خطة اجتماعية للتوزيع ، لأنك لو زدت الانتاج وزدت الدخل لخمس أو ست أفراد ، فكأنك لم تصنع شيئا » ··

ثم قال الرئيس ان الدولة مسئولة عن حماية الفرد من كل من يستغله ، ورأس المال العام ورأس المال الخاص يتوازنان لمنع رأس المال الخاص من السيطرة على الحكم ، كما ان الدولة ترى ان من واجبها أن تحمى المستهلك كما تحمى الصناعة المحلية · وان تحدد ربح رأس المال ، وتهيىء له فرص الاستثمار والانتاج فى الوقت نفسه ·

والسؤال الثانى ·· ما هى صورة المجتمع الاشتراكى حين يصل الى تحقيق غاياته ؟

ان الشيوعيين مثلا يتخيلون صورة للمجتمع ، وقد انمحت فيه جميع الطبقات ما عدا الطبقة العاملة ، وعمت فيه المساواة الحاسمة الشاملة ٠

أما الاشتراكيون ، فباب المستقبل أمامهم مفتوح على أقصى اتساعه ، انهم لا يؤمنون بنهايـــة للتطور الاجتماعى ٠ والتجربة الاشتراكية ليست تجربة مفروضة محددة الخطوات ، ولكنها تجربة ذاتية يستطيع أى مجتمع ان يجتازها بطريقته الخاصة ٠٠ وثمرات الاشتراكية عندنا قد تختلف عن ثمراتها فى الهند ، كما أن صـــورة مجتمعنا فى تطوره الاشتراكى قد تختلف عن صورة المجتمع الهندى فى تطوره ٠

ان الاشتراكية لا تزعم أن لديها علاجا واحدا لكل داء مهما اختلف تشخيصه ، كما لا تزعم أنها تبشر بعالم مثالى يتحقق فى كل مكان بنفس الخطوات ٠

ان الاشتراكية تجربة مفتوحـــة للخبرة الجديدة والظروف الجديدة والافكار الجديدة ٠

ولكن هناك هدفان واضحان اذا حققتهما الاشتراكية ، كان ذلك كسبا لها ٠٠

والهدف الأول هو العدالة فى توزيع الفـــرص التى تختلف بدورها اختلافا كبيرا عن العدالة فى توزيع الانتاج ٠

ان العدالة فى توزيع الفرص تعنى ان يبدأ جميع الافراد من نقطة بدء واحدة ، فى ظروف متشابهة ، فلا يمتاز أحد منهم على الآخر نتيجة خطأ فى تركيب المجتمع ٠ وهذه العدالة هى التى تحفظ للفرد مكانه فى الحياة ، ولا تحرمه فى الوقت ذاته من تنمية امكانياته الذاتية وبذل أكبر ما يستطيعه من الجهـــد والنشاط ، واستغلال طاقاته الابداعية ٠

والهدف الثانى هو صهر المجتمع فى احساس جماعى واحد ، احساس بالتقارب والتضامن · وبأن الجهد المشترك هو أسمى أنواع الجهد ، احساس بالولاء للوطن · لا لطبقة بذاتها أو مصلحة بذاتها ·

والسؤال الثالث :

ما النظرة الاشتراكية الى الطبقات ؟

ان وجود الطبقات فى المجتمع أمر حتمى لا يستطيع أحد انكاره ، ولكن الصراع الطبقى هو الفكرة التى تمكن مناقشتها ·· ان هذا الصراع الطبقى لا يتضح الا فى البلاد التى وصلت الى مرحلة من التقدم الصناعى والرأسمالى ، استطاعت بعدها أن تكون طبقة عاملة ممتدة تسيطر على أرزاقها طبقة رأسمالية متآزرة ·

أما فى الدول التى ما زالت تحاول ان تبنى رأسمالها الوطنى، فالأمر على خلاف ذلك ·

والاشتراكية هى الوسيلة الحقيقية لاعلاء هذا الصراع لتحويله الى صراع قانونى هادىء ، لأن الدولة الاشتراكية الجديدة تمد بصرها الى الغد وتحاول ان تنسق بين مصالح الطبقتين الناميتين حسب ظروف المرحلة التى تجتازها ·

ان الصراع الطبقى بمعناه الحاد ، ليس ضرورة لازمة فى حياة أمة اشتراكية ·

ان طبقة الرأسماليين ليست طبقة عدوة فى حياة أمة ناشئة ، بل هى ركن من أركان نهوض هذه الأمة ، ولكنها تصبح طبقة عدوة حين تصل الى السيطرة على جهاز الحكم · وعلى توجيهه لمصالحها الخاصة ، وهذا ماتحول الاشتراكية بينها وبينه ··

تابع كتاب أفكار قومية

الواجب الأيديولوجي للاتحــاد القومى

كثر الحديث عن واجبات الاتحاد القومى فى قراهم ومدنهم ومراكزهم الانتخابية ، وعن دورهم فى اداء الخدمات العامة ونشر الوعى الصحى والاجتماعى والعلمى وما الى ذلك ٠٠ وهذا كله مهم بلا شك ٠٠ ولكن الاهم هو دورهم فى تطوير الوعى السياسى بين صفوف الشعب ٠

ان شعبنا العربى يجتاز مرحلة سياسية واقتصادية هامة فى تاريخه ٠٠ فهو يتطور من شعب يرزح تحت الاحتلال والتبعية الى شعب مستقل محايد ، بين المعسكرات الدولية ٠٠ ومن أمة تعمل بالزراعة ، ويقوم نظامها الاقتصادى على الاقطاع من جهة ، وراس المال الفردى من جهة أخرى ، الى أمة تتجه نحــو الاشــتراكية ، وتتلاشى فيها سيطرة الاقطاع ، ويزاحم راس المال العام فيها رؤوس الاموال الفردية ، ويخضع نشاطها الاقتصادى كله لتخطيط شامل ٠

وهذا التطور الجديد ليس الا خطوة فى سبيل تطوير اكبر ٠٠ فان المجتمع الاشتراكى التعاونى الذى ننشده مازال يتمخض عن اولى ثمراته ٠٠ وما زال الطريق طويلا أمامنا لكى نحصل على مزيد من الخبرات والتجارب والانتصارات الاشتراكية ٠٠٠

وكل خطوة نخطوها نحو الاشتراكية التعاونية تعمل الى حد ما فى تغيير شكل المجتمع ·· ومشروعات الخمس سنوات ، وما يليها من مشروعات ، وهذه المصانع الجديدة التى سترتفع مداخنها ، وهذا السد العالى الذى نتكتل خلف بنائه ، كل هذه التغيرات القادمة ستولد بلا شك صورا اجتماعية جديدة وستثير أسئلة جديدة يبحث التاريخ لها عن جواب ·

وكل هذه الخطوات خطوات محتومة للوطن العربى ، وثورتنا قد اختارت هذا الطريق الثورى القائم على المحبة والتكاتف بين طبقات الامة جميعا ، ولكى نجتاز طريق التطور كما تريد لنا ثورتنا ـ فى محبة وتكاتف ـ لا بد لكل فئاتنا وطوائفنا من الوعى القومى ، ومن ادراك حاجة الامة الى هذه التغيرات الجديدة ·

وهذا هو واجب الاتحاد القومى ·· ان مهمة اعضائه هى ان يكونوا هم خطباء هذا التطور فى الأندية ، والمبشرين به فى الندوات واللقاءات ··

كما ان من واجبهم ان يعرفوا أن للصور الاقتصادية الجديدة فلسفة اجتماعية جديدة ·· والاتحاد القومى ليس بنيانا جاهزا جامدا ، ولكنه تنظيم متطور هو الآخر ، عليه ان يتقبل دائما كل اختيارات الشعب ، وأن يكون هو الطليعة التى تتغذى شرايينها بالدم الجديد ·

والجمهورية العربية المتحدة لا تعترف بنظام الاحزاب ، وليست الاحزاب الا تعبيرا عن مصالح الطبقات ، والاحزاب قد تتنازع وتتصارع فى سبيل تغليب طبقة على طبقة ، مضحية بمصالح الأمة ولكنها أيضا اقرب وسيلة لمعرفة صدى اراء الطبقات ·

والثورة تختار الطريق الاصعب والاسلم حين تبنى الاتحاد القومى لكى تسمع عن طريقه صدى وآراء الجميع دون أن تترك

الفرصة لطبقة لكى تتغلب على الأخرى مضحية بالمصـــلحة العامة للأمة وما يعنيها بالذات هو رأى الاغلبية من الطبقة المتوسطة والعمال والفلاحين ٠

واذا كنا لا نريد لنشاط حزبى سافر أو مستتر أن يشغل تفكير المواطنين بعد الآن فان الدور الرئيسى فى القضاء على كل نشـاط حزبى معوق يقع على عاتق الاتحاد القومى ٠ انه يستطيع أن يسلب الاحزاب المختلفة من مبرر وجودها ، ويحتـوى كل التيارات فى داخله فى جبهة قومية ٠ اذا كانت القيادة فيها دائما ، للتيار الاكثر تقدما ٠٠٠

هذا هو الجزء المحلى من الواجب الايديولوجـــى للاتحـاد القومى ، أما الوجه العربى لهذا الواجب فهو لا يقل عنه أهمية ٠

ان الجمهورية العربية هى أكثر الدول العربية تطورا فى ميدانى القومية والاشتراكية ٠ وهى كذلك بللورة الوحدة العربية الشاملة ٠

ولذلك فان عليها أن تقوم بدور الموجه والرائد فى هذا الميدان ٠

وفى البلاد العربية المختلفة منظمات قومية كثيرة ، بعضها يعمل على شكل أحزاب ، وبعضها هيئات ليس لها تنظيم حزبى ٠

وهذه المنظمات المختلفة تخوض الآن معارك فى الكفاح العربى فى العراق والاردن ، ولبنان وغيرها من أجزاء الوطن العربى ٠

وليس وراء هذه المنظمات الجماهيرية الضخمة التى تقف وراء الاتحاد القومى ، وليس لها أيضا الامكانيات الفكريـــة والدعائية الواسعة التى يستطيع الاتحاد القومى أن يمارسها ، ودورهـا فى معركة القومية العربية دور موقوت بانتصار العروبة على دعـــاة الانفصال والتبعية ٠ فهى منظمات لخوض معركة الوحدة ٠٠ لامعركة البناء ٠

وواجب الاتحاد القومى كشـــقيق اكبر ، هو ان يمنـح هذه المنظمات تجربته ومعونته ، وأن يقوم بدور القيادة الفكرية لها ٠

وهذه القيادة ليست شرفا ، ولكنها عبء ٠ فهى تعنى ان يكون الاتحاد القومى ملما بكل المعارك السياسية التى يخوضها الوطن العربى ٠٠ ووثيق الصلة بشخصيتها ، وتعنى أيضا ان يلقى الاتحاد القومى للمعركة بأهدافها الفكرية والسياسية ٠

فاذا انتصرت تلك المنظمات فى معركة القوميـــة والتحرر ٠٠ فالاتحاد القومى هو المصب الذى تصب فيه ٠٠

وعليه عندئذ ان يستوعبها ، ولن تكون غريبة عنه ، لأنه قد لمس جميع أوجهها ٠ وساهم فى تخطيط سيرها ٠

والمهمة الثالثة أمام الاتحاد القومى تقع على الصعيد الدولى ، وتبرز خطورة هذه المهمة حين نذكر أن اسرائيل ، تحرص على أن يكون لها صوت مسموع فى اجتماعات المنظمات الدولية ، فهى ترسل وفودها الى مؤتمرات الاحزاب الاشتراكية ، ويشترك بعض مفكريها فى الجمعيات السياسية والفكرية ، ويعقدون الصداقات مع أقطاب الفكر والفلسفة فى العالم ، ويتمتعون بحظوة كبيرة عند دور النشر والتوجيه والصحف الكبرى ٠

واسرائيل تتاجر بالشكل الوهمى لديمقراطيتها واشتراكيتها فالاحزاب الشيوعية والاشتراكية فيها مجرد واجهة تحاول بهـــا أن تكسب انظار العالم ، وان تدفعه الى المقارنة بين التقدم الفكرى والسياسى فيها ، وبين ما تزعمه من سيطرة اقطاعية ورأسمالية ، وتأخر حضارى فى البلاد العربية ، ومن هنا تحاول أن تخلق المبررات لوجودها وعدوانها على أساس نظرية البقاء للاصلح ، هذا رغم قيام دولة اسرائيل على أساس عنصرى عدوانى كـــاف لهدم كل هذه الحجج الباطلة ٠

وهذه المهمة المزدوجة هى واجب الاتحاد القومى · وجانب منها هو ان نعلن للعالم تقاليدنا الاشـــتراكية الجديدة ، وخططنا فى التصنيع ونظريتنا فى المساواة والعــدالة وان نتصل بالمنظمـات الاشتراكية السياسية والفكرية فى جميع انحاء العالم ، وأن نحضر مؤتمراتها ، وان نشترك معها فى مناقشة قضايا الاشتراكية ··

والجانب الاخر هو أن نفضح اشتراكية اسرائيل المزيفة ، وان نبرز جانبها العدوانى العنصرى البغيض ··

ان الاتحاد القومى هو جسم ثورتنا ، وحرصـــنا على نجاحه لا يعدله الا حرصنا على حياتنا ، ولذلك فنحن نرجو أن يظل كبيرا ، كما ولد كبيرا ، وأن تزيده الايام غنى فى المحتوى ، وان يظل رائدا التقدم والقومية لامتنا العربية ·

قصـــة الضمير المصرى الحـــديث

(القاهرة ١٩٧٢)

مقدمـــة

هذه سياحة فى وجدان مصر فى القرن التاسع عشر ، وبعض ماعشناه من القرن العشرين ٠

وهى سياحة لا تتخذ من احداث التاريخ الا معالم لتحديد الأرض وتلمس الخطى ٠ فالأحداث هى حركة الواقع التى تستجيب لها حركة الفكر ، بل هى الارض التى ينبت فيها الفكر ، وتزدهر اصوله وفروعه ، وتتضح انبثاقاته وتجلياته ، ويتألق رجـــاله فى حياتهم العقلية والذوقية والوجدانية ٠

ولا شك أن تاريخ مصر فى هذه الفترة تاريخ حافل ، متوالى الفصول ، منها الضاحك والباكى ، والمنتصر والمنكسر ، والمنطلق والمتردد والمتراجع ، فحركة التاريخ ليست واحدة الاتجاه الا فى محصلتها النهائية ، حين ننظر اليها من بعد ، أما حين نعايشها عن قرب ، فاننا كمن يشهد تلا من الأرض صاعدا الى العلاء ، ولكن

فى هذا التل كثيرا من الفجوات والوهاد · والذين يرون التاريخ تطورا متصلا قد يفزعون كثيرا حين يرون بعض جوانب الصورة الداكنة ، وقد يفوتهم أن تطور التاريخ ليس حتميا كتطور الكائنات الحية كما ترسمه قوانين البيولوجيا ، بل ان وراءه الانسان صانع التاريخ ، الذى يستطيع أن يستعجل خطى هذا التطور ، أو يبطىء بها ، أو يعرقلها ويحرفها عن غاياتها فى بعض الأحيان ·

وصناعة التطور هى أشق الصناعات ، وهى لا تتم قط فى غيبة عن الانسان ، الانسان كمجموع حين تتحرك نوازعه ورغباته نحو امتلاك اكثر للحياة،واستحواذ اشمل على معطياتها ·· فيحاول جهده بالتجربة والتنظيم أن يحسن من آلاته ويطورها ، وأن يزيد من ثروته وينميها ، وأن يجعل الأرض بماعليها وتحتها تســتجيب لقدراته ، فأنه يجرى حوارا منفصلا مع الطبيعة ، لغته فيه هى العقل النفعى ، والتجربة المتصلة ، والآلة المنتجة التى هى ثالثة ذراعى الانسان الحديث ·

وثمة حوار آخر يجريه الانسان كفــرد ــ لا كمجموع ــ مع الحياة بغية المساهمة فى صناعة التطور ، ذلك هو حوار المفكرين وأرباب التأمل ، وكما عاشت مصر أياما تاريخية حافلــة فى هذه الحقبة من الزمان ، وكما تغيرت وسائل حوار الانسان مع الطبيعة فيها ، فوجدت الوانا جديدة من الملكية الزراعية ، وعرفت الصناعة الى حد ما ، وقــامت الطبقة الوســطى من المتملكين الزراعيين والرأسماليين الصغار وموظفى الدواوين ، كذلك جرى حوار عظيم ممتع الحلقات بين الانسان ــ كفرد متأمل ، وبين الواقع ، كان أبطاله هؤلاء الرجال العظماء الذين حفل بهم تاريخها الحديث ، والذين أحكى بعض مواقفهم ، لاسيرتهم ــ فى هذه الفصول ·

وقد يحلو لى هنا أن أستجيب لتسميتى لهؤلاء الرجال بالأبطال وانتقل خطوة مع المصطلح الفنى ، لكى أقول ان هؤلاء الرجال لم يكونوا أبطالا فحسب ، بل كانوا أبطالا تراجيديين أيضا ، فقد نما معظمهم كما ينمو البطل التراجيدى فى ظل مقاومة كأنها القدر المعاند دخلوا المدارس بطريق الصدفة التى تشبه الخطأ وحلوا طلاسم الحروف باجتهاد عظيم ، وتأملوا فى شأن الحياة فى بيئة عقلية لا تعرف الا التأمل فى شأن الموت ، ونحن قد لاندهش الآن اذا رأينا أحد أبناء جيلنا وهو يعانق الافكار المتفجرة بالحياة • أو يحلق فى آفاق التأمل المشوق الى تحريك الواقع ، فقد صارت مصر ـ بدرجات متفاوتة بين حين وآخر ـ جزءا من الواقع العالمى المتفجر بالقلق الخصب الطامح الى احتمالات المستقبل وقد نشأت فى مصر مدارس من الفكر هى احياء لتراث أصيل أو استنبات لمدارس فكرية عالمية معاصرة ، وقد نشأت فيها أيضا فنون من الأدب هى امتداد لفنونها المتوارثة أو تطعيم للشجرة المحلية بهذا النسخ الأوروبى الخلاق • أما هؤلاء الآباء والاجداد فقد نشأوا فى بيئة ساكنة فاترة ، وفى ظل تقاليد خمسة قرون طوال من الجمود العثمانى والمملوكى ، وفى غيبة التقاليد الفكرية الداعية الى التأمل ، والتى تربط بين الفكر والواقع •

ولا شك أن معظم هؤلاء الرجال كانوا يتمتعون بما نسميه «النزاهة الفكرية» ، وهى المقدرة على تخليص النفس من تحيزاتها وأهوائها • ومحاولة النظر الى الحقيقة فى قلبها وصميمها ، فالحقيقة عندئذ هى هدف يقصد لذاته ، بغض النظر عن انتماءاتنا وميولنا • والحقيقة جوهر مضىء لا تنشغل العين عنه بالنظر الى حواشيه وهوامشه وانعكاساته • وهذه النزاهة الفكرية هى القيمة الخلقية الأولى التى يجب أن يتحلى بها أهل الفكر والتأمل ، وهى التى تبرر وجودهم فى المجتمع ، وشرعيتهم فيه كنخبة يحق لها القيادة والتوجيه •

وقد تميل كثير من الفلسفات المعاصرة الى التقليل من شأن « النخبة » أو « الصفوة » والتهوين من دورها فى المجتمعات الحديثة بل فى كل المجتمعات على السواء ، وهى تظلم كلمة « النخبة » حين تلحق بها أهل الثراء أو أهل السلطة ، فالنخبة الحقة فى كل مجتمع هى نخبة الفكر ، وهى وحدها التى تستحق تسميتها بهذا الاسم ٠ اذ أن الانتماء الى النخبة أو الصفوة ليس ميراثا أو تسلطا ، ولكنه اكتساب ٠ ولا يبرر قيام النخبة الا تحليها بفضائل تفتقر اليها مجتمعاتها ، ولا نعنى بالفضائل هنا الفضائل التقليدية كالصدق والكرم وغيرهما ، بل نعنى الفضائل التى تنتسب الى عالم القيم أكثر من انتسابها الى عالم الأخلاق ، مثل المقدرة على التفكير ، والقدرة على الحسم واتخاذ المواقف ، وتنمية الاحساس بمعنى الولاء للوطن والتاريخ ، والجرأة على اكتشاف حلول جديدة للمشكلات والمعضلات ٠

وهناك ثلاث مراحل فى حياة النخبة ، أولاها النظر فى الواقع الذى نشأت فيه ، واستبانة عيوبه ونواقصه ، وثانيتها الاعتزال للتأمل فى هذه العيوب والنواقص ، واكتشاف سبل تجاوزها ، وثالثتها العودة الى المجتمع بهذا الاحساس الثقيل السعيد بالحمل الملقى على عواتقهم ، اذ يطمحون الى تغيير المجتمع باستعمال العقل والحوار حينا كما يفعل الفلاسفة والأنبياء ، أو باستعمال القوة وتجميع خيوط السلطان حينما كما يفعل الثوار والمشرعون ٠

وقد كان هؤلاء الرجال الذين نبسط بعض مواقفهم هم « النخبة » أو « الصفوة » فى المجتمع المصرى خلال حوالى قرن ونصف من الزمان ، وكان لكل منهم عالماه ٠ عالم حياته العادية التى نشأ فيها طفلا ريفيا مصريا فقيرا ، ثم سفرته أو رحلته بعد ذلك الى القاهرة أو الى أوروبا أو الى داخل نفسه أحيانا ، لكى يخرج بعد ذلك الى عالمه الجديد ، عالم استشراف المستقبل ٠

وكان لكل منهم ايضا عشيرتاه ، العشيرة الأولى هى أهلــه وأبناؤه ، والعشيرة الثانية هى تلاميذه وأتباعــه ٠٠ كذلك عاش رفاعة الطهطاوى وعبد الله النديم ومحمد عبده ولطفى السيد وقاسم أمين والعقاد وطه حسين وغيرهم ٠

وثمة معنى آخر يتجلى فى معظم هؤلاء الأبطال ٠ وهو انهم لم يقعوا فى الفراغ الكائن بين عالم الفكر وعالم العمل ، فهــم متفلسفون أحيانا ٠ ولكنهم عاملون دائما ٠ ولقد شاركوا فى الحياة العامة بكل حيلتهم وحولهم ٠ بل لقد قدم بعض هؤلاء الأبطــال ــ بسيرة حياتهم ــ حلا موفقا لهذا السؤال المعضل الذى يطرحه الآن بعض المفكرين الأوروبيين ، وهو امكانية التوفيق بين الثقافتين ٠

أن في العالم المعاصر الآن نوعين من الثقافة ، اولهما ثقافة تكنيكية علمية ، تستمد بناءها من معطيات التجربة المباشرة ، وتلجأ فى ترتيب مخلوماتها الى أسلوب الاحصاء والاستقراء واستخراج القوانين ٠ وهى تنظر شزرا الى ضرب آخر من الثقافة وهو الثقافة الأدبية التى تستمد بناءها من معطيات الحدس الملهم ، وتلجأ فى ترتيب معطياتها الى أســلوب المقارنة والاســتنباط واســتخراج الاشراقات ، ويحلو لها بعد ذلك أن تطلق على نفسها اسم «الثقافة الانسانية» وكأنها تدافع عن عدم تجردها وتحكم الانسان بميوله وأهوائه فى معطياتها ٠

ومجال الثقافة العلمية معروف ، وهـــى قد ازدادت انحاء باللائمة على الثقافة الانسانية ، بل لقد أوشكت على احتقارها منذ أن اهتدت الى كثير من الكشوف والاختراعات العلمية المثيرة ، بل لقد أصبح أهل الثقافة العلمية يفخرون ببعدهم عن هذا المجال المضلل الذى تحلق فيه الثقافة الانسانية ٠

أما مجال الثقافة الانسانية ، فهى هذه الخبرات والعلوم التى

يدخل فيها الذوق الانسانى كالفن بأنواعه من أدب ونحت وعمارة وموسيقى وتصوير ، وهى هذه العلوم الانسانية كالتاريخ والدين والفلسفة والتذوق الأدبى وغيرها ٠

هذا الصراع بين الثقافتين موضوع معاصر أثاره لأول مـرة الكاتب العالم الروائى الانجليزى « هـ ٠ ن ٠ سنو » فى كتاب لـه عنوانه « بين ثقافتين » مشيرا الى أن خلاص العالم لن يهل عصره الا بامتزاج الثقافتين والتوفيق بينهما ، وقد أثـار الكتاب حين صدوره كثيرا من الأصداء ، وتصـدى لنقده وتقييمه فى جملته ومحتوياته كثير من الكتاب ٠

ولعل تاريخنا يقدم اجابة رائعة عن هذا السؤال حين يقـدم سيرة رفاعة الطهطـاوى الذى درس الهندسة والقانون والأدب بالحماسة نفسها ، وحين يقدم سيرة على مبارك الأديب صـاحب الرسائل والمؤرخ صاحب « الخطط التوفيقة » والمهندس الأول للقناطر الخيرية ٠

أترانا نستطيع أن نقول ان هذه الفترة من حياتنا كانت ميلادنا الجديد ، أو « الرينسانس » الذى عرفته أوروبا فى قرونها الثلاثة ، منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر ، وهو الميلاد الذى أفسح المجال لعصر العقل والعلم ٠٠٠ لنتأمل فى واقع الصورة فى أواخر القرن الثامن عشر بمصر وفى واقعها الآن ، ندرك مكانة هذا العصر من تاريخنا ٠

وبعد ٠٠٠

فليس هذا الكتاب دراسة أكاديمية ، وما أردت أن يكون ٠ ولو أردت ما استطعت ، فلن يستطيع العاشق أن يسبر روح حبيبتـه بالمسبار أو يزنها بالميزان وما مصر الا معشوقتنا الأولى ، وما نحن

جميعا الا عشاقها وخدامها الصغار الذين نطمح الى أن نقوم بشرف العشق وفرض المحبة ٠

ونحن الآن نحس جميعا بالتوق العظيم الى الحديث عن مصر ، والسياحة فى أيامها الحافلة ، ولعلى اذكر الآن زيارتى لأحد بلدان أوروبا بعد النكسة بشهور ، وهذا الشاعر الذى التقيت به فى أحد المؤتمرات هناك ، حين بادرنى بالسؤال :

ـ اذن أنت مصرى ٠٠ كيف حال مصر ؟

وأجبته :

ـ حالها متى ياسيدى ؟ حالها الآن أم منذ سبعة آلاف سنة ٠٠ ان هذه اللحظة المريرة هى مجرد دقيقة من أيام تاريخها الأزلى ٠٠ دقيقة من الألم العميق ، تستأنف بعدها ابتسامتها الخالدة ٠٠

ـ نعم ٠٠ لاشك انكم قد تغلبتم على كثير من الصعوبات ، ولكن ماذا ستفعلون الآن ؟

ـ أتعرف قصة العنقاء ٠٠ هذا الطائر الخرافى الذى يحترق فى النار كل حقبة من الزمان ، ثم لا يلبث أن يعود من جديد بريشه الزاهى وعنقه الأصيد المائل ٠

ـ ما اشد تفاؤلكم ؟

ـ لأننا رأينا كثيرا ، وعرفنا كثيرا ، حين تموت وتحيا مئة مرة فى التاريخ ، تعرف أن الموت عارض وأن الحياة هى الحق ٠ انت لا تدرك هذا لأنك لا تستطيع أن تنظر فى تاريخ بلادك الى أعمق من مائتى سنة ، وبعدها قد ترى القراصنة العراة ٠ أما أنا فلدى فرصة باهرة ، اننى أستطيع أن اتجول فى تاريخى الى عشرين الفا من حدودى ، فأجد أحدهم يهندس الهرم الأكبر ، وأحدهم يفتح

الجمجمة فيداعب جراجها بأصابعه الجساسة ، ثم يعيد تســـوية الشعر فى تواضع حبيب ، وثالثهم ينشد أغانيه الرقيقة وتأملاته العذبة ...

والآن ،

يا مصر العظيمة

تحية لسرك المتجدد العظيم

تحية لرجالك العظماء

تحية لمستقبلك البازغ رغم الغياهب ، والذى أحاول فى هذا الكتاب أن استثيره واستعجل اشراقته ، بأن أعرض صورة من ماضيك الحافل .

اليقظـــة

وكما يحدث في الحواديت ، أراد علماء أوروبا أن يكشـفوا لعلماء مصر عن تقدمهم وذكائهم ·· فدعوهم الى زيارة المجمـع العلمي ، ثم أخذوا يعرضون عليهم فنونا من ابداعهم ·· صـب احدهم سائلا أبيض ، ثم ألقى ببعض السـائل الأخضر · فصار ـ ويا للعجب ـ أحمر ، ثم أخذ هذا السائل فوضعه على النار فصار حجرا ، ودق هذا الحجر بمطرقة فى يده ، فسمعت له طرقعة هائلة ودوى عظيم ، وارتجف علماء مصر ، فلما استردوا وعيهم لـم يملكوا الا أن يهرشوا ذقونهم ، ويستعيذوا بالله من شر السـحر والسحرة ·

كان مكان هذه الحكاية ، حى السيدة زينب ، فى عام ١٩٠٠ من الميلاد ، فى قصر يقوم الآن بحارة تدعى حارة « مونج » تيمنا باسم رئيس أحد الفريقين المتنافسين ، أما الفريقان فقد كان أولهما ··· الفريق صاحب البدائع والخيـل ، هو فريق علماء الحملـة الفرنسية الذى اصطحبهم نابليون بونابرت معه الى مصر ، أما الفريق الثانى فقد كان فريق « علماء » مصر وأهل الرأى فيها ·

أما الذى حكى لنا الحكاية ، فهو مؤرخ مصر فى ذلك الأوان ·

الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ، أول السلسلة العظيمة من أذكياء المصريين فى عصرنا الحديث ٠

وقد نقرأ الآن هذه الحكاية ونبتسم ، عارفين أن الخدعة كانت صغيرة وصبيانية ، وأنها لا تزيد عن استغلال بعض بديهيات الكيمياء، وقد نفكر قليلا فى الماضى ونتأمله ، فنذكر أن كيمائيى العرب منذ ألف سنة كانوا يعرفون أضعاف هذه الحيل ، وأن جابر ابن حيان وتلاميذه ٠٠ قد اكتشفوا كثيرا من العناصر وركبوا آلاف المركبات ، وان صناعة الصيدلة ـ وهى احدى الصناعات القائمة على الكيمياء ـ كانت من مفاخر الذهن العربى ٠

ولكننا قد نفكر فى اتجاه آخر ، فنقرن هذه الحادثة بأمثالها مما وقع ، حين تمت هذه المواجهة الهائلة الدامية ، بين مصر وأوروبا فى العامين الأخيرين من القرن الثامن عشر ٠ التقى الجيشان ٠٠ جيش المماليك المصرلية ـ كما كان يدعوهم الجبرتى ٠ أو أولاد الذوات كما كان يدعوهم بعض المصريين ـ وجيش الفرنسيس كان جيش المماليك أنيقا رشيقا ، يلبس أحدهم قميصا من القطن الناعم الأبيض فوقه ثوب من القماش الهندى الخفيف ، وفوقه قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع ، ثم « كرك » بأكمام قصيرة ، وحول رقبته فراء من السمور ، وفوق ذلك كله طيلسان يلف به جسمه جميعه ٠ وفى يده سيفه وفى وسطه خنجره ، ورووا أن مقبض الخنجر الذى كان يحمله أحدهم ، كان يقدر بمائتى ألف جنيه » ٠

هذا الجيش من الفرسان ٠٠ كان يواجه جيشا آخر من المدفعية : ملابسه متواضعة ، وحركته خفيفة ، وزاده قليل ، حتى أن شيخنا الجبرتى يحدثنا بلهجة مليئة بالعجب عن أن نابليون حين أراد الخروج الى بلبيس للاستكشاف ، لم يصطحب معه طباخا ٠٠ بل لف دجاجتين فى كيس ، وانطلق فى طريقه مع ياوره ٠

وحين التقى الجيشان ، قال قائل المماليك : ما لهؤلاء الفرنجة المخنثين والقتال ؟ سنمزقهم بسيوفنا ، وقال قائل الفرنسيس : ما لهذا الجيش يخرج الى القتال كأنه يدعى الى وليمة ؟ سنمزقهم بمدافعنا . وهزمت المدافع السيوف ؟

هؤلاء هم العلماء والحكام ، فأين أبناء البلد .

لننتقل خطوة ثانية مع الجبرتى لنراه يقول لنا : ان محمد على بعد عشر سنوات من خروج الفرنسيين ، أراد أن يحفظ سجلات للضرائب ، فوضع نظاما يقضى بأن تكتب باللغة العبرية ، لأن معظم كتابها كانوا من اليهود .. وهم الذين يجيدون الحساب والتدوين .

هذه هى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر .. لامجال هنا للحديث عن التقدم أو التخلف ، لنقل انها أمة كانت نائمة واستيقظت على هدير المدافع وانهمار القنابل . حتى الأزهر الشريف لم يعفه الفرنسيون من طلقاتهم حين اعتصم به العامة والعلماء ، الذين « حين وقع عليهم القنبر ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، صاحوا : ياسلام .. من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف ، نجنا مما نخاف » والرواية هنا .. للجبرتى رحمه الله ..

ولنقل انها أمة كانت قد لفت خيوط شرنقتها البالية حول نفسها، قانعة برزقها يأتيها رغدا أو غير رغد ، مستسلمة الى تيار الأقدار الساكن ، طغمة حاكمة من المماليك ، وأعوان لهم فى جمع المال من أبناء الطوائف المختلفة ، ومجموعة من العلماء تدرس الفقه والأصول وفلاحون يعملون كثيرا ويأكلون قليلا ، ولا يتعلمون أبدا ..

كانت الصورة مؤلمة حقا ، وقد فطن اليها طائفتان من الناس ، أو لنقل « طائفة ورجل » ..

الرجـــل ..

ولنبدأ بالرجل :

كانت أقصى رتبة وصل اليها فى جيش الأتراك ، وهو الباني جبلى ، هى رتبة « سرششمة » أى قائد الف ، وكانت مهمته هـــى حفظ أقوات الجيش ومؤونته ، وكان المقرر أن يخرج من مصر كما خرج بقية الجيش ، ولكنه داور وناور حتى استطاع البقاء والاستيلاء على السلطة ، لأنه أيقن أن الثمرة ناضجة لمن يستطيع أن يقطفها ، وأنه يستطيع أن يجعل من مصر عاصمة ملك كبير له ولذريته من بعده ·

وكان « محمد على » من أكثر الناس وعيا للدرس الذى ألقته الحملة الفرنسية على مصر ، ولكن بطريقته الخاصـــة ·· طريقة الجندى العثمانى ، الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، والحاكم المطلق الارادة والتصرف ، الذى يضع كل شىء فى خدمة أغراضه الحربية والسياسية ·

ولنعد للجبرتى ·· نراه يحدثنا عن غضب الجند العثمانيين والمماليك ، حين أرادهم محمد على أن يلبسوا « الملابس المقمطة » التى كان يلبسها الفرنسيون · وذلك حين أراد تنظيم جيشه على النظام الأوروبى ·

ولكن هذه النزعة الأوروبيـــة ·· كانت عوراء تنظر بعين واحدة ، لم يدرك محمد على من أوروبا الا صناعتها الحربية ، أما

حضارتها وفنونها وحقوق محكوميها على حكامها ، فلم تكن تخطر له ببال ، كان محمد على آية زمانه فى الظلم والقسوة والتعذيب ، والجشع الى المال ٠٠ كما كان حاكما مطلقا الى حد لم يعرفه العصر الحديث ، فقد كان « نابليون » الابن العاق للثورة الفرنسية ، قد انشأ ديوانا من المصريين لمناقشة المسائل العامة ، ورغـــم ان هذا الديوان لكان نوعا من الزينة أو « الأكسسوار » الا ان « محمد على » كان يستطيع أن يمضي به ويدعمه ، ويدع المصريين يمارسون من خلاله لونا من الديمقراطية الساذجة ، ولكنه ــ على عكس ذلك ــ لم يحاول بعثه ، ولم يقرب اليه أحدا من المصريين ، ولم يشركهم فى جهاز حكمه ٠٠

ولنقرأ قائمة ببعض الرجال الذين عهـد اليهـــم محمد على بالمسؤوليات العامة ، فلن تجد فيها مصريا واحدا ٠٠ كان وزراء تجارته على التوالى « باغوص بك » أو « يوسف كنعان » الأرمنيين ، وكان مدير جماركه « كرابيت » الأرمنى وكان سلحداره سـليمان أغا ، وكان خازنداره « محمود بك » التركيــن وكان دفتر داره « محمد بك » صهره ، وكان ولاته جميعا على الأقاليم ، من الأتراك ٠

ويصف الجبرتى هؤلاء الحكام الجدد بقوله :

« ترأسوا ، وعلت اسافلهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات ٠٠ واخذوا بيوت الأعيان ــ التى بمصر القديمة ــ وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة ، ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة ٠٠ يطردون الناس من أمامه وخلفه ٠٠ ولا نريد هنا أن نبالغ فى تهوين شأن محمد على ٠ فقد كان على أى حال حاكما شرقيا تقليديا ، ولكنه نشر مناخا من اليقظة والتفتح ربما لم يكن هو شخصيا مدركا لابعاده ، وذلك حينما أراد أن يجعل من مصر ضيعة هو مالكها وصاحبها الوحيد ، فكان مثل صاحب الضــيعة

الحريص يريد أن يجعلها تؤتى أحسن الثمرات ، فيستغل كل الوسائل فى سبيل تنمية انتاجها ٠

وثمة شىء آخر أدركه محمد على ، وهو أن التفوق الحربى لا يتاح الا بمعرفة علوم الحرب ، ومن هنا أقدم على الخطوة الثورية العظيمة فى تاريخ مصر ، وهى ارسال بضعة من الشباب الى أوروبا ومن الحق أن معظم هذه البعثات كانت للتخصص فى أمور الحرب ، هندستها ومعداتها وطبوغرافيتها ، ولكن العلم لا يتجزأ ، والتفتح العقلى لا يمكن توجيهه ، والاستفادة لا تحجزها الأسوار ٠

لنقل اذن ٠٠ عن « محمد على » كما قال شيخنا الجبرتى :

« فلو وفقه الله لشىء من العدالـــة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولـــة ٠٠ لكان اعجوبة زمانه وفريد أوانه » ٠

ولنضف الى حديث الجبرتى ٠٠ أن محمد على بهذه الخصال التى أفسدها ظلمه ٠٠ قد صنع هذا المناخ الذى أنبت الفريق الثانى ممن هزتهم المواجهة بين مصر وأوروبا ، أو بالأحرى ، الذى نما فيه هذا الفريق وازدهر ، حتى امتد أثره خلال قرن ونصف قرن من الزمان صانعا مصر الحديثة ، خالقا لتقدمها وتطورهـــا ، مثيرا لعقلها ووجدانها ، مغيرا لذوقها ومشربها ٠ متطلعا الى بناء مصر الحديثة الأصيلة ٠

الشـــيخ العطـــار

هذا الفريق الذى يبدأ بالشيخ حسن العطار ورفاعة الطهطاوى وينتهى بكل من يكتب حرفا صادقا فى هذا البلد ، صحفيا كان أو اديبا أو عالما أو مفكرا ، ويمتد الى ماشاء الله لهذه الأمة أن تعيش ، هذا الفريق هو شرف مصر وعنفوانها ، وشارة تجددها ومصاولتها لمصائر الزمان ، وعن هذا الفريق نتحدث ٠٠

يبدأ هذا الفريق بداية متواضعة ، فى بيئة علماء الأزهر وبين أبناء مصر العاديين تارة أخرى ٠ ثم يصل الى بداية نضجه حين يعود طلبة البعثـات الى ديارهـــم ، ليتحدثوا عما رأوا ، ويكتبوا ما شاهدوا ٠ ولسان حالهم يقول : من كان له اذنان للسمع فليسمع ٠٠ هذه أوروبا وهؤلاء نحن ، فانظروا اى وجهة تبتغون ٠ حتى لا تنخدعوا كما انخدع آباؤكم بخدعة السائل الأبيض حين يحمر أو يخضر أو يفرقع ٠

أما فى بيئة الأزهر الشريف ، فحق علينا أن نبدأ بهذا العقل المستنير فى تاريخ مصر الحديثة ٠٠ الشيخ حسن العطار ، تلميذ الجبرتى وصديقه ، واستاذ رفاعة الطهطاوى وصديقه أيضا ، وشيخ الأزهر حقبة من أيام محمد على ٠

فوجىء العطار ، الأزهرى الشاب ، بمجىء الحملة الفرنسية ، فخاف وفر فيمن فر من العلماء الى الشام ، فلما هدأت الأمور .. عاد الى مصر ، واتصل بهم وخالطهم وأحب كثيرا من عاداتهم ووسائل حياتهم ، والتقط بعض ألفاظ لغتهم ، وتردد كثيرا على مجمعهم العلمى بل وتغزل ببناتهم السافرات .

كان يقول ـ كما يحدثنا على مبارك فى خططه التوفيقية ـ « ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، وكان يتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة الفرنساوية من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة »

وفى هذه العبارة الأخيرة .. فطنة لمنهج التعليم الحديث من حيث تبويب الكتب ، وسهولة الأسلوب والعرض ..

ومن الحق أن « العطار » لم يحاول فى أثناء مشيخته للأزهر أن يبث فيه بعضا من الروح العلمى الحديث كما فعل « محمد عبده » حين تولى الافتاء ، ولكنه اكتفى بأن يثير ذاته وعقله بفضوله الذهنى اليقظ وتطلعه الى ادراك المعارف العصرية ، ثم أخيرا بأثره فى تلميذه العظيم رفاعة رافع الطهطاوى ، ألمع ذهن مصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ومن حقه أن نفرد له موضوع حديثنا القادم ..

أما بين أبناء مصر العاديين ، فلنذكر أن هذا النشاط اليقظ ، وهذا المناخ الفوار ـ الذى أتاحه حكم محمد على ـ قد انعكس على عامة المصريين ، فلابد أنهم حين فوجئوا بالمعامل والمصانع والمدارس والمستوصفات .. أحسوا أن ثمة شيئا جديدا يحدث ، ولابد أن ذوى الملكات منهم قد طمحوا الى أن يتاح لهم انماء ملكاتهم ، ولنقرأ قصة أول مخترع مصرى من فم الجبرتى مؤرخنا العظيم .

أول مخترع مصرى

كان اسم أول مخترع مصرى « حسين شلبى عجوة » اذ علم محمد على أن مصريا من « أولاد البلد » اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه لاتحتاج الى جهد كبير ، فطلبه اليه ، واعطاه مالا وأمره بأن يسير الى دمياط ليقيم فيها مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التى اخترعها ، وأمر بأن يسلم اليه ما يحتاجه من الأخشاب والحديد وأدوات البناء ، فلما أقام المخترع حسين عجوة المصـــنع ونجحت آلته ٠٠ أمره باقامة مصنع آخر فى رشيد ، وأنعم عليه بمال مكافأة له ٠٠

وهكذا بدأت مصر تمضى فى طريق الحداثة والمعاصرة ، وتنتقل خطوة فخطوة من ظلام القرون الوسطى الى ساحة العصر الحديث ، من الحق أن الظروف الاقتصادية والسياسية التى مرت بها مصر ، قد أثرت أثرا بالغا فى تحـــديد خطـــى هذا الطريق ومجالاته ، ولكن التيار الأغلب ، بلا شك ، كان هو تيار الاستنارة الذهنية والعقلية والوجدانية ، الذى قاد مصر فيه أدباؤها ومفكروها وعلماؤها وفنانوها ٠٠ وعن معالم هذا الطريق نتحدث حديثنا المتعدد الحلقات ، مثيرين القضايا الكبرى فى تاريخ الوجدان المصرى مثـــل قضية الانتماء بين نزعاتها الفرعونية السفلية والعربية المعاصرة ،

ومثل قضية الفكر المصرى بين السلفية والتغريب ، وغير ذلك من القضايا الحيوية التى اصطرع عندها الرأى ، واشتد فيها الجدل ، حتى اهتدت مصر الى صورتها المحدثة ٠٠ كدولة عربية عصرية ترجو أن تمضى خطاها على طريق الحضارة والتقدم ٠

ومن خلال هذه القضايا ٠٠ سيبرز دور الأسماء المنيرة فى هذا التاريخ الزاهر ٠ رفاعة الطهطاوى والأفغـانى ومحمد عبده ولطفى السيد ٠ وغيرهم ٠٠ سلسلة ذهبية ، أقباس يأخذ بعضها من نور بعض ٠٠

المنـــدهش الأعظـــم

الدهشة هى ينبوع كل فكر عميق ٠ لأن الدهشة تقلق النفس الساكنة الفاترة ، وتبعث فيها دوامة التساؤل ٠ واذا بدأ الانسان بسؤال قادة السؤال الى المعرفة ٠ وبالمعرفة يعرف الانسان مكانه على أرض الحياة والواقع ، ويقيسه الى مكان غيره من البشر ، وقد يطمح بعد ذلك الى تغييره أو تحسينه ، فلا شك أن الغاية الرئيسية للمعرفة هى المقدرة على تغيير العالم ، والسعى الى ذلك المقصد ، الذى هو مبرر وجود الانسان على الأرض ٠

وهناك نوعان من أدوات الاستفهام ، أولهما فاتر ســاكن ، مهمته ــ حين يتلقى الاجابة ــ هى تسجيل الظواهر والرضا عن الكائن والموجود ، والآخر متحرك مهمته البحث عن الوسيلة والغاية ٠٠٠ نحن قد نرى آلة حديثة كالعقل الالكترونى مثلا ، فنسأل : متى اخترعت ، وأين كان ذلك الاختراع ، والكلمتان « متى » و « أين » عندئذ كلمتان فاترتان ساكنتان ، ولكننا لو سألنا ٠٠ كيف وصل اليها

العقل البشرى ، ولماذا انشاها ، فقد حركنا معرفتنا أو تحركنا بهـا خطوة نحو المجهول ، وحاولنا أن نجوس فى أرجائه لعلنا نجد فيها موضعا لأقدامنا المترددة ، أو لعقلنا الخجول ٠

وقد كان العقل العربى فى عصـــور التخلف قانعا بالأسئلة الساكنة ، التى لا تعبر عن الدهشة ، ولكنها ترضى بمجرد التسجيل وحين عرفنا الأسئلة المحركة المتحركة استطعنا أن نتلمس سر العقل الحديث ٠ وأن نستنشق هواء العصر الحديث ٠

والمندهش الأول فى تاريخ الوجدان المصـــرى هو رفاعـــة الطهطاوى بلا شك ، ولد فى نفس العام الذى خرجت فيه فلـــول الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١ ، فى احدى مدن صعيد مصر الصغيرة ، من أسرة تمت بصلة عميقة الى السلف الصالح ، فأبوه من نسل الرسول ، وأخواله من نسل الأنصار ٠ ونحن نعرف فى أرض مصر هذا الاعتزاز بالأنساب الطاهرة ، وكيف ينعكس على أصحابه زهوا أحيانا ٠٠ وخلقا كريما أحيانا أخرى ، ولكنه ينتج فى غالب الأحيان ـ وبخاصة فى ذلك الزمان ـ لونا من الكرامة يدل به أصحابه أو يتسامون به الى مناظرة الأرســـتقراطية التركيـــة والمملوكية المستجلبة الى مصر ٠ وفى ظل هذا النسب الكريم والفقر الطارىء ، ولد رفاعة الطهطاوى ، وقد تكون علة هذا الفقر الطارىء هى نقل « محمد على » لملكية الأرض الزراعية الى الدولـــة ، حين الغى نظام الالتزام ليقيم مكانه نظام الاحتكار ، اذ نزع محمد على الأرض الزراعية التى كانت تحـــت أيـــدى الملتزمين ، والتى كان الفلاحون يزرعونها ويدفعون ضريبتها لهم واعتبرها ملكا للحكومة ، وكان معظم هؤلاء الملتزمين من عمد البلاد ومشايخها وأعيانها ٠ فانتقل الكثيرون من حال اليسر الى حال الفقر والاملاق ٠

وتنقل أبو رفاعة برفاعة بين أقاربه وأخواله،وهويحفظالقرآن ، ويقرأ العلوم السلفية على مشايخ منطقته ، ثم هجر الصعيد الى

القاهرة فى أسبوعين ، وفى الأزهر التقى بالشيخ حسن العطار ، الذى علمه علوم الأزهر ، وأيقظ ذهنه الى محاولة اكتساب المعارف العصرية ، التى كان الشيخ الكبير مولعا بها ، حتى أنه ألف كتابا فى الطب ، وكان يقرأ بعض الكتب فى الفلك والجغرافيا ٠

وبعد خمس سنين من مجاورة الفتى الصعيدى فى الأزهر جلس الى أحد أعمدته ليعلم ويحاضر ، وكانت أمه قد باعت فى هذه السنين بعض حليها وعقارها ، لتضمن له خبز الأزهر وعدسه وفوله ، وهو الطعام الذى حدثنا عنه « طه حسين » فى كتابه « الأيام بعد قرن من الزمان ، وأوجز فى العبارة حين قال : « وويل للأزهريين من خبز الأزهر » ٠

ويذكر لنا تلميذ رفاعة ومؤرخ سيرته « صالح مجدى » أحد اقطاب المترجمين فى القرن التاسع عشر ، ان رفاعة كان يستعين على أمور حياته حينئذ باعطاء بعض الدروس الخصوصية لحسين بك طبوز أوغلى أحد أولاد الذوات ، كما كان يلقى بعض الدروس فى مدرسة أخرى أنشأها « محمد بك لاظ أوغلى » لتعليم أولاد المماليك ٠

وبعد سنين قليلة ٠٠ تحول رفاعة الطهطاوى من سلك الأزهر الى السلك « الجهادى » ، اذ عين واعظا وأماما بالجيش ، وفى عام ١٨٢٦ ، وعمر رفاعة خمس وعشرون سنة ، وافت محمد على فكرته الثورية ، حين خطر له أن يرسل بعض الشباب الى اوروبا ليتلقوا العلم فى باريس ، وأراد أن يختار للبعثة اماما وواعظا ، فطلب من الشيخ حسن العطار أن يرشح له أحد علماء الأزهر ٠٠ فاختار الشيخ تلميذه رفاعة ، وأوصاه بأن يسجل ما يراه فى هذه الرحلة فى كتاب ٠ ولم يكن من مهام الامام أو الواعظ أن يدرس أو يتعلم ، بل أن يؤدى بأعضاء البعثة شرائع الدين ، وقد سافر مع رفاعة

ثلاثة آخرون من الأئمة ، فلم يعن أحد منهم بأن يتعلم الفرنسية أو يقرأ علوم الفرنسيين ٠

بعثات محمد على :

كان تركيب بعثات محمد على مختلطا ، لا تركيا أو شركسيا خالصا ، كما يحلو لبعض المؤرخين أن يزعموا ، كان فيها بعض أبناء المماليك المشترين ، ممن كان يشتريهم الوالى ، ثم يسلمهم الى « حسن أفندى الدرويش » فى القلعة ، ثم الى « روح الدين أفندى » ليتولى الاشراف على خلقهم وتصرفاتهم ، وكان فيها أيضا بعض النابهين من الشباب المصريين ، كان فيها محمد أفندى بيومى من دهشور وأحمد دقلة بك من بسيون غربية ، وأحمد طائل أفندى من بلتان قليوبية مركز طوخ ، وأحمد بك السبكى من سبك التلات ، وحسن بك نور الدين من سنهور غربية ، ومحمد على البقلى باشا الجراح العظيم من زاوية البقلى بالمنوفية ، وابراهيم بك النبراوى من نبروه غربية ، وحماد عبد العاطى باشا من أبو تيج ، وعبد الله بك السيد من الفيوم ، وآخرون من شباب مصر وأبناء طينها وترابها فليذكر المؤرخون ، الذين يحاولون المغالاة فى الاساءة الى محمد على ، بتصوير اختياره لأعضاء البعثات مقصورا على أبناء الترك والمماليك ، أنهم يسيئون أيضا الى مصر كما يسيئون الى الحقيقة ، فقد أصبح هؤلاء الشباب بعد عودتهم هم صناع اليقظة المصرية الحديث وأعلام تاريخها الفكرى والعلمى ، وليس من اللائق فى حقنا أن نزعم أنهم كانوا جميعا من غير أبناء البلاد ، وليكف المؤرخون عن هذا الاجتهاد الضار ، وليذكروا أنهم كانوا أساتذة الطب تحت رياسة « كلوت بك » ، وهم الذين أنشأوا القناطر الخيرية ــ معجزة الرى فى ذلك الزمان ــ تحت اشراف المهندس الفرنسى « موجيل » ، وأن واحدا منهم هو « على باشا مبارك » من قرية تدعى (برمبال) هو أبو التعليم فى مصر بعد رفاعة ٠

عود الى رفاعة :

وابحر رفاعة مع البعثة الى باريس ، وركب السفينة الحربية « لاترويت » من الاسكندرية ، ومن ذلك الحين أصابته الدهشة ، لقد أصابته دهشة متواصلة لمدة ست سنوات ، هى سنوات رحلته واقامته فى فرنسا ، وسجل يوميات دهشته فى كتابه العظيم « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ٠

بدأت دهشته لنظافة السفينة ونظافة الفرنسيس بوجه عـام مع أن النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة ٠٠٠ كما قال ، وزادت دهشته اذ حجزوا فوج المسافرين فى الحجر الصحى أو « الكرنتينة » حين نزلوا مرسيليا ، ووقف ليتساءل على عادته الفقهية : هل الكرنتينة حرام أو حلال ٠٠ وأورد حجج من قالوا بتحريمها حين أفتوا بأنها هروب من القضاء ، ولا يهرب من قضاء الله الا كافر ، وقال آخرون انها حلال ٠ ولم يورد رفاعة حجتهم ، ثم استبدت به الدهشة حين رأى مكان الحجر الصحى نظيفا مليئا بالرياض والحياض ، ولكن الحيرة الشديدة كانت حين امروا لهم بالطعام ، ولنترك رفاعة المندهش العظيم يحدثنا بعبارته ، فيقول :

٠٠ ولم نشعر فى أول يوم الا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنســاوية ، لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض فضلا عن الجلوس على ارض ، ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشــبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز ، وسكينا وشوكة ومعلقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، واناء به ملح وآخر به فلفل ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى ، لكل واحد لكرسى ، ثم جاءوا

بالطبيخ ، فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع ، فيعطى لكل انسان فى صحنة شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله الى فمه بالشـــوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره أو سكينته ، أو يشرب من قدحه أبدا ، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة » ٠

ويمضى رفاعة الطهطاوى ليدخل أحد المقاهى المنتشرة فى مارسيليا ، فيجده تحفة رائعة فى أناقته ومراياه « وهو ليس مجمعا للحرافيش ، بل هو مجمع لأرباب الحشمة ، والقهوجية (صاحبة القهوة) جالسة على صفة عظيمة » ، وفوجىء بالجالسين يمسكون أوراقا فى أيديهم عرف أنها أوراق الوقائع اليومية أو الصحف ٠٠

ثم كانت باريس ٠٠

وفى باريس ٠٠ التقى رفاعة الطهطاوى بكثير من المفاجآت ، لعل أول ماذكره منها هو عربة الرش « فان أهل باريس مثلا ، سهل عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر ، فانهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجل بالخيل ،

ولهذا الدن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية ، والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فمصرنا أولى بذلك لشدة حرها » ٠

وتذكرنا عبارته الأخيرة ٠٠ بعبارة لاحقة يقولها عن ميادين باريس أو فسحاتها كما يسميها ، حين يقول : وفى هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع ، يعنى الميادين ، كفسحة « الرميلة » بالقاهرة ، فى مجرد الاتساع،لا فى الوساخة٠٠ولنضع خطين تحت تعليقه الأخير ، فسوف نلتقى بكثير من أمثاله فى مجال المقارنة بين

مصر فى أوائل القرن التاسع عشر وفرنسا فى الوقت نفسه والأوان نفسه ، ولنذكر أن رفاعة كلما مضى صفحات فى كتابه ، قلت لهجة الحديث عن التحريم والتحليل ، لتبدأ لهجـــة الحديث عن الفائدة والجدوى ·

لنسمعه يقول : « ان من العوائد للفرنســـيس انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش ، فلذلك كان لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد بهم الفقر » ولنذكر عندئذ أنه ربما كان يعرض بمن لا يغيرون ملابسهم الا اذا اهترأت على أجسامهم ·

التياتر :

ورأى الشيخ رفاعة المسارح فى باريس ، وحدثنا عنها حديثا شائقا :

« فمن مجالس الملاهى عندهم محال تســـــمى (التياترو) (بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية) والسبكتاكل وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع ، وفى الحقيقة ·· أن هذه الأعمال هى جد فى صورة هزل ·· فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ومدح الاولى أو ذم الثانية حتى أن الفرنساوية يقولون : انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها ، فهى وان كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها من المبكيات ··· وصور هذه التياترات أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة ، وفيها عدة أدوار كل دور له أود (غرف) موضوعة حول القبة من داخله ، وفى جانب من البيت مقعد متسع (يقصد الخشبة) ·· وتحت هذا المقعد محل للألاتية ·· ثم ان النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر ·· واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم،

وفصاحة ، وربما كان لهؤلاء النـــاس كثير من التآليف الأدبيـــة والأشعار : وبالجملة ٠٠ فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل » ٠

وفى باريس ٠٠ رأى رفاعة الى جانب المسارح دور الاستعراض ومسارح الأطفال والقبة السماوية التى أطلق عليها « أورانورامه » وأطل على باريس ليشهد (البانورامه) أو البانوراما ، وشهد حفلات الرقص والغناء « ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى مصر ٠٠ فانه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات وأما فى باريس فانه نمط مخصوص لايشم منه رائحة العهر أبدا ٠ وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة التالية وهكذا ٠٠ سواء أكان يعرفها أم لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن » ٠٠

فعل الخير :

وينهى رفاعه ، نزهته فى أنحاء باريس ، فيحدثنا عن حدائقها وقصورها ، ويجول فى الشانزليزيه والبلوار ، والحمامات والمغاطس والقصور والمنازل المزينة بأرق ألوان الفن والذوق ، وقصور الملوك التى تتحول الى متاحف يوما فى الأسبوع فيؤذن للناس أن يطوفوا بها ، ثم عن دور الكتب العامة التى تحوى احداها على أربعمائة ألف كتاب ، والتى وجد فيها مبلغا عظيما من الكتب العربية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها ، كما وجد فيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا ٠ ومنها دار كتب أخرى أو خزانة كما يسميها رفاعة فيها مائتا ألف مجلد ، ثم انتقل الى المتاحف أو خزائن المستغربات كما يسميها ، فحدثنا عن متاحف النبات والمعادن والفنون ، وبعد جولته فى المتاحف حدثنا عن مرصد باريس أو « المرصد السلطانى » ثـم « الأكدمات » أو الأكاديميات خاصا بالذكر الاكاديمية الفرنسية التى

تتكون من أربعين عضوا ، والتى تهتم بتاليف القواميس الفرنسية ٠

وكانت وقفة رفاعة الطهطاوى الثانية ، عند الصحف والصحافة ٠٠ استوقفته هذه الصحف ، حين دخل المقهى فى مارسيليا لأول مرة، فرأى عددا كبيرا من الجالسين ، وقد مد كل منهم أمامه صفحات من الورق المطبوع ، ثم ما لبث أن رأى الفرنسيين لا يستغنون عن مثيلات هذه الأوراق ، وأدمن مطالعتها فوجد فيها كثيرا من الفوائد الشاردة ٠

« ومن الاشياء التى يستفيد منها الانسان كثيرا من الفوائد الشاردة ٠٠ التذاكر اليومية المسماة بالجرنالات ، جمع «جرنال» وهو يجمع فى اللغة الفرنسية على « جرنو » وهى ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل اليهم علمه فى ذلك اليوم وتنشر فى المدينة وتباع لسائر الناس ٠٠ وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر المقاهى ، وهذه « الجرنالات » ٠ مأذون فيها ــ لسائر أهل فرنسا ــ أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ماتراه حسنا أو قبيحا ، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، ما لم تضر ذلك ٠٠ فانه يحكم عليها ، وتطلب ين يدى القاضى » ٠

موقفان :

وتنتهى سياحة رفاعة الطهطاوى فى باريس بعد ست سنوات ليعود الى مصر ، وقد حاولنا هنا الالمام بجانبها الذى اكتسبه ببصره ورؤيته ، أما جانبها الذى اكتسبه ببصيرته وعقله ، فله حديثنا اللاحق ٠٠ حيث نحاول أن نتتبع ما اكتسب من الثقافة والمعرفة ، وما درس من العلوم والفنون ، وما اشتعل به قلبه من الرغبة فى الاصلاحات الدستورية والتشريعية والعلمية ، حتى اذا نــزل الى أرض الوطن جعل همه أن ينقل بلاده من القرون الوسطى الى العصر الحديث ، وأن يؤلف كتبا ، ويؤلف الى جانبها رجالا وتلامذة ، يهبهم

من علمه وذكائه وأدبه ، ويوقظ فيهم روح التوق الى المعرفة ·

ان بين الجبرتى والطهطاوى بضع عشرات من السنين ، ولكن ما أكثر ما اختلفت لهجتاهما فى الحديث عن علوم الغــــرب ، أما الجبرتى فقد قال حين شاهد حيل الكيمياء : « ولهم (أى للفرنسيس) فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج عنها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا) ·

ولكن رفاعة الطهطاوى قال :

وأنطقتها (أى كتبه) بحث ديار الاســـلام على البحث فى العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الافرنج ثابت شائع ·

انه الفرق بين العقل الذى اندهش فظل ثابتا فى مكانه · والعقل الذى اندهش فتحرك وحاول أن يحرك سواه من العقول ، ولنتوقف قليلا عند تعبيره « العلوم البرانية » فقد فطن هذا الرائد العظيم الى أن هناك نوعين من العلوم ، علوم جوانية تعنى بالروح الانسانية ، كعلوم الدين والفقه ·· وعلوم أخرى لم تكن تعرفها مصر تعنى بتجربة الانسان وحياته على الأرض وتيسر له أموره ومسعاه ، وتنظم له مسيرته وخطاه ·· هذه العلوم من هندســـة وكيمياء ومساحة وفلك وطب وصيدلة ، هى ما حاول رفاعة العظيم ـ الشاعر الناثر الأزهرى النشأة ـ أن يســـتنبته فى تربـــة مصر الكريمة المعطاء ·

لم يعش الشيخ الصعيدى فى باريس مفتوح العينين فحسب ، بل عاش متفتح القلب والوجدان كذلك ، ولم يقنع بأن تحمله قدماه الى مسارحها ومقاهيها وحدائقها وطرقاتها ، بل لقد حمله طموحه الى لب ثقافتها وعلمها وفكرها · ولقد خلف لنا رفاعة الطهطاوى

قائمة بما قرأ فى باريس من كتب ، فاذا بها تنتقل به فى دائرة العلوم التطبيقية والانسانية من الهندسة من طرف حتى ميثو لوجيا الاغريق فى طرف آخر ، اذا بثلاثة أسماء تبرز فى أفق هذه الثقافة ، هى أسماء الحكماء الثلاثة ، الذين كانوا حتى ذلك الوقت ، هم ضمير أوربا ومبعث تيارات فكرها السياسى والفلسفى · هذه الأسماء الثلاثة ·· هى أسماء مونتسكيو ، وفولتير ، وجان جاك روسو ·

كان هؤلاء الثلاثة ·· هم الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس فى القرن الثامن عشر ، أو عصر العقل الأوروبى ، وهم الذين مهدوا للثورة الفرنسية التى أرست حقوق الرعية على الراعى ، ونصبت العقل معبودا تقدم له القرابين وتقام له الشعائر ، وهم الذين انبعث من تراثهم فكر الثوار الرومانتيكيين فى الفترة التى عاشها رفاعة سواء فى مجال السياسة ، أو الأدب ، أو الاصلاح الاجتماعى الدينى ، وكأن هذا الشيخ الصعيدى كان يحلق فى الآفاق نفسها التى يحلق فيها المثقف الأوروبى لذاك الزمان ·

أما « مونتسكيو » فقد وهب أوروبا نظرية سيادة القانون ، حين روج لمبدأ الفصل بين السلطات فى معرض حماسه للنظم الانجليزية ومحاولته استنباتها فى القارة الأوروبية ·· التى لم تكن تعرف عندئذ الا الملكيات المطلقة ، التى يندرج الناس تحت طاعتها بمقتضى الحق الالهى ، والتى تجتمع فيها السلطات فى يد الحكم المستبد المطلق عادلا كان أو طائشا · فاذا بمونتسكيو يتحدث عن السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ومجال عمل كل منها وحدوده ، واذا بهذا الفصل هو الملمح الرئيسى فى كل الدساتير المحدثة فى ظل الديمقراطية البرلمانية ، ثم هو المطمح الرئيسى لكل أمة هبت تطالب بدستور يعطى لكل ذى حق حقه ، ويفصل فيما قد ينشب بين الأمة وحكامها من نزاع ··

وألهم « فولتير » أوروبا الا حجة ولاحكم الا للعقل ، واننا

سواسية ازاء ما يصدره من أحكام أو يراه من رأى ، وان علينا أن نهتك حجب الأوهام السائدة ، بحيث لا تخضـــــع ارادتنا أو تصرفاتنا للأفكار الجاهزة ، أو التقاليد المسيطرة ، التى تزداد نفوذا كلما ازداد عقلنا ضعفا وتهالكا عن التفكير الواقعى فيما يدور حولنا من أمور وأحداث ٠

أما ثالث الحكماء ٠٠ فقد دفع الى ساحة الفكر السياسى بنظريته فى العقد الاجتماعى ، اذا أعلن أن الحكم ليس حقا للملوك والعاهلين وأتباعهم ، ولكنه تعاقد غير مكتوب بين الحكام والمحكومين على أن يرعى الحكام مصالح المحكومين لكى ينهض المجتمع ويتقدم ركب الحياة البشرية ٠ فاذا كان الأمر كذلك ٠٠ ففى وسع أى طرف من المتعاقدين أن « يسحب امضاءه » والحكام لن يسحبوا امضاءهم بالطبع ٠ أما المحكومون فعليهم باليقظة الدائمة ، الى أن الحكام يراعون شروط التعاقد ويوفون بالتزاماته ، والا حق لهم أن يفسخوا هذا التعاقد الحر بين الطرفين ، فاذا كانت افكار مونتسكيو تقود الى الملكية المقيدة فقد كانت أفكار روسو تقـــود الى الجمهوريـــة الانتخابية ٠

لفحت هذه الرياح الساخنة عقل رفاعة الطهطاوى ، ولعلها ألهبته الهابا شديدا ، وليس بعسير علينا أن نتصور مواطننا الشيخ ابن الخمسة والعشرين عاما ، وهو يقضى أيامه فى باريس ، يقرأ الجغرافيا والتاريخ والفلك أو الهندسة فى ضوء مصباحه الشاحب ، حتى تضعف احدى عينيه ، ويقتنى الكتب حتى تستهلك ما خصص لها من مال ثم على مال طعامه وشؤون حياته ، ويترجم اثنتى عشرة رسالة أو كتيبا ليتقدم بها الى لجنة امتحانه بعد أن ضم الى البعثة التعليمية حين اتضح ذكاؤه وتفوقه ٠ كل ذلك كان وفاء بحق من أرسلوه وانفقوا عليه ، أما هوى نفسه وقرة عينه فهو التأمل فى هذه الكتابات الثورية الاصلاحية ، وهو الى ذلك يقرأ الجورنالات

والغازيتات أو الصحف والمجلات لكى يستشف من خلالها أنباء هذه المعركة الفكرية المشتعلة فى فرنسا بين أنصار الملكية المطلقة وأنصار الملكية المقيدة · حتى تحولت هذه المعركة الفكرية الى ثورة فعلية فى عام ١٨٣٠ ، فتابعها رفاعة الطهطاوى ملىء القلب بالعطف والتفهم ·

فقد خرج « شارل العاشر » ملك فرنسا عندئذ عن الأصول الدستورية ·· ففرض الرقابة على الصحف ، وحل مجلس النواب قبل أوانه ، وعين حكاما من العسكريين الذين يوالونه ، فتنبأ الناس بالثورة ، واحتجبت الصحف ، وأعلن الاضراب العام ، ووزعت المنشورات ، وطارد الشرطة رجال الرأى ، فتداعى الناس الى اللقاء عند القصر الملكى ، ونشبت المعارك بين الشرطة والشعب ، وسلب المواطنون الشرطة سلاحهم ، وانتهت الأمور الى غايتها بعزل الملك وتولية « الدوق دورليان » ملكا بشروط ارتضاها وارتضتها الرعية ·

ولنقرأ لمواطننا العظيم ، يحكى لنا قصة هذه الأيام الباهرة فى لهجته المليئة بالتعاطف ، فيقول :

« ظهر الغم على وجوه الناس (اثر فرض الرقابة وحل المجلس) · وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور « الغازيتات » أى « الصحف » التى من عادتها انها لا تفتر عن الظهور الا لأمر مهم ، فأغلقت الورشات والمعامل والفبريقات والمدارس ، فظهر بعض غازيتات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ، ومعددة لمساويه وفرقت على الناس من غير مقابل · فلما سمع بذلك رجال الحسبة « الشرطة » حضروا فى المحال العامة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه الغازيتات ، وحاصروا مطابعها ، وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ·· فكتب أرباب هذه الغازيتات يعنى رؤساء الفرنساوية الذين يكتبون فيها (المثقفون وأهل الرأى بتعبير عصرنا » (ورقة انكار (منشورات) وأشهروها وعددوا نسخها

ولصقوها بجدران المدينة ، وامروا فيها الرعية بالحرب ، وعينوا محله ، وكان الميعاد فى درب سراية بالرويال « القصر الملكى » ، فازدحم فيه كثير من الأمم ٠٠ فنظم القتـــال وكان أكثر المقتـــول والمجروح من الرعية ، فاشتد غضبهم وعرضوا القتلى فى المحـــال العامة ، فما مررت بهذا الوقت بحارة الا ســـمعت « الســـلاح ! السلاح ! أدام الله الشرطة(١) « أى الدستور » وقطع دابر الملك ! » ٠

ويمضى رفاعة الطهطاوى فى حكايته ، حتى يصل الى خلع الملك فيعلق على ذلك الحديث قائلا :

فلو أنعم الرأى فى اعطاء الحرية لأمة بهذه الصفة ، لما وقع فى مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لا سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفسية » ٠

الدستور :

اما لماذا عهد الفرنسيون هذه الحرية وألفوها ، فلأنهم كانوا أسبق الشعوب الى الثورة فى عام ١٧٨٩ ــ أو الفتنة الأولـــى للحرية ٠٠ كما يسميها رفاعة ، ولأن فى بلادهـــم قانونا مكتوبا يوضح حق الحاكم والمحكوم ، ويتراضى عليـــه الفريقان ، وهو الدستور الذى احتار رفاعة فى ترجمة اسمه ٠٠ فلم يجد الا كلمة الشرطة « بفتح الشين » ترجمة لكلمة « شارت » الفرنســـية أو الشرطة أقرب الكلمات لهذا المعنى ٠

وقد بلغ من ولع رفاعة بهذا الدستور ، أو الشرطة ، أن ترجم فصوله الرئيسية كاملة ، رغم عنائه البالغ فى ايجاد مصطلح عربى

---

(١) الشرطة بفتح الشين تعريب لكلمة عهد أى دستور ٠

يعادل المصطلحات الفرنسية : ولنستطرد لنقول : ان رفاعة كان أول من فطن الى صعوبة ترجمة المصطلحات وضرورتها فى وقت واحد سواء فى مجال العلوم الانسانية ·· كالتاريخ والسياسة والفن ، أو العلوم التطبيقية كالهندسة والرياضة والكمياء ، وأنه عرض على « ابراهيم باشا » أن يقوم بعمل قاموس للمصطلحات الحديثة ، ولكنه ما لبث أن أدرك ــ على حد قوله ــ أن هذا الأمر يحتاج لعشـــرة رجال · فأوصى عندئذ تلاميذه فى الترجمة بأن يلحقوا بكل كتاب يترجمونه ، كشفا بالمصطلحات الواردة فيه يـــذكرون فيه الكلمة الأجنبية ومعناها بالعربية ، ولنذكر اننا الى الآن لم نعد قاموسا للمصطلحات العلمية الحديثة ! !

وجد رفاعة الدستور الفرنسى ينص على مجلسين : مجلس للأعيان ، ومجلس للنواب ، فسمى الأول « شمبر دوبير » باسمه نفسه ، ثم عربه الى « ديوان أهل المشورة الأولى » ، أما مجلس النواب فسماه « ديوان رسل العمالات » أى « مندوبو الأقاليم » ، سمى الناخبين باللكتور ، وســـمى لجان المجلس بالبورو ــ أى البيرو ، وسمى المحلفين فى النظام القضائى بالجورية · فقد كانت كل هذه الكلمات غريبة على المناخ الشرقى العثمانى الذى عاشت فيه مصر خمسة قرون قبل حكم محمد على ، اذ كانت الأمور تدار من الآستانة اذا اتصلت بالمستويات العليا من الحكم ، فاذا شارفت مصالح الناس اليومية تركت للاجتهاد الضـــار للوالى والمماليك المحليين ، صغارهم وكبارهم · أما « محمد على » فقد كان حاكما مطلقا مســـتبدا لا تزيد مكانته ــ فى داخل نطـــاق الامبراطورية العثمانية ، وفى سلم وظائفها العليا ــ عن مكانة أحد وزرائها ، ويعد نظريا تابعا للصدر الأعظم أى رئيس الوزراء ·· فقد كان بيده بمصر كل الأمر والنهى والسلطة والتصريف ·

وقد كان الدستور أو « الشرطة » هو النص الوحيد الذى عنى

رفاعة الطهطاوى بترجمته وادراجه بين فصول كتابه « تخليص الابريز » » ، بل لقد ترجم التعديل الذى أجرى فيه ـ بعد خلع شارل العاشر وتولية دوق دور ليان الذى توج باسم لويس فيليب ـ مقارنا بين النصين ٠٠ وكان النص الأول هو دستور فرنسا عام ١٨١٨ الذى أصدره لويس الثامن عشر ، وكان التعديل هو تعديل ١٨٣١ ، وكأن رفاعة يتنبأ بالمعركة الدستورية التى دارت فى مصر بين دستور ١٩٢٤ ، الذى افتتح العهد الدستورى فى مصر بعد تصريح ٢٨ فبراير ، ودستور ١٩٣٠ الرجعى الذى أصدره «صدقى باشا » اثر توليه الحكم منوطا به تصفية الحركة الوطنية المصرية ٠ بل كأنه يدعو المصريين الى أن يهبوا بعد أعوام فى أواخر عهد « اسماعيل » ثم فى عهد « توفيق » للمطالبة بالدستور ، حتى تكون وقفة عرابى أمام قصر عابدين ، فيكون الدستور أحد مطالبه ٠

الوعى الاجتماعى :

ولعلنا نجد بداية للتحليل السياسى فى حديث رفاعة الطهطاوى عن أسباب ثورة ١٨٣٠ فى فرنسا ٠٠ بداية للتحليل السياسى العلمى ، الذى يذكرنا بتحليلات الصحفيين الناضجين ، حين يدخلون القوى الاجتماعية المختلفة فى حسابهم ، فلنسمعه يقول :

واعلم ان هذه الطائفة « الفرنسيين » متفرقة فى الرأى الى فرقتين أصيلتين ، وهما الملكية والحرية ، « بمعنى الليبراليون أو الراديكاليون » والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء ، والاخرى تميل الى الحرية بمعنى انهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين فكأنه عبارة عن آلة ، ولاشك أن الرأيين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا لفقد الاتفاق فى الرأى ، والملكية اكثرهم

من القسوس وأتباعهم ، وأكثر الحريين من الفلاسـفة والعلمـاء والحكماء وأغلب الرعية • فالفرقة الأولى تحاول اعانـة الملك ، والأخرى اضعافه واعانة الرعية • ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم للرعية بالكلية •• ولا حاجة الى ملك اصـلا ، ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية » •

هانحن اذن أمام ثلاثة أنواع متصارعة من الحكم ، هى : الملكية المطلقة ، والملكية المقيدة ، والجمهورية « التى ترد لأول مرة بهذا المعنى فى اللغة العربية » ، وها نحن أمام تحليل اجتماعى للقوى المؤيدة لكل من هذه الاتجاهات • وها نحن نلمح اثر « جان جاك روسو » فى قوله « الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم » وكأننا نلمح الاشارة الى انتخاب الحاكم انتخابا حرا من بين المحكومين • ولكن ليست العبرة فى كل هذا •• بل أن العبرة فيما يورده رفاعة الطهطاوى بعد ذلك حين يستطرد قائلا :

« وشريعة الاسلام ـ التى عليها مدار الحكومة الاسلامية ـ مشوبة بالأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملهـا وعرف مصـادرها ومواردها » •

ان الجمهورية اذن ـ فى رأى رفاعة ـ ليست بدعا فى الاسلام ولا غريبة عنه ، والخطورة هنا هى فى اطلاق هذا القول فى ظـل سيطرة الخلافة العثمانية فى الآستانة •• التى كانت تتوسل بالدين لاقرار سلطانها ، فتروج لنظرية الخلافة وكونها من شرائع الدين ، مع طمس الرأى القائل أن الخليفة ينبغى أن يكون قرشيا هاشميا ، لأن خلفاء المسلمين كانوا أتركا عثمانلية •

ولنحمد لرفاعة العظيم ٠٠ جرأته وشجاعته ، حين نذكر المعركة التى ثارت بعد ذلك بمائة عام ٠ حين نشر الشيخ « على عبد الرازق» كتابه « الاسلام وأصول الحكم » ، ونفى فيه كون الخلافة ركنا من أركان الاسلام ، فوقعت الواقعة ، وبطش الملك فؤاد بأقرب أعوانه اليه ، وهم الأحرار الدستوريون ، أو العدليون كما كانوا يسمون ، أو أصحاب المصالح الحقيقية والأعيان كما كانوا يسمون أنفسهم ٠٠ لان الشيخ على عبد الرازق كان ينتسب اليهم ٠

ويظل رفاعة ولوعا بالتحليل السياسى حتى آخر أيامه ٠٠ احدى عينيه على ما يحدث فى العالم ، والأخرى على وطنه ٠ ونراه وهو فى الثامنة والستين ــ بعد أن تقدم به العمر ، وأنضجته التجربة ــ يعود لموضوعه الأثير فى كتابه العظيم الثانى « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » ٠ وهو كتاب فى التربية الوطنية والقومية ، فهو اذن ٠٠ جامع لخطرات فى السياسة والاقتصاد والادب والدين والفكر بوجه عام ٠

كان رفاعة الطهطاوى ٠٠ هو أول من أرسى فكرة « الوطن » والوطنية خلال حياته العلمية والتعليمية ٠ فقد كان العرب الأقدمون يستعملون كلمة « الوطن » بمعنى البيت والمنزل ، وحين يقول الشاعر ابن الرومى :

ولى وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

فهو لا يعنى بذلك بغداد أو العراق ولكنه يعنى بيته الخاص الذى أراد بعضهم شراءه ، ولكن رفاعة يستعمل الوطن بمعنى « مصر » والوطنية بمعنى الاخلاص لمصر ، وقد نضجت عنده فكرة الوطنية المصرية بحيث زالت متناقضاتها السطحية ، فلا ضير أن

نحب الفراعنة وتاريخهم ونفخر بأبوتهم لنا ، ونحب فى الوقت ذاته نحب العرب ولغتهم ودينهم ·· ونعتز بأبوتهم لنا ·

ورفاعة الشاعر ·· هو صاحب كثير من الأناشيد الوطنية التى كانت تتغنى بمصر ، والتى كنا نسمعها بمدارسنا الى عهد قريب ، وهى بلا شك أفضل من سخافات موظفى وزارة التربية والتعليم التى تملأ كتب المطالعة الآن ··

ولكن الظاهرة الواضحة فى كتاب « مناهج الالباب » هى فطنة رفاعة لما يسمى الآن بعلم الاقتصاد السياسى ، وهو العلم الذى شغل أوروبا فى القرن التاسع عشر ، والذى قاد ثورتها الاجتماعية بعد أن قادت الفلسفة ثورتها السياسية · ونحن لذلك لا نشك فى أن رفاعة كان دائب الصلة بفكر باريس وهو فى القاهرة ، ولا شك فى أنه قد قرأ ما كانت تحفل به صحفها من مناقشات وآراء ، ولا نشك انه تتبع أخبار ثورتها الثالثة أو « كوميونة باريس » وانه ان لم يكن قد قرأ ماركس ·· فقد قرأ عديدا من المفكرين الآخرين ، مثل ، سان سيمون وفوربيه وغيرهما ··

كان الخلاف حادا حول نظرية القيمة ، أو منبع الغنى والثروة، أهو الملكية أم العمل · ومن هذا الخلاف نشأت نظرية « فائض القيمة » لماركس وقد أدلى رفاعة برأيه فى هذا الخلاف قائلا :

« ثم اختلف ·· هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الأرض ، وانما الشغل مجرد آلة واسطة لا قيمة له الا بتطبيقه على الفلاحة ، أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفادة ، وأنه هو الأصل الاولى للملة والامة ·· بمعنى أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج مايحتاجون اليه لمنفعتهم من الأرض أو لراحة المعيشة » ··

هذه هى القضية فى أجلى بيان ·· أما رأى رفاعة ، فهو أن

العمل هو القيمة الرئيسية ، وهو يذهب بهذا الرأى خطوة أبعد ، فيطبقه على مصر التى كان الاقطاع قد بدأ ينشأ فيها بتأثير هدايا محمد على وخلفائه ، الى أتباعهم وكبار موظفيهم وأبناء الأسرة ونسائها ، وبتأثير بدء ملكية الفلاحين للأرض منذ أن أصدر «سعيد» لائحته المشهورة فى عام ١٨٥٤ التى أباحت ملكية الأرض للفلاحين، فاستأثر بالأنصبة الكبرى فيها مفتشو الدوائر ومأمورو الدخولية والصيارفة ٠

انه يقول بعبارة واضحة : ان الملاك يسرقون جهد الفلاحين وعملهم ، وان ما يضعونه من رأس مال لا يبرر أن يحظوا بالناتج كله ٠٠ فلا يتركوا للفلاحين الا الفتات القليل أن سمحت مكارمهم ٠

« ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية ، المجتنى لفوائد هذه الاصلاحيات الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل ٠٠ انما هو طائفة الملاك ٠٠ حتى لا يكاد يكون لغيرهم شىء من محصولها له وقع ، فلا يعطون للأهالى ألا بقدر الخدمة والعمل ، على حسب ماتسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة » ٠

ولننظر هذه الكلمة ٠٠ التى تذكرنا بتحليل الاقتصاديين المحدثين لظاهرة الاحتكار ونتائجها :

« فيترتب على هذا ٠٠ أن كل من يريد من الأهالى أن يتعيش من الخدمة التى هى العمل ٠ يصير مضطرا لأن يخدم بالمقدار الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم ، ولو كان هذا القدر يسيرا لا يساوى العمل ، لا سيما اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين ، فانهم يتناقصون فى الأجر ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الأرض » ٠

وينتهى رفاعة بأن يحكم بأنه لا يجوز أن يستأثر أصحاب الأرض بناتجها ، فهى دون الفلاح لن تعطى شيئا ، ويتهم حجج

الأقطاع بأنها ليست الا مغالطة ·· ويؤكد أن قانون العرض والطلب حين يتعرض للأجور قانون باطل مجحف ، وان صاحب الحق الأول فى ناتج الارض هو الفلاح الذى زرعها ، لا المالك الذى احتواها وامتلكها ·

من هو لنا ؟

ان رفاعة الطهطاوى لشخصية عملية وفكرية أكبر من أن يحاط بها فى بضعة أحاديث ، وقد توخينا فى هذا المجال ·· أن نلـــم بالقضايا الكبرى التى أثارها ، ولو أردنا أن نحدد مكانه فى الفكر المصرى الحديث لقلنا انه يمثل بالنسبة لنا ديدرو وفولتير وروسو ومونتسكيو مجتمعين ، وأنه يتجاوزهم - بالنسبة لنا - بدوره العملى فى انشاء مدرسة الألسن ، وتوجيه خطاها ، وفى خلق خمســين مترجما أو يزيد ، وفى توجيه خطى الصحافة المصرية الناشئة فى الوقائع وروضة المدارس ·

كما أنه هو الأب الفكرى لكل اتجاه اصلاحى وتقدمى عرفته مصر ، فهو السلف الصالح لكل خلف صالح ·· السلف الصالح لمعلمى هذه الأمة الكبار مثل : على مبارك ومحمد عبده وطه حسين ، ولثورييها العظماء مثل : عرابى وعبد الله النديم وسعد زغلول ، ولصحفييها النابهين وأدبائها المبدعين ·

فى عام ١٨٧٣ مات رفاعة الطهطاوى بعد رحلة حياة طويلة ، كانت كالشجرة المثمرة الطيبة ، أصلها ثابت ، وفروعها تمتد على سماء الوطن العظيم ·

الثـــائر المتنقـــل

فى احد أيام مارس عام ١٨٧١ ، بعد أن افتتحت قناة السويس بعامين ، وانحسرت أو كادت الموجة الذهبية لأيام اسماعيل ، هذه الموجة التى لمعت على وجهها لآلىء الزبد ، وحفلت أيامها بالأفراح والليالى الملاح ، حتى بلغت مداها ، فانحسرت لتخلف وراءهـــا أمواج الدين الفادح والهم الثقيل ، ولتأخذ معها اسماعيل الى منفاه الطويل المرير ٠

فى أحد هذه الأيام ٠٠ نزل الى مصر شاب فى الثانية والثلاثين من عمره ، متوسط الطول ، قمحى اللون ، كثير التدخين فى عصبية ظاهرة ، لا يحمل حقائب أو متاعا ٠٠ لأن ملابسه كلها على جسمه ، وكتبه كلها فى صدره ٠

كان هذا الرجل ٠٠ قد ولد فى أقصى بلاد العجم ، فى بلاد الأفغان ، لاسرة عالية النسب والمكانة ، أما علو نسبها فلأنها تنسب الى الحسين بن على ، وأما علو المكانة فلأنها كانت تحكم أحد أقاليم البلاد ، وتشارك فى مؤامرات السياسة العليا ، فيكون الأمر عندئذ كما يحدث لمثيلاتها من الأسر ، يوم لها ويوم عليها ، وفى أحد الايام

ـ التى دارت فيها الدائرة على الأسرة ـ تضطر الاسرة لهجرة موطنها الى العاصمة ، وهناك يشارك ابنها النابغة فى ادارة الأمور حتى يصبح وزيرا لاحد الأمراء ، ويسقط ذلك الامير ، فيهجر الشاب البلاد الى الهند ، وهناك يوطن له بين علمائها ومفكريها ، ثم لا يلبث أن يضيق ذرعا بالنفوذ الانجليزى هناك ، فيفكر فى مهجر جديد ، فلا يخطر بباله الا مصر ٠٠ ٠

كانت مصر عندئذ ٠٠ هى مهوى قلب العالم العربى الاسلامى منذ أن دفع بها محمد على الى مصاولة الخلافة العثمانية فى حروب الشام والاناضول ٠ فقرعت الأيدى المصرية أبواب استنبول ، وكادت أن تلج ساحاتها ، لولا أن تدخلت أوروبا فزعا من القوة المصرية الناشئة ٠٠ فأجبرت محمد على على الرضا بالقليل ، والقناعة بأن تكون ولاية مصر له ولذريته من بعده ٠

وكانت سنوات الانحسار المريرة فى ختام أيام محمد على ، الذى أبى القدر الا أن يفارق حياته وقد فارقه عقله ٠ فكأنـه كان ينقذه من أن يجيل النظر فى مصيره المؤلم ، اذ يقارن بين سلطانه الذى كان ممدودا « ذات يوم » على مصر والسودان والحجاز ونجد والشام ، وبين هذا الملك الضيق الذى قنع به ٠

ولكن هناك جذوة لم تخمد بعد أن خمدت جذوة الحروب ، تلك هى جذوة التطلع العقلى والحضارى الذى مهد له محمد على السبيل والذى حمل شعلته المضيئة عديد من المصريين ، رائدهم هو رفاعة الطهطاوى ٠ ومن الحق ٠٠ أن حكم عباس الأول وسعيد كان حكما يقوم على القاعدة المخادعة التى يتبناها بعض الولاة ، وهى أن الشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم ، ومن الحق أيضا

أن الروح العربية المصرية ـ التى كانت تجد سبيلها فى رفق أيام محمد على ، وكان ابنه ابراهيم كثيرا ما يتكىء عليها ويستثيرها وبخاصة فى أيام حروبه مع العثمانيين ـ هذه الروح كانت تلقى ألوانا من العنت والاضطهاد فى أيام عباس وسعيد ، وبخاصة فى أيام أولهما ، حتى ان من كان يتكلم باللغة العربية من طلبة المدارس الحربية ـ فى أيام عباس الأول ـ كانت توضع فى فمه العقلة التى توضع فى فم الحمار حينما يشرع حلاق الحمير فى قص شعره ، ويبقى كذلك نهارا كاملا عقوبة له ٠

ولكن عهود عباس وسعيد تقضت غير مأسوف عليها ، وجاءت الأيام الحافلة لاسماعيل ، أيام العظمة الرائعة والهوان العظيم ، أيام المجد المتألق والانكسار المرير ٠ فقد كان شعار اسماعيل هو : أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا ٠٠ وفى سبيل هذا الشعار نقل أوروبا الى مصر ، ولكنه لم ينقل مصـــر الى أوروبا ، وأتت أوروبا بمغامريها وسفلتها وأوغادها ودائنيها ٠٠ حتى تم لأوروبا احتلال مصر فى عهد توفيق المتخبط فى شباك الاضطراب الذى خلفه أبوه ٠

ولكن اسماعيل كان مثل جده ٠٠ يريد ملكا عصريا ، وهذا الملك العصرى لا يتوطد الا بالتعليم ، وهكذا ازدهر التعليم مرة ثانية فى هذا العهد ، وقد يكون محمد على واسماعيل لم يفكرا أن انتشار التعليم سلاح ذو حدين ، فهو كما يوفر للحاكم فئـــة من الموظفين العموميين وكتبة الدواوين ومهندسى المصانع ٠٠ الا أنه يثير فى الناس جذوة المعرفة التى لا تخمد ، والتى تدفعهم الى الفكر والمقارنة والتأمل فى الماضى ، والنظر الى المستقبل ٠٠ لقد أوفد محمد على رفاعة الطهطاوى الى فرنسا ليؤم البعثـــة ٠ ثـــم ليدرس العلوم العسكرية ٠ فعاد وهو يتحدث فى الدستور وحقوق المحكومين على الحكام ، ودخل « البارودى » المدرسة العسكرية فى أيام عباس ،

فخرج منها شاعرا ثائرا بالعربية التى كانوا يمنعون الحديث بها ، وسافر « على مبارك » ليدرس الهندسة العسكرية ، وعاد لينشىء عديدا من المدارس ، وليكون أديبا وشاعرا ومشتغلا بالعلوم الانسانية ان التفتح العقلى لا يحده حد ، ولا يوقفه الا حدود العقل ذاته ، فاذا ظن الحكام الأغبياء ٠٠ انهم يستطيعون بالتعليـــم ، أن يخرجوا أجيالا من البيروقراطيين والتكنوقراطيين فحسب ، دون أن يشتغل هؤلاء الخريجون بهذا الولع المحرق بالمثل العليـا ، والمصـــالح الوطنية ، فهم واهمون غافلون ٠ فان الحاكم ، اذا أشبع الفضول العقلى بالتعليم ، فقد أيقظ الفضول الروحى الى الحرية ٠

الأفغــانى .. ومصــر

ولنعد الى الرجل القادم .. لنعرف كيف كانت مصر حينما قدمها ، ولنقل أولا ان الرجل لم يأت الى مصر الا أنها كانت كعبة الثوار والمتمردين من أبناء العرب والاسلام .. فقد نزلها من قبله « أحمد فارس الشدياق » ثائرا على التعصب الدينى . وأديب اسحاق ثائرا على الاستعمار والجهل ، ونزلها من بعده « الكواكبى » هربا من بطش ولاة العثمانيين ، وبحثا عن منــاخ صــالح لأفكــاره وآرائه .

وهكذا .. جاء جمال الدين الأفغانى الى مصر ، وهو يعرف قصده . ويدرك أنه سيلقى فى هذه البلاد عقولا متفتحة تتجاوب مع عقله المتفتح ، ونفوسا متطلعة تستجيب لنفسه المتطلعة ، ولذلك .. فنحن لا نتفق كثيرا مع قول الشيخ « محمد عبده » ان جمال الدين الأفغانى هو الذى بث بذور الروح الوطنية فى مصر ، وهو الذى أيقظ الرغبة فى الدستور ، فذلك لون من التقدير باعثه الولاء الكبير من التلميذ لاستاذه ، ومن المريد لشيخه .

فحين جاء الأفغانى الى مصر .. حاولت السلطة استمالته اليها ، اذ فرض له « رياض باشا » مرتبا قدره عشرة جنيهات ،

وهو مبلغ كبير فى ذلك الزمان ، فكأنها كانت محـــاولة من رئيس النظار لشراء لسان لاجىء سياسى معروف بحدة اللســان على الظلم والظالمين ، ولكن هذا اللاجىء السياسى ٠٠ كان يعرف أن لسانه هو عدته وسلاحه ، وان مكانه ليس هو أروقة الحكام ودهاليز السلاطين ، بل الهواء الطلق حيث تنطلق الكلمات كالرصاص ٠

اتخذ اللاجىء السياسى له مجلسين : أحدهما فى بيته حيث يلقى بضعة دروس فى الفلسفة ، وثانيهما فى قهوة متاتيا حيــث يلقى بضعة دروس فى الثورة ، والتفت حوله فى المجلسين الطليعـة الفكرية المثقفة فى مصر ٠

كان من بين هذه الطليعة ٠٠ هذه الأسماء اللامعة فى تاريخ مصر : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وابراهيم المويلحى ومحمود سامى البارودى ، ويعقوب صنوع ، واديب اسحق ، وسليم نقاش ، وكان لكل من هؤلاء مجلسه الذى يجتمع فيه خلصاؤه ، وأحباؤه من المثقفين ، فالرواة يحدثوننا أن مجلس البارودى كان يجتمــع فيه عبد الله النديم وعبد الله فكرى والشاعران على أبو النصر ومحمود صفوت الساعاتى وغيرهم ، كما يحدثنا الدكتور أحمد أمين ـ نقلا عن عبد العزيز فهمى ـ أنه كان يتردد على مجلس على باشا مبارك ، فيجد فيه لفيفا من المثقفين من شباب مصر ٠ وقد ظل مجلس على باشا مبارك عامرا ، حتى حضره الزعيم مصطفى كامل وهو طالب شاب ، فلم يضق به رب المجلس ، بل قربه واستدناه اليه ٠

وقد جاء جمال الدين الأفغانى الى مصر وهو يحمل بضــعة افكار ، وغادرها وقد أضاف الى فكره أفكارا جديدة ٠٠ واتضحت فى نفسه أفكاره الاولى فأصبحت اكثر عمقا ورسوخا وثراء ٠ وكان ذلك كله ثمرة لقائه مع المفكرين المصريين أولا ، ومع الواقع المصرى خلال الأعوام الثمانية التى عاشها فى مصر بعد ذلك ٠

لقد أعطى الأفغانى مصر ، وأعطته مصر ٠

كان الأفغانى حينما جاء الى مصر ، لم يحرر أو يكتب الا رسالة الرد على الدهريين ، وقد كتبها بالفارسية وهو ببلاد الهند ، وترجمها الشيخ « محمد عبده » فيما بعد الى العربية بمعونة أحد الفرس المقيمين بمصر ، والدهريون الذين رد عليهم الأفغانى هـم أولئك الشباب المسلمون الهنود ٠٠ الذين قرأوا شيئا من العلم الحديث فوجدوا فيه نظريات النشوء والارتقاء على اختلاف نتائجهـا ، وبخاصة نظرية « داروين » الذى كتب كتابه « أصل الأنواع » فى عام ١٨٥٩ ، فهز به وجدان المتدينين فى كل مكان ٠

وسأل سائل ٠٠ جمال الدين الأفغانى عن رأيـه فى مذهب الطبيعيين هذا ، هل هو موافق للدين أو مخالف له ٠٠ وتصدى جمال الدين للرد فى رسالة طويلة ، استعرض فيها تاريخ الأمـم وتاريخ الفكر ، مبينا أن الأمم المتعاقبة « كالاغريق والفرس والمسلمين والفرنسيين والعثمانيين » ضلت عن سواء السبيل حتى استشرى فيها تيار الطبيعيين أو الدهريين ، ففسدت أمورها واضمحل شأنها ٠

ولنقرأ له يحكى جزءا من تاريخ العالم والفكر من وجهة نظره المصطبغة بالحماسة الدينية المتأججة ، فيقول بعنوان « الشـعب الفرنساوى » :

« شعب قد تفرد بين الشعوب الأوروبية باحراز النصـيب الأوفر من الاصول الستة الاخلاقية ، فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة فى قطعة من أوروبا ٠٠ حتى ظهر فيهم وولتير « فولتير » وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم ، والقيام بانارة الأفكار وهداية العقول ، فنبشا قبر أبيقور الكلبى وأحييا ما بلى من عظام الناتور السم « الدهريين » ونبذا كل تكليف دينى ، وغرسا بذور الاباحة والاشتراك ، وزعما أن الآداب الالهية جعليات خرافية ، كما

زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانسانى ·· فأخذت هذه الأضاليل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم ، فنبذوا الديانة العيسوية ·· والأضاليل التى بثها هذان الدهريان « وولتر وروسو » هى التى أضرمت نار الثورة الفرنساوية المسعورة ، ثم مزقت بعد ذلك أهواء الأمة ، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها ·· نعم ان « نابليون الأول » بذل جهده فى اعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب ·· فاستمر الخلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم ·· هذه الأباطيل الدهرية قام عليها مذهب الكمون « الكميونزم » أى الإشتراكيين ، ونما هذا المذهب بين الفرنساويين ولو لم يتدارك الأمر أرباب العقائد النافعة والسجايا الحسنة لنسف الاشتراكيون اكل عمران على أديم فرنسا ، ومحوا مجد الأمة تنفيذا لأهوائهم وجلبا لرغائبهم !

هذا هو موقف جمال الدين من عصره حتى عام ١٨٧٠ ، وهو عام كتابته لرسالته ، وهذا هو تقديره للتيار الليبرالى فى الفكر والفلسفة ، وهذا هو موقفه من العلم والاشتراكية · وهو موقف سلفى شديد المحافظة · ولعل له فى ذلك بعض الحق ·· فنحن نعلم أن الغرب لم يؤثر فى الشرق بعلمه وحضارته فحسب ، بل باستعماره واقتصاده المتقدم ، وكثيرا ما اختلط الوجهان فى نظر أبناء الشرق · فانكروا الغرب جملة · وكل ما يأتى منه · ونحن ما زلنا نسمع حتى الآن كلمة « الغزو الثقافى » يرفعها بعض النـاس علما مرفرفا يجندون تحته أعوانهم ، رغم أن الكلمتين « غزو » و « ثقافة » لايمكن أن تتآلفا بحال من الأحوال ، ورغم أن الثقافة الأوروبية ليست مسؤولة عن الاستعمار بل لعلها كانت من عوامل تفتيح الوعى على وجوب محاربة الاستعمار والتخلص منه ·

وقد انعكس هذا الموقف انعكاسا واضحا على جمال الدين فى مرحلة فكره الأولى ، فلم يجد خلاص الشرق ، المسلم ، الا فى العودة

الى حظيرة الخلافة العثمانية ، اذا اختصــر النزاع بين أوروبا والشرق فى رأيه فى خلافهما الدينى ، أو فى الدرع الدينى الذى لبسه كل منهما ليواجه به صاحبه · واختصرت المسألة الشرقية ، فى العراك بين الغربى والشرقى ، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعا من الدين ·

فالغربى تذرع بالنصرانية ، والشرقى بالاسلامية ، وأهــل الديانتين كالآلة الصــماء بأيدى محركيهما فالقائمون بالنصرانية يسخرون الدين لأجل الدنيا ، والعاملون بالاسلامية يسخرون الدنيا لأجل الدين ، فيخسرون الدين والدنيا معا ·· !

ولكن الخلافة الاسلامية ·· التى كان الأفغانى يدعــو الى الانضمام تحت لوائها ، والتفانى فى خدمتها ، والموت فى سبيلها ·· كانت للأسف هى خلافة بنى عثمان فى عهودها الأخيرة المحتضرة · التى تحكم بغير ما أنزل الله ، وتضطهد العرب والعربية ، وتستخذى تحت الضغط الأوروبى · وقد كان الافغانى لكثيرا ما يجادل نفسه فى شأن هذه الخلافة ·· فيرى سوءاتها ، ويلمس تخبطها ، ولكنه يظل يراها الملجأ الاخير من هذه الجيوش الأوروبية الزاحفة نحــو العالم الاسلامى مشرقة ومغربة ، تقص من أجنحته ، وتستلب من أرضه ، فهو يقول عن السلطان عبد الحميد ، بعد ذلك بزمان :

« أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد أوربا ، فقد دفعنى الى مد يدى اليه ، فبايعته بالخلافة والملك لما أعلم ، علم اليقين ، ان الممالك الاسلامية لا تسلم من شراك أوروبا ، ولا من السعى وراء اضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى الا بيقظة وانتبــاه عمومى ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم » ··

ولكنه يرى أيضا ·· هذا الاضطهاد الذى يصبه الأتراك على

العرب . وقد كان جمال الدين عربى الهوى واللسان ، رغم أصله الأفغانى . فيتمنى على الزمان لو استعرب الأتراك كما استعرب أهل مصر ، ولو انصفوا فى سيرتهم كما انصف بعض خلفاء بنى العباس .

« لو انصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم واستعربوا ، ورأسوا ذلك الملك ، وعدلوا فى أهله وجروا على سنن الرشيد أو المأمون على الأقل .. ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين لما كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة وأعز جانبا وأمنع حوزة » .

لكن الأفغانى - رغم ذلك - لا يرى الا الوحدة الدينية طريقا للنجاة من الغزو الأوروبى . فيدعو اليها مع أخذ الاهبة والاستعداد العسكريين ، ولكنه لا يرى بعض القضايا الملحة كقضية الدستور وقضية العروبة كبديل للخلافة العثمانية ، وقضية تنقية الفكر السلفى وتطويره ... حتى يصل الى مصر .

هل كان لقاؤه بمصر لقاء باحداثها وأزمانها ، أم لقاء باهل الرأى فيها

موجز الرأى .. انه كان لقاء بالتيارين معا ، تيار الاحداث وتيار الرجال ، وان هذا اللقاء هو الذى جلا الوجه المستنير للشيخ جمال الدين الأفغانى .

لا تنمو البذرة الا فى الأرض الصالحة ، ولا تورق الكلمة وتصبح فعلا الا اذا كانت الاسماع متأهبة لاستقبالها ، وكانت الأيدى متأهبة لاعطائها سلطانها وفاعليتها ، وهكذا تحولت كلمات الأفغانى فى مصر الى أفعال لا الى أصداء . وقد أشرنا فى المقال السابق الى أن « الشيخ محمد عبده » قد وصف مصر قبل نزول الأفغانى ، فجار على الواقع لينصف الشيخ العظيم . اذ أعلن ان

مصر ، قبل مجيئه ، كانت قد خلت من كل صاحب فكر أو تدبير ، حتى جاء الشيخ فأنشأ ذلك كله انشاء ٠

يقول محمد عبده :

« ان أهالى مصر قبل عام ١٢٩٣ هجرية ٠٠ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ٠ ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا على غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الاخرى ٠٠ سواء أكانت اسلامية أم أوروبية — ومع كثرة من ذهب منهم الى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على الكبير الى ذلك التاريخ وذهاب العدد الكثير منهم الى ما جاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد على باشا الكبير وابراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف مع ان اسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر عام ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها ٠ ٠

هذا تشخيص محمد عبده لحال مصر قبل نزول جمال الدين بها ٠٠ وهو رأى لابد أن نحكم بصوابه لو كان الأمر متعلقا برأى هذا الشعب ، فحين تستحكم الأمية ، ويمد الفقر سلطانه فلن تجد رأيا او تفكيرا فى مصالح الأمة ، وقد ابتليت مصر بالامية والفقر منذ زمن بعيد ٠ والفقراء والأميون لا يتحركون للاصلاح الا اذا حركتهم ثورة شعبية شاملة ، كما حدث فى عام ١٨٨٢ حين قامت

الثورة الشعبية الواسعة · اما من ناحية النظر والتدبر والتفكـــر فى شؤون الأمة ·· فيستوى الأمر قبل جمال الدين أو بعد وصــوله واقامته · اذا كنا ننظر الى الامر من زاوية ارتباطها بسواد الشعب الأمى ·

ان الأمم التى تمر بالمرحلة التى كانت تمر بها مصر فى ذلك الزمان ، لابد أن تعتمد فى نظرها وتفكيرها على طلائع مانســميه بالطبقة المتوسطة ، التى تستطيع أن تحل طلاسم القراءة والكتابة ، وأن تملأ بطنها بالخبز والادام ، فهى عندئذ تطمح الى ملء عقلها بالمعرفة ، وتستيقظ عندئذ فيها نزعات الحريــة وادراك المصــــلحة العامة ·

وقد كانت الطبقة المتوسطة المصرية ، قد بدأت فى ارتفاعها وامتدادها قبل وصول الافغانى الى مصر ، فقد جند محمد على المصريين حين فشل فى تجنيد المرتزقــة الأتراك والممـــاليك ثـــم السودانيين ، وحاول أن يسترضى المصريين ، وبخاصــة فى أيام خلافه مع السطان العثمانى وحروبه فى الشام والأناضول ، ونجد فى مخطوطات عابدين ·· نقلا عن الكتاب القيم « لغة الادارة فى مصر للاستاذ عبد السميع الهراوى » أن « محمد على » أصـــدر أمرا الى محافظ دمياط بالتركية هذه ترجمته :

« انه علم بالاحتفالات التى قوبل بها آلاى حســـين بك من الأهالى والقناصل ، وبما تفوه به (على أغا) ناظر السلخانة وقوله فى محقل الاستقبال ــ صار الفلاحون العمى عساكر ، ومهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك ــ وعليه فاضربوه مائة نبوت على اليته · وينفى وان عاد يصلب ·· »

ولكن محمد على لم يســـمح للمصـــريين بأعلى من رتبــة العسكر الا فى بعض الحالات القليلة · فلما جاء « سعيد » سمح

للمصريين بالترقية الى وظائف الضباط ، وكان هؤلاء الضباط هم الذين اسهموا فى تكوين الحزب الوطنى الأول ، وهم الذين قادوا الثورة العرابية فيما بعد ٠

وبجانب هذه الفئة كانت هناك فئة المتعلمين الذين تعلموا فى مدارس محمد على أو فى بعثاته ٠ ومن الحق ان محمد على - وهو الرجل البالغ الذكاء والدهاء - كان يتوجس خيفة من التعليم ٠ اذ كان يريده مجرد وسيلة لتخريج الموظفين ، ونحن نراه يوضح سياسته التعليمية فى خطاب يرسله فى عام ١٨٣٦ الى ولده ابراهيم ، يندد فيه بالتعليم العام ٠٠ ويرى فيه أن أوروبا قد تورطت فى تعليم كافة الناس حتى يقول :

« فاذا كان هذا المثال أمام الانظار ، فمن الواجب أن تتفضلوا فتكتفوا بتعليم القراءة والكتابة لعدد منهم واف بأعمال الرياسة ، غير مولعين بتعميم ذلك التعليم » ٠

وقد انتكس التعليم فى أيام عباس الأول وسعيد ، حتى أوشك سعيد أن يجعل الجهل شعارا لحكمه ٠٠ اذ أغلق المدارس ، ومنح المطبعة الأميرية ببولاق هدية الى أحد خاصته ، واسمه «عبد الرحمن رشدى بك » ليستعين بها على زيادة دخله وتوفير معاشه ، وفى هذه الاثناء كان أولئك الذين تعلموا ، فى أيام محمد على ، يقتربون من شيخوختهم المثمرة ، يتقدمون شيخهم العظيم رفاعة رافع الطهطاوى٠ حتى يعود التعليم لازدهاره فى أيام اسماعيل ، التى كانت قد مضت منها ثمانى سنوات يوم نزل جمال الدين الأفغانى مصر ٠

ونحن نجد الأسماء المصرية اللامعة ، تقود هذه النهضة التى أرادها اسماعيل ، فان لفيفا من المصريين يترجمون قانون نابليون ليكون هو القانون المدنى ٠٠ ويكون رأسهم هو رفاعة الطهطاوى ، بل ان واحدا من أبناء مصر هو الذى يتولى نظارة التعليم فى أيام

اسماعيل ، وهو الذى ينشىء دار العلوم والكتبخانة الخديوية ، ذلك الرجل هو ٠ على باشا مبارك ٠

وقد كان من اصلاحات اسماعيل ٠٠ أن أنشأ مناصب «العمد» فى القرى ، واختار العمدة من كل قرية من أهل اليسار فيها ٠٠ واستطاع هؤلاء العمد والأعيان الجدد ـ بذكائهم ودأبهم ـ أن يتقربوا من مراكز السلطة،وأن يحصلوا فى بعض الأحيان على الرتب التى تميزهم عن غيرهم كرتب البكوية والباشوية ، وهم الذين اختارت الحكومة نفرا كبيرا منهم لكى يكونوا أعضاء فى أول مجلس نيابى حديث عرفته مصر ، وهو مجلس « شورى النواب » الذى أنشأه اسماعيل فى عام ١٨٦٦ ٠

هذه الروافد الثلاثة ٠٠ الجيش المصرى ، ثم الموظفون ، ثم العمد والأعيان ، هى التى تكونت الطبقة الوسطى المصرية التى كان وجودها فى أيام اسماعيل حقيقة واقعة ، والتى قادت الثورة العرابية فيما بعد ، بل ان ابناءهم هم الذين تولو قيادة سفينة مصر حتى عام ١٩٥٢ ، فان سعد زغلول ومحمد محمود ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل مثلا ٠٠ هم من أبناء أعيان القرى ، بينما كان مصطفى كامل ابنا لعلى أفندى محمد من قرى طنطا ، الذى أصبح ضابطا وموظفا بالحكومة ، وكان أخوه ، الذى رعاه وقام له مقام الأب ، مهندسا أصبح وزيرا للاشغال ٠

حديث هذه الطبقة

هذه الطبقة الجديدة .. لابد أنه كان لها حديث واسمار حين تلتقى ، وحين تكتب فى « الوقائع المصرية » أو « روضة المدارس » أو جريدة «مصر» أو « جريدة التجارة » ، ولابد أنه كان لها حديث وأسمار حين تشهد بدايات الزحف الأوربى على مصر ، واتساع مدى ديون اسماعيل ، وحين تراه يشق الشوارع ويشيد المسارح والقصور والحدائق تشبها بأوربا ، واستعدادا لاستقبال ضيوفه حين يفتتح قناة السويس ، بل وحين تراه يسعى سعيا حثيثا الى فصل مصر تدريجيا عن الدولة العلية ، وحين تراه يحاول أن يجعل لهذه البلاد مجلسا نيابيا ، وأن يوسع من سلطات مجلس النظار ومكانته ليستكمل ملامح الملك العصرى .

ولا تظن أن الطوائف الثلاث من أبناء هذه الطبقة كانت ساكنة .. فنحن نرى عرابى يحدثنا أن سعيدا أهداه لكتابا عن نابليون فلما قرأه دفعه الى التفكير فى الاصلاح ، وأنه كان يتألم لسيطرة الشركس والأتراك على الجيش منذ وعى اوضاع البلاد . ونحن نرى رفاعة الطهطاوى يحدثنا فى كتابه « مناهج الألباب » عن أنظمة الحكم ومشكلات الاقتصاد ، ونحن نعرف أن أعيان المصريين الخلص كانوا

يأبون الا ان يزاحموا فلول الأتراك والشركس فى سياسة الدولة ، حتى يظفر منهم الكثيرون بمناصب الوزراء ٠

ولابد أن هؤلاء جميعا ٠٠ قد التقوا بالأفغانى كما التقى بهم ، ولابد أنه قد أفاد منهم كما أفادوا منه ، ولكن الفائدة الكبرى التى أفادها فكر الأفغانى ٠٠ كانت ، بلا شك ، هى معايشته لحياة مصر فى هذه السنوات التى عاشها فيها بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٩ اذ يشهد انهيار حكم اسماعيل تحت وطأة طموحه غير المحسوب ، هذا الانهيار الذى يتمثل فى انشاء صندوق الدين واحكام السيطرة على مقدرات مصر ، ثم فى عزل اسماعيل وطرده من مصر ٠

لقد نبهته هذه الأحداث ٠٠ الى أن القضية ليست قضية دين فحسب ، بل هى قضية أسلوب حكم فردى لا بد ان يقود الى الكارثة، وقضية تخلف اقتصادى يجعل الشرق يقف عاجزا مهيض الجناح أمام الغرب ، أو هى بالأحرى قضية حضارة ٠٠

وربما كان الأفغانى لم يعبر عن قضية الحضارة هذه بشكل مباشر ــ موجز ٠ ولكنه بلا شك عبر عن تفاصيلها ، فبينما نراه فى كتابه الأول « الرد على الدهريين » معنيا بمهاجمة الالحاد والذود عن حياض الشريعة ٠٠ نراه فيما بعد فى لكتاباته بالعروة الوثقى ــ بعد نفيه من مصر ــ مهتما بالمشكلات المعاصرة ، مثل السيطرة الاستعمارية والاستعانة بالأجانب فى أمور الحكم ، واتخاذ شكل الحكم النيابى وفوائد الصناعة وتحرير المرأة بل انه يتحدث عن الاشتراكية مقارنا بين اشتراكية الغرب التى تقوم على الضغينة والحقد ــ فى رأيه ــ واشتراكية الاسلام ، ثم ينتهى الى القول :

« ودعوى الاشتراكية ، وان قل نصراؤها اليوم ٠ فلابد أن تسود العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة ، وأن التفاضل انما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع ، وليس بتاج أو نتاج ، أو مال يدخره

أو كثرة خدم يستعبدها أو جيوش يحشدها أو غير ذلك من عمل باطل ومجد زائل »

القضايا الثلاث

كان جمال الدين طوال حياته داعيا الى الثورة الاسلامية الشاملة ، التى تبدأ باتحاد بلاد الاسلام من ترك وفرس وأفغان وعرب ، لكى يقفوا فى وجه الاستعمار الأوروبى الزاحف ومن الحق أنه عبر أكثر من مرة عن محبته للعرب ، وتقديمه لهم على غيرهم من شعوب الاسلام ٠٠ ولكنه كان ، فى الوقت ذاته ، يرى أن مكانهم يجب أن يكون فى ظل الخلافة الاسلامية العثمانية ٠ ولا نظن أن الأفغانى أو أحدا من معاصريه ، كان يستطيع أن يرى لاى مسلم انتماء يبتعد به عن مجال السيطرة التركية ، فقد كانت دعوة القومية العربية لم تتبلور بعد ، بينما كانت الدعوة التى بدأت تشق طريقها هى الصيحة التى أعلنها الحزب الوطنى الأول « مصر للمصريين » وكانت تعنى عندئذ ٠٠ التخلص من رئاسة الأتراك والشراكسة المحليين ، وتعبر عن طموح الطبقة الوسطى المصرية الناشئة الى احتلال مناصب الدولة العليا ٠

وسيظل تاريخ الوجدان المصرى الى خمسين سنة أو يزيد بعد مغادرة الأفغانى لمصر فى عام ١٨٧٩ مشغولا بهذه الالوان الثلاثة من الانتماءات ٠٠ الانتماء للجامعة الاسلامية ، أو الانتماء العربى ، أو الانتماء الى مصر ، حتى يدرك هذا الضمير أن هذه الانتماءات الثلاثة لا يعارض بعضها بعضا ، وانما يتمم كل منها الآخر بشكل من الأشكال ٠

كما سيظل الضمير المصرى موزعا بين اتجاهين نبتا فى تلك الأيام ، واختلف حولهما المستنيرون من أبناء مصر ٠٠ هل يكون التغيير بالثورة أم يكون التغيير بالاصلاح ٠ أما الذين يرون التغيير

بالثورة فسيكونون هم ضباط الجيش المصرى وقادته ، وسـيكون لسانهم الناطق هو عبد الله النديم ، اما الذين يرون التغيير بالاصلاح فسيجدون فى التعليم قصارى أمانيهم ، ويحلمون بأمة قارئة كاتبة ، وسيكون منهم على مبارك الذى يبتعد عن الثورة العرابية فى أوج التأهب لها ، حتى اذا شبت واشتعل أوارها ٠٠ عاد الى قريته فى « برمبال » ليصلح أرضه ويتعهدها ، فاذا استتبت الأمور ٠٠ رجع الى سدة الوزارة مستأنفا مشروعاته التعليمية ٠ وسيكون منهـم محمد عبده الذى يميل الى الثورة بعض الميل ، حتى اذا فشلت لام النفس على تورطه فيها ، وفى باريس يلتقى بشـــيخه جمال الدين الأفغانى ، فيصدران معا جريدة « العروة الوثقى » وتتوالى أعدادها ثمانية عشر عددا فى ثمانية أشهر ، ثم لا تلبث أن تمنع من شتى البلاد الاسلامية ، فيعود محمد عبده الى طبيعته كمعلــم ، ويقول لشيخه جمال الدين ٠

« أرى أن نذهب الى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة من الدول المعادية ، وننشىء مدرسة نختار لها التـــلاميذ من نجباء الناشئين فى الأقطار الاسلامية ، ونربيهم على منهج قويم نختاره ٠٠ فلا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار » ٠

ولا يعجب الثورى « جمال الدين » بحديث المعلم « محمد عبده» فيقول له :

« انما أنت مثبط ! » ٠

لقد اتضحت فى شخصية الرجلين علامات اختبـار آخـــر سيخوضه الضمير المصرى بين التغيير بالثورة والتغيير بالاصلاح ، وسيرتفع لواء الشعار الثانى بعد فشل الثورة العرابية التى تستحق وقفة متأنية على مشارف تفكيرها ٠٠

ما قبل الثلاثاء الحزين .. وبعده

فى صباح الثلاثاء الحزين ، الحادى عشر من يوليو عام ١٨٨٢ ، انطلقت القذائف من البحر تتساقط على قلاع الاسكندرية ومبانيها ، حتى دكتها دكا ، ثم هبط الجنود الانجليز الى المدينة المحترقة ، التى هرب منها معظم أهلها ، مندفعين دون وعى يهربون من خطر الحريق والموت الى آلام التشرد والضياع ، يصف الشيخ محمد عبده هؤلاء المهاجرين قائلا :

« نحو مائة وخمسين ألفا من السكان ، مجردين من كل شىء ، أخذوا فى الحركة لغير قصد ولا لمأوى . الموت والفزع ملأ نفوسهم ، على شطوط المحمودية الى دمنهور ، وجسر السكة الحديدية من دمنهور الى القاهرة ، كادت المهاجرة أن تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رفيعة ، متحركة فى كل جبهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة . هنا ينزلون وهناك يمشون ببطء .. ولا وقاية ولا عيش ، على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض نضرة .

كانوا كالأعاصير ، أو كماء انكسر سده فاندلق يتصل بعضهم

ببعض مزدحمين متراكمين فى حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم ·· حيوان· أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التى لاقيمة لها ·

فى هذه الحالة ـ حالة شعب طرد من بيته ـ كان الحر شديدا، وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، نساء، يبحثن عن أولادهن، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن ·· عربات بلا عجل استعملت مساكن ·· عربات من كل نوع ، بعضها ساقط فى المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل ، روائح شى اللحم ·· صياح على المارة « الخبز ! الخبز ! » ·

هذه اللوحة التراجيدية الحزينة ، التى تسجل يوما ثقيلا من أيام عذاب مصر ، ثم ما تلاها بعد ذلك من فواجع النفس ، اذ انهارت الثورة ·· وانهار معها قوادها يطلبون عدالة الانجليز وعطفهم ويسلمونهم سيوفهم بدلا من أن يموتوا شهداء ـ بل ويذهب بهم الهلع الى التبرؤ من صحيفة مفاخرهم ، وانكار أعمالهم وأقوالهم والقاء اللوم على بعضهم البعض ، ثم ما تلا ذلك كله من انهيار البناء المصرى حكومته ، وجيشه ، ومجلسه النيابى ، وتسلط الاحتلال على مقدرات البلاد ، كل ذلك لم يغب عن الوجدان المصرى لحظة فيما تلا ذلك من أحداث وما صاحب تلك الأحداث من تفكير وتدبير وتأمل ·

نابليون · فريزر · بوشان سيمور ثلاثة من رجال الغرب يأتون الى مصر فى مدى أقل من قرن من الزمان ، تتقدمهم شعل النيران وقذائف اللهب ·· ترى ماذا تريد بنا أوروبا ، لقد تنبهنا الى أنهم يعرفون ما لا نعرف ، فحاولنا أن نلم بمعارفهم ، ونكتسب خبراتهم ، وتنبهنا الى أنهم لا يعيشون كما نعيش ، فحاولنا أن نقرب أسلوب حياتنا من أسلوب حياتهم ·· اننا نقلدهم ونتعلم منهم ، بل اننا نريد أن نحكم بلادنا كما يحكمون بلادهم ، فنقر فيها حكومة

مسؤولة ، ودستورا ينظم العلاقات بين الحاكم والمحكوم ·· اننا نريد أن نتقدم على طريقتهم ، وقد نلتقي ببعض أهل أوروبا حين يقدمون الى بلادنا حاملين خبراتهم ، فنجد فيهم العلم والفضل والمحبة ، ومن منا لا يذكر سليمان الفرنساوى ولكاوت بك وموجل بك وغيرهم ولكن هؤلاء الغزاة أوروبيون مثلهم ·· يالحيرة الضمير ·· هل أوروبا خير ؟ هل أوروبا شر ؟ وهل نستطيع أن نتبنى حضارتهم دون أن نتعرض لضياع الشخصية وفناء الذات ، بل دون أن نتعرض لقصف المدافع وصليل السيوف ·

ويقول بعض القائلين : لنطو هذه الصفحة كلها ، ليتنا طويناها منذ البدء ، وظللنا على بداوتنا وجهلنا المزعوم ، فقد كان ذلك أجدى على استقلالنا وأصون لأرواحنا ·· ان أوروبا ليست الا قشورا من العلم الزائف ، لا تنفع الا فى تيسير بعض أمور الناس ، التى يستطيعون الاستغناء عنها ، لدينا من تقاليدنا وعلم أجدادنا ما يقوم مقام هذا العلم ·

ويقول آخرون : ان أوروبا ما زالت تعيش بعقلية الحروب الصليبية ، وانها لمعركة اسلام ضد مسيحية غربية ، وان علم أوروبا وحضارتها ليسا الا وسائل لتمييع مقومات وجودنا حتى يسهل عليها بعد ذلك افناؤنا والقضاء على ديننا ·

وتصل النغمة الى مداها حين ينادى المنادون بالعودة الى الماضى واحياء ما جرى عليه الحال فى إيام السلف الصالح ، فما الحرية والدستور والشعب والعلوم العصرية الا كلمات ومعان مستحدثة لن يكون من عواقبها الا الضياع والهزيمة ·

وتتسع الرؤية عند فريق آخر ، فيفطنون الى أن مواجهة أوروبا تعنى أن يكون لنا علم كعلمهم وصناعة كصناعتهم واقتصاد كاقتصادهم ···

ولكن مواجهة أوروبا تظل على كل حال مشكلة تواجه الضمير المصرى الحديث ، وما بين الرفض الكامل والقبول المشروط تتعدد مواقف المفكرين المصريين ، ما بعد الثورة العرابية ، بل وفى اثنائها، اذ أن الثورة العرابية ولخفاقها كانا هما بداية التحام لمشـــكلات الضمير المصرى ، فقد انتهت المرحلة الأولى من اليقظة المصـــرية بالهزيمة والانكسار ، وتخايلت للعيون أيام الزهو العظيم تمر كالاحلام ثم تهوى فى هاوية الحاضر الأليم ، منها يوم وقفت فيه جيوش مصر تقرع أبواب الأستانة ، ويوم اجتمع فيه الجيش أمام قصر توفيق يطالب بدستور للأمة ، ويوم صدر فيه دستور للأمة يبعد عن أموالها رقابة الوزيرين الأجنبيين ، وغير هذه الايام من مواســـم المجـد والعظمة ، ثم تخايلت للعيون أيام العذاب والشجن ، وتطلعت العقول بعد ذلك ·· الى اعادة النظر واستخلاص العبرة ·

لقد كانت مصر تواجه سؤالين ، اولهما عن الانتماء المصرى · أهو عثمانى أم عربى أم مصرى ، وثانيهما عن الاصلاح ، هل يكون بالثورة أو بالتعليم ، وها هى ذى تواجه سؤالا جديدا عن علاقتها بأوروبا ·

وعن هذه الأسئلة الثلاثة ، ومنها ، سيدور اجتهـــاد التفكير المصرى وذكاؤه ، وسوف تتعدد الاجابات ، حتى يستقر لمصـــر قرار ·

ولقد كانت الثورة العرابية فى جانبها النظرى ·· أول اجابة مطروحة على هذه الأسئلة الثلاثة ، أو هى فى الحق أول محاولة للاجابة على هذه الأسئلة ·

لقد تآخى فى الأيام الأولى للثورة العرابية جناحان كبيران ، الضباط والاعيان ، وكلا الجناحين قادته مطالبه الخاصة الى المطالب العامة · ولقد بدأت الثورة قبل انفجارها الأخير بحوالـــى ثلاث

سنوات ونصف ، حين أحالت وزارة نوبار الفين وخمسمائة من ضباط الجيش المصرى الى الاستيداع فى فبراير عام ١٨٧٩ بدعوى الضائقة المالية ، فاحتشد هؤلاء الضباط وضربوا نوبار ، وحين حاول اسماعيل خديو مصر التدخل بعد ذلك ، كاد أن يضرب ٠

وبعد ذلك بشهر واحد تقريبا كان مجلس النواب يقرر الاعتصام بعد أن صدر قرار حله ، لأنه أراد أن يمارس دورا فعليا فى مناقشة شؤون البلاد ، أما سجل هذا المجلس منذ عام ١٨٦٦ ، حتى عام ١٨٧٩ فيكشف عن اهتمام أعضائه من الأعيان والعمد بالمشكلة المالية ، وبخاصة اذا تعرضت لأموالهم أو للضرائب المفروضة على الأرض الزراعية ، وقد كان النزاع الأخير بينه وبين الحكومة حول قانون المقابلة ، وهو قانون أخذت به الحكومة ضرائب الارض الزراعية مقدما لسنوات طويلة ، ثم حاولت بعد أن تأزمت الأمور أن تلغيه وتعود الى استخلاص الضريبة مرة ثانية ، فثارت ثائرة النواب ٠

ولقد كان الأعيان أسرع فى الحركة والتجمع من الضبّاط ، اذا اجتمعوا فى منزل أحد كبرائهم ، وهو السيد على البكرى نقيب الاشراف ، ثم نقلوا اجتماعهم الى منزل اسماعيل باشا راغب وتمخضت اجتماعاتهم عن مشروع لائحة وطنية دعوا فيها الى مطلبين ، أولهما تسوية الحالة المالية ، وثانيهما اشراكهم فعليا فى حكم البلاد ٠

وقدم الأعيان مذكرتهم الى الخديو الذى قبلها ، وأصدر بيانه الذى يقول فيه « ٠٠ وبناء على هذا اجتمعت جمعية حافلة من حضرات أعضاء شورى النواب ، والعلماء الاعلام والذوات الفخام والمامورين الكرام ووجوه البلد وأعيان المملكة ومعتبرى الأهالى ٠٠ الخ » ٠

وفرح الأعيان بالنصر الذى حازوه ، وما لبثوا أن تفتح وعيهم الوطنى على الرغبة الملحة فى المشاركة فى حكم البلاد ، وكانت الحركة الوطنية تقوى فى الجيش اثر اضطهاد « عثمان رفقى » الشركسى للضباط المصريين ، فالتقى التياران ، تيار الأعيان الذين كان يمثلهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب أيام توفيق ، وتيار الجيش الذى كان يمثله عرابى ٠

ولكن الفريقين المتحالفين ما لبثا ان اختصما حين جد الجد ، أما فريق الأعيان فقد تبرأ من الثورة ، ولاذ بالخديو ، بينما تصدى الجيش وحده لمواجهة الغزو الأوروبى ٠

لقد كان الفريقان متحالفين ، يوم أن كان شعار الحركه هو مصر للمصريين ، كل من الفريقين يدرك الشعار بمعنى مختلف ٠٠ الاعيان يطمعون فى وراثة فلول الاتراك فى حكم البلاد ، بحيث يتاح لهم ان يشرعوا لها ، ويديروا امورها ، ويوجهوا خطواتها ، أما المصريون فى الجيش فانهم يطمحون الى تولى الصدارة وزيادة الرواتب ، وقد كان هذان الموقفان على اية حال ، اجابة على مشكلة الانتماء ، فالاتراك ليسوا اصحاب حق فى البلاد ، لعلنا نجد نبرة الاستقلال شديدة البروز فى الردود المتوالية لمجلس شورى النواب على خطب الافتتاح التى يلقيها الخديو « أو خطابات العرش » فى أيام اسماعيل ، بحيث لايرد فيها ذكر للسلطان العثمانى ، وقد سمت هذه المسألة بشكل أوضح حين تدخلت الآستانة فى أيام الثورة العرابية تدخلها الضار اذ أعلنت عصيان عرابى ٠ وقد كان المظنون بالنزعة التركية العثمانية بعد ذلك أن تذبل وتنمحى لولا الاحتلال الانجليزى ، اذ أصاب المصريين بالحيرة والقنوط ، وساء ظنهم فى أوروبا كلها ، وتخيلوا أن لو كانت الدولة العثمانية قوية لحاولت انقاذهم ، كما أنهم ظنوا أن قطع الانتماء الى الدولة العثمانية ينتج عنه أن يصبح الاحتلال الانجليزى شرعيا ، ومن هنا قال محمد

عبده ذات مرة ان الخلافة الاسلامية هى ثالثة الشـــهادتين بعد الشهادة لله ورسوله ، ومن هناك ايضا حرص مصطفى كامل بعد ذلك على توكيد الانتماء العثمانى فى المرحلة الأولى من جهاده ٠

واختلف الفريقان ايضا ٠٠ الجيش والأعيان فى منهج الاصلاح أما الأعيان فقد كانوا يرون الطريق البرلمانى اسلم عاقبـــة وأكثر جدوى ، وكانت تجربتهم البرلمانية قد نضجت بعض الشيء خلال ممارستهم للنيابة عن الأمة ، كما أنهم كانوا قد استطاعوا أن يقرروا بعض المبادىء الدستورية وبخاصة فى ١٨٧٩ و ١٨٨٢ ، لقد بدأت مطالبهم متواضعة حين طالبوا بعدم جلد العمد والمشايخ حرصا على كرامتهم الشخصية أمام الفلاحين ، وهو اسلوب كان شائعا اذا قصر احد العمد فى جمع انفار القرعة أو أموال الضرائب ، ثم ما لبثت مطالبهم أن اتسعت بحيث شملت الرقابة على أموال الشعب ، وبحيث أقر الدستور أن النائب ليس نائبا عن قريته فحسب ، بل هو نائب عن الأمة كلها ، وقد كانوا يطمحون الى أن تظل الأمور تدور فى الدائرة الدستورية ، وكان رجلهم الذى يرضونه للحكم هو شريف باشا الكبير ٠ أما الجيش فقد قادته سفينة التأييد الشـــعبى الى الثورة المسلحة ٠ وانقسم « العلماء الأعـــلام والذوات الفخـــام والمأمورون الكرام ووجوه البلد وأعيان المملكة ومعتبرو الأهالـــى الى فريقين ، فريق كبير أخلد الى السكينة أو مال الى جانب الخديو، وفريق ضئيل معظمه من اشياخ الأزهر وطـــلابه مال الى الثورة المسلحة » ٠

وحين فشلت الثورة المسلحة ارتفعت نبرة الاصلاح البطىء أو المعارك الجزئية ، فوجدناها عند محمد عبده ترويجا للتعليـــم وعند قاسم أمين مطالبة بتحرير المرأة ، وعند لطفى السيد مطالبة بالدستورية ، وعند مصطفى كامل وسعد زغلول تنظيما لأول جامعة مصرية ٠

لقد أستنكر الجميع دور الثورة المسلحة ، حتى أصحابها ومشعلو نارها ، قال معظم قادتها انهم لم يقصدوا الى ما حدث وأن الأمور قد جرت بما لم يكن فى الحسبان ، وتسابق الأعيان فى تقديم فروض الطاعة والولاء لجيش الاحتلال ، فسعى ستة منهم هم : محمد سلطان ومحمد الشواربى وعبد الشهيد بطرس وعبد السـلام المويلحـى ومحمود سليمان « والد محمد محمود » وأحمد السيوفى الى قواد الحملة الثلاثة : سيمور وولسلى ودوروورى فى تكوين لجان شعبية للاكتتاب فى هذا الفرض « الوطنى » العظيم وهو تقديم هدايا وسيوف ذهبية لقوات الاحتلال ٠

أما محمد عبده ، فقد قال انها كانت « فتنة » وما لنا نذهب بعيدا ، وعرابى نفسه حين عاد من منفاه أدلى بحديث كئيب يمتدح فيه الاحتلال البريطانى ، نثبت بعضه هنا والقلب يدمى ، والنفس تأسى لهذه الأمة المفجوعة التى عانت من العذاب ما صهر ضميرها حتى أوشك أن يحرقه ، وكان أوجع ما عرفته هو خيبة أملهـا فى فى الرجال الذين أحبتهم ٠

قال عرابى فى حديث له بالمقطم عدد ٣ اكتوبر عـام ١٩٠١ « سألت الذين قابلونى بالعريش من أفراد أسرتى « أصـحيح أن السخرة الغيت من عندكم ، فقالوا : نعم صحيح ، قلت : والكرباج ؟ قالوا أبطل من زمان طويل ٠ قلت : وكيف تحصل الأموال من الأهالى قالوا بالحق والعدل ، وكل انسان يعرف ما له وما عليه ٠٠ وقد شاء الله أن ينعم على وطنى لحكمة له جل جلاله قضى ألا يتم ذلك على يدى ، بل على يد الذين نازلناهم فى ساحة القتال وكانوا لنـا أعداء فصاروا لمصر اليوم من خير الأصدقاء ، وقد قضى الله أن أكون واسطة هذا التغيير ، فنال وطنى ما كنت أتوخى واتمنى لـه من الخير ٠٠ بحسن تدبير جناب اللورد كرومر الادارى المصـلح الكبير » ٠

لقد هزمت أوروبا مصر لا فى أرضها فحسب ، بل فى روحها أيضا •

رجل واحد من ابناء الثورة ظل مشتعلا بروح الثورة ، رجل ليس من طائفة الضباط ولا من طائفة الأعيان ، ولا من طائفـــة المتعلمين •• ولكنه ابن من ابناء هذا الشــعب وأحد صــــعاليكه العظام •

هذا الرجل هو •• عبد الله النديم •

الصعلوك العظيم

تحول ابن الشعب من أدباتى الى أديب ، ومن نديم يسامر السادة بالفكاهات والطرائف الى ثورى يقض مضاجع السادة ويبدد أحلامهم ، ومن عبد من عباد الله المغمورين الى رجل من رجالات مصر اسمه « عبد الله النديم » .

وعبد الله النديم .. سيرة حياة وسيرة فكر معا ، وكلتا السيرتين لها من البريق والعظمة ما يستحق أن يقف أمامها المؤرخ لوجدان مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكما رأينا نماذج من هؤلاء المصريين الخلاقين المبدعين ، يدخلون المدارس ، فيهجرون اللعب بالطين فى قراهم المتربة المتسخة ، الى اللعب بالأفكار أو الجد بها ، ويخلعون جلابيبهم الزرقاء أو البيضاء التى حال لونها الى تراب جامد ، فيلبسون « الحلة المقمطة » والطربوش العثمانى ، سواء كانت حلة الملكية أو حلة الجهادية ، فيكون منهم بعد ذلك الحكماء والمشرعون والمعلمون والصحفيون والقواد ، كما رأينا كل أولئك من أبناء المدارس يدخلونها برغبتهم كما دخلها رفاعة .. أو بالقسر والاكراه حين يساقون اليها كأنفار السخرة كما دخلها على مبارك ، فنحن نرى الآن رجلا دخل التاريخ من باب الحياة لا من

باب المدرسة ، وعرف مصر عن طريق التسكع لا عن طريق التأمل ، ولكن الحياة كانت له أكرم بالعلم من كثير من المــدارس ، وكان التسكع أكثر اثراء لنفسه من كثير من التأمل ، هذا التأمل الذى وهب منه الكثير رجل آخر قاربه فى السن ، وصاحبه فى قاهرة الثورة ، وعاش بعده سنوات قصارا ، ولكن لشـــد ما اختلف اتجاههما ، هذا الرجل هو « محمد عبده » ٠

وما نريد هنا أن نعرض للاستاذ الامام ، ولكننا نريد أن نزيد الأمر جلاء بأن نعرض رجلا فى مواجهة رجل ، أما الأستاذ الامام فيقول بعد فشل الثورة العرابية « لعن الله السياسة ، وكل ما يصدر عنها ٠٠ لعن الله الفعل ساس ٠٠ يسوس ٠٠ » وأما النديم فيظل يتنفس سياسة حتى ذهب مرض السل بأنفاسه ٠

انهما مزاجان ، أو طبيعتان ، ولا نقول انهما ينتميــان الى طبقتين مختلفتين الا بمقدار ، فلم يكن الفرق بين طبقة أصـــحاب الحرف ، وطبقة صغار أعيان الفلاحين كبيرا الى الحد الذى يجعل لكل منهما مهادا فكريا مختلفا ٠ كان مزاج النديم مـــزاج الفنان الشعبى ، الممثل ، المهرج ، الصحفى ٠ رجل الدعاية ٠ وأما مزاج الشيخ فقد كان مزاج المعلم المتفلسف المتأمل فى الأمـور ، الذى يتوقف ليسأل دائما عن الغاية والهدف ، قبل أن يخطو خطوة فى الطريق ٠٠ الرجلان هما مثالا الثورى والمعلم فى تلك الحقبة من الزمان ٠

مســـيرة حيـــاة

كان أبوه خبازا فى الاسكندرية ، أراد لابنه أن يكون صــبيا خبازا ، فلما أنس منه ذكاء قسر نفسه على أن يرسله الى معهد دينى بالاسكندرية ليعده للازهر ، ولكن ما شأن هذا الصبى القلق والجلوس على الحصير ساعات طوالا ، يسمع دروس النحو والفقه التى تبدأ باعراب كل شىء حتى مسائل الحساب ، انه ليجد كل ذلك ممـــلا مسئما ، فيهرب من المسجد الى الطريق ، تلتقط عيناه وأذناه ملامح الناس ولهجاتهم وطريقتهم فى الحديث ويفكر فى شواغلهم وهمومهم ويتردد فى الوقت ذاته على مجالس الاسكندرية الأدبية ، فيسمع ويحفظ فنونا من الشعر والزجل والخطب ممــــا يتناقله الأدبــاء والمتأدبون • ولم تكن المجالس الأدبية لذلك العهد صالونات مؤثثة فخمة تتصدرها جميلات النساء كما عرفت ذلك فرنسا منذ القـــرن الثامن عشر ، ولكنها دكاكين أصحاب الحرف كالحلاقين والعطارين وغيرهم ، فكثيرا مايكون صاحب الدكان مولعا بالأدب والظرف ، فهو يمد المقاعد للأدباء والمتظرفين يسامرهم ويسامرونه ، وسوف نجد النديم فى أيامه القادمة يفتتح فى المنصـــــورة محلا لبيــــع « الخردوات » ، فيحيله الى صالون أدبى ، ولا يجتمع القلبان فى

جوف واحد ، فيفلس المحل وتطير مناديل بائع الخردوات الأديب وعطوره فى الهواء ..

ولكن التسكع لا يقيم أود النديم .. فهو يبحث عن مهنة ، فيتعلق بأحداث المهن فى ذلك الزمان ، وهى مهنة .. التلغرافجى . ويتعلمها . ثم يستخدم فى بنها ، ويواتيه ما ظنه الحظ . فينتقل الى القاهرة ليعمل تلغرافجيا بقصر « والدة باشا » بجاردن سيتى ، فهو يرى فى هذا القصر فنونا من النعيم والترف والحظ والطرب ، ويصرف له الطعام من مطبخ القصر ويتلقى بعض البرقيات ويرسل بعضها الآخر ، وهو أيضا فى حمى اسماعيل اذ أنه موظف فى قصر والدته ، فاذا انتهى العمل خرج يتسكع فى القاهرة ، وتقوده قدماه الى صالوناتها الأدبية ، ويستقبله صالون أحمد أفنـــدى وهبـى الطرابيشى فى الغورية .. وعلى دقات قوالب الطرابيش ومكواتها، يدور حديث الشعر والزجل ، ويقوده أحمد أفندى وهبى ذات مساء الى منزل شاعر مصر الكبير «محمود سامى البارودى» وهناك يرى صفوة أدباء ذلك الزمان ، فيرتوى من أدبهم ومحفوظهم ، ويجاريهم عندما تسنح له الفرصة .

وأخطأ النديم يوما فى فك رموز برقية ، فأحيل أمره الى خليل أغا كبير أغوات القصر ، وكان رجلا غريبا كأمراء المماليك القدامى يعمل عمل أهل النار بالدس والقسوة ، ثم يريد أن يدخل الجنة ببناء المدارس والسبل لسقى الماء ، وأمر خليل أغا بأن يضرب النديـــم ويجلد .. ثم يفصل .

لا القاهرة اذن .. مأوى للنديم ولا الاسكندرية ، فليتسكع فى الريف والمدن الصغيرة اذا ضاقت به الحواضـــر ، وليعمل معلما لأولاد أحد العمد فى الدقهلية . وبائع مناديل وعطور فى المنصورة ، وليتردد على الموالد ، وليكن ضيفا على رجال الأدب ومحبيه فى كل

ملكان · حتى يستقر به الرحيل فى جوار « شاهين باشا كنج » مفتش عام الوجه البحرى فى طنطا ·

كان « النديم » قد ذهب الى طنطا ليتسكع فى مولد السيد البدوى ·· وعلى أحد المقاهى التقى بصديقه منذ أيام مجلس البارودى ·· السيد على أبو النصر ·· الشاعر ونديم اسماعيل المفضل · ومر عليهما أدباتى بطرطور يشحذ منهما مليما أو مليمين ويتوسل الى ذلك بأزجال من تأليفه ، وما زال النديم يرتجل ، والأدباتى يرتجل حتى أفحم الأدباتى وفر هاربا ·

وحكى على أبو النصر القصة للباشا التركى فضحك كثيرا ، حتى استلقى على قفاه كما يقولون ، وبالطريقة العثمانية أمر بأن تنظم مباراة زجلية بين النديم وكبار الادباتية الذين كانوا يلتقطون فتات رزقهم فى أيام المولد ، فان غلبوا النديم كافاهم ، وان غلبهم النديم ضربهم جند الباشا على أعجازهم ·

ورضى النديم ·· ان الصعلوك ما زال صعلوكا ·· لم يتحول الى ثورى بعد ·

بداية الثورى ··

انتصر النديم فى المباراة ، وأصبح نديم الباشا بعد أن كان نديم الأفندية والعمد ·

ولكن الأيام الغريبة التى انضجت كل شىء فى مصر انضجته ، فقد كانت سنوات اسماعيل الأخيرة حافلة بالاحداث ، كان عرش اسماعيل يهتز من تحته ، والاصبع الاجنبية تمتد الى أحشاء مصر ، فتقرر الاشراف على ايراداتها ومصروفاتها ، والنقاش يدور بين المتعلمين والمهتمين بشؤون البلد حول الدستور والحكم النيابى ، والفلاح يعانى من ضغط الضرائب والسخرة ، والأعيان

يصرخون من الغاء قانون المقابلة ، والضباط يحتجون على الاستيداع فيضربون نوبار ويوشكون أن يضربوا اسماعيل ٠٠ انها اذن أيام حاسمة ، وقد التقطت اذن الصعلوك العظيم كثيرا من أنبائها ، كما التقطت عيناه كثيرا من الآراء التى بسطتها الصحف حين أتاح لها اسماعيل قدرا من الحرية ليستعين بها فى صراعه مع الأجانب ٠

ويدرك النديم أن عقله وضميره يأبيـــان عليه أن يظل قانعا بمكانه فى جوار الباشا ، فيهجر طنطا الى الاسكندرية ، لينضم الى جماعة سرية تسمى نفسها « مصر الفتاة » فيقنع أعضاءهـــا بأن يحولوها الى جماعة علنية تسمى نفســـها « الجمعيـــة الخيرية الاسلامية » ويكون هدفها انشاء المدارس وتعليم الشعب ٠

يتحول الأدباتى الى رجل تربية ، فيعلم تلاميذه فى المدرسة الأدب والشعر والخطابة ، ويحاول تنمية ملكاتهم ، ويســـتعين بمقدرته على التقاط اللهجات ، فينشىء فى المدرسة فرقة تمثيلية يؤلف ويخرج لها ٠٠ ان التعليم عنده ليس تلقينا لمبادىء العلوم واللغة فحسب ، ولكنه تربية وطنية بأجلى معانى تلك الكلمة ٠

ويختلف النديم مع زملائه فى المدرسة لأمر لا نســـتطيع أن نقطع فيه برأى ، فيتجه الى الصحافة ، ويخرج فى الســـادس من يونيو عام ١٨٨١ فى الاسكندرية صحيفته الشـــهيرة « التنكيت والتبكيت » ٠ يكتب بعضها بالفصحى وبعضها بالعامية حســـب الموضوع ، ان كان موجها الى الصفوة من الناس أو الى رجـــل الشارع ٠٠ وهو يعلن مذهبه فى لغة الصحافة حين يقول :

« انه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات أو استعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغـــة عبارة ، ولا معربة عن غزاة علم وتوقد ذكـــاء ، ولكن أحاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بهـــا ، لا تلجـــىء الى قـــاموس

الفيروزابادى ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيـــا ، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها ، انما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى ··

وتدلهم الأمور ، وتستعر الثورة ، وينتقل النديم بصـحيفته من الاسكندرية الى القاهرة ، ويسميها « الطائف » استجابة لرغبة عرابى ، وتيمنا باسم المدينة الحجازية المعروفة · ويعلن الدستور فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ تحت ضغط العرابيين ، فتقـــام المآدب والحفلات ويخطب فيها النديم ·· انه يخطب فى كل مكان ·· فى المآدب والأفراح والمعسكرات والمساجد ·· « حتى كان اذا سـئل محمد عثمان المغنى المشهور فى ذلك الزمان ، أن تغنى الليلة ؟ يقول فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم ·· » ·

وتسرى الشائعات بمجىء البوارج الانجليزية الى الاسكندرية ويخطب النديم ويقول :

« ان طوابى الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماهـــا جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الاستانة اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما جالت الأساطيل الانجليزية فهى تحت رحمة مدافعنا » ·

ويصفق المستمعون حتى تدمى أكفهم ، وربما ضحك بعض العقلاء فى أكمامهم ، فمـــا زال فى الصـــعلوك القديم بقية من الأدباتى ·

بعد الثورة

وتفشل الثورة فشلها الأليم ، ويختفى عبد الله النديم فى ريف مصر تسع سنوات ، مطاردا من السلطة المصرية التى تولت الحكم بعد فشل الثورة ، محكوما عليه بالنفى المؤبد ، مطلوبا رأسه بألف جنيه مكافأة تدفعها الحكومة لمن يرشد عن مكانه ·

غير النديم أسماءه وأزياءه فى هذه السنوات مرات تجل عن الحصر ، فهو مرة شيخ يمنى ، ومرة سائح من المدينة المكرمة ، ومرة حاج مغربى ، ولحيته مرة حمراء قصيرة ومرة سوداء مسبلة ، حتى دل عليه جاسوس من جواسيس السلطة فأرشد عنه · فسيق الى سجن طنطا ليحقق معه وكيل نيابة من ألمع وأعظم الشخصيات التى عرفتها مصر ، هو قاسم أمين ·

لم يلح عليه قاسم أمين فى التحقيق كثيرا وأمر له بالقهوة والدخان على حسابه ، كما أمر بتنظيف الزنزانة قدر الامكان ، وما كاد التحقيق ينتهى حتى كان أمر الخديو توفيق قد صدر بنفيه الى يافا بفلسطين ، ليعود بعد شهور قلائل وقد عفا عنه عباس خليفة توفيق ، وليصدر صحيفة « الأستاذ » ·

عاد النديم ثوريا كما كان رغم ان كل شيء فى مصر كان يميل الى المهادنة والاستسلام ، كان الناس يطردون أشباح أيام الثورة عن أذهانهم كما تطرد الذكريات الكئيبة ، ويسعى ذوو البقية من النزعة الوطنية الى مهادنة عباس وشد أزره لكونه الممثل الشرعى للبلاد ، أما العقلاء فقد كانوا يلوذون بكرومر حاكم البلاد الفعلى ، يخطبون وده ، ويرفعون اليه آراءهم وأفكارهم ٠

ولنقارن هنا للمرة الثانية بين الرجلين : عبد الله النديم ، ومحمد عبده ٠٠ أما النديم فقد عاد كما عهدناه ، وأما محمد عبده فقد عاد من منفاه بوساطة كرومر حين حدثته الأميرة نازلى فاضل عن كفاءته واستقامة فكره ، وكان سعد زغلول جليس صالونها قد حدثها حلو الحديث عن صديقه الغائب ٠

ويعود محمد عبده ، فيبدأ جهوده الاصلاحية بكتابة تقرير عن اصلاح التعليم ، ويرفعه الى كرومر بوصفه صاحب السلطة الحقيقية فى مصر ، بينما يعود النديم ليخاطب الشعب عن طريق صحيفته « الأستاذ » ٠

كانت « الأستاذ » حربا على التدخل الأوروبى كما كانت « الطائف » ٠ ودعوة الى الوحدة الشرقية والاسلامية فى وجه الاستعمار ، واستنهاضا لهذا الشعب الذى ذهبت الهزيمة بلبه أن يتماسك ويدرك مقومات وجوده ويحافظ عليها ، يحافظ على دينه وثقافته ولغته ، وتوقفت « الأستاذ » بعد أقل من عام من عمرها ٠ ونفى النديم مرة ثانية ، ولم يكد يحط رحاله فى مصر ٠٠

وفى الاستانة عاش النديم ثلاث سنوات وبضعة أشهر ، حتى مات فى العاشر من اكتوبر عام ١٨٩٦ ٠

وفى هذه السنوات كان جمال الدين الأفغانى يعيش هو الآخر فى الاستانة ، فى القفص الذهبى الذى أعده له عبد الحميد ، وكثيرا ما كان الثوريان يتلاقيان ، ويخرجان للنزهة فى أرباض الاستانة ، يتذكران أفعال الزمان ، وقدامى الأصـــدقاء ، ويدركان – والمرارة ملء حلوقهما – ان الطريق طويل ، وان ما أراداه من خير قد آل الى ضده ونقيضه ٠

كان الأفغانى يتذاكر أن البارودى ، وهو عنده أفضل من عرف من المسلمين ، عاهده مرة ألا يدخل وزارة رياض ، ثم دخلها ٠

وكان يقول :

« ان مصر أحب بلاد الله الى ، وقد تركت لها فى الشيخ محمد عبده طودا من العلم الراسخ ، وعرمرما من الحكمة والشمم وعلو الهمم ، وانى ليذهب بى العجب ، ويأخذ منى كل مأخذ عندما أرى المصريين فى جمود ، وأولى الهمة منهم فى قعود ، وكيف لم يتسن الى الشيخ فى همته ونهضته ، وله من تلاميذه مثل سعد زغلول واخوانه خير أعوان ، ان تتألف منهم الى اليوم عصبة حق تصدم باطل الانجليز ، وتجليهم عن الهرمين وتصون الحرسين ، فلم يبق فى قوس الصبر منزع ولا فى معونة الغير مطمع » ٠

ولكن مصر كانت قد سارت فى اتجاه آخر ٠٠ انها تتحدث عن التعليم وتحرير المرأة واصلاح الأزهر وتجميع رأس المال الوطنى ٠٠ انها تخوض المعارك الجزئية ، فان درس فشل الثورة الشاملة لم ينس بعد ٠

الرجــل ٠٠

بعد موت النديم بعام تقريبا مات جمال الدين ، وانطوت أعلام التيار الثورى ، كما انطوت الصفحة الناضرة الأخيرة من ذكريات الانتفاضة العرابية ٠

والمؤرخون يقولون ان النديم كان لسان الثورة العرابيـة ٠ ولكنه فى الواقع لم يكن لسانها فحسب بل كان أحد اقطابها ، بـل لعله أكثر اقطابها فاعلية ، وبخاصة بعد أن خرجت عن دائرة الجيش لتصبح ثورة شعبية يشارك فيها الجيش والأعيان وسواد الشعب معا ، فضلا عن كونه الممثل للجانب النظرى من حركتها ، فرغم أن من بين زعمائها رجلا كالبارودى ، له مكانه العظيم فى تطوير الشعر العربى ٠٠ الا أن رؤيته السياسية لم تكن واضحة له او لرفقائه ، حتى أنهم شكوا كثيرا فى أنه انضم للثورة ، حتى يصل الى حكـم مصر بوصفه من سلالة السلطان المملوكى « الأشرف برسباى » كما قال له عرابى فى احدى جلساتهما ٠

أما النديم ، لقد كان واضح الفكر ، وكان فكـــره هو محرك الثورة فى أيامها الأخيرة ، ولكن هذا الحديث يستدعى وقفة متأملة عند فكر النديم ٠

* * *

أصبحت البدعة التى احدثها محمد على فى الحياة المصرية ، هى الشاغل المزعج لدولة أحفاده من بعد ٠ ففى عام ١٨٢٨ حول محمد على جورنال الخديو أو النشرة الدورية التى كان يصدرها بأوامره الى ولاته وكبار موظفيه الى صحيفة سماها « الوقائـــع المصرية » ، وأمر بتوزيعها على من يتقاضون الف قرش شهريا من الموظفين ، على أن يدفعوا الاشتراك السنوى فيها ٠

ومرت الأعوام ، وأهل عصر اسماعيل باضطرابه واحتدامه ، وكان اسماعيل يبغى أن يوطد مكانته بين ملوك العالم بتحسين واجهة الحياة المصرية واسباغ الوان الزينة والزخرفة عليهـا فوجد فى الصحافة مثلما وجد فى الأوبرا والمسرح لونا من الديكور الذى يقنع أصدقاءه فى أوروبا بعصريته واصلاحه • فى ظل هذه السماحة المداجية صدرت بعض الصحف « الأهلية » كالاهرام ووادى النيل وروضة الأخبار وغيرها •

وحين أصدر النديم صحيفته « التنكيت والتبكيت » كان فى مصر التى لا يزيد عدد سكانها عن خمسة ملايين نسمة حوالى عشر جرائد يومية ، يتفرق ولاؤها بين مختلف الأطراف المتنازعة على هذه الأرض التى تواجه مصيرها • ورغم أن توزيع هذه الصحف كلها كان يتجاوز خمسة عشر الف نســـخة ، الا أن هذه الصحف كان اثرها اكبر من عدد نسخها الموزعة اذا قيس الانتشار بمدى وصول الكلمة الى الناس ، ويحدثنا ميخائيل شاروبيم أحد مؤرخى ذلك الزمان فى كتابه « الكافى فى تاريخ مصـــر » عن هذه الفترة قائلا :

« وتشوف الأهالى الى معرفة ما سيكون وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار واكثروا من شرائها ، واضطـــر من لا يعرف القراءة الى مصاحبة من يعرف القليل منهـــا فكنت تراهـــم فى الشوارع جماعات وبينهم الرجل أو الصبى يقرأ عليهم • أو يقف صبى فى حانوت وبيده صحيفة وأمام الحانوت خلـــق محدقون بالصبى وهو يقرأ » •

كانت الصحف تقوم اذن بدور الخطيب المتنقل الذى يخاطب الناس محاولا أن يثيرهم ، فهو لذلك يصـــطنع الوانا مختلفة من التعبير ، منها البلاغة والاسجاع والفكاهات والقصـــة الوعظية والمعلومات المصوغة فى شكل جذاب • ولعل هذا المعنى هو ما فهمه

النديم ، اذا كانت صحيفته التنكيت والتبكيت صالحة للقراءة فى جمع أكثر من صلاحيتها ليقرأها الانسان منفردا ، وكانت أيضا مثيرة للنقاش بعد قراءتها ، كأنها تدعو الناس أن يقرأوها ثم يتحلقوا حلقات لكى يتأملوا ما فيها ويعيدوا بحثه والنظر فيه ٠

ففى احدى صفحات العدد الأولى مقال قصصى أو ما نسميه قصة العدد ، وعنوانه « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » ٠٠ ومرض الأفرنجى هو مرض الزهرى كما كانوا يسمونه فى ذلك الزمان ، والقصة قصة شاب جميل المحيا والخلق ، نشأ فى ظلال الفضيلة والورع حتى ترصد له أحد الماكرين ، فأخذ يعرض عليه الغوانى حتى مال الى واحدة منهن ، فأصابته مع اللذة التى اجتناها بمرض الأفرنجى ، فأخذ أهله يطببونه بعد أن ساءت حالـه ٠ وتدهورت صحته والأطبـاء المخلصون يتأملـون فى دائه ، ويصفون له الدواء ٠٠

وأظننا نستطيع أن نعرف أن هذا المريض هو مصر ، وان هذا الداء الافرنجى هو السيطرة الأوروبية ، وان هؤلاء الأطباء هـم أبناء مصر المخلصون ٠

ومقال آخر ، أو نكتة ان صح التعبير عنوانها « عربى تفرنج »، وهى عن شاب اسمه « زعيط » من أبناء الفلاحين ، ذهب الى أوروبا ليتعلم فلما عاد استقبله أبوه « معيط » على المحطة وقبله ، فلامه على تقبيله ، وطالبه بأن يكتفى بالسلام عليه باليد كما يفعل الفرنجة ، ويقول له « بون أريفيه » ثم يذهب الشاب الى أمه « معيطة » فيطلب منها « الأونيون » أو البصل ٠

ومقال ثالث عنوانه « سهرة الانطـاع » يقص قصة بعض الشباب الموسرين يجتمعون فى بيت أحدهم ويجلسون وهم ساهمون هادئون ، فيظنهم النديـم قد اجتمعوا للتدبر فى شأن الكون ، أو

التفكير فى أمر الوطن ، أو التأمل فى بدائع صناعة أوروبا وكيف ينقلونها الى مصر ، ولكنه يعرف انهم قد اجتمعوا من أجل تعاطى « الكيف » ، وهم يقولون : مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا وللصحف وللتلغرافات « برقيات وكالات الأنباء » ‥ نحن والحمد لله فى غنى عظيم ، وقد خلف لنا آباؤنا من المال مالا تفنيه الأيام ٠

وقصة أخرى فى العدد نفسه عن انقسام مستمعى الشاعر الشعبى فى أحد المقاهى بين عنترية وزغبية ، وما كان من أحدهم ، وقد ختم الشاعر الشعبى انشاده فى احدى الليالى بوقوع عنترة فى الأسر ، فذهب هذا الرجل الى ابنه الذى يعرف القراءة ، وأيقظه من نومه ، وامره أن يقرأ فى الكتاب حتى يخلص عنتر من الأسر ، والا مات كمدا فلما لم يطعه الابن ، وحاول افهامه أن هذا كله تخريف ، انهال عليه بعصاه حتى رض عظامه ‥

وقصة تالية عن رجل غنى بنى بيتا كبيرا ، وأثثه بأبدع الأثاث ، وجعل بين أثاثه مكتبة ضخمة ، ثم دعا بزائريه ليروا بيته ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحويه ، فأجاب صاحب البيت : لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت فى مضيفة كل منهم خزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانبها منفضة من الريش والخادم ينفضها كل يوم ويمسح زجاجها ، فعلمت ان هذا طراز جديد فى بناء البيوت وتأثيثها ٠

وهكذا صدرت التنكيت والتبكيت ‥ صحيفة هازلة خفيفة الظل ، وان كانت لا تتناول من الأمور الا ما يؤلم ويحز فى النفس ، وذلك هو طابع المصرية المتغلغل فى ثناياها ، الطابع الذى أدركه النديم وهو يتصعلك فى بقاع الوطن ، ويتنقل بين مدنه وقراه ، لقد أدرك أن المصرى يحب النوادر ، ويهوى أن يتكلم بالأمثال ، وكثيرا ما يميل الى السخرية من نفسه ، ولقد ابتكر فى صحيفته شخصيات من الكاريكاتير المكتوب ، منها شخصية « معيط » الفلاح المصرى

السذج وشخصيات أخرى كاريكاتورية مثل « ست الدار » و « مسعودة » وغيرها . فأثرى بذلك أسلوبه وخياله القصصى الوثاب .

بلغ توزيع العدد الأول من التنكيت والتبكيت ثلاثة آلاف نسخة ، هى جملة ما طبعه منها ، وما لبثت أن اصطدمت مع صحف الاتجاه المضاد ، كصحيفة المحروسة وغيرها ، ثم كشفت عن وجهها الثورى ، لا الانتقادى فحسب ، بعد أن تسارعت الأحداث ، ووصل المد الثورى الى غايته ومداه .

أصبح النديم ثوريا قبل أن يلتقى بالعرابيين ، فقد عبر وهو فى الاسكندرية ، يصدر صحيفته « التنكيت والتبكيت » عن بوادر التمرد عند المدنيين بل لعله فى بعض الأحيان يجاوز العرابيين ويفوقهم وعيا فى ادراكه لابعاد المشكلة المصرية ، فنحن نراه يتحدث عن علاقة الغنى بالفقير والمالك بالفلاح بغض النظر عن كون هذا الغنى أو المالك تركيا أو مصريا فى الوقت الذى كان العرابيون فيه يتحالفون مع سادة الاقطاع المصرى الناشىء ، ورئيسهم البارز محمد سلطان .

يقول مخاطبا الأغنياء :

« تعال فانظر الى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك ، أخيك ـ استغفر الله ـ خادمك الفلاح . انظر الى ثوبه المهلهل ولبدته التى لا تستر يافوخه ، ورغيفه الذى لا تكسره قوتك ومشه الذى تعاف المنظر اليه ، وأرقبه وهو يسقى الزرع والطين الى فخذيه والشمس تشوى وجهه وجسمه ، يقطع يومه فى عذاب وعمل .. وهو صاحب الفضل عليك وانت لا تنظره الا بعين المقت ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب ..

وفى أحد أعداد سبتمبر عام ١٨٨١ من التنكيت والتبكيت

يتخيل النديم حوارا بينه وبين أحد تلاميذه حول الحكم النيابى ، والمناقشات دائرة حول الدستور الجديد ، وننقل هنا لمحات من هذا الحوار ٠

التلميذ : وهل يوجد فى وطننا من فيه أهلية لذلك « لتمثيل الأمة فى المجلس النيابى » غير الأغنياء ٠

النديم : لا يخفاك أن الوطن فيه الذكى والبليد والغنى والفقير، فان كان الانتخاب مقصورا على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن ٠

التلميذ : من أين يأتى الوبال ، وهم من أهل الوطن الحائزين للرتب العالية ، وهم أدرى بحال الوطن وصالح المواطنين ٠

النديم : لا يخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبداد والاستعباد ، فهو يميل الى أستخدام الفقراء بلا مقابل ، وضرب الضعفاء من غير ان يعارض أو يحاكم ، على أن أباه اذا كان من حكام البلاد فانه أدرك الثروة بنهب الفلاح وظلمه ، فوجود مثله فى مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب ، فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم ليضعفوا بذلك حدة أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لأنفسهم ٠

التلميذ : واذا كان من أولاد الأتراك الذين تولوا مناصب الرئاسات فى الدولة ٠

النديم : لا تحكم على الرؤساء الأتراك الا بعد معرفة أسباب ثروتهم ، فان كانت بجدهم واجتهادهم لكانوا أحرص الناس على حفظ الهيئة الاجتماعية ، وان كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانوا أشد ضررا لوطنهم الذى صيرهم فى هذه الثروة بعد ان كنوا لا يملكون قوت يومهم ، ومن هذا القسم من لم ير الريف ولا يعرفه فكيف يكون نائبا عنه ٠

وقد يكون منهم لكثير من أهل الخبرة والدراية ولكن حبهم لذاتهم يعطل كثيرا من النعمة ، فان وجدوا فى مجلس النواب ولم يكن معهم أحد من النبهاء الأذكياء من أهل البــلاد كان نواب هذا المجلس عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا ، فاذا تشـــكل هذا المجلس من هذين القسمين « الاقطاعيين المصريين والحكام الأتراك » جعلتكم الدول رواية تياترية يشخصونها فى المحافل ليضحكوا على أهلها ٠

كل هذا اذا كان المجلس مطلق الحرية فى أفكاره لا يعارضه أحد فى المصلحة ولا يلومه بشىء لم يقر عليه ، أما اذا كان مقيدا بما يصدر اليه من الوزراء ، فلا تسأل عن أعضائه وأهله فانهــم صورة وهمية لا حقيقة لها ولا أثر ٠

التلميذ : وهل يحتمل الشعب اطلاق حرية الأفكـــار قبل أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام تلك الحرية ٠

النديم : نعم ٠٠ يحملونها ويحفظونها ويسيرون بها ٠٠٠

هذه لمحات من هذا الحوار الذكى ، نستطيع أن نرى فيهـــا مهادها الفكرى أو نقطة انطلاقها ، فهى تنطلق أساسا من قانون لم تعرفه الانسانية الا حديثا فى مسيرة تفكيرها الاقتصــــادى ، هذا القانون هو أن الوضع الاقتصادى لبلد ما ٠٠ هو فى الحق تركيبه أو بناؤه الأساسى أو التحتى ، وليست القوانين والتشريعات والثقافة بعد ذلك الا تركيبات فوقية تخضع لهذا التركيب الأساسى ، فالنديم يحدثنا أن هؤلاء الأغنيـــاء والاقطاعيين سيضـــعون من القوانين ما يكرس وجودهم اذا انفردوا بسلطة التشريع والتدبير للأمة ٠ ولا نريد أن نقول ان النديم قد عرف هذا من خلال قراءته ، ولكنه عرفه بلا شك من خلال نظره فى أمور بلده ٠ ولعله عندئذ كان يرى ثورة الأعيان على قانون المقابلة الذى يتعرض لأموالهم وثرواتهم ٠

والنديم يحدثنا عن ضرورة الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولا يرى ضمانا لفاعلية المجلس الجديد الا ابعاد سيطرة الوزارة عليه ، فان سيطرت الوزارة عليه فتلك هى المهزلة المضحكة أو الرواية التياترية التى سيضحك لها ومنها كل من يريد أن يضحك فى هذا الكون ·

وهو أيضا يرى اننا يجب ألا نتذرع بالجهـــل السائد لكى نحرم مواطنينا من حق الانتخاب والنظر فى أمور بلادهم ، فمنهم الذكى والمستنير ، وكأنه يشير بذلك الى وجود « طليعة » أو «صفوة» من ابناء المصريين ، لم تجمع المال وتحز الثراء ، ولكنهـــا جمعت أطرافا من العلم والتجربة ، ومن حقها عندئـــذ أن تتصدى لتمثيل مواطنيها ·

وكأنه أيضا يقول لنا ان علاج أخطاء الديمقراطية هو دعـم الديمقراطية والمزيد منها ، وان التجربة تكشف دائما عن المواهب القادرة حين يقول فى ختام هذا الحوار :

اعلم ياولدى أن الشىء فى أوله لا يجىء على صورته الحسنة فى سائر الجهات ، بل لابد من النقض والابرام والخطأ والتصويب والتغيير والتبديل حتى تتقدم الأفكار وتتحسن الأحوال ·

هذا هو النديم ابان المعركة الدستورية التى سبقت الثورة ، أما فى الثورة وما بعدها فقد لكان لفكره شأن ·· أى شأن ·

* * *

واشتعلت نار الثورة ، سرت فى أول الأمر متباطئة هادئة ، ثم ما لبثت أن ملأت الجو لهبا ودخانا ، وعرف النديم مكانه فيها ، فهو اللاعب الماهر بأعصاب الجماهير وخيالها ، لقد نقل النديم الخطابة من ساحة المسجد كما عرفتها مصر فى عصور المماليك

والعثمانيين الى ساحة الحياة ، وبث ذلك تقليد الزعيم الخطيب الذى ستجده عند مصطفى كامل وسعد زغلول ، والذى سيتسع مداه حتى نجيده لدى رجال الأحزاب السياسية وزعماء الطلبة فى عهد طلب الاستقلال . وكأنه كان حين بعث هذا التقليد يستهوى بسير زعماء الثورة الفرنسية بفصاحتهم المتدفقة ، وولعهم بطرائف الكلام ، أو بسير خطباء العرب المبرزين فى عهد النهضة الاسلامية .

وقد تكون الخطابة بطبيعتها غير صالحة لبث الأفكار المدروسة والحجج المرتبة ، فالخطابة اثارة وتهيج قبل أى شىء ، والخطيب يخاطب الوجدان الجماعى لمستمعيه ، وما ذلك شأن الصحفى أو الكاتب ، فالصحفى يصل الى قارئه حين ينفرد القارىء بنفسه ، وهو لذلك مطالب بأن يحكم العقل والمنطق فيما يقول . وكذلك كانت صحيفة « الطائف » حين أصدرها النديم ابان الثورة العرابية ، فهو يعلمنا فى عددها الأول أن زمن « التنكيت » و « التبكيت » قد انقضى وأن على الأمة أن تواجه مشكلاتها بوافر من الفكر والرأى ، وترى النديم فى أعداد « الطائف » يثير عديدا من المشكلات الاجتماعية ، كمشكلة تأخر الصناعة فى مصر ، وانعدام الشركات المصرية ، واتجاه رأس المال المصرى الى الزراعة واقتناء الاطيان ، وبقايا الرقيق فى مصر وحقهم فى التحرر ، وسيطرة الموظفين على الادارة المصرية . كل تلك وجوه متعددة من المشكلة الكبرى ، وهى المشكلة الوطنية ، التى لخصتها الثورة العرابية فى شعارها « مصر للمصريين » . وفى طلبها للدستور وحق الشعب فى تقرير أموره ، ورفع الوصاية الاجنبية عن أمواله ومقدراته .

وانقضت ملحمة الثورة انقضاءها المؤسف ، وكانت أيامها سجلا ضخما فيه صفحات من الشجاعة الرائعة والخيانة الهابطة وسوء التدبير المرير ، وقرر عرابى الاستسلام ، فلجأ الى المجلس العرفى الذى كان قد أنشىء بالقاهرة من وكلاء الوزارات لحكم البلاد

فى أثناء غيبته وغيبة الخديو ، فنصحه المجلس بكتابة عريضــة اعتذار توجه الى الخديو فى الاسكندرية ، وأوكـــل الى عبد الله النديم أمر صياغة العريضة فكتبها متجنبا الاعتراف فيها بجريمة عرابى في حق الوطن كما أراد المجلس ، بل لقد ألقى اللوم كله على المحتل الانجليزى الدخيل ، قائـــلا لأعضـــاء المجلس « لقد فعلنا ما وجب » ٠

ولم يوافق المجلس على الصيغة التى كتبها النديم ، وأملـى بطرس غالى وكيل وزارة الحقانيـــة ، ورئيس الوزراء فيما بعد عريضة أخرى ، يعترف فيها عرابى بالعصيان ، ويستدر فيها عطف الخديو ورحمته ويلتمس العفو عنه وعن زملائه ٠

ومما يذكر أن النديم حين كان فى مخبئه ، كانت تصله أنباء الخلاف بين زعماء الثورة ، وهم يتبادلون اللوم والتقريع فىمنفاهم الأليم ، ويلقى كل منهم بالوزر على كاهل صاحبه ، حتى لقد بلغ بهم الأمر الى حد التخاصم والمنابذة ، وكان النديم يسمع أنبــاء ذلك ، فيدمى فؤاده ، وتنفطر نفسه حزنا على هؤلاء الصحبة من الرجال ، الذين فتح لهم التاريخ بابه كأبطال مأســاويين ، كانت هزيمتهم لأنهم واجهوا قوى أكبر من طاقتهم ، ولكنهم يوشكون أن يوصدوا باب التاريخ أمام أسمائهم الرنانة بهذا اللغو الأجــوف الأليم ٠

كان النديم يكتب رسائله لعرابى فى منفاه ويرسلها من مخبئه تحت أسماء مستعارة ، يوصيه فيها بأن يســـتعد للجولة الثانية ، حتى كأنه كان يتمنى أن يعود عرابى ليستأنف ما بدأ ، وقد خلع عن نفسه رداء الهزيمة ، انه يقول له :

« فأمامك مستقبل انت عصامه يجمع فريقا أنت أمامه ، وقد تطاولت الأعناق بعظيم الاشتياق الى ذلك الميقـــات ، وكل ما هو آت آت » ٠

ويكتب له باعثا الشجاعة فى نفسه ، مطمئنا اياه على الروح الوطنية فى الشعب :

« ان حال الأحرار بعد النفى والاضرار ، قد فتح الله أبصارهم فتبصروا ، وصفى بصائرهم فتنوروا وساقاهم شراب المحبة فائتلفوا ، وهداهم الصراط المستقيم فما اختلفوا ، واذا قيل للواحد منهم : هذا عرابى المشرب ، فرح لكأنه قد فتح له مطلب ، واذا أتى منك كتاب الى بعض الأحباب ، دار به على الاخوان وهو فرحان ، فأنت فى مصر وان كان جسمك فى سيلان » ٠

أما عن الخلاف بين الزعماء فهو يكتب اليهـــم فى منفاهم خطابا نراه آية فى فهم السياسة وادراك مراميها ، كما هو دليـل على تقديره لروح التاريخ ومنهجه حين يسجل الحقائق ويقيم أقدار الرجال ٠

انه يبدأ خطابه بالآية القرآنية « الم ، احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون » ٠٠ فهذا الخلاف بينهم اذن ، لون من الامتحان لشجاعتهم وبطولتهم ، وهو فى فاتحة خطابه يستثير حميتهم جميعا بتعداد مآثرهم ومكانتهم ، فمحمود سامى البارودى ، هو محمود العواقب سامى المراتب ، وعلى فهمى هو عالى الشأن مهيب الجناب ، ومحمود فهمى هو محمود السيرة بالهمة الكبيرة ٠ ويعقوب سامى هو يعقوب الأمل رجل العمل ، وعبد العال حلمى هو عبد العال واحد الرجال ٠٠٠ وهكذا ، حتى يقول « فاذا لم تكن عهودكم وثيقة ، ورابطة جمعكم أنيقة ، وعدتـــم الى الديار على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون ، ومالت عنكم القلوب والعيون ٠ وصرتم عرضة للدسائس ، ومرجعا لأهل الخســائس ، وذكركـــم المؤرخون بالنقائص ، وجردوكم من الفضل والخصائص ، وانكرت أوروبا دعوتكم الوطنية وتبجج عدوكم بنسبة الهمجية ، وأعيذكم بكل آية من وصولكم لهذه الغاية ، فائتلفوا قبل الايـــاب واقتلوا الضغائن بالعتاب » ٠

الأستاذ

وانقضت أيام الهرب والتخفى والمنفى ، وكانت مهمة النديم بعد عودته فى عام ١٨٩٢ أشق وأصعب ، لقد كانت روح الاستسلام تخيم على الأمة ، وكان « كرومر » يبسط ظله على كل مظاهر الحياة المصرية ، ولقد بدأ النديم عندئذ فى اصدار جريدته « الأستاذ » محددا هدفه بشكل واضح ، وهو « اصلاح ما فسد من أخلاقنا » ٠ والأمم عادة حين تتردى فى هاوية اليأس تنزع أخلاقها وتماسكها الى الانحلال ، ولقد عرفت مصر فى هذه الفترة اقبالا واضحا على متع الحياة الصغيرة ، ونزعة مسرفة الى اللامبالاة والفردية ، وها نرى النديم يحاول أن يبث فى هذا الجسد الخامد نوعا من التماسك، فيحدث الناس عن التعليم ونشره ، وعن الصناعة والاستعداد لها ، وعن النساء وتحريرهن من الجهل ، ولكنه يعنى قبل أى شىء باحياء ما نسميه بالتراث القومى للأمة ، المتمثل فى لغتها ودينها ، فيدافع عن اللغة العربية فى وجه تيار نشر الانجليزية فى الحياة والمدارس، ويشيد بالدين الاسلامى كأساس من أسس الكيان الوطنى المصرى ٠

كانت اللهجة هادئة ، اذا هاجم النديم الاستعمار هاجمه دون تحديد واذا تحدث عن الاحتلال تحدث عن احتلال الغرب للشرق دون تفصيل ، وظلت اللهجة هادئة ، حتى اصطدم النديم بصحف الاحتلال ، وعلى رأسها صحيفة المقطم ، فثار ثائرة وبدأ يقذف الحمم والصواعق ٠

* * *

الأقـــذار ٠٠

وتاريخ هذه الصحف الاحتلالية هو بلا شك صفحة سوداء فى تاريخ سوء الفكر والمقصد ، فقد حاول الانجليز استغلال ظاهرة اقبال المصريين على الصحف ، فأنشأوا مجموعة من الصحف التى توالى مقاصدهم ، وكان من أبرزها صحيفة المقطم التى صدرت فى عام ١٨٨٩ بعد الاحتلال بسبع سنوات ، ثم ظلت تعيش حتى اختنقت مع اختناق النفوذ الانجليزى فى مصر ٠

أصدر المقطم ثلاثة من الوافدين الى مصر هم فـــارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، وهيأت لهم السلطة الانجليزية سابغ معونتها ، فأعدت للصحيفة مطبعة خاصة كانت تطبع المقطم ، ثم تقوم بطيه فى طيات صغيرة يسهل حملها ، وبخاصة في جيوب العمد ومشايخ البلاد ، كما طبعت منشـــورات الحكومة في هذه المطبعة بعشرة أمثال تكاليفها ٠

ولقد بلغ من تضليل المقطم أن توهم بعض العمد والأعيان أن الاشتراك فيها مجلبة لرضاء السلطة البريطانية ، وقد حدث ذات مرة أن صرح أحد المسئولين الانجليز كاذبا أن موعد الجلاء قريب ، فهبط توزيع المقطم مائة وعشرين اشتراكا ، ولم تكن المقطم وحدها فى هذا المجال ، بل ظاهرتها صحف أخرى من الوافدين ، اذ أصدر أرمنى يدعى « الكسان صرافيان » جريدة سماها الزمان ، واصدر « الياس زاخورة » صحيفة سماها مرآة الشرق ، كما أصدر آخـر يدعى روفائيل مشاقة صحيفة دعاها « الاتحاد المصرى » ٠

تكتب المقطم فى ابريل عام ١٨٩٠ ، مهاجمة المصريين ، قائلة :

« ثم ما هو هذا الاستقلال الذى يبكونـه ، والحريـــة التى يندبونها ، ففى زمان أى الآباء والاجداد تمتعوا باستقلال وحرية حرموها الآن ، ومتى كان زمام البلاد فى قبضة يدهم وسلب منهم ، وما ضرهم اذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لا سبع عشرة دولة أجنبية ، وأى خسارة خسروها بتقليد رجـــال من الانجليز وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الأجانب » ..

وتمضى المقطم فى حملتها الضارية ، فتكتب أن على المصريين أن يكفوا عن طلب الاستقلال ، فتأنس السلطة البريطـــانية الى هدوئهم وطاعتهم فتعطيهم عندئذ بعض مطالبهم .

كانت هذه هى الحال عندما عاد النديم الى الصحافة ، اذ كانت صحف الوافدين قد استشرى ضررها ، وتنوعت وسائل تاثيرها على الرأى العام بين صحف سياسية ومجلات تدعى أنها مجلات ادبية أو علمية ، وتدس سمومها فى الكيان المصرى القلق المنهك .

يحدثنا سلامة موسى فى كتابة « الصحافة حرفة ورسالة » عن هذه الفترة ، وقد أدرك أواخرها ، فيقول :

« وكان عارا علينا أن يوكل تكوين الرأى العام المصرى الى أقلام غير مصرية ، غريبة عنا فى المزاج ، لا يشغل قلوب أصحابها ما يشغل قلوبنا من أمانى وآمال ، وكان علينا جميعا أن نقرأ كل يوم ما يكتبه لنا الصحفيون غير المصريين فيما يجب وما لا يجب أن نتبعه فى سياسة بلادنا من الخطط ، وكانت الصحف والمجلات غير المصرية تنساب بين العامة كانها الحيات السامة ، وبها هذر وهذيان وسخف لتسميم العامة وافساد عقولها » .

* * *

الاستقلال ·· الاستقلال

وضد هذه الصحف كانت معركة النديم الأخيرة فى مصر ، وحين اشتدت النبرة تفتح النديم عن ثوريته مرة ثانية ، فأخذت كلمة « الاستقلال » ترد على قلمه كعاصم لمصر من هذا التخريب المتعمد ·

« أى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم ·· أصرنا أقل درجة من فعلة الانجليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم ·

فيا بنى مصر ·· لم تبق قطعة من الأرض الا والجرائد تنقل اليكم أخبارها ، وتروى لكم أعمالها فى طلب استقلالها ·· ليعد المسلم منكم الى أخيه المسلم تاليفا للعصبية الدينية ، وليرجع الاثنان الى القبطى والاسرائيلى « اليهودى » تاييدا للجامعة وليكن المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شىء واحد ·· هو حفظ مصر للمصريين » ·

ويسمى النديم صحف الاحتلال جرائد الاجراء ، ويدعو ما ينشرونه بالقاذورات ، ويسترسل فى الغيرة الوطنية ، حتى يعود الى ذكر كل الأمجاد السالفة ، وتتطلع الأمة الى عهد جديد ، ولكن «الاستاذ» لاتعيش طويلا اذ تضطر للاحتجاب بعد بضعة شهور ، ثم لا يلبث صاحبها أن ينفى من جديد ·

ولقد كان هذا الدور الجديد للنديم من أعظم ادواره وأجلها رغم انه لم يستمر زمنا طويلا ، ولكن لا شك أن « الاستاذ » وبعض الصحف الوطنية الأخرى قد استطاعت أن تقف وقفة صلبة فى وجه هذا الطوفان العارم ، وسنجد احصاء؛ بتوزيع الصحف فى عام ١٨٩٣ يحدثنا عن شيوع « الأستاذ » ومكانتها فى ذلك الزمان ·

المؤيد ١٢٠٠ نسخة ـ وطنية

الهلال ٧٤٠ نسخة ـ احتلالية

المحروسة ٨٠٠ نسخة ـ احتلالية

المقطم ١٤٥٥ نسخة ـ احتلالية

الاستاذ ٢٢٨٨ نسخة ـ وطنية

الأهرام ٢٧٧٥ نسخة ـ محايدة مع ميول فرنسية

المقتطف ١٣٠٠ نسخة ـ احتلالية

ولقد ذكرت المقطم خبر نفى النديم وتعطيل « الأستاذ » قبل حدوثهما ، تهديداً له ، ولكن النديم لم يهن . حتى أتى الخبر اليقين ، قاذا به على ظهر مركب الى يافا للمرة الثانية ، ومنها الى الاستانة .

وفى الاستانة مات النديم ، انطوى سيرة حياة خطرة . وسيرة فكر كريم العطاء .

فكر الأعيان

حين اسلم عرابى سيفه ، ووضع كتاب الثورة أقلامهم ، خلا المكان للفكر الاصلاحى ، وانسحب الفكر الثورى الى المنفى والغربة أو التشتت والتفرق فى البلاد .

ونقصد بالفكر الاصلاحى ، هذا اللون من الفكر الذى يواجه القضايا الملحة والمواقف الحاسمة ، فيؤثر أن يتناولها بالدرس حتى يفصل أجزاءها ، ويرتب الحاسم وغير الحاسم منها ، ثم يتناول جنبا من جوانبها ، يجده أقرب الى العلاج ، وأجدر بالحل ، فيركز فيه معركته ، مؤجلا غيرها من أوجه القضية أو الموقف الى أمد قريب من بعيد .. أنه فكر القضايا الجزئية والحلول القريبة .. فكر التوسط والمهادنة والتأجيل ..

ينمو الفكر الاصلاحى فى أوقات الانحسار والانهزام ، ويتبناه « العقلاء » من أبناء الأمة ، ولديهم عندئذ حجتهم المقنعة الجاهزة .

انهم يقولون : لقد جربت الأمة الانتفاض الشعبى ، والمطالبة بالحلول الكاملة .. بالعدالة الكاملة أو الحق الكامل .. فماذا

وجدت .. ويمضون فى حجتهم ليكشفوا أن الأمور زادت سوءا وان ما أريد بالأمة من خير قد انقلب الى شر . وهم عندئذ لايطرحون قضية تجديد الفكر الثورى وتجدد الثورة لكى يداووا به أوجه القصور فى مسيرة الأمة ، بل يؤثرون أن يقفزوا فوق بعض مواطن الواقع الى مواقع اخرى يرونها أجدر بالاصلاح والتقويم

وحين دخل الاحتلال الانجليزى مصر ، أورق هذا الفكر ونما وازدهر . واتخذ له معارك جانبية ، مثل اصلاح التعليم فى المدارس المدنية والأزهر ، وتحرير المرأة ، وانشاء المصارف المصرية ، وحماية ملكية الأرض الزراعية للمصريين ، وتعميم الجمعيات التعاونية على أسس لبرالية ، ونشر الوعى العلمى ، وغير ذلك من اوجه الاصلاح ، ولكنهم لم يتناولوا القضايا الرئيسية ، مثل قضية الاحتلال الناشب أظفاره فى البلاد ، أو الدستور المفتقد المنظم لعلاقة الحاكم والمحكوم ..

ولقد نشأ الفكر الاصلاحى المصرى فى أحضان طبقة الأعيان المصريين وحول مراكز تجمعها .. ولقد مرت طبقة الأعيان المصريين بمرحلتين المرحلة الأولى مرحلة النشأة حين تجمعت فى الحزب الوطنى الأول بحلوان فى عام ١٨٨١ ، وشاركت الجيش فى رفع شعار «مصر للمصريين» . وكنت تقصد عندئذ ـ كما أسلفنا ـ أن يؤول اليها حكم مصر فى الوظائف الكبرى دون الخديوية ورئاسة الوزراء ، وان تجلى أبناء الترك والشركس والألبان عن هذه الوظائف . وكانت هذه الطبقة عندئذ لا تحظى بقسط من التعليم ، وان اتقنت بعض المناورة السياسية والبرلمانية .. وكان عمرها

عشرين من السنين على الأكثر ، انتقل فيه أفرادها من مناصب العمد لقراهم الصغيرة الى مناصب مديرى الأقاليم ومفتشيها ، ومن ملكية بضعة أفدنة الى ملكية المئات والآلاف منها ٠

بدأت فئة الأعيان فى الظهور فى عهد سعيد ، ولكن حكم اسماعيل هو الذى أتاح لها ما وصلت اليه من ثراء ونفوذ ، ومن الغريب أن أول من فتح لها السبيل هو اسماعيل صديق المفتش . أخو اسماعيل فى الرضاع ، وعونه الأول على الطغيان ثم كبش فدائه حين ادلهمت عليه الأمور ، اذ قتله اسماعيل وأخفى جثته فى سراياه بالزمالك التى هى فندق عمر الخيام الآن ٠

كان اسماعيل صديق من أصل مصرى ، أكرمه الله بأن جعل أمه مرضعة لاسماعيل ، وحين صار اسماعيل حاكما على مصر صار مفتشا لعموم الأقاليم ، فاستغل هذه المكانة فى الاثراء والكسب ، ويحدثنا أمين باشا سامى فى كتابه تقويم النيل « ان عقارات المفتش عند « نفيه » كانت نيفا وثلاثين ألف فدان ، وثلاثة قصور فى القاهرة وقصرا على ضفاف المحمودية وجواهر قيمتها ستمائة ألف جنيه انجليزى وأسهما وسندات بنصف مليون من الجنيهات وأخيرا سبعمائة شركسية بيضاء أو خمرية مسكرة وسمراء فاتنة وحبشية ذات عيون بقرية وبرونزية موشومة ذات نهود سفرجلية وسودانية فحماء متقدة الدم الهائج » ٠ ٠

وباع المفتش الوظائف لأبناء وطنه من المصريين ، فكان ثمن وظيفة المدير من ألفين الى ثلاثة آلاف جنيه ، ومن وثمن وظيفة وكيل المديرية من ألف الى ألف وخمسمائة جنيه ، وثمن وظيفة ناظر قسم من خمسمائة الى سبعمائة جنيه ، وتكالب الأعيان على شراء الوظائف ، وبعد أن كان اسماعيل قد قرر فى أمر عال أن تكون النسبة فى الوظائف الادارية العالية الثلثين للترك والثلث من « أولاد العرب » أو المصريين ، وصلت النسبة بعد بضعة أعوام الى أن صار

معظم كبار الموظفين من المصريين ، حتى قال اسماعيل باشا بعد انصراف كبار الموظفين من التشريفة فى عـام ١٨٦٩ أنه مسرور لمشاهدة معظم المديرين من ذوى اللون الأسمر البحت ٠

وسقط اسماعيل المفتش عام ١٨٧٦ ، وانحسر النفوذ المصرى قليلا ، ورفع النفوذ التركى رأســـه ، ولكن طبقة الأعيان كانت قد تكونت وتآزرت على كل حال ، ويحدثنا أمين سامى أيضا أن بعض هؤلاء المديرين والعمد ونظار الأقسام المصريين كانوا لا يجيدون القراءة والكتابة ٠ ولكنهم كانوا قد كونوا ثروات طائلة بالنسـبة لمواطنيهم ، فبدأوا يتطلعون الى الســـلطة ، وراهنوا على جواد الجيش والثورة العرابية ، ولكنهم مالبثوا أن توقفوا فى منتصف الطريق ، وسارع معظمهم الى الانضمام للخديو ، وكان زعيمهم محمد ســلطان القائد الأول للحزب الوطنى ومفتش الوجه القبلى ورئيس مجلس النواب هو أول الضاربين للثورة ، حتى قال عنه محمد عبده فى تاريخه ، مبتدئا حديثه بهذه اللهجة الساخرة ٠

« هذا الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد ، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهيبها وعم جميع الأنحاء ، ثم هرب من طريقها عندما خاف أن يلذعه لسان لهيبها ٠٠ جاء فى آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم ٠ ونال المكافأة من الجناب العالى بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها » ٠

كان محمد سلطان اذن هو الممثل الأول للطبقة المذكورة فى ابان نشوئها ، يوم كان كثير من أفرادها لا يعرفون القراءة والكتابة وكان فكر هذه الطبقة انتهازيا يطمح الى تولى المناصب سواء كان ذلك بتقديم الرشوة الى اسماعيل المفتش الأب الروحى للطبقة ، أو بالمساومة على الحركة الوطنية ٠ ثم خلف هؤلاء السادة خلفا ، دخلوا المدارس ، وحذقوا ألوانا من الجدل والكلام ، وسافر بعضهم

الى أوربا ، فنال حظا من المعرفة والتفتح ، ثم عادوا الى مصـــر ليشغلوا جملة من الوظائف العالية فى نطاق السيطرة الانجليزية • فهم يرون أنفسهم بمجد الثراء ومجد الوظيفة اسمى مقاما من غيرهم من المصريين . ويطمحون الى مصاولة الترك ، ولكنهم لتحضرهم وعلمهم أكثر مقدرة على الابانة عن أنفسهم من آبائهم وأسلافهم •

هذا الجيل من الأعيان هو الذى أنشأ حزب الأمة وجريدته فى عام ١٩٠٧ ، وكن ألمع ممثليه أحمد لطفى السيد الذى عرف فيما بعد بأستاذ الجيل ، وكان صاحب المزاج الهادىء ، والمفكر المتأمل الشيخ محمد عبده هو آباهم الروحى ، حتى قال كرومر عنهم فى تقريره السنوى عام ١٩٠٦ ، وهم لم يعلنوا عن أنفسهم بعد ، فى مجال المقارنة بينهم وبين أتباع مصطفى كامل أو الحزب الوطنى محاولا أن ينسبهم الى الوطنية •

« فئة صغيرة من المصريين الذين لم يسمع غير القليل عنهم ، فرجال هذه الفئة يســتحقون ذلك اللقب بقدر ما يســتحقه الذين يختلفون عنهم فى آرائهم وأفعالهم ، وهم رجال الحزب الذين أسميهم حبا فى الاختصار اتباع المرحوم المفتى الســابق الشــيخ محمد عبده » •

ولا نجد فى بيان افتتاحية العدد الأول من الجريدة أى ذكر للاستقلال أو حقوق الأمة الشــرعية ، فى الوقت الذى كان فيــه مصطفى كامل ينشد خطبه الشاعرية الملتاعة ، ويجعل كلمتى مصر والاستقلال واسطة العقد فيها ، بل تختفى الجريدة وراء تعبيرات اصلاحية غامضة مثل الاعتدال الصــريح •• و « ارشــاد الأمة المصرية الى أســباب الرقى الصحيح والحض على الأخذ بها ، واخلاص النصــح للحكومة والأمة بتبين ما هو خير وأولى ، ثم تنصح بتولية الحكم لجماعة أولى الرأى » وهم الذين نبهوا ذكرا بالمنصب او العلم أو الفضل ••

كانت آراء لطفى السيد الفكرية تقوم على ثلاثة محاور ، أولها ايمانه بالتطور ايمانا أقرب الى اليقين الدينى فهو يؤمن بأن اليوم خير من الأمس ، وان غدا سيكون أفضل من اليوم ، وتلك مقولة أولى اقتبسها من فلاسفة التطور الانجليز · وبخاصة « سبنسر » ولكنه لا يفكر كيف ان الانسان هو قائد التطور ، فنحن قد نؤمن بحتمية التطور فى البيولوجيا حين نؤمن أن الكائنات الحية تستبقى الأحسن أو الأقدر على الحياة ومجالدة الطبيعة ·· ولكن التطور الانسانى لابد لدفعه من الانسان الموجه له ، ومن تهيئة الظروف المعينة على التطور ، وقد انعكس ايمان لطفى السيد بالتطور فى نظرته الى الاستقلال ، فهو يرى أن دون الاستقلال عقبات يجب أن تجتازها الأمة بتطور تدريجى ، فلا استقلال عنده بدون نشر التعليم واصلاح المعوج من عاداتنا ومعتقداتنا ·· بل يجب أن نسرع فى هذه الخطوات ونتمها قبل أن نطمح الى الاستقلال ·

والمحور الثانى · من أفكار لطفى السيد هو كراهيته لاستعمال القوة فى أى أمر من الأمور ، فمن يظن أن استعمال القوة هو طريق الرقى فهذا طريق خطر السلوك عقيم النتيجة ، فان الأقلام مجمعة فى مصر على أن السلام هو الطريق الوحيد ··

أما المحور الثالث : فهو ايمانه بالمنفعة كفلسفة عملية ، فهو يرى ألا يشغل نفسه بأوهام الخيال والطموح ، أو بالغايات البعيدة الغائمة ، بل يقيس الأمور بنفعها ، وتلك نزعة فى الفلسفة الانجليزية أيضا تقترب الى حد كبير من النزعة البراجماتية فى الفلسفة الأمريكية ، وكلتاهما فلسفتان ماديتان لا عقليتان ، تنبعان من ملاحظة الواقع دون طموح الى تغيير ··

ولعله قد طبق تلك الفلسفة أصدق تطبيق فى مقالته فى وداع كرومر ، اذ جعل جهده أن يحصى ما له وما عليه ، وانتهى بأن كرومر بمقياس بنى وطنه الانجليز ، مصلح وطنى غيور على مصالح

وطنه ، وكان الأمر مضحكا أن يتحدث بهذه اللهجة ، فان القائد الانجليزى الذى احتل مصر كذلك كان بلاشك وطنيا غيورا فى نظر دهماء لندن وسادتها ٠٠ ولكن ماذا يفعل وقد شارك حزبه بقيادة « محمود باشا سليمان » فى وداع كرومر ، وسفح الدموع حزنا على فراقه الأليم !

ما موقفهم ٠٠ ؟

لم يكن لطفى السيد هو المفكر الوحيد فى حزب الأمة ، ولم يكن حزب الأمة هو التجمع الوحيد لطبقة الأعيان ، فقد تجمعوا بعد ذلك فى حزب الأحرار الدستوريين ، الذى انتج جماعة من المفكرين، منهم محمد حسين هيكل ، قريب لطفى السيد وتلميذه الأثير ، ومنهم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر ومنهم طه حسين فى أيامه الأولى قبل انضمامه للوفد ٠

ولقد كان لطفى السيد أيضا ممن أسهموا فى انشاء الحزب الجديد ليقف فى مواجهة الوفد وازاءه ، وكأنه كان مقدرا على هذا الرجل أن يقف فى مواجهة التيارات الوطنية ، فهو ينشىء حزب الأمة فى مواجهة مصطفى كامل وحزبه الوطنى ، وينضم الى الأحرار الدستوريين ويؤازرهم ليواجهوا شعبية سعد زغلول وزعامته ، ومما يذكره المؤرخون أن لطفى السيد ـ بهوايته اللغوية كان غير راض عن اسم الحزب ، فهو يرى تسميته بالحريين الدستوريين ، لا الأحرار الدستوريين ، لأنه يرى أن كلمة «الحريين» هى الترجمة لكلمة « ليبرالى » أو المذهب « الليبرالى » ٠

كانت الليبرالية هى أوضح معالم فكر لطفى السيد وتلاميذه فى المرحلة التالية ، مرحلة طبقة الأعيان المثقفة فى آخر أيامها ٠
ويلخصه لطفى السيد فى « ألا يكون للحكومة سلطان الا على ما ولتها الضرورة اياه وهو ثلاث ولايات : ولاية البوليس وولاية

القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن » ، فهم يؤمنون اذن بقداسة الحرية الفردية ، ويقودهم هذا الايمان الى الايمان بضرورة الحكم النيابي والدستوري ، ولذلك فقد ولد فى أحضانهم أول دستور مصرى عام ١٩٢٣ ٠

ولكن هذا الايمان لم يبلغ بهم حد التضحية بمكانتهم الأسرية والمالية ، اذ كانوا يظنون أنفسهم سادة الأمة كما قال حسن باشا عبد الرازق فى خطاب تشكيل حزب الأمة ، فاذا بالأمة لا تنتخبهم لولايتها ، وانقلب هؤلاء الحريون أو الأحرار سيفا مصلتا على الحرية التى نادوا بها وجعلوها شعارا لهم ، فقال عبد العزيز فهمى أحد أقطابهم عن الدستور الذى شارك فى صياغته أنه ثوب فضفاض لا يصلح لمصر ، وحكم محمد محمود البلاد بلا دستور وأطلق على نفسه اسم اليد الحديدية ، وخرج من بين صفوف الدستوريين حليفهم اسماعيل صدقى ، واستوزر لطفى السيد لمجمد محمود واسماعيل صدقى كلاهما ، وهما يحكمان بلا دستور أو بتزييف الانتخابات وضرب الشعب ٠

لقد كان سعد زغلول أعلم بالدستوريين من أنفسهم ، فقد كان بعضهم معه فى مفاوضاته مع « ملنر » بلندن عام ١٩٢١ ، ثم انشقوا عنه ٠ وأقنعوا أحد أعضاء الحزب الوطنى القدامى بالانضمام اليهم سترا لوجودهم ، فكتب زغلول الى أحد خلصائه بالقاهرة :

« لابد أن تعلموا أن اسم « مكباتى بك » كان بين العائدين ، ولكنه لم يعد ، وانما كتبوا اسمه مع أسمائهم تفخيما لشأنهم ولكى يعتزوا باضافة لون آخر الى لونهم ، حتى لا يقال ان حزب الأمة عاد الى بدايته ، وانتهى الى غايته ٠٠ ان الله لا يصلح عمل المفسدين » ٠٠

تقييم

ان أسوأ ما فى التوسط أنه يقود الى التنازل ، والتنازل يقود الى المساومة ، ثم تعمى بعده العين عن الرؤية الصحيحة للأمور ٠ وقد كانت هذه الطبقة من الأعيان بمدارسها الفكرية المختلفة داعية الى التوسط ٠ وكانت اجنحتها الفكرية بلا شك أسلم قصدا واقوم نهجا من اجنحتها السياسية ، فلأجنحتها السياسية أخطاؤها التى تصل الى حد الانحدار الوطنى ، ولكن أجنحتها الفكرية قد خاضت كثيرا من المعارك الموفقة التى أسهمت فى تقدم الوطن ، مثل معركة التعليم واصلاحه التى خاضها لطفى السيد ومحمد عبده وسعد زغلول حين كان قريبا منهم ، ومثل ممعركة تحرير المرأة التى خاضها قاسم أمين ، اذ قرأ على محمد عبده ولطفى السيد فصولا من كتابه فى جنيف عام ١٨٩٧ قبل أن ينشره على الناس ، وأمده محمد عبده بالحجج الدينية ، ومثل معركة بنك مصر التى خاضها طلعت حرب ، وكان من المساهمين الأول فى جريدة « الجريدة » حين أصدارها ٠ فضلا عن دور محمد حسين هيكل فى الأدب وبخاصة بكتبه المتقدمة مثل « ثورة الأدب » « وتراجم شرقية وغربية » ٠

وقد كان وجود هؤلاء المفكرين يطرح سؤالا ويجيب عنه فى الوقت ذاته ، هذا السؤال هو هل تنهج مصر فى تقدمها النهج الثورى أى النهج الاصلاحى ، أما هؤلاء المفكرون فقد أثبتوا باجابتهم أن أقصى مايستطيع أن يصل اليه النهج الاصلاحى هو استقلال مقيد ودستور هو ثوب فضفاض واقتصاد متخلف وفكر لا ينبع من الواقع ولكنه ينبع من التوفيق بين الفكر الأوروبى والطموح الشخصى لمن استعاروا هذا الفكر ٠٠

فــــكر الطالبـــة

يذكر الذاكرون أن ســـــعد زغلول خصص مقعدا فى مجلس النواب الأول لمصر فى عام ١٩٢٤ للطلبة ، ورشح له أحد زعمائهم ، وظل الوفد يرشح هذا الزعيم الطلابى حتى بعد أن غدا شــــيخا عجوزا ، ويقدمه مندوبا عن الطلاب طوال سنوات الحكم الدستورى وحياة الوفد ولم يكن الوفد بهذا التصـــــرف مجرد مرحب بدور الشباب فى الحركة الوطنية ، بل كان مسجلا لحقيقة هامة ، وهى أن الحركة الوطنية فى جانبها الثورى كانت تقوم على أكتاف الطلبة، وتنبع من فكرهم ..

وليس هذا غريبا فى المجتمعات التى تشيع فيها الأمية ، اذ يكون الطلبة هم الطليعة الواعية المتطلعة ، التى تكاد تتخلص فى الوقت ذاته من التدبير لهموم الحياة والخضــــوع لارتباطاتها ، فتتفرغ بكل ما فى نفوسها من حماسة وهمة لقضية الوطن ، وليس هذا غريبا فى المجتمعات التى لم يتشكل بناؤها الطبقى بعد ، فهى فى تخلق مستمر ، اذ تولد طبقة من أصلاب طبقة ، وينقضى وقـت طويل قبل أن ترسى هذه الطبقة الجديدة مفاهيمها ومثلها العليا .

ويقول بعض الدارسين ان نشوء الطلبة كفئة ثورية علامة مميزة فى المجتمعات التى لم تتقدم آليا وصناعيا بعد ، بحيث تتحدد المواقف الاجتماعية طبقا للعلاقة مع أدوات الانتـــاج ملكية لها أو خضوعا لوطأتها ، فمن يملكون أدوات الانتاج هم ســـادة المجتمع والمشرعون له وممثلوه وأهل الرأى فيه ، ومن يخضعون لها هم خدمه وعبيده ، ولكن ما نراه الآن فى أوروبا الغربية ، وهى قمة التقدم الصناعى فى العالم يوحى لنا بأن للطلبة دورا واضـــحا كطليعة ثورية سواء أكان المجتمـــع متقدما أم متخلفا ، والى هذا المعنى فطن « هربرت ماركيوز » أحد كبار فلاسفة عصرنا ، هذا حين ادرك أن الطبقة العاملة الصناعية فى المجتمعات المتقدمة جديرة بأن تنحاز الى القوى الجامدة فى المجتمع حين تعلو أجورها ، وتنظم ظروف حياتها ، فلا يظل عندئذ فى الجناح الثورى من المجتمع سوى الطلبة ..

ولاشك أن النظرة فى كفاح مصر الوطنى ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تكشف لنا عن دور الطلبة وفكرهم ، بل تجعله مناظرا قويا لفكر الأعيان ، ففى الوقت الذى كان فيه الأعيان والعقـــلاء يتجمعون ليحموا مصلحهم ويثبتوا وجودهم بين قوتى الاحتـــلال والقصر ، كان الطلبة يتجمعون أيضا تحت راية الوطنية ، ولا شك أن ممثلهم الأول كان هو مصطفى كامل فى الدور الأول من كفاحه الوطنى ..

جمع مصطفى كامل ـ وهو طالب فى المدرســـة الخديوية ـ سبعين من زملائه فى جمعية سماها « جمعية الصليبة[1] الأدبية » ،

---

(٢) حى من أحياء مصر الشعبية

وكانوا يجتمعون فى هذه الجمعية ليخطبوا ويلقوا القصائد ، وقد كان مصطفى كامل يحاول الشعر ، وكانت له صداقة عميقة بشاعر مصر الكبير أحمد شوقى ، وقد ظل مصطفى كامل ، حتى بعد تخرجه وتكوينه للحزب الوطنى ، حريصا على تجميع الطلبة حـوله ، وكان المظهر الواضح لهذا التجمع هو تكوين نادى المدارس العليا فى عام ١٩٠٥ ، وسنجد فى هذا النادى جماعة ممن قدر لهم أن يؤدوا دورا فى تاريخ مصر ، وكانوا عندئذ مازالوا طلابا فى المدارس العليا ·

ومن البديهى أن يكون الفكر الطلابى خطابيا حماسيا ، وكذلك كان فكر مصطفى كامل ، ولكنه بلا شك فكر قد صادف أوانه ، فقد كانت الأمة واقعة فى هوة اليأس ، ولابد عندئذ من الأناشيد أو الكلمات المنغمة لكى تستعيد ثقتها بنفسها ، ويكفى مصطفى فخرا أنه أعاد كلمات مثل : الوطنية والاستقلال والحرية ، الى ضمائر الناس وأذهانهم ، كما أن مما يزكى دوره فى الحياة السـياسية المصرية أن فكره كان قادرا على التطور والحركة والاتساع طيلة حياته القصيرة ، بحيث بدأ حياته زعيما طلابيا ملتهب العاطفة يلجأ للخيال والتشبيه والكلمات الضخمة ، وأنهاها مقتربا جد الاقتراب من الوعى الصحيح للأمور ، ومنظما موهوبا لحزب وجريدة ومدارس تنشر التعليم ، كما تلقن الوطنية ·

وينتقل « مصطفى كامل » فى حركته السياسية خلال عشـر سـنوات من الاعتماد على الخديو أو على العثمـانيين أو على الفرنسيين الى الاعتماد على مصر ذاتها ، كما تنتقل لهجته من مجرد الشـاعرية الى محاولة التعمق فى الأمور ، والحديث باللهجة السياسية المسئولة ، فبينما نراه يخطب فى عام ١٨٠٦ فى الاسكندرية قائلا فى صورة شعرية بليغة :

« ولكن ألا تحبون مصر ، التى خيم عليها الشقاء ، وحل بها البلاء وسبقتها الأمم وأصبحت تعد فى مصاف الشعوب القاصرة .

تناديكم وأنتم حولها : الا فانصرونى يا أعز البنين ٠٠ الا فارفعوا شأنى بين الأمم واجعلوا لى مكانا فسيحا بين الشعوب المتقدمة الحية ٠٠ أجل ٠٠ أجل ٠٠ تحبونها ويجب عليكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحنو المرء على أمه الشفوق اذا اعتلت ويسـعى الى خدمتها » ٠

نجد مصطفى كامل بعد السنوات العشر يخطب خطبة أخرى بالاسكندرية ، هى فى الواقع بيان سياسى واف مرتب ، يشرح فيه اتجاهه ، ويدفع عن نفسه اتهامات خصومه ٠

يقول ردا على أنصار المهادنة والحلول الوسط أو تيار حزب الأمة :

٠٠« يتوهم أنصار سياسة المغالطة ٠٠ انهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون ٠ فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الانجيزية ويغلبوها بقوة الدهاء ٠٠ هم يقولون : لنؤجل طلب الاسـتقلال ولنطالب الانجليز بالاصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشـر التعليم ، حتى اذا صرنا أصحاب الحول والطول فى البلاد ٠٠ قلنا لهم « انجلوا عنا » فلا يستطيعون الا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين » ٠

« اللهم انى أعترف بأنى لست من المهرة فى السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير ٠٠ وأصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على بال بأنى قادر على أن أصرع السياسة الانجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة ، كما انى مع عداوتى الأكيدة للاحتلال ٠٠ لا أرى الانجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالا صغارا حتى تدخل عليهم هذه اللعبة المضحكة ٠٠

ويناقش « مصطفى كامل » بعد ذلك حجج أنصار الاحتلال ، الذين كانوا يزعمون أن الاحتلال قد نظم الرى والصرف والتعليم والصحة ، وهو يعتمد فى مناقشاته على الأرقام ليكشف زيف هؤلاء

المزيفين ، ثم ينتقل للرد على حجج خصومه ، فيدافع عن حزبه معلنا استقلاله عن الولاء العثمانى وترحيبه بالعناصر غير المسلمة ، ثم يقول فى عبارة قاطعة :

« اننا نعلن للملأ كله ‥ أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء » ·

بعد مصطفى :

لم يكن وراء الحزب الوطنى عند تشكيله ، مثل ما كان وراء حزب الأمة من المثقفين ذوى النزعة العصرية ، بل لعله استهوى كتاب النزعة العثمانية مثل « عبد العزيز جاويش » وغيره ، وواجه الحزب بعد موت مصطفى ظروفا شاقة ، اذ تحالفت عليه قوى الاحتلال والسراى حتى استطاعت أن تخرج « محمد فريد » من مصر، وحتى استطاعت أن تصوره حزبا حريصا على تفتيت وحدة الأمة ، أو خالقا لمناخ يساعد عليها على أقل تقدير ، وبخاصة بعد أن أصبح عبد العزيز جاويش هو اشيع كتابه ذكرا ، ولقد انصرف شبابه الجديد من بعد الى مسالك أخرى ، تتباين بين الارهاب الفردى كما نجد فى قتل « ابراهيم الوردانى » لبطرس غالى ‥ أو الانضمام الى الأحزاب الأخرى ، أو الانصراف بعد تخرجهم الى الوظائف العامة مع بقية كامنة فى أنفسهم من النار القديمة المتقدة ، كما فعل مصطفى النحاس وحافظ عفيفى اللذان دخلا الوفد ممثلين للحزب الوطنى القديم ‥

وعلى أى حال · فلقد كان الحزب الوطنى فى سنواته الأولى ، هو حزب الشباب والطلبة ، والى هذا المعنى أشار الحوار الذى دار بين السير « ريجنالد وينجت » المندوب السامى البريطانى وأحد الأقطاب الثلاثة الذين ذهبوا اليه غداة الهدنة فى عام ١٩١٩ للمطالبة بالاستقلال ·

قال « وينجت » ان على المصـــريين الا يتعجلوا وأن يكونوا متبصرين فى ســــلوكهم ، لأنه قبل الحرب كثيرا ما حصـــل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطنى ، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية فأخرت مصر ولم تنفعها ٠

واجابه « عبد العزيز فهمى » أحد الأقطاب الثلاثة : ان الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال وغاية الأمر أن طريقة الطلب التى سار عليها الحزب الوطنى ربما كان فيها ما يؤخذ عليها ، وذلك راجع الى طبيعة الشبان فى كل جهة ٠

وتم نفى الأقطاب الثلاثة كما نعلم ٠٠ ولم يكن يدور بخلد أحد منهم أن مصر ستتحرك عن بكرة أبيها احتجاجا على هذا النفى ، حتى لقد أصيب معظم أعضاء الوفد بالدهشة حين نمت اليهم أنباء ثورة مارس ١٩١٩ ، وحتى كان بعض أعضاء الوفد المقيمين بمصر ينصحون الثائرين بالهدوء والحكمة ٠ لقد كانت الثورة تفوق كل توقع من تصدوا لقيادتها ، ورغم أن الثورة استشرت فى كل مكان من مصر ، الا أن من أيقظ خامدها ، وبعث روح مصر من سباتها . كانوا هم الطلبة ٠٠

بدأت أحداث الثورة باضـــراب طلبة الحقوق فى ٩ مارس ١٩١٩ ، ثم انطلاقهم فى مظاهرة ضمت اليهم طلاب المدارس العليا الأخرى ، وفى اليوم التالى انضم اليهم الأزهريون وطلاب المدارس الثانوية ٠ ثم اشتعلت الثورة ٠٠

ومنذ ذلك اليوم ٠٠ أصبح الطلبة قوة سياسية وظاهرة نجدها فى حركة جمع التوكيلات للوفد ، وفى نشاط الوفد السرى الذى كان ينظمه عبد الرحمن فهمى سكرتير الوفد ٠٠ سواء أكان اغتيالا أم ارهابا للخصوم من المصريين والأجانب ، ثم فى الاحتجاج على حكومات الأقليات والتظاهر ضدها حتى تسقط ، ولقد سقط من الطلبة

عديد من الشهداء والمكافحين ، وتألقت منهم أسماء ذكية كان منها عبد الحكم الجراحي وشهداء كوبرى عباس وغيرهم ٠

يحدثنا « فكرى أباظة » فى مقال خفيف الظل بالأهرام فى عام ١٩٢٢ عن هذه المعركة الدائرة بين وزارة المعارف والطلبة ، حين تنتهز وزارة المعارف من الامتحانات العامة فرصة للتنكيل بالطلبة ، وجعلهم يعضون بنان الندم على ما ضـــيعوه من أيامفى التظاهر للحركة الوطنية ، فيقول :

« ان وزارة المعارف قدمت لهم أوراق الأسئلة ، وقد كتب على رأسها بالخط الغليظ « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ٠٠ فكما أنكم كنتم تصيحون بأعلى أصواتكم قائلين : « لتسقط الوزارة اذن هى الآن تصيح بأعلى صوتها قائلة : ليسقط الطلبة » ٠

ماذا كانوا يريدون ؟

هل يمكن اذن أن نعد تيار الطلبة المتجدد فى الحركة الوطنية قوة مستقلة ؟

وهل كان لهم فكر سياسى ؟

هذان سؤالان يطرحان حين نريد أن نحلل هذه الظاهرة ٠٠ وواقع الأمر اننا لا نستطيع أن نعد مد تيار الطلبة قوة مستقلة بعيدة عن الأحزاب السياسية ، لأن الأحزاب السياسية من جانبها كانت تبذل كل جهودها للاستحواذ على هذه القوة وتنظيمها واطلاقها ، متذرعة فى ذلك برفع شعارات الوطنية الجارفة التى يتفاوت حظها منها بين الاقتناع والمداورة ٠٠

كان الوفد بقيادة سعد زغلول ـ حريصا على احتواء الطلبة ، وقد خصص سعد للجنتهم التنفيذية الطبقة الأولى من بيته ليجتمعوا

فيها ، وقد فطنت أحزاب الأقليات الى هذا الأمر ٠٠ فحاولت هى الأخرى احتواء الطلبة بوسائل كثيرة وصلت الى حد الرشـــوة والاسناد ٠٠

وواقع الأمر كذلك ٠٠ انا لا نستطيع أن نقول انه كانت للطلبة أسس فكرية سياسية محددة ، فقد كانت هتافاتهم وشعاراتهم التى يستشهدون من أجلها هى « الاستقلال التام ٠ أو الموت الزؤام » فى مرحلة طلب الاستقلال ، ثم الصراخ بالدســـتور فى الأزمات الدستورية ٠٠ وليس الطلبة فى ذلك بملومين ، فقد كان الفكـــر السياسى الاجتماعى للأحزاب المصرية فى جملتها متخلفا الى حد مزعج ، ولنذكر عندئذ أن الوفد لم يضف كلمة « العدالة الاجتماعية» الى شعاراته الا فى فترة متأخرة جدا قبل ١٩٥٢ وقبل حل الوفد بأعوام قليلة ٠ وقد أضافها عندئذ حرصا من قادته على المناورة السياسية ، اذ كانت القيادة عندئذ قد وقعـــت فى قبضة الأعيان وقوعا شبه تام ، وكان هناك تناقض واضح بين هذه الدعوى وواقع الأمر ، وكاد هذا التناقض يودى بكيان الوفد ٠

بل ان الواقع أيضا اننا لا نكاد نجد للأحزاب السياسة فى التاريخ المصرى فكرا سياسيا اجتماعيا بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فرغم أن حزب الأمة ينشأ فى حضن المفكرين الا اننا نجد أن فكرهم تعميمى أحيانا ، ووقتى مرحلى أحيانا أخرى ، ولن نستطيع أن ننسبهم أو ننسب الأحرار الدستوريين الخارجين من معطفهم الى نظرية اجتماعية بعينها ، الا ما يزعمونه من اللبرالية أو التمسك بالدستور ، أما الوفد ، فقد كان سعد زغلول منصرفا تمام الانصراف عن القضية الاجتماعية ، فلم تؤهله ثقافته الأولى التى حصلها فى الأزهر والمحاماة ، وصحبته الاولى من الأفغانى الى محمد عبده الى حزب الامة ،لم تؤهله هذه الثقافة لكـــى يفطن الى أن للحريـــة والاستقلال جانبا اجتماعيا ، كما لم تمهله سنوات قيادته القصيرة

للحركة الوطنية مع ما ازدحمت به هذه السنوات من أحداث لأن يتبصر فى الواقع الاقتصادى والاجتماعى لمصر ·

ان سعد زغلول يفاجأ فى فترة حكمه القصيرة بالاضطرابات العمالية ، فيقمعها بشدة ، ثم يوعز الى سكرتير الوفد « عبد الرحمن فهمى » بلم شمل الطوائف العمالية فى نقابات خاضعة للوفد تأتمر بأمره وتسير حسب ارادته ، ولم يكن لهذه النقابات دور واضح فى تفجير المشكلة الاجتماعية فى مصر ··

بل ان سعد زغلول استعمل بعض وسائل القمع ضد من كونوا أحزابا وتكتلات شيوعية فى مصر فى الفترة ما بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ ، ولكننا لا نريد أن نغلو فى مؤاخذته على هذه التهمة ، بل لا نريد أن نؤاخذه اطلاقا ، فقد كانت معظم هذه القيادات من يهود فلسطين ، وكانت تتستر برداء الشيوعية اخفاء لحقيقتها الصهيونية فضلا عن احتمائها بمظلة الامتيازات الأجنبية ، ويكفى أنه كان بين الاسماء اللامعة فى هذه الحركات شارلوت وجوزيـــف روزنتال ، وشالوم بولاك ، وهارون واينبرج ، وريـــدل هارســـليك ، وليون الكونين ، وقسطنطين قايس وغيرهم ·

تقييم :

والآن ·· ألم يكن فى مصر حركة اجتماعية ناضجة حين أدى الطلبة الجانب السياسى من الحركة الثورية ··

كان هناك فكر ينمو متمهلا متخبطا مترددا خـارج الأحزاب التقليدية ، وبخاصة بعد معاهدة ١٩٣٦ ، اذ تصور كثير من المصريين أن معركة الاســـتقلال قد انتهت وأن الدور الآن لمعركـــة العدالة الاجتماعية ، وبدأت الكلمات الثائرة تتردد فى الصـــحف ، حتى زادت وعلت نبرتها فى سنوات ما بعد الحرب ، وكانت ممهدة للتغيرات الاجتماعية الكبرى بعد عام ١٩٥٢ ·

بين السكسون واللاتين

اختلف الرائدان الكبيران للتجديد فى الفكر المصرى الحديث : أى الثقافتين أجدر بأن تقتبس منها الثقافة المصرية الناشئة ، وتحذو حذوها ، وتمد من آفاقها لتصلها بالآفاق الغربية ، أهى الثقــافة السكسونية التى أبدعها أصحاب اللغة الانجليزية ، أم هى الثقافة اللاتينية التى أبدعها أصحاب اللغة الفرنسية ؟

كان هذا هو محور المناقشة الأدبية التى دارت بين عباس محمود العقاد ، وطه حسين فى عشرينات هذا القــرن · وتحمس العقاد للثقافة السكسونية ، التى عرف من خلال لغتها الانجليزية آفاق الفكر الحديث والقديم ، فأسهب فى بيان فضلها وتفوقها بينما تحمس طه حسين للثقافة اللاتينية ، التى أطل من خلال نافذة لغتها الفرنسية على الساحة الواسعة للفكر العالمى · وليس المجال هنا مجال ترجيح رأى أحد من الرائدين الكبيرين ، فاننا الآن نجد أن هذا الخلاف خلاف جدلى أكثر منه خلافا واقعيا فالحضارة الغربية

كل متماسك ، والقرابة بين بعض اللاتين وبعض السكسون أقرب منها بين سكسونى وسكسونى آخر ، أو لاتينى ولاتينى آخر . ونحن نعلم أن المذهب الأدبى قد يولد فى بلد ما من بلدان أوروبا ، فلا يلبث أن يجاوزها الى غيرها من البلاد . ونستطيع أن نقول ان الحضارة الغربية كلها هى وريثة حضارة اليونان والرومان . وانها هى فى كل تجلياتها سواء أبدعها التيوتون الجرمان أو السكسون البريطان أو الفرنسيون اللاتين ، بل ان مؤرخا معاصرا يتجلى فى نظرته امتزاج العلم والالهام مثل أرنولدتوينبى ، يرى أن الفكر الروسى الحديث ـ والشيوعى على وجه الأخص ـ ليس الا جانبا من جوانب الحضارة الغربية احتج عليها ، ثم ما لبث أن امتزج بها ، وهو يرى أيضا أن كارل ماركس الألمانى ليس الا وريثا لهيجل الألمانى الذى هو وريث بدوره لحركة الانسانيين الفرنسيين .

لا تعنينا اذن تفاصيل هذه المناقشة التى شغلت المثقفين فى ذلك الزمان ، ولكن يعنينا من أمرها دلالتان واضحتان :

أولهما : ان فى مجرد المناقشة فى هذا الموضوع اقرارا ضمنيا بأن الثقافة العربية السلفية لا تكفى وحدها لصنع الانسان الجديد ، بل لا بد له من البحث عن منابع جديدة ، يفتش عنها فى فكر هذه الأمم المتقدمة التى ترتفع الى شمال المتوسط أو تمتد الى أعالى المحيط ، فنحن عندئذ لا نتجه الى فكرنا السلفى القديم وحده، ولا نتجه الى فكر جيراننا فى الشرق القريب أو الشرق البعيد ، ولكننا نتجه الى الغرب لا يمنعنا من التقدير لحضارته وثقافته فصول مأساته السياسية معنا . فقد تحدث العقاد عن ثقافة السكسون والمعركة حول الاستقلال محتدمة بيننا وبين الانجليز .. وقد كان العقاد عندئذ الكاتب السياسى اول لحزب الوفد . ولعل فى هذا ما يلفتنا الى سخافة ما يروج له البعض

الآن من الانغلاق تحت شعار مقاومة الغزو الثقافى ، فالثقافة لا تغزو ولكنها تبنى وتنير ، وقراءة شكسبير وكارلايل وهازلت ، لم تثبت الاحتلال الانجليزى لمصر ، بل لعلها ساعدت على زحزحته بمـــا الهبت فى النفوس من معانى الحق والخير والجمال ٠

ومن الواضح ان هذا المعنى كان هو المحرك لمغامرات العقل المصرى خلال القرن التاسع عشر ، فقد سافر الطهطاوى الى باريس كما أسلفنا ، وعاد وفى ذهنه آثار مونتسكيو وجان جاك روســـو وفولتير ٠ وقرأ عرابى كتابا عن نابليون أهداه اليه سعيد ، فأيقظ هذا الكتاب فى نفسه رؤى من الثورة الفرنسية ، وقد كان محمد عبده وسعد زغلول حريصين على تعلم اللغة الفرنسية فى أواسط عمريهما ، وتلقن سلامة موسى من جمعية الفابيين الانجليز شذرات من الفكر الاشتراكى والعلمى ، ولسوف نجد فى تاريخنا الحديث أثر هذه « التغريبة » أو الرحلة الى الغرب واضحا فى معظم رواد فكرنا ، محمد حسين هيكل يسافر الى فرنسا فيعود ليكتب روايته الرائدة « زينب » متأثرا فيها بالنزعة الرومانسية الفرنسية ، وتوفيق الحكيم يعيش فترة فى باريس ، فيعود لينتقل بسرعة من مســـرح الاستعراض الى مسرح الفكر ، وحسين فوزى يعود ليجعل من نفسه رسولا لهذه الحضارة الواسعة ، يطل بمنظارها وهو يقرأ تاريخنا وآدابنا فيكشف فيه بمناهجه الجديدة جمالا وسحرا جديدين ، أما طه حسين ـ أستاذ الأساتذة والأب الجليل لكل ما هو جميل ومثمر فى حياتنا الثقافية ـ فالحديث عن دوره لا يتسع له هذا المجال ، ولكن ملمحا من ملامح هذا الدور العظيم انه أنار لأجيال كثيرة بعض مسالك العقل والذوق الأوروبيين ٠

أما الدلالة الثانية لهذه المناقشة ٠٠ فهى أن العقل المصرى قد تحدد اتصاله بهذين الرافدين من الحضـــارة الغربية وحدهما الى مدى طويل فيما بعد ، بعد أن كان اتصاله بهما وحدهما خلال

قرن سابق من الزمان ، ورغم أهمية هذين الرافدين الا انهما ليسا وحدهما وجه الفكر الأوروبى · فهناك الأدب الروسى بمغامراته الروائية والمسرحية العظيمة فى القرن التاسع عشر ، وهناك الفكر الالمانى بفلسفته التى أثرت فى مجرى الفكر الانســـانى أيما تأثير بعلميها الكبيرين « كانت » و « هيجل » وبحفنة اخرى من لامعى الاعلام ، وهو مؤثر أيضا بأعلام أدبائه مثل « جوته » و «شيلر » وبأعلام موسقييه ونقاده ، وهناك أخيرا هذا الفكر الناشىء على الضفة الأخرى للأطلسى فى هذه الأرض الجديدة ، حيث تبرز أسماء بعض الفلاسفة والمربين والروائيين والشعراء ورغم أن أدب هذه البلاد يكتب باللغة الانجليزية الا أنه كان غريبا عن أذهان هؤلاء المفكرين بل ان الولايات المتحدة ذاتها لم تكن تعنى شيئا بالنسبة للمصريين حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ولنذكر هنا أن رفاعة الطهطاوى حار فى ترجمة اسم هذه البلاد الى العربية ، حتى لنوشك على القول أنه لم يكن يعلم بوجودها قبل أن يسافر الى باريس ، فهو يترجم اسمها أحيانا « الايالات المتجمعة » ويكتبه أحيانا أخرى كما يكتب بالفرنسية « اتيايونى » ·

لم تدخل الولايات المتحدة الى مجال الاهتمام المصرى الا حين فكر بعض المصريين فى الاستعانة بها على اخـــراج الانجليز أو احراجهم · فقد زار مصر فى عام ١٩٠٤ أحد أعضاء الكونجرس الأمريكيين ·· فاحتفى به المصريون أيما احتفاء ، ولكنـــه أخلف ظنونهم حين صرح بموافقته على الاحتلال البريطانى ، وخاب الظن مرة ثانية حين أعلن « ولسون » مبادئه حول حرية تقرير المصير للشعوب بعد الحرب العالمية الأولى ·· فاستبشر المصريون خيرا ، وهرع قادتهم الى مؤتمر الصلح يستعينون بولسون فاذا به يكذب ظنونهم للمرة الثانية ، ويعترف بالحماية البريطانية لمصر ، ففكر سعد زغلول ورفاقه فى ارسال أحد أعضاء الوفد الى أمريكا للدعاية

للقضية المصرية ، وسافر محمد محمود الى هناك ، فنشر بضع مقالات وأدلى بعدة تصريحات ، ثم آثر أن يستأجر عضوا من أعضاء الكونجرس للدعاية لمصر وبذل هذا العضو جهده ، ولكن الوفد عرف بعد قليل أن القضية المصرية لا تحل الا على أرض مصر ·· اذ علمتهم الجماهير أن الثورة وحدها هى التى تصنع للحق لسانا يتكلم به ·

كان السكسون البريطان والفرنسيون اللاتين هما أوروبا والغرب بالنسبة للمصريين ، وكانت لندن وباريس هما العاصمتين اللتين تلوحان لعين المصرى حين يستشرف آفاق الشمال · ولعل ذلك هو الأثر الحضارى لنزاع انجلترا وفرنسا على مصر ، هذا النزاع الذى استمرت فصوله تتوالى مائة عام أو يزيد ، ولم يحسم الا حين اتفق الطرفان على اقتسام الشمال الافريقى فى عام ١٩٠٤ ·

القصة المثيرة :

ان الجانب السياسى من النزاع الانجليزى الفرنسى على مصر لقصة مثيرة الحلقات ، وكأنه كان قدرا على هذا البلد ، الوادع المطمئن أن تتآمر عليه أكبر قوتين فى القرن التاسع عشر ، اذ تدرك القوتان ان مصر هى باب امبراطورية الشرق بالنسبة لكل منهما ، وأن هذه البلاد لو تركت وشأنها لاستطاعت بوضعها الجغرافى أن تكون قوة مستقلة ذات ارادة · ومحركة أيضا لقوى أخرى حولها ، وقد عرفت أوروبا ، وبخاصة انجلترا وفرنسا هذا الأمر ، حين وجدتا مصر فى عهد « محمد على » تمد نفوذها الى منابع النيل ، وشرقا الى صحارى نجد وشمالا الى جبال طوروس ، وحين وجدتا أن هذا العنصر المصرى يستطيع أن يكون خالقا مبدعا يتبنى تقاليد الحياة الجديدة وأساليبها من حيث ذكاء الفكر وحسن التنظيم ومهارة الصنعة ، ولذلك فقد قادت انجلترا دول أوروبا

الأخرى لكبح جماح الحركة المصرية وتقييدهـــا ، وهكذا اتفـق « بالمرستون » الانجليزى و « مترنيخ » النمساوى مع ممثلى بروسيا وروسيا لأول مرة فى تاريخ أوروبا الاستعمارية على قص أجنحة مصر ، وتولت انجلترا الجانب القذر من المهمـة فهدد أســطولها السواحل المصرية لكى يجبر محمد على على الانسحاب من سوريا والحجاز ٠

أما فرنسا ٠٠ فقد كان لها موقف مضحك ، فقد صرحت أكثر من مرة بأنها تؤيد محمد على ٠٠ ورفضت أن تشترك مع الدول الأخرى فى هذه المعاهدة المعروفة بمعاهدة لندن ١٨٤٠ ٠ وحين وقعت المعاهدة أرغت وأزبدت ، ووعد ملكها لوى فيليب بمعاونة محمد على ، حتى اذا جد الجد اذا بالفرنسيين يسحبون أسطولهم من البحر المتوسط ، ويتركون محمد على لمصيره المؤلم ٠

وتجد انجلترا وفرنسا فرصتهما بعد ذلك حين يتخبط اسماعيل فى ديونه ، وتبدأ فصول القصة المؤلمة التى انتهت بهبوط الاسطول الانجليزى على شواطىء الاسكندرية ، واحتلال الانجليز بعد ذلك لأرض مصر ٠ ومما هو جدير بالذكر ٠ ان الأسطول الانجليزى لم يأت وحده الى شواطىء الاسكندرية ٠ بل كان بصحبته الاسطول الفرنسى ، وكأن الصيادين يخشيان أن ينفرد أحدهما بالفريسة ، ففى ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ هبط الأسطولان ثغر الاسكندرية ٠ ونزل منهما الأميرال الانجليزى « سيمور » والاميرال الفرنسى «كونراد»، وطلبا بوساطة قنصليهما اقالة وزارة البارودى وابعاد عرابى عن مصر ٠

ولكن انجلترا خدعت فرنسا ، وانفردت بالعمل وحدها ، فقد دعت بعد قليل الى مؤتمر أوروبى اشتركت فيه هى وفرنسا والمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا ، وأصدر هذا المؤتمر ميثاقا ســمى للسخرية « ميثاق النزاهة » وتعهدت فيه هذه الدول بالا يحتل أى

منها جزءا من أرض مصر ، وبعد ستة عشر يوما كان الانجليز ينفردون بالعمل ، ويحتلون مصر ..

ولم تغفر فرنسا لانجلترا هذه الخدعة ، فظلت مناوئه للاحتلال الانجليزى لمصر طوال العشرين عاما التالية حتى ابرم بينهما الاتفاق الودى . وسلمت انجلترا لفرنسا بحقها فى التهام المغرب العربى كما سلمت فرنسا لانجلترا بحقها فى التهام مصر .

وخلال هذه السنوات العشرين كانت السياسة الفرنسية تقوم على مناوأة انجلترا فى مصر ، فهى تصدر التصريحات التى تندد بالاحتلال ، وتدعو فى المؤتمرات الدولية الى عـــودة مصر الى الخلافة العثمانية ، وتشكك فى شرعية الوجود البريطانى ، أما فى داخل البلاد فقد كانت تشجع بعض الصحف المصرية على مهاجمة الاحتلال البريطانى ، وكان ابرز هذه الصحف هى صحيفة الأهرام ، التى كان أصحابها يتمتعون بالحماية الفرنسية .

ومن الصفحات الموجعة فى تاريخ مصر .. أن تدور لهجة بعض الصحف ، فى ذلك الحين ، حــول المفاضـلة بين الاحتلالين الانجليزى والفرنسى ، فقد دابت « المقطم » فى ذلك الوقت دفاعا عن بريطانيا وتعريضا بالفرنسيين أن تشير الى احتلال فرنســـا لتونس والجزائر ، وأن الاحتلال الانجليزى أهون من غيره بل لقد كانت تقول ذلك فعلا ، فكانت الصحف ، الفرنسية النزعة ، ترد عليها بأن الاحتلال الفرنسى أصلح من الاحتلال الانجليزى واكثر نفعا ، بل لقد وصل الأمر الى المقارنة بين قوة انجلترا وقوة فرنسا ، وكأن العبيد يفتخرون بقوة سادتهم العظماء .

تقول صحيفة « الزمان » ، احدى صحف الانجليز :

« لكل أمة علامة تعرف بها » ومن بين أمم أوروبا أمة معروفة بهوجها وهذرها ، فالفرنسيون ينقمون على الانجليز احتلالهم للقطر

المصرى وينسون انهم هم الذين اهاجوا الانجليز على التدخل فى أمور مصر وكبر عليهم ان يروا الانجليز الآن فى مصر وهم محرومون منها ، ولم يكبر عليهم انهم استولوا على تونس غصبا واختلاسا للسلطان ، نعم كبر عليهم دخول الانجليز بلادنا ولكن اى شىء صنعوا واى عهد نقضوا ، فخديوينا خديوينا ومحاكمنا محاكمنا ووزراؤنا وزراؤنا وبيدهم الحل والربط ، أما فى تونس ٠٠ فالحال تبدلت ، اذا أبى الفرنسيون الا خروج الانجليز من مصر فليبدأوا هم بالخروج من تونس » ٠

وتقول الأهرام :

« ان من ينظر فى احوال تونس لا يمكن الا ان يقر بجميل فرنسا على تلك البلاد فى البرهة اليسيرة التى حلت بها ، فلن تمر بضع سنين حتى تصبح تونس من أثرى البلاد الافريقية بعد سن القوانين وانشاء المجالس والمدارس الفرنسية » ٠

ولقد ثارت ذات مرة ملاحاة حادة بين الأهرام والمقطم حول قوتى فرنسا وانجلترا ، اذ قالت الأهرام ذات مرة أن فرنسا قوة بحرية مرموقة ، فتصدت لها المقطم متحدثة عن انجلترا سيدة البحار ودعت الأهرام بصحيفة « أضغاث الأحلام » ، وردت الاهرام بأن فرنسا لها قوة برية عظيمة ، وهكذا مضت هذه المناقشة المؤلمة المريرة ٠

وكانت فرنسا تعمل على مساعدة بعض العناصر الوطنية ٠ ولعلها استهدفت ذلك حين سمحت لمحمد عبده والأفغانى باصدار « العروة الوثقى » فى باريس : وحين استضافت يعقوب صنوع رغم اننا نشك فى نوايا هذا الرجل الوطنية ، ويغلب على ظننا انه كان عميلا فرنسيا بالمعنى الحرفى للكلمة ، فانعكس ذلك نوعا من حسن الظن بفرنسا ، واغفالا من بعض المصريين لدورها الاستعمارى المقيت

فى تونس والجزائر ، ولعل بقية من هذه الثقة الطيبة هى التى وجهت خطى مصطفى كامل الى فرنسا فى بداية كفاحه الوطنى وجعلته فى عام ١٨٩٥ يتقدم بمنشور مصور الى مجلس النواب الفرنسى يرسم فيه رمزا لفرنسا امرأة قائمة على درجات عالية لبناء عظيم ، يقف تحت قدميها جموع المصريين يستصرخونها أن تعاونهم على نيل حريتهم ، وكان تحت هذه الصورة ثلاثة أبيـــات من شعر مصطفـــى كامل وترجمتها بالفرنسية ، والأبيات هى :

افرنســـا يـــامـــن رفعـــت البلايـــا
عـــن شـــعوب تهـزهـــا ذكـــراك

انصــــرى مصـــر ، ان مصـــر بســوء
واحفظـى النيـل مـن مهـــاوى الهـلاك

وانشـــرى فـى الـورى الحقـــائق حتى
تجتلــــى الخيـــر امــــة تهـــواك

ومما يذكر انه كان مع هذه الصورة خطاب يقول فيه مصطفى كامل :

« ٠٠ ولكن مصر لما اعتراها النصب ٠٠ جـــاءت مستغيثة بفرنسا ، هذه الدولة العظيمة التى أعلنت حقوق الانسان ، والتى سارت به منذ قرن فى سبيل التقدم والمدنية ، وجاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التى حررت كل أمة من الامم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها ٠٠ فلتحى فرنسا محررة الأمم » ٠٠

هكذا كان الظن بفرنسا ، وقد يكون لمصطفى كامل بعض العذر، فهو يعلم أن فرنسا هى قائدة الثورة الكبرى التى أعلنت مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، وان الفكر الفرنسى فكر انسانى عظيم ، ولكنه لم يكن يعلم ــ حتى ذلك الوقت ــ ان للسياسة وجها غير وجه

الفكر ، وأن المصالح تتحكم فى المبادىء حتى تمحوها محوا • ولقد ادرك مصطفى كامل بلا شك حين أبرم الاتفاق الودى أن الوصول الى الاستقلال من خلال التنـــاقض بين القوتين الكبيرتين انجلترا وفرنسا ، لون من الأحلام الرومانتيكية الساذجة •

كان مصطفى لكامل فى ذلك الوقت متأثرا بما يسمى « دولية المسألة المصرية » بمعنى أنها ليست نزاعا بين الانجليز والمصريين ، ولكن القوى الدولية كلها لها رأى فى حلها وتوجيهها ، وكان متأثرا بما يقال من قوة الرأى العام العالمى فى ذلك الوقت ، ولذلك فاننا نجده يستصرخ فرنسا ، ثم ينشر مقالاته وأحاديثه فى صحف النمسا وايطاليا والمانيا بل وأمريكا ، ولكنه بعد ذلك كله لا يجد حلا الا بأن يعود الى مصر ليؤسس فيها حزبا يرجو منه أن يتولى تجميع ابناء البلاد فى كتلة وطنية واحدة • •

وقد ظن أعضاء الوفد المصرى فى عام ١٩١٩ انهم يستطيعون بهذا الطابع الدولى للمسألة المصـــرية أن يستعينوا بالأمريكيين والفرنسيين والايطاليين على الانجليز ، فبذلوا فى ذلك بعض السعى، ثم ما لبثوا أن فطنوا الى أن المسألة المصرية لا تحل الا فى الأرض المصرية • وأن الطرفين الوحيدين فيها هما شعب مصر ، والقوة الانجليزية الباغية ، وبينهما • وحدهما يدور النزال ••

عودة الى الثقافة

أرانا ابتعدنا كثيرا عن بداية الحديث ، ولكن هذا الحديث عن الصراع السياسى بين القوتين الكبيرتين على أرض مصر كان لابد له للحديث عن الصراع الثقافى ، هذا الصراع الذى قاد الى هذا السؤال :

أيهما أجدى لنا •• ثقافة السكسون أو ثقافة اللاتين ؟

وهو أيضا الصراع الذى خرجت منه مصر بثقافتها الحديثة ، التى استطاعت ، أو على الأقل طمحت الى التوفيق بين الأصـــالة والمعاصرة ، بين التراث والتأثر ٠٠

* * *

تنافس الانجليز والفرنسيون على الاستبداد بالعقل المصرى كما تنافسوا على الاستبداد بالأرض المصــرية ، وكان مجال هذا التنافس هو التعليم ومناهجه ومعاهده ٠ وشهد القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فصولا من هذه الحرب الدائرة بين رجال هاتين الدولتين فى مجـال انشاء المــدارس وتلوين مناهجهـــا ، واستهدفت اللغة العربية فى هذا الصراع الدائر لأثر اللغتين البالغ ، سواء فى عبارتها أو ألفاظها ، بل تأثرت الحياة المصرية بهذا الجانب اللغوى من الصراع أثرا ما زال يعيش بيننا الى اليوم ٠ ويكفى فى مجال اللغة والتعبير أن تقرأ عبارات مثل « وهذا الأمر يشكل خطرا على » أو « واذا وضعنا فى الاعتبار » ٠٠ أو وبالاشارة الى » أو غيرها من العبارات لتدرك تسلل هذا الاسلوب المترجم ، أما فى الحياة العامة فيكفى أن يتوقف متوقف فى أحد ميادين القاهرة أو شوارعها الهامة ليقرأ أسماء المحال التجارية والملاهى وغيرها ، فسيجد عندئذ عجبا من العجب ٠٠ سيجد اسماء فرنسية أو انجليزية لكل مايراه ، وكأن اللغة العربية ثقيلة الظل على أهلها ، جافية الوقع على ألسنتهم ٠

والواقع أن اللغة العربية لم تكن فى تلك السنوات البعيدة القريبة ٠٠ فى أوائل القرن التاسع عشر ، فى حال تستطيع فيها أن تقاوم هذا التيار الوافد ٠ فقد كانت العربية الشائعة لغة ركيكة فقيرة محصورة فى بعض الألفاظ والعبارات ٠ ومن البديهى أن اللغة الفقيرة هى سبب للفكر الفقير ونتيجة له فى الوقت ذاته ٠ فاللغة

الفقيرة لا تستطيع أن تتجاوز الآفاق الكسولة المتوارثة الى آفاق جديدة ، اذ يعوزها اللفظ والتعبير ، كما أن الفكر الفقير لا يحاول أن يبحث عن الفاظ جديدة من مدخور اللغة ومكنوزها لكى يعيد بعثها بالاستعمال ، ويزيل عنها صداها حين تدور على الألسنة والأقلام ·

والسجلات الرسمية تحفظ لنا نماذج من كتابات هذا العصر ، كما يمثل الجبرتى أسلوب هذا العصر الأدبى ، حتى اذا مضينا فى حكم محمد على ·· فسنجد أن التركية هى لغة الدواوين المعتمدة ، فاذا زاحمتها العربية دخلت مترددة ركيكة ، حتى ليقارن ولاة الأمر بين هذه اللغة التى يقرأونها ، ولغات الأجانب من حيث سلامتها وصحتها واهتمامها بمكملات الأسلوب من الترقيم والتقسيم فيوجه محمد على خطابا الى كتاب دواوينه العرب ينصحهم فيه بالتزام الصحة اللغوية والكتابية ، ولكن هذا التوجيه ذاته يكون آية فى الركاكة والقبح اللغوى ، يقول التوجيه :

« التحقيقات التى يصير استكتابها حسب الايجاب بقبول الحسابات بيصير ترقيمها بالرقم الهندى وبداعى عدم دقة ورغبة بعض الكتبة وغشومية وعدم اعتنا البعض منهم ، فبكل وقت يصير وقوع السهو والسقامة منهم بتحرير الأرقام » ·

ولن يفوت القارىء لكتابات هذا العصر ·· أن يجد الأخطاء النحوية واللغوية الشائعة حتى فى آثار أعلام الكتاب ، وسيظل كذلك حال اللغة حتى تنهض نهضتنا الباذخة فى مجال الشعر حين يحلق بها البارودى ، وفى مجال النثر حين يديرها فى أغراض الحياة العامة محمد عبده والأفغانى ومعاصروهما من الكتاب والصحفيين ·

أخذت اللغة العربية اذن عن هاتين اللغتين جملة من الأساليب

والألفاظ ، ولا نعنى بالالفاظ هنا ما اصطلح على تسـميته بألفاظ الحضارة وحدها ، مثل أسماء الآلات والمسـتحدثات العصـرية ومنتجات العلوم ، بل ألفاظا أخرى لها نظائر فى لغتنا العربية ، ولكن التيار الوافد أبعدها عن الأذهان لتحل محلها ألفاظ أوروبية البناء والأصل ٠

ولكن ذلك كله هو الجانب الهين من الأمر ، أما الجانب الآخر فهو الغالب على عصر محمد على وخلفائه حتى الاحتلال الانجليزى لمصر ، وقد استطاع الفرنسيون فى هذه الفترة أن يمدوا نفوذهم فى مجال التعليم ، وبخاصة وقد كان نابليون قد ألقى البذرة الأولـى للأثر الفرنسى فى أبان حملته على مصر ٠ وفى عهد محمد على كان لامبير الفرنسى ناظرا للمهندسخانة وكلوت بك الفرنسى ناظرا للطب ، وكانت البعثات العلمية تسافر الى فرنسا ليعود العائدون وفى نفوسهم شىء من كبير التقدير لهذا الوجـه الأوروبى الذى عرفوه ، فلا غرو عندئذ أن يترجم رفاعة الطهطاوى نشيد المارسيليز الى العربية اعجابا به ٠

الفهـرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٥٦٨/١٩٩٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2944 — 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هـذا هو الجـزء الحادى عشر والأخـير من سلسلـة الأعمـال الكاملـة لشاعـر العربيـة الكبير صـلاح عبـد الصبور . وقد شغل المقال السياسى جزءا لا يستهان به من نشاط الشاعر الفكرى فى مستهل حياته ، وهى فترة حافلة من تاريخ مصر الحـديث شهدت تـأميم القناة ومعـركة بورسعيد الخالدة ، ثم مشروع الوحدة العربية الكبير ، ثم المد التحررى فى افريقيا ومعركة الجزائر الباسلة ....

ومعظم هـذه المقالات نشـرت فى أواخر الخمسينـات ومطلع الستينات ، ولم تجمع من كتب . ولذا فأهميتها بالغة فى القاء الضوء على التوجيهات الفكرية للشاعر ..

٩٠٠ قـرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب